

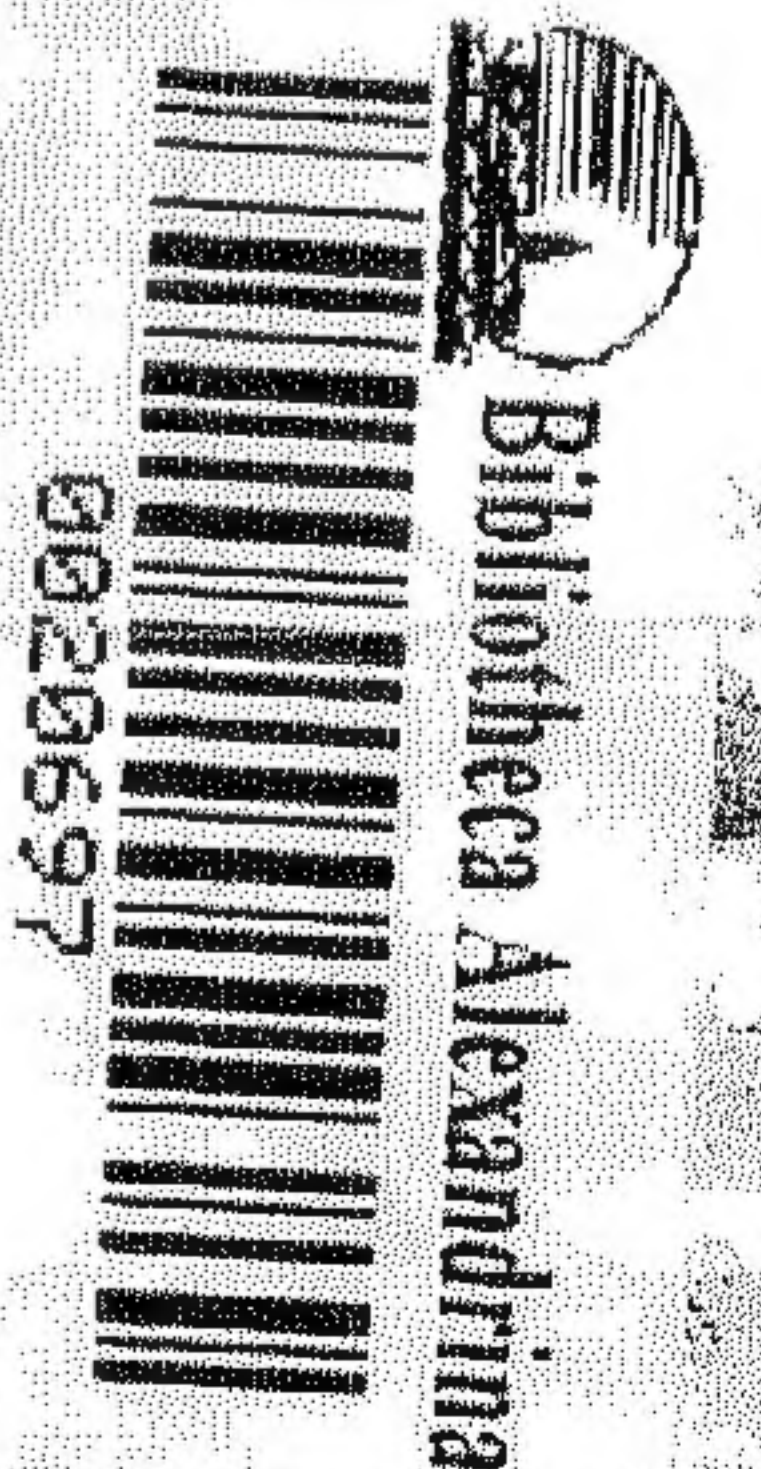
الدكتور أمجد فؤاد سيّد

الأمم والقانون في مصر

تفسير جديد



الدار المصرية اللبنانية



الملك المظفر طاهر بن محمد
نفسه جدي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م



الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع ميدان لوت - تل أبيب ٢٢٢٢٢٥ - ٢٢٢٢٧٢ - فاكس: ٢١٠٩٦١٨ - ورقيا: دار خلدو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIYAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 AND EL KHALEK SARWAT B. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 30470-30325 FAX: 30650 CABLE DAKSHADO

العلم والعاطفة في نصرة

نفسه حبيدي

الدكتور أمجد فؤاد سيّد

١



الناشر
دار الصحف رتبة اللبنانية

فهرست الموضوعات

صفحة	
٢٧ - ١٣	المقدمة
٥٠ - ٢٩	مدخل - الإسماعيلية المبكرة
٤٠ - ٣٢	نسب الفاطميين
٥٠ - ٤١	الدعوة الإسماعيلية حتى إعلان الخلافة الفاطمية

الكتاب الأول

التاريخ السياسي

٦٧ - ٥٣	الفصل الأول - قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا
٥٥ - ٥٣	العالم الإسلامي في مطلع القرن الرابع الهجري - عصر انتصار الشيعة
٥٧ - ٥٥	الصعوبات التي واجهت الفاطميين في إفريقية
٥٧ - ٥٦	المقاومة السنّية
٥٨	محاولات الفاطميين فتح مصر
٦٢ - ٦٠	المُعزّ لدين الله وتحقيق هدف الفاطميين
٦٣ - ٦٢	فعالية الدعاية الفاطمية
٦٤ - ٦٣	الفاطميون يضمنون ولاء الشمال الإفريقي
٦٧ - ٦٤	حالة مصر الداخلية قبل الفتح الفاطمي
٩٥ - ٦٩	الفصل الثاني - إنتقال الخلافة الفاطمية إلى المشرق
٧١ - ٦٩	مقدمات الفتح
٧٣ - ٧١	فتح مصر
٧٥ - ٧٤	الفاطميون في مصر

صفحة	
٨٧ - ٧٥	ولاية جَوْهَر القائد
٨٠ - ٧٨	إصلاحات جوهر
٨٠ - ٧٨	١ - الدينية
٨١ - ٨٠	٢ - الاقتصادية
٨٢ - ٨١	٣ - النقدية
٨٢	تأمين الحدود
٨٤ - ٨٣	١ - النوبة
٨٦ - ٨٥	٢ - فتح الشام
٨٧ - ٨٦	٣ - الحرب القرمطية الأولى
٨٨ - ٨٧	المُعِزّ لدين الله يصل إلى القاهرة
٩٢ - ٨٩	سياسة الفاطميين تجاه المصريين
٩٣ - ٩٢	المُعِزّ لدين الله وولاية عهده
٩٥ - ٩٤	الخليفة العزيز وإرساء دعائم الدولة
١٢٣ - ٩٧	الفصل الثالث - التوسُّع ومناقشة قضية الحاكم بأمر الله
٩٩ - ٩٧	الصِّراع بين الأتراك والمغاربة
١٠٠ - ٩٩	دكتاتورية الحاكم
١٠١ - ١٠٠	الاعتدال
١٠٣ - ١٠٢	اضطهاد أهل الذِّمة
١٠٥ - ١٠٣	النَّواهي
١٠٦ - ١٠٥	سياسة الحاكم الدينية وموقفه من معاونيه
١٠٧	تساهل الحاكم في أصول العقيدة الإسماعيلية
١٠٨	الحاكم يُعَيِّن عبد الرحيم بن إلياس ولياً لعهده
١٠٩	تَصَوُّف الحاكم
١١١ - ١١٠	ألوهية الحاكم وتحقيق فكرة الملك الإله
١١٢ - ١١١	حريق القسطنطين الأول
١١٥ - ١١٣	الحاكم يُفَكِّر في نقل الحج إلى مصر
١١٧ - ١١٦	نهاية الحاكم

١١٨ - ١١٧	سَيِّدَةُ الْمَلِكِ تُدَبِّرُ شُئُونَ الدَّوْلَةِ
١٢٣ - ١١٩	خِلَافَةُ الظَّاهِرِ لِإِعْزَازِ دِينِ اللَّهِ وَتَوْطِيدِ الْعِلَاقَاتِ مَعَ بِيْزَنْطَةِ
١٤١ - ١٢٥	الفصل الرابع - المواجهة العباسية الفاطمية
١٢٥	خِلَافَةُ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ
١٢٨ - ١٢٦	ظُهُورُ السَّلَاجِقَةِ
١٢٩	الاستراتيجية الشرقية للفاطميين
١٣١ - ١٢٩	المنافسة التجارية
١٣٤ - ١٣١	المواجهة الحربية
١٤١ - ١٣٤	سوء الأحوال الداخلية في أول عهد المستنصر
١٣٦ - ١٣٥	أُمُ الْمُسْتَنْصِرِ تُتَحَكَّمُ فِي الدَّوْلَةِ
١٣٩ - ١٣٧	الصِّراع بين الأتراك والسودان والأزمة الإدارية
١٤١ - ١٣٩	الأزمة الاقتصادية أو الشدة العُظْمَى
١٦٥ - ١٤٣	الفصل الخامس - بدر الجمالي وبداية نفوذ الوزراء
١٤٦ - ١٤٣	بدر الجمالي مُنْقِذُ الدَّوْلَةِ
١٥٠ - ١٤٦	انفراد بدر الجمالي بالسلطة وبداية النظام العسكري
١٥١ - ١٥٠	الإصلاحات الإدارية لنظام بدر الجمالي
١٥٢ - ١٥١	الأفضل بدر الجمالي يشارك والده السلطة
١٥٣	ديكتاتورية الأفضل بن بدر الجمالي
١٥٨ - ١٥٤	الانقسام الأول للدعوة الإسماعيلية
١٥٦	الإسماعيلية الجديدة
١٥٧	المُسْتَعْلِيَّة
١٥٩	العباسيون يعاودون مهاجمة الفاطميين
١٥٩	مقدمات الغزو الصليبي
١٦٠	الآمر بأحكام الله يتولى الخلافة
١٦٢ - ١٦٠	الأفضل ينقل مقر الحكم إلى القسطنطينية
١٦٤ - ١٦٢	مقتل الأفضل
١٦٥ - ١٦٤	تركة الأفضل

صفحة	
١٦٧ - ١٨٨	الفصل السادس - نهاية الاستقار
١٦٧ - ١٦٩	وزارة المأمون البطائحي
١٦٩	إنجازات المأمون البطائحي
١٧٠	تجديد الاحتفالات والرسوم
١٧١	إعادة تعمير العاصمة
١٧٢	المأمون يواجه مؤامرات النزارية
١٧٣	عزل المأمون وقلته
١٧٤ - ١٧٦	الآمر يستقل بالأمر
١٧٦	مقتل الأمر
١٧٧ - ١٨٣	انقلاب أبي على الأفضل
١٨٤	الحافظ يعود إلى الحكم
١٨٤ - ١٨٨	الدعوة الطيبية
١٨٩ - ٢٠٥	الفصل السابع - بداية التدهور
١٨٩ - ١٩٢	الحافظ وأولاده
١٩٢ - ١٩٧	وزارة بهرام الأرمي
١٩٥ - ١٩٧	الاستنجد برضوان بن ولخشي ونهاية بهرام
١٩٨ - ٢٠٤	رضوان بن ولخشي وبداية الإصلاح السني
٢٠١	الإصلاح السني
٢٠٤	اعتقال رضوان
٢٠٤ - ٢٠٥	الحافظ يمتنع عن اتخاذ وزراء
٢٠٧ - ٢٢٠	الفصل الثامن - الاضمحلال
٢٠٧	الصراع على منصب الوزارة
٢٠٨	وزارة ابن مصال
٢٠٨ - ٢١٠	وزارة العادل بن السلار
٢١٠ - ٢١٢	المؤامرات وضعف الخلافة
٢١٢ - ٢١٣	وزارة عباس الصنّهاجي وفقد هبة الخلافة
٢١٤ - ٢٢٠	طلّاح بن رزّيك آخر وزراء الفاطميين الأقوياء

صفحة	
٢١٩	أطماع الصالح طلائع
٢٢٠	وزارة العادل بن رُزَيْك
٢٢١ - ٢٤٢	الفصل التاسع - النهاية وانقلاب صلاح الدين
٢٢١ - ٢٢٣	الصُّراع بين شاور وضرغام
٢٢٣	حملة شيركوه الأولى على مصر
٢٢٤ - ٢٢٧	شاور يعود إلى الوزارة
٢٢٧	حملة شيركوه الثانية
٢٢٨	فرسان الفرنج يدعون عموري لغزو مصر
٢٣٠	حريق القسطنطينية الثانية
٢٣١	حملة شيركوه الثالثة
٢٣٢	نهاية شاور
٢٣٣	شيركوه وزيراً للفاطميين
٢٣٤ - ٢٤٢	صلاح الدين على رأس السلطة في مصر
٢٣٤	صلاح الدين وزيراً رغباً عنه
٢٣٥	مؤامرة مؤتمن الخلافة
٢٣٦	مهاجمة الفرنج لدمياط
٢٣٧ - ٢٣٩	إنقلاب صلاح الدين وإصلاحاته السنية
٢٣٩	الخطبة للعباسيين وسقوط الفاطميين
٢٤٠	نور الدين وموقفه من مصر
٢٤١	نهاية الفاطميين
٢٤٢	محاولة إعادة الدولة الفاطمية

الكتاب الثاني

النظم والحضارة

٢٤٧ - ٢٩٠	الفصل العاشر - نظم الحكم والإدارة
٢٤٨ - ٢٥٤	النظام السياسي
٢٤٨ - ٢٥٠	الإمام (الخليفة)

صفحة	
٢٥٤ - ٢٥٠	الوزارة
٢٦٧ - ٢٥٥	النظام الإدارى
٢٦٧ - ٢٥٧	الدواوين الفاطمية
٢٦٣ - ٢٦٠	ديوان الحُجُلس وديوان النُّظَر
٢٦٣	ديوان التحقيق
٢٦٥	الديوان الخاص
٢٦٦	ديوان الرِّسائل أو ديوان الإنشاء والمكاتبات
٢٧٦ - ٢٦٧	النظام القضائى
٢٧٩ - ٢٧٦	النظام الدينى
٢٩٠ - ٢٧٩	النظام الحرنى
٢٨٧ - ٢٧٩	الجيش
٢٩٠ - ٢٨٧	الأسطول
٣١٨ - ٢٩١	الفصل الحادى عشر - النُّشَاطُ الاقْتِصادى
٢٩٥ - ٢٩١	الزراعة
٢٩٧ - ٢٩٦	الصُّنَاعَة
٣١٢ - ٢٩٨	التجارة
٢٩٩	الفسطاط والإسكندرية مراكز التجارة فى العصر الفاطمى
٣٠١	ثراء الفُسطاط فى العصر الفاطمى
٣٠٢	التجار الأجانب فى الفُسطاط
٣٠٤	وكلاء التجار بالفُسطاط
٣٠٧ - ٣٠٥	اتصال القاهرة بالفُسطاط
٣١٢ - ٣٠٨	التجارة الكارمية
٣١٦ - ٣١٣	الطوائف الحرفية
٣١٨ - ٣١٧	الدِّينار الفاطمى
٣٦٣ - ٣١٩	الفصل الثانى عشر - النُّظام الضَّرائى للفاطميين
٣٢٠	الضرائب
٣٢١	الموارد الشرعية

صفحة	
٣٢٢	الموارد غير الشرعية
٣٢٦ - ٣٢٤	نظام الضمان
٣٣٦ - ٣٢٦	المال الخراجي
٣٣٦ - ٣٢٦	الخراج
٣٣٣ - ٣٢٨	نظام القبالة
٣٣٦ - ٣٣٤	جباية الخراج
٣٥١ - ٣٣٦	المال الهلالي
٣٤٠ - ٣٣٦	الجوالي
٣٤٢ - ٣٤٠	الزكاة - التجوى
٣٤٤ - ٣٤٢	الرّباع
٣٥١ - ٣٤٤	ما يُستأذى من تجار الروم أو الخمس الرومي
٣٥٠	المتجر
٣٦٣ - ٣٥١	الموارد غير المنتظمة
٣٥٣ - ٣٥١	المُصادرة
٣٥٧ - ٣٥٣	الموارث الحشرية
٣٦٢ - ٣٥٧	الأخباس
٣٦٣ - ٣٦٢	متحصل دار الضرب ودار العيار
٣٨١ - ٣٦٥	الفصل الثالث عشر - الحياة الاجتماعية
٣٦٩ - ٣٦٥	بناء المجتمع
٣٦٩	ثرف الحياة الاجتماعية
٣٧٣ - ٣٧٠	المواكب الاحتفالية زمن الفاطميين
٣٧٢	ميزانية الاحتفالات الفاطمية
٣٧٣	الخلع والتشريف
٣٧٧	الأسمطة
٤٣٠ - ٣٨٣	الفصل الرابع عشر - النشاط العلمي والثقافي
٣٨٨ - ٣٨٣	دار العلم وبدايات المدارس
٣٨٣	دار العلم

صفحة	
٣٨٧	المدارس
٤٣٠ - ٣٨٨	الفنون والآثار
٤٠٠ - ٣٨٨	العمارة
٤٣٠ - ٤٠٠	الفنون الفرعية
٤٣٢ - ٤٣١	الخاتمة
٤٥٥ - ٤٣٣	ثبت المصادر والمراجع وبيان طبعتها
٤٤٧ - ٤٣٣	المصادر
٤٥٠ - ٤٤٧	المراجع العربية
٤٥٤ - ٤٥٠	المراجع الأجنبية
٤٥٥	الرموز والاختصارات
٤٧٨ - ٤٥٧	فهارس الكتاب
٤٦٦ - ٤٥٩	الأعلام
٤٧٢ - ٤٦٦	الأماكن والمواضع والبلدان
٤٧٨ - ٤٧٢	المصطلحات وأسماء الدواوين

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

- ١ -

رغم كثرة ما كُتِبَ عن الفاطميين ، سواء بالعربية أو اللغات الأوربية ، فإن عددًا قليلًا من هذه الدراسات يمكن الرجوع إليه والاعتماد عليه بثقة واطمئنان ، فقد اعتمدت أغلب هذه الدراسات على المصادر المتأخرة واكتفت باستعادة معلومات ذات طابع عام دون مناقشة للأصول أو تفسير واسع لسير الأحداث .

ومع ذلك فإن الخطوط العريضة والحقائق المتعلقة بتاريخ الفاطميين تكاد تكون معروفة ، وأصبحت مهمة الباحث في التاريخ الفاطمي مهمة صعبة ، فعليه أن يجمع كل المصادر المتوافرة ويتعرف من خلالها على المصادر المبكرة أو التي ترجع حقيقة إلى العصر الفاطمي ويعرض من خلالها تاريخًا صحيحًا للدولة يقوم على أساس تفسير هذه الأحداث وتحليل الظواهر الرئيسية للتاريخ الفاطمي .

فالدولة الفاطمية تعد نموذجًا واضحًا للدولة الشيوعية في التاريخ الإسلامي ، قامت على أساس ادعاء إيصال نسب أصحابها إلى النبي ﷺ عن طريق السيدة فاطمة والإمام علي . ويتّصف تاريخ الحركة الإسماعيلية ، طوال المائة عام الأولى التي أعقبت وفاة الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٨/ ٧٦٥ ، بالغموض . واعتمدت هذه الحركة على نشاط مكثف للدعاة السريين الذين انتشروا في أرجاء العالم الإسلامي يدعون إلى قرب ظهور الإمام المهدي من آل فاطمة . ولكن

ابتداءً من النصف الثاني للقرن الثالث/ التاسع ، بعد دخول الإمام محمد بن الحسن العسكري آخر الأئمة الإثني عشرية في السرداب سنة ٢٥٥ / ٨٦٩ ، أصبحت الحركة الإسماعيلية هي الجناح الثوري الأكبر أهمية للشيعة ، وظهرت كحركة ديناميكية ومنظمة مركزية اكتسبت سريعاً شهرة فاقت بكثير شهرة أية حركة شيعية أخرى في هذه الفترة .

وفي السنوات الأخيرة للقرن الثالث الهجري نجحت الحركة الإسماعيلية في إقامة دولة قوية في إفريقية هي « الخلافة الفاطمية » التي هددت لفترة أكثر من مائتي عام وضع العديد من الأسرات الحاكمة في العالم الإسلامي ، كما اعتبر أئمتهم الخلفاء العباسيين مغتصبين لحقهم الشرعي في حكم هذا العالم .

ولاتحدّثنا المصادر الإسماعيلية والفاطمية إطلاقاً عن (الإسماعيليين) أو (الفاطميين) ، وهو مصطلح لانجده إلا في كتب الفرق والعقائد وعند المؤرخين . فقد أطلق المؤرخون على الدولة التي قامت في شمال إفريقيا في أواخر القرن الثالث اسم « الدولة الفاطمية » . أما كتب الدعوة نفسها والسجلات الرسمية فتطلق على الدعوة اسم « الدعوة الهادية » أو « دعوة الحق » . أما مصطلح « الفاطميين » فرمما نشأ ابتداءً من عهد الإمام عبد الله المهدي بقصد تأكيد انتسابهم أولاً إلى السيدة فاطمة ابنة النبي ﷺ ثم إلى السيدة فاطمة زوجة الإمام جعفر الصادق وأم ولديه إسماعيل وعبد الله اللذين ينتسب إليهما الإسماعيليون .

وبينما جاء انتصار العباسيين سريعاً وحاسماً واستقروا في الحكم طوال خمسمائة عام ، فقد استغرق انتصار الفاطميين وقتاً أطول كما أن هذا الانتصار لم يكتمل أبداً . وبينما قطع العباسيون كذلك صلاتهم بالدعوة ورجالها فور استيلائهم على السلطة ، فإن الفاطميين لم يستطيعوا الانفصال عن « الدعوة » لأنه كان لايزال

يُنْتَظَرُ منها الكثير ، وكانت بمثابة السُّلَاحِ الإيديولوجي للحركة . فقد كان هدفهم إرساء دعائم المذهب الإسماعيلي والإمامة الفاطمية في كل العالم الإسلامي .

ولم تكن إفريقية ، حيث أُعْلِنَ قيام الخلافة الفاطمية ، لتفى بغرض الفاطميين وتُحَقِّقَ أحلامهم ، فقد كانت أنظارهم تتجه دائماً إلى الشرق . ولجأوا في سبيل ذلك إلى الدعاية السياسية ضد العباسيين والأمويين على السواء ، ونشطت هذه الدعاية في أيام المُعِزِّ لدين الله وعبر عنها بوضوح شاعرهم ابن هانيء الأندلسي .

وقد تحققت أعظم انتصارات الفاطميين على يد المُعِزِّ لدين الله ، فلا شك أن فتحهم مصر في سنة ٣٥٨ / ٩٦٩ هو أعظم إنجازاتهم التي حَفَظَتْ لهم مكاناً بارزاً في التاريخ . وفي مصر أنشأ الفاطميون عاصمة جديدة ، هي « القاهرة » ، تُعَبِّرُ عن كيانهم وعن اتجاهاتهم ، وكانت آمالهم ومحاولاتهم التوسُّعية تتجه دائماً إلى الشرق وكان هدفها الأول أراضى الخلافة العباسية .

ورغم أن الفاطميين كانوا وهم بإفريقية بحاجة إلى « عَصَبِيَّة » تمثلت في قبيلة كُتَّامَة ، فقد اختلف الوضع في مصر حيث انفصلوا عن مجموع سكان الشعب وقربوا أهل الذُّمَّة .

وطوال المائة عام الأولى من التاريخ الفاطمي في مصر ، لم يحاول الفاطميون اتخاذ إجراءات حاسمة لتحقيق حلمهم في حكم العالم الإسلامي وتكوين الإمبراطورية العالمية التي حلموا بها ، بل إن أئمتهم شغلوا أنفسهم بمشاكل عقائدية وطموحات شخصية خاصة في عهد الحاكم بأمر الله . كما أن النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر بالله الطويل شهد أسوأ أزمة اقتصادية عرفت في مصر في العصور الوسطى ، بالإضافة إلى فوضى إدارية شاملة وحروب أهلية هددت الأمن والاستقرار الذي عرفته مصر في العقود الأولى للقرن الخامس / الحادي عشر ، وتطلَّبت الاستعانة بقائد عسكري قادر على حفظ الأمن وإعادة النظام .

ومع ذلك فقد ظلّ الفاطميون لفترة غير قصيرة ، خلال النصف الأول للقرن الخامس / الحادى عشر ، أكبر قوة في العالم الإسلامى . فقد وصلت الإمبراطورية الفاطمية في أوائل حكم المستنصر إلى أقصى اتساع لها وكانت تضم مصر والشام وشمال إفريقيا وصقلية والشاطئ الإفريقى للبحر الأحمر والحجاز ، بما فيه مكة والمدينة ، واليمن وعمان والبحرين والسند وإن كان القسم الأكبر من هذا التوسع قد تم عن طريق الدعاة ولم يكن للقوات الفاطمية أى دور فيه ، ولكنها سرعان ما هوت بعد ذلك ، فعند موت المستنصر سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ كانت الدعوة الإسماعيلية قد تمزقت إلى أجزاء .

وبوصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة في مصر سنة ٤٦٧ / ١٠٧٤ بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الدولة الفاطمية ، وأصبح « أمير الجيوش » - وهو اللقب الذى اتخذه وزراء التفويض أرباب السيوف - هو السيد الحقيقى لمصر ، وأصبح الخلفاء الفاطميون مجرد رؤساء صوريين لسلسلة متتابعة من الطغاة العسكريين ، مثلما أضحي الخلفاء العباسيون في بغداد بمثابة دمية عاجزة في أيدي حماهم من البوهيين والسلاجقة . فمئذ عهد الحاكم بأمر الله ، الذى اتسمت سياسته بالاستبداد ، لم يحاول أى خليفة أن تكون له سلطة مباشرة في شئون الدولة ، إذا استثنينا الخليفة الأمر بأحكام الله ، الذى حاول أن يكون وزير نفسه بمساعدة الراهب ابن قنا .

وفي أعقاب وفاة المستنصر انقسم الإسماعيليون إلى « مُستعلية » و « نزارية » ، وحتى سنة ٥٢٤ / ١١٣٠ اعتُبر إسماعيلية مصر والشام واليمن ، الذين عرفوا « بالمُستعلية » ، فريقاً واحداً يتميز عن « النزارية » ، الذين انتشروا في فارس . ولكن بعد وفاة الخليفة الأمر بأحكام الله في هذه السنة دون وريث وإعلان الحافظ نفسه خليفة في سنة ٥٢٦ / ١١٣٢ ظهر انشقاق جديد في الطائفة المُستعلية التى انقسمت إلى « حافظة » و « طيبة » .

ومنذ اعتلاء الحافظ كرسي الخلافة أصبح تاريخ الفاطميين تاريخاً محلياً ، فقد

فقد الفاطميون كل ممتلكاتهم خارج مصر فيما عدا عسقلان التي لم تلبث أن سقطت في أيدي الفرنج سنة ١١٥٣/٥٤٨ ، وكان حكام عَدَن الزُّرَّيعِينَ الوحيدين الذين يقيمون الدَّعْوَةَ لخلفاء مصر ، وأصبح تاريخ الفاطميين صراعًا داخليًا بين ولاية الأقاليم حول منصب الوزارة حيث أصبح الوزير هو السيّد الفعلي للبلاد . وتعكس لنا هذا الوضع الوثائق التي وصلت إلينا وترجع إلى هذه الفترة ، حيث أصبح الكثير من العرائض والشكاوى Petitions ترفع إلى الوزير وليس إلى الخليفة^١ .

وإلى هذه الفترة يرجع بداية استعانة الوزراء بملوك وأمراء الدول المجاورة من السُّنَّة والفرنج لتمكينهم من الحكم أو مساندة بعضهم ضد بعض ، مما أدى إلى تطلع هذه القوى إلى الاستيلاء على مصر ، حتى نجح صلاح الدين في وضع نهاية للدولة الفاطمية سنة ١١٧١/٥٦٧ وأعاد مصر مرة أخرى إلى دائرة الأقاليم التي يحكمها السنيون .

ورغم النجاح والتوسُّع الذي حقَّقته الدولة الفاطمية في القرن الخامس/الحادي عشر فنستطيع القول أن الجيش الفاطمي لم يُخْتَبَر على الإطلاق بعد فتح مصر والشام وحرب القرامطة ، ولم يدخل هذا الجيش في أية مواجهة حقيقية خارج حدود مصر ، فقد جاء هذا الامتداد والتوسُّع الذي حقَّقته الدولة عن طريق الدُّعَاة والدعاية الدينية والسياسية .

وإذا كانت الدولة الفاطمية دولة ثيوقراطية ذات إيديولوجية خاصة وكان هدفها بسط نفوذها وسيادتها على كل الأراضي الإسلامية ، فمع ذلك لا نجد واحدًا من خلفائهم أدَّى فريضة الحج رغم حرصهم الشديد على إقامة الدعوة لهم على منابر مكة والمدينة ، وإنما وجَّهوا اهتمامهم إلى إحياء بعض المظاهر الإسلامية بفخامة وبذخ داخل عاصمة ملكهم .

^١ Stern, S. M., " Three Petitions of the Fatimid Period " Oriens 15 (1962), p. 184 .

- ٢ -

تُعَدُّ الفترة الفاطمية واحدة من أكثر فترات التاريخ الإسلامى غناءً بالوثائق والمصادر التاريخية ، ولكن العديد من هذه المصادر ، التى كتبت فى زمن الفاطميين ، فقد اليوم للأسف الشديد وإن كان قد عُرِفَ للمؤرخين المتأخرين الذين حفظوا لنا أغلب ما نعرفه عن التاريخ الفاطمى . لذلك فقبل مرحلة التأليف يجب على الباحث أن يُحدِّد المصادر التى وصلت إلينا من العصر الفاطمى وتلك التى ترجع حقيقة إلى هذا العصر وحفظها لنا المؤرخون المتأخرون . ونظرة عامة على هذه المصادر تُظهر لنا أن تقسيم المصادر الفاطمية غير متكافئ ؛ ففيما يخص الدور الإفريقى نجد أن مؤلفى القاضى النعمان بن حَيُّون (المتوفى سنة ٩٧٣/ ٣٦٣) « افتتاح الدعوة » و « المجالس والمسايرات » وكذلك « سيرة الأستاذ جَوْدَر » لأبى على منصور العزبى الجَوْدَرى (المتوفى بعد سنة ٩٨٠ / ٣٧٠) أهم مصادر هذه الفترة . أما بالنسبة لتاريخ الفاطميين فى مصر فإننا نملك معلومات مُفصَّلة عن فترة خلافة كل من المُعِزِّ والعزير والحاكم وأوائل عصر الظَّاهر بفضيل مؤرخين من أمثال : ابن زولاق (المتوفى سنة ٩٩٦ / ٣٨٦) والمُسَبِّحى (المتوفى سنة ١٠٢٩ / ٤٢٠) ويحيى بن سعيد الأنطاكى (المتوفى سنة ١٠٦٦ / ٤٥٨) . أما فترة خلافة المستنصر بالله على طولها وأهميتها والتى تُمثِّل نقطة تَحَوُّل خطيرة فى تاريخ الدولة ، فإن مصادرها قليلة ومفقودة تتمثِّل فى مؤلَّفات القُضاعى (المتوفى سنة ١٠٦٢ / ٤٥٤) وصاحب « الذُّخائر والتحف » و « سيرة المستنصر » و « سيرة اليازورى » التى لا نعرف أسماء مؤلفيها ، بالإضافة إلى مصدر فارسى لم يعرفه المؤرخون المتأخرون هو « سَفَرَنامه » ، رحلة الرَّحالة الفارسى ناصرى خسرو . وقد عَوَّضَت المصادر المادية والسُجَلَّات الرسمية ، وخاصة قرب نهاية عهد المستنصر ، نُقص المصادر الأدبية لهذه الفترة .

وعلى العكس من ذلك فإن تاريخ الفاطميين المتأخرين قد رُوي بعد فترة قصيرة من سقوط دولتهم نقلًا عن مصادر مفقودة مثل « تاريخ خلفاء مصر » للمرتضى المُحَنِّك (المتوفى سنة ٥٤٩ / ١١٥٤) و « تاريخ » ابن المأمون (المتوفى سنة ٥٨٦ / ١١٩٠) ، كما وصلت إلينا من هذه الفترة مؤلفات هامة لابن الصَّيرَفِي (المتوفى سنة ٥٤٢ / ١١٤٧) وابن القَلَانِسِي (المتوفى سنة ٥٥٥ / ١١٦٠) وعمارة اليمنى (المتوفى سنة ٥٦٩ / ١١٧٣) وأسامة بن مُنْقِذ (المتوفى سنة ٥٨٤ / ١١٨٨) .

ووصَفَ « النظام المالى والإدارى » و « رسوم الفاطميين » فى آخر عهد الدولة مؤلفون عاشوا فى آخر عهد الدولة الفاطمية وأوّل عهد الدولة الأيوبية وخدموا فى دواوين الدولتين مثل : المَحْزُومِي (المتوفى سنة ٥٨٥ / ١١٨٩) وابن مَمَاتِي (المتوفى سنة ٦٠٦ / ١٢٠٩) وابن الطُّوَيْر (المتوفى سنة ٦١٧ / ١٢٢٠) والنايِلْسِي (المتوفى سنة ٦٣٢ / ١٢٣٤) وكذلك ابن المأمون . كما سجّل تاريخهم السياسى مؤرخون من أمثال ابن ظافر الأزدي (المتوفى سنة ٦١٢ / ١٢١٥) ويحيى بن أبى طيّ (المتوفى نحو سنة ٦٣٠ / ١٢٣٣) وابن الأثير الجَزَرِي (المتوفى سنة ٦٣٠ / ١٢٣٣) وأبى شامة المقدسى (المتوفى سنة ٦٦٥ / ١٢٦٧) وابن سعيد المغربى (المتوفى سنة ٦٨٥ / ١٢٨٦) والنُّوَيْرِي (المتوفى سنة ٧٣٢ / ١٣٣١) وابن أَيْلَك الدَّوَادَارِي (المتوفى نحو سنة ٧٣٦ / ١٣٣٥) .

ولاشك أن أهم مؤرخ أرّخ لتاريخ الفاطميين المتأخرين ، ووصل إلينا مختصر لكتابه هو تاج الدين ابن مُيَسَّر (المتوفى سنة ٦٧٧ / ١٢٧٨) الذى كان مصدرًا أساسيًا لكل من النُّوَيْرِي والمقرئزى وابن حَجَر العَسْقَلَانِي . كما أن كتاب « وفيات الأعيان » لابن خَلِّكان (المتوفى سنة ٦٨١ / ١٢٨٢) مليء بفقرات مُطَوَّلَة عن تاريخ الفاطميين رغم كونه كتاب فى التراجم .

وللمصادر الإفريقية قيمة كبيرة فى دراسة تاريخ الفاطميين ، وخاصة

فيما يتعلق بعلاقات الفاطميين بشمال إفريقيا ، مثل مؤلفات ابن حمّاد الصنّهاجى (المتوفى سنة ٦٢٦ / ١٢٣٠) وابن القَطّان (المتوفى في القرن السابع) وابن عِذارى (المتوفى سنة ٧١٢ / ١٣١٣) .

ولاجدال في أن مؤلفات المؤرخين المصريين في القرن التاسع/الخامس عشر هي أوسع وأشمل المصادر التي وصلت إلينا عن تاريخ الفاطميين . وتستمد هذه المؤلفات أهميتها من اعتمادها على أغلب المصادر السابق ذكرها والتي فُقدت اليوم . ويأتى على رأس هؤلاء المؤرخ المغربى ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ / ١٤٠٦) وابن الفُرات (المتوفى سنة ٨٠٧ / ١٤٠٤) وابن دُقماق (المتوفى سنة ٨٠٩ / ١٤٠٦) والقلّقشندى (المتوفى سنة ٨٢١ / ١٤١٨) والمَقْرِزى (المتوفى سنة ٨٤٥ / ١٤٤١) وابن حَجَر العسقلانى (المتوفى سنة ٨٥٢ / ١٤٤٨) وأبو المحاسن بن تَغْرِى بردى (المتوفى سنة ٨٧٤ / ١٤٧٠) وأخيراً ابن إِيّاس (المتوفى سنة ٩٣٠ / ١٥٢٤) .

وتمثّل مؤلفات تقي الدين أحمد بن على المَقْرِزى (المتوفى سنة ٨٤٥ / ١٤٤١) بين هذه المصادر قيمة خاصة . فلم يشعر المشتغلون بالتاريخ الفاطمى أنهم أمام مادة أصلية يمكن الاعتماد عليها باطمئنان إلا بعد اكتشاف النسخة الكاملة لكتاب « انعاظ الحنفا » للمَقْرِزى المحفوظة في استامبول^٢ . ورغم أننا نملك مؤلفاً آخر للمَقْرِزى عرفته الأوساط العلمية قبل أكثر من قرن هو كتاب « المَواعِظ والاعتبار » المعروف « بالخطّ » ، فإن المادة التي يقدمها لنا في « الانعاظ » عن تاريخ الدولة الفاطمية تختلف كثيراً من ناحية العرض والقيمة . فلا يمكن بأى حال اعتبار مُصنّفه سرداً بسيطاً للأحداث التاريخية ، فقد جهد المَقْرِزى في إطار

^٢ كان ذلك في سنة ١٩٣٦ راجع ، Cahen, Cl., "Les chroniques arabes concernant la Syrie, L'Egypte et la Mesopotamie", REI X (1936), p. 352 ولم تنشر هذه النسخة كاملة إلا بين سنتي ١٩٦٧ و ١٩٧٢ في ثلاثة أجزاء ، الجزء الأول بتحقيق جمال الدين الشيال والثاني والثالث بتحقيق محمد حلمي محمد أحمد وصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

ذلك المصنّف أن يقدم لنا عرضاً جيداً لتاريخ الدولة الفاطمية منذ ظهورها في إفريقيا في نهاية القرن الثالث/التاسع وحتى سقوطها في مصر في أواسط القرن السادس/الثاني عشر اعتماداً على المصادر المعاصرة التي كُتبت في عصر الدولة أو بعد سقوطها بقليل .

ومازال عددٌ من مصادر المقرئى في « الاتعاظ » مجهولاً لنا ، ولكن في الحالات التي أمكن فيها تحقيق روايته في أصولها تبين لنا أن المقرئى أهلاً للثقة بصورة تجعلنا نعتمد عليه اعتماداً كاملاً حتى في الحالات التي نجعل فيها جهلاً تاماً المصادر التي استقى منها مادته . ولكن العيب الموجود لدى المقرئى هو أنه يبدو أحياناً من الصعوبة تحديد بداية النقل ونهايته ، في الحالات التي يذكر فيها مصادره ، فهو لم يلتزم كثيراً بالقواعد الصارمة التي اتبعها النقلة التقليديون . فهو يُهمل عادة ، وخاصة في « الاتعاظ » ، الإشارة إلى مصادره أو تحديد النصوص التي نقلها بوضوح .

وللمقرئى مؤلف آخر في تراجم أهل مصر هو « المُقَفَى الكبير » لم يصل إلينا منه سوى أربعة أجزاء منها ثلاثة بخط المقرئى نفسه ، تحوى الحروف من الألف إلى الخاء وبعض حرف العين والمحمدين . وتشتمل تراجمه لرجال العصر الفاطمي في هذا الكتاب على تفاصيل دقيقة قد لانجدها في « الخطط » أو « الاتعاظ » عن تاريخ هذه الفترة^٢ .

ويعتبر الداعى عماد الدين إدريس بن حسن الأنف (المتوفى سنة ٨٧٢ / ١٤٦٧) أكبر مؤرخ للدعوة الإسماعيلية ، ويُعدّ كتابه « عيون الأخبار وفنون الآثار » أشمل كتاب في تاريخ الحركة الإسماعيلية يمثل وجهة نظر الدعوة . وهذا الكتاب ، الذي مازال جزؤه السابع المتعلق بتاريخ الفاطميين في مصر واليمن مخطوطاً ، لم يُستفد

^٢ لتفاصيل أكثر عن مصادر تاريخ الفاطميين راجع مقال : « دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين في مصر » ، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٨٢ ، ١٢٩ -

منه بعد الاستفادة الحقيقية لندرة نسخه التي تحتفظ بها مكتبات الدعوة في اليمن والهند ، رغم أنه لا يخلو أحياناً من المحاباة والتحفظ وعدم التمييز بصورة واضحة بين المصادر الإسماعيلية والمعادية للإسماعيلية .

أما المصادر الشامية والعراقية فلا يمكننا الاعتماد عليها في دراسة تاريخ الفاطميين في مصر ، وعلى الأخص مؤلفات ابن الجوزي وسيبط ابن الجوزي والذهبي وابن كثير ، فهؤلاء جميعاً مؤلفون سنيون ذوو ميول حنبلية يعادون الفاطميين . والذهبي وابن كثير ، على الأخص من رجال الحديث ، أو من « العلماء » المشتغلين بالتاريخ ولا يعترفون بشرعية الخلافة الفاطمية ، فالذهبي يسميهم دائماً « خلفاء المصريين » . وقد تنبّه إلى ذلك المقرئ وقال عن مؤرخي الشام والعراق . « وغير خاف على من تبخر في علم الأخبار كثرة تحاملهم على الخلفاء الفاطميين وشنيع قولهم فيهم ، ومع ذلك فمعرفة بأحوال مصر قاصرة عن الرتبة العلية ، فكثيراً ما رأيتهم يحكون في تواريخهم من أخبار مصر مالا يرتضيه جهابذة العلماء ويرده الحذّاق العالمون بأخبار مصر ، وأهل كل قطر أعرف بأخباره ومؤرخو مصر أدري بمآثره »^٤ . وذكر في موضع آخر « أن الأخبار الشيعية ، لاسيما التي فيها إخراجهم من ملة الإسلام ، لاتكاد تجدها إلا في كتب المشاركة من البغداديين والشاميين « كالمُنْتَظَم » لابن الجوزي و « الكامل » لابن الأثير و « تاريخ حلب » لابن أبي طيّ و « تاريخ العماد » لابن كثير وكتاب ابن واصل الحموي ... أما كتب المصريين الذين اعتنوا بتدوين أخبارهم فلا تكاد تجد في شيء منها ذلك البتة »^٥ .

ولاتفيدنا هذه المصادر إلا فيما يخص علاقات الفاطميين الخارجية . ولم يعتمد عليها من المؤرخين المصريين سوى أبو المحاسن بن تغري بردي الذي نقل نصوصاً

٤ المقرئ : اتعاظ الخنفا ١ : ٢٣٢ .

٥ نفسه ٣ : ٣٤٦ .

مُطَوَّلَةٌ عن الذَّهَبِيِّ وَسَيْبِطِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ وَابْنِ الْقَلَانِسِيِّ وَهُوَ يَتَرَجَّمُ لِلخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ .

وإذا كانت هذه هي أهم المصادر التي تعالج الفترة الفاطمية على امتدادها ، فإن السنوات العشر الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية نستمد معلوماتنا عنها من مصادر مختلفة تتعلق بشخصيتين محوريّتين في التاريخ الإسلامي في القرن السادس/الثاني عشر هما : نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي . فقد أصبحت مصر منذ عام ٥٥٩/١١٦٤ هدفاً مباشراً لنور الدين في مواجهته مع الصليبيين . وأهم مصادر هذه الفترة التي تفيدنا في دراسة السنوات العشر الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية هي : « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » لابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠/١٢٣٣) ، و « الرّوضتين في أخبار الدولتين » لأبي شامة المقدسي (المتوفى سنة ٦٦٥/١٢٦٧) ، و « مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ فِي أَخْبَارِ بَنِي أَيُّوب » لابن واصل الحموي (المتوفى سنة ٦٩٧/١٢١٧) .

وتعتبر أوراق جَنِيْزَة القاهرة Gairo Geniza Documents من أهم مصادر هذه الفترة وخاصة بالنسبة للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي وما يخص تجارة الهند . والجَنِيْزَة Geniza كلمة عبرية مأخوذة عن نفس الأصل الفارسي والعربي « جَنَازَة » ، وهي تعني مكاناً دُفِنَتْ فيه أوراقٌ مستهلكة حتى لا يُدْنَسَ اسم الله الذي يمكن أن يكون فيها . وأرى أنها ربما حُرِّفَتْ عن كلمة « كَنْز » العربية خاصة وأن المقصود بها هو حفظ أوراقٍ أيّاً كانت أهميتها .

و « الجَنِيْزَة » في جوهرها مستودع للأوراق المستهلكة المكتوبة باللغة العربية ولكن بحروف عبرية - وهي الكتابة التي كان يستخدمها اليهود في بلاد العالم الإسلامي في هذا الوقت - وتتصل هذه الأوراق في الأساس بالنشاط الاقتصادي لليهود بين بعضهم البعض ، وتشتمل على أوراقٍ أسرية وغير أسرية تتعلق بالمعاملات

التجارية وعقود الزواج والطلاق والإيجارات والأسعار والمقايضات والهبات ، بالإضافة إلى مئات الأوراق التي تحوى طلبات وشكاوى مرفوعة إلى السلطات . وقد اكتشفت هذه الأوراق المهمة في نهاية القرن الماضي في سيناجوج بن عذرة اليهودى بالفسطاط وكذلك في مقابر اليهود بالبساتين جنوب القاهرة ، وذلك عندما هُدم المعبد اليهودى وأعيد بناؤه في سنتي ١٨٨٩ - ٩٠ . وقد عرفت الأوراق التي وجدت بهما طريقها إلى خارج مصر وسعت إلى شرائها مكتبات أوروبا والولايات المتحدة المختلفة ، وحمل Salomon Schechter أكبر كمية من هذه الأوراق إلى مكتبة جامعة كامبردج وكون بها مجموعة Taylor - Schechter الشهيرة حيث توجد أكبر مجموعة من هذه الأوراق في هذه المكتبة وكذلك في مكتبة فيينا^٧ .

ورغم صدور هذه الأوراق عن أوساط اليهود فإنها تمدنا بمعلومات عن كثير من الأنشطة المتعلقة بغير اليهود ، وتقدم لنا صورة للمجتمع اليهودى الذى كان يعيش في مدن حوض البحر المتوسط فيما بين القرنين الخامس/الحادى عشر والثامن/الرابع عشر . ولا تقف أهمية هذه الأوراق عند الطائفة اليهودية وحدها بل تتعداها إلى كل المجتمع الذى تعايش مع هذه الطائفة ، خاصة وأن الفترة الفاطمية لم تعرف الـ Gheto الدينى أو الجرفى ، وبذلك فإن المعلومات التى نعرفها عن أحد فئات هذا المجتمع يمكن اعتبارها صالحة للتعرف على بقية فئاته . ميزة أخرى لهذه الأوراق هو احتوائها على وثائق أصلية صادرة عن ديوان الإنشاء أو غيره من الدواوين ، تُسَرِّبُ بطريقة أو بأخرى إلى أيدي اليهود الذين استخدموا ظهورها أو الأماكن الشاغرة فيها في كتاباتهم المختلفة .

وتوفّر على دراسة هذه الأوراق عالم يهودى أمريكى هو البروفيسير صمويل د . جويتين S. D. Goitein الذى كتب سلسلة طويلة من المقالات

^٧ طلباً لمقدمة شاملة عن هذه الأوراق راجع ، Goitein, S. D., A Mediterranean Society, California 1967, I, pp. 1 - 28

والدراسات الاقتصادية الخاصة بتجارة الهند اعتمادًا على هذه الأوراق ابتداء من خمسينات هذا القرن^٨، ثم كتب مؤخرًا مؤلفًا ضخماً في خمسة مجلدات عن مجتمع اليهود في البلاد العربية المطلة على البحر المتوسط كما تصوره أوراق الجنيزة ظهر فيما بين سنتي ١٩٦٧ و ١٩٨٩^٩. واهتم بدراسة هذه الأوراق كذلك عدد من الباحثين منهم J. Mann و M. Gil و S. Shakad و N. A. Stilmann وحسين محمد ربيع.

- ٣ -

ولاشك أن الدراسات المتخصصة التي تناولت مسائل جزئية من تاريخ الفاطميين قد أنارت لنا الطريق وبَسَّرت لنا فهم وتفسير الكثير من الأحداث والظواهر التاريخية. هذه الدراسات التي بدأها منذ أكثر من مائة وخمسين عامًا أبو الاستشراق الفرنسي سلفستر دي ساسي De Sacy، وماتبعها من دراسات متخصصة حول أصول الإسماعيلية وتاريخ الدعوة المبكرة كتبها إيفانوف Ivanov ولويس B. Lewis وشتين S. Stern ومادلونج W. Madelung وحسين وعبّاس همداني Hamdani ومحمد كامل حسين. ثم الدراسات الخاصة بتاريخ الفاطميين السياسي وخاصة دراسات: دي لامي أوليري O'Leary ووستنفلد Wustenfeld وحسن إبراهيم حسن وجاستون فييت G. Wiet وفرحات الدُّشراوى وجمال الدين سرور وتيارى بيانكى Th. Bianquis ويعقوب ليف Y. Lev وكذلك الدراسات المتعلقة بالنُظم والرُّسوم والاقتصاد الفاطمي التي قام بها إنسترونزف Inastrontsef وكانار M.

^٨ أعاد جويتين نشر عدد من هذه المقالات في كتابه Goitein, S. D., Studies in Islamic

History and Institutions, Leiden - Brill 1966 ونقل قسمًا منها إلى العربية الدكتور عطية

القوصي بعنوان «دراسات في التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية»، الكويت ١٩٨٠.

^٩ انظر الهامش رقم ٧ وثبت المصادر والمراجع.

Canard وعبد المنعم ماجد وبولا سوندرز P. Sanders وراشد البراوى وكلود كاهن Cl. Cahen و إ.س. د. جويتين S. D. Goitein. وأيضاً الدراسات التى تناولت الوثائق والسجلات الفاطمية التى قام بها شتين S. Stern وجمال الدين الشيبال . كذلك فإن دراسات ماكس فان برشم Van Berchem وجاستون فييت G. Wiet عن النقوش والكتابات الأثرية قدمت لنا فوائد كثيرة فى هذا المجال .

ولأستطيع أن أنهى هذا العرض دون الحديث عن كتاب ظهر حديثاً يُعدّ أهم وأشمل عرض تناول تاريخ الإسماعيليين وعقائدهم منذ البدايات الأولى للحركة الإسماعيلية وحتى العصر الحديث اعتماداً على المصادر الأصلية والدراسات الحديثة ، هو كتاب فرهاد دفتري Daftary, F., *The Isma'ilism their History and Doctrines*, Cambridge 1990. ولعل أهم فصول هذا الكتاب هى تلك الفصول المتعلقة بالبدايات الأولى للحركة^{١٠} وبال دعوة النزارية حتى العصر الحديث .

- ٤ -

وقد تمجّبت فى كتابة هذا الكتاب الخوض فى التفاصيل الدقيقة للأحداث ، واستعصت عن ذلك بتقديم تحليل لأطوار التاريخ الفاطمى وتوضيح للخطوط العريضة والظواهر الرئيسية لتاريخ الدولة الفاطمية ، وشرح للإستراتيجية التى كانت تحكم سياستهم والأهداف التى كانوا يتطلعون إليها ومدى نجاحهم أو فشلهم فى تحقيقها .

^{١٠} أعاد المؤلف صياغة هذا البحث مع الإشارة إلى العلاقة بين القرامطة والإسماعيلية ونشره فى مقال بعنوان

Daftary, F., « The Earliest Isma'ilis », Arabica XXXVIII (1991) pp. 214-245.

كذلك حرصت على إظهار التطورات والتغيرات الإيديولوجية والاجتماعية التي طرأت عليهم ، وشرح سياستهم الاقتصادية التي حددت استراتيجيتهم في النصف الثاني لتاريخ دولتهم .

ولم أكتف في هذا العرض بالاعتماد على المواد والمصادر الجديدة أو التي اكتشفت حديثاً ، بل أعدت النظر في المواد المتوافرة المعروفة والتي أظن أنه لم يُستفد منها الفائدة المرجوة ، كما أنها أصبحت بحاجة إلى نظرة تحليلية أدق في ضوء مظاهر من مصادر أدبية ومادية جديدة في العقود الأخيرة . فقراءة متأنية لمصادر التاريخ الفاطمي من شأنها أن تجلو لنا الكثير من الحقائق التي كانت بعيدة عنا .

وحرصت كذلك على عدم معالجة الموضوع معزولاً عن قضايا العصر الأخرى مما ساعدنا على إبراز الترابط بين هذه القضايا المعقدة وتوضيحه .

وبعد ، فأرجو أن أكون قد أسهمت في تقديم عرض وتفسير وافي لتاريخ الدولة الفاطمية في مصر اعتماداً على المصادر الأصلية ونتائج الدراسات الحديثة .

والله من وراء القصد والسبيل ،،،

أهمن فؤاد سيّد

مَزَجِلْ

الإسماعيلية المبكرة

نشأت الحركة الإسماعيلية كحركة اجتماعية فلسفية سياسية معاً ويدّعى أصحابها إيصال نسبهم إلى السيدة فاطمة والإمام علي بن أبي طالب ، وتساءل كاترمير منذ نحو قرن ونصف القرن فيما إذا كانت ادعاءاتهم هذه تستند على الحقيقة ، وهل ينتمون حقاً إلى بيت علي ، أم كانوا مجرد أذعياء مَهَرّة حالفهم الحظ ؟ وأكد أن هذا السؤال يجب أن يثار قبل كل شيء وأنه ذو أهمية قصوى مهما كانت نتيجة الإجابة عليه^١ .

ولاشك أن الفترة المبكرة في تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، التي تعد فترة حضانة الحركة ، هي الجانب الأكثر غموضاً في كل تاريخ الحركة . وتمتد هذه الفترة من بدايات الحركة الإسماعيلية في منتصف القرن الثاني / الثامن وحتى إعلان الخلافة الفاطمية في إفريقية سنة ٢٩٧/٩٠٩ ، أي نحو قرن ونصف القرن .

وترجع صعوبات دراسة الحركة الإسماعيلية المبكرة إلى ندرة المعلومات الدقيقة عن التشيع خلال الفترة العباسية الأولى ، عندما لجأت غالبية فرق

^١ Quatremère, M., *Memoires historiques sur la dynastie des khalifes fatimites*, JA 3^{eme} serie t. II (1836), p. 101

الشيعة الإثنا عشرية والإسماعيلية ، وهى فى طور تكوينها ، إلى التَّقيَّة والعمل السُّرى .

ويبدأ تاريخ الإسماعيلية كحركة مستقلة عندما نشأ الجَدَل حول خلافة الإمام جعفر الصَّادق ، الذى توفى عام ٧٦٥/١٤٨ . وتشير أغلب المصادر المتاحة إلى أن جعفر الصَّادق عيَّن ابنه إسماعيل خليفة له بطريق « النَّصِّ » . ولا يوجد أى شك حول شرعية هذا التعيين الذى تعتمد عليه كل ادعاءات الإسماعيلية التى استمدت إسمها من نسبتها إلى إسماعيل بن جعفر الصَّادق^١ .

ولما كان إسماعيل بن جعفر الصَّادق قد توفى فى حياة أبيه ، نحو سنة ١٤٥ / ٧٦١^٢ فقد ذهبت الفرقة التى عُرفت فيما بعد بالإثنى عشرية ، نسبة إلى أئمتهم الذين كَوَّنوا سلسلة من إثنى عشر إماماً تبدأ بعلى بن أبى طالب وتنتهى بمحمد بن الحسن العسكرى الذى اختفى ويتطرون عودته ، ذهبت إلى أن موسى الكاظم ، الابن الثانى لجعفر الصَّادق ، هو الإمام السابع فى سلسلة الأئمة الإثنى عشر^٣ .

وقد أمسك موسى الكاظم ، مثل والده ، عن أى نشاط سياسى ، فقد كان أحد العلويين الذين رفضوا مساندة الحسين بن على صاحب فَخٍّ ، الذى ثار فى الحجاز خلال خلافة الهادى القصيرة (١٦٩ - ١٧٠ / ٧٨٥ - ٧٨٩) وقُتِل فى فَخٍّ قرب مكة مع عدد آخر من العلويين سنة ١٦٩ / ٧٨٦^٤ .

وعاش موسى الكاظم بعد ذلك حتى توفى مسموماً فى بغداد سنة

^١ راجع ، Daftary, F., *The Isma'ilis their History and Doctrines*, Cambridge 1990, pp. 91- 93

^٢ الصفدى : الوافى بالوفيات ٩ : ١٠١ - ١٠٤ .

^٣ Nasr, S. H., *El²*, art Ithna 'ashriyya IV, pp. 289- 91

^٤ الصفدى : الوافى ١٢ : ٤٥٣ - ٥٤ ، الفاسى : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ٤ : ١٩٦ -

٢٠٠ ، ٣٨ - 636 p. *al. Husayn b. Ali Sahib Fakhkh III* *El²*, art. *Veccia Vaglieri, L.*

٧٩٩/١٨٣ في أغلب الظن بناءً على أوامر الخليفة هارون الرشيد^٦.

وكانت هناك فرقتان أخرتان ساندت إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وتعد البدايات الأولى للحركة الإسماعيلية. ظهرت هاتان الفرقتان عند وفاة إسماعيل وافتقرت عن بقية الإمامية فقط بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ / ٧٦٥.

الفرقة الأولى تُنكر وفاة إسماعيل في حياة أبيه وتؤكد أنه الإمام الحقيقي بعد جعفر الصادق، وتعتقد أنه لم يميت وأنه سيعود «كمهدي» أو «قائم». وتُدافع هذه الفرقة عن ادعاءاتها بأن جعفر الصادق إمام لا ينطق سوى الحق، وأنه أعلن وفاة ولده إسماعيل ثقيّة فحسب لحمايته، وكنتم أمره، خوفاً على سلامته. وقد سمى النوبختي والقمي هذه الفرقة «بالإسماعيلية الخالصة»^٧، وأطلق عليها فيما بعد الشهرستاني «الإسماعيلية الواقعة»^٨.

أما الفرقة الثانية فتؤكد وفاة إسماعيل في حياة أبيه وتعترف بإمامة محمد بن إسماعيل وتعتبره صاحب الحق الشرعي في خلافة إسماعيل، وترى أن جعفر الصادق قد عينه بنفسه في مكان أبيه بعد وفاته.

وتبعاً لهؤلاء فإن الإمامة لا ينبغي لها أن تنتقل من أخٍ إلى أخيه بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين وأنها يجب أن تستمر في الأعقاب، وأن النص لا يرجع القهقري، وأن الفائدة منه بقاء الإمامة في أولاد المنصوص عليه. وهذا هو سبب رفضهم لادعاءات موسى الكاظم وبقية إخوة إسماعيل الآخرين^٩.

^٦ الذهبي: العبر في خبر من غير: ٢٨٧.

^٧ النوبختي: فرق الشيعة ٥٧ - ٥٨، القمي: المقالات والفرق ٨٠، ٩٥، Daftary, F., op. cit., p. 95 - 90.

^٨ الشهرستاني: الملل والنحل ١: ١٤٩.

^٩ النوبختي: فرق الشيعة ٥٨، ٦٢، القمي: المقالات ٨٠ - ٨١، ٨٤، عماد الدين إدريس: عيون الأخبار ٥: ١٦٠ - ١٦١ وفيه نقلا عن جعفر الصادق: «الإمامة في العقب تجري في واحد عن واحد لا ترجع القهقري ولا تعود إلى الوراء». وانظر كذلك Stern, S., Heterodox Isma'ilism at - the time of al - Mu'izz, BSOAS XVII (1955), p. 26; Daftary, F., op. cit., p. 96.

نَسَبُ الفاطميين

ولا نعرف أى شيء عن تاريخ الإسماعيلية بين نقطة انطلاقها وحتى ظهورها في أواسط القرن الثالث / التاسع كتنظيم ثورى سرى يعتمد على حركة نشطة من الدعاة الذين انتشروا في مختلف أقطار العالم الإسلامى .

فتبعًا للرواية الفاطمية الإسماعيلية ، كما أوردها الداعى عماد الدين إدريس في نهاية القرن التاسع / الخامس عشر ، فقد سبق عبدالله المهدي ، مؤسس الخلافة الفاطمية في إفريقية سنة ٢٩٧/٩٠٩ ، سلسلة من « الأئمة المستورين » من أبناء محمد بن إسماعيل امتنعت المصادر الإسماعيلية عن ذكر أسمائهم^{١٠} . فالأئمة الذين يصلون المهدي عبدالله بمحمد بن إسماعيل أشخاص عاشوا في ظل ظروف يكتنفها الكثير من الغموض ، وحتى المصادر الإسماعيلية المبكرة التي كشفت حديثًا لا تذكر أسمائهم . كما أن الخلفاء الفاطميين ، فيما بعد ، لم يحاولوا قط إبطال الحملات التي شنها ضدهم أعداؤهم أو الرد عليها بسبب إصرارهم على عدم إذاعة أى نسب رسمى لأصولهم اعتمادًا على مبدأ معروف في دوائر الشيعة هو « عدم كشف أولئك الذين سترهم الله » حتى أن الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله عندما دخل إلى مصر ولقيه أشرافها وسألوه عن نسبه ، اكتفى بأن سئل لهم نصف سيفه وقال : هذا نسبي ، ونثر عليهم ذهبًا كثيرًا وقال : هذا حسبي^{١١} .

^{١٠} عماد الدين إدريس : عيون الأخبار وفنون الآثار ٤ : ٣٥١ - ٤٠٤ .

^{١١} ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ٢٧ - ٢٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ : ٨٢ ، ابن أبيك الدوادارى : كثر الدرر ٦ : ١٤٦ - ١٤٧ ، التويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٤٣ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ١٧ : ٤٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤ : ٧٧ .

وقد كذب عماد الدين إدريس هذه الرواية (تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ٧٢٧ -

كان الخليفة الفاطمي الأول عبدالله المهدي الوحيد الذي قام بمحاولة لكشف النسب الفاطمي . ففي الرسالة التي بعث بها المهدي إلى جهة اليمن ، والتي أوردتها من ذاكرته في فترة تالية جعفر بن منصور اليمن ، شرح المهدي نسب الخلفاء الفاطميين معلناً أسماء الأئمة المستورين^{١٢} ، وهي محاولة يمكن أن نضيفها إلى الغموض الذي مازال قائماً حول هذه القضية .

فهذه الرسالة تثير مشكلات ثلاث هامة هي : هل كان جد الفاطميين الأعلى حقيقة هو إسماعيل أم أخوه الأكبر عبدالله ؟ ثم هل ينتسب المهدي إلى أسرة النبي وآل البيت أم إلى ميمون القداح ؟ وأخيراً هل كان المهدي هو الإمام الشرعي أم كان بديلاً تنكّر في هيئة الإمام عندما داهم الموت فجأة الإمام الحقيقي ؟

ففي هذه الرسالة يتنكر المهدي اتصال نسبه إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ويقرر أن جده الأعلى هو أخو إسماعيل الأكبر عبدالله ، وأن جعفر الصادق عين عبد الله وليس إسماعيل كوريت شرعي له^{١٣} . وبذلك يفاجأ المرء بأن مهندس الحركة الإسماعيلية لم يكن إسماعيلياً على الإطلاق .

ويتفق ماجاء في رسالة المهدي مع ماجاء في بعض كتب الأنساب والفرق ، وإن اختلفت في التفاصيل . فيذكر ابن حزم أن بنى عبيد ، ولاية مصر الآن ، قد ادّعوا في أول أمرهم إلى عبدالله بن جعفر بن محمد .. ، فلما صحّ عندهم أن عبدالله هذا لم يُعقب إلا ابنة واحدة [اسمها فاطمة] تركوه وانتموا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد^{١٤} . ولكن مُصنّف بن الزبير ، وقد كتب كتابه قبل قيام الخلافة الفاطمية بنحو ستين عاماً ، يذكر أن عبدالله

^{١٢} في نسب الخلفاء الفاطميين ، تقديم حسين المملاني ، القاهرة - الجامعة الأمريكية ١٩٥٨ .

^{١٣} نفسه .

^{١٤} ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ٥٩ . مصعب بن الزبير : نسب قريش ، تحقيق ١ . ليفي بروفنسال ، ٦٤ .

وإسماعيل ابني جعفر الصادق من زوجته فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب^{١٥} ، وأن لعبدالله ولداً أو أولاداً ، لم يذكر أسماءهم ، لأم ولد^{١٦} . كذلك يذهب التوبختي والقمّي إلى أن عبدالله لم يترك أولاداً بعد وفاته ، ولكن القمّي يذكر في موضع آخر أن عبدالله وُلِدَ له ولد من أم ولد اسمه محمد ، وأنه أرسله إلى جهة اليمن وانتقل بعد وفاة والده إلى خراسان وأنه هو الإمام بعد أبيه وهو « القائم » . وأن هذه الفرقة صغيرة يوجد بعضها في العراق واليمن ولكن أغلبها يوجد في خراسان . كما توجد أيضاً شِرْذِمَةٌ تعتقد أن الإمامة باقية في ذرية عبدالله حتى يوم القيامة وأن عبدالله مات وخلف بعده ولداً وأن الإمامة في ولده^{١٧} . وهذا يثبت على الأقل أن المهدي لم يكن الوحيد الذي يدعى أن لعبد الله ذرية من الذكور .

أما الرواية المضادة للرواية الفاطمية فمصدرها هو أبو عبدالله محمد بن علي ابن رزام الطائي الكوفي الذي كتب مؤلفه في مطلع القرن الرابع / العاشر . وقد ضاع نص ابن رزام الأصلي ولكنه حُفِظَ في بعض المؤلفات المتأخرة وعلى الأخص عند ابن النديم في « الفهرست »^{١٨} والمقریزی في « الاتعاظ »^{١٩} . وكذلك الشريف أخو محسن أبو الحسن محمد بن علي المتوفى سنة ٩٨٥/٣٧٥ ، وقد فُقد كذلك نص أخى محسن وإن حفظه لنا النويرى في « نهاية الأرب » وابن أبيك في « كنز الدرر »^{٢٠} والمقریزی^{٢١} ، الذي يُعَدُّ أول

^{١٥} مصعب : نسب قريش ٦٣ .

^{١٦} نفسه ٦٤ .

^{١٧} التوبختي : فرق الشيعة ٦٥ - ٦٦ ، القمّي : المقالات ٨٧ - ٨٨ ، ١٦٣ - ١٦٤ .

^{١٨} ابن النديم : الفهرست ، طهران ١٩٧١ ، ٢٣٨ - ٢٣٩ ،

^{١٩} المقریزی : اتعاظ الخلفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ١ : ٢٢ - ٢٩ ، الخطط ١ : ٢٤٨ ،

المقفي ، تحقيق محمد اليعلاوى ، ٧٥ - ٨١ ،

^{٢٠} النويرى ، نهاية الأرب في فنون الأدب - خ ٢٦ : ٢٣ - ٢٥ ، ابن أبيك : كنز الدرر وجامع

الغرر ٦ : ٢١ - ٢٢ .

^{٢١} المقریزی : اتعاظ ١ : ٢٢ .

من ذكر أن ابن رزام كان مصدر أخى محسن .

وأهم ما يميز هذه الرواية هو الزعم بأن شخصاً غير علوى يُدعى عبدالله بن ميمون القدّاح هو المؤسس الحقيقي للحركة الإسماعيلية وأيضاً الجد الأعلى للخلفاء الفاطميين . وميمون القدّاح كان مولى لبنى مخزوم ومن أهل مكة ، وهو تلميذ للإمام محمد الباقر وروى عنه العديد من الأحاديث . أما ابنه عبدالله ، الذى توفى خلال النصف الثانى للقرن الثانى / الثامن ، فقد كان راوية لجعفر الصادق وهو من العلماء المعبرين عند الشيعة الإمامية ، لذلك فإن « المَحْضَر » الذى أصدره العباسيون فى سنة ٤٠٢ / ١٠١١ بالطعن فى نسب الفاطميين ووقع عليه الشريف المرتضى لم يرد فيه ذكر لميمون هذا وابنه .

ولكن لماذا اختار ابن رزام عبدالله بن ميمون القدّاح الذى عاش فى القرن الثانى / الثامن ليعتبره مهندس حركة ظهرت فى القرن الثالث / التاسع بعد عدة عقود من وفاته . إن الرجوع إلى رسالة المهدي التى أرسلها إلى جهة اليمن يُمكننا من إيجاد إجابة مقبولة لهذا التساؤل . فتذكر الرسالة أن جعفر الصادق خلف أربعة أولاد : عبد الله وإسماعيل وموسى ومحمد ، صاحب الحق فيهم هو عبدالله بن جعفر^{٢٢} . ولما أراد الأئمة أولاد جعفر « إحياء دعوة الحق » خافوا من نفاق المنافقين وحفظوا شخصياتهم بعيداً عن اضطهاد العباسيين ، فتسموا بغير أسمائهم وأطلقوا على أنفسهم مبارك وميمون وسعيد للفأل الحسن فى هذه الأسماء^{٢٣} . وهى إشارة واضحة إلى مبدأ « التَّقِيَّة » عند الشيعة^{٢٤} . فلقب ميمون الذى أطلق على أحد أولاد جعفر الصادق هو الذى قاد إلى هذا الخلط .

^{٢٢} المهدي عبدالله : فى نسب الخلفاء الفاطميين ٩ .

^{٢٣} نفسه ١٠ .

^{٢٤} فقد روى عن جعفر الصادق قوله : « التقية دينى ودين أبائى ، ومن لا تقية له فلا دين له » . (نفسه ٩) .

ويضيف المهدي في رسالته أنه أشير بالإمامة إلى عبدالله الذي تسمى بإسماعيل ، ودعى إلى أن المهدي سيكون محمد بن إسماعيل . فكان كلما قام منهم إمام تسمى بمحمد إلى أن يظهر صاحب الظهور الذي هو محمد بن إسماعيل فتزول التقية^{٢٥} .

وتبعاً لمبدأ التقية في كتم أسماء الأئمة يكون تسلسل الأئمة المستورين كما أورده المهدي عبدالله في رسالته كالآتي : الإمام عبدالله بن جعفر الصادق ، ثم بعده عبد الله بن عبدالله ، ثم أحمد بن عبدالله ثم محمد بن أحمد ، وقد تسمى كل واحد من هؤلاء بمحمد خلا عبد الله بن جعفر فقد تسمى بإسماعيل^{٢٦} . « والإشارة في الدعوة إلى محمد بن إسماعيل ، والمراد بإسماعيل عبدالله »^{٢٧} .

ويشير جعفر بن منصور اليمن ، الذي حفظ لنا هذه الرسالة ، أن الإمام محمد بن أحمد أوصى إلى ابن أخيه ، وأعطاه باختيار الله أمره كله ، وتسمى سعيد بن الحسين وصارت الدعوة إليه زماناً . فلما آن وقت الظهور أظهر مقامه وأظهر اسم عبدالله ، وظهر معه كذلك أبو القاسم محمد « فصنحت الإشارة إلى القائم بن المهدي : محمد بن عبدالله أبي القاسم الإمام المنتظر لعز دولة الدين والجهاد برايات المؤمنين »^{٢٨} .

وعندما نسب المهدي نفسه في الرسالة قال : « والولى الآن (يعنى نفسه) على بن الحسين بن علي بن أحمد بن عبدالله بن عبدالله ثانية بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب واسمه الظاهر عبدالله بن محمد ، لأنه ابن محمد بن أحمد في الباطن »^{٢٩} .

^{٢٥} نفسه ١٠

^{٢٦} المهدي عبدالله : المصدر السابق .

^{٢٧} نفسه ١٠ .

^{٢٨} نفسه ١١ .

^{٢٩} نفسه ١١ - ١٢ .

نخرج من ذلك إلى أن محمدًا أبا المهدي الباطن ليس مثل المهدي من نسل عبدالله بن جعفر الصادق (الذي تسمى بإسماعيل) وإنما من نسل أخيه الثاني إسماعيل (الذي تسمى بمبارك) وعلى وجه الدقة هو ابن حفيد إسماعيل^{٣٠}.

وهذا يعنى أن قائمة الأئمة المستورين التى ذكرها المهدي تنتسب فى الحقيقة إلى فرعين متوازيين لأبناء جعفر الصادق. فمحمد عم المهدي ليس بمعنى أنه شقيق والده، وإنما بإرجاع نسبهما إلى الأخوين عبدالله وإسماعيل ابني جعفر الصادق^{٣١}.

وتشير الرسالة بوضوح إلى أن محمد بن إسماعيل، الذى يعدّه الإسماعيليون الإمام السابع، ليس سوى محمد بن عبدالله الذى تسمى بإسماعيل.

ويبدو أن المقرئ قد اطلع على أحد الرسائل الفاطمية التى تثبت حقيقة نسب المهدي، أطلعه عليها واحد من بقايا الإسماعيليين الموجودين فى صعيد مصر فى زمنه. فبعد أن يذكر رواية ابن رزام وأخى محسن، ذكر نسبه كما ورد فى رسالة المهدي التى أرسلها إلى ناحية اليمن، كما يلى: أبو محمد بن محمد الحبيب (أو الحكيم) بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق^{٣٢}، أو عبدالله بن التقى بن الوفى بن الرضى، وهؤلاء الثلاثة يقال لهم «المستورون فى ذات الله تعالى». وأوضح أن «الرضى» هو ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأن «التقى» اسمه الحسين، واسم «الوفى» محمد^{٣٣}.

ومن الغريب أن عماد الدين إدريس، الداعى الفاطمى الشهير، قد خلط

^{٣٠} Harndani, A. & de Blois, F., « A Re- examination of al- Mahdi's Letter to the yemenites on the Genealogy of the Fatimid Caliphs », JRAS (1982) p. 182

^{٣١} Ibid., p. 185

^{٣٢} المقرئى: المقفى الكبير ٥٣، اتعاط الخنفا ١ : ٥٠.

^{٣٣} نفسه ٥٥.

نسب المهدي بين فرعي إسماعيل وعبدالله ابني جعفر الصادق فقال إنه « المهدي بالله أبو محمد عبدالله بن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق »^{٢٤}.

وقد قام أبو علي محمد الحبيب بن أحمد المكنى « سعيد الخير » بدور هام وأساسي في تاريخ الدعوة الإسماعيلية . فهو لم يكن إماماً وإنما عم المهدي وزوج أمه ، وهي من فرع إسماعيل ، استكفله له أبوه بعد أن انتقل من عسكر مُكرّم في خوزستان إلى سَلْمِيَّة^{٢٥} . ورغم أن محمد بن أحمد المكنى سعيد الخير لم يكن إماماً فهو الذي أنفذ الدعاة بعد وفاة والد المهدي إلى اليمن وغيرها . فقد توفي والد المهدي وهو ابن ثمان سنين ، نقل عماد الدين إدريس هذا الخبر عن كتاب « سيرة الإمام المهدي » الذي فقد اليوم^{٢٦} .

وتزوَّج المهدي من ابنة عمه الباطن محمد بن أحمد فولدت له ابنة القائم بأمر الله محمد بن عبدالله سنة ٢٨٠ / ٨٩٣^{٢٧} . وبذلك فعلينا استبعاد فكرة أن القائم ليس ابناً للمهدي إذ هو بوضوح ابن للمهدي وفي الوقت نفسه ابن لابنة الإمام السابق لوالده الإمام محمد بن أحمد . فيكون بذلك قد جمع بين فرعي أبناء جعفر الصادق : عبدالله (من والده) وإسماعيل (من والدته) .

كانت المشكلة التي واجهت الدعاة ، كما يذكرها صاحب « رسالة استتار الإمام » ، أن الحسين بن أحمد والد المهدي الحقيقي عندما أتته الوفاة استودع له أخاه محمد الحبيب المكنى سعيد الخير الذي استبد بالإمامة ونص بها على ولده فهلك هذا الولد وهلك بعده تسعة من أولاده ، كما في رواية « استتار الإمام » . فعلم سعيد الخير أن الحق لا يفارق أهله وجمع دعائه وأعلمهم أنه

^{٢٤} عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٤٣ .

^{٢٥} المقرئ : المقفى الكبير ٥٥ .

^{٢٦} عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٤٤ .

^{٢٧} نفسه ١٤٤ .

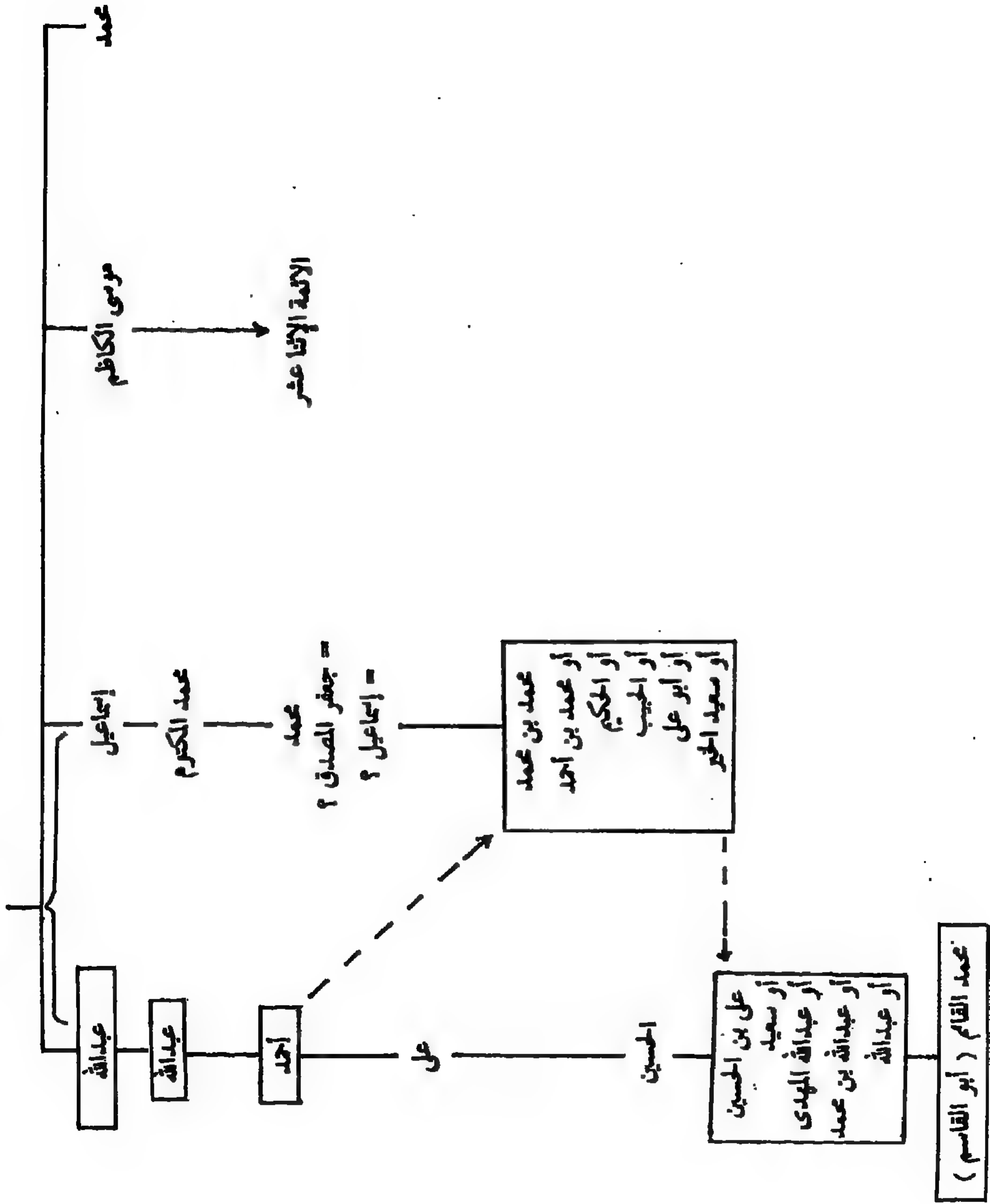
مستودع للمهدي وسلّم له الإمامة^{٣٨} .

وبما أن سعيد الخير هو الذى أرسل الدعوة لبدء نشر الدعوة الإسماعيلية ، فإن بعض أتباع الدعوة لم يعترفوا بإمامة المهدي وخرجوا عليه وانضموا إلى القرامطة .

ونستخلص من رسالة المهدي إلى ناحية اليمن أمورًا ثلاثة : أولاً التأكيد على أن عبدالله وليس إسماعيل هو الذى عينه جعفر الصادق ليكون وريثًا له . ثانيًا أن المهدي من آل البيت وأنه ابن عم فى الباطن للرجل الذى كان فى زمنه وريثًا للإمامة . وأخيرًا فإن المهدي ربما كان إمامًا مستودعًا للقائم أبى القاسم محمد الذى يبدأ به دور الظهور الحقيقى لأنه هو محمد بن عبدالله الذى أشارت إليه الدعوة وزالت به التقية .

^{٣٨} استتار الإمام ، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية ٢/٤ (١٩٣٦) ٩٥ - ٩٦ .

فاطمة = جعفر الصادق



الدعوة الإسماعيلية حتى إعلان الخلافة الفاطمية

بدأت الحركة الإسماعيلية كتظيم ثورى سرى يعتمد على مجموعة من الدعاة النشيطين المنتشرين فى أرجاء العالم الإسلامى اعتباراً من منتصف القرن الثالث/ التاسع . وقصد هؤلاء الدعاة بوجه خاص الأطراف التى غلب على أهلها العقلة والجهل ، وعلى الأخص فى أقاليم إيران وخراسان والشمال الإفريقى واليمن الذى وصفه أبو العلاء المعرى بأنه كان « معدناً للمتكسبين بالتدين والمحتالين على الحق بالتزئ »^{٣٩} . وعلى ذلك فقد بدأ القاضى النعمان بن حيون « رسالة افتتاح الدعوة » بإرسال الإمام الإسماعيلى للداعى ابن حوشب إلى جهة اليمن يدعو إلى قرب ظهور الإمام المهدي من آل فاطمة ، ولا يمدنا القاضى النعمان بآية تفصيلات عن الفترة السابقة على ذلك .

وقد بدأ النشاط المكثف للدعاة فى الظهور فى أعقاب اختفاء الإمام محمد بن الحسن العسكرى ، آخر الأئمة الإثنى عشرية ، فى السرداب . ويبدو ، كما يقول الدكتور محمد كامل حسين ، أن بعض الشيعة من الإثنى عشرية صدموا لاختفاء ، الإمام الثانى عشر فى السرداب دون وريث ، فتطلّعوا إلى الفرع الآخر من أبناء جعفر الصادق المتسلسل من محمد بن إسماعيل فتبنوا الدعوة لهم بعد أن ظل أبناء محمد بن إسماعيل بعيدين كل البعد عن أى نشاط علنى للدعوة

^{٣٩} أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن ، القاهرة - دار المعارف

لأنفسهم طوال هذه المدة ^{٤٠} . يؤيد هذا الرأي أن دعاة الإسماعيلية الأوائل مثل ابن حَوْشَب وأبو عبد الله الشيعي كانوا في ابتداء أمرهم إثني عشرية .

وقد قَسَمَ الإسماعيليون العالم الإسلامي إلى اثنتي عشرة جزيرة بكل منها داع مطلق يرأس مؤسسة الدعوة في الجزيرة . وكانت جزيرة اليمن من أخصّ الجزائر عند الإسماعيليين ، وقد وصفها الخليفة الفاطمي العاشر الأمر بأحكام الله في أحد سجلّاته بأنها « من الأصقاع التي يراعى أمير المؤمنين جميع أمورها ويؤثر إصلاح كبير أحوالها وصغيرها وذلك لأنها من مهاجر المسلمين من أوّل الزمان ومحل أهل الإيمان ، منذ اشتدت قاعدة الإسلام إلى الآن ، ولم تخل من أبناء الدعوة الفاطمية وأولياء الدولة العلوية » ^{٤١} .

كان انتشار الشيعة والمتشيعين في بلاد اليمن سراً وعلانية من أهم الأسباب التي دعت الإمام محمد بن أحمد ، آخر الأئمة المستورين ، إلى إرسال ألى القاسم بن حَوْشَب إلى هناك . وحال بُعْدَ اليمن عن مركز الخلافة ووعورة طرقها بسبب طبيعتها الجبلية ، بالإضافة إلى انشغال العبّاسيين بمواجهة ثورة الزنج ، حال بينهم وبين توجيه الجيوش إلى اليمن لإنقاذها من دعاة الإسماعيليين .

واعتبر القاضي النعمان اليمن « أصل الدعوة وإليها أرسل الداعي ومنها نفذ إلى المغرب وعن صاحب دعوتها أخذ وبآدابه تأدّب » ^{٤٢} . فدعوة اليمن هي الطور

^{٤٠} محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية - تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، ٢١ .

^{٤١} الحامدي : تحفة القلوب في ترتيب الهداة والدعاة في الجزيرة اليمنية (متضمن في كتاب الأزهار للحسن بن نوح) ، نشره صمويل شترن في مقاله القيم - Stern, S. M., "The Succession of the Fatimid Imam al - Amir, the claims of the later Fatimid to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism ", Oriens IV (1951), p. 233 .

^{٤٢} القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضي ، بيروت - دار الثقافة ١٩٧٠ ،

الرئيسي في أطوار تطور الدعوة الإسماعيلية ، فهي التي مهّدت لظهورها علانية وإعلان قيام الخلافة المنتظرة ، رغم أنه كان للإسماعيليين في أواسط القرن الثالث/ التاسع تنظيم دقيق وجذور قوية في مناطق مثل فارس والشام ولكنها كانت قريبة في متناول الخلافة العباسية ومركزها في بغداد .

وارتبطت دعوة اليمن بشخصيتين رئيسيتين ارتبطت بهما في الوقت نفسه الدعوة الإسماعيلية الأم هما : أبو القاسم الحسن بن فرح بن حَوْشَب ابن زاذان النجار الكوفي الذي عرف فيما بعد بـ « منصور اليمن » لما أُتيح له من النصر هناك ^{٤٣} ، وأبو الحسن علي بن الفضل الجيشاني . وأهم مصدر يحدثنا عن ابن حَوْشَب هو « رسالة افتتاح الدعوة » للقاضي النعمان الذي ذكر أنه كان في ابتداء أمره على مذهب الإمامية الإثني عشرية وأوضح لنا كيفية انتقاله إلى المذهب الإسماعيلي ولقائه بـ « إمام الزمان » الذي بعثه إلى اليمن بعد فترة إعداد وتكوين بصحبة علي بن الفضل . وأمره أن يقصد هناك مدينة « عَدَن لاعة » قائلا له : « إلى عَدَن لاعة فاقصد وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا وفيها تعز دولتنا ومنها تفترق دعائنا » ^{٤٤} .

ولن أعيد هنا ذكر ماجرى من أحداث لابن حَوْشَب وصاحبه في اليمن وما حققه من نصر هناك ومخالفة ابن الفضل له . وما يهمنا في هذه الأحداث هو أن الإمام المستور لما تأكد من ظهور دعوة ابن حَوْشَب وتمكنها في اليمن أرسل الداعي أبا عبد الله الشيعي (الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا) إلى اليمن

^{٤٣} راجع عنه ، القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ٣٢ - ٦٣ ، ١٤٩ - ١٥٠ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ٥٩ - ٧٨ ، حسين الممداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ، القاهرة ١٩٥٥ ، ٢٩ - ٤٨ ، أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ، القاهرة ١٩٨٨ ، ٩١ - ٩٦ ، Halm, H., "Die Sirat Ibn Hawshab : Ismailitische da'wa im Jemen und die Fatimiden ", Die Welt des Orients XII (1981), pp. 108 - 35; Madelung, W., EI^٢, art. Mansur al - Yaman VI, pp. 424 - 25

^{٤٤} القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ٤١ .

وكتب إلى ابن حَوْشَب أن يُبَصِّرَهُ ويرشده ويلقنه ، ووصَّى أبا عبد الله في الوقت نفسه أن يمثّل سيرته وينظر إلى أفعاله ويحتذّيها^{٤٥} .

وذكر القاضي النعمان أن الإمام طلب إلى أبي عبد الله أن يذهب بعد ذلك حيث يشاء يدعو ، وقيل إنه حَدَّد له المغرب وأرسله إلى بلد كُتّامة ، وعلّق على ذلك بأنه « أثبت الأمرين »^{٤٦} . ويفهم من نص « سيرة جعفر الحاجب » وما ذكره ابن خلدون والمقريزي ، أن الإمام أرسله بعد اليمن إلى مصر وأنه التقى بحاج كُتّامة بمكة في طريقه إلى مصر فمضى معهم إلى المغرب^{٤٧} . وقد عَدَّ المقريزي أبا عبد الله الشيعي « أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظام من غير مال ولا رجال »^{٤٨} .

كان الشمال الإفريقي أرضًا مهيأة لُنُصْرَةِ المذهب الإسماعيلي ، ذلك أن التَّشْيِيع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعرب وللعصبية العربية . فكما اعتمد في المشرق على الموالي من الفرس اعتمد في المغرب على الموالي من البربر ، فقامت فيه بالفعل أسرة شيعية من الفرع الحسيني أُسِّسَتْ سنة ١٧٣/٧٨٨ « دولة الأدارسة » التي سيطرت بدون مشقة كبيرة على المغرب الأقصى^{٤٩} ، كما اشتمل المغرب الأوسط في النصف الثاني للقرن الثالث/التاسع - باستثناء الأراضي التابعة لإمام تاهرت - على إمارات كثيرة تابعة للعلويين بلغ عددها كما يذكر الجغرافي اليعقوبي ، الذي زار المنطقة بين سنتي ٢٦٣/٨٧٦ - ٢٧٦/٨٨٩ ، تسع إمارات علوية^{٥٠} .

^{٤٥} المصدر نفسه ٥٩ ، عماد الدين إدريس : المصدر السابق ٧٢ .

^{٤٦} نفسه ٥٩ - ٦٠ .

^{٤٧} ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١ ، المقريزي : اتعاظ ١ : ٥٠ .

^{٤٨} المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ : ٦٨ .

^{٤٩} عن هذه الدولة راجع ، حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب قيامها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجري ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة .

^{٥٠} اليعقوبي : كتاب البلدان ، لندن ١٨٩٢ ، ٣٥١ - ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، Talbi, M., L'Emirat

وقد كان فرار العلويين من الشرق هرباً من الاضطهاد الذي تعرضوا له هناك . وكانوا جميعاً تقريباً من فرع الحسن بن علي الذين لوحقوا من العباسيين دون هوادة ، بينما احترم العباسيون جعفر الصادق وذريته عامة . وقد تمكن هؤلاء العلويون من التمرکز في الشمال الإفريقي في الأراضي التي ضعفت فيها سلطة الخليفة العباسي وممثليه ، ولكن وجودهم لم يمثل ثورة على السلطة العباسية وإنما فراراً من اضطهادها لهم ^{٥١} .

ولا شك في أن المذهب الشيعي قد دخل إلى إفريقية بصورة أكثر سرية وتنظيماً قبل وصول الداعي الإسماعيلي أبي عبد الله الشيعي ، فقد وصل أول تسلل شيعي إسماعيلي إلى إفريقية في أواسط القرن الثاني/الثامن قبل نحو ١٣٥ عاماً من وصول أبي عبد الله الشيعي إلى هناك ، وهي بعثة الداعين أبي سُفيان والحلواني . وقد ذكر خبر هذين الداعين باقتضاب ابن الأثير - الذي نقله في أغلب الظن عن المؤرخين الرقيق القيرواني وعبد العزيز بن شدّاد - والثوري وابن خلدون والمقريزي ^{٥٢} ، بينما لم يذكرهما إطلاقاً ابن عذاري وابن حمّاد الصنهاجي . أما تفصيل أخبار بعثة أبي سُفيان والحلواني ونشاطها ، فقد وصل إلينا عن طريق التاريخ الرسمي للدولة الفاطمية من خلال كتاب « افتتاح الدعوة » للقاضي النعمان ^{٥٣} . ويفيدنا هذا الكتاب بأنهما قدما من الشرق للاستقرار في المغرب سنة ٧٦٢/١٤٥ وأن الذي بعثهما - فيما يقال - الإمام جعفر الصادق وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة وينشرا فضلهم ، وطلب منهما أيضاً اجتياز حدود إفريقية ذاتها والافتراق والاستقرار بين البربر .

وقد استقر أبو سُفيان ببضواحي مَرْمَاجَنَّة في تالا التي صارت بتأثيره « دار

^{٥١} Talbi, M., op. cit., p. 569

^{٥٢} ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣١ ، الثوري : نهاية - خ ٢٦ : ٢٤ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١ ،

المقريزي : اتعاظ ١ : ٥٠ ، Talbi, M., op. cit., p. 574

^{٥٣} القاضي النعمان : افتتاح ٥٤ - ٥٨ وعنه عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٤ : ٣٢٤ - ٣٢٥ .

شيعة « بصورة تدريجية وحافظت على ذكره وتعاليمه بعد موته بورع شديد ^{٥٤} . أما الحلواني ، الذي عاش « دهرًا طويلًا بعد أبي سفيان » ، فذهب إلى ناحية سوجمار واستقر بالناظور على حدود بلاد كُتامة « وتشيع كثيرٌ منهم على يديه » وكان يقول لهم : « بُعثت أنا وأبو سفيان فقيل لنا : اذهبا إلى المغرب فإنما تأتيان أرضًا بورًا فاحرثاها واكرباها وذللّاها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذلة فيبذر حبّه فيها » ^{٥٥} . وأضاف القاضي النعمان ، مصدر كل هذه المعلومات ، أنه كان « بين دخولهما المغرب ودخول صاحب البذر - وهو أبو عبد الله - مائة وخمس وثلاثون سنة » ^{٥٦} .

وهكذا فإن القاضي النعمان قد حاول من خلال هذا النص الإيحاء بأن المهمة التي أوكلت إلى أبي عبد الله الشيعي لم تكن سوى ترويج لعمل دُبر بعناية بديء به قبل مائة وخمس وثلاثين عامًا مضت . ولكن الاحتمال الذي يمكننا الأخذ به هو أن أبا سفيان والحلواني كانا تلميذين لجعفر الصادق ولم يقوما بدعوة بالمعنى المعروف في الاصطلاح الإسماعيلي ، وإنما قاما بشيء مختلف وأبسط من ذلك بكثير تمثل في نشرهم محبة أهل البيت وفضلهم الذي صاحبه دون شك نشر الأصول العامة للمذهب الشيعي وهو الذي أطلق عليه القاضي النعمان « ظاهر علم الأئمة » ، فيكون أبو سفيان والحلواني رائدين بهذا المعنى وهيئ التربة للداعي الإسماعيلي ^{٥٧} .

ولا شك أن إنجاح مهمة أبي عبد الله الشيعي كان يتطلب إيجاد مبشرين يعلنون عن ظهوره وظهور المهدي إثره ، وهو الأمر الذي أسهم في تجسيد قصة أبي سفيان والحلواني لتحقيق علامات وصول الفاطميين إلى السلطة بعد مراحل

^{٥٤} نفسه ٥٤ - ٥٦ ، نفسه ٣٢٤ - ٣٢٥ .

^{٥٥} نفسه ٥٧ - ٥٨ ، نفسه ٣٢٥ .

^{٥٦} نفسه ٥٨ ، وانظر كذلك 56-58 pp. Dachraoui, F., Le Califat Fatimide au Maghreb

^{٥٧} Talbi, M., op. cit., pp. 577 - 78

ثلاث هي الحرث والبذر والحصد . فيذكر ابن الأثير والمقرئ أن ابن حوشب عندما عهد إلى أبي عبد الله الشيعي بالدعوة في المغرب قال له : إن أرض كُتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان ، وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك ^{٥٨} .

في هذا الوقت وقد الإمام الإسماعيلي على بلاد الشام وأقام في مدينة « سَلَمِيَّة » قرب حِمص يعاشر قومًا من أهلها هاشميين ويظهر لهم أنه عباسي . وفي الوقت نفسه كان يلاطف كل من يلي سَلَمِيَّة ويبالغ في الإحسان إليه حتى يكسبه إلى جانبه ^{٥٩} . وقد استراب أحد ولاة المدينة من الأتراك في أمر الإمام الإسماعيلي وأخذ يتعرف أخباره ويسأل عنه الناس ، فلما أحس به الإمام كتب إلى دعائه ببغداد للعمل على عزله ونجحوا في مهمتهم . وعندما عاد الوالي إلى بغداد أسر إلى الخليفة العباسي ما قيل له عن شخص الإمام الإسماعيلي وأقنعه في أن لا يتردد في إلقاء القبض عليه ^{٦٠} .

وتصادف أن خرج في هذا الوقت رجل بالشام يزعم أنه قرمطي ^{٦١} (نحو سنة ٩٠٢/٢٨٩) ، فلم يشك الخليفة العباسي في أنه خرج يدعو للإمام الإسماعيلي خاصة وأنه سار يريد سَلَمِيَّة . فأمر الخليفة الوالي التركي بالتوجه إلى سَلَمِيَّة وأن يسبق القرمطي ليقبض على الإمام . كتب الدعوة ببغداد إلى الإمام بما جرى ليتدبر أمره ، فأعد العدة ليخرج من سَلَمِيَّة ^{٦٢} . وهكذا فلولا حركة القرامطة بالشام لما عرف العباسيون عن الإمام الإسماعيلي شيئاً ، وكانت حركتهم إيداناً

^{٥٨} ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣١ ، المقرئ : اتعاظ ١ : ٥٥ ، المقفئ (غ . لين) ٢ : ٢١٨ ظ .

^{٥٩} محمد الجاني : سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقادة ، تحقيق و . ايفانوف ، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ١٠٨ .

^{٦٠} نفسه ١٠٩ .

^{٦١} راجع ، المسعودي : مروج الذهب ٥ : ٩٢ ، م . مجهول : العيون والحلائق ٤ : ١٠٧ .

^{٦٢} محمد الجاني : المصدر السابق ١١٠ .

بظهور الإسماعيلية على مسرح السياسة بصفة إيجابية بعد أن ظلت مستترة لا يعرف أحد شيئاً عنها زهاء قرن من الزمان^{٦٣}.

وأهم مصدر يحدّثنا عن رحلة المهدي (الإمام الإسماعيلي) من سلّمية إلى مصر ثم إلى الشمال الإفريقي وما صاحبها من أحداث هو «سيرة الحاجب جعفر» ، الذي صاحب المهدي في رحلته ورواها لنا شخص يعرف بمحمد اليماني . تذكر السيرة أن المهدي أمر أصحابه بالأخذ في أهبة السفر والخروج معه «وأظهر لهم أنه يريد إلى اليمن»^{٦٤} ، يقول جعفر : «فسرنا مع المهدي لا نشك أن إلى اليمن سيرنا»^{٦٥} . سار الراكب إلى طبرية ومنها إلى الرملة حيث توجه إلى مصر فاستقبلهم بها الداعي أبو علي صهر الداعي فيروز الذي كان في صحبة المهدي . وقد طلب المهدي من أبي علي أن ينزله عند من يثق به ، فأنزله عند رجل يقال له ابن عيَّاش^{٦٦} . في ذلك الوقت وصل الكتاب الوارد من بغداد بصفة المهدي وطلب القبض عليه ، فاستفسر عامل مصر من ابن عيَّاش عن أمر الرجل الذي ينزل عنده ، فأخبره أنه رجل شريف تاجر و «أن الذي أتى الرسول في طلبه قد أعطيت خبره أنه توجه إلى اليمن قبل ورود الرسول بمدة طويلة»^{٦٧} .

كان رقاء المهدي حتى هذا الوقت يعتقدون أنهم سيتجهون إلى اليمن ، إلا أن الكتاب الوارد من بغداد إلى عامل مصر بصفة المهدي وطلب القبض عليه ، جعله يُفصِّح عن نيته في الخروج إلى المغرب وأسرَّ بها إلى حاجيه جعفر^{٦٨} فشق ذلك على مرافقيه وخاصة داعيته الرئيسي فيروز الذي وصفه جعفر بأنه «داعي

^{٦٣} محمد كامل حسين : المرجع السابق ١٥ .

^{٦٤} محمد اليماني : المصدر السابق ١١٠ - ١١١ ، القاضي النعمان : افتتاح ١٤٩ ، النويري : نهاية -

خ ٢٦ : ٣٢ ، المقرئ : اتعاط ١ : ٥٢ .

^{٦٥} نفسه ١١١ ، ١١٤ .

^{٦٦} نفسه ١١٣ .

^{٦٧} نفسه ١١٣ .

^{٦٨} نفسه ١١٤ ، القاضي النعمان : افتتاح ١٥٠ - ١٥١ .

الدعاة وأجلّ الناس عند الإمام وأعظمهم منزلة ، والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده ، وأنه باب الأبواب إلى الأئمة »^{٦٩} ، والذي خاب أمله في الاتجاه إلى اليمن فوق المهدي بين خطرين : عمال الخلافة العباسية الذين كانوا يتعقبونه ، ودعاته أنفسهم الذين انشقوا عليه وأصبح في مقدورهم فضّح أمره .

كان نجاح الداعي أبي عبد الله الشيعي في نشر الدعوة وسط قبيلة كُتامة في إفريقية وما حققه من نصر على الأغلبة من الأسباب المباشرة التي دعت المهدي إلى التوجه إلى إفريقية . وقد أدّى ذلك إلى انشقاق داعيته فيروز الذي توجه إلى اليمن ، بينما أكّد المهدي نيته وبعث جعفر الحاجب إلى سَلَمِيّة ليحضر نساء المهدي وكنوزه ويلحق به في طرابلس الغرب^{٧٠} ، ثم أرسل أبا العباس الشيعي ليلحق بأخيه أبي عبد الله في إفريقية ويعرفه بقرب قدوم المهدي^{٧١} . ونجح المهدي في نهاية الأمر بعد تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الدعوة من الوصول إلى سِجِلْمَاسَة عن طريق قَسْطِيلَة وتُوَزَّر وإيكجان . وفي سِجِلْمَاسَة ألقى عليه القبض أمير المدينة وسجنه ، في الوقت الذي كان أبو عبد الله الشيعي في طريقه إلى تفويض السلطة الأغلبية ونجح في السيطرة على مدينة رَقَادَة - عاصمة الأغلبة - وطرد زيادة الله آخر أمرائهم في رجب سنة ٢٩٦/مارس سنة ٩٠٩ فذهب إلى سِجِلْمَاسَة حيث نُحِّلَص المهدي من السجن واصطحبه ليدخل به منتصراً إلى رَقَادَة في ٢١ ربيع الثاني سنة ١٥/٢٩٧ يناير سنة ٩١٠ حيث أعلن قيام الخلافة الفاطمية وتلقب بـ « المهدي لدين الله » و بـ « أمير المؤمنين »^{٧٢} .

^{٦٩} نفسه ١١٠ ، نفسه ١٥٠ .

^{٧٠} نفسه ١١٤ .

^{٧١} نفسه ١١٦ ، القاضي النعمان : افتتاح ١٥١ - ١٥٤ .

^{٧٢} نفسه ١١٦ - ١١٩ ، نفسه ٢٤٥ - ٢٤٩ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٣٦ -

١٥٤ . راجع Dachraoui, F., op. cit., pp. 115 - 124, id., EI², art. al - Mahdi ubayd

Allah V, pp. 1233 - 1234

ومثلما تخلص العباسيون من أوى مُسلم الخُراساني مؤسّس دولتهم ، تخلص الإمام المهدي من داعيته الرئيسي أوى عبد الله الشيعي الذي مَهَّد له الطريق في إفريقية وكذلك أخيه أوى العباس الداعي^{٧٣} ، سواء لأن الداعي شك في شخصية المهدي نفسه أو لأن المهدي أراد أن يتخلص من سلطته ونفوذه المتزايد في وسط قبيلة كُتامة . وهو الأمر الذي آثار الكتّامين بعض الوقت ضد المهدي^{٧٤} . وقد حاول القاضي النعمان أن يُحمّل أبا العباس الشيعي مسؤولية الانشقاق الذي دعى المهدي إلى التخلص منهما معاً^{٧٥} .

^{٧٣} القاضي النعمان : افتتاح ٢٦٦ - ٢٦٧ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ١٦٢ - ١٦٨ ، القرطبي :

اتعاظ ١ : ٦٧ - ٦٨ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٢٣ - ٢٤ .

^{٧٤} عماد الدين إدريس : المصدر السابق ١٦٢ ، ١٧٠ .

^{٧٥} القاضي النعمان : افتتاح ٢٥٩ - ٢٦٦ .

الكتاب الأول

الشيخ السبكي

الفصل الأول

قيام الخلافة الفاطمية

في شمال إفريقيا

العالم الإسلامي في مطلع القرن الرابع الهجري عصر انتصار الشيعة

ما كاد القرن الثالث الهجري يُشرف على نهايته إلا وكان الفاطميون الشيعة قد نجحوا في تنويع نشاطهم السري المكثف الذي قام به « تنظيم الدعاة » والذي استمر أكثر من مائة وخمسين عامًا ، بإعلان قيام الخلافة الفاطمية في إفريقية في سنة ٢٩٧ / ٩٠٨ . وهكذا ، فبعد إعلان قيام الخلافة الأموية في الأندلس بعد ذلك بنحو عشرين عامًا في سنة ٣١٧ / ٩٢٩ ، أصبح يتقاسم حكم العالم الإسلامي خلافات ثلاث . خلافتان سُنَّيتان : الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في قُرطُبة ، وخلافة ثالثة شيعية هي الخلافة الفاطمية الإسماعيلية في إفريقية . وعلى الجانب الآخر كانت الدولة البيزنطية المسيحية في القسطنطينية تتربّص بها وتتحين الفرص لاستغلال هذا الانقسام الذي اعترى الإمبراطورية الإسلامية .

وقد بدأ الضعف يدب في أوصال الخلافة العباسية السنية بعد أن أخذت في التفكك إلى دول صغيرة ، وخاصة ابتداء من عصر الخليفة الرّاضي (٣٢٢ -

^١ انظر أعلاه ص ٤١ - ٦٥ .

٩٢٩/٩٣٤ - ٩٤٠). فقد انفصلت الأقاليم الشرقية عن الخلافة ، بينما أخذت بقية الممتلكات العبّاسية تستقل تدريجيًا عن سيطرة الخلافة المركزية^٢ .

وصحب ذلك مدّ شيعي كبيرٌ شهده القرن الرابع الهجري أفقّد الخلافة العبّاسية السنية الكثير من سيطرتها وسطوتها ، حتى نستطيع أن نُطلق عليه «عَصْرُ انتصار الشيعة» . فقد نجح الزيدون في إقامة دولة حاكمة في طَبْرِسْتَان سنة ٨٦٤/٢٥٠ وفي اليمن سنة ٨٩٧/٢٨٤ ، واستولى القرامطة على جنوب العراق والبحرين والأحساء . ولم يمض نحو ثلاثون عامًا على انتصار الفاطميين إلّا وقد ظهر جليًا إنهار سلطة الخلافة العبّاسية ، عندما نجح البُوَيْهِيُّونَ الشيعة في فرض سيطرتهم على بغداد مركز الخلافة السنية ، فكثرت بها الفِتَن بين الشيعة والسنة ، وجُهر بالأذان « بحَيِّ على خَيْرِ الْعَمَلِ » في الكَرْخ ، كما أقيم مأتم عاشوراء لأول مرة في بغداد^٣ .

وفي الواقع فقد أصبحت الخلافة العبّاسية ، بعد دخول البويهيين إلى مسرح الأحداث ، مؤسسة إسمية بحثة تُمَثِّلُ السُّلْطَةَ العليا للإسلام السُّنِّي ، وتُضْفِي الشرعية على السلطات المُطْلَقَة التي تَمَتَّع بها العديد من الولاة ، الذين كانت لهم السيادة الحقيقية سواء في الأقاليم أو في العاصمة العبّاسية نفسها^٤ . وبالرغم

^٢ مؤلف مجهول : العيون والحداثق ٤ : ٢٩٨ - ٢٩٩ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣٢٢ - ٣٢٤ وانظر كذلك مقال كانار Canard, M., « L'imperialisme des Fatimides et leur Propagande », AIEO VI (1947), pp. 56 - 193 .

^٣ ابن الجوزي : المنتظم ٧ : ١٥ و ١٩ و ٢٣ و ٢٣ و ٣٨ و ٤٣ و ٤٧ ؛ المقرئزي : الخطوط ٢ : ٣٥٧ - ٣٥٨ .

^٤ Lewis, B., EI^٢, art. 'Abbasides I, p. 20; Cahen, Cl., EI^٢, art. Buwayhides ou Buyides I, pp. 1390- 1397

من هذا الانتصار الشيعي الكبير ، الذي لم يتكرر أبداً بعد ذلك ، فإن هذه الأنظمة الشيعية لم تجد مجالاً للتعاون فيما بينها ، مع أنها استطاعت أن تسيطر على القسم الأكبر من العالم الإسلامي بضعة عقود ، لأنها أخذت في الواقع تتخاصم بينها دفاعاً عن مصالحها الإقليمية^٥ .

وفي وسط هذا التلاحق المُطرد للأحداث كان الفاطميون يمثلون القوة الفتية الطموحة الآخذة في التواء والتي تريد مَدَّ نفوذها وسيطرتها ، بدلاً من الخلافة العباسية المنهكة المتداعية ، على كل الأراضي الإسلامية ، وأخذوا وهم في إفريقية يتحينون الفرص للعودة إلى الشرق لتحقيق حلمهم في استرداد حكم العالم الإسلامي من منافسيهم السنيين^٦ .

الصُّعُوبات التي واجهت الفاطميين

في إفريقية

اصطدم الفاطميون في المرحلة الإفريقية بالعديد من الصُّعَاب ، فقد كان الشمال الإفريقي عندما قدم إليه الفاطميون منقسمًا بين أهل السُّنَّة (وخاصة أصحاب المذهب المالكي) والخوارج (وخاصة الإباضية والصُّفَرِيَّة) ، وجاء المذهب الإسماعيلي ليضيف مصدرًا جديدًا للاضطراب في المنطقة . كذلك فإن وجود فريقين متنافسين من القبائل البربرية : زَنَّاة في الغرب وصِنْهَاجَة - التي تنتمي إليها كُتَّامة - في الشرق كان عنصرًا مساعدًا للاضطراب والقلق في المنطقة .

^٥ Shaban, M. A., Islamic History A.D. 750 - 1055 (A.H. 132 - 448) , A New Interpretation, Cambridge 1976, p. 121

^٦ المقرئى : الخطط ٢ : ٣٥٧ - ٣٥٨ .

كما كانت هناك أيضًا أسرتان حاكمتان ذات أصول شرقية : الدولة الرستمية الخارجية في تاهرت والدولة الإدريسية العلوية في فاس^٧ .

ومنذ وصول المهدي إلى إفريقية أدرك أنها لن تستطيع أن تُحقّق أهداف الخلافة الفاطمية أولاً لقلّة مواردها ، وثانياً لمقاطعة علماء المالكية ومقاومتهم لهم ، ثم بسبب الطبيعة الجغرافية الجبلية للشمال الإفريقي وصعوبة السيطرة عليها وأخيراً لأن أنظار الفاطميين كانت متّجهة دومًا إلى الشرق ، فقد أدرك الفاطميون تمامًا أنهم إذا أرادوا أن يكونوا الحكام الوحيدين للعالم الإسلامي فليس أمامهم حلّ سوى التوجه إلى الشرق وإلى مصر بصفة خاصة . فقد كان العالم الإسلامي بحاجة ماسة إلى مركز متوسط يتولّى قيادته ، وموقع مصر الاستراتيجي في ملتقى قارات ثلاث وسيطرتها على طرق التجارة الدولية التي تربط أوروبا بالهند غنى عن البيان ، فلا غرو أن كان حلم الفاطميين في إفريقية هو العودة إلى المشرق وإلى مصر بصفة خاصة .

المقاومة السنية

وقد وجد الفاطميون صعوبات كبيرة في بسط نفوذهم المذهبي على المجتمع الإفريقي السني ، حيث واجه الخليفة المهدي مقاطعة سلبية وإنكارًا صامتًا جابه به أهل إفريقية وعلمائها المالكية . فقد ثبتت المالكية السنية أقدامها في القيروان وغيرها من دول إفريقية ، وجاهره علماء المذهب بإنكار مذهبه وازوروا عنه وتبعهم في ذلك عامة الناس . ووقفت إفريقية كلها موقف معارضة سلبية وعدم تعاون شديد الخطورة على كيان الدولة الناشئة^٨ . وبما أنه

^٧ Canard, M., EI² ., art. Fatimides II, p. 872

^٨ راجع تفصيل ذلك عند المالكي : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ٢ : ٧٤ - ٩٦ ، Marcais ،

G., La Berbérie musulmane et L'Orient au Moyen Age, Paris 1946, pp. 136 - 162;

=Monés, H., " Le Malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya ", Etudes d'Orien

لا سبيل إلى فرض دولة على أناس يقاطعونها مقاطعة تامة ويعيشون بعيداً عنها ، فقد كان طبيعياً أن يبحث الفاطميون عن « عَصَبِيَّة » يعتمدون عليها ، فلم تستقر دعائم نظامهم هناك إلا بقوة أنصارهم الكتاميين الذين أشاد الخليفة المُعِزُّ ، في كل مناسبة ، بفضلهم على الدعوة^٩ .

لذلك فقد حرص الخليفة المهدي على البعد عن رَقَاة القيروان ، مركز المقاومة السنية ، وأسس مدينة جديدة في سنة ٩١٥/٣٠٣ هي « المَهْدِيَّة » على طرف الساحل الشرقي لإفريقية فوق جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند ، وإن لم ينتقل إليها إلا في عام ٩٢٠/٣٠٨ بعد أن نُقِر ميناءها في الصخر وابتنى بها دار صناعة ونُقِر بداخل المدينة الأهراء وجلب إليها الماء ، كما بنى لي مسجداً جامعاً وقصراً كبيراً^{١٠} . وقال بعد أن شاهد تمام بنائها « اليوم آمنت على الفاطميات »^{١١} .

كان المهدي يهدف من وراء بناء هذه المدينة الساحلية إلى مواجهة البيزنطيين الذين حاولوا التعرش به من جنوب إيطاليا ومن صقلية ، إلى أن نجح في بسط سيطرة الفاطميين على الحوض الغربي للبحر المتوسط ومد النفوذ الفاطمي على جزيرة صقلية واستناب بها أسرة عربية تنتمي إلى قبيلة بني كَلْب ، وقد عمل الفاطميون كذلك على توحيد دور الأمويين في الأندلس في صراعهم مع البيزنطيين^{١٢} .

= ta liste dédiées à la mémoire de Lévi - Provençal, Paris 1962; I, pp. 209 - 225

عمره إسماعيل : « المالكية والشيعة بإفريقية إبان قيام الدولة الفاطمية » ، المجلة التاريخية المصرية ٢٣ (١٩٧٦) ٧٣ - ١٠٦ .

^٩ القاضي النعمان : المجالس والمساربات ٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢٥٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٢١ ؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين في المغرب ٦٠٦ - ٦٠٧ .

^{١٠} انظر البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (الجزائر ١٨٥٧) ٢٩ - ٣٠ ، مؤلف مجهول : الاستبصار ١١٧ - ١١٨ ، المقرئ : انعاظ ١ : ٧٠ - ٧١ .

^{١١} المقرئ : انعاظ ١ : ٧١ .

^{١٢} Canard, M., op. cit., p. 873

محاولات الفاطميين فتح مصر

وفي السنوات الأولى لحكم الخليفة المهدي باءت محاولتان لفتح مصر بالفشل (٩١٣/٣٠١ ، ٩١٩/٣٠٧) ، وتكررت المحاولات في زمن ابنه القائم بأمر الله (٩٣٤/٣٢٣) ولكنها لم تُحَقِّق شيئاً على الإطلاق^{١٣} ، بل نُبِّهت الخلافة العباسية إلى أن استمرار هذه المحاولات يتطلب وجوداً عسكرياً قوياً في مصر ، فقد اكتشف القائد مؤنس الخادم ، الذي تُصَدِّى لهجوم الفاطميين المتتالي ، أن للفاطميين عملاء كثيرين بمصر^{١٤} . فأسند العباسيون إلى محمد ابن طُغْج الإخشيد ولاية مصر بالإضافة إلى ولايته على الشام.، ولم يكن تعيينه في الواقع سوى عودة إلى النظام الطولوني الذي سقط عام ٢٩٢/٩٠٤^{١٥} .

وقد فسّر فرحات الدّشراوى في كتابه « الخلافة الفاطمية في المغرب » محاولات الفاطميين المتكررة لفتح مصر تفسيراً عاطفياً أرجعه إلى أن المهدي

^{١٣} عن محاولات الفاطميين المتكررة لفتح مصر راجع ، الطبرى : التاريخ (القاهرة ١٩٧٢) ١٠ : ١٤٨ - ١٥٠ ، القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ٣٢٦ ، ابن ظافر : أخبار ١٤ - ١٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٨٤ ، ٨٩ ، ١١٣ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ١٩ - ٢٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب ١ : ١٧٠ - ١٧٢ ، ١٨١ - ١٨٢ ، ٣٥١ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٣٥ - ٤٠ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، المقرئى : الخطط ١ : ١٧٤ ، ٣٢٧ - ٣٢٩ ، ٣٥١ ، اتعاض ١ : ٦٨ - ٦٩ ، ٧١ - ٧٢ ، ٧٤ ، المقفى ٩٠ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٧٦ - ١٨٩ ، Dachraoui, F., Le Califat fatimide au Maghreb 296 - 362 909- 973- Histoire politique et Institutions, Tunis 1981, pp. 142 - 150, 163 - 164, id., EI², art. al - Ka'im bi Amr Allah, IV, p. 479, Lev, y., " The Fatimid and Egypt 301 - 358 / 914 - 969 ", Arabica XXXV (1988), pp. 186 - 196 .

^{١٤} ابن عذارى : البيان ١ : ١٨٢ ، الكندى : الولاة ٢٧٤ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٣ : ١٨٩ .

^{١٥} الكندى : الولاة والقضاة ٢٨٧ ، ابن سعيد : المغرب (قسم مصر) ١٥٨ - ١٥٩ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٢٨ - ٣٢٩ ، Canard, M., L'impérialisme des Fatimides p. 160., Shaban, M. A., op. cit., p. 195 .

والقائم ، ذوى الأصول الشرقية ، كان يحركهما في هذه المحاولات حينئذٍ إلى الشرق وكانت أنظارهما دائماً موجهة إليه . بينما كان خليفتهما المنصور والمُعزّ ، ذوى الأصل الإفريقى ، أكثر التصاقاً بإفريقية وقضاياها الاقتصادية والاجتماعية ، فشغل المنصور بإخماد ثورات المتمردين (حركة مَعْلَد بن كَيْدَاد النُّكَّار سنة ٣٣٦/٩٤٨) ، بينما اهتم المُعزّ مباشرة بالقضايا الخارجية فوطد سيادته ونفوذه في المغرب الأقصى ، ولم يُحوّل أنظاره إلى مصر إلّا في أخريات أيام خلافته^{١٦} .

وهذا التفسير ينقصه الإشارة إلى إلحاح مصادر الدعوة الفاطمية نفسها بأن الائمة والدعاة على السواء كانوا يتحينون الفرصة للعودة إلى المشرق^{١٧} . ويكون التفسير الصحيح لهذه المحاولات هو أن قوة الفاطميين لم تكن قد نمت بعد في هذا الوقت المُبكر ، وكانت ماتزال محصورة بقبيلة كُتامة البربرية^{١٨} بالإضافة إلى المقاطعة السليبية التى واجههم بها أهل القيروان والعلماء المالكية ، وبالتالي فإنهم لم يكونوا يملكون القوة العسكرية اللازمة للقيام بمثل هذه المغامرة التى تفوق قدراتهم ، ويكونوا قد استهدفوا بهذه الحملات السيطرة على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط وتمكين نفوذهم في الصحراء الواقعة بين ممتلكاتهم في طرابلس الغرب ووادى النيل^{١٩} وإخراج النفوذ المصرى من بَرَقَة وحصره قدر الإمكان داخل حدود الوادى^{٢٠} .

^{١٦} Dachraoui, F., op. cit., pp. 250 - 260 .

^{١٧} القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ٤٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٦٦٣ حيث يورد حديثاً دار بين المُعزّ وهو في مصر ورسول لإمبراطور بيزنطة كان يتردد عليه في إفريقية حيث قال المُعزّ للرسول : « أتذكر إذ أتيتنى رسولاً وأنا بالمهدية فقلت لك : لتدخلن علىّ وأنا بمصر مالِكاً لها ، قال : نعم . قال : وأنا أقول لك لتدخلن علىّ بغداد وأنا خليفة » . وأيضاً القرينى : اتعاظ ١ : ٢٢٦ .

^{١٨} عن قبيلة كُتامة ودورها في مناصرة الخلافة الفاطمية راجع ، لقبال محمد موسى : دور قبيلة كُتامة في قيام الخلافة الفاطمية ، الجزائر ١٩٧٩ ، ٤٥ - ٥٤٤ ، Basset, R., El²., art. Kutama V, pp. 544 - 45 .

^{١٩} حول سيطرة الفاطميين على ليبيا راجع ، Hamdani, A., « Some Aspects of the History of Lybya during the Fatimid Period » , Lybya in History Beirut s.d. pp. 321 - 27 .

^{٢٠} Shaban, M. A., op. cit., pp. 192 - 193 .

المُعزّ لدين الله وتحقيق هدف الفاطميين

لا شك أن ثورات البربر المتتالية والحركات الخارجية^{٢١} التي وجدت تأييداً مؤقتاً من أهل السنة والتي أمضى الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله إسماعيل فترة خلافته في احتوائها وإخمادها ، هي التي دفعت الخليفة الفاطمي الرابع المُعزّ لدين الله إلى وضع هدف الفاطميين في التحول إلى الشرق موضع التنفيذ بعد أن كادت المشاكل التي واجهها الفاطميون في إفريقية أن تصرفهم عن تحقيق هدفهم .

فما هي أهمية الانتقال إلى الشرق لدى الخلفاء الفاطميين ودعاتهم ؟ .

كان قيام خلافة الفاطميين في إفريقية سبباً في انقسام الحركة الإسماعيلية في زمن مُبَكَّر . فقد بنيت الحركة الشيعية الإسماعيلية ضد العقيدة السنية والتطلعات العبّاسية السياسية ونمت على فكرة تدميرها ، وكوّنت لذلك

^{٢١} كانت أهم هذه الحركات ثورة أبي يزيد مَحَلَّد بن كَيْلَاد المعروف بصاحب الحمار والذي اكتسب تأييد أهل السنة وقضى على ثورته المنصور بالله سنة ٩٤٨/٣٣٦ . وقد اضطر المنصور بالله بعد انتصاره عليه إلى ترك المهديّة والانتقال إلى العاصمة الجديدة صيرة المنصورية التي أسّسها المنصور بالقرب من القيروان حتى يجعل المالكية تحت أنظاره . راجع ، القاضي النعمان : المجالس ٥٥ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٤ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٥ ، ٣٣٦ ، ٤٩٢ ، ٥٤٢ ، ٥٥٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٤٢٢ - ٤٤١ ، ابن خلّكان : وفیات ١ : ٢٣٥ ، الصفدي : الوافي ٩ : ٢٠٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب ١ : ٢١٦ - ٢٢٠ ، ٢٨٥ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٠ - ٤٥ ، المقرئ : اتعاظ الخنفا ١ : ٧٥ - ٨٦ ، المقفي الكبير ١٤٦ - ١٤٩ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٥ : ١٧٢ - ٣١ ، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ٣٤٧ - ٤١٧ ، Le Tourneau, G., " La revolte d'Abu Yazid au X^e siècle ", CT I (1953), pp. 103 - 125; Stern, S.M., EI²., art. Abū yazīd al - Nukkārī I, pp. 167 - 169; Dachraoui, F., op. cit., pp. 165 - 182, 188 - 205; Halm, H., " Der Mann auf dem Esel - Der Aufstand des Abu Yazid gegen die Fatimiden nach einem Augenzeugenbericht ", Die Welt des Orients . XV (1984), pp. 144 - 204 .

التنظيم السياسي الديني المعروف « بالدعوة » ، فانتشر دعاة الفاطميين في طول الأراضي العباسية وعرضها يقومون بنشاط سياسي وإيديولوجي ليتمكنوا من القضاء على خلافة العباسيين السنيين .

فهل أراد الفاطميون بعد تأسيس خلافتهم في إفريقية أن يستقروا بها ، أو أرادوا أن يتخذوها مركزاً تمهيدياً يُعدّون فيه العدة لينطلقوا منه نحو الشرق في محاولة لتدمير الخلافة العباسية والإحلال محلها ؟

الإجابة على ذلك أن الإمام المهدي كان بعيد النظر ووجد أن الفرصة غير مواتية للإجهاز على الخلافة العباسية ، وأنه من الأفضل للحركة الفاطمية أن تظهر على الخريطة السياسية للعالم الإسلامي ، ولأمانع أن تقوم في أحد أطرافه لتكون بعيدة عن العباسيين ولتحتفظ فقط بعداء بعيد معهم ، بحيث أن المهدي لم يُرد أن يدخل في هذا الوقت المبكر في صدام مباشر مع العباسيين . ولم يكن بعض الدعاة - وهم في الحقيقة صانعو الحركة - على مستوى إدراك المهدي للأحداث ، فلما تبينت لهم حقيقة نية المهدي بدأوا في الانفصال عن الفاطميين وانضموا إلى القرامطة وعارضوا فكرة اتجاه المهدي بعيداً عن أراضي الخلافة العباسية ، ووجدوا أن حماس الدعوة كان حتماً سيفقد وهم بعيدين عن أراضي العباسيين^{٢٢} .

وعلى ذلك فإن بلاط المعز في صبرة المنصورية لم يخل من الدعوة والرسائل الذين توافدوا عليه يحثونه على تحقيق هدف الدعوة وأن يُعجل بغزو الشرق ، فكان يجيبهم بأن الوقت لم يحن بعد ويذكرهم بمحاولات جده القائم في فتح مصر ، ويؤكد لهم يقينه في أن الله سيورث الأئمة الأرض كلها^{٢٣} . وقص

^{٢٢} Hamdani, A., « Some Considerations on the Fatimid Caliphate as a Mediterranean Power... », Atti del Terze Congresso di Studi Arabi e Islamici, Ravello - Napoli 1964, pp. 388 - 390 .

^{٢٣} القاضي النعمان : المجالس ٤٧٥ - ٤٧٦ .

علينا القاضي النعمان في « المجالس والمسايرات » خبر رؤية رأى فيها المُعِزَّ والده المنصور يتنبأ له بقرب فتح مصر^{٢٤} ، وحديثاً جرى بين المُعِزَّ ومشائخ كُتامة أخبرهم فيه بأنه لا يشك في افتتاح المشرق قريباً ، وأنهم - أى الكتامين - طردوا قديماً من المشرق ، وأنهم سيعودون إليه بفضل الأئمة^{٢٥} .

فعالية الدعاية الفاطمية

ولدينا دليلٌ مادي بالغ الأهمية يدل على تبسّيت المُعِزَّ النّية للانتقال إلى الشرق وإلى مصر بوجه خاص قبل فتحها بوقت طويل . فقد وصل إلينا « ثلاثة دنانير فاطمية » تحمل مكان الضرب (مصر) مؤرخه في السنوات ٩٥٢/٣٤١ ، ٩٥٤/٣٤٣ ، ٩٦٤/٣٥٣ ضربت ، كما هو واضح ، قبل دخول الفاطميين إلى مصر وتأسيس القاهرة^{٢٦} بغرض ترويجها بواسطة الدعاة على الأفراد الذين يتوسّمون فيهم الاستجابة للدعوة ، بالإضافة إلى « طراز » باسم المُعِزَّ عُمل بمصر في سنة ٩٦٦/٣٥٥^{٢٧} . وهو أمر غير مستبعد في ضوء ما هو معروف من كفاءة الفاطميين في خططهم . ويؤكد ذلك ما ذكره أبو المحاسن بن تغرى بردى من أن أمور الديار المصرية قد اضطربت في أواخر عهد الإخشيديين « بسبب المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميين الواردين إليها من المغرب »^{٢٨} . وقد استمال هؤلاء الدعاة نفراً من القوّاد ووجوه الرعية ، وأنفذ

^{٢٤} نفسه ٥٠٨ - ٥٠٩ .

^{٢٥} القاضي النعمان : المجالس ١٣٨ - ١٣٩ .

^{٢٦} Mils, G., Fatimid Coins p. 51 ، محمد أبو الفرج العشي : « مصر ، القاهرة على النقود العربية الإسلامية » ، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة ٩١١ - ٩١٢ ، ٩٤٧ - ٩٤٨ وقارن ذلك بما ذكره ابن الأثير وابن أيك من أن الخليفة المُعِزَّ بذل مائة ألف دينار لابن جراح الطائي إن هو خالف الحسن بن أحمد القرمطي ، وأن المصريين استكثروا هذا المال ، فضرّبوا أكثره دنانير من صفر وألبسوها الذهب وجعلوها في أسفل الأكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤسها . (الكامل ٨ : ٦٣٨ - ٦٣٩ ، كنز الدرر ٦ : ١٥٩) .

^{٢٧} Wiet, G., RCEA V, p. 11 n. 1622

^{٢٨} أبو المحاسن : النجوم ٣ : ٣٢٦ .

إليهم المُعَزَّينودًا ففرّقوها فيمن استجاب لهم وأمروهم أن ينشروها إذا قاربت
عساكره مصر^{٢٩} .

وهكذا فإن فكرة العودة إلى الشرق ومواجهة الخلافة العبّاسية كانت
الشغل الذي شغل بال الأئمة والدعاة على السواء ، ولم يبق لتحقيقها إلا تَحِينُ
الوقت المناسب .

الفاطميون يضمنون ولاء الشمال الإفريقي

وقبل أن يُقرّر المُعَزَّ التوجه إلى المشرق وتوجيه كل اهتمامه إلى تحقيق هدف
الفاطمين ، وجّه كل قوته في مغامرة عسكرية للاستيلاء على كل الشمال
الإفريقي وليختبر عن طريقها القوة العسكرية لجيشه الذي سيبحث به لفتح
مصر . وقد عهد المُعَزَّ بمهمة تثبيت سلطة الفاطمين ومَدّ نفوذهم في المغرب
الأقصى إلى القائد الشهير جوهر الصُّقْلَبِي . وقد قاد جوهر في سنة ٩٥٨/٣٤٧
حملة عسكرية ناجحة ضد البربر المناهضين للخلافة الفاطمية وخاصة في
إقليم سِجِلْمَاسَة وتاهرت ، وتمكّن خلالها من هزيمة مراكز مقاومة الفاطمين
فيما عدا المراكز التابعة لأُموي الأندلس في سَبْتَة وصالة التي احتلّها
عبد الرحمن الثالث خليفة الأندلس . وفي خلال هذه الحملة تم أسر ابن واسول
أمير سِجِلْمَاسَة الذي كان يخطب للخلفاء العبّاسيين^{٣٠} . وفي سنة ٩٦٨/٣٥٧

^{٢٩} المقرئى : المقفي الكبير ٣٣٢ .

^{٣٠} القاضي النعمان : المجالس ٢١٤ ، ٤١١ - ٤١٢ ، ابن ظافر : أخبار ٢٢ ، ابن الأثير : الكامل
٨ : ٥٢٤ - ٥٢٥ ، ابن خلكان : وفیات ٥ : ٢٢٥ ، ابن عذارى : البيان ١ : ٢٢٢ ،
التويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٣٨ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٦ - ٤٧ ، القلقشندي : صبح ٥ :
١٦٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٧٧ - ٣٧٨ ، المقفي الكبير ٣٢٧ - ٣٢٨ ، اتعاظ الحنفا ١ :
٩٣ - ٩٤ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطمين ٦٠٢ - ٦٣٣ ، Dachraoui, F.,
op. cit., pp. 230-234; id., " La captivité d'Ibn Wasul le rebelle de Sililmassa d'après
le Cadi an - INu'man " CT IV (1956), pp. 295-99; Idris, H.R., La Ber beérie
Orientale Sous les Zirides pp. 24 - 28; Monès, H., EI^٢, art. Djawhar II, p. 50

قاد جوهر حملة مماثلة بغرض فرض النظام في المغرب الأقصى^{٣١}. وقد أثبتت هذه الحملات أن جوهر الصُّقْلَبِي كان بلا شك أكبر قائد عسكري عرّفه الفاطميون، ووجهت انتصاراته المُنْظَرَةُ أنظار الخليفة المُعِزَّ إلى مواهبه العسكرية وأقنعتَه بأن باستطاعته، بمساعدة هذا القائد الفذ، أن يُحَقِّقَ أغلى آماني الفاطميين منذ اعتلائهم السلطة: «فتح مصر».

حالة مصر الداخلية إبان الفتح

كانت السلطة الحقيقية في مصر خلال عهد الإخشيديين، الذين خلفوا المؤسس الأول محمد بن طُغْج، في يد كافور العبد الأسود الخصي الذي أصبح قائد جيوش الإخشيديين ومُدَبِّرُ أمر مملكتهم^{٣٢}.

وقد أثار الفاطميون من جانب والحمدانيون من جانب آخر الخلافات في ممتلكات كافور الذي تمكن من الاحتفاظ بسيطرته عليها بفضل حُنْكَته السياسية^{٣٣}. فقد كثر دعاة الفاطميين في مصر ونجحوا في استمالة عدد كبير من أهل البلاد^{٣٤}، حتى إن يوم عاشوراء كان لا يخلوا من الفتن عند قبر كُلُّثَم وقبر السيدة نفيسة، وكثرت المنازعات بين الجُند السودانيين وجماعات من الرعية كان الجنود يتعصبون فيها على الشيعة^{٣٥}. وبشر هؤلاء الدعاة أتباعهم بقرب

^{٣١} المقرئى: المقفى ٣٢٩.

^{٣٢} راجع، ابن سعيد: المغرب (قسم مصر) ١٩٩ - ٢٠١، حسن إبراهيم حسن: «كافور الإخشيد»، مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول (١٩٤٦) ٢٣ - ٤٦، سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الإخشيديين: القاهرة ١٩٧٠، ١٢٤ - ١٥٨، Ehrenkreutz, A.S., EI², art., Kāfūr IV, pp. 436 - 437.

^{٣٣} أبو المحاسن: النجوم ٤: ٦، Shaban M. A., op. cit., p. 196.

^{٣٤} ابن زولاق: أخبار سيويه المصري ٤٠ وفيه أن أبا جعفر أحمد بن نصر شيد داراً كبيرة كانت تؤخذ فيها البيعة لصاحب المغرب، المقرئى: اتعاظ ١: ١٠٢، الخطط ١: ٣٢٧، ٢: ٢٧، ابن الزيات: الكواكب السيارة ٦٣ وفيها أن القاضي أبا الطاهر الدُّهْلِي ناظر رسولاً قدم مصر من قبل المُعِزَّ، سيدة كاشف: للرجع السابق ٣٨١.

^{٣٥} المقرئى: الخطط ٢: ٣٤٠، اتعاظ ١: ١٤٦.

قدوم جيوش الفاطميين متى ذهب الحجر الأسود ، يعنون كافور^{٣٦} .

واجتمعت عدّة عوامل مهّدت الطريق لتحقيق هدف الفاطميين في غزو الشرق ، كان على رأسها الحالة الاقتصادية السيئة التي كانت تمر بها مصر في أواخر حُكم الإخشيديين (٣٥٢ - ٩٦٣/٣٥٨ - ٩٦٨)^{٣٧} وضعف الخلافة العبّاسية المتزايد تحت سيطرة الشيعة البويهيين^{٣٨} . وجاءت وفاة كافور في سنة ٩٦٨/٣٥٧ لتزيل آخر عقبة أمام الفاطميين نحو تحقيق هدفهم^{٣٩} ، فلم توجد شخصية قوية تخلف كافور في البيت الإخشيدى^{٤٠} ، وتولّى زمام الأمور الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات فعجز عن قلبية رغبات الطائفتين الإخشيدية والكافورية ، في نفس الوقت الذي استمر فيه نقص ماء النيل وتزايد فيه الغلاء واضطربت الأسعار مع هبوط قيمة الخراج^{٤١} . فضاق قوم

^{٣٦} القاضي عبد الجبار : تثبيت دلائل النبوة ٦٠٤ ، المقرئى : اتعاظ ١ : ١٠٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٧٢ - ٧٣ .

^{٣٧} قصر ماء النيل ابتداء من سنة ٩٦٣/٣٥٢ ووقع الغلاء في كل البلد وكثرت الفتن ونهبت الضياع وزاد غضب الناس لارتفاع الأسعار ، وفي سنة ٩٦٧/٣٥٦ بلغ ماء النيل اثني عشر ذراعاً وأصابع وهو مالم يحدث من قبل . (ابن الأثير : الكامل ٨ : ٥٩٠ ، ابن سعيد : المغرب ١٩٩ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٧ - ٤٨ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٣٤٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٢٩ - ٣٣٠ ، إغاثة الأمة ١٢ - ١٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٣ : ٣٢٦ .

^{٣٨} ابن الأثير : الكامل ٨ : ٤٥٢ - ٤٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٧٢ .

^{٣٩} ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٦ ، ٥ : ٢٢٥ ، ابن عذارى : البيان ١ : ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ابن سعيد : المغرب ٢٠١ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٣٤٤ ، المقرئى : اتعاظ ١ : ١١٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٧٢ - ٧٣ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٦٦ .

^{٤٠} بعد وفاة كافور عقد الأمر بمصر للأمير ألى الفوارس أحمد بن على الإخشيد على أن يكون القائم بتدبير أمره الحسن بن عبيد الله بن طنج والى الرملة ، ولكن السلطة الفعلية في مصر كانت في يد الوزير ابن الفرات . (النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٢١ ، المقرئى : المقفى ٣٠٠ ، ٣٢٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٠ ، ٢١ ، Biahquis, Th., " L'acte de succession de Kāfūr , ٢١ ، ١٠ ، d'après Maqrizi ", An. Isl. XI (1974), pp. 263 - 69

^{٤١} يحيى بن سعيد : تاريخ ١٢٩ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٤٧ ، ٥ : ٢٢٥ ، ابن سعيد : المغرب ٢٠١ ، النجوم ١٠١ ، المقرئى : إغاثة ١٣ ، الخطط ١ : ٩٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٣ : ٣٢٦ ، ٤ : ٢٣ .

من المصريين بالأوضاع وكتبوا إلى المُعِزِّ بإفريقية يدعونه لإرسال جنوده لِيُسَلِّمُوا إليه مصر^{٤٢} ، ولم يقصد هؤلاء المصريون المُعِزَّ إلا لإدراكهم مدى ضعف الخلافة العبَّاسية الواقعة تحت سيطرة الشيعة البويهيين ، ولتوسُّمهم في الخلافة الفاطمية قوة فتية قادرة على تدارك ما اعتري البلاد من تدهور وفساد^{٤٣} .

وقد حاول الوزير ابن الفُرات إصلاح بعض هذا الفساد ، فخانه سوء تدبيره وأدَّى به إلى محاصرته في داره وتهديد حياته من قِبَل الإخشيدية والكافورية ، بعد أن قَبِضَ على جماعة وصَادَرَهُمْ كان من بينهم يعقوب بن كِلْس - وهو يهودى من أهل العراق أسلم في زمن كافور^{٤٤} - ولكنه تمكَّن من الهرب مستتراً إلى إفريقية حيث التقى بالخليفة المُعِزَّ وأطلَّعه على ما تمرُّ به مصر من أزمات سياسية واقتصادية^{٤٥} ، فوجد المُعِزَّ الفرصة المناسبة لإرسال جيشه لفتح مصر . ومن الممكن أن يكون ابن كِلْس قد اعتنق المذهب الإسماعيلي وهو ما يزال بمصر على يد الدُّعَاة . وستوضِّح لنا الأحداث كيف لعب هذا اليهودى^{٤٦} دوراً بارزاً في تثبيت دعائم الدولة الفاطمية في مصر ، حيث أسند له

^{٤٢} ابن زولاق : فضائل مصر ٤٥ ط ، القاضي عبد الجبار : تثبيت دلائل النبوة ٦٠٤ - ٦٠٥ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٢٩ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ٨٧ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٦ ، ابن سعيد : النجوم ١٠١ ، الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٤ ، المقرئى : إغاثة ١٣ ، الملقى ٣٨٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٠ ، ابن إياس : بدائع ١/١ : ١٨٤ .

^{٤٣} بلغ من فساد الأوضاع أن آخر حكم الإخشيديين أن ابنة الإخشيد اشترت صبية مغربية . بمئة دينار لتمدن بها . فلما بلغ ذلك المُعِزَّ قال لأصحابه : إن الغرة قد ذهبت من نفوس الرجال بمصر حتى إن امرأة من بنات ملوكهم تخرج لتشتري لنفسها جارية تتمدن بها . (المقرئى : انماظ ١ : ١٠٠) .

^{٤٤} انظر فيما يلى ص ٢٤٧ .

^{٤٥} ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٤٧ ، الصفدى : الوافى ١١ : ١٢٠ ، ابن شاکر : فوات ١ : ٢٩٣ ، ابن تطلون : تاريخ ٤ : ٥٥ ، المقرئى : الملقى ٣٨١ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢١ ، سيد كاشف : المرجع السابق ٣٨٢ - ٣٨٣ .

^{٤٦} عن دور اليهود في التاريخ الإسلامى ودور يعقوب بن كلس بصفة خاصة راجع كتاب Fischel, J. W., Jews in the Economic and Political Life in Medieval Islam, New York 1969, pp. 45 - 69 Dachraoui ولعرض شامل لتاريخ الفاطميين في شمال إفريقية راجع كتاب =

المُعِزَّ ، بعد أن دَخَلَ مصر ، أمر تنظيم الإدارة الحكومية الفاطمية والإشراف على الدُّعْوَة نفسها .

= المذكور في هامش ١٣ أعلاه وللمؤلف نفسه " L'Ifrigiya sous la dynastie des Fatimides " in histoire de la Tunisie - le Moyen Age, Tunis, S.d., II, pp., 205 - 252 وأيضاً Brett, M., " the Fatimid Revolution (861 - 943) and its Aftermath in North Africa " , Cambridge History of Africa 1978, II, pp. 589 - 636 .

الفصل الثاني

انتقال الخلافة الفاطمية

إلى المشرق

مقدمات الفتح

عندما أعلن الخليفة المُعِزُّ عن عزمه على التوجه إلى الشرق وعن إرسال جيشه لفتح مصر ، لم يتخذ هذا القرار إلا بعد أن كان قد استعد لذلك تمامًا ووَضَعَ الضمانات الكافية لإنجاح مشروعه .

وقد رأينا كيف مدَّ المُعِزُّ السيطرة الفاطمية على جميع أراضي الشمال الإفريقي ، فيما عدا النقاط الحصينة للأمويين في المنطقة ، وكذلك على الجُزُر المختلفة الواقعة في البحر المتوسط مثل : سَرْدِينِيَّة وإقريطش (كريت) وصقلية . كما أنه حاول كذلك فتح الأندلس أو على الأقل تحييد دورها في صراع الفاطميين مع العباسيين .

ورغم الفراغ السياسي الذي كان يغلب على الشمال الإفريقي ، بمعناه الواسع ، فإن الفاطميين لم يحاولوا إطلاقاً تركيز جهودهم في هذه الساحة وتنظيمها والاستقلال بها . كذلك فإنهم لم يحاولوا إنشاء إمبراطورية مغربية إفريقية ذات وحدة اقتصادية تجعل منها منطقة ذات قوة وحيوية كبيرتين . لأن الفاطميين كان لهم اختيارٌ استراتيجي مغاير هو الانطلاق إلى الشرق ، وحاولوا فقط طوال فترة إقامتهم بإفريقية تنظيم قاعدة انطلاق لهم ، وذلك بضمان أطراف آمنة مُتَمَرِّكة غرباً في المغرب الأوسط وشرقاً في طَرَابُلُس وبرقة وبحراً في صِيقِلِيَّة .

كذلك فقد كان يهتم الفاطميون ، إلى جانب هذا التنظيم الأساسي ، بلوغ هدفين استراتيجيين هامين يتمثلان في السيطرة الكاملة على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ويتضح هذا من بناء « المَهْدِيَّة » وإعادة بناء أسطول سُوسَة والحرص على التمكن من طرابلس وبرقة ، وكذلك في المحاولات المستمرة للسيطرة على مصر نفسها لفتح الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، ولضمان إمكانية التدخل المباشر عن طريق البحر الأحمر واليمن في تجارات المحيط الهندي والشرق الأقصى . وهذا هو ما أسماه ماريوس كانار M. Canard بالإمبريالية الفاطمية " L'impérialisme des Fatimides " ^١ . والذي يثبت أن الفاطميين كان لهم اختياراً استراتيجياً شرقى ، وأنهم لم يعتقدوا أبداً أن الشمال الإفريقي يصلح لتحقيق أهدافهم البعيدة ، ويُفسّر لنا كذلك المحاولات المستمرة لفتح مصر سواء عن طريق التدخل العسكرى المباشر أو الدعاية السياسية أو الطرق الدبلوماسية ^٢ .

ولا شك أن الفاطميين بعد انتقالهم إلى الشرق تخلّوا تماماً عن الشمال الإفريقي واكتفوا بتركه لأسرة بربرية محلية تدين لهم بالولاء . فقد أدرك المهدي منذ وصوله إلى إفريقية أنها لا يمكنها أن تحقق أهداف الفاطميين ، وأنهم إن أرادوا أن يكونوا في يوم من الأيام الحكّام الوحيدين للعالم الإسلامى فليس أمامهم خيارٌ سوى الرجوع إلى الشرق .



وقد ساعدت سرعة تعاقب الأحداث في مصر في السنوات الأخيرة للحكم الإخشيدى مع ماصاحبها من فوضى سياسية وأزمات اقتصادية ، دون أن ننسى

^١ انظر أعلاه الفصل الأول هـ ^٢ .

^٢ عمر السعيدى : « انتقال الفاطميين إلى مصر » ، ملتقى القاضي النعمان الثالى للدراسات الفاطمية ، تونس ١٩٨١ ، ١٤٨ - ١٤٩ .

النجاح الكبير الذي حققه الدعاة الفاطميون ، ولا الدور الذي لعبه ابن كِلْس ، ساعدت كل هذه الظروف على تعجيل تحقيق حُلْم الفاطميين .

وقد بدأ الفاطميون منذ سنة ٩٦٦/٣٥٥ باتخاذ إجراءات عملية للانتقال إلى الشرق وإلى مصر بصفة خاصة . فقد أمر المُعِزُّ بِحُفْرِ الآبار في طريق مصر وأن يُبنى له في كل مَنَزَلَةٍ قصرًا^٢ ، وقد قام بالإشراف على بناء هذه القصور (استراحات) الأمير تميم بن المُعِزِّ الفاطمي ، وقد كُشِفَتْ حفائر حديثة أقيمت بمدينة أَجْدَايَّة بليبيا عن أطلال أحد هذه القصور الذي نُقِلَتْ زخارفه الرائعة إلى متحف الشُّحَات قرب البيضاء بليبيا^٣ .

فَتْحُ مِصْر

لن أعيد هنا ذكر قصة فتح الفاطميين لمصر ، ولكن سأكتفى بالتذكير ببعض الأحداث التي تبدو لي ذات دلالة خاصة حتى نستطيع أن نفهم عقلية الفاطميين وتوجهاتهم^٤ .

ففي المحرم سنة ٩٦٨/٣٥٨ جمع المُعِزُّ لدين الله بالقرب من رَقَّادَة^٥ نحو مائة ألف فارس أغلبهم من القبائل البربرية ، وخاصة كُتَّامة وزُؤَيْلَة ، ومن

^٢ المقرئى : اتعاط ١ : ٩٦ .

^٤ حول هذا الموضوع راجع مقال عثمان الكعاك : « مسلك القاهرة » في الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة ١٩٧٣ ، ٧٨٢ و ٨٣٢ - ٨٣٣

^٥ عن المظاهر السياسية والاجتماعية والعسكرية للفتح الفاطمي لمصر راجع Lev, Y., " The and Social Aspects ", Isr. or. St. Fatimid conquest of Egypt- Miliary, Political IX (1979), pp. 315 - 28 مقال بيانكى بالإضافة إلى Th. Bianquis المذكور فيما يلى هـ^{١٥} .

^٦ تذكر بعض المصادر أن ذلك كان بالقرب من صيرة للتصورية ولكن الشاعر ابن هاني الأندلسي الذي حضر هذه المناسبة بنفسه يذكر أنها بالقرب من رَقَّادَة .

الصُّقَالِبَةُ^٧ . وفى يوم الأحد ٢٧ المحرم منحهم المِعِزُّ رواتبهم التى تراوحت بين ألف دينار وعشرين دينارًا تبعًا لرتبتهم^٨ . وفى ١٤ ربيع الأول استعرض المِعِزُّ هذا الجيش الجرار وقَدَّم لهم جَوْهَر الصُّقْلَبِيَّ^٩ القائد الذى سيقودهم لفتح مصر والذى منحه المِعِزُّ تفويضًا كاملاً بسلطاته العسكرية والسياسية والمالية .

وقد أُعِدَّ هذا الجيش بعناية فائقة من ناحية العُدَّة والعَتَاد ، وكذلك من الناحية النفسية عن طريق الدعاية السياسية المنظَّمة التى مهَّد بها الفاطميون لهذا الحَدَث . وتذكر لنا المصادر أن جوهر حمل معه أكثر من ألف ومائتى صندوق مليئة بالأموال ، غير الذهب الذى جمعه الفاطميون طوال فترة إقامتهم فى إفريقية تحسبًا لهذا اليوم ، وقد أُفْرِغَ هذا الذهب على هيئة الأُرحية وحمله جوهر على ظهور الجمال ظاهرًا للعيان^{١٠} .

ولعل جُمْلَةً ما أنفقه المِعِزُّ على تجهيز جيش جوهر ، والذى بَلَغَ ، تبعًا

^٧ ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٣٧ ، المقرئى : الخطط ١ : ٩٤ ، ٣٧٨ ، اتعاظ ١ : ١١٣ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٤٥ ، Der ، Beshir, B. I., " Fatimid Military Organization ", Islam 55 (1978), pp. 37,44; Lev, Y., " Armtly, Regime and Society in Fatimid Egypt, 358 - 487 / 968 - 1094 ", IJMES 19 (1987), pp. 338 - 47

^٨ نفسه ٥ : ٢٢٦ ، المقرئى : المقفى ٣٣٠ .

^٩ جاء نسب جوهر فى أغلب المصادر « الصُّقْلَبِيَّ » . ورسم هذه الكلمة يتأثل مع كلمة « صُّقْلَبِيَّ » بزيادة نقطة الباء . ونحن لا نملك معلومات كافية عن انتشار العنصر الصُّقْلَبِيَّ فى بلاط الفاطميين ، وإنما نعلم أن عبيد الفاطميين فى الدور الإفريقى كانوا ، على الأغلب ، من الصُّقَالِبَةِ الذين كانوا يطالبون دائمًا بمساواتهم بالكتامين . (القاضى النعمان : المجالس ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٢١) كما أن Ivan Herbek أوضح بحجج قوية أن صحة نسبة جوهر هى الصُّقْلَبِيَّ وليس الصُّقْلَبِيَّ Herbek, I., " Die Slaven im Dienst der Fatimiden ", Archiv Orientali XX I (1953), pp. 543 - 81 وعن مراجع ترجمة جوهر انظر Monés, H., EI² ., art. Djawhar al - Sikilli II, pp., 507 - 508 ، وماذكر من مراجع وأضف إليها المقرئى : المقفى ٣٢٧ - ٣٥٣ .

^{١٠} ابن سعيد : النجوم ١٠٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٧٨ ، الاتعاظ ١ : ١١٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٩ ، ٤١ ، عماد الدين أدریس : تاريخ الخلفاء ٦٦٧ - ٦٦٨ .

للمرويات ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار^{١١} ، وخروجه بنفسه ومعه ولى عهده وكبار رجال دولته لوداع جوهر وجيشه وحرصه على الاختلاء به وتوجيهه إلى أهمية ماهو مقدم عليه^{١٢} ، يدل على مدى الأهمية التي كان يعلقها المعز على فتح مصر .

وهكذا رحل جوهر على رأس الجيش الفاطمي يوم السبت ١٤ ربيع الأول سنة ٩٦٩/٣٥٨ إلى الشرق لينجز أهم أعمال الفاطميين التي ضمنت لهم مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي : فتح مصر .

وعندما وصل جوهر إلى مصر وتسلمها يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٩٦٩/٣٥٨ لم يواجه الجيش الفاطمي أية مقاومة حقيقية ، اللهم إلا من بعض فلول الإخشيدية والكافورية . وقد وصّف المفاوضون المصريون الذين تفاوضوا مع جوهر وكتب لهم « الأمان » حجم جيشه بأنه « مثل جمع عَرَقات كثرة وعُدّة »^{١٣} « حتى قيل إنه لم يبطأ الأرض بعد جيش الإسكندر أكثر عددًا من جيوش المعز »^{١٤} .

^{١١} الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٣٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٣ ، اتعاظ ١ : ٩٧ .

^{١٢} ابن سعيد : النجوم ١٠٦ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٨ ، الصفدى : الواق ١١ : ٢٢٦ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٧٨ ، الاتعاظ ١ : ١١٤ ، للمقنى ٣٣٠ .

^{١٣} ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٤٥ ، المقرئى : المقنى ٣٣٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٨ .

^{١٤} المقرئى : اتعاظ ١ : ١٠٧ .

^{١٥} المقرئى : الخطط ١ : ٩٤ . وراجع Bianquis, Th., "La prise du pouvoir par les

الفاطميون في مصر

لم يكن الفتح الفاطمي لمصر يعنى قيام حكومة مكان أخرى ، بل كان بمثابة انقلاب ديني ثقافي واجتماعي بعيد المدى ، صَحِبَهُ تحوُّلٌ ظاهرٌ في نظام الحكم تَحَلَّقَ موقفًا جديدًا تمامًا . فلأول مرة في التاريخ الإسلامي تُحكَّم مصر بدولة لا تدين حتى بالولاء للإسمى لبغداد . فمع دخول الفاطميين إلى مصر تزايد دورها في العالم الإسلامي وتحوُّلٌ بشكل أساسي . حقيقة أن الطولونيين والإخشيديين بدأوا سياسة جديدة خاصة بمصر ، ووضعوا أُسُسَ نواة حرية لها دورها في المنطقة ؛ إلا أن طموحاتهم كانت محدودة في بعض الأطماع الشخصية ، وكانوا يدورون في فلك السياسة العباسية^{١٦} . أما الفاطميون ، الحكام الجُدِّد ، فكانوا يتزعمون حركة دينية فلسفية اجتماعية عظمى كان هدفها لا يقل عن تحويل وتجديد كل الإسلام ، وكانوا يرون في أنفسهم الأئمة الأحقاء بحكم العالم الإسلامي بمقتضى الحق الإلهي في الحكم ، فهم أبناء فاطمة بنت الرسول ﷺ . ومهما قيل في صِحَّة نسبهم أو عدمه ، وهل كانوا حقًا ينتسبون إلى السيدة فاطمة ، أم كانوا مجرد أدعياء مَهَرَّة ، فالحقيقة الثابتة أن عددًا غير قليل من الأتباع قد آمنوا بقضيتهم ودافعوا عنها^{١٧} .

وكان تولَّى الفاطميين الحكم بمصر وتأسيسهم خلافة مُسْتَقِلَّة بها ، هو عودة إلى وضع جغرافي سياسي أنشأته الوقائع وثبَّتته أحداث التاريخ . فالعالم الإسلامي كان بحاجة دائمًا إلى مركز متوسط كانت تشغله الإسكندرية في العصر الروماني البيزنطي^{١٨} ، ولاشك أن الفاطميين قد تنبَّهوا لذلك ، كما

^{١٦} Lewis B., "the Fatimid and the Route to India" RFSE Univ. Istanbul IX

(1949-50), p. 51; id., « An Interpretation of Fatimid History », CIHC, P. 288

^{١٧} عن قضية النسب الفاطمي انظر أعلاه ص ٣٢ - ٣٩ .

^{١٨} Blachère, R., " La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme arabo -

islamique IV^e siècle ". CIHC, p. 95

وجدوا مصر بسعة مواردها وكثرة أرزاقها ومكانها من القلب بالنسبة للعالم الإسلامي ، قادرة على تحقيق أهدافهم الاستراتيجية في يوم من الأيام . وإذا كان الفاطميون قد فشلوا في كسب كل العالم الإسلامي لصفهم لتمسكهم بتحدياتهم الإيديولوجية التي عزّلوا أنفسهم بسببها عن إجماع المسلمين ، فإن « القاهرة » التي أرادوا أن يحكموا منها العالم الإسلامي ، سجل لها التاريخ دورها في قيادة هذا العالم أمام كل التيارات الأجنبية بدءاً من المدّ الصليبي ومروراً بالغزو المغولي وحتى العصر الحديث ، وأثبتت بُعد نظر الفاطميين عندما اختاروا مصر ليحققوا من خلالها أهدافهم .

وَلَايَةُ جَوْهَرِ الْقَائِدِ

كان أول عمل قام به القائد جوهر بعد فتح مصر هو اختطاط مدينة جديدة ، بناء على توجيهات الخليفة المعزّ ، قصد بها أن تكون مدينة ملكية وعاصمة للإمبراطورية العالمية الشاملة التي تضم جميع الأراضي الإسلامية ، هي مدينة « القاهرة » في الشمال الشرقي للفسطاط^{١٩} .

وقد أدرك القائد جوهر ، فور دخوله إلى مصر ، طبيعة المجتمع المصري . فالأمان الذي منحه للمصريين والذي كتبه بخطه^{٢٠} ، يثبت مرة أخرى براعة الفاطميين البالغة في الدعاية . فالوثيقة مقبولة تماماً من أى قارئ سنى ، فقد تعهّد فيها بترك الحرية الدينية للمصريين و « أن يجرى الأذان ، والصلاة ، وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة ، والحجّ ، والجهاد على أمر الله وكتابه وما نصّه نبيه ﷺ في سنته ، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا

^{١٩} راجع للمؤلف Fu'ad Sayyid, A., La Capitale de L'Egypte jusqu'à L'époque

Fatimide (al - Qāhira et al - Fustāt), Essai de reconstitution topographique,

thèse pour le doctorat d'état - es - lettres présentée à la sorbonne (Sous press)

^{٢٠} المقرئى : اتعاط ١ : ١٠٦ .

عليه « ، و « أن يجرى في المواريث^{٢١} على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ »
و « إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضى أمير المؤمنين بإثباتها عليكم » و « أن
يتقدم في رمّ مساجدهم وتزيينها بالفُرُش والإيقاد وإعطاء مؤذنيها وقوّمتها ومن
يؤمّ الناس فيها أرزاقهم »^{٢٢} .

وكانت السنوات الأربع التي حَكَم فيها جوهر مصر نيابة عن الخليفة المُعِزّ
(٣٥٨ - ٣٦٢) ، من أهم فترات التاريخ الفاطمي في مصر . فقد تَمَّت فيها
التغييرات المذهبية والإدارية اللازمة التي عبّرت عن مظاهر انتقال السيادة إلى
الفاطميين ، ومهدت لقدم الخليفة المُعِزّ وانتقاله إلى الشرق ليعلن مصر دار
خلافة وليقود دولته المنتظرة في الشرق .

وقد عاصر سنوات الفتح مؤرّخ مصري ثقة هو الحسن بن أحمد بن زُولاق
المتوفى سنة ٩٩٦/٣٨٦ ، وبفضل كتابه « تنمة كتاب أمراء مصر
للكِندي » ، الذي أظن أنه هو نفسه كتابه في « سيرة جوهر »^{٢٣} ، والذي
حَفَظ لنا المقرئى ومن قبله ابن خَلِّكان نصوصًا مطوّلة منه ، أمكننا عن
طريقها التعرّف على الخطوات التي اتخذها جوهر وكيفية انتقال السيادة إلى
الفاطميين في مصر ، وإلى أى مدى التزم الفاطميون بنص الأمان الذي منحه

^{٢١} لم يكد يعض أقل من عام على الفتح الفاطمي إلّا وقد أمر جوهر في الموارث « بالرد على ذوى
الأرحام ، وأن لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ، ولا عم ولا جد ، ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا
يرث مع الولد ذكرًا كان أو أنثى إلّا الزوج والزوجة والأبوين والجدّة ، ولا يرث مع الأم إلّا من
يرث مع الولد » ، فقد اعتبر الفاطميون عدم توريث البنت التي لا إخوة لها كل الميراث عداوة
للسيدة فاطمة عليها السلام . (المقرئى : المقتضى ٣٤٥ ، عماد الدين إدريس ، تاريخ الخلفاء
٦٩٥) وانظر فيما يلي ص

^{٢٢} ابن خَلِّكان : وفيات ١ : ٣٧٧ ، التويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٣٩ - ٤٠ ، ابن حماد : أخبار
٥٠ - ٥٢ ، المقرئى : اتعاظ ١ : ١٠٣ - ١٠٦ ، المقتضى ٣٣٢ - ٣٣٦ ، عماد الدين
إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٧٣ - ٦٧٨ ، ٦٥ - ٦٥ . Blanquis, Th., op. cit, pp. 65 - 75 .

^{٢٣} راجع بنشى Fu'ad Sayyid, A., "Lumières nouvelles sur quelques sources de
l'histoire Fatimide en Egypte ", An. Isl. X111 (1977), p. 5

جواهر للمصريين . فهذا الأمان لم يكن في الواقع سوى إجراء ماهر لكسب تأييد المصريين .

وتمثلت هذه الخطوات في سلسلة من الإجراءات المتتالية في النواحي العقائدية والإدارية والتنظيمية . بدأها بأن أقر على رأس المناصب الإدارية والدينية نفس الأشخاص الذين كانوا يشغلونها وقت الفتح . فأقر جعفر بن الفرات مشرفاً على المسائل المالية ، والقاضي أبا الطاهر الذهلي على القضاء ، كما احتفظ عبد السميع بن عمر العباسي بمنصبه كخطيب لجامع مصر ولكنه امتنع لعدة شهور عن اعتلاء المنبر^{٢٤} . ويلاحظ أن العراقيين والشوام ظلوا يتولون مناصب القضاء والخطابة حتى أوائل عهد الظاهر .

ولم يستبح جواهر لنفسه أن يحل أشخاصاً من طرفه في محل الإدارة المصرية قبل أن يتعرف على نظامها جيداً ، خاصة وهي إدارة أكثر تعقيداً وتحضراً من تلك التي عهدتها في إفريقية . وقد اضطر للجوء إلى نظام الحكم غير المباشر ، عن طريق الاعتماد على رجال العصر السابق ، لحين انتهائه من إتمام فتح الوجهين البحري والقبلي ، ولكنه بعد أن أنهى هذه المهمة « لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغريباً شريكاً لمن فيه »^{٢٥} . ولكن لما ظهر أن هؤلاء المغاربة أكثر إعتاباً للدولة من غيرهم لم يتم ما كان مزمعاً من إخراج العمال القدماء والذين كانوا في الغالب من الأقباط^{٢٦} .

وقد قطع جواهر خطبة العباسيين من على منابر مصر ، وحذف اسمهم من على السكة وأحل اسم الخليفة المعز محل ذلك ، وأزال السواد - شعار

^{٢٤} النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٤٠ ، ابن الزيات : الكواكب السيارة ٦٣ ، المقرئ : اتعاظ ١ :

Bianquis, Th. op. cit., p. 76 ، ١١٩

^{٢٥} المقرئ : اتعاظ ١ : ١١٩ .

^{٢٦} آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ١٣٤ .

العباسيين - وألبس الخطباء في الجوامع الثياب البيض - شعار الفاطميين^{٢٧} ، وأمر بفتح دار الضرب بالفسطاط ، التي كانت مُعَطَّلَة في آخر عهد الإخشيديين^{٢٨} ، وضرب سِكَّة حمراء^{٢٩} عليها اسم المُعِزِّ لدين الله في سنة ٣٥٨/٩٦٩ .

إصلاحات جَوْهَر

١ - الدِّينِيَّة

كان أول تغيير أثار حَتَق المصريين خاص بصَوْم رمضان وفِطْرَه ، الذي أصبح بعد دخول الفاطميين إلى مصر يتم بدون رُؤْيَةِ الهلال . فشهر رمضان كان دائماً عند الفاطميين الإسماعيليين ثلاثين يوماً^{٣١} . فقد أفطَرَ القائد جَوْهَر

^{٢٧} ابن خلكان : وفیات ١ : ٣٧٩ ، الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٥ ، المقرئى : اتعاظ ١ : ١١٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٢ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء ٦٨٤ .

^{٢٨} كان آخر دينار ضرب في عصر الإخشيديين في سنة ٣٥٥ . (محمد أبو الفرج العشى : المرجع السابق ٩٣٨) .

^{٢٩} السكة هي الدينار والدرهم المضروبين ، سمي كل منهما سكة لأنه طبع بالحديدة الملعمة ، ويقال لها السكة . (المقرئى : الأوزان والأكيال الشرعية (نشره Tychsen سنة ١٧٩٧ م) ٨٦) . والسكة الحمراء هي الدينار المصنوع من الذهب الجيد العيار .

^{٣٠} النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٤١ ، المقرئى : الملقى ٣٤٢ واتعاظ ١ : ١١٥ - ١١٦ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء ٦٨٦ . وجاء على هذه السكة : « دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد » في سطر ، وفي السطر الآخر « المعز لدين الله أمير المؤمنين » ، وفي السطر الثالث « بسم الله . ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » - وفي الوجه الآخر : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين » .

^{٣١} أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٩٤ . فبعثاً للمذهب الإسماعيلى فإن صوم رمضان وفطره يتم بالرؤية والحساب جميعاً ، واعتبروهما كالظاهر والباطن ، إذا أشكل الأمر في أحدهما اتمس في الآخر . فالهلال كالظاهر لأنه مشاهد ، والحساب كالباطن لأنه معقول ، وهو يستعمل من أول كل سنة ثم يراعى طلوع الهلال ، فإن وافق الحساب الرؤية فقد اتفق الظاهر والباطن وزال الإشكال . (المجالس المستصرية ، تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٧ ، ١٢٨ - ١٢٩) ، وانظر =

وأصحابه في سنة ٩٦٩/٣٥٨ بغير رؤية وصلُّوا صلاة عيد الفِطْرِ بمُصَلَّى القاهرة . ولم يعجب ذلك أهل مصر وصلُّوا غداة هذا اليوم بالفُسْطَاط ، لأن القاضي أبا الطاهر الذُّهلي التمس رؤية الهلال - كما جرت العادة - على سطح جامع عمرو فلم يره ، فلما بَلَغ ذلك القائد جوهر أنكره وتهدَّد من أعاد فعله ، فأشار شهود القاضي عليه أن لا يطلب الهلال ثانية لأن الصوم والفِطْر على الرؤية قد زالا . فانقطع طلب الهلال بمصر طوال حكم الفاطميين^{٣٢} .

وفي يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٩٧٠/٣٥٩ جاء التغيير الذي عبَّر عن ترك المذهب السني في مصر لأول مرة ، فقد صلَّى القائد جوهر مع عساكره في جامع ابن طولون (لم يكن جامع القاهرة قد تم بناؤه في هذا التاريخ) وأمر المؤذنين بالأذان « بِحَيِّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » - وهو من مميزات الأذان عند الشيعة - وكان هذا أول ما أُذِّن به في مصر . ثم أُذِّن به في جامع عمرو بعد أسبوعين في يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى من السنة نفسها ، ثم أُذِّن به بعد ذلك في سائر مساجد مصر^{٣٣} . كذلك أمر جوهر بالجهر بالبسملة في الصلاة ، وزيادة القنوت في الركعة الثانية من صلاة الجمعة ، ومنع من قراءة

= المقرئ : اتعاظ ٢ : ٨٧ حيث يورد أمراً للخليفة الحاكم بتحديد موعد الصوم وموعد الفطر لسنة ٤٠١ وكذلك ٢ : ٦٧ والخطوط ٢ : ٣٤٢ . وانظر كذلك حميد الدين الكرمانى : الرسالة اللازمة في صوم رمضان وحينه ، تحقيق وتقديم محمد عبد القادر عبد الناصر ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٣١ (١٩٦٩) ١ - ٥٢ .

^{٣٢} الكندي : الولاية والقضاة ٥٨٤ ، المقرئ : المقفى ٣٤٢ والخطوط ٢ : ٣٤٠ والاتعاظ ١ : ١١٦ ، عماد الدين ادریس : تاريخ الخلفاء ٦٩١ ، ٦٩٩ - ٧٠٠ .

^{٣٣} ابن الأثير : الكامل ٨ : ٥٩٠ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٩ ، ابن حماد : أخبار ٥٠ ، ابن سعيد : المغرب ابن سعيد : المغرب ٢٠١ ، ابن أيك : كنز ٦ : ١٢٥ ، الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٥ ، ابن خلدون ٤ : ٤٨ ، المقرئ : المقفى ٣٤٤ ، والخطوط ٢ : ٢٧٠ ، ٣٤٠ والاتعاظ ١ : ١٢٠ - ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٥٩٩ ، ابن إياس : بدائع ١/١ : ١٨٥ ، عماد الدين ادریس .

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ [الآية ١ سورة الأعلى] . وأزال التكبير بعد صلاة الجمعة^{٣٤} ، وأن يُقال في الخطبة : « اللَّهُمَّ صَلِّ على محمد النبي المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سيّطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللَّهُمَّ صَلِّ على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين »^{٣٥} .

٢ - الاقتصادية

عند قدوم جوهر ، كانت مصر تُمرُّ بأخطر أزمة اقتصادية عرفتْها منذ أكثر من قرن وهي أزمة لم تتوقّف عن التفاقم منذ سنة ٩٦٣/٣٥٢ واستمرت لمدة ثلاث سنوات بعد الفتح الفاطمي . وقد اهتم جوهر في أول الأمر بالقضاء على المجاعة واستتباب النظام ومعالجة الأمور بسخاء نسبي . وكان هذا أهم ما شغله فنأدى في سنة ٩٦٩/٣٥٨ برفع « البراطيل »^{٣٦} ورد أمر الحِسْبَةِ إلى سليمان ابن عَزَّة - وهو تبعاً للمصادر ثانی من تولّى الحِسْبَةِ في زمن الفاطميين - فضرب في سنة ٩٧٠/٣٥٩ جماعة من الطّحّانين وطاف بهم البلد ، وجمع القمّاحين وسَمَّاسِرة الغلال في موضع واحد ، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحدة فكان لا يخرج قَدَح قمح إلّا ويقف عليه^{٣٧} . ومع ذلك ، فقد استمر الغلاء إلى سنة ٩٧١/٣٦٠ بسبب قصور مدّ النيل مما أدّى إلى اشتداد الوباء وتَفَشَّى الأمراض وكثرة الموت إلى أن انحل السّعر وأُخْصِبت الأرض وظهرت

^{٣٤} ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٦ و ٣٧٩ ، المقرئى : المقفى ٣٤٤ - ٣٤٥ واتعاظ ١ : ١١٩ ، ١٢٠ - ١٢١ ، عماد الدين إدریس : تاریخ ٦٩٥ .

^{٣٥} نفسه ١ : ٣٧٦ ، التويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٤١ ، الصفدى : الرواق ١١ : ٢٢٥ ، المقرئى : المقفى ٣٤٣ والخطط ٢ : ٣٤٠ واتعاظ ١ : ١١٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٢ .

^{٣٦} المقرئى : المقفى ٣٤٣ والاتعاظ ١ : ١١٧ . والبراطيل هي الأموال التي تؤخذ من ولاية البلاد ومحتسبها وقضاتها وعمالها على سبيل الرشوة . (الخطط ١ : ١١١) ذلك أن جوهر قد وعد في أمانه بإسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرضى عنها أمير المؤمنين .

^{٣٧} المقرئى : إغاثة الأمة ١٣ - ١٤ واتعاظ ١ : ١٢٠ والخطط ٢ : ٣٤٠ .

بوادر الرخاء في سنة ٩٧٢/٣٦١^{٣٨} .

ولما كانت الزراعة هي عَصَب الاقتصاد المصري ، فقد وجَّه القائد جوهر عنايته إلى تجديد مَافَسَد من جسور وقناطر وغير ذلك^{٣٩} . كذلك ضاعف ضريبة الأرض (الخَرَّاج) من ثلاثة دنانير ونصف إلى سبعة دنانير للفدان الواحد وزاد قيمة قَبَالَة الأراضي بغرض سد حاجته للمال لتغطية نفقاته المباشرة . وقد بلغ قيمة ما جباه في سنة ٩٧٠/٣٥٩ ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار^{٤٠} ، وفي سنة ٩٧١/٣٦٠ ٣,٢٠٠,٠٠٠ دينار^{٤١} ، ولم تتكرر هذه القيمة بعد ذلك أبداً^{٤٢} . والغريب أننا لا نعرف كيف تمكن المصريون من دفع هذا الخراج المضاعف مع قصور النيل والأزمة الاقتصادية التي كانوا يمرون بها .

٣ - التَّقْدِيَة .

عمل جوهر على إصلاح النظام النقدي المعمول به في مصر ، فقد جاء في أمانه وعدٌ بإصلاح العملة المصرية وضربها على العيار الذي عليه العملة الفاطمية في إفريقية^{٤٣} . فاستجد ضرب دينار عالي القيمة هو « الدِّينَار المُعَزَّى » الذي يقرب وزنه وقيمة نقائه من أربعة وعشرين قيراطاً^{٤٤} . ففي زمن الفتح كان المصريون ، كما في سائر البلاد الإسلامية ، يستخدمون نقوداً ذهبية وفضية ، ونحاسية بالإضافة إلى نقود وسيطة مغلطة ، وكانت الدنانير تُحفظ كرصيد

^{٣٨} نفسه ١٤ ، نفسه ١ : ١٢٨ .

^{٣٩} ابن زولاق : فضائل مصر ٤٧ ظ ، الخزومي : المنهاج في علم خراج مصر ٣ - ٤ ، ابن إياس : بدائع ١/١ : ١٩١ .

^{٤٠} ابن حوقل : صورة الأرض ١٦٣ ، المقرئ : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ ، وعن نظام القَبَالَة انظر فيما يلي الفصل الثاني عشر .

^{٤١} أبو المحاسن : النجوم ١ : ٤٦ .

^{٤٢} قارن ، المقرئ : الخطط ١ : ٩٩ - ١٠٠ .

^{٤٣} المقرئ : المقفى ٣٣٤ والانتعاض ١ : ١٠٤ .

^{٤٤} المقرئ : النقود الإسلامية ٦٥ .

ولا تدفع إلا في المشتريات الضخمة ، وعلى الأخص المشتريات العقارية . أما بالنسبة للحياة اليومية فقد كان من الضروري استبدال قطع فضية مقابل الدينار لدى أحد الصيارفة . وتوجد بين الدينار الذهب والدرهم الفضة علاقة رسمية بما أن الاثنين ضربا في دار ضرب الحكومة ، ولكن قوانين العرض والطلب جعلت الصيارفة يطبقون علاقة أخرى تبعا للسوق^{٤٥} . وكان الدينار المستخدم في مصر عند الفتح الفاطمي هو « الدينار الرأضي » الذي ضربه العباسيون . كذلك كانت تستخدم دنانير من الفضة المذهبة يُعرف واحدها « بالدينار الأبيض » ، وهو دينار منخفض القيمة حيث ترتفع فيه كثيرا نسبة الفضة . وبعد أن ضرب جوهر « الدينار المُعزّي » في سنة ٩٦٩/٣٥٨ عمل على تثبيت قيمة صرف الدينار الرأضي عند خمسة عشر درهما بينما بلغت قيمة الدينار المُعزّي خمسة وعشرين درهما^{٤٦} . ومنع من تداول الدينار الأبيض الذي لم تعد قيمته عشرة دراهم ، فضجّ نفر من المصريين بالشكوى فأبقاه ولكنه خفض قيمته إلى ستة دراهم ، مما أدى إلى تلفه وإفلاس بعض الناس مما دفعه إلى إعادة تقدير قيمته في سنة ٩٧٣/٣٦٢ ورفعها إلى ثمانية دراهم^{٤٧} . وبعد وصول المُعزّي إلى مصر تلاشى استخدام الدينار الرأضي والدينار الأبيض فقد امتنع يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن أن يأخذوا قيمة الخراج وقبالة الأراضى إلا بالدينار المُعزّي^{٤٨} .

^{٤٥} Bianquis, Th., op. cit., p . 78

^{٤٦} المقرئى : المقفى ٣٤٧ والاتعاظ ١ : ١٢٢ بينا يذكر ابن ميسر : أخبار ١٦٤ والمقرئى : الخطط ٢ : ٦ والنقود الإسلامية ٦٥ أن قيمته كانت خمسة عشر درهم ونصف ، وراجع كذلك

Rabie, H., The Financial System of Egypt, pp. 163 - 164

^{٤٧} المقدسى : أحسن التقاسيم ٢٠٤ ، المقرئى : الاتعاظ ١ : ٢٢٢ ، ١٣٢ والمقفى ٣٤٧

^{٤٨} ابن ميسر : أخبار ١٦٤ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٦ والنقود الإسلامية ١٣ - ١٤ .

تأمين الحدود

ما أن انتهى جوهر من السيطرة على كل الأراضي المصرية عمل على تأمين الدفاع عن الحدود المصرية في الجنوب وفي الشمال .

١ - السنوبة

ففيما يخص الحدود الجنوبية أرسل جوهر أحد سكان أسوان هو عبدالله بن أحمد بن سليم الأسواني برسالة إلى قيرقي (جورج) ملك النوبة يحثه فيها على إعادة دفع البقطة^{٤٩} ، الذي كان قد قطعه في آخر عهد الدولة الإخشيدية ، ويدعوه بحضور شاهدين إلى ترك النصرانية واعتناق الإسلام^{٥٠} . ويبدو أن ابن سليم لم يوفق في مسعاه الأخير ولكنه انتهز هذه الفرصة وقام برحلة إلى مملكة النوبة زار خلالها فيما يبدو فقط المنطقة الجنوبية المعروفة بعلوة ، حيث أنه لا يوجد بين أيدينا ما يفيد أنه زار منطقة البجة . وهذه الرحلة التي أسماها « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » والتي احتفظ لنا المقریزی وابن

^{٤٩} هذه الكلمة تعني الضريبة السنوية التي كانت تدفعها النوبة المسيحية للدولة الإسلامية في مصر كضريبة مقابل الهدنة المعقودة بينهما ، وهي عبارة عن ٣٦٥ رأساً من السبي لبيت مال المسلمين بالإضافة إلى أربعين رأساً تحمل لأمر مصر وعشرين رأساً لوالى أسوان الذي يتولى قبض هذا البقطة ، وخمسة للأمير المقيم في أسوان ، واثنى عشر رأساً للإثنى عشر شاهد عدل الذين يحضرون مع الحاكم قبض البقطة . (البلاذري : فتوح البلدان ٢٨١ - ٢٨٢ ، المسعودي : مروج الذهب ١٢٩ : ١٣٠ ، المقریزی : الخطط ١ : ١٩٩ - ٢٠٢ ، Lokkegaard, F., El², art. Bakt I, p. 996 وانظر كذلك Beshir, B. I., " New Light on Nubian Fatimid

Relations ", Arabica XX11 (1975), p. 16

^{٥٠} المقریزی : المقفى ٢٥٢ .

إِيَّاسَ وَالْمُنُوفِيَّ بِنَقُولِ هَامَةٍ مِنْهَا هِيَ الَّتِي حَفَظَتْ خَبَرَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا جَوْهَرَ إِلَى مَلِكِ النُّوبَةِ^{٥١} .

كَذَلِكَ فَقَدْ ذَكَرَ لَنَا ابْنُ زَوْلَاقٍ (ت . ٩٩٦/٣٨٦) وَجُودَ رِبَاطِ الْحَرَسِ مِنْ جِهَةِ الْحَبَشِ وَالْبُجَّةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهُمْ ، وَرِبَاطِ أَسْوَانَ عَلَى النُّوبَةِ ، وَرِبَاطِ الْوَاخَاتِ عَلَى الْبَرَبْرِ وَالسُّودَانِ^{٥٢} ، وَهَذَا النَّصُّ يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ اسْتِحْكَامَاتٍ دِفَاعِيَّةٍ أَمَامَ الْحُدُودِ الْجَنُوبِيَّةِ قَدْ تَعُودُ إِلَى مَاقْبِلِ الْفَتْحِ الْفَاطِمِيِّ . وَلَمْ يَتَبَقْ مِنْ آثَارِ هَذِهِ الاسْتِحْكَامَاتِ شَيْءٌ الْيَوْمَ ، فَأَثَارُ الْمَنَائِرِ الْمَوْجُودَةِ الْيَوْمَ فِي الصَّعِيدِ الْأَعْلَى فِي أَسْوَانَ وَالْمَشْهَدِ الْبَحْرِيِّ وَالْمَشْهَدِ الْقَبْلِيِّ وَالْأَقْصَرِ وَإِسْنَا وَالَّتِي شُيِّدَتْ وَفَقًّا لَطَرَاظِ أُسْطُوَانِي لِتَيْسِيرِ مَهْمَةِ الْمُرَابِطِينَ لِلْحِرَاسَةِ تَرْجِعُ كُلُّهَا ، تَبَعًا لِمَا أَثْبَتَهُ حَسَنُ الْهَوَّارِيِّ وَكَرِيزَوِيلُ ، إِلَى عَهْدِ أَمِيرِ الْجِيُوشِ بَدْرِ الْجَمَالِيِّ^{٥٣} . بَيْنَمَا يَرَى إِبْرَاهِيمُ شُبُوحُ أَنَّ مَنَارَةَ الطَّايِيَّةِ وَالْمَشْهَدِ الْبَحْرِيِّ بِأَسْوَانَ تَرْجِعُ إِلَى أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ فِي أَيَّامِ الْمُتَوَكِّلِ الْعَبَّاسِيِّ^{٥٤} .

^{٥١} عَنْ هَذَا الشَّخْصِ انْظُرْ ، الْقَرِيزِيُّ : الْقَفِيُّ ٢٥٢ - ٢٥٤ وَالْخَطُّ ١ : ١٩٠ ، كِرَاتَشْكَوْنْسْكِ : تَارِيخُ الْأَدَبِ الْجُغْرَافِيِّ الْعَرَبِيِّ ١٩٢ - ١٩٣ ، Brock., GAL SI, 410; Troupeau, G., " La description de La Nubie d'al - Uswâni ", Arabica I (1954), pp. 276 - 288; Yusuf F. Hasan, BIE, art. Ibn Sulaym al - Uswani III, p. 973; Fu'ad Sayyid A., "Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte", An. Isl. XIII (1977), p. 5; Kheir, H. M., " A Contribution to a Textual Problem : Ibn Sulaym al - Aswani's Kitab Ahbar al - Nuba wal - Maqurra wal - Bega Wal - Nil ", An. Isl. XXI (1985), pp. 9 - 72; Cucoq, J., Islamisation de la Nubie chrétienne VII - XVI siècles, Paris 1986, pp. 55 - 63

^{٥٢} إِبْرَاهِيمُ شُبُوحُ : « حَوْلَ مَنَارَةِ قَصْرِ الرِّبَاطِ بِالْمَنْسْتِيرِ وَأَصُولِهَا الْمَعْمَارِيَّةُ » ، مَجَلَّةُ إِفْرِيقِيَّةٍ ٣ - ٤ (١٩٧١ - ٧٢) ١٠ .

^{٥٣} Al - Hawwary, H. M., " Trois minarets Fatimides à la frontière nubienne ", BIE XVII (1934 - 35), p. 146; Creswell, K. A. C., MAE I, pp. 146 - 155

^{٥٤} إِبْرَاهِيمُ شُبُوحُ : الْمَرْجِعُ السَّابِقُ ١٠ - ١٣ .

٢ - فتح الشام

كانت السيطرة على الشام تُمثّل دائماً أولية استراتيجية لكل نظام يتولى حكم مصر . فعلى ذلك فقد أرسل جوهر أحد قادة كُتّامة الذين شاركوا في فتح مصر هو جعفر بن فلاح الكُتّامي على رأس جيش إلى الشام . فتمكن من فتح الرُّمّة ثم دِمَشق وإقامة الدُّعوة بهما للخليفة المُعزّ في سنة ٩٧٠/٣٥٩ . وأتم جعفر فتح الشام في سنة ٩٧١/٣٦٠ ودخلت قواته في مواجهة مع البيزنطيين في أنطاكية . كذلك فقد اعترف حكام حَلَب الحمدانيون بالخلافة الفاطمية . وهكذا ومع نهاية عام ٩٧١/٣٦٠ كان الأذان « بحى على خير العمل » يُطلق من على كل مآذن مصر والشام^{٥٥} .

إذن فقد كان فتح الشام امتداداً طبيعياً لفتح مصر . فقد كانت الشام ستُتخذ كقاعدة إنطلاق للهجوم الأخير الذى كان سيحمل جيوش الفاطميين إلى بغداد لتضع نهاية لحكم البويهيين وللخلافة العبّاسية . ولكن موقعة دمشق مع القرامطة ومقتل جعفر بن فلاح في ٦ ذى القعدة سنة ٣١/٣٦٠ أغسطس سنة ٩٧١ وضعت نهاية لهذه الأوهام .

^{٥٥} راجع عن فتح الفاطميين للشام ، يحيى بن سعيد : تاريخ ، ١٢٨ ، ابن ظافر ، أخبار ٢٤ - ٢٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٥٩١ - ٥٩٢ ، ابن حلكان : وفیات ١ : ٣٦١ ، ابن سعيد : النجوم ١٠٣ - ١٠٤ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٤١ - ٤٢ ، الصفدى : الوافى ١١ : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٨ - ٤٩ ، المقرئ : المقفى ٢٢٠ - ٢٢٨ ، انعاظ ١ : ١٢٠ ، ١٢٢ - ١٢٧ ، ١٢٨ - ١٢٩ ، درويش النخيلي : فتح الفاطميين للشام في مرحلته الأولى ، الإسكندرية ١٩٧٩ ، خاشع المعاضيدى : الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمى ، بغداد ١٩٧٦ ، ٢٢ - ٢٩ ، أمينة البيطار : موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجرى ، دمشق ١٩٨٠ ، ٣٢ - ٥١ ، Bianquis, Th., Damas et la Syrie sous la domination fatimide, Damas 1986, pp. 44 - 64; Lev, y., " Fatimid Policy towards Damascus (358 / 968 - 386 / 996) Military, Political and Social Aspects ", dans Jerusalem Studies in Arabic and Islam III (1981 - 82), pp. 165 -

وكان الإخشيديون في مصر ، في نهاية عهدهم ، يدفعون إلى القرامطة مبلغًا كبيرًا من المال قيمته ٣٠٠,٠٠٠ دينار في السنة ، مقابل تأمين سلامة وصول القوافل المارة في الطرق البرية من مصر وسوريا إلى الحجاز . ولكن الفاطميين ، بعد فتحهم الشام في سنة ٩٧١/٣٦٠ ، قطعوا هذه المعونة ، مما أثار غضب القرامطة وجعلهم لا يترددون عن مهاجمة الفاطميين في مصر^{٥٦} .

٣ - الحرب القرمطية الأولى

كان هجوم القرامطة على مصر هو أول خطر حقيقي يواجهه الدولة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر . وقد تمكن القائد جوهر بخنكة الحربية من صد هذا الهجوم الذي كان ينتظره . فقد أخذ وهو يؤسس مدينة القاهرة في مباشرة بعض الأعمال الدفاعية . فأخذ في حفر خندق كبير أمام الأسوار الشمالية للقاهرة بين المقطم والخليج^{٥٧} ، وأقام قنطرة على الخليج في مواجهة الباب الشمالي الغربي للمدينة ، الذي صار منذ هذا التاريخ يعرف بباب القنطرة ، لتسهيل الانتقال إلى جهة المقس ، كما أن باين أخذ من ميدان الإخشيديين كانا يتحلمان في المداخل الأساسية لهذا الخندق^{٥٨} .

كذلك فقد حفر خندقاً آخر شرق المدينة يبدأ جنوباً من عند بركة الحبش ويخترق القرافة إلى أن يصل إلى موضع قبر الإمام الشافعي موازيًا في قسم منه

^{٥٦} ابن الأثير : الكامل ٨ : ٤٥٢ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٥٠ ، Shaban A., op. cit. p. 197

^{٥٧} راجع ، المقدسي ، أحسن التقاسيم ١٩٨ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٤٢ ، ابن ظافر : أخبار ٢٥ ، ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ١٤٣ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٣٥ ، المقرئ : الخطط ٢ : ١٣٧ ، اتعاظ ١ : ١٢٩ ، ١٣٠ - ١٣١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ٢٨٠ . وعن الخندق راجع المقرئ : الخطط ١ : ٣٦٠ ، ٢ : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٩٧ ، المقفي (غ . السليمية) ٣١٠ ظ .

^{٥٨} القلقشندي : صبح ٣ : ٢٢٩ - ٢٣٥ المقرئ : الخطط ١ : ٣٨٢ - ٣٨٣ ، ٢ : ١٤٧ ، أبو الحسن : النجوم ٤ : ٣٩ : عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء ٧١٤ - ٧١٦ .

الخندق القديم الذى كان قد حفره عبدالله بن جَحْدَم في سنة ٦٤/١٦٨٣^{٥٩} ، ثم يدور ناحية الشرق تجاه المقطم وحتى موقع قبر كافر . وهذا كله حتى يتحاشى مجيء القرامطة من جهة الشرق مخترقين الطريق الذى يربط القُسطاط بمدينة القُلزم .

وقد شجّع هجوم القرامطة أهالى الفَرما وتَنيس على التمرد على الفاطميين فغيروا دعوتهم ولبسوا السواد - شعار العباسيين - ولم يرجع الهدؤ الدائم إلى هذه الأقاليم إطلاقاً بين سنتي ٣٦٠ / ٩٧١ و ٣٦٣ / ٩٧٤ حتى تمكن جيشاً بقيادة أبو محمد بن عَمَّار كانت تحت إمرته أكثر من عشرة آلاف رجل من القيام بسلسلة من عمليات الردع العنيف لسكان هذه المناطق^{٦٠} .

المُعزّ لدين الله يَصِلُ إلى

القاهرة

عندما أصبحت الظروف مهيأة لاستقبال الخليفة المُعزّ لدين الله في « القَاهِرَة » ، العاصمة الخليفية الجديدة ، التى أراد الفاطميون بإنشائها أن تكون عاصمة لإمبراطورية واسعة ينشرون من خلالها مذهبهم الدينى في كل الأراضى الإسلامية ، مستُخْرين لذلك كافة إمكانيات مصر ومواردها لإضفاء العظَمة والأبهة عليها لتكون جديرة بالإحلال محل بَغْدَاد في حكم العالم الإسلامى ، كتب جوهر إلى المُعزّ يدعوه للحضور إلى مصر .

^{٥٩} الكندى : الولاة والقضاة ٤٤ ، المقرئى : الخطوط ١ : ٣٠١ ، ٢ : ٤٥٨ ، أبو المحاسن :

النجوم ١ : ١٥٨ ، ١٦٥ - ١٦٨ ، ١٧١

^{٦٠} المقرئى : اتعاظ ١ : ١٣٠ ، ٨٦ ، Bianquis, Th., La Prise de pouvoir p. 86 .

كان انتقال الفاطميين إلى مصر انتقالاً بمعنى الكلمة ، ولم يكن توسعاً بغرض كَسْب أراضي جديدة للخلافة الفاطمية . فعندما كتب جوهر إلى المُعِزَّ يدعوهُ للحضور إلى القاهرة قَطَعَ الفاطميون كل صلة لهم بإفريقية ، فقد نُقِلَ المُعِزَّ معه كل ذخائره وأمواله^{٦١} وحتى تواييت أبائه حملها معه وهو في طريقه إليها^{٦٢} . واستخلف على إفريقية أسرة بربرية محلية هي « أسرة بنى زيرى » كان على رأسها يوسف بن بُلُكين الصنهاجى^{٦٣} ، واستخلف على حكم صقلية أسرة عربية تنتسب إلى قبيلة بنى كَلْب ، أما طرابلس فقد عَهَدَ بها إلى عبد الله بن يَحْلَف الكُتَامى^{٦٤} . وإذا كان المُعِزَّ قد أبعد يوسف بن بُلُكين عن صقلية وطرابلس فذلك لأنه لم يُرد أن تكون له قدمٌ في أوربا ، أو يكون بمسقطاه التحكم في الطريق إلى مصر . وبذلك فإن دوره تركز في ضمان أمن الشمال الإفريقى ومحاولة مناوشة أموى الأندلس ووضعه يده على مايسطيع الوصول إليه في إفريقيا جنوب الصحراء .

^{٦١} الكندى : الولاة والقضاء ٢٩٨ ، ابن زولاق : فضائل مصر ٤٦ ظ - ٤٧ و ، يحيى بن سعيد :

تاريخ ١٣٩ ، ابن ظافر : أخبار ٢٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٦٢٠ ، ابن خلكان : وفيات ٥ :

٢٢٦ - ٢٢٧ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٤٤ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٣٢ ، الاتعاض ١ :

١٠٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٣١ .

^{٦٢} ابن زولاق : فضائل ٢٤٧ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٤٣ ، ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٣٦ ،

المقرئى : المقفى (فخ . السليمية) ٢٠٠ و ، الخطط ١ : ٣٥٣ ، ٤٠٧ ، عماد الدين إدريس :

تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٣٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/١ : ١٨٧ - ١٨٨ ،

^{٦٣} ابن الأثير : الكامل ٨ : ٦٢٠ - ٦٢٥ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٢٦ ، ابن سعيد : النجوم

٤٤ - ٥٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ١ : ٢٢٨ ، ٢٩٦ ، النويرى : نهاية ٢٤ : ١٥٥ ، ابن

خلدون : تاريخ ٤ : ٤٩ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٣ ، الاتعاض ١ : ٢٩٩ ، أبو المحاسن :

النجوم ٤ : ٧٢ ، Idris, H.R., La Berbérie Orientale sous les Zirides X - XII siècles, ،

Paris 1962, I, pp. 127 142

^{٦٤} نفسه ٨ : ٦٢٠ .

سياسة الفاطميين تجاه المصريين

تَبَعَتْ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ مِنْ قُدْرَتِهَا عَلَى اسْتِفَادَةِ مِنْ إِمْكَانِيَّاتِ كُلِّ الْأَفْرَادِ الْمُنْتَمِينَ إِلَى مَخْتَلَفِ التَّكْتَلَاتِ الْعَنْصَرِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ ، الَّتِي كَانَتْ تُؤَلَّفُ بِمَجْمُوعِ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ ، اسْتِفَادَةً لَمْ يَسْبِقْ لَهَا مِثِيلٌ مِنْ قَبْلِ^{٦٥} . فَقَدْ اسْتَعَانَ الْفَاطِمِيُّونَ بِالْعُنَاصِرِ الْأَجْنَبِيِّ ، لَا سِيَّمَا الْمَغَارِبَةَ وَالْأَتْرَاكَ وَالذُّيَالَةَ وَالسُّودَانَ وَالْأَرْمَنَ ، وَأَفَادُوا بِخَبْرَةِ أَهْلِ الذُّمَّةِ ، وَلَا سِيَّمَا بِمَعْرِفَةِ الْأَقْبَاطِ بِالْمَسَائِلِ الْمَالِيَّةِ ، وَعَهَدُوا إِلَيْهِمْ بِالْوِظَائِفِ الرَّئِيسِيَّةِ فِي الدَّوْلَةِ الَّتِي أُبْعِدَ عَنْهَا الْمُسْلِمُونَ السُّنِيُّونَ^{٦٦} .

وَهَكَذَا فَقَدْ ظَلَّ الْفَاطِمِيُّونَ فِي حُكْمِهِمْ مِصْرَ كَحُكُومَةِ أَقْلِيَّةٍ مَنْفَصِلَةٍ عَنْ مَجْمُوعِ رِعَايَاهَا ، بِسَبَبِ أَرَائِهِمُ الدِّينِيَّةِ ، مِمَّا أَفْقَدَهُمْ تَأْيِيدَ أَهْلِ الْبِلَادِ الْحَقِيقِيِّينَ . وَقَدْ أَدْرَكَ الْفَاطِمِيُّونَ أَنَّ الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ لَمْ تَتَجَذَّرْ فِي شِمَالِ إِفْرِيقِيَا بَعْدَ عَشْرَاتِ السِّنِينَ مِنَ الدَّعَايَةِ ، بَرَّغْمِ مَنَاسِبَةِ الْبَيْئَةِ لِذَلِكَ ، كَمَا أَنَّ مِصْرَ بِمَا فِيهَا مِنْ ذُمِّيِّينَ وَمُسْلِمِينَ عَلَى مَذْهَبِ السُّنَّةِ لَنْ تَكُونَ أَرْضًا خِصْبَةً لِلتَّبَشِيرِ^{٦٧} . فَلَمْ يَعْمِدِ الْمُعِزُّ إِلَى نَشْرِ الدَّعْوَةِ فِي مِصْرٍ إِلَّا فِي أَضْيَاقِ الْحُدُودِ ، فَنَادِرًا مَا جَرَتْ أَيْةٌ مُحَاوَلَةٍ لِحَثِّ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ عَلَى اعْتِنَاقِ الْمَذْهَبِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ^{٦٨} ، وَاكْتَفَى الْفَاطِمِيُّونَ فَقَطْ بِإِسْنَادِ مَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ الْعُلْيَا إِلَى أَهْلِ الذُّمَّةِ أَوْ إِلَى مَنْ يَعْتَنِقُ مَذْهَبَهُمْ . وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ مَائَتِي عَامٍ مِنَ الْحُكْمِ الْفَاطِمِيِّ فِي مِصْرَ ، لَمْ يَكُنْ بِهَا إِسْمَاعِيلِيٌّ وَاحِدٌ سِوَى مَنْ ارْتَبَطَ بِالسُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ . فَقَدْ كَانَ الْفَاطِمِيُّونَ يَدُورُونَ فِي حَلَقَةٍ مَفْرُغَةٍ ، فَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُمْ فَشَلُوا مَبْدِئِيًّا فِي كَسْبِ

^{٦٥} Grunebaum, G.E. " The Nature of the Fatimid Achievement ", CIHC, p. 200

^{٦٦} يحيى بن سعيد : تاريخ (1932) p. 509 Patr. Or.

^{٦٧} Shaban, A., op. cit., p. 198

^{٦٨} المقرئى : الخطط ٢ : ٣٤١ - ٣٤٢ .

كل العالم الإسلامي لصفهم ، نراهم في نفس الوقت مضطرين للحفاظ على تحدياتهم الإيديولوجية ، الأمر الذي عزّلهم عن إجماع المسلمين ، وبهذا تسبّبوا في إلحاق الهزيمة بأنفسهم وفي اختفائهم من المسرح السياسي .

وقد استعاض الفاطميون عن تحويل مسلمي مصر إلى المذهب الإسماعيلي بكسب وُدّ أهل الذمّة . فقد انتهج الفاطميون سياسة اتسمت « بالتسامح الديني » مع أهل الذمّة ، الذين يحق لهم - إذا استثنينا الاضطهاد الذي تعرّضوا له في زمن خلافة الحاكم بأمر الله - أن يعتبروا العصر الفاطمي عصرهم الذهبي ، الذي تمكّنوا فيه من الاندماج الحقيقي في الحياة السياسية العامة للدولة في مصر . وهذا التسامح لم يتمّع به حتى المسلمون من أهل السنة . ولعل انتقال ابن كلس - اليهودي الذي أسلم في آخر عهد كافور - إلى إفريقية ودعوته المُعزّز لفتح مصر ، ثم الدور الهام الذي لعبه بعد ذلك في مصر كوزير وأهمية الطائفة اليهودية في العصر الفاطمي ، تجعلنا نظن تمامًا أن الفاطميين حاولوا كسب ود هذا العنصر النشط من الشعب المصري^{٦٩} .

ولاشك أن مصر في العصر الفاطمي قد أصبحت بفضل سياسة الفاطميين الاقتصادية المتفتحة والمتسامحة أكثر مفترقات الطرق التجارية نشاطاً في العالم الإسلامي . وفي هذه الظروف سرعان ما وجد يهود مصر أنفسهم كما توافد إلى مصر مهاجرون يهود جدد في أعقاب انتصار الفاطميين من المغرب ومناطق أخرى في الشرق الأوسط^{٧٠} .

وحتى منتصف القرن الخامس كان يقوم بخدمة الخلفاء الفاطميين سلسلة من الأطباء اليهود أسّسها طبيب المُعزّز موسى بن العازار اليهودي (بَلَطِيَّال بن

^{٦٩} Wiet, G., L'Egypte arabe pp. 118, 184 .

^{٧٠} كوهن ، م : المجتمع اليهودي في مصر الإسلامية في العصور الوسطى ، جامعة تل أبيب ١٩٨٧ ،

شَفَطِيَا) ^{٧١} . ومن الجائز أن الفاطميين فضلوا استخدام الكتاب والأطباء من اليهود والنصارى ، لأن وضع هؤلاء كذمين ضمن ولاءهم للحاكم بما يفوق الأثرية السنية ^{٧٢} .

وقد بدت سياسة التسامح التي اتبعتها الفاطميون واضحة منذ وصول الخليفة المُعِزِّ إلى مصر . فقد طلب إليه أفرهام السُّرياني ، البطرك الثاني والستين ، أن يُمكنه من بناء كنيسة أبي مَرْقُورَة بالفسطاط ، وكذلك الكنيسة المُعلَّقة بقصر الشَّمْع ، فكتب له سِجِلًّا يُمكنه من ذلك وأطلق له من بيت المال ما يصرفه على هذه العمارة ، فتصدَّى الناس للأقباط ومنعوهم من البدء في عملية البناء ، فجاء المُعِزُّ وأشرف بنفسه على بناء أساس الكنيستين ، ثم أمر ببناء كل الكنائس التي تحتاج إلى عمارة دون أن يعترضه أحد في ذلك ^{٧٣} .

ولما كان ولده الخليفة العزيز بالله متزوجاً من نصرانية على المذهب المَلِكاني ، فقد جعل أخاها أُرْسَتَس Aureste بطريركاً على بيت المقدس سنة ٩٨٦/٣٧٥ ، كما جعل أُرْسَانِيوس Arsenius مُطْرَانًا على القاهرة والفسطاط ^{٧٤} ، الأمر الذي ساعد على توطيد العلاقة بينه وبين بيزنطة .

^{٧١} ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، القاهرة ١٨٨٢ ، ٢ : ٨٦ ، القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ٢١٠ - ٢١١ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ٩٢ - ٩٣ ، المقرئ : اتعاظ ١ : ١٤٤ ، ١٤٦ ، المقفئ (غ . السليمية) ١٧٥ ظ ، حسن حسنى عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ، تونس ١٩٦٥ ، ١ : ٣٠١ - ٣٠٤ ، Lewis B., " Palial : A Note ", BSOAS 30 (1967), pp. 177-181 .

^{٧٢} كوهن : المرجع السابق ١٩ .

^{٧٣} ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية ٢/٢ : ٩٦ - ٩٧ ، أبو صالح : تاريخ ٤٥ ، المقرئ : اتعاظ ١ : ٢٢٥ . وقارن ذلك بما فعله محمد بن طغج الإخشيد عندما بذل له النصارى مالا ليسمح لهم بإعادة عمارة قطعة انتهكت من كنيسة أبي شنودة ، فاستفتى الفقهاء في ذلك فلم يجيزوه فيما عدا واحد أفنى بان لهم حق ترميمها ، وكيف ثار الناس على هذا القاضي . (ابن سعيد : المغرب ١٨٣ - ١٨٤) .

^{٧٤} يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخ ١٦٤ - ١٦٥ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الكنيسة ٢/٢ : ١١٣ .

واستمراراً لروح التسامح الديني هذه ، عهد العزيز بالله ، في أعقاب وفاة ابن كِلْس ، إلى عيسى بن نسطورس النصراني بتولى دواوين الدولة في سنة ٩٩٤/٣٨٤ ، واستتاب على الشام يهودياً يُدعى مَنشأ بن إبراهيم القزاز مما مكّن لأهل الذمّة في زمانهما ، وأثار حفيظة المسلمين السنّة عليهما^{٧٥} . ووجد أهل الفسطاط - مركز المقاومة السنية في مصر - في ذلك فرصة سانحة للتعبير عن سخطهم على هذا الوضع . فيروى لنا ابن الجوزي أن أهل الفسطاط جعلوا امرأة (ربما تمثال على هيئة امرأة) تعترض طريق الخليفة وتقدم له ورقة فيها : « بالذي أعزّ اليهود بمنشأ ، والنصارى بابن نسطورس ، وأذلّ المسلمين بك ، ألا نظرت في أمري ؟ » . وقد اضطر الخليفة أمام تدمير أهل مصر من هذا الوضع إلى القبض عليهما وأخذ من ابن نسطورس ثلاثمائة ألف دينار^{٧٦} .

المُعزّ لدين الله وولاية عهده

عيّن المُعزّ لدين الله لولاية عهده ابنه نزار ، رغم أنه ليس صاحب الحق في ذلك تبعاً للنظام الإسماعيلي . وكان المُعزّ ، وهو مازال في إفريقية ، قد عيّن لولاية عهده ابنه الأوسط عبدالله^{٧٧} متخطياً ابنه الأكبر تميم ، صاحب

^{٧٥} أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ١٨٦ ، ابن القلانسي : ذيل ٣٣ ، ابن ظافر : أخبار ٤٠ - ٤١ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٧٧ ، ١١٦ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٤٩ ، المقرئ : اتعاظ : ١ : ٢٩٧ .

^{٧٦} ابن الجوزي : المنتظم ٧ : ١٩٠ ، ابن ظافر : أخبار ٤٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١١٥ - ١١٦ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ١٩٦ .

^{٧٧} الجوزري : سيرة الأستاذ جوذر ١٣٩ ، ١٨٧ - ١٨٨ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٤٢ ، ويذكر عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٠٢ أن المعز أقام ابنه عبدالله « إماماً مستودعاً » حتى يطلع ولده الأصغر نزار أشده .

الخليفة العزيز وإرساء دعائم الدولة

كان عهد المُعِزِّ والعزيز هو فترة إرساء دعائم الدولة الفاطمية وتثبيت أركانها في مصر . فقد منح هاذان الخليفَتان للدولة الفاطمية ، بفضل خبرة ومعاونة القائد جوهر والوزير ابن كِلْس ، قواعد ثابتة جعلتها تستمر بعد ذلك نحو قرنين من الزمان . ولم تكن سياستهما الخارجية نشطة إلا في بلاد الشام ، فتركزت سياسة العزيز بالله الخارجية على تأكيد سيطرة الفاطميين على سوريا الوسطى والجنوبية وعلى إمارة حَلَب فيما بعد^{٨٢} فقد كان الفاطميون يرون في سوريا الشمالية « الطريق إلى العراق » وأن امتلاكهم لها سيضمن لهم الوصول إلى ماورائها من بلاد^{٨٣} ، وخاصة « بغداد » المركز الروحي والسياسي للعالم الإسلامي السني .

ولتأكيد هذه السياسة قرَّر الخليفة العزيز بالله ووزيره ابن كِلْس ، في أعقاب مواجهة الجيش الفاطمي لألبتكين (أفتكين) التركي في دمشق ، القيام بعملية إصلاح شامل للجيش الفاطمي كان أهم مميّزها هو تجنيد الجنود من المناطق الشرقية وعلى الأخص الأتراك والديالة . ونتج عن ذلك نشوُّ جيش متعدد الجنسيات مع تنوع شديد في التخصصات العسكرية . وقد عارضت قوات العزيز بالله من البربر المغاربة هذا الاتجاه واعتبروه تهديداً لمكانتهم في الدولة^{٨٤} .

ومع ذلك فإن الخليفة العزيز لم يَقم بأية محاولة للتحرش بالخلافة العبّاسية ، واكتفى فقط بالقيام باتصال دبلوماسي بعضد الدولة البويهية ، في عهد الطائع

^{٨٢} Canarol, M., El^{٨٢}, art. al - 'Aziz billah I, p, 847 وعن سياسة العزيز بالله

^{٨٣} ابن الأثير : الكامل ٩ : ٨٥ نص رسالة بكجور إلى العزيز بالله يطمعه في حلب ويقول له « إنها دهليز العراق » .

^{٨٤} ابن ميسر : أخبار ١٧٦ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٤٩ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٣٥٤ ،

المقرئزي : اتعاظ ١ : ٢٩٤ ، ٢٦١ ، الخطط ١ : ٩٤ ، ٤٥١ ، ٢ : ١٢ ، ابن إياس : بدائع

الزهور ١/١ : ١٩٢ ، Beshir, B. I., op. cit pp. 41- 43; Lev, Y. op. cit., pp. 342- 343

العباسي ، اعترف فيه عضد الدولة بفضل أهل البيت وخاطب العزيز « بالحضرة الشريفة » وأقر له بأنه في طاعته^{٨٥} . ويبدو هذا التصرف من عضد الدولة غريباً خاصة وأن ابن ظافر يذكر أنه لم يكن يعترف بالنسب الفاطمي^{٨٦} ! ولكن الفاطميين نجحوا دون شك في التصدي للبيزنطيين ووضعوا نهاية لمحاولاتهم المتكررة لاسترجاع الشام منذ عام ٩٦٥/٣٥٤ .

وبدلاً من المواجهة المباشرة اعتنق الفاطميون نظرية جديدة مؤداها أن صاحب السيادة الفعلية على العالم الإسلامي ، هو من تقام له الخطبة في الأراضي الإسلامية المقدسة (مكة والمدينة)^{٨٧} . فكان الفاطميون يتقربون لشرفاء مكة لهذا السبب . وهكذا أقيمت الدعوة للمُعز وهو مازال في إفريقية^{٨٨} ، كما أقيمت له في سنة ٩٧٤/٣٦٣ بعد انتقاله إلى مصر^{٨٩} ، ثم أقيمت للخليفة العزيز سنة ٩٧٦/٣٦٥ . وظلّ الفاطميون حريصين على ذلك إلى أن تقلّصت ممتلكاتهم وشغلّتهم مشاكلهم الداخلية عن تحقيق أهدافهم الاستراتيجية^{٩١} .

^{٨٥} ابن الأثير : الكامل ٨ : ٧٠٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٢٤ - ١٢٥ ، Kabir, H., " The Relation of the Buwayhides with the Fatimids " Indo - Irania VIII, 4 (1955), pp. 28 - 33

^{٨٦} ابن ظافر : أخبار ٣٤ .

^{٨٧} المسعودي : مروج الذهب ١ : ١٩٢ ، متر ، آ : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٢٣ .

^{٨٨} المقرئ : الخطوط ١ : ٣٥٣

^{٨٩} ابن الجوزي : المنتظم ٧ : ٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣٤٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٦٧ ، ابن خلدون : العبر ٤ : ٥١ ، المقرئ : اتعاظ ١ : ٢٢٥ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٠٦ .

^{٩٠} نفسه ٧ : ٨٠ - ٨١ ، نفسه ٨ : ٦٦٧ ، ابن ظافر : أخبار ٣٣ ، المقرئ : اتعاظ ١ : ٢٣٨ .

^{٩١} عن حرص الفاطميين على استمرار إقامة الدعوة لهم في الحرمين الشريفين ، انظر السجلات المستنصرية ، السجلات رقم ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٢ .

الفصل الثالث

التوسُّع

ومناقشة قضية الحاكم بأمر الله

مع نهاية عهد العزيز بالله حول سنة ٩٩٢/٣٨٢ اتسعت مملكة الفاطميين ، وتمكن الدُّعاة من إقامة الدعوة للفاطميين في أماكن متفرقة من العالم الإسلامي ، في اليمن والموصل^١ بالإضافة إلى الشام وإفريقية ، كما اشترط العزيز على رُسُل إمبراطور بيزنطة أن يُخطب له في جامع القسطنطينية في كل يوم جمعة^٢ .

الصُّراع بين الأتراك والمَغاربة

كانت فترة حكم العزيز بالله هي الفرصة المواتية للفاطميين لتحقيق حلمهم في مواجهة العبَّاسيين . يقول أبو المحاسن ، تعليقاً على رد عضد الدولة البويهى على كتاب العزيز السابق ذكره : « وما أظن عضد الدولة كتب له ذلك إلا عَجْزاً عن مقاومته »^٣ . فبعد وفاة العزيز في سنة ٩٩٦/٣٨٦ ، تولَّى الخلافة تسعة من الفاطميين ، كان بينهم وقت اعتلاء العرش ثلاثة مراهقين وخمسة أطفال كان أولهم الحاكم بأمر الله ، الذي ظنَّ بَربر كُتامة عند تولّيه أن الفرصة

^١ المسبحى : نصوص ضائعة ١٨ ، ابن خلكان : وفیات ٥ : ٣٤٧ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٢٧٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١١٦ ، ١٢٢ ، ٢٢٤ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤١٣ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٣٠٠ - ٣٠٢ .
^٢ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٥١ - ١٥٢ .
^٣ نفسه ٤ : ١٢٥ .

قد سنحت لهم لتطهير الجيش من أبناء الشرق ، وشرطوا عليه أن يولّي الحسن ابن عمار المغربي الوَسْاطَةَ ، مما مَكَّن المغاربة من استعادة مكانتهم في الدولة ، بعد أن أضعفهم الوزير ابن كِلْس ، وحلّوا مؤقتًا محل الأتراك في ولايات الأعمال ، حتى اضطر جماعة من الأتراك إلى الهرب من مصر خوفًا من ابن عمار فرّثوا من الطريق^٥ . وخلع الحاكم على ابن عمار لقب « أمين الدّولة » ، فأصبح بذلك أول من لُقّب في الدولة الفاطمية^٦ .

ولم يلبث الأتراك والمشاركة أن تحالفوا مع بَرَجَوَان ، الذي كفّل الحاكم بعد وفاة العزيز . وثارت فِتْنَةٌ بينهم وبين المغاربة سنة ٩٩٧/٣٨٧ انتهت بإقصاء ابن عمار وإحلال بَرَجَوَان محله ، فاستقل بالأمور مع كاتبه فَهْد بن إبراهيم النَّصْرَانِي^٧ ، ولم يدع الخليفة يتصرّف في شيء إلّا برأيه^٨ . فضاق الحاكم به ذرْعًا وقرّر التخلص منه لينفرد بأمر الدولة . فأوعز إلى رَيْدَان الصُّقْلَبِي ، صاحب المِظْلَّة ، أن يقتله في القصر في سنة ١٠٠٠/٣٩٠ ، كما قُتل في هذه الأحداث

^٥ ابن الصيرفي : الإشارة ٥٦ - ٥٧ ، أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ٢٢٢ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٤٤ ، ٤٥ ، ابن ظافر : أخبار ٤٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٧٧ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٥٠ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٣٦ - ٣٧ ، والمقفى ٣٧١ - ٣٧٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٢٢ ، Wiet, G., EI² ., art. 'Ammar, Banu I, p. 461 .

^٥ يحيى بن سعيد : تاريخ ١٨٦ ، ابن القلانسي : ذيل ٤٨ ، ٤٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٧٧ - ١٧٨ ، ١٨١ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٥٠ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٣٦ والاتعاظ ٢ : ٤ ، ١٠ ، ١٢ - ١٣ .

^٦ نفسه ١٨٠ ، ابن الصيرفي : الإشارة ٥٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ١١٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٧٩ ، ابن سعيد : النجوم ٥٥ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٥٠ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٣٦ ، اتعاظ ٢ : ٥ - ٦ ، المقفى ٣٧٢ .

^٧ المقرئ : اتعاظ ٢ : ١٤ .

^٨ أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ٢٢١ ، ابن الصيرفي : الإشارة ٥٧ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ١١٨ ، ١٢٠ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٢٧١ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ١٣ - ١٤ ، الخطط ٢ : ٣ - ٤ ، ١٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٤٨ .

كذلك ابن عمار وتولى تدبير الدولة الحسين بن جوهر القائد^٩.

وقد أعقب ذلك اضطرابات بين طوائف الجند ، فقد اعتبر الأتراك ما حدث ضربة لهم من بَرَبَر كُتامة ، مما حمل الخليفة على الخروج إلى باب قصره ومخاطبة المتظاهرين ، وَوَجَّه حديثه إلى الكُتامين ووصفهم بأنهم « شيوخ دولته » ثم وَجَّه حديثه إلى الأتراك ووصفهم بأنهم « تربية والده العزيز » ، وطلب إلى الكافة الولاء والطاعة كما أمر أبا منصور بن سورين ، كاتب الإنشاء ، بكتابة سجل يُبرِّر فيه قتله لِبَرَجَوَان^{١٠}.

ديكتاتورية الحاكم

وابتداء من هذا التاريخ أصبح الحاكم طاغية مُطلق لا ينبع في قراراته سوى عن هواه أو مزاجه الشخصي ، ووضحت في تصرفاته المتناقضات ، فقد كان مصاباً بانفصام الشخصية يأخذ القرار ثم ينقضه بعد قليل^{١١}.

^٩ يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٧ - ١٩٨ ، أبو شجاع : ذيل ٢٣٠ - ٢٣٢ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ١٢١ ، ابن الصوفي : الإشارة ٥٨ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ١٢٢ ، ابن ظافر : أخبار ١٤٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٨١ ، ابن خلكان : وفیات ١ : ٢٧٠ - ٢٧١ ، ابن سعيد : النجوم ٥٥ ، التويرى : نهاية ٢٦ : ٥١ ، المقرئى الخطط ٢ : ٤ ، ١٤ ، اتعاظ ٢ : ٢٥ - ٢٦ ، المقفى ٤٠٧ - ٤٠٨ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٥٤ - ٢٥٧ (رواية مفصلة) ، Lewis, B., EI²., art. Bardjawan I, pp. 1073 - 74.

^{١٠} المقرئى : اتعاظ ٢ : ٢٧ وانظر نص السجل في الاتعاظ أيضا ٢ : ٢٧ - ٢٩ والشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٣١ - ١٣٥ ، ٢٩٩ - ٣١١ ، كما منح الحاكم أماناً للكُتامين الذين عَشُوا على أنفسهم بعد قتل ابن عمار (عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٥٧ - ٢٥٨).

^{١١} وضعت مؤلفات كثيرة عن عصر الحاكم بأمر الله بين متعاطفة معه مدافعة عن سياسته أو مهاجمة متهمة له بالخلل والجنون ، أهمها ، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (القاهرة ١٩٣٧ ، ١٩٥٩) ، عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المقتدى عليه ، القاهرة ١٩٥٨ ، Sadik, A. A., The Reign of Al-Hakim Bi Amr Allah (386/96-411/1021), A Political Study, Beirut 1974; Canard, M., EI²., art. Al-Hakim Bi Amr Allah III, pp. 79 - 84;

ويمكننا تقسيم فترة حكم الخليفة الحاكم ، بعد تخلصه من بَرَجَوَان واستقلاله بأمور الدولة في سنة ١٠٠٠/٣٩٠ ، إلى ثلاث فترات اتبّع خلال كل منها سياسة متماسكة نسبيًا ، ولكنها كانت تنتهى دائماً بتغيير عنيف لاختياراته .

الاعتدال

وتمتد المرحلة الأولى حتى نهاية سنة ١٠٠٥/٣٩٥ عندما أصبحت ثورة أبي رَكْوَة مُهَدَّدة للنظام الفاطمي . ففي هذه المرحلة ، التي تتسم بالاعتدال ، ظل الحاكم محافظًا على العبارات الشيعية للإسلام في الأذان وفي الصيام ، كما حرص على احترام الطقوس والشعائر وعلى الأخص ما يتعلق منها بالأخلاق^{١٢} . وشهد عام ١٠٠٣/٣٩٣ أهم إنجازات الحاكم ، التي ظلت شاهدة على عصره حتى الآن ، وهي الشروع في إتمام بناء الجامع الأثور ، المعروف الآن بجامع الحاكم خارج أسوار القاهرة الشمالية عند باب الفتوح ، وبناء جامع رَاشِدَة على أرض كانت لقبيلة راشِدَة في الفسطاط وأزال من عليها بعض الكنائس ومقابر لليهود والنصارى ، وكذلك بناء جامع المَقْس على شاطئ النيل^{١٣} .

وقد حاول كذلك في هذه الفترة أن يُنمّي رتبة الوَسَاطَة والسُّفَارة فظل الحسين بن جوهر في رتبته حتى سنة ١٠١٠/٤٠٠ ، وأن يُوفّق العلاقات بين الطوائف المختلفة للجيش ، وأن يمنح مصداقية متزايدة لنظامه عن طريق كَسْب وُدّ أهالي الفسطاط . وتأكد هذا الاتجاه اعتبارًا من نهاية سنة ١٠٠٥/٣٩٥

Bianquis, Th., "Al-Hakim Bi Amr Allah ou la folie de l'unité chez un souverain fatimide", Les Africains XI (1978), pp. 107 - 133; Van Ess, J., Chiliastische Erwartungen und die Versuchung der Gattlichkeit : der Kalif Al-Hakim (375 - 411 H.) Heidelberg : Winter, 1977.

^{١٢} Bianquis, Th., op. cit., p. 128

^{١٣} Fu'ad Sayyid, A., La capitale de l'Egypte (تحت الطبع) .

عندما انفجرت ثورة أبي رَكْوَة^{١٤} فقد اكتشف الحاكم خيانة في صفوف أتباعه واتضح له عدم فاعلية الجيش ، ولم يجد التأييد الذي كان يحتاج إليه إلا بين سكان مصر الفسطاط الذين كانوا يعادون قطعاً ثورة يقودها البدو^{١٥} . وكاعتراف بمؤازرتهم له ألغى الحاكم سَبَّ الصحابة وسمح بممارسة بعض الشعائر والطقوس السنية التي حرّمها أباؤه . فأعاد صوم رمضان بدون رؤية الهلال^{١٦} . وأنشأ دار الحكمة (دار العلم) في سنة ٣٩٥/١٠٠٥^{١٧} وأراد أن يكسب بها في أول الأمر حماس أهل السنة ، فكان من بين متوليها جماعة من شيوخ السنة على رأسهم الحافظ عبد الغني بن سعيد وأبو أسامة جُنَادَة بن محمد اللغوي وأبو الحسن علي بن سليمان المقرئ الأنطاكي^{١٨} . وربما قصد الحاكم من وراء ذلك أن يسحب من جامع عمرو ، الواقع في قلب الأحياء التجارية للفسطاط ، دوره المميز في صنع الفكر الديني . ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ففي نهاية عام ٣٩٩/١٠٠٩ قُتِلَ الشيخان أبو أسامة اللغوي وأبو الحسن الأنطاكي واضطر عبد الغني بن سعيد إلى التَّسَتُّر^{١٩} .

^{١٤} عن ثورة أبي ركة راجع ، النويري : نهاية الأرب ٢٦ : ٥٤ - ٥٥ ، المقرئ : اتعاظ الخلف ٢ : ٦٠ - ٦٧ وإغاثة الأمة ٦٤ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٥٩ - ٢٧٢ .

^{١٥} Bianquis, Th., op. cit., p. 156

^{١٦} المقرئ : الخطط ٢ : ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، اتعاظ ٢ : ٧٨ .

^{١٧} المسبحي : نصوص ضائعة ٢٢ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٥٨ - ٤٦٠ ، اتعاظ ٢ : ٥٧ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٣٦٠ - ٣٦١ ، وانظر فيما يلي الفصل الثالث عشر .

^{١٨} القلقشندي : صبح ٣ : ٥٢٠ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ١١٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٢٢ - ٢٢٣ .

^{١٩} ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٢ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ٨٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٢٢ - ٢٢٣ ، Bianquis, Th., " 'Abd al - Gani ibn Sa'id, un savant sunnite au service des Fatimides " . Actes du XXIX Congrès international des Orientalistes Etudles arabes et islamiques, I - Histoires et Civilisations, Paris 1975, I, p, 43 - 44

اضطهاد أهل الذمة

واعتباراً من عام ١٠٠٥/٣٩٥ بدأ تشدّد الحاكم مع الرعية ، وخاصة أهل الذمة الذين لقوا في عهده عنتاً شديداً ، كما أخذ في إصدار سلسلة من الأوامر والقرارات تحوى قائمة بممنوعات توعدّ من يُقدم عليها بالعقاب بالقتل أو التعذيب .

فألزم أهل الذمة بلبس الغيار ، ومنعهم من دخول حمامات المسلمين ، وهدم كنائسهم وبيعتهم ، وأمرهم باعتناق الإسلام أو الخروج إلى بلاد الروم ، مما اضطر كثيراً منهم إلى اعتناق الإسلام كارهين^{٢٠} .

وأدت سياسة الحاكم المتشدّدة مع النصارى ، والملكيين منهم بوجه خاص ، وهدمه لكنيسة قمامة (القيامة) بيت المقدس سنة ١٠٠٧/٣٩٨ إلى الإضرار بتجارة الفاطميين مع البيزنطيين^{٢١} ، حيث قطع باسيل الثانى في سنة ١٠١٥/٤٠٦ جميع العلاقات التجارية مع الفاطميين^{٢٢} ، خاصة بعد أن أمر الحاكم في سنة ١٠١٣/٤٠٣ بهدم جميع كنائس الديار المصرية ووهب جميع

^{٢٠} المسيحي : أخبار ٩٧ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ابن ظافر : أخبار ٥٥ ، النابلسي : تجريد سيف الهمّة ١٣٩ - ١٤٠ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٢٠٩ ، ٣١٧ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٣٩٣ - ٢٩٤ ، ابن سعيد : النجوم ٥٢ ، ٥٣ ، التويرى : نهاية ٢٦ : ٥٦ - ٥٧ ، ابن أليك : كنز الدرر ٦ : ٢٩٨ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٢٨٨ ، ٣٤١ ، اتعاض ٢ : ٤٨ ، ٥٣ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ٩٣ - ٩٥ ، ١٠٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٧ ، ١٧٨ ، Atiya, A. S., El^٢, art. Kibi IV p. 94.

^{٢١} يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٥ - ١٩٦ ، ناصر خسرو : سفرنامه ٧٥ ، المقرئ : اتعاض ٢ : ٧٤ - ٧٥ ، Canard, M., "La destruction de l'église de la resurrection par le calife Hakim et l'histoire de la descente du feu sacré ", Byzantion XXXV (1965), pp. 16 - 43

^{٢٢} يحيى بن سعيد . تاريخ ٢١٤ - ٢١٥ ، Shaban, A., op. cit., p. 209

مافيا ومالها من ربا ع وأملاك إلى جماعة من الصقالبه والفراشين والسعدية^{٢٣}.
وقد ذكر ابن عبد الظاهر أن الخليفة الحاكم قد أحرق كذلك حارة الجودرية
على أهلها اليهود ، الذين كانوا يجتمعون بها ويسخرون من المسلمين^{٢٤}.

وبالرغم من ذلك فإننا نجد في أوراق الجنيزة ما يخالف بعض ما جاء في
المصادر التاريخية حول موضوع اضطهاد اليهود بصفة خاصة .

ففى طومار عبرى وجد فى أوراق الجنيزة يرجع تاريخه إلى أواخر شهر يناير
سنة ١٠١٢/ جمادى الآخر سنة ٤٠٢ ، نجد مدحا للخليفة الحاكم مع وصفه
بأنه يشبه المسيح أمير العدالة الذى يحمى غير المسلمين من التهم الباطلة
الموجهة إليهم . ويرى جويتين S.D. Goitein أن ثورة اليهود والقبط المفاجئة
فى عهد هذا الخليفة تبدو لنا من خلال الجنيزة على أنها انفجار ضد الحكم
الفاطمى الليبرالى بصفة عامة ، وليست بسبب أهواء هذا الخليفة
الشخصية^{٢٥}!

وقد لقى موقف الحاكم من النصارى ، بصفة خاصة ، قبولا من المسلمين
السنين الذين أبغضوا النصارى بسبب أعمال الابتزاز والمحابة التى عانوها من
موظفى المال النصارى .

التواهى

أما قوائم الممنوعات التى توعد من يقدم عليها بالقتل والتعذيب فىمكن
تفسيرها على أنها إجراءات إصلاحية . فعندما أمر بمنع صناعة

^{٢٣} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٤ - ٢٠٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٧ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٩٤ .

^{٢٤} المقرئى : الخطوط ٢ : ٥ .

^{٢٥} Goltein, S. D., Studies in Islamic History and Institutions

النبيذ والمزر والفُقّاع ، فإن هذا الإجراء يتفق مع ما يجب أن يكون من حاكم مسلم غيور . كما أن تحريمه ذبح الأبقار السائلة من العيب إلا في أيام المواسم يهدف إلى المحافظة على الثروة الحيوانية للبلاد . كذلك فإن منعه الخبازين من استخدام أقدامهم في عجن العجين يعد عملاً متماشياً مع أبسط قواعد الصحة العامة^{٢٦} .

ونظراً لأن نساء مصر والقاهرة كن يتبعن ، فيما يبدو ، عوائد فيها بعض التحلل ، حيث كن يتبرجن ويكشفن وجوههن خلف الجنايز^{٢٧} ، وكن لا يتورعن من الجلوس في الطرقات العامة أمام المنازل ، ويكثرن من الاختلاط بالرجال في الأسواق^{٢٨} ، فقد قرر منعهن من الخروج من منازلهن والاجتماع بالماثم ، وهداه تفكيره إلى أن يطلب إلى الأساكفة أن يمتنعوا من عمل الخفاف هن . وكانت إذا دعت الضرورة إلى حضور قابلة أو غاسلة لمن تلد أو لمن تموت ، استؤذن في ذلك برقعة ترفع إليه فيوقع على ظهرها بخطه إلى متولى الشرطة فيندب من يثق به ليصحبها إلى حيث مقصدها^{٢٩} .

كذلك فقد منع الحاكم من أكل السمك الذي لا قشر له^{٣٠} ، وهو سمك

^{٢٦} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٢ ، ابن ظافر : أخبار ٤٣ - ٤٤ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٣ ، ابن سعيد : النجوم ٥٢ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٥٧ ، ابن أليك : كنز ٦ : ٢٨٤ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، اتعاظ ٢ : ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٧ ، ١٧٨ ، ابن إياس : بلائع الزهور ١/١ : ١٩٩ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤١٤ .

^{٢٧} المقرئ : اتعاظ ٢ : ٥٣ .

^{٢٨} نفسه ٢ : ٣٨ .

^{٢٩} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٨ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ١٢٤ ، ابن حماد : أخبار ٦٤ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٧ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٤ ، ابن سعيد : النجوم ٥٣ ، ٢٦٤ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٥٧ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٣٤٢ ، اتعاظ ٢ : ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٨ ، ٢٣٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤١٥ ، حسن المحاضرة ٢ : ٢٨٣ .

^{٣٠} المقرئ : اتعاظ ٢ : ٥٣ .

يعيش في الأوحال ويحتفر فيها ممرات ليحيا على الترسبات التي تبقى في القاع ، وهو بذلك يقوم بوظيفة بيئية هامة هي تنظيف المجارى المائية ، وهو النوع المعروف باسم القرموط^{٣١} . وأباح كذلك قتل الكلاب فيما عدا كلاب الصيد^{٣٢} ، وإذا عرفنا أن القاهرة والفسطاط كانتا تمتلئان بالآلاف من الكلاب الضالة ، وهو أمر حرص على تسجيله جميع الرحالة الذين زاروا مصر في العصور الوسطى ، عرفنا سبب دعوته لقتل الكلاب . كما أن أمره بأن لا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر يتمشى مع قواعد النوق والآداب العامة^{٣٣} . وعلل الحاكم تحريمه لأكل الملوخية بميل معاوية إليها ، كما علل تحريم الجرجير لنسبته إلى السيدة عائشة ، ونهى عن المتوكلية لنسبتها إلى المتوكل العباسي^{٣٤} .

سياسة الحاكم الدينية وموقفه من معاويله

أما الشيء الذى يصعب تفسيره في تصرفات الحاكم فهو سياسته الدينية وموقفه من أعوانه ومساعديه .

ويمكن أن نعتبر تشدد الحاكم مع أهل الذمة ، خلافاً لروح التسامح التي سادت بقية العصر الفاطمي ، محاولة من هذا الخليفة لتطبيق « العهد العُمري » عليهم . ولكنه في الوقت نفسه لم يراع مشاعر أهل السنة ، فقد شاع في عصره سبُّ الصحابة وأمر بكتابه على جدران المساجد وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه ، وعلى أبواب الحوانيت والدور والقياسر ، ولونه بالأصباغ

^{٣١} Shaban, A., op. cit. p. 258 .

^{٣٢} ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ١٢٤ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٣ ، ابن حماد : أخبار

٦٢ ، ابن سعيد : النجوم ٥١ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٥٦ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، أبو المحاسن :

النجوم ٤ : ١٧٧ ، ١٧٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٨١ .

^{٣٣} المقرئى : اتعاظ ٢ : ٥٣ ، النويرى : نهاية - خ ٥٣ .

^{٣٤} ابن ظافر : أخبار ٤٤ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٥ ، المقرئى : الخطوط ٢ : ٣٤١ ، اتعاظ ٢ :

والذهب وأكبره الناس على فعله ، فعظم ذلك على المسلمين من أهل السنة . ثم تراجع عن ذلك وأمر بمحوه من على المساجد وغيرها ، وأوكل إلى صاحب الشرطة أن يلزم كل صاحب دار أو دكان بمحو ما كُتب على داره أو حانوته ^{٣٥}.

أما موقفه من أعوانه ومساعديه ، فيلاحظ أن أحدًا من خواصه أو المقرين إليه لم يَسَلَم من القتل ، حتى بات كل إنسان خائفًا على نفسه ، وكثرت في عهده الأمانات وإن لم يلتزم بها ^{٣٦}. فقد قتل جميع وسطائه وقضاته ^{٣٧}، وأبدى ندمه على أنه لم يقتل زُرْعَة بن عيسى بن نسطورس ^{٣٨}. وحتى رجال الدعوة أنفسهم ومن أبلوا بلاءً حسنًا في نُصرة الدولة مثل الحسين ابن القائد جوهر وعبد العزيز بن النعمان القاضي لم يسلموا من القتل ^{٣٩}.

^{٣٥} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٦ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٣ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٥١٣ ، ابن سعيد : النجوم ٥١ ، ابن أبيك : كنز ٦ : ٢٧٩ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٢٨٦ ، ٢٤١ - ٣٤٢ ، اتعاض ٢ : ٥٤ ، ٦٩ ، ٢٩٨ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٧ ، ابن إياس : بدائع ١/١ : ٢٠٠ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤١٤ .

^{٣٦} يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٨ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٢٦٠ ، المقرئ : اتعاض ٢ : ٨٢ .
^{٣٧} نفسه ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ٢٣٣ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ١٢١ - ١٢٢ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٢٧١ ، ابن سعيد : النجوم ٥٨ ، ٥٩ - ٦٠ ، ٦٦ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٠ ، المقرئ : الخطط ٢ : ١٥٧ ، اتعاض ٢ : ١٢٠ - ١٢١ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٠١ ، ٢١١ .

^{٣٨} نفسه ٢٠٩ ، المقرئ : اتعاض ٢ : ٩٣ .

^{٣٩} يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٨ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٨ ، ابن سعيد : النجوم ٣٣ - ٣٤ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٣٦٦ ، التويري : نهاية ٢٦ : ٥٦ ، المقرئ : الخطط ٢ : ١٤ - ١٦ ، ٢٨٧ ، اتعاض ٢ : ٨٤ ، ٨٦ - ٨٧ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٦٤ ، ٣٦٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٣ - ٣٤ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٧٦ - ٢٨٠ .

تساهل الحاكم في أصول العقيدة الإسماعيلية

وربما كان تساهل الحاكم في كثير من أمور العقيدة الإسماعيلية في هذه المرحلة بغرض كسب شعبية لنظامه ، قد أغضب كبار رجال الدعوة ، ومع ذلك فقد أصر على سياسته وخوف معارضيه بأن أعلم بعض رموزها كالحسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان في سنة ١٠١١/٤٠١ .

فقد أمر في سنة ١٠١٠/٤٠٠ برفع ما كان يؤخذ على أيدي القضاة من الخمس والزكاة والفطرة والتجوى ، وإبطال مجالس الحكمة في المحوّل في القصر ، ثم أعاد كل ذلك مرة ثانية ^{٤١} . وفي العام نفسه منع المؤذنين من الأذان « بحسبى على خير العمل » ^{٤٢} وأباح الصوم على رؤية الهلال ، وترك الحرية لمن يريد أن يصلى صلاة التراويح وصلاح الضحى ، ثم عدل عن ذلك كله وتشدد فيه ^{٤٣} . وفي عام ١٠١٢/٤٠٢ أصدر مرسوماً يقضى بعدم مخاطبته « بالإمام » وأن يكتفى بمخاطبته « بأمر المؤمنين » ^{٤٤} .

^{٤١} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٩ ، ٢٢١ ، المسيحي : نصوص ضائعة ٢٩ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٩٠ ، ٢ : ٣٤٢ ، الاتعاظ ٢ : ٨٢ .

^{٤٢} نفسه ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٦ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٢٧٠ ، ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، الاتعاظ ٢ : ٨٦ ، السيوطى : حسن ٢ : ٢٨٢ .

^{٤٣} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٦ ، ابن سعيد : النجوم ٥١ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٢٧٠ ، ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، الاتعاظ ٢ : ٧٨ ، ٨٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٧ ، السيوطى : حسن ٢ : ٢٨٢ . وقد منع الفاطميون « صلاة التراويح » لأنها لم تكن من سنة النبي وإنما استنها عمر بن الخطاب . (ابن عثاري : البيان ١ : ١٢٧) .

^{٤٤} نفسه ٢٠٥ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٢٨٨ ، الاتعاظ ٢ : ٩٦ ، ابن حماد : أخبار ٦٢ .

الحاكم يُعَيِّن عبد الرحيم بن إلياس وليًا لعهد

ولم يلبث الحاكم ، في سنة ٤٠٤/١٠١٤ ، أن خرج على أحد أسُس العقيدة الإسماعيلية التي تشترط النص في الإمامة على الإبن الأكبر^{٤٤} ، عندما جعل ابن عمه عبدالرحيم بن إلياس ، وهو ابن امرأة مسيحية ، وليًا لعهد^{٤٥} ، ونَقَش اسمه على السُّكَّة^{٤٦} وكتبه على الطراز والبنود^{٤٧} . ويبدو أنه اضطر إلى ذلك بعد أن قام في أول هذا العام بإخراج جماعة من حظايا وأمهات أولاده من القصر ومن بينهن أم ولده أبي الحسن على (الظاهر) وولده نفسه ، مما اضطر أخته سيدة الملك إلى أخذهما خوفًا عليهما وأسكنتهما بقصرها (المواجه للقصر الفاطمي الكبير) ، وظلّا كذلك حتى قُبِدَ الحاكم^{٤٨} .

^{٤٤} Canard, M., *El¹*, art. Fatimides II, p. 877

^{٤٥} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، ابن سعيد : النجوم ٢٦٤ ، الهداية الأمرية ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ابن عسار : البيان المغرب ١ : ٢٦٠ (وفيه أن الحاكم أرسل سجنًا بهذا المعنى إلى نصير الدولة باديس) ، النويري : نهاية ٢٦ : ٥٧ ، القلقشندي : صبح ٩ : ٢٩٥ - ٢٩٦ ، المقرئ : الخطوط ٢ : ٢٢٨ ، اتعاط ١٠٠ - ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٩٣ - ١٩٤ .

^{٤٦} المقرئ : اتعاط ٢ : ١٠٣ ، وقد وصلت إلينا عملة عليها اسم عبد الرحيم كولي عهد المسلمين ضربت في السنوات ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ ، انظر Lane - Poole, S., catalogue of Oriental Coins in the British Museum, IV. Coinage of Egypt, London 1879, p. 22 n. 88, p. 26 n. 106; id., Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo, London 1897, p. 165 n°. 1048

^{٤٧} راجع Wiet, G., RCEA VI, pp. 119-120 n° 2212-17

^{٤٨} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

ويلاحظ أن الداعي عماد الدين إدريس لم يشر في تاريخه للدعوة الإسماعيلية إلى محاولة الحاكم جعل ابن عمه عبدالرحيم بن إلياس وليًا لعهد ، وذكر أنه نصب ابنه الظاهر وليًا لعهد وكتب بذلك إلى جزائر الدعوة وإلى الدعاة القاطنين بالدعوة . (عيون الأخبار ٦ : ٣٠٣) .

تَصَوُّفُ الْحَاكِمِ

واعتباراً من عام ١٠١٢/٤٠٣ - ١٠١٣ ، بدأ الحاكم بأمر الله يدخل في المرحلة الأخيرة من حياته ، وهي المرحلة التي تتميز ببعض جوانب التَّقَشُّفِ والزُّهْدِ في الحياة . فقد شهدت هذه المرحلة ميله إلى ارتداء الحُشِينِ من الثياب وركوب الحمير والإكثار من الخروج وحيداً في الليل ، كما أخذ في ارتداء ملابس الكتان مثل المتصوفة ، ورفض جميع أنواع المواكب^{٤٩} . وفي الوقت نفسه أخذ يصرف بسخاء مفرط على المنشآت الدينية وقَوَمَةِ المساجد ويوقف الأوقاف على ذلك . فحول هذه الفترة ، وبالتحديد في رمضان سنة ١٠١٠/٤٠٠ أوقف رباعاً وأملاكاً كثيرة على الجامع الأزهر وجامع المقس والجامع براشيدة والجامع الحاكمي ودار العلم (الحِكْمَةُ) بالقاهرة^{٥٠} . وفي سنة ١٠١٢/٤٠٣ أمر بتسجيل المساجد التي لا غَلَّةَ لها ، ولا أحد يقوم بها فكانت ثمانمائة مسجد ، فأطلق لها في كل شهر من بيت المال تسعة آلاف ومائتين وعشرين درهماً^{٥١} . كما حَبَسَ في سنة ١٠١٤/٤٠٥ سبع ضياع على القُرَّاء والمؤذنين بالجوامع وعلى المارستانات وفي ثمن الأُكْفَانِ . وأمر في نفس العام بعمل رواقين في صحن جامع عمرو^{٥٢} . وكذلك تخلى لولى عهده عبدالرحيم بن إلياس عن كل مظاهر البَذَخِ والعظمة ، مما يجعلنا نظن كما لو أنه كان يعتزم اعتزال منصب الإمامة^{٥٣}

^{٤٩} ابن ظافر : أخبار : ٥٠ ، Bianquis, Th., Al - Hākhim bi Amr Allah p. 131

^{٥٠} المقرئ : الخطط ٢ : ٢٧٣ - ٢٧٥ .

^{٥١} المسبحي : نصوص ضائعة ٣١ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٢٩٥ ، ٤٠٩ .

^{٥٢} نفسه ٣٢ ، نفسه ٢ : ٢٩٥ ، ٤٠٩ .

^{٥٣} Bianquis, Th., op. cit., p. 130

الوهية الحاكم وتحقيق فكرة الملك الإله

وفي نحو سنة ٤٠٦ - ٤٠٧/١٠١٦ - ١٠١٧ حدثت القطيعة النهائية بين الحاكم وأهالي الفسطاط السنة . ففي سنة ١٠١٧/٤٠٧ وصل إلى القاهرة فريق من الدعاة الفرس يضم الحسن بن حيلرة الفرغاني الأخرم وحمزة بن أحمد اللباد الزوزني ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين الدرّذي وأعلنوا تأليه الحاكم ، وحاولوا فرض هذه العقيدة على أهل الفسطاط^{٥٤} . وقد ترك الحاكم هؤلاء الدعاة يقومون بالدعوة إلى الدين الجديد دون دعم منه ، وإن لم يمانع في منح تعاطفه لحركة تحاول أن تجمع الدولة حول شخصه ، وتطلق على أتباعها اسم « المؤّحدين »^{٥٥} .

وعلى خلاف عادة الفاطميين ، فإن دعاة الدين الجديد حاولوا تحويل أهل الفسطاط إليه ، وملتوا تحدياتهم إلى داخل جامع عمرو نفسه مركز المقاومة السنية . وبذلك أصبح الصدام بينهم وبين السنة أمراً لا مفر منه . وشهدت السنوات من ١٠١٧/٤٠٨ وحتى ١٠١٩/٤١٠ سلسلة من المصادمات والاغتيالات والقتل ،

^{٥٤} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٢ - ٢٢٣ ، ابن ظافر : أخبار ٥٢ - ٥٣ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ١١٣ ، ١١٨ ، ١٤٠ ، الخطط ١ : ٣٥٤ ، ٢ : ٢٨٩ ، المقفى (غ ، السليمية) ٢٢٥ و . ولمزيد من التفاصيل عن الدروز الذين أعلنوا تأليه الحاكم وتاريخهم وأصل مذهبهم راجع ، محمد عبدالله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (القاهرة ١٩٣٧ ، ١٩٥٩) ، محمد كامل حسين : طائفة الدروز (القاهرة ١٩٦٢) ، de Sacy, S., Exposé de la religion des Druzes, I - II, Paris 1838; Hodgson, M. G. S., "Al - Darazi and Hamza in the Origin of the Druze Religion ", JAOS 82 (1962), pp. 5 - 20; id., EI², art. Druze II, pp. 647 - 50; Madelung, W., EI², art. Hamza b. 'Ali III, pp. 157 - 58; Bryer, D., " The Origins of the Druze Religion ", Der Islam 52 (1975), pp. 47 - 84, 239 - 262; 53 (1976), pp. 5 - 27; Abu - Izzedin, N. M., The Druzes : A New Study of their History, Faith and Society, Leiden 1988 .

^{٥٥} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٢ .

قتل في أثنائها الداعي محمد بن إسماعيل التردّي سنة ١٠١٧/٤٠٨ أثناء سيره في موكب الحاكم^{٥٦}.

وكانت جنازة الحافظ أبي محمد عبد الغنى بن سعيد الأزدي ، الذي توفي تبعاً لأغلب المصادر في سنة ١٠١٨/٤٠٩ ، مناسبة تظاهر فيها أهل السنة في الفسطاط خلف قاضي القضاة ابن أبي العوأم الحنبلي ، الذي أمّ الصلاة على جنازة عبد الغنى بن سعيد ، من أجل نصرة الإسلام الحق^{٥٧}.

حريق الفسطاط الأول

وأدت هذه المواجهة إلى نهب مدينة الفسطاط وحرقتها في سنة ١٠١٩/٤١٠ ، دون شك بناء على تحريض الحاكم ، بعد أن وضع أهلها في طريقه صورة امرأة عُملت من قراطيس ، وفي يدها جريدة عليها ورقة فيها سبّ للحاكم وأسلافه . فقامت طوائف العبيد بمهاجمة المدينة ونفذوا فيها عمليات سلب وحرق واغتصاب وقتل كبيرة^{٥٨}.

وقد تصدّى أهالي الفسطاط لهذه المحاولة ، وقاوموا إلى أقصى درجات المقاومة مدافعين عن مدينتهم خطة خطة . ولم يلبث المغاربة والأتراك أن أخذوا جانب أهالي الفسطاط وحاربوا معهم ضد العبيد لإيقاف الصراع الدائر ، فقد كان أكثرهم مخالطاً لهم ومصاهراً منهم ، واستسمحوا الحاكم في إنهاء عمليات السلب والحرق لأن أموالهم وأولادهم وعقاراتهم موجودة في الفسطاط^{٥٩}.

^{٥٦} نفسه ٢٢٣ ، النويري : نهاية خ - ٢٦ : ٥٩ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ١١٣ .

^{٥٧} Bianquis, Th., op. cit., p. 132; id., 'Abd al - Gani b. Sa'id, un Savant sunnite au service des Fatimides, p. 45

^{٥٨} نفسه ٢٢٥ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٥٧ ، المقرئ : الخطط ٢ : ١٠٢ ، أبو المحاسن : نجوم ٤ : ١٨١ (نقلاً عن ابن الجوزي وسبط ابن الجوزي والنعمي) .

^{٥٩} أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨١ وراجع كذلك يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ١٢٦ - ١٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٥ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٥٧ .

ولكن الحاكم لم يستجب إليهم ، بل بدى عليه الانبهار بمنظر المدينة التي تحترق ، وعمل على إشعال الفتنة بين العبيد وسائر الطوائف بغرض « طرّح بعضهم على بعض ولينتقم من فريق بفريق » . ولم يُصنر أوامره بوقف هذه المأساة إلا بعد أن احترق من القسطنطين مقدار ثلثها ونُهب نصفها ، وبعد أن هدد المغاربة والأتراك بحرق القاهرة نفسها^{٦٠}.

ولعلّ محاولة الدعاة الدروز تأليه الحاكم ، التي وَجَدَتْ دون شك تشجيعاً منه ، لم تلق قبولاً من كبار رجال الدعوة الإسماعيلية ، فالداعي أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكرمانى الملقب بحُجّة العراقين والذي قدم إلى مصر في سنة ١٠١٧/٤٠٨ ، في أغلب الظن بناء على استدعاء الحاكم بأمر الله له^{٦١} ، يشير في رسالة « مباسم البشارات » إلى أن الناس واقعون تحت ابتلاء عظيم ، وأن رجال الدعوة رفضوا عقد « مجالس الحكمة » ، وأن « أولياء الدعوة الهادية خيّرهم ما يطرأ عليهم من هذه الأحوال » وأن بعضهم بلغ في الغلو ذراه ، وتزعزعت أركان اعتقادهم^{٦٢}. في هذه الظروف وضع حميد الدين الكرمانى رسالته المعروفة « بالرسالة الواعظة في الرد على الأخرم الفرغانى » يُدحّض فيها فكرة تأليه الحاكم ويُفَنِّدها ويثبت عقيدة الإسماعيلية في الله الذي لا إله إلا هو^{٦٣}.

^{٦٠} نفسه ٤ : ١٨١ .

^{٦١} عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٨١ .

^{٦٢} نفسه ٦ : ٢٨٢ .

^{٦٣} نشر هذه الرسالة الدكتور محمد كامل حسين بعنوان « الرسالة الواعظة في نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » ، مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول ١٤ (مايو ١٩٥٢) ١ - ٢٩ .

الحاكم يُفَكِّرُ في نَقْلِ الْحَجِّ إِلَى مِصْرَ

تبعاً لرواية أوردتها الجغرافى الأندلسى أبو عُثَيْدَ الْبَكْرِى المتوفى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ ، وأيدتها مصادر أخرى . فقد شَهِدَ الحاكم بأمر الله فى المنطقة الواقعة بين القسطنطينية والقاهرة ثلاثة مَشَاهِدَ لينقل إليها رُفَاتِ النَّبِىِّ ﷺ ورفات أبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، من المدينة . وهى محاولة كُتِبَ لها الْفَشْلُ^{٦٤} . وكان يهدف من هذا المشروع إلى تحويل الجغرافية الروحية والدينية للعالم الإسلامى عن طريق حرمان المدينة من أكثر رموزها تقديساً بتحويل قوافل الْحَجَّاجِ إِلَى العاصمة الفاطمية .

ولم يُحَدِّدْ لنا الْبَكْرِى تاريخ هذه المحاولة الفاشلة التى ربما تكون قد تَمَّتْ فى العقد الأول للقرن الخامس الهجرى^{٦٥} . ورغم أن المصادر الفاطمية والدراسات القائمة عليها لا تشير بأى حال إلى هذه المحاولة ، فإن المؤرخ ابن فَهْدِ الْمَكِى المتوفى سنة ١٤٨٠/٨٨٥ والمؤرخ المصرى الْجَزِيرِى بعده بنحو قرن من الزمن ، لا يترك أى شك فى أن هذا المشروع الفاشل قد تم فى سنة ١٠٠٠/٣٩٠^{٦٦} . وتفيدنا هذه الرواية ، التى تقترب من رواية الْبَكْرِى ، بأن أحد الزنادقة ، الذى لم يُذَكَّرْ اسمه^{٦٧} ، قد أشار على الحاكم بِنَبْشِ قَبْرِ النَّبِىِّ ﷺ وصاحبيه وحملهم إلى مصر ، وبذلك يشدُّ الناس رحالهم من أقطار

^{٦٤} الْبَكْرِى : جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك ٥٧ ، مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ٨٣ .

^{٦٥} Ragib, Y., " un épisode obscur d'histoire fatimide », SI XLXIII (1978), p. 125

^{٦٦} ابو فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ٢ : ٤٢٦ ، الجزيرى : الدرر الفرائد المنظمة ١ : ٥٣٣ - ٥٣٢ .

^{٦٧} هذا الزنديق لم يكن من أتباع مذهب الدروز ، لأن مذهبهم لم يعرف إلا ابتداء من عام ٤٠٨ . وربما كان هو ياروختكين الْقَضْدَى متولى حرب الرملة !

الأرض إليها^{٦٨}. وبينما يذكر البكري أن الحاكم بذل أموالاً لرجال من شيعته نجحوا في حفر سرداب أسفل الدور المجاورة لمنزل الرسول ﷺ مقابل القبر ، غير أن أهل المدينة لم يلبثوا أن علموا بما فعلوا وبنيتهم فقتلوهم ومثلوا بهم ، ثم رصفوا تلك الحفرة بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص بحيث لا يطمع في الوصول إليها طامع أبداً^{٦٩}. فإن رواية ابن فهد والجزيري ، التي توجد مع تعديلات طفيفة عند تقي الدين الفاسي والسّمهودي ، تفيدنا بأن الحاكم عهد إلى أمير مكة أي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني بهذه المهمة^{٧٠}. فمضى إلى المدينة وأزال عنها إمرة بنى الحسين ، بحجة قدحهم في نسب الفاطميين ، وجلس في مسجد المدينة وحضر إليه جماعة من أهلها بلغهم ماجاء من أجله ، ومعهم قارئ يُعرف بالركباني فقرأ آيات من سورة التوبة تدعوا إلى مقاتلة أئمة الكفر والناكثين بأيمانهم^{٧١}. فثار الحاضرون على أي الفتوح وكادوا يفتكون به ، ولم يمنعه من ذلك إلا خوفهم من العواقب خاصة وأن البلاد كانت للفاطميين .

ولم يكد يمض بقية النهار « حتى أرسل الله ريحاً كادت الأرض تُزلزل منها حتى دحرجت الإبل بأقتابها والخيول بسروجها وهلك خلق كثير من الناس » .

^{٦٨} ابن فهد : اتخاف ٢ : ٤٢٦ ، الجزيري : درر الفرائد ١ : ٥٣٢ .

^{٦٩} البكري : جغرافية مصر ٥٧ ، مجهول : الاستبصار ٨٣ ، Ragib, Y., op. cit., p. 125 - 126 .

^{٧٠} في سنة ١٠١٠/٤٠٠ ثار بنو الجراح في فلسطين على الحاكم بأمر الله وبايعوا أبا الفوح خليفة تحت

لقب « الراشد بالله » . (الفاسي : العقد الثمين ٤ : ٧٠ - ٧١ ، المقرئ : المفقى (غ .

السلمية) ٣٥٦ ظ - ٣٥٧ و ، ابن فهد : اتخاف الوري ٢ : ٤٣٦ - ٤٤٠) .

^{٧١} ﴿ وَإِنْ تَكْثُرُوا أَئِمَّتُهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتُلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تُقْتَلُونَ قَوْمًا تَكْثُرُوا أَئِمَّتُهُمْ وَهُمْ يَخْرَاجُ الرَّسُولُ وَهُمْ يَدْعُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتَحِشْتُوهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَتَلُوهُمْ ﴾ . [سورة التوبة ١٢ - ١٤] .

وقد فرَّجت هذه الكارثة الكونية ، التي فسَّرت على أنها علامة غضب إلهية ، كُربةً أوى الفتوح وهَمَّه واعتبرها حِجَّةً له عند الحاكم لتركه تنفيذ ما أمره به ^{٧٢}.

ولم يثن فشل هذه المحاولة الحاكم عن أن يعاود من جديد حرمان المدينة من ذخائر مقدَّسة أخرى . إذ أن فكرة تحويل قوافل الحجاج نحو العاصمة الفاطمية برفعها إلى مصاف المدن المقدَّسة ، أصبحت جزءاً من سياسة الفاطميين وعلى الأخص في عصر الحاكم . ففي سنة ٤٠٠/١٠١٠ أرسل الحاكم ياروختكين العَضُدِي إلى المدينة ليفتش في دار جعفر الصَّادق ، والتي لم يجرؤ أحدٌ على فتحها بعد وفاته ، عن ما بها من ذخائر . وقد جمع ياروختكين ما وجدته في الدار وعلى الأخص مُصَنَّف وقَعَبٌ من خشب مطوق بحديد ودَرَقَة خيزران وحرَّبة وسرير . وقد حُمِل جميع ذلك إلى القاهرة وصحبه جماعة من شيوخ العلويين . فلما وصلوا إلى الحاكم أطلق لهم نفقات قليلة ورد عليهم السرير وأخذ الباقي قائلًا لهم إنه أحقَّ به منهم ^{٧٣} . ومن بين هذه الذخائر قطعة من حصير كانت تستخدم كسجادة صلاة للخلفاء في وقت صلاة الفِطْرِ ^{٧٤} . ولم تكن هذه الذخائر الوحيدة التي احتفظ بها الفاطميون فقد كان عندهم أيضاً ذو الفقار سيف علي بن أبي طالب ، وسيف الحسين بن علي ودَرَقَة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصَّادق ^{٧٥}.

^{٧٢} الفاسي : العقد الثمين ٤ : ٧٧ ، ابن فهد : إتحاف الوري ٢ : ٤٢٧ ، السمهودي : وفاء الوفا ٢ : ٦٥٣ ، الجزيري : درر الفرائد ١ : ٥٣٣ .

^{٧٣} ابن الجوزي : المنتظم ٧ : ٢٤٦ ، ابن الأثير : تاريخ ٩ : ٢١٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٢٢ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٨٨ ، Wiet, G. CIA Egypte II, p. 163 ; Ragib, Y., op. cit., p. 129

^{٧٤} المقرئزي : الخطط ١ : ٤٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٦ .

^{٧٥} نفسه ١ : ٤١٧ .

نهاية الحاكم

وكما كانت حياة الحاكم بأمر الله حياة مليئة بالعجائب ، فإن نهايته هي الأخرى كانت نهاية مُلغِزة ، وربما لن نعرف أبداً كيف تَمت .

ففى ليلة ٢٧ شوال سنة ١٣/٤١١ فبراير سنة ١٠٢١ اختفى الحاكم بطريقة يكتنفها الغموض . حيث خرج إلى المقطم (وفى رواية إلى حلوان) وطلب إلى المكارين اللذين صحباه بانتظاره وابتعد عنهما في الجبل ، ولم يرياه بعد ذلك أبداً . ولما عادا في الصباح إلى القصر أخبرا بما تم ، فأُخذ في البحث عنه ، وبعد خمسة أيام وُجِدَت ثيابه وبها آثار طعنات ، ولكنهم لم يتوصلوا أبداً إلى جثثانه الذى ربما أكلته الحيوانات الضالة^{٧٦} .

وقد وصلت إلينا أخبار اختفاء الحاكم أو القضاء عليه ، عن طريق ثلاثة مؤلفين : هلال الصائى^{٧٧} والقضاعى^{٧٨} ويحيى بن سعيد^{٧٩} . وكلها تشير إلى أن سيدة الملك ، أخت الحاكم الكبرى ، بالاتفاق مع سيف الدولة الحسين بن دّواس الكتامى كانا وراء عملية اغتياله بعد أن اتهمها الحاكم فى شرفها ، ولخوف ابن دّواس على نفسه من الحاكم .

^{٧٦} ابن القلانسي : ذيل ٧٩ ، ابن ظافر : أخبار ٥٨ - ٥٩ ، أبو صالح : تاريخ ٦٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٥ ، ابن حماد : أخبار ٥٨ - ٥٩ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٧ - ٢٩٨ ، ابن سعيد : النجوم ٥٠ - ٥١ ، التويرى : نهاية ٢٦ : ٦٢ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦١ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ١١٥ - ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨٥ - ١٩٣ ، وانظر كذلك ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ١٣٧ . اما اللاعى عماد الدين إدريس فقد ذكر أن الله رفع الحاكم إليه (عيون ٦ : ٣٠٣) .

^{٧٧} أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨٥ - ١٩٠ .

^{٧٨} نفسه ٤ : ١٩٠ - ١٩٢ .

^{٧٩} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

وحقيقة الأمر أن سيِّدة المُلْك كانت إمراة واسعة الإدراك وكانت ترى في تصرفات أخيها ، التي تراوحت بين خروج على ما ارتضاه أبأؤه وهتك لناموس الشريعة ، بالإضافة إلى ادعائه الألوهية وثورة المسلمين السنة عليه وخشيتها أن يقتلوه وبقيّة بيته ، رأت في ذلك ما قد يُخشى معه على ذهاب البيت الفاطمي وسقوط دولتهم .

وقد ساعدت الطريقة التي اختفى بها الحاكم أنصار الدين الجديد الذي تزعمه حمزة بن محمد الزُّوزَنِي إلى الدعوة إلى مذهبهم والقول باختفاء الحاكم وغيبته وأنه سيعود ليملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً مرددين في ذلك فكرة المهديّة . ولكن مذهبهم وأتباعه لم يجد في مصر أرضاً خصبة له فخرج به أصحابه إلى بلاد الشام وخاصة في صيدا وبيروت وساحل الشام . كما أعطى ذلك أيضاً فرصة لطالبي الشهرة الذين ظهر منهم من يدّعي أنه الحاكم وأنه لم يمت وأنه عاد من جديد ^{٨٠} .

سيِّدة المُلْك تُدبر شئون الدَّولة

بالرغم من أن تعاقب الأحداث في هذه الفترة القصيرة والخرجة في تاريخ الدولة الفاطمية غير واضح ، كما أن بعض أحداثها يشوبه الغموض ، فالشيء الذي لا يمكن إنكاره هو الحُكْمَةُ الواضحة التي أدارت بها سيِّدة المُلْك الأمور .

فبعد تأكدها من قتل أخيها ، أرسلت أحد الأمراء الكتاميّين إلى دمشق بمُطَلَّفات ^{٨١} إلى الأمراء والقوَّاد هناك بالقبض على ولي العهد عبدالرحيم بن

^{٨٠} المسيحي : أخبار مصر ٢٧ - ٢٨ ، ٩٢ ، المقرئزي : الخطوط ١ : ٣٥٤ ، ٢ : ٢٨٩ ، الاتعاظ

٢ : ١٤٠ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٣٢٨ .

^{٨١} مُطَلَّفات ج . مُطَلَّفات . هي الرسائل الرسمية المختصرة . (Dozy, Suppl. Dict. Ar. II, 532)

إلياس ، فُحِمِلَ إلى مصر وقتل في القصر^{٨٢} ، وبذلك قضت نهائياً على هذا الوضع الشاذ الذي أراده الحاكم بأمر الله . وأعقبت ذلك بقتل حسين بن علي ابن دَوَّاس الكتامي ، وكل من كانت تخاف منه ممن عرف بمؤامرتها للقضاء على الحاكم^{٨٣} . وكان هدفها الأساسي من ذلك هو تأمين انتقال هاديء للسلطة من الحاكم إلى ابنه وولي عهده الشرعي أبي الحسن على الذي كان يعيش مع أمه في قصر سيِّدة المُلْك منذ عام ١٠١٤/٤٠٤ ، وتولَّى الخلافة باسم « الظاهر لإعزاز دين الله » . وبويع بها يوم عيد الأضحى سنة ٢٤/٤١١ مارس سنة ١٠٢١ .

وهكذا أصبحت سيِّدة المُلْك منذ نهاية عام ١٠٢١/٤١١ في الحقيقة هي الحاكمة الفعلية للبلاد . واعتمدت في أوَّل الأمر على رئيس الرؤساء خطير الملك أبي الحسين عمَّار بن محمد ، ثم أمرت بقتله في ذى القعدة سنة ١٠٢١/٤١٢ ، وباشرت تدبير المملكة بنفسها^{٨٤} ، فكان « لا ينفذ أمرٌ جَلُّ أو قَلٌّ إلَّا بتوقيع يخرج عنها بخط أبي البيان الصَّقْلبي عبدها »^{٨٥} ، حتى وافتها المنية في ١١ ذى القعدة سنة ٥/٤١٣ فبراير سنة ١٠٢٢^{٨٦} .

^{٨٢} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٣٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨٩ .

^{٨٣} ابن عثاري : البيان المغرب ١ : ٢٧١ ، التويري : نهاية ٢٦ : ٦٠ - ٦١ ، المقرئ : اتعاظ

٢ : ١٢٩ ، المقي (غ . السليمية) ٣٩٥ و ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٩٢ .

^{٨٤} ابن الصيرفي : الإشارة ٦٥ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ١٢٨ .

^{٨٥} ابن عثاري : البيان ١ : ٢٧١ .

^{٨٦} التويري : نهاية ٢٦ : ٦١ . وعن دور سيِّدة الملك في انتقال السلطة من الحاكم إلى الظاهر راجع ،

Lev., Y., " the Fatimid Princess Sitt al - Mulk " , JSS XXXII (1986), pp. 319 - 328

خلافة الظاهر لإعزاز دين الله وتوطيد العلاقات مع يزنطة

للأسف الشديد فإن الجزء الوحيد الذي وَصَلَ إلينا من « أخبار مصر » للمُسَبِّحِي ، الذي عاصر هذه الأحداث وشاهدها عن كثب ، يبدأ بمحادث جمادى الآخرة سنة ٤١٤ / سبتمبر ١٠٢٣ . ولو كانت وصلت إلينا الأجزاء السابقة على ذلك لعرفنا من خلالها تفاصيل كثيرة عن هذه الفترة الهامة في تاريخ الدولة .

وفي الفترة الأولى من خلافة الظاهر لم يكن منصب الوَسَاطَةِ واضحًا تمامًا ، وقد تولاه لفترة قصيرة الأمير شمس المُلْك أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزان^{٨٧} ، وسُجِبَت صلاحياته منه تدريجيًا^{٨٨} ، ثم حلَّ محله مجلس من ثلاثة تَسَلَّطُوا على الظاهر مكوّن من الشريف أبي طالب العَجَمِي والشيخ العميد محسن بن بدوس والشيخ نجيب الدولة أبي القاسم علي بن أحمد الجَرَجَرَانِي^{٨٩} ، بالإضافة إلى القائد الأجل عزّ الدولة وسانها أبي الفوارس مِعْضَاد الخادم الأسود^{٩٠} . وقد اتَّفَق الثلاثة فيما بينهم ، في جمادى الآخرة سنة ٤١٥ / أغسطس ١٠٢٤ ، على « أن يكون دخولهم إلى الظاهر لاغير في كل يوم خلوة ، وأنهم يكفوه أمر الاهتمام بالدولة ليتوفر على لذاته وينفردوا بالتدبير »^{٩١} .

^{٨٧} ابن الصيرفي : الإشارة ٦٦ - ٦٧ ، ابن سعيد : النجوم ٣٥٦ ، ابن أيك : كنز الدرر ٦ :

٣٠١ ، ٣١٧ ، ابن ظافر : أخبار ٦٥ ، التويري : نهاية ٢٦ : ٦٢ ، المقرئزي : اتعاظ ٢ :

١١٤ ، ١٣٢ ، ١٣٦ .

^{٨٨} المسبّحي : أخبار ١٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

^{٨٩} نفسه ٣١ .

^{٩٠} انظر سجل تلقيبه الصادر من صفر سنة ٤١٥ / إبريل ١٠٢٤ عند المسبّحي : أخبار ٢٤ - ٢٧ .

^{٩١} نفسه ٤٥ - ٤٦ .

فقد كان الخليفة الظاهر ، على عكس والده ، بعيداً عن الاشتغال بشئون الدولة بما أنه نشأ محجوباً في دار السيدة العمة ، وانشغل بتزهره ولهوه حيث أكثر من الخروج للنزهة إلى نواحي عين شمس والقصور ومسجد تير^{٩٢} كما كان محباً لسماع الغناء ، مما جعله ينقض أكثر الإجراءات التي اتخذها والده . فترخص في شرب الخمر والفقاع وسماع الغناء ، وسمح بأكل الملوخية وسائر أنواع السمك^{٩٣} ، وأذن للنصارى واليهود الذين تظاهروا بالإسلام في خلافة والده ، بالارتداد إلى دينهم رغم مخالفة ذلك للشريعة الإسلامية^{٩٤} .

وألّمت بمصر في عهده أزمة اقتصادية كبيرة في سنة ١٠٢٤/٤١٥ اشتد فيها الغلاء وفشى فيها المرض في الناس وكثر فيهم الموت . وأدى الوباء إلى نفوق الحيوانات ، وعز الماء لقصور النيل ، وشاعت الفوضى بسبب ذلك ، فكّس العبيد والدُّعّار القاهرة ومصر ونهبوا الأرياف . فكانت أزمة شديدة أتت على تفاصيلها المُسبِّح فيما وصل إلينا من تاريخه^{٩٥} .

ولم تمنع هذه الأزمة بعواقبها الخليفة الظاهر من الاهتمام بأمر « الدعوة الفاطمية » فاستعادت سابق نشاطها ، وأمر الدعاة في سنة ١٠٢٥/٤١٦ أن يُحفظوا الناس كتاب « دعائم الإسلام » للقاضي النعمان بن حَيُّون وكتاب « الفقه » الذي ألفه يعقوب بن كِلْس ، ورصد مكافآت مالية لمن يحفظهما ، في نفس الوقت الذي أمر فيه بنفى الفقهاء المالكية الذين رتبهم والده في دار الحِكْمَة^{٩٦} .

^{٩٢} المسبّح : أخبار مصر ٩ ، ١٥ ، ١٩ - ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٦١ .

^{٩٣} المقرئ : الخطوط ١ : ٣٥٤ والاتعاظ ٢ : ١٢٩ .

^{٩٤} ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ١٣٥ ، أبو صالح : تاريخ ٦٠ ، المقرئ : الخطوط ١ : ٣٥٥

والاتعاظ ٢ : ١٧٦ ، Atiya, A. S., EI², art. Kibt V, p. 94

^{٩٥} المسبّح : أخبار مصر (امتداد الجزء) ، المقرئ : الخطوط ١ : ٣٥٤ - ٣٥٥ ، ودرسها في

مقال مطول تيارى يانكى انظر Bianquis, Th., " Une crise Frumentaire dans l'Egypte

fatimide ", JESHO XXIII (1980) . pp. 67 - 101

^{٩٦} المقرئ : الخطوط ١ : ٣٥٥ والاتعاظ ٢ : ١٧٥ .

وكان من نتيجة هذه السياسة أن انتشر الدعاة الفاطميون على امتداد الأراضى الشرقية التابعة للعباسيين ثم للسلاجقة ، يتلقون تعليماتهم مباشرة من رئاسة الدعوة المركزية فى القاهرة^{٩٧}. فقد كان هدف الفاطميين ، حتى أثناء عصر المستنصر ، هو الإطاحة بالخلافة العباسية وتفريقها ليرسوا مكانها عقيدتهم وسيطرتهم على العالم الإسلامى . فنجح الدعاة فى إغراء الديالمة عند خروجهم من بغداد سنة ١٠٢٤/٤١٥ بإقامة الدعوة للفاطميين فى البصرة والكوفة والموصل وأعمال الشرق^{٩٨}، وأوصلوا إلى محمود بن سبكتكين ، صاحب غزنة ، خلعاً من الخليفة الظاهر ليقم لهم الدعوة ، إلا أنه سلمها للخليفة القادر بالله العباسى الذى أمر بإحراقها^{٩٩}، كما أن المؤيد فى الدين الشيرازى نجح فى إظهار الدعوة الفاطمية فى شيراز وأرض فارس والأهواز^{١٠٠}.

وهكذا ، ولأكثر من قرن ، كان نشاط الحكومة الفاطمية فى القاهرة ورجال الدعوة فى داخل مصر وخارجها موجهاً لتحقيق هدف واحد هو الإطاحة بالخلافة العباسية .

ويذكر لنا المسبِّحى فى حوادث سنة ١٠٢٤/٤١٥ ، حرص الفاطميين على استمرار إقامة الدعوة لهم فى الحرمين الشريفين ، وكيف كان أمراء مكة يسامون الفاطميين على ذلك ويقولون لهم أنهم يُذلت لهم الرغائب فى إقامتها لغير الفاطميين « فلم يأخذها ولم يُجب إليها » ، كما أن الوفد الحجازى الذى جاء إلى مصر لم يجد أحداً يستقبلهم ليحدثوه فى هذا الأمر^{١٠١}.

^{٩٧} عندما استولى الأتراك على بغداد فى سنة ١٠٣٣/٤٢٥ استغل دعاة الظاهر هذه الفرصة ونشروا

الدعوة الفاطمية بين الناس فى بغداد . (المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٥ ، اتعاظ ٢ : ١٨١) .

^{٩٨} المسبِّحى : أخبار ٨٤ - ٨٥ ، التويرى : نهاية ٢٦ : ٦١ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ١٦٨ .

^{٩٩} ابن الجوزى : المنتظم ٨ : ١٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣٥٠ وقارن المقرئى : اتعاظ ٢ :

١٣٧ - ١٣٩ ، أبها المحاسن : النجوم ٤ : ٢٥١ .

^{١٠٠} سيرة المؤيد فى الدين ٥٥ .

^{١٠١} المسبِّحى : أخبار مصر ٧٢ .

وبينما كان الفاطميون يكسبون أرضاً عن طريق الدعوة في ممتلكات العباسيين ، كانوا يخسرون أرضاً حقيقية من ممتلكاتهم في بلاد الشام . فقد تحالف أمراء الشام المحليين : حَسَّان بن جَرَّاح ، وسِنَان بن البَنا ، وصالح بن مِرْداس ليستقلوا بالشام عن الفاطميين بحيث تكون فلسطين لابن جَرَّاح ، ودمشق لابن البَنا ، وحلب لابن مِرْداس ، واستعانوا لتحقيق ذلك بإمبراطور بيزنطة فلم يجيبهم ، وتصدى لهم القائد الفاطمي أثوشتكين الذُّبْرِي^{١٠٢} ودارت بينهم مواجهات عديدة انتهت باستقلال المرداسيين بحلب في سنة ١٠٢٣/٤١٥^{١٠٣}.

وعمل الظاهر على تحسين علاقته مع البيزنطيين ، بعد أن كانت قد ساءت في عهد والده الحاكم . فقد كان الفاطميون في حاجة ماسة إلى تموين القمح الذي يصلهم من القسطنطينية ، وفي حاجة كذلك إلى تأمين جانب البيزنطيين حتى يتفرغوا لمواجهة العباسيين ثم السلاجقة ، فوَقَّعت هُدنة بين الطرفين في سنة ١٠٢٧/٤١٨ أقيمت بمقتضاها الخطبة للظاهر بجامع القسطنطينية مقابل أن يعيد الظاهر فتح كنيسة قمامة وتجديدها ، وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب في مصر (سوى ما كان منها قد عمل مسجداً) ، وأن لا يتعرض الظاهر لحلب (وقد اعتذر الظاهر عن قبول هذا الشرط) ، وأن لا يساعد صاحب صقلية على محاربة البيزنطيين^{١٠٤}.

^{١٠٢} عن هذا القائد ، الذي كان قائد جيوش الفاطميين في الشام وأول من تلقب بلقب « أمير الجيوش » راجع ، المقرئى : المقفى (نخ . السليمية) ٢٢٤ و - ٢٢٥ و ، : Wiet, G., "Un Proconsul Fatimide de Syrie : Anushtakin al - Dizbiri (m. en 433 /1042)", MUSJ 46 (1970), pp. 383 - 407

^{١٠٣} المسبجى : أخبار ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٤ - ٦٥ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٤٤ - ٢٤٦ ، ابن القلانسي : ذيل ٧٣ ، ابن ظافر : أخبار ٦٣ - ٦٤ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣٦٩ ، ٣٩٢ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٦١ ، ابن العديم : زبدة الطلب ١ : ٢٢٣ - ٢٢٧ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٥ ، اتعاض ٢ : ١٤٧ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٥٢ - ٢٥٣

Canard, M., EI², art. Djarrahides II, pp. 495 - 497

^{١٠٤} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٧٠ - ٢٧١ ، المقرئى : اتعاض ٢ : ١٧٦ .

وقد وُقِّعَت اتفاقية أخرى بين الجانبين في سنة ٤٢٧/١٠٣٦ لمدة عشر سنوات ثم جُدِّدَت في سنة ٤٣٩/١٠٤٧ للغرض نفسه^{١٠٥}.

^{١٠٥} ابن الأثير : الكامل ٩ : ٤٦٠ ، ٥٤١ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ١٨٢ ، Hamdani, 'A.,

"Byzantine - Fatimid Relations before the Battle of Manzikert", Byz. Sl. 1, 2

(1974), p. 174 - 174

الفصل الرابع

المواجهة العبّاسيّة الفاطميّة

خلافة المُستنصر بالله

عندما خلف المستنصر بالله والده الظاهر لإعزاز دين الله سنة ١٠٣٦/٤٢٧ ، وهو طفل لم يتجاوز السبع سنوات ، لم يكن يعلم ما تحبّؤه له الأيام . فقد امتد حكمه ستين عامًا (٤٢٧ - ٤٨٧/١٠٣٦ - ١٠٩٤) شهدت أحداثًا جسامًا في تاريخ الدولة الفاطمية كادت أن تودي بالخلافة نفسها في أول صدام حقيقي بينها وبين الخلافة العبّاسية ، وأفقدت « القاهرة » عاصمة الفاطميين ، مكانتها « كمدينة ملكية » تُعدّ لحكم العالم الإسلامي ولم يمض على إنشائها مائة عام .

ومع ذلك فقد وصلت الإمبراطورية الفاطمية إلى أقصى اتساع لها في العشرين عامًا الأولى من حكم المستنصر حيث شملت مصر وجنوب الشام وشمال إفريقية وصقلية والشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر والحجاز واليمن . كما كسبت ولاء عدد لا يُحصى من الأتباع في أراض كانت مازال خاضعة لحكام سُنّة في المشرق . ثم هَوّت في انحدار سريع وتقلّصت عنها ممتلكاتها تدريجيًا .

ظهور السلاجقة

وبدأ انحلال الدولة الفاطمية في الظهور في أعقاب وفاة الوزير أبي القاسم على بن أحمد الجرجرائي في رمضان سنة ٤٣٦/مارس سنة ١٠٤٥ ، وهو الانحلال الذي أوْشك أن يقودها إلى زوالها بعد ربع قرن . فقد اجتمعت عدّة عوامل لتضع حدًّا لأحلام الفاطميين وطموحاتهم . ففي عهد الخليفة القادر بالله العباسي وخلفه الخليفة القائم بأمر الله (٣٨١ - ٤٦٧/٩٩١ - ١٠٧٤) طرأ تغير واضح على سياسة العباسيين تجاه الفاطميين وبدأ الصدام بين القوتين اللتين تجاذبتا السيادة على الشرق الإسلامي . وكان بداية التّحرّش بينهما « المَحْضَر » الذي صدر في بغداد سنة ٤٠٢/١٠١١ مُتَضَمِّنًا القَدْح في نَسَب الفاطميين ، ووقّع عليه كبار العلماء والفقهاء والقضاة في بغداد وعلى رأسهم نقيب الطالبين الشريف المُرْتَضَى وأخوه الشريف الرُّضَى^١ . وكان هذا المَحْضَر بداية حرب دعائية بينهما استمرت فترة طويلة ، ففي سنة ٤٤٤/١٠٥٢ كُتِب ببغداد « مَحْضَرٌ » آخر شبيه بالمحضر السابق^٢ ، وبينما وصلت إلينا صيغة المحضر الأول فإننا لا نعلم أى شيء عن صيغة المحضر الثاني .

وفي الوقت نفسه عمل العباسيون على الاستعانة بالسلاجقة لفرض حصار على الفاطميين ، وتضييق الخناق عليهم تمهيدًا للقضاء على خلافتهم . فحاولوا الاتصال بحاكم إفريقية الزيري المُعَزَّ بن باديس ، الذي يدين بالولاء للفاطميين ،

^١ ابن الجوزي : المنتظم ٧ : ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٢٣٦ ، الذهبي : العبر في خير من غير ٣ : ٧٦ - ٧٧ ، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ٢ : ١٥ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١ ، المقرئ : اتعاظ ١ : ٣١ - ٣٤ ، ٤٧ - ٤٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٢٩ .
^٢ نفسه ٨ : ١٥٤ - ١٥٥ ، نفسه ٩ : ٥٩١ ، ابن ميسر : أخبار ١٣ ، الذهبي : العبر ٣ : ٢٠٤ ، المقرئ : الخطط ١ : ٣٥٦ ، اتعاظ ٢ : ٢٢٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٥٣ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ٢٨٢ - ٢٨٣ .

وأرسلوا إليه في سنة ١٠٤٣/٤٣٥ خِلْعًا وتشاريف عن طريق القسطنطينية ، لإفساد أواصر الود التي بَدَت بين الفاطميين والبيزنطيين ^٢ ، إلا أن الإمبراطور البيزنطي قبض على الرسول وسَيَّرَ إلى القاهرة « مراعاة لحق المستنصر ... ولأن بينهما عهدًا وهُدنة قد بقي منها ستان ولا يمكن فسخها » ^٣ .

لم تُفْلَح مساعي البيزنطيين في منع الزَّيريين من الاستقلال عن الفاطميين ، فقد كانوا في طريقهم إلى تَبَذُّ سيادة الفاطميين واعتناق المذهب المالكي منذ تولَّى المُعِزُّ بن باديس ^٤ . ففي شعبان سنة ١٠٥٠/٤٤١ أمر ابن باديس بضَرْب عُمَلة جديدة خاصة به ، وأمر أيضًا بسَبْك ماعنده من الدنانير التي عليها أسماء الفاطميين بعد أن ظَلَّت تُضْرَب هناك مائة وخمس وأربعين عامًا ^٥ . وفي سنة ١٠٥١/٤٤٣ قَطَعَ المُعِزُّ كل صلة له بالفاطميين وأقام الخُطبة للعبَّاسيين بإفريقية ^٦ . وَنَجَح السَّلَاجِقَةُ كذلك في تحريض الإمبراطور البيزنطي على الخلفاء الفاطميين ، وعقدوا معهم اتفاقًا أنهى بموجبه تموين القمح الذي كان يرسله إلى مصر ^٧ ، كما أقيمت الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العبَّاسي في جامع القسطنطينية ، مما أدَّى بالمستنصر إلى التَّحَوُّط على ما في كنيسة قُمامة

^٢ ابن الأثير : الكامل ٩ : ٥٢١ - ٥٢٢ ، ابن عسار : البيان ١ : ٢٧٥ - ٢٧٦ ، النويري : نهاية (تحقيق حسين نصار) ٢٣ : ٢٢٠ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ١٩٠ .

^٣ المقرئ : اتعاظ ٢ : ٢١٤ ، ٢٢٤ .

^٤ ابن عسار : البيان ١ : ٢٦٧ ، ٢٧٣ - ٢٧٤ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٢٥٧ .

^٥ نفسه ١ : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

^٦ السجلات المستنصرية (سجل رقم ٥) ، ابن عسار : البيان ١ : ٢٨٠ ، ابن الأثير : الكامل

٩ : ٥٢١ - ٥٢٢ (وفيه أن ذلك سنة ٤٣٥) ، ابن ميسر : أخبار ١١ - ١٢ ، ابن خلكان :

وفيات ٥ : ٢٣٠ ، ابن سعيد : النجوم ٧٩ - ٨٠ ، ٣٥٧ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٦٥ ،

المقرئ : اتعاظ ٢ : ٢١٤ ، المقفي (مخ . السليمية) ٣٧٠ ظ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٠ ،

Idris, H. R., La Berbérie Orientale sous les Zirides, X^e - XII^e siècles, Paris , ٥٠ .

. 1962, pp. 142 - 203.

^٨ ابن ميسر : أخبار ١٣ ، المقرئ : الخطوط ١ : ٣٣٥ .

سنة ١٠٥٥/٤٤٧ ، وأغلق أبواب كنائس مصر والشام ، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين ، وزاد الجزية على سائر النصارى^٩ .

كان ردُّ الفعل المباشر لذلك لدى الفاطميين هو مواجهة العباسيين ، وأن يكسروا الحصار الذي فُرض عليهم ، وأن يجلبوا متنافذ أخرى لإقامة الدعوة . فبدأوا بتحريض قبائل زُغَبَة ورياح الهلاليين لغزو إفريقية في أعقاب الأزمة الاقتصادية التي شهدتها مصر في سنة ١٠٥٢/٤٤٤^{١٠} ، فأحدثوا فتنة شديدة في ممتلكات ابن باديس استمرت سبع سنوات^{١١} ، كما حرَّض الوزير أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري (٤٤٢ - ٤٥٠ / ١٠٥٠ - ١٠٥٨) أهل صِقْلِيَّة على الثورة أيضاً على ابن باديس^{١٢} .

ابن ميسر : أخبار ١٤ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٣٥ ، الاتعاظ ٢ : ٢٣٠ ، المقفى ٣٧١ ر ،
سلاويرس : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ١٧٦ - ١٧٧ .

^{١٠} المقرئى : إغاثة الأمة ١٨ .

^{١١} ابن الصيرفى : الإشارة ٧٧ ، ابن ظافر : أخبار ٦٩ - ٧١ ، ابن الأثير : الكامل ٩ :
٥٦٦ - ٥٧٠ ، ابن ميسر : أخبار ١٢ ، ١٧ ، ابن عذارى : البيان ١ : ٢٨٨ - ٢٩٥ ، ابن
خلدون : تاريخ ٤ : ٦٢ - ٦٣ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٢١٤ - ٢١٥ ، المقفى (غ .
السليمية) ٣٧٠ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٤ ، Idris, H. R., op. cit, p. 206; id.,
El^١, art., Hilāl III, pp. 398 - 99; Daghfous, R., " Aspects de la situation
économique de L'Egypte au milieu du V^e Siècle : Contribution à l'étude des
conditions de l'emmigration des tribus arabes en Ifiriquiya " CT XXV (1977), pp.

الإستراتيجية الشرقية للفاطميين

وفور أن قَدَّ الفاطميون كل ممتلكاتهم في المغرب أخذوا يوجهون كل جهودهم نحو الشرق ونحو اليمن ، أول مراكز الدعوة الإسماعيلية ، بصفة خاصة حيث وجدوا مريدين أكثر حرصاً على المذهب ودفاعاً عن الدَّعْوَة . فسارع الوزير أبو محمد اليازوري إلى تأييد علي بن محمد الصُّلَّيحي الثائر باليمن وساعده على إقامة دعوة سياسية للفاطميين هناك . وقد استعان الفاطميون بالصُّلَّيحيين كذلك على نشر الدعوة الإسماعيلية في مناطق عُمان وغرب الهند وخاصة إقليم كُجَرَات^{١٣} .

وبدأ الفاطميون يُعَدُّون العُدَّة لمواجهة الخلافة العباسية لأول مرة مواجهة مباشرة مستخدمين في ذلك أسلحة الدعاية والنشاط التخريبي ، علاوة على الوسائل المألوفة الأخرى العسكرية والسياسية والاقتصادية .

المنافسة التجارية

فقد تبنَّى الفاطميون في سبيل قضائهم على العباسيين استراتيجية شرقية رأت ضرورة قيام منافسة بين طريقي التجارة المؤدَّين إلى الشرق الأقصى (طريق مصر - البحر الأحمر ، وطريق العراق وإيران - الخليج الفارسي) . وهدف الفاطميون من ذلك إلى السيطرة على الشاطئين الإفريقي والعربي للبحر الأحمر ، وعلى المنفذ الجنوبي المؤدَّى إلى الهند^{١٤} .

^{١٤} Lewis, B., "An Interpretation of Fatimid History ", CIHC p. 291 .

فعلى أثر خروج إفريقية ومعظم بلاد الشام من أيدي الفاطميين ، ركّزوا جهودهم في نشر الدّعوة على طرق التجارة البحرية والبرية المؤدية إلى الهند وفي الهند نفسها . وبذلك ازدهرت موانئ مثل عَيْنَاب على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر^{١٥} ، وَعَدَن عند المدخل الجنوبي له^{١٦} ، كما فرض الفاطميون عن طريق الصّليحيين سيطرتهم على عُمان لضمان وصولهم إلى السّند والهند .

وقد ساعدت الظروف الفاطميين في تحقيق هدفهم . فقد جعلت الفوضى التي اجتاحت العراق وإيران في هذا الوقت من الخليج الفارسي طريقاً غير آمن . وسهّلت خِطّة الفاطميين في نقل التجارة من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر وإعادة الحركة التجارية القديمة بين مصر والشرق . وقد قصد الفاطميون بذلك هدفاً مزدوجاً هو تقوية الخلافة الفاطمية عن طريق الانتعاش الاقتصادي ثم إضعاف الخلافة العبّاسية ، بالإضافة إلى خلق نواة لنشر النفوذ الفاطمي على طول الطرق البديلة التي بدأ حكام العراق في استخدامها^{١٧} . وهذا لايعنى أن الدولة الفاطمية ارتبطت مباشرة بالتجارة أو أن الدعوة نفسها كانت تنظيمًا تجاريًا ، إلا أن العلاقة بين الدّعوة والتجارة وبين الإيديولوجية والنفوذ التجاري نادرًا ما بدت واضحة مثلما كانت في هذه الدّعوة . حتى أن

^{١٥} بدأ ذكر عَيْنَاب في المصادر اعتباراً من القرن الثالث الهجري ، ولكن نشاطها التجاري لم يظهر بوضوح إلا في أثناء خلافة الفاطميين حيث حلّت محل ميناء القصير القديم ، ثم أخذ دورها ينحسر حتى فقدت مكانتها في أوائل القرن التاسع الهجري . يقول عنها ناصري خسرو الذي دخلها في سنة ٤٤٢ هـ « فيها تحصيل المكوس على مافي السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن » (سفرنامه ١١٨) ، ويقول ابن جبير الذي زارها سنة ٥٧٩ هـ أنها « من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائلاً إلى مراكب الحجاج » (الرحلة ٤٥) . وراجع أيضاً المقرئزي : الخطط ١ : ٢٠٢ - ٢٠٣ ، - Gibb, H. A. R., EI², art. 'Aydhab I, pp. 805 - 806 .

^{١٦} عن عدن وأهميتها لطرق التجارة الشرقية راجع ، - Lofgren, O., EI², art., 'Adan I, pp. 185 - 187

^{١٧} Lewis, B., "the Fatimids and the route to India", Revue de la faculté de Sciences économique de l'Université d'Istanbul XI (1949 - 50), p. 53

كلمة إسماعيلي في الاصطلاح المحلى الكَجَرَاتِي (بُهْرَة) تعنى التجارة ، وهذا شئ ذو دلالة ^{١٨}.

كان كل ذلك في ضوء ما هو معروف عن كفاءة الإسماعيليين في خططهم بمثابة سياسة محكمة مدروسة تهدف إلى القضاء على الخلافة العباسية ليحل محلهم الفاطميون كحكام وحيدين للعالم الإسلامي ^{١٩}.

وعندما ظهرت التجارة الكارمية ^{٢٠} في أواخر القرن الخامس / الحادى عشر كانت أكبر مراكزها هى عَدَن وعَيْذاب وقوص والفُسْطَاط . وتمدنا أوراق الجنيزة Geniza المتعلقة بتجارة الهند ^{٢١} والتي ترجع إلى العصر الفاطمى ببعض التفاصيل عن طبيعة ونشاط التجارة الكارمية في هذه الفترة ^{٢٢}.

المُواجهة الحربية

ومن ناحية أخرى صَعَّد الدعاة المواجهة الحربية مع العباسيين ، وقام بالدور الأكبر فيها داعى الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى ، وسُجِّل تفصيل ذلك في سيرته الذاتية ^{٢٣}. فقد أيد ثورة أوى الحارث أرسلان البساسيرى ضد خليفة بغداد مستغلاً الفوضى التى اجتاحت العراق فى أعقاب سقوط البويهيين ، ومستعيناً بالأموال والذخائر التى أمده بها الوزير اليازورى من القاهرة ^{٢٤}. ونَجَح البساسيرى فى الاستيلاء على بغداد وإقامة الخُطْبَة بها

^{١٨} Ibid., p. 53

^{١٩} Ibid., p. 54

^{٢٠} عن التجارة الكارمية راجع فيما يلى ص ٣٠٨ - ٣١٢ .

^{٢١} عن أوراق الجنيزة انظر أعلاه ص ٢٣ - ٢٥ .

^{٢٢} انظر فيما يلى ص .

^{٢٣} سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة (تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩) ، Poonawala, ،

I., EI², art. al - Mu'ayyad fil - Din VII, pp. 272 - 73

^{٢٤} نفسه ، ابن الصيرى : الإشارة ٨٠ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان (الحوادث الخاصة بتاريخ

المسلاجقة) ٤ ، ٦ ، ٢٧ ، ابن ميسر : أخبار ١٥ ، ١٧ ، ٢١ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ :

١٩٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٣٥ .

للمستنصر الفاطمي لمدة عام سنة ١٠٥٨/٤٥٠^{٢٥}. وكان أول من أيّده ودعا لصاحب مصر أهل الكرخ^{٢٦}، وألزم البساسيري الخليفة القائم بأمر الله العباسي بكتابة كتاب أشهد عليه العلول « بأنه لاحق لبنى العباس ، ولا له من جملتهم ، في الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء ، عليهم السلام » . وأرسل البساسيري الكتاب إلى المستنصر في مصر وظلّ محفوظاً لدى الفاطميين إلى أن أعاده صلاح الدين إلى العباسيين فور استيلائه على مقاليد الأمور في مصر بعد ذلك بنحو مائة عام^{٢٧}.

ولم يكن موقف الفاطميين من تأييد البساسيري واضحاً ، فبينما وعدوه بإرسال ستين ألف دينار سنوياً له ولخواصه^{٢٨}، شكك الوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي في أهمية العمل الذي قام به البساسيري^{٢٩}، ولم يمدوه بأية قوة تُسند موقفه وتعزّزه ، وبدوا كما لو أنهم لم يكونوا ينتظرون هذه الفرصة منذ بدأ عملهم السري قبل نحو مائتين وخمسين عاماً .

^{٢٥} عن حركة البساسيري راجع سيرة المؤيد في الدين ١٧٨ - ١٨٠ ، ابن الفلاني : ذيل . ٨٧ - ٩٠ ، ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ١٩١ - ١٩٧ ، ٢٠١ - ٢١٢ ، الراوندي : راحة الصدور ١٧١ - ١٧٥ ، ابن ظافر : أخبار ٦٧ - ٦٩ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٤٣٩ - ٤٤٥ ، ٦٤٠ - ٦٤٥ ، ابن ميسر : أخبار ١٨ - ٢١ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٤ - ٧٠ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ١٩١ ، ابن العديم : بغية الطلب (القسم الخاص بالسلاجقة) ١ - ١٥ ، ابن سعيد : النجوم ٨٠ ، النويري : نهاية ٢٣ : ٢٢٣ - ٢٣٢ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٥ : ٢٤٨ - ٢٥٢ ، المقرئ : الخطط ١ : ٣٥٦ ، ٤٣٩ ، اتعاظ ٢٠ : ٢٥٢ - ٢٥٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٤ - ١٢ ، ٦٢ ، مصطفى جواد : القاهرة تستولي على بغداد ، مجلة المقتطف ٨١ (١٩٣٢) ٣٣٣ - ٣٤٠ ، فاضل الخالدي : الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن الخامس الهجري ، بغداد ١٩٦٩ ، ١٠٢ - ١٣٩ ، عبد الجبار ناجي : ثورة البساسيري في بغداد ، مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة ٥ (١٩٧١) ٤٢ - ٧٨ ، Canard, M., EI¹, art. al - Basāsiri I, pp. 1105 - 1107 .

^{٢٦} ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ١٩٢ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٣٥ .

^{٢٧} المقرئ : الخطط ١ : ٤٣٩ .

^{٢٨} سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٢٧ .

^{٢٩} المصدر نفسه ٤٧ ، ٥٥ ، سيرة المؤيد في الدين ١٨٢ .

وهكذا جاء نجاح الدُّعاة في تحقيق حُلُم الفاطميين بعد فوات الأوان ، في وقت ضعفت فيه الخلافة الفاطمية ، وتقلّصت فيه ممتلكاتها ، وأثّرت عليها الأزمات الاقتصادية المتتالية ، وأصبحت غير قادرة على اتخاذ القرار أو حتى حماية نفسها^{٢٠} ، وبدأ فيه التيار السني جارفاً في العالم الإسلامي على يد الأتراك السلاجقة - القوى الجديدة في الإسلام الآخذة في التمدد والقوة - والذين تولّوا حركة الإحياء السني التي تزعمها الأشاعرة ، أصحاب الحركة الفكرية الجديدة التي بدأت تسود في هذا الوقت وتحل محلّ مذهب المعتزلة العقلي^{٢١} .

فسرعان ما تمكّن طغرل بك السلجوقي من نجدة الخليفة العباسي وأحبط محاولة الفاطميين ، وأعاد دعوة العباسيين في بغداد بعد أن انقطعت اثني عشر شهراً ، وهي أكثر قوة ومنتعة ، ومدّ السلاجقة نفوذهم على ممتلكات الفاطميين في الشام ، فاستولى أئسيزبزا على دمشق سنة ١٠٧٥/٤٦٨ وقطع خطبة الفاطميين منها^{٢٢} ، الذين لم تبق لهم سيادة إلا على مصر وجنوب فلسطين والحجاز واليمن . وبفضل السلاجقة امتد النفوذ السني إلى الشام عن طريق خلفائهم الزنكيين ثم النوريين وأخيراً الأيوبيين ، الذين أنهوا خلافة الفاطميين في مصر

^{٢٠} المصدر نفسه ٢٧ ، ابن ظافر : أخبار ٦٨ .

^{٢١} عن الأشعرية راجع ، Montgomery Wall, W., *El'., art. al - Ash'ari I*, pp. 715 - 716; id., *El'., art. Ash'ariyya I*, pp. 717 - 718 وجمال محمد موسى : نشأة الأشعرية وتطورها ، بيروت ١٩٧٥ .

^{٢٢} ابن القلانسي : ذيل ١٠٨ ، ابن ظافر : أخبار ٦٨ ، ٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٨ ، ٩٩ - ١٠٠ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (قسم السلاجقة) ١٧٩ ، ١٨٠ ، ابن ميسر : أخبار ٤٣ ، الذهبي : العبر ٣ : ٢٦٦ ، الصفدي : الوافي ٦ : ١٩٥ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٥ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ٣١٥ والمقفى (غ . السليمية) ٢٠٧ و - ٢٠٨ و ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٨٧ ، ١٠١ - ١٠٢ ، صلاح الدين المنجد : ولاية دمشق في العهد السلجوقي Cahen, Cl., "Première penetration turque en Asie Mineure", *Byzantion* XVIII (1946 - 48), p., 25; id., *El'., art. Alsiz I*, p. 443; Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide 359 - 468* 969 - 1076, pp. 571 - 76

وقضوا على النفوذ الشيعي في كل المنطقة عن طريق « المدارس » التي بدأها في عام ١٠٦٦/٤٥٩ الوزير نظام الملك السلجوقي^{٢٢}.

والواقع فإن نجاح الدَّعْوَة للفاطميين في بغداد سنة ١٠٥٨/٤٥٠ ليس دليلاً على أية قوة حقيقية كانت للفاطميين ، بقدر دلالة على الدسائس والمكائد السياسية في الخلافة العباسية .

سُو الأُخْوال الداخلية

في أول عهد المستنصر

لم تكن أحوال مصر الداخلية زمن المستنصر أحسن حالاً من أحوالها الخارجية . فإلى جانب فشَل الفاطميين في تحقيق هدفهم ، تعرَّضت القاهرة ، المدينة الملكية حيث قصر الخليفة ، لصراعات دامية بين طوائف الجُند المختلفة ، وخاصة الأتراك والسودان . واجتاحت البلاد الأوبئة والأزمات الاقتصادية الواحدة تلو الأخرى في السنوات ١٠٥٢/٤٤٤ و ١٠٥٥/٤٤٧ و ١٠٦٥/٤٥٧ ، بالإضافة إلى أزمة إدارية حادة أضعفت قوة الدولة ونفوذها .

فبعد عزل الوزير اليازورى - آخر الوزراء الفاطميين أرباب الأقلام الأقوياء - في سنة ١٠٥٨/٤٥٠ ، بدأ العسكريون يزيدون من قوتهم باضطراد على حساب المدنيين بل وعلى حساب الخليفة نفسه .

^{٢٢} ابن الجوزى : المتظم ٨ : ٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٥٥ ، أبو شامة : الروضتين

١ : ٨٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ١٢٩ ، Makdisi, G., "Muslim Institutions of"

Learning in Eleventh-Century Baghdad", BSOAS XXIV (1961) p.3 ، أيمن فؤاد

سيد : المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي (تحت الطبع) .

حقيقة لقد أشاد ناصر خسرو بالأمن الذى شاهده فى مصر فى أوائل خلافة المستنصر (٤٣٩ - ٤٤١/١٠٤٧ - ١٠٤٩) وقال : « إنه لم يره فى بلد من قبل »^{٢٤} ، وأرجع الفضل فى ذلك إلى المذهب الإسماعيلى واعتبره كفيلاً بإنقاذ العالم الإسلامى^{٢٥} ، وإذا صدّقنا ناصر نحسرو - رغم ما يبدو على وصفه دائماً من مبالغات ، كان يهدف بها إلى كسب الرأى العام فى إيران لصالح الفاطميين وضد السلاجقة السنيين - فإن هذا الرخاء والأمن لم يستمر طويلاً .

أم المستنصر تتحكم فى الدولة

فبعد وفاة الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجرجرائى سنة ١٠٤٤/٣٤٦ ، تحكمّت السيدة والدّة المستنصر فى أمور الدولة ، بسبب صغر سن الخليفة ، ولعبت دوراً هاماً فى إذكاء الفتنّة بين طوائف العسكر المختلفة ، وهى الفتنّة التى قادت إلى خراب البلاد على حدّ تعبير المؤرخين المصريين^{٢٦} . كذلك فقد حافظت الخلافة الفاطمية على سياسة التسامح مع أهل الذمّة ، التى تخلّى عنها مؤقتاً الخليفة الحاكم ، فلا عجب أن نجد اليهود يحتلون ثانية أعلى المناصب فى الإدارة والحياة الاقتصادية فى النصف الأول للقرن الخامس / الحادى عشر^{٢٧} .

يقول المقرئى : إن أخوين يهوديين نبغا فى أيام الحاكم بأمر الله ، كان أحدهما يتصرّف فى التجارة والآخر فى الصرّف ويبيع ما يحمله التجار من

^{٢٤} ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٦ .

^{٢٥} يحيى الخشاب : « وصف مصر من كتاب السفرنامه لناصر خسرو » ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٣١١ .

^{٢٦} ابن ميسر : أخبار ٢٤ - ٢٦ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٢٦٦ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٢٦٥ .

^{٢٧} Fischel, W.I., Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam, N. Y. 1969, p. 68 .

العراق . هما : أبو سعد إبراهيم وأبو نصر هارون ابنا سهل التستري .
« واستخدم الخليفة الظاهر أبا سعد إبراهيم بن سهل التستري في ابتياع ما يحتاج
إليه من صنوف الأمتعة ، وتقدم عنده فباع له جارية سوداء ، فتحظى بها
الظاهر وأولدها ابنه المستنصر »^{٣٨} .

وبعد وفاة الجرجرائي عملت السيدة أم المستنصر على تقريب أبي سعد
التستري وجعلته متولى ديوانها^{٣٩} فانبسطت كلمته « بحيث لم يبق للوزير
الفلأحي معه أمر ولا نهى سوى الاسم فقط وبعض التنفيذ »^{٤٠} . وعمل
أبو سعد على استمالة المغاربة والزيادة في واجباتهم وأنقص من أرزاق الأتراك ،
مما أدى إلى نشوب القتال بين الفريقين أكثر من مرة^{٤١} ، كذلك أخذ في تقريب
اليهود وإيثارهم بالكثير من المناصب الهامة ، مما قلب مشاعر المسلمين عليهم
وكثر عداؤهم لهم^{٤٢} . فاستغل ذلك الوزير الفلأحي ، رغم أنه يهودى تحول
إلى الإسلام ، ومال إلى طائفة الأتراك وزاد في أرزاقهم ، وحرّضهم على قتل
التستري ، فقتلوه في سنة ٤٣٩/١٠٤٧^{٤٣} . وبلغ من كره المسلمين لأبي
سعد ، أن الخليفة عندما طلب قاتليه أقرت طوائف العسكر أنهم قتلوه جميعاً ،
فلم يتمكن الخليفة من معاقبتهم وأغضى عن ذلك^{٤٤} .

^{٣٨} المقرئى : الخطط ١ : ٤٢٤ وراجع ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨٠ - ٨١ ، ابن ميسر : أخبار

٣ - ٤ ، ٢٥ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٦٤ ، ٦٧ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ١٩٥ ، ٢٦٧ .

^{٣٩} راجع مناقشة طبيعة وظيفة أبي سعد عند Fischel, W. I., op. cit., pp. 78-84 .

^{٤٠} ابن ميسر : أخبار ٤ ، سيرة المؤيد في الدين ٨١ - ٨٤ .

^{٤١} ابن الصيرى : الإشارة ٧١ - ٧٢ ، ابن ميسر : أخبار ٤ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٦٤ ،

المقرئى : اتعاظ ٢ : ١٩٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٩ وانظر السجلات المستنصرية ،

سجل رقم ٥٦ .

^{٤٢} ابن ميسر : أخبار ٥ وماذكر فيه من مصادر .

^{٤٣} ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٨ ، ١٠٩ ابن ميسر : أخبار ٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨١ ،

النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٦٤ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٥ ، اتعاظ ٢ : ١٩٥ ، Fischel,

W. I., op. cit., pp. 84-89 .

^{٤٤} نفسه ١٠٨ ، نفسه ٤ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ١٩٥ .

الصراع بين الأتراك والسودان والأزمة الإدارية

لم ترض أم الخليفة بما فعله الأتراك ولا بتصرف ولدها ، وعملت على التخلص من الوزير الفلاحى ، ولم يهدأ لها بال حتى عزله الخليفة وأمر بقتله فى سنة ١٠٤٨/٤٤٠^{٤٥} ، وشرعت فى شراء العبيد السود من أهل جنسها واستكثرت منهم حتى يقال إنهم بلغوا نحوًا من خمسين ألف أسود وجعلتهم طائفة خاصة بها ، وزادت كراهيتها للأتراك لقتلهم أبى سَعْد^{٤٦} وعملت على ضربهم بالعبيد السود ، وأغرّت الوزراء الواحد تلو الآخر لتحقيق ذلك ، فكانوا يتعلّلون لها ويخشون عاقبته على الدولة^{٤٧} ، حتى نجحت فى إغراء الوزير أبى الفرج البابلى بذلك ، واشتعلت الفتنة بين السودان والأتراك^{٤٨} فى الوقت الذى خرج فيه عَرَبَ البحيرة من بنى قُرّة والطلّحين عن طاعة المستنصر^{٤٩} فاختلفت أحوال مصر ولم تنجح مساعى الوزير أبى الفرج المغربى فى التقريب بين الأتراك والسودان بسبب تشدّد موقف أم الخليفة . وأخيرًا نجح الأتراك يساندهم المصامدة والكتاميون فى إيقاع الهزيمة بالسودان فى وقعة كوم شريك ، فزادت أم المستنصر من إشعال الموقف وأمدّت السودان بالسلاح

^{٤٥} ابن ميسر : أخبار ٨ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٢٠٣ .

^{٤٦} المقرئى : الخطط ١ : ٣٣٥ - ٣٣٦ ، ٢ : ١٢ ، اتعاظ ٢ : ٢٦٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ :

١٨ - ١٩ ، وعن تزايد العنصر الأسود فى الجيش الفاطمى راجع ، Beshir, B. I., op. cit., pp. 40 - 41; Lev, Y., Army, Regime and Society ... pp. 340 - 42; Bacharach, I. L.,

"African Military Slaves in the Medieval Middle age : the cases of Iraq (869 -

955) and Egypt (868 - 1171) ", IJMES 13 (1981), pp. 482 - 87

^{٤٧} ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨١ .

^{٤٨} نفسه ١٠ : ٨١ ، ابن ميسر : أخبار ٢٥ - ٢٦ ، التويرى : نهاية - ٢٦ . ٢٧ ، المقرئى :

اتعاظ ٢ : ٢٦٧ .

^{٤٩} ابن ميسر : أخبار ١٢ ، وعن عدد ونوع الجيش المصرى فى هذه الفترة راجع ، ناصر خسرو :

سفرنامه ٩٤ - ٩٥ ، Lev, Y., op. cit., pp. 349 - 52 .

والمال ، فلم يرض ذلك الأتراك فتسبّعوا السودان حتى فرّقوهم في الصّعيد^{٥٠}.

وهكذا انتهى هذا الصراع بظهور الأتراك وتقوية شوكتهم وأصبح الحكم في الحقيقة في أيدي قوّادهم ، وأساء قائدهم ناصر الدولة ابن حَمْدان معاملة الخليفة وطالبه بزيادة مُقرّر الأتراك حتى بلغ ٤٠٠,٠٠٠ دينار في الشهر بعد أن كان ٢٨,٠٠٠ ، فلم تقدر خزانة الدولة على الوفاء به^{٥١} ، فنَهَب الأتراك القاهرة واستولوا على ذخائر المستنصر وماكان بالقصر والتُّربة المُعزّية من كنوز ، بين سنتي ٤٥٩ و ٤٦٢/١٠٦٦ و ١٠٦٩ ، قوّموه على أنفسهم بأبْخَس الأثمان حتى لم يبق للخليفة شيء^{٥٢} بل وصل به الأمر أن ابنة أبي الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي كانت تبعث إليه كل يوم برغيفين « على ماهو مشهور ذائع »^{٥٣}.

وبلغ من استهانة ناصر الدولة بالخليفة المستنصر واستهزائه به أنه بعث في سنة ١٠٦٩/٤٦٢ إلى ألب أرسلان ، السلطان السُّلجوقي ، يستدعيه إلى مصر ، وعمل على إقامة الدُّعوة العبّاسية في مصر وإزالة خلافة الفاطميين منها^{٥٤} ، فلم يتمكن من ذلك وتنبّه له زعماء الأتراك الآخرون الذين خشوا

^{٥٠} ابن الصيرفي : الإشارة ٧٧ - ٧٨ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨٢ ، ابن ميسر : أخبار ١٢ - ١٣ ، ٢٤ - ٢٥ ، ٣١ - ٣٢ ، ابن القلاسي : ذيل ٩٣ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٦٥ ، ٦٧ ، المقرئزي : اتعاظ ٢ : ٢١٨ ، ٢٦٥ - ٢٦٧ ، الخطط ١ : ٣٣٥ - ٣٣٦ .

^{٥١} ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨٢ ، ابن ميسر : أخبار ٣٢ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٦٧ ، المقرئزي : اتعاظ ٢ : ٢٧٥ ، الخطط ١ : ٣٣٦ .

^{٥٢} راجع تفصيل ما أخرج من القصر عند الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٨١ - ٨٢ ، ٢٤٩ - ٢٦٣ ، ابن ظافر : أخبار ٧٥ ، ابن ميسر : أخبار ٣٦ - ٣٧ ، المقرئزي : الخطط ١ : ٣٩٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٤١٤ - ٤١٧ ، ٤١٨ - ٤٢٠ ، ٤٢٣ - ٤٢٤ (عن كتاب الذخائر والتحف) ، الاتعاظ ٢ : ٢٧٥ - ٢٩٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٦ - ١٧ زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ٣٧ - ٦٤ .

^{٥٣} ابن ظافر : أخبار ٧٤ ، المقرئزي : إغاثة الأمة ٢٥ .

^{٥٤} ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨٧ ، ابن ميسر : أخبار ٣٥ - ٣٦ ، ٣٩ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ :

٦٤ ، المقرئزي : الخطط ١ : ٣٣٧ ، اتعاظ ٢ : ٣٠٦ - ٣٠٧ ، المقفى (غ . السليمية)

٢٠٧ و .

على ضياع نفوذهم معه . فثار عليه إلكيز وبلدكوش وقتلاه في منازل العِزّ
بالفسطاط في سنة ١٠٧٢/٤٦٥^{٥٥} .

لم يكن حال المستنصر مع إلكيز وبلدكوش خيراً من حاله مع ناصر
الدولة ، فقد عمل بلدكوش على سد منافذ القاهرة ومحاصرة الخليفة بها^{٥٦} ، مما
أدّى إلى انعدام الأمن وكثرة النهب وقطع الطرقات .

هكذا دخلت مصر في أزمات إدارية حادة . فكثرت وزراء المستنصر وقضاته
بسبب تسلط والدته عليهم بالمصادرة والاستبدال ، حتى تولى في الفترة بين
عزل الوزير اليازوري وقتله في سنة ١٠٥٨/٤٥٠ ومجيء بدر الجمالي إلى
السلطة في سنة ١٠٧٣/٤٦٦ ، أربعة وخمسون وزيراً واثني وأربعون
قاضياً^{٥٧} .

الأزمة الاقتصادية أو الشدة العظمى

كأن الأقدار لم تكتف للمستنصر بهذه الأزمات الإدارية والفوضى
السياسية ، فجاء النيل - وهو شريان الحياة في مصر وعصبها - ليضيف إلى
مشاكل المستنصر مشكلة جديدة . فبعد أزمة الحنطة التي حدثت في سنة
١٠٢٣ / ٤١٥ والتي انفرد بذكرها المُسَبِّح^{٥٨} ، عاد منسوب النيل إلى التناقص
في السنوات ١٠٥٢/٤٤٤ و ١٠٥٥/٤٤٧ و ٤٥٧ - ١٠٦٤/٤٦٤ - ١٠٧١
فشهدت مصر أسوأ أزمة اقتصادية مُرِّبٌ بها في العصور الوسطى حيث نزع

^{٥٥} نفسه ١٠ : ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٨ ، نفسه ٣٩ ، ابن الصيرفي : الإشارة ٩٥ ، المقرئ : اتعاظ ٢ :

٣٠٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢١ - ٢٣ .

^{٥٦} السجلات المستنصرية (سجل رقم ٥٧) .

^{٥٧} المقرئ : إغاثة الأمة ٢٢ - ٢٣ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٩ - ٢٠١ .

^{٥٨} انظر الدراسة التي قام بها عن هذه الأزمة تيارى ييانكى والمذكورة في الفصل الثالث هامش ٩٥ .

السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي من الزراعة ، واستولى الجوع لعدم وجود الأقوات ^{٥٩} « حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطُرف بخمسة عشر ديناراً ، وأبيع الأردب من القمح بثمانين ديناراً ، وأكلت الكلاب والقطط حتى قُلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير . وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً » ^{٦٠} وقد فقدت مصر في هذه الأزمة أكثر من ثلث سكانها . وبلغ من شدة الأزمة أن المستنصر اضطر أن يبيع كل مافي قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح ، وصار يجلس في قصره على حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره ، بل قيل إن بنات المستنصر وأمه حاولوا الفرار من مصر إلى بغداد بسبب الجوع وضغط الأزمة الاقتصادية ^{٦١} فيما اصطلح المؤرخون على تسميته « بالشدة العظمى » أو « الشدة المستنصرية » ^{٦٢} .

كان السبب الرئيسى لهذه الأزمات التى بدأت فى العقد الخامس هو الاختلاف بين عبيد الدولة وضعف قوة الوزراء ، يقول المقرئى : إنه لما قُتل الوزير أبو محمد اليازورى سنة ١٠٥٨/٤٥٠ « لم تر الدولة صلاحاً ولا استقام لها أمر .. ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم ... فخربت أعمال الدولة وقُلَّ ارتفاعها وتغلب الرجال على

^{٥٩} المقرئى : إغاثة الأمة ١٨ - ٢٧ ، المقفى (غ . السليمية) ٣٦٣ ظ ، الخطط ١ : ١٠٧ ، ٤٦٥ وانظر كذلك ابن ميسر : أخبار مصر ٢٤ - ٢٦ . ومقال R. Daghfous المشار إليه أعلاه ^{٦١} .
^{٦٠} نفسه ٢٤ .

^{٦١} ابن ظافر : أخبار ٧٥ ، ابن ميسر : أخبار ٣٨ ، النويرى : نهاية - غ ٢٦ : ٢٨ ، المقرئى : إغاثة ٢٥ ، اتعاظ ٢ : ٣٠٧ وانظر كذلك راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ، ٨٨ - ٩٩ .

ويذكر ابن الأثير أن محمد بن المستنصر خرج أيضاً إلى عسقلان فى أيام الشدة والغلاء وأقام بها ينتظر أيام الرخاء وزوال الشدة . (الكامل ١١ : ١٤١ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٢٣٦) .
^{٦٢} راجع ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٣٧ (نقلاً عن الشريف الجوائى) .

معظمها واستصفوا ارتفاعها حتى انتهى ارتفاع الأرض السفلى إلى مالا نسبة له من ارتفاعها الأول ... وطفى الرجال وتجرعوا حتى خرجوا من طلب الواجبات إلى المصادرة فاستنفذوا أموال الخليفة وأخلوا منها خزائنه وأحجوه إلى بيع أعراضه .. ثم زادوا في الجرأة حتى صاروا إلى تقويم ما يخرج من الأعراض .. وتلاشت الأمور واضمحل الملك ، وعلموا أنه لم يبق ما يلتمس إخراجهم فتناسوا الأعمال ودام ذلك بينهم سنوات إلى أن قصر ماء النيل فساعد على زيادة الأزمة لعدم وجود من يزرع ماشمله الري لاتصال الفتن بين العربان واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة »^{٦٣}.

وكانت آثار هذه الأزمة أكثر وضوحًا في الأحياء الشمالية للفسطاط (العسكر والقطائع) ، فقد خربت القطائع في أثناء الشدة العظمى حتى أمر الوزير ببناء حائط يستر الخراب عن نظر الخليفة إذا سار من القاهرة إلى الفسطاط فيما بين العسكر والقطائع وبين الطريق ، كما أمر ببناء حائط آخر عند جامع ابن طولون^{٦٤}.

يقول المقرئى : عندما دخل أمير الجيوش بدر الجمالى إلى مصر سنة ٤٦٦ كانت « هذه المواضع خاوية على عروشها خالية من سكانها ... وصارت القاهرة أيضًا يبابًا دائرة ، فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ماشاء في القاهرة مما خلا من دور الفسطاط بموت أهلها ، فأخذ الناس في هدم المساكن ونحوها بمصر وعمروا بها في القاهرة »^{٦٥}.

^{٦٣} المقرئى : إغاة الأمة ٢٢ - ٢٣ .

^{٦٤} المقرئى : الخطط ١ : ٣٠٥ ، ٢ : ١٠٠ .

^{٦٥} نفسه ١ : ٥ .

الفصل الخامس

بدر الجمالى

وبداية النظام العسكرى

بدر الجمالى مُنقذ الدولة

لم يكن إنقاذ البلاد من هذه الأزمات المتتالية ممكناً دون الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فرض النظام واستتباب الأمن وحماية الخلافة نفسها ، وإنهاء حالة الفوضى التى استشرت فيها ، حتى فقد الخليفة كل سيطرة له عليها وتقلص نفوذه وانحصر داخل القصر . بينما تقاسمت فرق الجند أقاليم الدولة ، فاستولى اللواتيون والملحية على البحيرة والإسكندرية ، واستقر الصعيد فى أيدي المغاربة والسودان ، بينما تحكم الأتراك فى القاهرة والفسطاط .

عقد الخليفة المستنصر أملاً فى تحقيق ذلك على قائد أرمنى ، كان يتولّى عكاً فى ذلك الوقت ، يُعرف ببدر الجمالى^١ فكتبه سراً عن طريق الوزير

^١ مملوك أرمنى من أصل مسيحي فى أغلب الظن ، كان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار فعرف لذلك ببدر الجمالى ، وبدأ حياته العملية والياً على دمشق سنة ٤٥٥ هـ . ولمعلومات أكثر عن بدر الجمالى راجع ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٤ - ٩٧ ، ابن القلانسى : ذيل ١٢٧ - ١٢٨ ، ابن ظافر : أخبار ٨١ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ابن ميسر : أخبار ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ - ٥٤ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٨ - ٤٥٠ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٧١ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٩ : ٤٣٩ ، الصفدى : الوافى ١٠ : ٩٥ ، المقرئ : المقفى (غ . السليمة) ٢٤٢ و - ٢٤٤ و ، الخطط ١ : ٣٨١ - ٣٨٢ ، الاتعاض ٢ : ٣١١ - ٣٢٩ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٧ - ١٣٠ ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ١٢٠ ، ١٤١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٤ . وراجع كذلك ، السجلات المستنصرية سجل رقم ٢٠ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، المناوى : الوزارة فى العصر الفاطمى ٢٧٠ - ٢٧١ ، Wiet, G., CIA ، Egypte II, pp. 132 - 158; Becker, C.H., EI², art. Badr al - Djamâli I, p. 894

أبى الفرج محمد بن جعفر بن المغرنى ، وهو يومئذ متولى ديوان الإنشاء ، يطلب إليه القدوم عليه لإصلاح حال البلاد . وقد رَحَّب بدر بهذه الدُّعوة ، التى تحقق له طموحاته ، وكتب إلى المستنصر يشترط عليه أن لا يأتى إلى مصر إلَّا وبعه رجاله ، وأنه لن يبقى على أحد من عساكر مصر ، فوافقه المستنصر على ذلك ^٢ .

قدم بدر من عَكَّا فى مائة مركب ^٣ مشحونة بالأزمن ونزل بِنْتِيس - وقيل دُمياط - وسار منها قاصدًا قليوب ، وبعث منها إلى المستنصر يقول له : « لا أدخل إلى القاهرة مالم يُقبَض على بَلْدَكُوش » قائد الأتراك ، فأمسكه الخليفة وأرسل يستقبل بدرًا لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٤٦٦ / يناير ١٠٧٤ . وأكرم وفادته وأطلق يده فى إصلاح حال البلاد ^٤ .

بدأ بدر الجمالى إصلاحاته فى مصر بتدبير مؤامرة ، شبيهة بمذبحة القلعة التى دبرها محمد على بعد ذلك بنحو سبعمائة عام ليتخلص من المماليك ، قضى فيها بدر على رؤوس الفتنة فى مصر ^٥ وقتل رجال الدولة وأقام له جنودًا وعسكرًا من الأرمن ، يقول المقرئى : « فصار من حينئذ معظم الجيش الأزمن وذهبت كتامة وصاروا من جملة الرعية بعدما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها » ^٦ . حينئذ قلده المستنصر الوزارة ومنحه لقب « السيد الأجل أمير الجيوش » ^٧ ، وجاء فى سِجِلِّه « وقد قلَّدك أمير المؤمنين جميع جوامع تديره وناط بك النظر

^٢ المقرئى : المفقى (فخ . السليمية) ٢٤٢ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠١ .

^٣ كان ذلك فى وقت الشتاء حيث لم تجر العادة يركوب البحر فيه ، يقول المستنصر فى أحد سجلاته أن ذلك كان « فى زمان يمنع البر جانب ، والبحر راكبه » (سجل رقم ٥٦ و ٥٧ ، ابن ميسر : أخبار ٤٠ ، المقرئى : المفقى (فخ . السليمية) ٢٤٢ و ، الخطط ١ : ٣٨٢ ، اتعاظ ٢ : ٣١١ - ٣١٢) .

^٤ نفسه ٢٤٢ ظ ، نفسه ١ : ١٣١ ، ابن الصيرى : الإشارة ٩٥ .

^٥ ابن ميسر : أخبار ٤٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٩ .

^٦ المقرئى : الخطط ٢ : ١٢ .

^٧ السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٥٦ .

فى كل ماوراء سريره ، فباشر ما قلّلك أمير المؤمنين من ذلك مدبراً للبلاد مُصلحاً للفساد مدمراً أهل العناد^٨ . وخلع عليه كذلك بالعقد المنظوم بالجوهر ، وزاد له الحنك مع الذّوابة وجعل له أيضاً الطّيلسان المَقوّر^٩ ، ليصبح بذلك أول وزراء التفويض فى العصر الفاطمى .

عمل بدر الجمالى على إعادة النظام إلى القاهرة فاستبد بأمر الدولة وحجّر على المستنصر ، فقد كانت « الأحوال - كما يقول المقرئى - قد فسدت ، والأمور قد تغيّرت ، وطوائف العسكر قد انتشرت ، والوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الأمر والنهى ، والرخاء قد أيس منه ، والصّلاح لا يُطَمَع فيه ، ولوّاة قد ملكت الوجه البحرى كله ، والعبيد فى الصّعيد ، والطّرقات قد انقطعت برّاً وبحراً إلّا بالخفارة الثقيلة ، والخراب قد شمل مدينة مصر والعسكر^{١٠} .

كان أهم مايشغل بدر هو استتباب الأمن فى كل الأراضى المصرية ، فتوجّه أولاً إلى الوجه البحرى والإسكندرية حيث قاتل قبائل لوّاة والملجّية واسترد ماكان من الأعمال بأيديهم ، ثم توجّه إلى الصّعيد حيث قاتل قبائل الجُهينيين والقيسيين وقلول السودان المستولية عليه . فأعاد للبلاد وحدتها وأمنها وللدولة قوتها^{١١} . وفى العام نفسه - ١٠٧٤/٤٦٧ - أعاد خطبة الفاطميين بمكة

^٨ المقرئى : المقفى (غ . السليمية) ٢٤٣ و ، الخطط ١ : ٤٤٠ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢ ، وانظر كذلك السجل رقم ٥٦ ، ٥٧ .

^٩ نفسه ، نفسه ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦ .

^{١٠} نفسه ٢٤٣ و وكذلك ابن الصيرفى : الإشارة ٩٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٥ س ٧ - ١١ .

^{١١} السجلات المستنصرية ، سجل ٥٦ و ٥٧ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦ ، ساويرس بن المقفع :

تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ابن ظافر : أخبار ٧٦ ، ابن ميسر : أخبار ٤١ ،

النويرى : نهاية ٢٦ : ٧٠ - ٧١ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٤ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٨٢ ،

٢ : ٣٣ ، الاتعاظ ٢ : ٣١٤ ، المقفى ٢٤٢ ظ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢١ - ٢٢ .

والمدينة بعد أن قُطِعَتْ خمس سنوات^{١٢}، ولكن اعتباراً من عام ١٠٨١/٤٧٣ خضعت مكة لنفوذ السَّلاجِقة وقطعت خطبة الفاطميين منها نهائياً وأصبحت تقام فقط للخليفة العباسي .

كذلك أطلق بدر الجمالي الخراج للمزارعين ثلاث سنين ، حتى تَرَفَّعت أحوال الفلاحين واستغنوا في أيامه ، كما يقول ابن مَيْسَر^{١٣} .

وقد حاول السَّلاجِقة ، بناء على نصيحة بَلْدَكُوش الذي كان قد نجح في الفرار إلى الشام ، أن يستولوا على أعمال الرِّيف سنة ١٠٧٦/٤٦٩ - ١٠٧٧ ، منتهزين فرصة انشغال بدر بمحاربة فلول السودان في الصَّعيد . فوصل أُنْشِرَبُزَا إلى مدينة صَهْرَجَتْ بإقليم الشرقية ، ولكن بدرًا تمكن من جمع قواته ومنازلته ، وقتل عددًا كبيرًا من جنوده وأرغمه على العودة إلى الشام^{١٤} .

انفراد بدر الجمالي بالسلطة وبداية النظام العسكري

حفظ الخليفة المستنصر بالله لبدر الجمالي فضله على الدولة والخلافة ، فلم يخل سِجِلٌّ من السَّجَلَّات التي أرسلها المستنصر لدعائه في اليمن والمكتوبة بعد سنة ١٠٧٤/٤٦٧ من التنويه والإشادة بفضله على الدولة . فنجده يصفه فيها

^{١٢} ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦١ ، ٩٧ - ٩٨ ، ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ٢٩٤ ، ابن ميسر : أخبار ٤٢ ، المقرئ : نهاية ٢٦ : ٧٠ ، الفاسي : العقد الثمين ١ : ٤٤٢ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ٣١٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٨٤ ، ابن مهدي : اتحاد الوري ٤٧٧ ، اسيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، وانظر السجلات المستنصرية برقم ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٢ .
^{١٣} ابن ميسر : أخبار ٥٣ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٢٧١ ، المقرئ : الخطط ١ : ٣٨٣ ، الاتعاظ ٢ : ٣٢٩ .

^{١٤} ابن الصيرفي : الإشارة ٩٦ ، ابن القلائسي : ذيل ١٠٩ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة ٣/٢ : ٢١٨ - ٢١٩ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٠٣ - ١٠٤ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ١٨٢ - ١٨٤ ، ابن ميسر : أخبار ٤٤ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٧٠ ، الذهبي : العبر ٣ : ٢٩٦ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٥ ، المقرئ : المقفى ٢٠٧ و ، الاتعاظ ٢ : ٣١٧ - ٣١٨ .

بأنه « الذى أعاد إلى الدولة العلوية ريق شبابها »^{١٥} و « الذى جدد الله تعالى به وعلى يده معالم الدولة الفاطمية بعد دروسها ، وأقام بسيفه أعلامها بعد طموسها »^{١٦} وبأنه « الآية التى أطلع الله بها لأمير المؤمنين شمس الخلافة فشرقت ، والموهبة التى وهبها لدولته وللإسلام فظهرت وأشرقت ، والسيف الذى انتضاه على جموع الباطل فزهقت وتمزقت ... حتى أصبحت المملكة بلطف الله وإيالاته محفوظة النظام »^{١٧} ، وبماضى عزماته وقرار سيفه مشيدة البناء قائمة العماد »^{١٨} « فلا جرم إنه لدى أمير المؤمنين بالمحل الخطير الذى لم يحلله من تقم ، والمكان الجليل الذى يتظاهر دون على همم ذوى الهمم »^{١٩} ، و « أنه حال من أمير المؤمنين محل والده الظاهر لإعزاز دين الله »^{٢٠}.

وبتولى بدر الجمالى وزارة التفويض وإمرة الجيوش بدأ عصر جديد فى تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر ، عصر تحكم فيه الوزراء أرباب السيوف وصار وزير السيوف هو « سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتّاب وسائر الرعية ، وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية »^{٢١} ، وفقدت فيه « الدعوة » فى الوقت نفسه الكثير من قوتها وأصبح هم الوزراء أصحاب السيوف هو الحفاظ على بقاء الدولة واستمرارها فيما اصطلح على تسميته بـ « عصر نفوذ الوزراء » .

^{١٥} سجل رقم ٣١ .

^{١٦} سجل رقم ٣٢ .

^{١٧} سجل رقم ١٥ .

^{١٨} سجل رقم ١٦ .

^{١٩} سجل رقم ١٥ .

^{٢٠} السجلات رقم ٣٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، وانظر ماجاء على باى الفتوح والنصر بالقاهرة فى مدح بدر

الجمالى بمثل هذه الصفات (Wiet, G., RCEA VII, pp. 217 - 19 n. 2762)

^{٢١} المقرئى : الخطوط ١ : ٤٤٠ .

وطوال الخمسين عامًا التالية (٤٦٧ - ٥١٥) كان بدر الجمالي وولده الأفضل هما اللذين يقودان مصير الدولة الفاطمية .

أدرك داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي - الذي يُعدّ آخر أهم الدعاة الفاطميين - حقيقة هذا الموقف وأشار في « سيرته الذاتية » - التي كتبها قبل وصول بدر الجمالي بأكثر من عشر سنوات - إلى مدى ضعف الخلافة ، وكيف أصبح المستنصر ألعوبةً في أيدي القوّاد^{٢٢} ، وتنبّه كذلك إلى ما يمكن أن يصيب الدعوة والعقيدة الفاطمية في ظل سيادة الوزراء ، فعمل على نقل تراث الدعوة من مصر إلى اليمن ، قبل وفاته في سنة ١٠٧٧/٤٧٠ ، بواسطة رُسُلِهِ ودعائه حيث يوجد مؤمنون حقيقيون بالدعوة الفاطمية^{٢٣} .

وقد صدّق حدّس الداعي المؤيد في الدين الشيرازي ، فبعد وفاته قلّد الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالي مهمة الإشراف على القضاء والدعوة^{٢٤} بالإضافة إلى رتبتي الوزارة وإمارة الجيوش ، وزاد في ألقابه « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين »^{٢٥} . يؤكّد ذلك أن الكتابتين التاريخيتين اللتين تحملان اسم بدر الجمالي ويرجع تاريخهما إلى صفر وربيع الأول سنة

^{٢٢} المؤيد في الدين : سيرة ٨٠ ، ٨٤ .

^{٢٣} أيمن قوّاد سيد : مصادر تاريخ اليمن ٤٦ ، تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ١٣٧ .

^{٢٤} اعتبارًا من تولية بدر الجمالي صار الوزراء أرباب السيوف هم الذين يولون القضاء والدعاة بحيث

كانوا نوابًا عنهم ويذكرون ذلك في كتب الأنكحة . (ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢ ،

٢٠١ ، ابن الصيرى : الإشارة ٩٦) . ثم فصلت الوزارة عن القضاء مؤقتًا عندما تولى بهرام

الأرمني الوزارة وهو نصراني سنة ٥٢٩ . (ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، المقرئ : اتعاظ ٣ :

١٥٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، الخطط ١ : ٤٤٠ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٨) .

^{٢٥} ابن ميسر : أخبار ٤٥ ، ٥٠ وانظر كذلك ، التويرى : نهاية ٢٦ : ٧٠ ، المقرئ : الخطط ١ :

٣٨٢ ، ٤٤٠ ، المقفى ٣٤٣ ظ ، اتعاظ ٢ : ٣١٣ ، ٣١٩ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ :

٢٠١ .

١٠٧٧/٤٧٠^{٢٦}، والسجلات المدونة قبل ٣٠ ذى القعدة سنة ٤٧٠ / ١٥
يونية ١٠٧٨^{٢٧} لا تشير إلى هذه الألقاب .

وهذا ما تثبته كذلك دراسة الكتابات الأثرية الخاصة ببدر الجمال
و « السجلات المستنصرية » المرسلة إلى دعاة اليمن بعد هذا التاريخ . ف فيما
يخص الكتابات توجد مجموعة من النقوش مؤرخة في سنة ١٠٧٧/٤٧٠ ، قبل
وفاة داعي الدعاة المؤيد في الدين الشيرازي في شوال من هذه السنة ، يُنعت
فيها « بالسيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام »^{٢٨} ؛ ثم مجموعة
أخرى ، يرجع أقدمها إلى سنة ١٠٨٤/٤٧٧ ، تضيف إلى الألقاب السابقة
« كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين »^{٢٩} .

وقد أوضح ابن ميسر في نص صريح أن قضاء القضاة فُوض في شعبان سنة
٤٧٠ / مارس ١٠٧٨ إلى أمير الجيوش^{٣٠} ، كما ذكر المستنصر ، في سجل
مؤرخ في شوال سنة ٤٧٢ / إبريل ١٠٨٠ ، أنه أضاف إلى ألقاب بدر لقب
« كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » ليقلده أمور الدنيا وأمور
الدين^{٣١} .

هكذا حفظ نظام بدر الجمال وخلفائه المباشرين ، الأفضل والمأمون
البطائحي ، الدولة الفاطمية من السقوط ، وأطال بقاءها نحو قرن ، بفضل

^{٢٦} Wiet, G., RCEA VII, n. 2716

^{٢٧} السجلات رقم ٣٢ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

^{٢٨} Wiet, G., RCEA VII, n. 2716

^{٢٩} السجلات رقم ٣٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ،

Wiet, G., ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٣ ، ٥١ ، ٤٨ ، ٤٤ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٢

RCEA VII, n.2716, 19, 28, 45, 52, 69, 76, 90, 91, 94, 95, VIII, n.2803, 05, 06, 07, 08,

^{٣٠} ابن ميسر : أخبار ٤٧ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ٣٢١ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠١ .

^{٣١} السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٥٩ .

إشرافهم التام على نظام الدولة الإداري والديني والعسكري . ومثلما أصبح الخلفاء العبّاسيون في بغداد لاحول لهم ولا قوة بيد قادتهم العسكريين المتسلّطين ، أصبح الفاطميون كذلك ، منذ هذا التاريخ ، رؤساء رمزين لسلسلة متوالية من الطغاة العسكريين .

الإصلاحات الإدارية لنظام بدر الجمالي .

لعل أهم إنجازات بدر الجمالي في فترة حكمه في مصر ، بالإضافة إلى بنائه سور القاهرة وإعادة تحصينه ، وكذلك بقية منشآته الدينية والمدنية سواء في القاهرة أو في الاسكندرية أو في الصعيد^{٣٢} ، هو الإصلاحات الإدارية العديدة التي أدخلها على نظام الحكم في مصر . فقد عيّن عواصم الولايات التي تتحكم في مصر العليا والسفلى لتأمين الطرق المؤدية إلى عاصمة البلاد ، إلى جانب إنشاء العديد من التحصينات المتقدمة التي تصد ما يمكن أن تتعرض له البلاد من أخطار .

فتقسيم مصر إلى أربع ولايات رئيسية : قوص والشرقية والغربية والإسكندرية بالإضافة إلى القاهرة والفسطاط يرجع إلى إعادة تنظيم الدولة الذي بدأه بدر نحو عام ١٠٧٨/٤٧٠^{٣٣} . وقد حفظ هذا النظام الجديد لحكام هذه الولايات سلطة متزايدة . وكان والى قوص أقوى الولاة الأربعة ويحكم على جميع بلاد الصعيد ، وتلى رتبته رتبة الوزير في الأهمية^{٣٤} .

ويُفسّر ذلك إلى أي مدى كان اهتمام الفاطميين بطُرق التجارة الشرقية ،

^{٣٢} راجع لتفصيل ذلك Fu'ad Sayyid, A., La Capitale de l'Egypte Jusqu'à l'époque fatimide (sous press) ، وفيما يلي ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

^{٣٣} القلقشندي : ص ٣ : ٤٩٢ - ٤٩٤ ، المقرئ : اتعاط ٣ : ٣٢٦ .

^{٣٤} Garein, J. Cl., Un centre musulman de la haute Egypte médiéval : Qûs, Le Caire

ورغبتهم فى نشر دعوتهم على طول الطرق التجارية المؤدية إلى اليمن وعمان والهند^{٣٥} ، وحرصهم على تأمين ميناء عيذاب ، القاعدة البحرية التى أخذت فى النمو منذ أن اتبع الفاطميون استراتيجية شرقية . والتى تولّى والى قوص أمر الإشراف على الأسطول المعد بها لحماية « مراكب الكارم » من غارات القراصنة^{٣٦} .

أما والى الشرقية فكان يلى والى قوص فى الرتبة ويحكم على عمل بليّس وقلوب وأشموم^{٣٧} . وكان عليه مواجهة السلاجقة الذين استردوا من الفاطميين أغلب مدن الشام الداخلية اعتباراً من عام ١٠٧٠/٤٦٢ .

الأفضل بن بدر الجمالى يشارك والده السلطة

وفى نهاية عصر المستنصر تفرغ بدر الجمالى تماماً للإشراف على الدعوة ، الأمر الذى لم ينظر إليه بارتياح أتباع الدعوة وخاصة فى اليمن والهند^{٣٨} . وفى نصّ مجمل أوردة ابن ميسر نعرف أن بدر الجمالى ، بعد أن قاد حملة لتأديب ولده الأوحّد الذى خرج عليه فى الإسكندرية سنة ١٠٨٤/٤٧٧ ، استتاب ولده الأفضل وجعله ولى عهده فى جمادى الأولى من هذه السنة^{٣٩} . ويؤكد

^{٣٥} لمزيد من التفاصيل انظر Lewis, B., "the Fatimid and the route to India", RFSE-Univ. d'Istanbul XI (1949-50), pp. 50-54; Hamdanl, A., "The Fatimid -'Abbasid, conflict in India", IC XLI (1967). pp. 185-191 وأعلى ص ١٢٩ - ١٣١ .

^{٣٦} انظر فيما يلى الفصل الحادى عشر .

^{٣٧} القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٤

^{٣٨} عماد الدين إدرىس : عيون الأخبار (بخ . الحمدانى) ٧ : ٧٥ ظ - ٧٦ و ، أمين فؤاد : تاريخ المذاهب الدينية ١٤٦ - ١٤٧ . وبعد نجاح هذه الحملة وتخليداً لها أعاد بدر الجمالى بناء جامع القطارين من أموال أخذها من الإسكندرانيين وفرغ منه فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧٩ . (ابن ميسر : أخبار ٤٦ - ٤٧ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ١ : ٦٧ ، Wiet, G., RCEA VIII no 2745 .

^{٣٩} ابن ميسر : أخبار ٤٧ ، المقرئى : انعاظ ٢ : ٣٢١ ، وانظر كذلك ساويرس : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢١٧ - ٢١٨ .

ما جاء في هذا النص سيجل مؤرخ في ٧ محرم سنة ٤٧٩/٢٥ إبريل سنة ١٠٨٦ بعث به الخليفة المستنصر إلى دعائه باليمن ، نعرف منه أن الخليفة نقل سلطة بدر الجمالي إلى ولده الأفضل في احتفال ضخم وأمر بأن يُدعى له من فوق المنابر بعد الفراغ من الدعاء للخليفة ولبدر الجمالي ، وجاء في آخر السجل الأمر بإبطال ذكر الملقب كان بالأوحد من دعاء في خطبة أو ندى من الأندية وأن يُنحى رسمه ويزال حكمه ^{٤٠} . ولا يترك هذا السجل أى مجال للشك في أن الأفضل قد حل محل أخيه الأوحد في أعقاب الثورة الفاشلة التي قادها الأوحد في الإسكندرية . وجاء كذلك في سيجل بعث به المستنصر إلى الأمير عبد المستنصر بن المكرم أحمد في اليمن ، أنه أوكل إلى الأفضل بن بدر الجمالي « سياسة الملك وما يختص بظاهر السلطان وأمور الجند وما إلى ذلك ، على أن يتفرغ والده بدر الجمالي على درس علوم الأئمة ، والإشراف على الدعوة » ^{٤١} .

وعلى ذلك فليس من الغريب أن نجد اسم الأفضل شاهنشاه بألقابه يظهر إلى جانب والده في كتابة تاريخية مؤرخة في سنة ٤٨٢/١٠٩٨ ، كانت موجودة في المَشْهَد النُفَيسِي وفُقدت اليوم ، ولكن حفظ لنا نصها كل من المقرئى والسُخاوى ^{٤٢} . ونجد كذلك ألقاب الأفضل في كتابة تاريخية أخرى باسم المستنصر ، لم يُحفظ تاريخها ، موجودة على محراب في الجامع الطولونى ^{٤٣} .

وقبل وفاته بعدة شهور أصيب بدر الجمالي بالفالج ولم يصبح قادراً على مباشرة مهامه ، مما دفع المستنصر إلى إصدار سيجل يأمر فيه بأن يُدعى للأفضل شاهنشاه مع الخليفة على منابر القاهرة ومصر ويقلده « أمور المملكة والنظر في

^{٤٠} السجلات المستنصرية ، سجل رقم ١٥ .

^{٤١} عماد الدين إدريس : عيون الأخبار - خ ٧ : ٧٥ ظ - ٧٦ و .

^{٤٢} المقرئى : الخطط ٢ : ٤٤٢ ، السُخاوى : تحفة الأحياب ١٣٥ ، وانظر كذلك على مبارك :

الخطط التوفيقية ٥ : ١٣٣ - ١٣٤ ، Wiel, G., RCEA VII n. 2776

^{٤٣} Wiel, G., RCEA VIII n. 2806

سائر أمور الدولة وقضاياها وشرائعها وأحكامها ، ، وقرئ هذا السجل في الإيوان بالقصر في العشر الآخر من شهر ربيع الأول سنة ١٠٩٤/٤٨٧ .^{٤٤}

ديكتاتورية الأفضل بن بدر الجمالى

عند وفاة بدر الجمالى في جمادى الأولى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ أكره الخليفة المستنصر ، تحت ضغط الجيش ، على اتخاذ الأفضل وزيراً له ^{٤٥} . حقيقة أن الأفضل شارك والده بدر الجمالى في أعباء الوزارة منذ عام ١٠٨٧/٤٨٠ تقريباً ، كما تفيدنا النقوش التاريخية والسجلات المستنصرية ، إلا أنه نافسه على ذلك بعض كبار الأمراء ، ومنهم أمين الدولة لاوون الذى تخلع عليه المستنصر خلع الوزارة بالفعل ، لولا ثورة العسكر التى أجبرت المستنصر على إحضار الأفضل وإقامته مكان أبيه ^{٤٦} .

وتلقب الأفضل بنفس ألقاب أبيه فعرف « بالسيد الأجل الأفضل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » ^{٤٧} . ولم يلبث الخليفة المستنصر أن توفى بعد ذلك بشهور في ١٨ ذى

^{٤٤} السجلات المستنصرية ، سجل رقم ١٥ ، ٢٧ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢٤٣ .

^{٤٥} ابن ميسر : أخبار ٥٤ .

^{٤٦} نفسه ٥٤ ، المقرئى : اتعاط ٢ : ٣٣١ - ٣٣٣ .

^{٤٧} السجلات المستنصرية سجل رقم ٣٥ ، ٤٣ ، Wiet, G., REFA VIII, n 2912, 2986 .

وراجع أخبار الأفضل عند ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٧ - ١٠٣ ، ابن القلانسى : ذيل ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ابن المأمون : أخبار ٣ - ٢٠ ، ابن ظافر : أخبار ٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٥٨٩ - ٥٩٠ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ١٠٤ ، ابن ميسر : أخبار ٥٩ - ٨٧ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٨ - ٤٥٢ ، ابن سعيد : النجوم ٢١٦ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٣ - ٨٤ ، ابن أليك : كنز الدرر ٦ : ٤٨٥ - ٤٨٧ ، الذهبى : العبر ٤ : ٣٤ - ٣٥ ، الصفدى : الوائى ١٦ : ٩٢ - ٩٣ ، ابن الفرات : التاريخ - خ ١ : ٥٠ - ٥٤ ، المقرئى : الخطوط ٢ : ٢٩٠ ، اتعاط ٣ : ٦٠ - ٦٢ ، أبى المحاسن : النجوم ٥ : ٢١٨ ، ٢٢٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٤ ، المناوى : الوزارة فى العصر الفاطمى

Wiet, G., EI², art. al, Afdal b. Badr al -Djamali, I, pp. 221 - 222 ، ٦١ - ٥٧

الحجة سنة ٢٩/٤٨٧ ديسمبر سنة ١٠٩٤ عن عمر يناهز سبعة وستين عامًا وبعد حكم دام أكثر من ستين عامًا^{٤٨}.

الإنقسام الأول للدعوة الإسماعيلية

لم تمض عملية خلافة المستنصر في منصبه في هدؤ بل قادت إلى انشقاق الدعوة الفاطمية وانقسامها على نفسها . وكان لهذه الحادثة وما تبعها آثار جسيمة على الدعوة سواء في مصر أو خارجها . فالعقيدة الإسماعيلية تعتمد انتقال الإمامة في الأعقاب من الأب إلى الابن الأكبر ، وتبعًا لهذه القاعدة كان نزار ، الابن الأكبر للمستنصر ، هو صاحب الحق الشرعي في خلافة أبيه في منصب الإمامة ، رغم أنه لم يُجر أي احتفال لتنصيبه ولياً للعهد . ومع ذلك لم يعر الأفضل هذا التقليد أي اعتبار وأبعد نزار ، الذي كان له من العمر آنذاك خمسين عامًا (ولد عام ٤٣٧)^{٤٩} ، عن العرش ، وأجلس عليه أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد (ولد عام ٤٦٧)^{٥٠} وحكم باسم « المستعلي بالله » وذلك لأن المستعلي كان في نفس الوقت زوج أخته ست الملك ابنة بدر الجمالي^{٥١} . وتبعًا لما ذكره ابن ميسر فإن المستنصر نعت ابنه أبا القاسم أحمد ، وقت عقد نكاحه على ابنة بدر الجمالي ، بـ « ولي عهد المؤمنين »^{٥٢} .

^{٤٨} ابن القلانسي : ذيل ١٢٨ ، ابن ظافر : أخبار ٧٧ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٣٧ - ٢٣٨ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٧١ ، الذهبي : العبر ٣ : ٣١٨ ، المقرئ : الخطط ١ : ٣٥٦ ، ٤٢٣ ، الاتعاظ ٢ : ٣٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٣ ، وانظر كذلك Gibb, H. A. R. et al. Kraus, P. El., art. al - Mustansir bi Llah III, pp. 820 - 823 .

^{٤٩} ابن ميسر : أخبار ٦٢ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ١٥ .

^{٥٠} ابن خلكان : وفيات ١ : ١٨٠ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١١ وانظر أمين فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية ١٥٤ - ١٥٥ .

^{٥١} ابن ميسر : أخبار ٧٠ ، ٩٩ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٨٥ .

^{٥٢} الهداية الآمرية في « مجموعة الوثائق الفاطمية » للشياح ٢١٥ ، ٢١٧ ، ابن ميسر ، أخبار ٩٩ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٨٤ . ويميز الفاطميون بين ولاية عهد المؤمنين وولاية عهد المسلمين ، إذ أن ولاية عهد المؤمنين تتضمن ولاية عهد المسلمين ، لأن كل مؤمن مسلم ولا يتعكس . (الهداية الآمرية ٢١٥) .

وقاد الخلاف على صاحب الحق في خلافة المستنصر إلى نتائج بعيدة المدى في تاريخ الدعوة الإسماعيلية . وقد اعتبر B. Lewis و S. Stern إبعاد نزار وتولية المستنصر انقلاباً سياسياً coup d'état واضح المعالم قام به الوزير الأفضل شاهنشاه محافظة على السلطان القوى الذي كان يتمتع به منفرداً منذ أواخر عهد المستنصر^{٥٣} خاصة وقد وقعت بين الأفضل ونزار خلافات في أيام المستنصر خشى منها الأفضل إن تولّى نزار أن يُعيدَه عن الحكم^{٥٤} ، وبذلك ظل الأفضل طوال الخمسة والعشرين عاماً التالية هو المُدبّر الحقيقي لدولة الفاطميين .

وهكذا نجد أن الوزراء الفاطميين ، أرباب السيوف ، تلاعبوا بالعقيدة الإسماعيلية ولم يبالوا بها ، فكانوا يعيّنون الإمام الذي يريدونه حتى ولو لم يكن له الحق - حسب العقيدة الإسماعيلية - في الإمامة .

وقد فرّ نزار ، الذي رفض الاعتراف بإمامة أخيه الأصغر^{٥٥} ، ومعه محمود ابن مصال اللّكي^{٥٦} إلى الإسكندرية ، حيث ظن أنه قادر ، بمعاونة والي المدينة ناصر الدولة أفتكين التركي^{٥٧} ، على استعادة السلطان الذي سلب منه ، وأعلن

^{٥٣} Stern, S., "The Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (al-Hidaya al-Amiriyya) its date and its purpose" JRAS (1950), p. 20; Lewis, B., BSOS X (1940-42), p. 256; Gibb, H. A. R., EI¹, art. al-Musta'li, III, pp. 819-20

الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٤٨ .

^{٥٤} ابن ميسر : أخبار ٦٠ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٤٠٧ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٧٢ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٢٣ ، اتعاظ ٣ : ١٢ .

^{٥٥} نفسه ٥٩ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٧٢ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢٤٤ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١١ ، الخطط ١ : ٤٢٣ .

^{٥٦} كان نزار قد وعد ابن مصال إن هو أصبح الإمام أن يوليه الوزارة . (ابن ميسر : أخبار ٦٠) .
^{٥٧} الأمير ناصر الدولة أفتكين التركي ، أحد غلمان أمير الجيوش بدر الجمال ترقى في الخدمة إلى أن ولّاه الإسكندرية . (المقرئ : المقفى (غ . السليمية) ٢٠٨ ظ - ٢٠٩ و ، الخطط ١ : ٤٢٣) .

نفسه خليفة في الإسكندرية وتلقّب بـ « المصطفى لدين الله »^{٥٨}. ولكن محاولة ثورة نزار لم تفلح بسبب تأييد الجيش للأفضل ، الذي نجح ، بعد أن أخفق في أول الأمر ، في القبض عليه وعلى أفتكين وقادهما إلى القاهرة وقتلهما بها^{٥٩}. وبذلك اعترف بإمامة المستعلي القسم الأكبر من إسماعيلية مصر والشام وكل الطائفة الإسماعيلية في اليمن والهند ، الذين أسسوا فرقة جديدة من بين أتباع المستعلي بعد مقتل ولده وخليفته الأمر بأحكام الله سنة ١١٣٠/٥٢٤^{٦٠}. وعرف أتباع المستعلي بـ « المستعلية » . أما إسماعيلية فارس بقيادة الحسن بن صباح^{٦١} فقد اعترفوا بإمامة نزار وعرفوا لذلك بـ « النزارية » .

الإسماعيلية الجديدة .

كان الحسن بن صباح قد قدم إلى مصر في سنة ١٠٧٦/٤٦٩ ، كما تذكر المصادر النزارية^{٦٢} ، أو في سنة ١٠٨٦/٤٧٩ كما تذكر المصادر المصرية^{٦٣}. وتشير المصادر عمومًا إلى أنه نجح في لقاء الإمام المستنصر وأنه سألته عن من يكون الإمام بعده ، وأن المستنصر أجابه بأنه ابنه نزار . وتنفي المصادر النزارية هذا اللقاء وتذكر أن ابن صباح لم يحظ بلقاء المستنصر طوال فترة إقامته في

^{٥٨} ابن ميسر : أخبار ٦١ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢٤٤ - ٢٤٥ ، النويري : نهاية

٢٦ : ٧٣ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٣ ، الخطط ١ : ٤٢٣ .

^{٥٩} نفسه . وكذلك ابن ظافر : أخبار ٨٣ - ٨٤ ، المقرئ : المقفى ٢٠٨ ظ ، ابن حجر : رفع

الإصر ١ : ٣٨٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٤٤ .

^{٦٠} انظر فيما يلي ص ١٨٤ - ١٨٦ .

^{٦١} عن الحسن بن صباح راجع ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٣٧ ، ابن ميسر : أخبار ٤٧ - ٤٩ ،

٦٢ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٧٥ ، القلقشندي : صبح ١٣ : ٢٣٧ ، المقرئ : المقفى

(مخ . السليمية) ٣٥٢ ظ - ٣٥٤ و ، اتعاظ الخنفا ٢ : ٣٣٣ - ٣٣٤ ، Hodgson, M. G. ،

S., El^{re}, art. Hasan - i Sabbāh III, pp. 260 - 261 وانظر الفامش رقم ٦٤ .

^{٦٢} عطاء الملك الجويني : تاريخ جهانكشاي (في كتاب محمد السعيد جمال الدين : دولة الإسماعيلية

في إيران) ١٨٦ .

^{٦٣} ابن ميسر : أخبار مصر ٤٧ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ٣٣٣ ، المقفى ٣٥٢ ظ .

مصر والتي امتدت نحو أربع سنوات . ولاشك أن الوزير القوي بدر الجمال قد وجد في شخص ابن صَبَّاح خطرًا على كيانه فحال بينه وبين لقاء الخليفة ، بل زَجَّ به في السجن ونفاه إلى بلاد المغرب لولا أن الرياح أَلْقَتْ بالسفينة التي أُلْقَتْه على سواحل الشام فقرر منها عائداً إلى بلاد فارس .

ولاشك أن إقامة الحسن بن صَبَّاح في مصر ، رغم عدم لقائه بالإمام ، قد أتاحت له التعرف على أحوال الدولة الفاطمية وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية في ظل نفوذ وسيطرة أمير الجيوش بدر الجمال . وقد تكفل ابن صَبَّاح بإقامة الدعوة للمستنصر في خراسان وبلاد العجم ، وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلي صيرف يخضع كل رجاله لرئيسهم الروحي ويعملون جميعاً على نشر المذهب الإسماعيلي ، الذي عرف بعد وفاة المستنصر بـ « الإسماعيلية الجديدة »^{٦٤} .

المُستَغَلية .

أُخِست السيدة والدة المستغلي بعدم شرعية الطريقة التي اعتلى بها ولدها كرسي الإمامة ، فأرسلت إلى حلفاء الدعوة في اليمن وعلى رأسهم السيلى الحرة

^{٦٤} عن الفرقة الإسماعيلية الجديدة أو النزارية تاريخها وعقائدها راجع المصادر المذكورة في الهامش رقم ٦١ وأضيف إليها ، طه أحمد شرف : دولة النزارية أجداد أغاخان كما أسسها الحسن بن صَبَّاح (القاهرة ١٩٥٠) ، السيد محمد العزاوى : فرقة النزارية - تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية (القاهرة ١٩٧٠) ، محمد السعيد جمال الدين : دولة الإسماعيلية في إيران (القاهرة ١٩٧٥) ، Hodgson, M. G. S., The Order of Assassins, the Struggle of the Early Nizari Isma'ilis against the Islamic World, La Haye 1955 - New York 1980; id., "The Isma'ili state" in The Cambridge History of Iran, III, pp. 275 - 76; Lewis, B., The Assassins a Radical Sect in Islam, London 1964; نقله إلى العربية سهيل زكار بعنوان « الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) » ، بيروت - دار الفكر ١٩٧١ ، ومحمد العزب موسى بعنوان « الحشاشون - فرقة ثورية في تاريخ الإسلام » ، القاهرة - مكتبة مدبولي ١٩٨٦ ، Daftary, F., The Ima'ilis their History and Doctrines, Cambridge 1990, ، pp. 324 - 434 .

الصُّلَيْحِيَّة سِجِلًا تُبَرَّر فيه وصول ولدها إلى منصب الإمامة ، وبأن والده قد نَصَّ عليه حين نُقِلته ^{٦٥} ، وكذلك فعل المستعلي الشيء نفسه فأرسل سِجِلًا مماثلاً إلى السيدة الحرة ^{٦٦} .

ويبدو أن الأمر ظل محل مناقشات بين أتباع الدعوة مما دعا ولده وخليفته الأمر بأحكام الله أن يعقد مجلساً في القصر عام ١١٢٤/٥١٨ شهدت فيه أخت نزار « بأن أخاها لم تكن له إمامة وأنها بريئة من إمامته جاحدة لها لاعتة لمن يعتقدها » ^{٦٧} وأن أباه المستنصر نَصَّ على أخيها المستعلي بالإمامة ^{٦٨} . فلما أتمت شهادتها أمر الوزير المأمون ابن البطائحي بكتابة سجل يقرأ على منابر مصر بهذا المعنى ، أنشأه ابن الصيرفي كاتب الإنشاء ^{٦٩} ، وهو السُّجِّل المعروف بـ « الهداية الآمرية في إبطال الدعوة النزارية » ^{٧٠} الذي جاء فيه أنه لا سبيل إلى إثبات الإمامة إلا بالنص والاختيار حتى ولو تم في وقت نُقِلَ الإمام ^{٧١} .

^{٦٥} السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٣٥ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار (غ . همداني)

٧ : ٧٩ ظ - ٨٣ ظ .

^{٦٦} نفسه ، سجل رقم ٤٣ .

^{٦٧} الهداية الآمرية ٢١٧ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٠ ، المقرئ : اتعاض ٣ : ٨٦ .

^{٦٨} ابن ميسر : أخبار ٩٩ - ١٠٠ ، المقرئ : اتعاض ٣ : ٨٤ ، ٨٦ - ٨٧ .

^{٦٩} نفسه ١٠١ .

^{٧٠} نشر هذا السجل آصف على أصغر فيظي سنة ١٩٣٨ - *al - Hidayatu'l - Amiriyya, an Epistle of the Tenth Fatimid caliph al - Amir bi Ahkamillah* in Islamic Research Association Series n. 7, Oxford 1938; وعلق عليه لويس وشيترن انظر ، Lewis, B., BSOS X (1940 - 42), p. 256; Stern, S., "The Epistle of the Fatimid Caliph al - Amir (al - Hidayat al - Amiriyya) its date and purpose", JRAS (1950), pp, 20 - 31 ، ثم أعاد نشرها جمال الدين الشيال في مجموعة الوثائق الفاطمية

٢٠٥ - ٢٣٠ .

^{٧١} نص السجل : « ثم إن الإمامة صيرت إليه بنص صحيح ثابت من إمام حق لا خلاف بين أهل الدعوة في إمامته ، وذلك النص واقع منه في دقيقة نقلته بمحضر من خاصته وأولاده وجميع جلته » . (الهداية ٢٢٨) .

العباسيون يعاودون مهاجمة الفاطميين

وفي الوقت الذي انشقت فيه الدعوة الإسماعيلية وانقسمت على نفسها ، وفقدت جناحها الشرقى فى فارس ، وانشغل فيه أئمتها بتبرير شرعية خلافتهم للإمام المستنصر ، كان العباسيون يستعيدون قوتهم بفضل دعم الأتراك السلاجقة وتأييدهم لهم ، فأخذوا يهاجمون الفاطميين من جديد فى بلاد الشام وعن طريق التشكيك فى نسبهم ، فكُتِبَ « مَحْضَرٌ » جديد فى بغداد سنة ١٠٩٥/٤٨٨ لم يكتفوا فيه هذه المرة بالقذح فى نسبهم ، بل أخرجوهم كلية من الملة الإسلامية^{٧٢}.

بداية الغزو الصليبي

أدّى تقدّم السلاجقة فى بلاد الشام إلى قطع دعوة الفاطميين من أغلب مدنه^{٧٣} ، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه مقدمات الحروب الصليبية باستيلاء الفرينج على بيت المقدس وبقية مدن الشام الساحلية سنة ١٠٩٩/٤٩٢^{٧٤}. ولم يُترك الوزير الأفضل ، وهو صاحب الأمر فى مصر ، الأخطار المحدقة بمصر والأراضى الإسلامية ، ولا حقيقة أهداف الغزو الصليبي^{٧٥} ، حتى أنه ظن أن باستطاعته التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة ، كما سبق وظن الوزير اليازورى أن بإمكانه التحالف مع البيزنطيين ضد العباسيين والسلاجقة معاً .

^{٧٢} ابن ميسر : أخبار ٦٣ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٧ .

^{٧٣} ابن ميسر : أخبار ٦٩ ، التويرى : نهاية ٢٦ : ٨١ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٦ - ٣٥٧ ، اتعاظ ٣ : ٢٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٤٥ ، ١٥٣ .

^{٧٤} نفسه ، ابن خلكان : وفيات ١ : ١٧٩ ،

^{٧٥} ابن ظافر : أخبار ٨٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٨ - ١٧٩ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٢٧ ، وراجع مقال سعيد عبد الفتاح عاشور : « شخصية النولة الفاطمية فى الحروب الصليبية » ، المجلة التاريخية المصرية ١٦ (١٩٦٩) ١٥ - ٦٦ .

الآمر بأحكام الله يتولى الخلافة

عندما توفي الخليفة المستعلي سنة ٤٩٥/١١٠١ أقام الوزير الأفضل ابنه أبا على المنصور موضعه في الخلافة ولقّب به « الأمر بأحكام الله » وهو لم يتجاوز الخمس سنوات، فحَجَّر عليه واستقل بتدبير أمور الدولة كما كان في خلافة المستعلي^{٧٦}.

وقد أظهر ابن ميسر فهمًا دقيقًا لخلافة الأمر (٤٩٥ - ١١٠١/٥٢٤ - ١١٣٠) عندما قسّمها إلى فترات ثلاث : فترة حَجَّر عليه فيها الوزير الأفضل (٤٩٥ - ٥١٥) ، وفترة شاركه فيها الوزير المأمون ابن البطائحي (٥١٥ - ٥١٩) ، ثم الفترة التي استبد فيها الأمر بالأمر ولم يستوزر فيها أحدًا وحتى وفاته في سنة ١١٣٠/٥٢٤^{٧٧}.

الأفضل ينقل مقر الحكم إلى القسطنطينية

ففي العشرين عامًا التي أعقبت وفاة المستعلي كانت السلطة الفعلية في مصر في يد الوزير القوي الأفضل بن بدر الجمالي ، فهو الوزير وقائد الجيش والمشرف على شئون القضاء والدعوة ، والخليفة طفل لا حول له ولا قوة معه . وفي هذه المرحلة أقدم الأفضل على خطوة جريئة ليس لها سابقة في تاريخ الدولة الفاطمية . فلأول مرة يُنقل مقر الحكم ، مؤقتًا ، من القاهرة ، إذ بنى الأفضل لنفسه دارًا على النيل جنوب القسطنطينية سماها « دار الملك » انتقل

^{٧٦} ابن ميسر : أخبار ٧٠ ، ابن ظافر : أخبار ٨٧ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٨ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٨ ، الصفدي : الوافي ١٦ : ٩٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧ ، Stern, S., El², art, al - Amir bi Ahkam Allah I, p. 1372 وانظر نص سجل توليه الأمر عند ابن ميسر : أخبار ٧٠ - ٧٤ .

^{٧٧} ابن ميسر : أخبار ١١١ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٢٩ ، ١٣٢ .

إليها من دار الوزارة بالقاهرة في سنة ١١٠٦/٥٠١^{٧٨} ونقل دواوين الدولة من القصر الفاطمي إلى موضع أعدّه لها قبالة دار الملك ، وجعل ديوانى الإنشاء والمكاتبات بجوار القاعة الكبرى بدار الملك ، التى اتخذها لمجلسه وسمّاها « مجلس العطايا »^{٧٩}. فجرد الخليفة نهائياً من كل سلطاته ، وحتى الأعمال الشرفية التى كان يضطلع بها الخليفة سلبها منه . فأنشأ بالفسطاط داراً لعمل الفطرة التى تُوزّع في عيد الفطر ، ظلّت الفطرة تعمل بها مدة^{٨٠} ، ونقل عمل الأسبطة التى كانت تُمدّ في الأعياد والمواسم من القصر الخلفى إلى دار الملك^{٨١} وحرّم على الإمام الركوب في المواسم والأعياد ، وصار يتصرّف في الدولة كالمملوك والساطين .



وفي عام ١١٠٨/٥٠١ قرّب الأفضل أحد الأستاذين يعرف بمحمد بن فائك البطّائحي وسلّم إليه جميع أموره واعتمد عليه في تصريف أحواله ونعته به « القائد » ، وصار منه مكان الوزير من الخليفة^{٨٢} وذلك بعد أن استبعد كاتبه المعروف بتاج المعالي مختار في هذه السنة^{٨٣}.

وكثر في عهد الأفضل استخدام الموظفين النصارى فعندما جدّد في عام ١١٠٨/٥٠١ ديوان التحقيق استخدم فيه الشيخ أبا البركات يوحنا بن أبى الليث النصّراني وبقي فيه حتى قتل سنة ١١٣٤/٥٢٨^{٨٤}. كما كان الشيخ أبو

^{٧٨} نفسه ٧٦ - ٧٧ ، نفسه ٣ : ٣٧ ، ٤٠ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨١ ، المقرئى : الخطط ١ :

٤٨٣ - ٤٨٤ ، ٢ : ٢٩١ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٩٢ .

^{٧٩} ابن المأمون : أخبار ١٠١ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٩٧ ، ٤٢٦ ، ٤٨٣ ، ٢ : ٢٩١ .

^{٨٠} المقرئى : الخطط ١ : ٤٢٦ .

^{٨١} ابن المأمون : أخبار ١٥ ، المقرئى : الخطط ٤٣١ ، ٢ : ٢٩١ ، الاتعاظ ٣ : ١٣٢ .

^{٨٢} نفسه ١٧ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٦٨ ، الخطط ١ : ٤٢٦ ، المقفى (غ . لين) ٢٠٧ و .

^{٨٣} المقرئى : خطط ١ : ٤٦٢ ، الاتعاظ ٣ : ٣٨ ، المقفى (غ . لين) ٢ : ٢٠٦ و .

^{٨٤} ابن ميسر : أخبار ٧٧ ، ١٠٨ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٩ ، ٤٣ ، ٧٥ ، ١٢٦ ، ١٤٨ .

الفضل المعروف بابن الأسقف « كاتب الأفضل والموقع عنه في الأموال والرجال ومتولى ديوان المجلس والنظر في جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة »^{٨٥}. كذلك فقد كان متولى الديوان بأسفل الأرض نصراني يعرف بأبى اليمن وزير بن عبد المسيح^{٨٦}. وقد أحاط الأفضل نفسه كذلك بجنود من الأرمن ، وشجع على هجرتهم ، التى بدأت منذ مقدم والده في أيام المستنصر ، لهذا الغرض^{٨٧}.

أثارت تصرفات الأفضل التى احتاط فيها على الخليفة وعدم معارضته أهل السنة في اعتقادهم ، وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها ، أثارت كل هذه التصرفات مشاعر الإسماعيلية النزارية^{٨٨}. وقد كثر الخوف والاحتياط منهم في هذه الفترة حتى أن الأفضل أمر بسد باب مراد - أحد أبواب القصر الغربى - الذى يتوصل منه إلى البستان الكافورى ومنظرة اللؤلؤة ووضع عليه الحراس لحفظه ولم يكن يُفتح إلا في يوم كسر الخليج فقط^{٨٩}. كما أبطل كذلك في عام ١١١٩/٥١٣ « دار العلم » خوفاً من اجتماع الناس بها ومعارضتهم مذهب الدولة^{٩٠}.

مَقْتَلُ الْأَفْضَلِ

لم تمنع الاحتياطات التى اتَّخَذَهَا الْأَفْضَلُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ النَّزَارِيَّةُ مِنَ التَّسَلُّلِ إِلَى مِصْرَ ، فَتَرَبَّصَتْ لَهُ مَجْمُوعَةٌ مِنْهُمْ أَثْنَاءَ عَوْدَتِهِ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى دَارِ الْمَلِكِ

^{٨٥} ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٣ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٩ .

^{٨٦} نفسه ٣/٢ : ٢٤٨ ، أبو صالح : تاريخ ٨٥ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٢٧ .

^{٨٧} : Canard, M., "Un vizir chrétien à l'époque fatimite : L'Arménien Bahram",

AIEO XII (1954), p. 93

^{٨٨} ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٥٩٠ .

^{٨٩} المقرئى : الخطط ١ : ٤٦٨ .

^{٩٠} ابن المأبون : أخبار ٤٦ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٦٠ .

بالفسطاط وقتلوه عند رأس الجسر ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥/ يناير ١١٢٢^{٩١}. ومع ذلك فإن أصابع الاتهام تشير إلى أن الخليفة الأمر دبر قتل وزيره الأفضل بالاتفاق مع القائد محمد بن فاتك البطائحي « لتضييقه عليه ومنعه مما تميل نفسه إليه ومنافرتة إياه في بعض الأوقات » . ويضيف ابن القلانسي ، الذى أورد هذا الخبر ، أن الأمر سر بمقتل الأفضل سروراً غير مستور عن كافة الخاص بمصر والقاهرة^{٩٢}.

ولاشك أن الأفضل يتحمل وحده وزر سقوط مدن الشام الساحلية التى كانت للفاطميين فى أيدي الفرنج ، فقد اتصف موقفه تجاه ما كان يحدث باللامبالاة المتناهية وأدى هذا التهاون إلى استيلاء الفرنج على عكا سنة ١١١٧/٤٩٧ وطرابلس وجبل وعرة وبانياس سنة ١١٠٨/٥٠٢ - ١١٠٩ ، وبيروت سنة ١١٠٩/٥٠٣ - ١١١٠ ، وصيدا سنة ١١١٠/٥٠٤ ، وتبين سنة ١١١٧/٥١١ وأخيراً صور سنة ١١٢٤/٥١٨^{٩٣}، بل بلغ الأمر إلى أن وصل بلدوين ملك بيت المقدس على رأس حملة على الأراضى المصرية حتى

^{٩١} عن مقتل الأفضل راجع ، ابن المأمون : أخبار ١٥ - ٢٠ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ البطركية ١/٣ : ٢٢ - ٢٣ ، عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١١٨ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٥٨٩ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ١٠٤ - ١٠٥ ، ابن ميسر : أخبار ٧٩ - ٨٧ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٨٢ - ٨٣ ، ابن أبيك : كثر الدرر ٦ : ٤٨٥ - ٤٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ ٣ : ٥٠ - ٥٤ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٩ - ٢٧٠ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٦٠ - ٦٩ ، وانظر كذلك . Wiet, G., El², art. al - Afdal b. Badr al - Djamali I, pp. 221 - 222.

^{٩٢} ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٠٤ .

^{٩٣} ابن ظافر : أخبار ٨٦ ، ابن ميسر : أخبار ١١١ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٢٩ - ١٣٠ ، الخطط ٢ : ٢٩١ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٠ .

القرما واضطر الأفضل إلى مهادنته لعجزه عن مواجهة قواته^{٩٤}، كما هدّدت
مراكب الروم والبنادقة تغز الإسكندرية سنة ١١٢٥/٥١٧^{٩٥}.

وعقد مقارنة بين منشآت الأفضل ومنشآت أبيه في القاهرة توضّح لنا مدى
التباين بينهما . فبينما حرص بدر الجمالي على تحصين القاهرة بإعادة بناء أسوارها
وأبوابها على سبيل المثال ، انحصرت منشآت الأفضل فيما يكفل له وسائل
الامتناع والتسلية ، حيث استكثر من إنشاء « المناظر » سواء في الفسطاط أو في
ضواحي القاهرة .

تركة الأفضل

يدل حجم التركة التي خلفها الأفضل ، والتي أمضى الخليفة الأمر في
حصرها ونقلها « مدة شهرين وأياماً » ، على مدى الثراء الذي كان يتمتع به
هذا الوزير القوي الذي كان في واقع الأمر هو الحاكم الحقيقي للبلاد . وقد
وصف لنا كل من ابن ميسر والأبشهي وابن خلّكان تفصيل ما وجد في دار
الأفضل من ذخائر وتحف وأمتعة . فيروي ابن ميسر ، عن متولى الخزانة
بالقصر ، أنه وجد بها « ستة آلاف وأربعمائة ألف دينار ، وورق قيمته مائتا
ألف وعشرون ألف دينار ، وسبعمائة طبق فضة وذهب وما لا يحصى كثرة من
الأسطال والصحاف والمشارب والأباريق والقلور والرّبادي ، والقطّع من
الذهب والفضة المختلفة الأحباس ، وكذلك شيء كثير من براني الصيني الكبار
المملوءة بالجواهر التي بعضها منظوم كالسّبح وبعضها منشور .

ووجد له من أصناف الديباج وما يجري مجراه من قناني وغيره تسعون ألف
ثوب ، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديبقى وشرب عَمِل يَتَّيس

^{٩٤} النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٨٥ ، المقرئزي : اتعاظ ٣ : ٥٤ ، ٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ :
١٧١ .

^{٩٥} ابن ميسر : أخبار ٩٣ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٨٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦١٦ ،
المقرئزي : اتعاظ ٣ : ٩٨ .

وديمياط على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه . وخزانة للطيب مملوءة
بالأسفاط من العود وغيره مكتوب عليها أوزانها وأجناسها ، بالإضافة إلى براني
المِسْك وبراني الكافور ، وما لا يحصى من العتبر .

ووجد له من المقاطع والستور والفرش والمطارح والمخاد والمساند الديباج
والديقي الحرير والمذهب على اختلاف أجناسها أربع حُجَر كل حجرة مملوءة
من هذا الجنس ، وكذلك خزانة بها عدة صناديق تحوى أحقاق ذهب عراقى
برسم الاستعمال .

وكان له مجلسٌ يجلس فيه للشرب فيه صور ثمان جوارى متقابلات أربع
منهن بيض من كافور ، وأربع من عتبر قيام فى المجلس عليهن أفخر الثياب وأتمن
الحلى وبأيديهن أحسن الجواهر ، فإذا دخل من باب المجلس ووطىء العتبة
نكس رؤسهن خدمة له ، فإذا جلس فى صدر المجلس استوين قائمات^{٩٦} .

وتدلنا هذه الذخاير على أن خزائن القصور الفاطمية عاد إليها قسط وافر من
عمارها الذى كان قبل الشدة العظمى وما أخرج من القصر من ذخائر بين
سنتى ١٠٦٧/٤٥٩ و ١٠٦٩/٤٦١ وهى الذخائر التى أتى على ذكرها
صاحب كتاب « الذخائر والتحف »^{٩٧} .

^{٩٦} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨ - ٩ ، ابن ميسر : أخبار ٩٣ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٨٦ ،
ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦١٦ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٩٨ وقارن ، ابن ظافر : أخبار الدولة
المنقطعة ٩١ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٥١ ، الألبشيبى : المستطرف فى كل من مستطرف ،
بيروت - دار مكتبة الحياة ١٩٨٧ ، ٢ : ٣٤ - ٣٥ .

^{٩٧} انظر فيما يلى الفصل الرابع عشر .

الفصل السادس

نهاية الاستقراء

وزارة المأمون البطائحي

كان قتل الوزير الأفضل مصدر ارتياح للخليفة الأمر ، وكان من الطبيعي أن يخلف ابن فاتك الوزير الأفضل في منصبه . وقد امتنع ابن فاتك عن قبول هذه الرتبة في أول الأمر حيث عُيِّن واسطة^١ ، ثم تولَّى الوزارة كاملة في ثاني ذي الحجة سنة ١٢/٥١٥ فبراير سنة ١١١٢^٢ . وقد حفظ الخليفة الأمر للقائد أبي عبد الله محمد بن فاتك حرصه على استدعائه له في أعقاب مقتل الأفضل ، لتسلم تركته الضخمة التي استمر نقلها من دور الأفضل إلى القصر نحو أربعين يوماً . وكان ذلك سبب تلقيب القائد أبي عبد الله بـ « المأمون » ، فبعد أن شكره الأمر على صنيعه قال له : « والله إنك المأمون حقاً مالك في هذا النعت شريك » ، فلما قلَّده الوزارة نعته بـ « الأجل المأمون » فعرف به^٣ . وفي سجل توليته الوزارة جاء نعته « الأجل المأمون تاج الخلافة وجيه الملك فخر الصنائع ذخِر أمير المؤمنين » ثم تجدد له بعد ذلك في النعوت « الأجل المأمون تاج الخلافة عز الإسلام فخر الأنام نظام الدين والدعاة » ، ثم نُعت بما كان يُنعت به الأفضل وهو « السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين »^٤ .

^١ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ١ : ١٦٦ ط ، ابن ظافر : أخبار ٨٨ .

^٢ ابن ميسر : أخبار ٨٧ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ٧٦ ، الخطط ١ : ٤٤٢ ، المقفى (غ . لين) ٢ : ٢٠٧ و .

^٣ المقرئ : المقفى ٢ : ٢١٢ ط ، اتعاظ ٣ : ٦٤ - ٦٥ ، ابن القلانسي : ذيل ٢٠٤ .

^٤ ابن ميسر : أخبار ٨٨ ، ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٤٨٨ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٤٢ ،

٤٦٣ ، اتعاظ ٣ : ٧٦ ، المقفى ٢ : ٢٠٦ و ، Wiel, G. RCEA VIII p. 148 n. 3021

وقد قرئ سَجَلٌ تولية المأمون على « باب مجلس اللُعبة » وهو ، كما يقول ابن المأمون : **أَوَّلُ سَجَلٍ يُقْرَأُ هُنَاكَ** ، فقد كانت سَجَلَاتُ الوزراء قبل ذلك تُقرأ بالإيوان^٥ ، وأمر الخليفة كذلك بكتابة سَجَلٍ آخر بنقل نِسْبَةِ الأمراء والأستاذين المُحتَكِّين من الآمرى إلى المأمونى تمييزاً له ، فلم يكن أحدٌ منهم يُنسَب قبل ذلك إلى الأفضل أو إلى أيه بدر الجمالى ، وإنما كانوا يُنسَبون إلى الخليفة^٦.

ولاشك أن الحديث الذى دار فى أثناء مُخلوَّة المأمون بالخليفة الأمر فى أعقاب انقضاء مراسم تقليده الوزارة يوضح لنا إلى أى مدى أحسَّ المأمون بحاجة الخليفة إليه . وقد أُملى المأمون خلال هذا اللقاء شروطاً مهينة على الخليفة التزم بها كتابة وأقسم له بأن « لا يلتفت لحاسد ولا مبغض ، ومهما ذُكر عنه يُطلعه عليه ، ولا يأمر فى شيء سيراً ولا جهراً يكون فيه ذهاب نفسه وانحطاط قدره » . واشترط المأمون أن تكون هذه الأيمان باقية إلى وقت وفاته ، فإذا توفى تكون لأولاده ولمن يخلفه بعده .

وقد حرَّر الخليفة سَخَطَهُ بالأيمان من نسختين ، واحدة فى قصبة فضة أنفذ الخليفة فى طلبها عند القبض على المأمون فى سنة ١١٢٥/٥١٩ وأحرقها ؛ أما النسخة الأخرى فقد بقيت عند ابن المأمون (جمال الدين أبو على موسى المؤرخ) ، الذى ذكر لنا تفاصيل هذه المحادثة ، إلى أن عُدمت « فى الحركات التى جَرَتْ »^٧.

^٥ ابن المأمون : أخبار ٢١ ، المقرئى : المقفى ٢ : ٢٠٥ ظ ، الخطوط ١ : ٤٤١ ، الانتعاض ٣ : ٧٥ .

^٦ نفسه ٢١ ، نفسه ٢ : ٢٠٦ ظ ، نفسه ١ : ٤٤١ .

^٧ نفسه ٢٢ - ٢٣ ، نفسه ٢ : ٢٠٧ و ، نفسه ١ : ٤٤٠ ، الانتعاض ٣ : ٧٥ - ٧٦ . وعن شخصية المأمون البطائحى راجع ، ابن المأمون : أخبار ٣ هـ^٢ م ، ٢٦ - ٨٠ ،

Dunlop, D. M., EI², art. al - Batā'hi I, p. 1124

وفي مقابل هذه الاشتراطات طلب الخليفة الأمر إلى وزيره استعادة عَظْمَةِ الأعياد والاحتفالات الرسمية ، وأن « لا تُجْبَى الأموال إلَّا بالقصر ، ولا تصل الكسوات من الطراز والثغور إلَّا إليه ، ولا تُفَرَّق إلَّا منه ، وتكون أَسْمِطَةُ الأعياد فيه ، وَيُوسَّع في رواتب القصور من كل صنف ، وزيادة رَسْم منديل الكم »^٨ . فتعهد له المأمون بأن تكون الجباية والكسوات والأَسْمِطَةُ بالقصر ، وبالعَمَل على تَوْسِيعَ الرواتب وزيادة رسم منديل الكم من ثلاثين دينارًا إلى مائة دينار في اليوم . وأن الأمر سيشاهد ما يُعْمَل بعد ذلك في الركوبات وأَسْمِطَةُ الأعياد وغيرها في سائر الأيام^٩ . وهى الرسوم التى كان قد منعها الوزير الأفضل وقلَّص فيها دور الخليفة^{١٠} .

إنجازات المأمون البطائحي

لعل أهم إنجازات المأمون البطائحي فى القاهرة هى إنشائه فى سنة ١١٢٢/٥١٦ دار وكالة ودارًا للضرب . فقد أنشأ فى هذه السنة « دار وكالة » لمن يصل من العراقيين والشاميين وغيرهما من التجار ولم يُسَبَق إلى ذلك^{١١} . ويدل إنشاء هذه الدار على أن القاهرة بدأت منذ مطلع القرن السادس فى مشاركة الفسطاط فى نشاطها الاقتصادى والتجارى .

أما « دَار الضَّرْب » التى عرفت باسم « الدار الأمرية » نسبة إلى الخليفة الأمر ، فتعد أول دار للضرب تنشأ بالقاهرة . وقد ذكر ابن المأمون أن المأمون

^٨ منديل الكم . هذا المصطلح لم يرد سوى عند ابن المأمون وابن الطوير وربما قصد به ما يطلق عليه اليوم « مصروف الجيب » والذي كان يمنح لبعض الأفراد ذوى المكاتب وكان يوضع فى منديل فى كم الخلعة !

^٩ ابن المأمون : أخبار ٢٢ - ٢٣ ، المقفى ٢ : ٢٠٧ و ، الخطط ١ : ٤٤١ ، الاتعاظ ٣ : ٧٦ - ٧٧ .

^{١٠} المقرئى : الاتعاظ ٣ : ٨٣ س ٥ - ٦ .

^{١١} ابن المأمون : أخبار ٣٩ ، ابن ميسر : أخبار ٩٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٥١ ، اتعاظ ٣ : ٩٢ .

البطائحي بناها في القاهرة « لكونها مقر الخلافة وموطن الإمامة .. وصار دينارها أعلى عياراً من جميع ما يضرب بجميع الأمصار »^{١٢}. وقد أنشأ المأمون البطائحي دار ضرب أخرى في نفس العام في قوص عاصمة الوجه القبلي^{١٣}. وبذلك أصبحت دور الضرب التي استمرت في العمل في نهاية العصر الفاطمي هي دور ضرب القاهرة والقسطاط وقوص والإسكندرية ، وصور وعسقلان (إلى أن خرجتا من أيدي الفاطميين)^{١٤}.

تجديد الاحتفالات والرسوم

وتُعَدُّ فترة خلافة الأمر ووزارة المأمون البطائحي (٥١٥ - ٥١٩ / ١١٢٢ - ١١٢٥) من أزهى فترات التاريخ الفاطمي في مصر ، فقد كان الأمر مفتوناً بعظمة الاحتفالات وفخامتها ، ويرجع إليه الفضل ، كما يقول المقرئى ، « في تجديد رسوم الدولة وإعادة بهجتها إليها »^{١٥}. فقد أخذت رسوم الفاطميين شكلها النهائي على يد هذا الخليفة الذى أعاد وطَّور الكثير من الاحتفالات الفاطمية التي انقطعت بسبب ما تعرَّضت له البلاد في أعقاب الشَّلَّة ، وفي أعقاب تَسَلُّط الوزير الأفضل على الدولة . والواقع فإن أكثر مانعرفه عن رسوم الدولة الفاطمية في مصر وتفاصيل الاحتفالات الموكبية والأسمطة وأنواع الخلع والكُسوات التي كانت هذه الاحتفالات مناسبة لتفريقها على رجال الدولة ، والذي أمدنا به مؤرِّخون من أمثال ابن المأمون وابن الطَّوَّير ، ندين به إلى هذه الفترة^{١٦}.

وإذا كان الفاطميون قد عرفوا هذه الرسوم في أوَّل دولتهم ، فقد وُضِعَتْ لها في عهد الأمر قواعد صارمة للبروتوكول حيث تقرر أن يجلس الخليفة

^{١٢} نفسه ٣٨ ، نفسه ٩٢ ، نفسه ١ : ٤٤٥ ، نفسه ٣ : ٩٢ .

^{١٣} المقرئى : اتعاض ٣ : ٩٢ .

^{١٤} القلقشندي : صبح ٣ : ٣٦٥ ، المقرئى : اتعاض ٣ : ٩٤ .

^{١٥} المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩١ .

^{١٦} انظر فيما يلى الفصل الثانى عشر .

الجلوس العام في قاعة الذهب يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع^{١٧} ، بعدما كان يتم في أول عصر الدولة كيفما اتفق^{١٨} . ورُتب لركوب الخليفة ثلاثة أيام من كل أسبوع هي أيام الثلاثاء والجمعة والسبت ، فإذا لم يتهيأ له الركوب في أحد هذه الأيام ركب في يوم غيره . وكان الوزير يركب في يومى السبت والثلاثاء بالرَّهْجِيَّة إلى القصر ليصطحب الخليفة للنزهة في بستان البعل والتاج والخمسة وجوه وقبة الهواء وغيرها من مناظر ، بينما كان يجلس في داره على سبيل الراحة يومى الأحد والأربعاء^{١٩} .

كذلك كان الخليفة الأمر يتحول من قصره في أيام النيل بحرمه ويسكن في منظره اللؤلؤة على شاطئ الخليج^{٢٠} ، كما كان وزيره يسكن بدار الذهب المجاورة للؤلؤة على شاطئ الخليج أيضاً^{٢١} . حتى « صار الناس في مُدَّة أيامه التي استبد فيها ، في هوى وعيش رغد لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذيه »^{٢٢} .

إعادة تعمير العاصمة

وأراد الخليفة الأمر أن يعيد إلى العاصمة سابق ازدهارها ، فبعد الإصلاحات والتحسينات التي قام بها بلر الجمالى بين سنتى ١٠٨٧/٤٨٠ و ١٠٩٢/٤٨٥ ، أمر الأمر وزيره المأمون أن يدعو الناس إلى تعمير موضع الخراب الذى تخلف عن الشدة العظمى ، والممتد جنوباً بين باب رُوَيْلَّة

^{١٧} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٥ ، أبو صالح الأرمنى ٢ : ٤ ، ابن الفرات : تاريخ ٣ : ٧٨ ظ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٨٦ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٩٤ .

^{١٨} المسبحى : أخبار ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٩ .

^{١٩} ابن المأمون : أخبار ٩٦ - ٩٨ ، ابن ميسر : أخبار ١١١ ، المقرئى : المقفى ٢ : ٢٠٩ ظ ، ٢١٠ و ، الاتعاظ ٣ : ٧٨ ، ١٢٩ ، الخطط ١ : ٤٨١ ، ٢ : ٢٩١ وكذلك ساويرس بن

المقفع : تاريخ ١/٣ : ٢٤ .

^{٢٠} ابن المأمون : أخبار ٥٦ ، ٧١ ، ٩٨ ، ١٠٠ .

^{٢١} نفسه .

^{٢٢} المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٢٩ وقارن ابن ميسر : أخبار ١١١ .

والمشهد النفيسي ، ليعيد إلى القاهرة سابق رونقها وتألّفها^{٢٣} . وأنشأ داخل القاهرة مقابل ركن القصر الشمالى ، المعروف بالركن المخلّق ، « الجامع الأقمر » الذى افتُتح للصلاة فى سنة ١١٢٥/٥١٩^{٢٤} ، وهو أول جامع يبنى داخل القاهرة منذ بنى الخليفة الحاكم بأمر الله « الجامع الأنور » ، قبل أكثر من مائة عام ، فى طرف المدينة الشمالى .

المأمون يواجه مؤامرات النزارية

لم يرض الإسماعيليون النزاريون أن يتركوا الخلافة الفاطمية تنعم باستتباب قدر من الأمن بعد فشلها فى تحقيق أهدافها ، وتوالى الفتن والأزمات الاقتصادية عليها . فبعد نجاح النزارية فى اغتيال الأفضل بن بدر الجمالى^{٢٥} ، امتدت آمالهم إلى قتل الخليفة الأمر ووزير المأمون بن البطائحي معاً^{٢٦} . فأرسلوا عددًا من رسلهم إلى أصحابهم المقيمين بمصر ومعهم أموال لتفرقتها عليهم للإعداد لتنفيذ مخططهم . وقد تنبّه الوزير المأمون بن البطائحي إلى ذلك وفرض على البلاد نظامًا أمنيًا صارمًا بدأه بتولية والٍ جديد على عسقلان - أول مدينة تقابل القادم إلى مصر من الشام - وطلب إليه أن لا يبقّى فى الخدمة إلّا من هو معروف من أهل البلاد ، وأن يتعرّف على أحوال الواصلين من تجار وغيرهم ، وأن لا يثق بما يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم ، ولا يُمكن أحدًا من الدخول إلى البلد إلّا إن كان معروفًا متردّدًا عليها ، ووَضَعَ نقاط مراقبة على مراكز الطريق المؤدى من عسقلان إلى

^{٢٣} المقرئى : الخطط ١ : ٣٠٥ ، ٢ : ٢٠ ، ١٠٠ ، ٢٦٥ . وانظر فيما يلى الفصل الحادى عشر .

^{٢٤} ابن ميسر : أخبار ٩١ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩٠ ، اتعاظ ٣ : ٧٧ ، أبو المحاسن : النجوم

٥ : ١٧٣ ، ٢٢٩ ، Fu'ad Sayyid, A., La capitale de l'Egypte p. 350

^{٢٥} تبعًا لرواية ابن ميسر .

^{٢٦} نفسه ٩٧ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٠٨ .

القاهرة . فكان الكتاب يسبقون القوافل ومعهم قوائم بأسماء التجار وغلمانهم وأسماء الحمالين وأنواع البضائع ليقابل عليها في كل نقطة من نقاط المراقبة حتى لا يتسرب أحد من النزارية إلى داخل البلاد^{٢٧}.

وفي الوقت نفسه أمر المأمون والي القاهرة ومصر أن يسقعا له البلدين شارعًا شارعًا وحارة حارة وزقاقًا زقاقًا وخطًا خطًا ، بأسماء من فيها من السكان وأن لا يُمكننا أحدًا من الانتقال من منزل إلى منزل حتى يستأذناه ويخرج أمره بما يُعتمد في ذلك . فلما أتم ذلك ورفعوا إليه « أوراق التسقيع » ، أرسل المأمون نساء من قبله - من أهل الخبرة والمعرفة - للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية ومطالعة جميع ما يشاهدونه فيها . فكانت أحوال كافة الناس ، على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكني مصر والقاهرة ، تعرض عليه ولا يكاد يخفى عنه منها شيء^{٢٨} . وبذلك امتنع النزارية من الدخول إلى البلاد .

غزل المأمون وقتله .

لم تستمر علاقة الوُد بين المأمون والآخر طويلًا ، إذ بدأ كل منهما يتوحش من الآخر . وقد احتاط المأمون لنفسه بأن ولّى أخاه المؤمن جانبًا عظيمًا من ديار مصر وجعل معه عسكريًا لينجده به إذا غلر به الخليفة . وقيل للآخر إن المأمون « ادعى الخلافة بطريق أنه وَلَد نزار من جارية خرجت من القصر وهي حامل به عندما خرج نزار إلى الإسكندرية » ، وأنه أرسل على بن نجيب الدولة رسولاً من قبله إلى اليمن ليحقق نَسَبه هناك ويدفع الناس إلى بيعته . فانزعج الخليفة لذلك ، وتحايل على استدعائه مع أخيه إلى القصر بحجة إكرامهما بحضور سماء الخليفة الذي يُنصب كل ليلة في رمضان بقاعة الذهب

^{٢٧} ابن ميسر : أخبار ٩١ - ٩٨ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٠٨ ، المقفى ٢ : ٢١١ و .

^{٢٨} ابن ميسر : أخبار ٩٨ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٠٨ .

فلما انفرد بهما الخليفة أمر بالقبض عليهما واعتقلهما في خزانة البنود ، واحتاط على دورهما في سنة ١٩٢٥/٥١٩ وأرسل في استدعاء الرسول الذي أرسل إلى اليمن . وأمر ابن أبي أسامة ، كاتب الإنشاء ، بإنشاء سجل يبرر فيه تصرفه مع المأمون وأخيه ، فلم يتططح فيه عنزان بعد قراءته ، كما يقول ابن الطوير^{٢٩} . وقد ظل المأمون في الاعتقال إلى أن قتل مع أخيه والرسول الذي قيل إنه أرسله إلى اليمن في عام ١١٢٨/٥٢٢^{٣٠} .

الآمر يستقل بالأمر

عندما استقل الأمر بالحكم ، بعد عزل الوزير المأمون بن البطائحي ، لم يتمكن من سياسة الدولة لأنه ظل بعيداً عن الحكم طوال الخمسة والعشرين عاماً السابقة . فاضطر إلى اتخاذ صاحبي ديوان ، لاستخراج ما يجب لله في أموال الناس من زكاة وما هو مرتب من مكوس ، أحدهما مسلم هو أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط والآخر سامري اسمه أبو يعقوب إبراهيم الكاتب ، أقام معهما مستوفيهاتين المعاملتين راهب يعرف بأبي نجاح بن قنا^{٣١} ، كان قد اتصل بالآمر بعد قتل المأمون البطائحي وبذل له في مصادرة قوم من النصاري مائة ألف دينار ، ثم تزايد في أمر المصادرات حتى صادر

^{٢٩} ابن الطوير : نزعة المقلتين ١٥ - ١٦ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ١ : ٢٠٦ ظ - ٢٠٧ و ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١١٢ - ١١٥ المقتنى (غ - السليمية) ٤٢٤ و . وعن ابن نجيب الدولة راجع ، أيمن قواد سيد : تاريخ المذاهب الدينية ١٦٠ - ١٦٤ .

^{٣٠} ابن ميسر : أخبار ١٠٧ ، المقرئ : المقتنى (غ . لندن) ٢ : ٢١٢ ظ ، اتعاظ ٣ : ١٢٢ .

^{٣١} راجع ، أبا صالح : تاريخ ٥٤ وفيه أنه كان متولى الديوان الخاص الأمرى) ، ابن الطوير : نزعة المقلتين ٢٠ - ٢٣ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٢ : ١٥ و - ١٦ ظ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٨٦ - ٨٧ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١١٥ - ١١٦ ، الخطط ٢ : ٢٩١ .

رجالاً من مصر من المسلمين ، وفيهم القضاة والكتاب والشهود . فزاد قربه من الأمر حتى لُقِّبَ بـ « الأب القديس الروحاني النفيس ، أبي الآباء سيّد الرؤساء ، مُقَدِّم دين النصرانية وسيّد البطيركية ، ثالث عشر الحواريين »^{٣٢} ، الأمر الذي زاد في سطوته ، فكثرت إساءته للمسلمين ومصادرته للناس .

وفي سنة ١١٢٩/٥٢٣ عمّ البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة من الرّاهب ، بحيث لم يبق أحدٌ إلّا وناله منه مكروه ، إما من ضَرْب أو نَهْب أو أخذ مال ، وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو ، ويستدعى الناس للمصادرة . وقد طلب يوماً أحد عدول مصر المتميزين ، وكان معظماً عند الناس ، فأهانته وأُخْرِقَ به . فخرج من عنده ووقف بالجامع في يوم جمعة وقال : « يا أهل مصر انظروا عَدْلَ مولانا الأمر في تمكينه هذا النصراني من المسلمين » ، فأرتج الناس لكلامه وكادت تكون فِتْنَةٌ خَوْفُ الأمر من عاقبتها . فأمر مَقْدَاد ، وإلى مصر ، بقتل الراهب بعد مناقشة دارت بينهما حول رأيه في الإسلام فقتل في عام ١١٢٩/٥٢٣ بعد أن ضُرِبَ بالنُّعال وسُمِّرَ على لوح عند كرسى الجِسْرِ وطُرِحَ في النيل حتى خرج إلى البحر المالح^{٣٣} .

وعند الاستيلاء على داره وُجِدَ بها الكثير من الأدوات الثمينة ، وتذكر المصادر أنه وجد له في مقطع ثلاثمائة طَرّاحة سامان محشوة جلدًا لم تستعمل ،

^{٣٢} النابلسي : تجريد سيف الهمة ١٤١ ، المقرئزي : اتعاظ ٣ : ١١٧ .

^{٣٣} راجع تفصيل خبر هذا الراهب وما قام به من مصادرات عند ، النابلسي : تجريد سيف الهمة ١٤١ - ١٤٢ ، ابن ظافر : أخبار ٨٨ - ٨٩ ، ابن الطوير : نزعة المقتلين ٢٠ - ٢٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٧ - ١٠٩ (ومصدر ابن ظافر وابن ميسر واحد هو المرتضى بن المُحَنِّك صاحب « تاريخ خلفاء مصر » ونص عليه ابن ظافر في ص ٨٩) ، ابن خلكان : وفیات ٥ : ٢٩٩ - ٣٠٠ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٨٧ ، ابن القرات : تاريخ - خ ٢ : ١٥ و ١٦ - ظ ، المقرئزي : الخطوط ٢ : ٢٩١ ، اتعاظ ٣ : ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٥ - ١٢٧ ، القلقشندي : صبح ١٣ : ٣٦٩ - ٣٧٠ . وانظر فيما يلي الفصل الثاني عشر .

ومن الغريب أن كتاب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المنسوب لساويرس بن المقفع لم يشر على الإطلاق إلى الفترة التي تولى فيها الراهب السلطة في مصر (٥٢٠ - ١١٢٦/٥٢٣ - ١١٢٩) . وعن ابن المُحَنِّك انظر مقال : دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين في مصر ١٥٠ - ١٥١ .

قد رُصَّت إلى قرب السقف ، يقول ابن خُلُكان : « هذا نوع واحد قليل الاستعمال فكيف ماعده من الدِّياج وأنواع المتاع الفاخر »^{٣٤}.

مَقْتَلُ الْأَمْرِ

هكذا حاول الخليفة الأمر أن يعيد شباب الدولة الفاطمية عن طريق إحياء رسومها واحتفالاتها ، ولكنه أراد بذلك أن يتقرب إلى مجموع الشعب المصرى بمتابعة هذه الاحتفالات والمشاركة فيها . فقد كان الانفصال كبيراً بين النظام الحاكم وبقية أفراد الشعب ، ولم يكن القصد من هذا الإحياء تعبئة المشاعر في سبيل تحقيق هدف الدولة الفاطمية في السيطرة على العالم الإسلامى ، فالواقع أن هذا الهدف قد نُسى تماماً منذ أن تَحَكَّم الوزراء أرباب السيوف في الدولة .

حقيقة أن ابن الطُّوَيْر وابن مَيْسَر ذكرنا لنا أن الأمر كانت تُحَدِّثه نفسه بالسَّفر إلى المشرق والغارة على بغداد وأعد سروجاً خاصة للخيل استعداداً لذلك^{٣٥} ، إلا أننا لا يمكننا أن نثق في هذا الخبر ، فالفاطميون لم يكونوا قادرين على استعادة ممتلكاتهم التى توزعها السَّلاجقة وخلفاؤهم ثم الفِرَنْج في الشام ، فكيف يتأتى لهم منازلة العباسيين والوصول إلى بغداد ؟ كما أن أنصار دعوتهم في مشرق العالم الإسلامى انشَقَّقوا عليهم واتبَعوا دعوة جديدة ، أضف إلى ذلك انغماس الخليفة الأمر في لهوه وملذَّاته^{٣٦} وعشقه للجوارى البلديات اللاتى أقام

^{٣٤} ابن ظافر : أخبار ٨٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٩ ، ابن خلكان : وفیات ٥ : ٣٠٠ ، النورى : نهاية ٢٦ : ٨٧ .

^{٣٥} ابن الطوير : نزهة ١٩ ، ابن ميسر : أخبار ١١٢ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٢ : ١٥ و ، المقرئى : الخطط ١ : ٤١٨ ، ٢ : ٢٩١ ، الاتعاظ ٣ : ١٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٩٦ .

^{٣٦} ابن القلانسی : ذیل ٢٢٨ ، ابن ظافر : أخبار ٩١ ، ابن خلكان : وفیات ٥ : ٣٠٠ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩١ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٣ .

لواحدة منهم بناءً بجزيرة الرُّوضَة يعرف بـ « الهَوْدَج » كان يزورها فيه ^{٢٧} ، كما أن النزاريين كانوا يَتَرَبُّصُون به فكثُر خوفه منهم واتَّخَذَ إجراءات أمنية مشددة إضافة إلى ما رَتَّبَهُ الوزير المأمون بن البطائحي ^{٢٨} . ومع ذلك فقد نجح نفرٌ منهم من الوصول إلى مصر وقتلوا الخليفة الأمر وهو في طريقه إلى الهَوْدَج يوم الثلاثاء ثاني ذى القعدة سنة ٥٢٤/٧ أكتوبر ١١٣٠ ^{٢٩}



كانت السنوات التي أعقبت وفاة الخليفة الأمر وما صاحبها من أحداث تجاهلت أُسُسَ العقيدة الفاطمية ، هي مؤشر التعجيل بسقوط الدولة الفاطمية في مصر الذي تأجَّل نحو القرن بفضل الإصلاحات الإدارية والتنظيمية والدفاعية التي أدخلها نظام بدر الجمالي وخلفائه الأفضَل والمأمون البطائحي .

انقلاب أبي على الأفضَل

فور وفاة الخليفة الأمر مقتولاً في ثاني ذى القعدة سنة ٥٢٤/٧ أكتوبر سنة ١١٣٠ ^{٤٠} ، نشأت لأول مرة في تاريخ الدولة الفاطمية مشكلة البحث عن

^{٢٧} ابن سعيد : النجوم ٨٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٨٥ - ٤٨٦ ، ٢ : ١٨٠ - ١٨٢ .

^{٢٨} المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤ .

^{٢٩} عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٢١ ، ابن القلانسي : ذيل ٢٢٨ ، ابن ظافر : أخبار

٩١ ، ابن الطوير : نزهة ٢٤ - ٢٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٤ ، ابن ميسر : أخبار

١١٠ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ابن القطان : نظم الجمان ١٨٥ - ١٨٧ ،

٢٠٢ - ٢٠٤ ، ابن سعيد : النجوم ٨٤ - ٨٥ ، التويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، المقرئى :

الخطط ٢ : ٢٩١ ، اتعاظ ٣ : ١٢٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤ - ١٨٥ ، ويملنا نص

ابن الطوير وابن القطان بتفاصيل دقيقة عن مؤامرة قتل الأمر .

^{٤٠} انظر الهامش السابق .

وريث للإمامة . فقد مات الخليفة دون وريث ، ولكنه أشار وقت وفاته - تبعاً لبعض المصادر - إلى أنه ترك إحدى جهاته حاملاً^{٤١} ، وكان يجب الانتظار لمعرفة نتيجة هذا الحمل ، وإن كان المولود المنتظر ذكراً أم أنثى . وقد اختلفت المصادر في تحديد نوع المولود ، فالتؤيى وأبو المحاسن ذكراً أن الحامل وضعت أنثى^{٤٢} ، بينما يُقرر ابن خلكان أنه لم يُعرف مصير المولود^{٤٣} .

وانتظاراً لهذا المولود تولّى منصب الإمامة لأول مرة في تاريخ الدولة الفاطمية « إمامٌ مُستودع » وفقاً للمصطلح الإسماعيلي^{٤٤} ، فقد أحضر هُزار الملوك جوامرد والعاذل برغش - كبار غلمان الأمر^{٤٥} - ابن عمه الأمير أبا الميمون عبد المجيد ، أكبر الأقارب سناً ، وبايعوه بولاية العهد وتدير المملكة « كَفَيْلاً لَحْمِلٍ مُنْتَظَرٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ »^{٤٦} . فجعل عبدالمجيد هُزار الملوك جوامرد وزيراً له ، فلم ترضى به طوائف الجند وثاروا عليه بعد أيام من توليته^{٤٧} ، وأخرجوا أبا على أحمد بن الأفضل شاهنشاه الملقب بكُتَيْفَات من

^{٤١} ابن خلكان : وفيات ٥ : ٣٠٢ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٤ .

^{٤٢} النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٤ .

^{٤٣} ابن خلكان : وفيات ٥ : ٣٠٢ .

^{٤٤} راجع عن هذه الرتبة Hamdani, A., "Evolution of the Organisational structure of the Fatimid Dawah, the Yemeni and the Persian Contribution", Arabian Studies III (1976), p. 91; Madelung, W., EI², art. Imāma III, p. 1196

^{٤٥} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٦ - ٢٧ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٢ : ١٧ ظ ، المقرئى : المقفى (غ . السليمية) ٨١ و ، ٣٠٥ ظ - ٣٠٦ و ، الخطط ١ : ٤٠٦ ، ٢ ، ٢٩١ ، الاعتاظ ٣ : ١٣٧ .

^{٤٦} عمارة اليمنى : تاريخ ١٢٩ ، ابن ميسر : أخبار ١١٣ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٢٣١ ، المقرئى : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٢ : ١٨ و ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ١٧ ، اعتاظ ٣ : ١٣٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٠ - ٢٤١ .

^{٤٧} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٧ - ٢٨ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٢ : ١٨ و ، المقرئى : اعتاظ ٣ : ١٢٧ - ١٢٨ .

السجن - وكان الأمر قد سجنه - وأقاموه وزيراً في ١٦ ذى القعدة سنة ٥٢٤/٢١ أكتوبر سنة ١١٣٠^{٤٨}.

كان أبو علي هذا إمامي المذهب قوى الجانب^{٤٩}، فقبض على ولي العهد واعتقله في خزانة من خزائن القصر^{٥٠}، وأسقط اسمه من الخطبة كما أسقط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق - الذي تنتسب إليه الإسماعيلية - وأزال من الأذان « حى على خير العمل ومحمد وعلى خير البشر »، ودعا للإمام المنتظر الإثني عشرى، ونقش اسمه على السكة نائباً عنه^{٥١}، واتخذ لنفسه ألقاباً يدعى له بها هي : « السيد الأجل الأفضل سيد أرباب الممالك والدول والمحامى عن حوزة الدين ، وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ، ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره ، والقائم بتصرته بمضى سيفه وصائب رأيه وتديره ، أمين الله على عباده ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، ومُرشد دُعاة أمير المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده ، مولى النعم ومُفرج الغم ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم ، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش »^{٥٢}.

^{٤٨} ابن القلانسي : ذيل ٢٢٩ ، ابن ظافر : أخبار ٩٤ ، ابن الطوير : نزهة ٣٠ - ٣٣ ، ابن ميسر : أخبار ١١٣ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٢ : ١٩ ظ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ١٧ ، المقفى ٨١ ظ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٤ ، Stern, S., EI², art. al - Afdal Kutayfât I, pp. 222-223 ، ٢٤١ - ١٤٠.

^{٤٩} ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٦ .
^{٥٠} وهى خزانة بجوار إيوان الكبير بالقصر ، وأصبحت فيما بعد داراً للضرب . (المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٦) .

^{٥١} ابن الطوير : نزهة ٣٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٢ ، ابن ظافر : أخبار ٩٤ ، ابن ميسر : أخبار ١١٦ ، ابن الفرات ٢ تاريخ - خ ٢ : ١٩ ظ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٧٢ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٢٧١ ، اتعاط ٣ : ١٤٣ ، المقفى - خ ٨١ ظ .

^{٥٢} ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ٤١ - ٤٢ (فهنا الكتاب ألفه ابن الصيرفى وأملهه إلى أبى علي الأفضل فى السنة التى حكم فيها سنة ٥٢٥) ، ابن ظافر : أخبار ٢٩٤ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٢ ، ابن ميسر : أخبار ١١٦ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٨٨ ، ابن الفرات : تاريخ - خ =

لم يكتف أبو علي الأفضل بذلك بل عمل على إضعاف المذهب الإسماعيلي في مصر . فعُيِّن في سنة ١١٣١/٥٢٥ أربعة قضاة : اثنين من الشيعة ، أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي ، واثنين من السنة أحدهما شافعي والآخر مالكي . وعلّق ابن ميسر على ذلك « بأنه لم يُسمَع بمثل هذا في البِلَّة الإسلامية من قبل »^{٥٣} .

كذلك عمل أبو علي الأفضل على تفريق الغلال على الناس على سبيل الإنعام ، ورَدَّ على الناس الأموال التي فضّلت في بيت المال من مال المصادرات التي أُخِذَت في أيام مباشرة الرّاهب . وأعاد أملاكًا كثيرة إلى أربابها ، وأقطع الطائفة الحُجَريّة ، التي لعبت دورًا هامًا في وصوله إلى قمة السلطة ، البلاد ، وأكرم برغش الذي أشار بخروجه من السجن وبالع في تعظيمه والإنعام عليه^{٥٤} .

وقد شهدت الدولة الفاطمية في الفترة التي تولّى فيها أبو علي الأفضل الوزارة ، فيما بين شهر ذي القعدة سنة ٥٢٤ والمحرم سنة ٥٢٦ ، وضْعًا فريدًا لم يسبق له مثيل في تاريخها ، وإن دَلَّ على شيء فإنما على ضعف الخلافة وفقدان الحماس لدعوتها . ففي البداية شارك وليّ العهد أبا علي بن الأفضل في الحكم فترة قصيرة لم تتعد ، تبعًا لابن ميسر ، يومًا واحدًا^{٥٥} . وحَفَظَت لنا مجموعة

٢ : ٢٠ و ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣٢ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٤٣ - ١٤٤ ، المقفّ - خ

٨١ ظ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٥ .

وقد أبدى ابن الأثير تعجبه من هذه الألقاب وعلّق بأنه إذا كان هنا حال وزير المصريين فإن وزراء السلاجقة من أمثال نظام الملك كان يحق لهم أن يدعوا الربوية .

^{٥٣} ابن ميسر : أخبار ١١٥ وقارن النويري : نهاية ٢٦ : ٨٧ - ٨٨ ، المقرئ : الخطط ٢ :

٣٤٣ ، اتعاظ ٣ : ١٤٢ ، المقفّ - خ ٨١ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٤٧ ،

Allouche, A., "The Establishment of Four chief Judgeships in Fatimid Egypt "

JAOS 105 (1985), pp. 317, 320

^{٥٤} النابلسي : تجريد سيف الهمّة ١٤٢ ، المقرئ : المقفّ - خ ٨١ ظ .

^{٥٥} ابن ميسر : أخبار ١١٣ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، المقرئ : الخطط ٢ : ١٧ .

وثائق دير سانت كاترين سيجلاً بالغ الأهمية من حيث تاريخ صدره والأشخاص المذكورين فيه . فهو صادر في شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤ / أكتوبر ١١٣٠ عن « وَلِيّ عهد المسلمين » ، وكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ألى على أحمد بن السيّد الأجلّ الأفضّل أمير الجيوش ، وقد ضاع اسم وَلِيّ العهد مع فاتحة السّجلّ وهو دون شك الأمير أبو الميمون عبدالمجيد^{٥٦} ، ويكون التاريخ المحدد لصدور هذا السّجلّ هو اليوم الذى اشترك فيه عبد المجيد وأبو على فى إدارة الدولة :

هذه هى الإشارة الوحيدة التى تدل على اشتراك ولى العهد والوزير فى تدبير أمور الدولة ، فسرعان ما قبض الوزير أبو على على الأمير عبدالمجيد واستأثر تماماً بالسلطة وأقام الدعوة للإثنى عشرية وضرب دراهم باسم الإمام المنتظر نَقَشَ عليها « الله الصّمد - الإمام محمد »^{٥٧} .

ومن حُسن الحظ فقد وصلت إلينا بعض آثار هذه الفترة الحرجة فى تاريخ الدولة الفاطمية تدلنا على التحولات المذهبية التى أدخلها أبو على الأفضّل على نظام الدولة . فقد نشر M. Soret فى عام ١٨٥٦ وصفاً لعملة فضية (دِرْهَم) ضربت فى مصر فى عام ١١٣١/٥٢٥ تحمل اسم :

(أبو القاسم محمد المنتظر بأمر الله)^{٥٨}

^{٥٦} نشر هذا السجل لأول مرة صمويل شتون سنة ١٩٦٠ Stern, S., M., "A Fatimid Decree of the year 524/1130", BSOAS 23 (1960), pp. 439-455; Stern, S., Fatimid

Decrees, London 1964, pp. 35-45

^{٥٧} ابن الطوير : نزعة المقلتين ٣٢ ، ابن القرات : تاريخ - خ ١٩ : ٢ و - ١٩ ط ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٧٢ ، المقرئى : الخطوط ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ٣٤ ، الاتعاط ٣ : ١٤٠ .

^{٥٨} Soret, M., "Lettre à M. C. J. Tornberg sur quelques monnaies de dynasties Alides", Revue Archéologique . XIII (1856) pp. 134-135

وفي عام ١٨٧٥ درس كل من Sauvaire و Lane - Poole مدلول اسم الإمام الثاني عشر على العملة المصرية^{٥٩}، ثم نشر Lane - Poole بعد ذلك عملتين ذهبيتين (دنانير) من مقتنيات المتحف البريطاني ضربت الأولى في القاهرة سنة ٥٢٥ باسم :

(أبو القاسم المنتظر لأمر الله أمير المؤمنين)^{٦٠}

أما الثانية فـضربت في مصر في سنة ٥٢٦ ، لاشك قبل السادس عشر من المحرم تاريخ مقتل أبي علي الأفضل ، باسم :

(الإمام المهدي القائم بأمر الله حجة الله على العالمين
نائبه وخليفته الأفضل أبو علي أحمد)^{٦١}

وما جاء على هذا الدينار يتفق مع ما أورده المؤرخون من أن أبا علي الأفضل نقش اسمه على السكة نائباً عن الإمام المنتظر^{٦٢}.

^{٥٩} Sauvaire & Lane - Poole, S., " the Name of the Twelfth Imam on the Coinage of Egypt ", JRAS N. S VII (1857), pp. 140 - 51

^{٦٠} Lane - Poole, S., Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, IV - the Coinage of Egypt ..., London 1879, Introduction p. XII , p. 55 no 228 - 229 . ومن هنا الدينار نسختان أخرتان إحداها بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٣٩ ضربت بالإسكندرية والأخرى بدار الكتب المصرية برقم ١٢٦٨ .
وقد ظن الدكتور حسن إبراهيم حسن أن هذا الدينار ضرب باسم الإمام أبي القاسم الطيب وأن أتباعه اتخلوا من الإسكندرية مركزاً لحركتهم ومستقراً لدعوتهم . (تاريخ الدولة الفاطمية ١٧٦) .

^{٦١} Lane - Poole, S., op. cit., pp. 56 - 57 n° 230

^{٦٢} ابن ظافر : أخبار ٩٤ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٢٣٦ .

ومنذ أربعين عامًا نشر P. Balog أربعة دنانير صادرة عن (المنتظر لأمر (بأمر (الله) ، ثلاثة منها ضُرِبَتْ في القاهرة والرابع في مصر في سنة ٥٢٥ هـ^{٦٣}. وأشار في مقال نشره في العام نفسه إلى درهم صادر باسم هذا الإمام ، وَصَفَهُ وَحَلَّ مشكلاته التاريخية سنة ١٨٧٣ E.V.Bergmann^{٦٤}.

وفي الوقت نفسه نَشَرَ M. Jungfleish عشرة أشكال زجاجية مُدَوَّرَة (صِنَج) Jetons عليها اسم الإمام المنتظر بالصيغتين التاليتين :

(القاسم محمد المنتظر)
(حُجَّةُ الله ومعه ؟ ألى القاسم المنتظر لأمر الله)

وكلها مؤرَّخة في سنة ٥٢٥ هـ^{٦٥}.

وأخيرًا وُجِدَ في مجموعة الدكتور هنرى أمين عوض بالقاهرة^{٦٦} درهم مؤرخ في سنة ٥٢٦ هـ باسم :

(الإمام محمد المنتظر لأمر الله)
(الله الصَّمَد)

وهو ما يَتَّفَقُ مع مذكره ابن الطَّوِيرَ وابن خلدون وابن الفرات والمقرئى^{٦٧}.

^{٦٣} Balog, P., "Quatre Dinars du khalife Fatimide al - Montazar li - Amr - Allah ou bi Amr - Allah (525 - 526 A. C.), BIE XXIII (1950 - 51), pp. 375 - 378

^{٦٤} Balog, P., "Nouvelles observations sur le thecnique du monnayage (Periode Fatimite et Ayoubite)", BIE XXXIII (1950), p. 16

^{٦٥} Jungfleish, M., "Jetons (ou Poids ?) en verre de l'Imam el - Montazar " BIE XXXIII (1950 - 51), pp. 329 - 374 Miles, G., Fatimid Coins in the Collection of the University Museum Philadelphie and the American Numismatic Society, NY 1951, p. 44

^{٦٦} محمد أبو الفرج العشي : « مصر ، القاهرة على النقود العربية الإسلامية » ، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة ، ٩٥١ - ٩٥٢ .

^{٦٧} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٢ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٧٢ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٢ : ٢٠ و ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ٣٤٠ ، المقفى - ٨١ ظ .

الحافظ يعود إلى الحكم

في ١٦ محرم سنة ٥٢٦/٩ ديسمبر سنة ١١٣١ انتهى هذا الوضع الشاذ ، عندما ثار غلمان الأمر وعلى رأسهم ناصر الجيوش يانس^{٦٨} ، وتمكنوا من قتل أي على الأفضل وهو يلعب الكرة في الميدان الكبير خارج باب الفتوح ، ثم أخرجوا الأمير عبدالمجيد من الموضع المعتقل فيه بالقصر ، وبايعوه على أنه « وَلِيَّ عَهْدٍ كَفِيلٌ لِمَنْ يُذَكَّرُ اسْمُهُ »^{٦٩} ، فاتخذ عبد المجيد هذا اليوم عيداً سماه « عيد النصر »^{٧٠} ظل يُحتفل به حتى نهاية الدولة . ووصل إلينا دينار فريد ضُرب في الإسكندرية سنة ٥٢٦ ، لاشك في الفترة بين خروج عبدالمجيد من الاعتقال (١٦ محرم) ومبايعته بالإمامة (٣ ربيع الآخر) باسم :

(أبو الميمون عبدالمجيد وَلِيَّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ)^{٧١}.

الدَّعْوَةُ الطَّيِّبَةُ

كانت الفترة بين وفاة الخليفة الأمر في ذي القعدة سنة ٥٢٤ / أكتوبر ١١٣٠ ، وخروج الأمير عبد المجيد من معتقله في المحرم سنة ٥٢٦ / ديسمبر ١١٣١ ، وهي أربعة عشر شهراً ، كافية للتأكد من نتيجة الجمل الذي أشار

^{٦٨} المقرئى : الخطط ٢ : ١٧ .

^{٦٩} ابن ظافر : أخبار ٩٥ ، ابن الطوير : نزهة ٣٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٥ ،

٦٧٢ - ٦٧٣ ، ابن ميسر : أخبار ١١٥ - ١١٦ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ :

١٤٦ - ١٤٧ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٢ : ٤١ ظ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٤٣ ،

المقفى - خ ٨٢ و ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٧ - ٢٤٨ .

^{٧٠} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٤ - ٣٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٧ ، ٣٥٩ ،

٤٩٠ - ٤٩١ .

^{٧١} Rogers Bey E. T., "Notices sur quelques pièces rares et inédites", BIE 20 série

n. 1 (1882), pp. 32 - 33 ; Lane - Poole, S., Catalogue of the khedival Library, p. 195

n. 1269 - 70

إليه الأمر قبل وفاته ، وتبعاً لما ذكره الشريف محمد بن أسعد الجَوَّاني ، ونقله المقرئزي ، فإن امراة الأمر وضعت مولوداً ذكراً ، وأن هذا المولود هُرب من القصر في قُفَّة على وجهها سَلَقٌ وكُرَّات إلى القَرافة وكَتِم أمره ، فعُرف لذلك بِقُفَّة^{٧٢}.

وفي حقيقة الأمر فإننا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام انقلاب سياسي آخر في تاريخ الدعوة الإسماعيلية . فقد وصل إلينا نصٌ كبير الأهمية أورده ابن مُيسر في تاريخه^{٧٣} يفيدنا أنه وُلِدَ للأمر ولَدَ ذكر قبل وفاته بثمانية أشهر في شهر ربيع الأول سنة ٥٢٤ / مارس سنة ١١٣٠ سَمَّاه أبا القاسم الطُّيب ، ولكن ابن مُيسر لم يتعرَّض لذكر هذا الطفل أو مصيره مرة أخرى في تاريخه ، وأشار فقط إلى أن الأمير عبد المجيد كَتَم أمر هذا الطفل بعد وفاة الأمر^{٧٤}.

ويؤيد هذا النص ويؤكد الوجود التاريخي للإمام الطُّيب بن الأمر سِجِلُّ أرسله الخليفة الأمر إلى السيِّدة الحرَّة في اليمن يُبَشِّرُها فيه بميلاد ابنه الطُّيب في الليلة المصباحة ليوم الأحد الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٥٢٤ / ١٩ مارس سنة ١١٣٠ وحَفَظَ نصُّ السِّجِلِّ عمارة اليمنى والداعي عماد الدين إدريس^{٧٥}.

^{٧٢} المقرئزي : المقفى (غ . السليمة) ٣٨٦ ط ، اتعاظ ٣ : ١٤٦ ، الخطط ٢ : ٤٤٨ ، وقارن ، ابن ميسر : أخبار ١٢٠ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٩٤ .

^{٧٣} ابن ميسر : أخبار ١٠٩ - ١١٠ وقارن ، عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٢١ - ١٢٢ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ - غ ٢ : ١٧ (نقلا عن ابن أبي طي) . المقرئزي : اتعاظ ٣ : ١٢٨ ، المقفى (غ . لين) ٣ : ١٩١ .

^{٧٤} نفسه ١١٣ .

^{٧٥} عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ١٢٧ - ١٢٩ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٧ : ٩٧ و - ٩٧ ط ، ويلاحظ وجود اختلاف بين تاريخ هذا السجل والتاريخ الذي ذكره ابن ميسر !

ولم تكن هذا الإمام معروفاً البتة للبحث التاريخي قبل أن يُنشر كاي في سنة ١٨٩٢ كتاب « تاريخ اليمن » لعمارة اليمنى Kay, H.C., Yaman its early Mediaeval History, London

1892, p. 101 ولكن إشارة عمارة هذه لم تكن كافية فيما يبدو لجذب الانتباه إلى وجود هذا الإمام =

وبناء على هذا السَّجَل لم يصبح لدى أتباع الدعوة المستعلية أى شك في مولد الإمام الطَّيِّب ، الذى أخرجه الدعاة وكبار المؤمنين - كما تذكر الرواية اليمنية - من مصر وهربوه إلى اليمن بعد قيام أى على الأفضل بانقلابه^{٧٦} غير أن هذه الرواية لم تُشر إلى مصير هذا الطفل الذى أصبح رأس دعوة إسماعيلية جديدة اعترف بها إسماعيلية اليمن والهند .

* *

= إلى أن نُشر ماسيه في سنة ١٩١٩ كتاب « أخبار مصر » لابن ميسر (ص ٧٢) حيث أشار تفصيلاً إلى ميلاد هذا الإمام والاحتفالات التى عُمّت البلاد بهذه المناسبة ، وقد أشار فيمت إلى أهمية هذا النص في تعليقه على نشرة ماسيه (Wiet, G., JA., XVIII (1921) p. 112) ثم ألقت اكتشافات حسين ممداني عن التراث الإسماعيلي في الهند كثيراً من الأضواء على وجود هذا الإمام في رسالته التى تقلّم بها لجامعة لندن في سنة ١٩٣١ بعنوان « تاريخ وعقائد الدعوة الإسماعيلية الطيبية في اليمن » Hamdani, H., Doctrines and History of the Isma'ili Tayyibi Da'wa of al - Yaman, Ph. D. Thesis, University of London 1931 (Unpublished) ولم أتمكن من الاطلاع عليها . ثم نشر كلود كاهن في سنة ١٩٣٨ قسماً من كتاب « البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان » لعبد الدين الأصفهاني (٩) يبدأ بحوادث سنة ٥٠١ هـ وأشار مؤلفه إلى ميلاد هذا الإمام واعتقاد بعض المصريين فيه « Une Chronique Syrienne du VI / XII siècle » (Cahen, Cl.,) p. 121 (1937-38) ثم انضمت لنا الصورة بوضوح بالمقال الجليلي الذى نشره صمويل شتيرن سنة ١٩٥١ عن خلفاء الإمام الأمر والدعوة الطيبية Stern, S., « The Succession of the Fatimid Imam al - Amir », Oriens IV (1951) pp. 193 - 243 ثم دَرَسَ حسين ممداني في كتابه « الصُّلَحيُّون والحركة الفاطمية في اليمن » ، القاهرة ١٩٥٥ ، ١٨٢ - ١٩٢ الدعوة الطيبية وأنصارها في اليمن . وفي سنة ١٩٥٨ ناقش المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال الوجود التاريخي للإمام الطيب معتمداً في الأساس على مخطوطة كتاب « انعاظ الحنفا » للمقرئى التى لم تكن قد نُشِرت بعد (الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١ : ٧٤ - ٨٦) وإن أشار شتيرن بعد ذلك إلى أن المادة الموجودة عند الشيال وذكر أنها جديدة ليست جديدة تماماً وأنه أخذها من مقالهِ سالف الذكر Stern, S., Fatimid Decrees (London 1964) pp. 43-45 n. 1. ثم درس كاتب هذه السطور الدعوة الطيبية وأدبها في كتابه « تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى » ، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٨ ، ١٧١ - ٢٠٦ .

^{٧٦} عماد الدين إدريس : نزهة الأفكار (مخ . ممداني) ٢٨ و . وراجع عن نظام الإمامة عن الإسماعيلية الطيبية ، أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ١٩٠ - ١٩٤ ، Madelung, EI², art. Imama III, p. 1192

وفي القاهرة قرى سِجِلٌ في ٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٦ / ٢٣ فبراير سنة ١١٣٢ بمبايعة الأمير عبدالمجيد إماماً وتلقيه بـ « الحافظ لدين الله »^{٧٧}، وأصبح بذلك أول خليفة في تاريخ الدولة الفاطمية لم يكن أبوه إماماً ويدور هذا السِّجِلُ ، الذي حفظه لنا القلقشندي^{٧٨} ، حول فكرة أن الأمر - الإمام المنتقل - أوصى بالإمامة إلى ابن عمه عبد المجيد ، تماماً مثلما عقد النبي ﷺ ، الولاية لابن عمه علي بن أبي طالب في غدير خم . ويشير السِّجِلُ كذلك إلى تسمية الحاكم بأمر الله لابن عمه عبدالرحيم بن إلياس ولي عهد المسلمين . وتقصد هذه الوثيقة الهامة إلى التدليل على شرعية إمامة الحافظ لدين الله على أساس « نص » مزعوم قال به الأمر ولتصبح بذلك دليلاً على شرعية إمامة الخلفاء الفاطميين المتأخرين .

والواقع أن الاعتراف بإمامة الحافظ يعد خروجاً على أسس نظام الإمامة عند الإسماعيلية ، الذي يشترط أن تكون الإمامة دائماً في الأعقاب ، لذلك فقد عمد بعض الدعاة إلى تبرير صِحَّة إمامة الحافظ في أكثر من مناسبة ، فينقل المقرئزي على لسان داعي الدعاة إسماعيل بن سلامة الأنصاري قوله : « لولا أن مولانا الأمر نصَّ على مولانا الحافظ وأودعه سير الخلافة لما ثبتت فيه ولا استجاب له الناس »^{٧٩} !

^{٧٧} عن فترة إمامة الحافظ راجع ، ابن ظافر : أخبار ٩٤ - ١٠١ ، ابن الطوير : نزعة المقلتين ٢٦ - ٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٥ ، ابن خلكان : وفیات ٣ : ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ابن ميسر : أخبار ١١٣ - ١٤١ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٨٧ - ٩١ ، ابن أليك : كنز الدرر ٦ : ٥٠٦ - ٥٥٤ ، الصفدي : الوافي - خ ١٩ : ٧٢ ظ ، ابن الفرات ، تاريخ - خ ٢ : ١٧ - ١٨ ، ٤٢ ، المقرئزي : الخطط ١ : ٣٥٧ ، انعاظ ٣ : ١٣٧ - ١٩٢ ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ٢٣٧ - ٢٤٥ ، Magued, A. M., EI², art. al-Hafiz III, p. 56-57 .

^{٧٨} القلقشندي : صبح ٩ : ٢٩١ - ٢٩٧ وراجع الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٧١ - ١٠٢ ، ٢٤٩ - ٢٦٠ .

^{٧٩} المقرئزي : انعاظ ٣ : ١٦٩ .

وبذلك انقسمت الدعوة الإسماعيلية في مصر على نفسها مرة ثانية في أقل من خمسين عامًا إلى : « طَيْبِيَّة » نسبة إلى الإمام الطَّيِّب بن الأمر الذي اعترف بإمامته كل الطائفة الإسماعيلية في اليمن والهند استمرارًا للدعوة المستعلية ، و « حافضية » أو « مجيدية » نسبة إلى الحافظ عبد المجيد تمتعت بتأييد مؤسسة الدعوة في مصر وقبيلها أغلب الإسماعيلية المستعلية في مصر والشام . وبقيت مع ذلك بعض جماعات من مستعلية مصر والشام تبنت حقوق الإمام الطَّيِّب وعرفوا « بالأمرية » .

وبعد هذا الانقسام أصبحت هناك ثلاث دعوات إسماعيلية في العالم الإسلامي ، قُدِّر لاثنتين منها الاستمرار والقيام بنشاط سِرِّي أنتج الكثير من أدب الدعوة : الدعوة الطَّيْبِيَّة المستعلية في اليمن وغرب الهند ، والدعوة النزارية الحشيشية في الشام وإيران وشمال الهند . أما الدعوة الحافضية فقد قضى عليها بسقوط الخلافة الفاطمية في مصر وعودة مصر مرة أخرى إلى أحضان العالم الإسلامي السُّنِّي^{٨٠} .

^{٨٠} عن تاريخ الحركة الإسماعيلية بعد سقوط الفاطميين (الإسماعيلية الطيبية والإسماعيلية النزارية) راجع ، Daftary, F., op.cit., pp. 256-534 ، ودراسة عارف تامر ، التي يغلب عليها الطابع الدعائي ، : تاريخ الإسماعيلية ، ١ - ٤ ، لندن - رياض الريس للكتب والنشر ١٩٩١ ، ٤ : ٦٧ - ١٣٩ .

الفصل السابع

بداية التدهور

شهدت السنوات الأربعون الأخيرة في عمر الدولة الفاطمية في مصر تطورات خطيرة متتالية قادت إلى تدهورها وعجلت بسقوطها . فقد انحصر نفوذ الخلافة نهائياً داخل حدود مصر وانفصل عنها بقية أتباعها الذين لم يعترفوا بأحقية الحافظ وخلفائه في الإمامة . وبذلك حَكَمَ الخلفاء الأربعة الأواخر في القاهرة كآسرة حاكمة مصرية محلية بلا سُلْطَة أو نفوذ أو أمل . ولم تجر أية محاولة لمد نفوذ الفاطميين خارج الحدود المصرية ، إذا استثنينا محاولة الخليفة الحافظ نشر دعوته لدى الزُرَّيعيين^١ - حُكَّام عَدَن - الذين أجابوه إليها ، وكان هدفه من وراء ذلك ضمان السيطرة على طرق التجارة المؤدية إلى الهند .

الحافظ وأولاده

أصبح الوزراء منذ بدر الجمالي هم السادة الحقيقيون للدولة الفاطمية . ولكن الحافظ ، الخليفة الوحيد بين الفاطميين المتأخرين الذي كان رجلاً راشداً وقت اعتلائه العرش ، تنبّه إلى ذلك وحرص على تقليص نشاط وزرائه .

^١ الزُرَّيعيون . أسرة يمنية محلية يرجع أصلها إلى قبيلة هَمْدَان ، كان لجدهم الأعلى العباس بن الكرم (المكرم) سابقة محمودة في قيلم الدعوة الفاطمية مع الداعي علي بن محمد الصليحي . وقد ولي المكرم أحمد الصليحي عباساً ومسعوداً ابني المكرم حكم عدن من قبل الصليحيين . وقد بدأ الاستقلال الفعلي لهذه الأسرة عن سلطة الصليحيين في وقت سبأ بن أبي السعود ، ولما استلمهم الحافظ للدعوة له أطلق علي سبأ لقب الداعي حتى توفي سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ . ثم وصل إليهم القاضي الرشيد أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الأسواني سنة ٥٣٩ / ١١٤٤ لإقامة الدعوة باسم الحافظ . (راجع ، أيمن قواد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ١٨٧ - ١٩٠) .

فبعد أن تخلص ، في نهاية عام ٥٢٦ / ١١٣٢ ، من وزيره أمير الجيوش سيف الإسلام أبي الفتح يانس الأرمني^٢ - الذي قام بدور كبير في القضاء على أبي على الأفضل ومبايعة الحافظ بالإمامة - بعد أن أمضى في الوزارة أقل من عام^٣ ، لم يتخذ الحافظ بعده وزراء لفترة تجاوزت العام .

وفي عام ٥٢٨ / ١١٣٣ عَقَدَ الحافظ ولاية عهده إلى ابنه الأكبر أبي الربيع سليمان وأقامه مقام وزير « ليسترخ من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقاتهم إيّاه في أوامره ونواهيه »^٤ . ولكن سليمان توفي بعد ذلك بشهرين ، فترشَّح لولاية العهد ابنه التالي حسن ، إلا أن الحافظ عدل عنه إلى ابنه الأصغر أبي تراب حَيْدَرَة . وحفظ لنا القلقشندي سِجْلَ مبايعة الحافظ لولده حَيْدَرَة بولاية عهده والذي أمره فيه أن يتخير من رجال دولته ووجوه أجناده وشيعته طائفة تنتمي إليه تسمى بـ « الطائفة العهدية » تظل موقوفة على خدمة ولي العهد حَيْدَرَة ، وهي أول مرة يقابلنا فيها إنشاء طائفة مماثلة في العصر الفاطمي^٥ . وكان الحافظ قد عدَلَ بولاية عهده عن ابنه الثاني الحسن إلى ابنه الأصغر حَيْدَرَة ، لأنه لم يستصلحه لذلك بسبب عقوقه لوالده ، فشَقَّ

^٢ أحد غلمان الأفضل شاهنشاه ، تقدّم في الرُتب حتى أصبح « صاحب الباب » ، وهي ثاني رتبة الوزارة حيثُذ ، وكان يقال لها « الوزارة الصغرى » . وتنسب إليه إحدى طوائف الجند المعروفة « بالطائفة اليانسية » . (ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٥ - ٣٦ ، ١٢٢ ، ابن ظافر : أخبار ٩٨ ، ابن ميسر : أخبار ١١٧ - ١١٨ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٣ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٨٨ ، ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥٠٩ ، سلويزس : تاريخ البطارقة ١ / ٣ : ٢٨ ، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٤٢ ظ - ٤٣ و ، المقرئزي : الخطط ٢ : ١٦ - ١٧ ، الاتعاض ٣ : ١٤٤ - ١٤٥ ، المقرئ (غ . السليمية) ٢٤١ و ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٠) .

^٣ اعتقل في ٢ ذي القعدة وتوفي في ٢٦ ذي الحجة سنة ٥٢٦ .

^٤ ابن ميسر : أخبار ١٢١ ، ابن الطوير : نزهة ٣٧ ، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٥٧ ظ ، المقرئزي : اتعاض ٣ : ١٤٩ ، المقرئ (غ . السليمية) ٣٦٩ و .

ويوجد في سوهاج بصعيد مصر نقش مؤرخ في الحرم سنة ٥٢٩ / باسم « ولي عهد المؤمنين ... سليمان بن الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين » (Wiet, G., RCEA VIII, p. 193 n. 3071) .

^٥ القلقشندي : صبح ٩ : ٣٧٧ - ٣٧٩ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٢٦٣ - ٢٦٥ . الدراسة التحليلية ١٠٢ - ١٠٧ .

ذلك على حسن لأنه كان يتطلع إلى هذا المنصب « لكثرة أمواله وبلاده وحواشيه وموكبه بحيث كان له ديوان مفرد »^٦.

وفي سبيل تحقيق ذلك قام حسن بثورة خطيرة بدأت يوم الأربعاء ١٥ رمضان سنة ٥٢٨ / ٩ يولية ١١٣٤ ، افترق فيها الجند فريقين ، فالفرقة الرّيحانية تساند حَيْدَرَة صاحب الحق ، والفرقة الجيوشية تساند حسن المتطلع إلى المنصب . ولم يجد الحافظ وسيلة لإيقاف هذه الثورة إلا مُدَارَة ابنه الحسن ، فكتب له سِجِلًا بولاية عهده أرسله إليه وقرئ على المنابر يوم ٢٦ رمضان سنة ٥٢٨ / ٢٠ يولية ١١٣٤^٧ « فتمكّن حسن من الدولة وتصرّف فيها حتى لم يبق لأبيه معه حكم البتّة » كما يقول ابن ميسر^٨. وأمر الحسن أن يُدعى له على المنابر بالدعاء التالي : « اللهم شَيِّد ببقاء ولي عهد المسلمين أركان خلافته وقلّده سيوف الاقتدار في نصره وكفايته ، وأعنه على مصالح بلاده ورعيته ، واجمع شمله به وبكافة السادة إخوته الذين أطلعتهم في سماء مملكته بدورًا لا يغيرها المحاق ، وقمعت بياسهم كل مُرْتَدٍّ من أهل الشقاق والنفاق ، وشَدَدت بهم أزر الإمامة ، وجعلت الخلافة في عقبهم إلى يوم القيامة برحمتك يا أرحم الراحمين »^٩.

يقول ابن ظافر إن حسن كان يرى رأى السنة ، ولما قوى أمره أراد قتل أمراء الدولة وسجن أبيه والتضييق عليه . فلما علم أمراء الدولة بذلك حضروا إلى بين القصرين وعزموا على خلع الحافظ وولده . فراسلهم الحافظ وعرفهم مكانتهم عنده وأنه قد غلب على أمره . فأرادوا قتل الحسن ، ولكن أباه أمهلهم

^٦ ابن الطوير : نزهة ٣٧ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٢ : ٥٧ ظ ، المقرئ : انعاظ ٣ : ١٤٩ ، المقرئ ٣٦٩ و .

^٧ المقرئ : المقرئ ٣٦٩ و .

^٨ ابن ميسر : أخبار ١٢٠ .

^٩ ابن ظافر : أخبار ٩٦ .

وأحضره إليه في القصر واحتاط عليه ، غير أن الأمراء لم يرضوا بديلاً عن قتله وأنذروا الحافظ بأنه إن لم يُتَّقَدْ طلبهم خلعه وولوا غيره . فاضطر الحافظ إلى سَمِّ ولده عن طريق سُقْيَةِ وصفها له ابن قِرْقَةَ اليهودي الطيب . وأرسل الأمراء مندوبين عنهم إلى القصر لمشاهدته ، ولم يتأكدوا من وفاته إلا بعد أن طعنه أحدهم في مواضع من جسده تَحَقَّق بعدها من وفاته ^{١٠} . وبذلك انتهت هذه الفِتْنَةُ التي قُتِلَ فيها نحو عشرة آلاف نفس وكانت ، كما يقول المقرئ : « أول مصيبة نزلت بالدولة من قُتِلَ رجالها ونُقِصَ عدد عساكرها » ^{١١} .

وزارة بَهْرَامِ الْأَرْمَنِيِّ

كان الأمير حسن أثناء الأزمة قد راسل بَهْرَامِ الْأَرْمَنِيِّ النصراني - والي الغربية - ليصل إليه بِالْأَرْمَنِ ليعزز موقفه بهم ^{١٢} . فلما قرب بَهْرَامِ من القاهرة كان الأمير حسن قد قُتِلَ ، فتمسكت طائفة الأجناد ، الذين حملوا الحافظ على قتل ابنه ، بِبَهْرَامِ وأدخلوه على الحافظ وألزموه أن يولية الوزارة ^{١٣} فلم يجد بداً من إجابتهم خوفاً من أن تثور الفتن مرة أخرى . فعَلَعَ عليه خَلَعَ الوزارة يوم الجمعة ١٦ جمادى الآخر سنة ٥٢٩ / مارس سنة ١١٣٥ ونعته بـ « سيف

^{١٠} راجع ، ابن ظافر : أخبار ٩٦ - ٩٧ ، ابن الطوير : نزهة ٣٧ - ٤١ ، ابن القلانسي : ذيل ٢٤٢ ، عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٢٣ ، أبو صالح : تاريخ ٢٦ ، ٥٤ و ، ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٢٨ - ٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٣ ، ١١ : ٢٢ - ٢٣ ، ابن ميسر : أخبار ١١٩ - ١٢٢ ، ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥١٤ - ٥١٥ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٨٨ - ٨٩ ، الصفدي : الوالي ١٢ : ٩٤ ، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٤٣ ط - ٤٤ و ، ٧٨ و - ٦٠ و ، المقرئ : الخطوط ٢ : ١٧ - ١٨ ، اتعاط ٣ : ١٤٩ - ١٥٥ ، المقفي ٣٦٩ و - ٣٦٩ ط ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤١ - ٢٤٢ .

^{١١} المقرئ : المقفي ٣٦٩ و ، اتعاط ٣ : ١٤٩ .

^{١٢} ابن الطوير : نزهة ٣٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٢١ ، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٥٨ ط ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٣ وقارن المقرئ : اتعاط ٣ : ١٥٤ .

^{١٣} ساويرس : تاريخ البطارقة ٣ / ١ : ٢٩ ، المقرئ ٢٦٩ ط .

الإسلام تاج الخلافة (الدولة) ، وهو باق على دين النصرانية ، فأصبح بذلك أول نصراني يتولى وزارة تفويض للفاطميين ^{١٤} . وقد أشار كبار رجال دولة الجافظ عليه بأن لا يولّيه الوزارة لأنه نصراني ، وأن من شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ، كما أن القضاة هو ثواب الوزراء من زمن أمير الجيوش ، فلم يأخذ بنصيحتهم وجعل القاضي ينوب عنه في صعود المنبر ، ولم يرد إليه شيئاً من الأمور الشرعية ^{١٥} .

ومعلوماتنا عن بهرام مصدرها ابن الطوير وابن ميسر وتفيدنا أنه وصل إلى مصر من جملة الأرمن الذين جاؤا مع بدر الجمالي ، وأن أصله من قلعة الروم وتل باشر . وقد بدأت هجرة الأرمن بعد أن وضع البيزنطيون أيديهم على أرمينية في أواسط القرن الخامس / الحادي عشر . ومنذ وصول بدر الجمالي إلى قمة السلطة بدأ توافد الأرمن في أعداد كبيرة إلى مصر . وقد شجع التسامح الديني المعروف عن الفاطميين ، والخمسين عاماً التي أمضاها بدر الجمالي وولده الأفضل في الحكم ، هجرة الأرمن التي أخذت في التزايد إلى القاهرة ^{١٦} ، وقد أقام الأرمن في القاهرة في حي الحُسَيْنِيَّة خارج باب الفتوح ^{١٧} .

وفي فترة وزارة بدر الجمالي وصل إلى مصر البطريرك الأرمني أغريغوريوس نحو سنة ٤٧٢ / ١٠٧٩ حيث أحسن بدر الجمالي والخليفة المستنصر استقباله . وقد أقطع بدر الجمالي للأرمن ، في أول الأمر ، طراً جنوب القسطنطينية فجلدوا فيها

^{١٤} ابن الطوير : نزهة ٤٤ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٢ ، المقرئ : المقفى ٢٦٩ ظ ، ابن ظافر : أخبار ٩٧ ، المقرئ : نهاية ٢٦ : ٨٩ .

^{١٥} ابن الطوير : نزهة ٤٤ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، التويري : نهاية ٢٦ : ٢٨٩ ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٦٠ و ، المقرئ : المقفى ٢٦٩ و ، اتعاظ ٣ : ١٥٦ .

^{١٦} Canard, M., " Notes sur les Arméniens en Egypte à l'époque fatimide ", AIEO XIII (1955), p. 145

^{١٧} ابن الطوير : نزهة ٤٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٥ .

كنيسة ماري جرجس^{١٨} ثم بنوا كنيسة أخرى بأرض الزُّهري (بالقرب من السيدة زينب الحالية) نهبا العامة عندما ثاروا على الأَرَمَن عام ٥٣١ / ١١٣٣^{١٩} . وهذا البطرك هو دون شك أخو بهرام بما أن قبره قد نبشته العامة وقت ثورتهم ضد الأَرَمَن^{٢٠} . وعلى ذلك فيُفترض أن عمر بهرام كان عند قدومه إلى مصر نحو ثمانية عشر عامًا ، وأنه تولى الوزارة وله من العمر ثمانين عامًا وتوفي عام ٥٣٥ / ١١٤٠ عن خمسة وثمانين عامًا^{٢١} .

ولا شك أن الوزراء ذوى الأصل الأرمني الذين تولوا منذ بدر الجمالي قد أحاطوا أنفسهم بجنود من الأَرَمَن ، وشجّعوا هجرة الأَرَمَن لهذا الغرض ، ومن المحتمل أن تكون الطائفة الجيوشية (نسبة إلى أمير الجيوش بدر) تتألف في أغلبها من الأَرَمَن^{٢٢} . كذلك فإن أبا الفتح يانس ، آخر وزير أرمني قبل بهرام ، كانت تنسب إليه الطائفة اليانسية التي كانت مكونة في أغلب الظن أيضًا من الأَرَمَن^{٢٣} . وربما انتمى بهرام إلى إحدى هاتين الطائفتين قبل أن يصبح « مُقدِّم الأَرَمَن »^{٢٤} .

وقد أخذ بهرام يتقدّم في الخِدْم طوال خمسين عامًا حتى استقر واليًا على الغربية ، وقاعدتها يومئذ المحلة ، التي سار منها إلى القاهرة حيث استوزره المحافظ^{٢٥} . وبعد أن استقر بهرام في السلطة لم يتردّد في تبني سياسة شخصية

^{١٨} أبو صالح : تاريخ ٦١ ، سلويز : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٢٩ . .

^{١٩} ابن الطوير : نزهة ٤٦ ، سلويز : تاريخ ١/٣ : ٣١ .

^{٢٠} نفسه ٤٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٥ .

^{٢١} Canard, M., op. cit., p. 144

^{٢٢} رغم أن أبا صالح الأرمني يذكر أن الجيوشية كانت طائفة من الرجال السودان (تاريخ ٣٤ ،

٤٣ ، ٤٤ .)

^{٢٣} Canard, M., " Un vizir chrétien à lépopue fatimide : l'armenien Bahram ", AIFO

XII (1954), p. 93

^{٢٤} ابن القلانسي : ذيل ٢٦٢ ، سلويز : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٢٩

^{٢٥} ابن ميسر : أخبار ١٢٣ .

أرمنية مسيحية أدت إلى سقوطه في نهاية الأمر . فقد سأل الخليفة الحافظ في السماح له بإحضار إخوته وأهله من ثلّ باشر وبلاد الأرمن ، فأذن له في ذلك ، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان استطالوا على المسلمين وأصابهم منهم جُور عظيم . كذلك بُنى في أيامه العديد من الكنائس والأديرة حتى صار كل رئيس من الأرمن يبنى له كنيسة « وخاف أهل مصر منهم أن يُغيّروا مِلَّةَ الإسلام »^{٢٦} .

وفي إطار هذه السياسة أصبح أغلب ولاية الدواوين من النصارى^{٢٧} ، كذلك ولّى بهرام أخاه المعروف بالباساك ولاية قوص ، وهى يومئذ أعظم ولايات مصر ، فاستقوى بأخيه وتمادى في ظلم المسلمين ومصادرة أموالهم^{٢٨} .

الاستجداء برضوان بن وَلَحْشَى ونهاية بهرام

لم يرض أهل مصر وأمرأؤها بهذا الوضع الشاذ فكتبوا إلى رضوان ابن وَلَحْشَى ، وإلى الغرية ، يستنهضونه للقدوم عليهم وإنقاذهم من سيطرة النصارى . وفور أن وصلت إليه كتب الأمراء صعد المنبر وخطب في الناس حُطْبَةً بليغة حَثَّهم فيها على « الجِهاد » ، وأخذ في حشد العربان حتى اجتمع له نحو ثلاثين ألف فارس سار بهم تجاه القاهرة^{٢٩} . وعندما خرج بهرام بهرام لملاقاته

^{٢٦} ابن ميسر : أخبار ١٢٤ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٩ - ٩٠ ، المقرئى : المقفى ٢٦٩ و ، اتعاظ ١٥٩ : ٣ .

^{٢٧} أهم من تولى الدواوين من النصارى في زمن بهرام ، صنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم بن أبى زكريا النصرانى . (ابن الطوير : نزهة المقلتين ٧٩ - ٨٠ ابن ميسر : أخبار ١٢٩ ، المقرئى : اتعاظ ١٨٤ ، ١٦٥ : ٣) .

^{٢٨} نفسه ١٢٥ ، المقرئى : اتعاظ ١٦٥ : ٣ .

^{٢٩} ابن الطوير : نزهة ٤٤ - ٤٧ ، ابن طايفر : أخبار ٩٨ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٤ - ١٢٥ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣ / ١ : ٣٠ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٩ ، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٦١ و ، المقرئى : المقفى (غ . السليمية) ٢٦٦ و ، الخطوط ٢٠٥ : ١ ، اتعاظ ١٦١ : ٣ .

رفع جنود رضوان المصاحف على أسنة الرماح فما هي إلا برهة حتى ترك المسلمون جيش بَهرام والتجأوا بأجمعهم إلى جيش رضوان ، بناء على اتفاق بين الأمراء ورضوان . وعندما رأى بَهرام ذلك بعث إلى الخليفة يُعَرِّفه بما جرى ، فخاف من عاقبة هذه المواجهة وأشار عليه بالتوجه إلى قوص والاحتفاء بأخيه الباساك هناك ^{٣٠}.

كان خبر قدوم رضوان وإعلانه الجهاد ضد النصارى قد سبق بَهرام إلى قوص ، فالتف أهلها على الباساك وقتلوه وطرحوه في النهر ، فاضطر بَهرام أن يسير مع أصحابه من الأرمَن إلى أسوان ليتقوى بأهل النوبة ، وهم نصارى ، ضد رضوان ^{٣١}. وقد بعث رضوان ، الذي تولَّى الوزارة فور دخوله القاهرة ، جيشاً على رأسه أخيه ناصر الدين الأوحِد إبراهيم لمطاردة بَهرام ^{٣٢}. ولكن اتفاقاً ودّياً بين الخليفة وبَهرام أمَّنه فيه على نفسه وأقاربه ، أوقف هذه الحملة ، وأقره فيه على الإقامة في الأديرة البيض بالقرب من إخميم ^{٣٣} حيث بقي بها إلى سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ ، بينما نُحِىر أهلُه في الإقامة في مصر أو الخروج منها إلى بلدهم تل باشر ^{٣٤}.

^{٣٠} نفسه .

^{٣١} نفسه وكذلك : Garcin, J. Cl., *Un centre musulman de la Haute - Egypte médiéval* :

Qus, p. 85 - 86

^{٣٢} ابن ميسر : أخبار ١٢٦ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٦١ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٩٠ .

^{٣٣} أبو صالح : تاريخ ١٠٦ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٨ . وانظر نص الأمان الذى كتبه الحافظ

لبهرام وأقاربه عند ، القلقشندي : صبيح ١٣ : ٣٢٥ - ٣٢٦ . كذلك شرح الحافظ موقفه من

بهرام في رسالة بعث بها إلى روجر الثانى ملك صقلية أوردتها القلقشندي : صبيح ٦ : ٤٥٨ -

٤٦٣ ، وحراسة كانار Canard, M., " Une lettre du calife Fatimide al - Hafiz à Roger

II " dans *Atti del Convergnio Internazionale di Studi Ruggeriani, Palerm 1955,*

pp. 126 - 146

^{٣٤} ابن ميسر : أخبار ١٢٦

وبما أن الخليفة كان مستاءً من رضوان وتصرفه ، فقد أرسل في سنة ١١٣٩/٥٣٣ ، في إحضار بَهرام وأسكنه معه في القصر يشاوره في تدبير الدولة ، مما أغضب رضوان واضطره إلى الهرب ^{٢٥}.

وقد توفي بَهرام في القصر في ٢٤ ربيع الثاني سنة ٥٣٥ / ٧ ديسمبر ١١٤٠ ، فحزن عليه الحافظ حزناً شديداً وأمر بإغلاق النواوين ثلاثة أيام حداداً عليه ، وأحضر بطرك الملكية بمصر وأمره بتجهيزه ، وسار الحافظ في مقدمة مشيعيه وحوله أعيان الدولة حتى دُفِن في دير الحَنْدَق ظاهر القاهرة ^{٢٦}.

وبوفاة بَهرام انتهت مرحلة هامة في تاريخ الدولة الفاطمية ، مرحلة سيطر فيها العنصر الأرمني على مقاليد الأمور في مصر ، وهي المرحلة التي بدأت مع بدر الجمالي واستمرت مع خلفائه الأفضل شاهنشاه ، وأبى على الأفضل كتيفات ، وأبى الفتح يانس وانتهت بوفاة بهرام .

وقد لعب الأرمن دوراً سياسياً وعسكرياً وحضارياً كبيراً في مصر ، فهم الذين حافظوا على استمرار الدولة ، وتمثل عمارة أبواب القاهرة وأسوارها التي أنجزت في عصر بدر الجمالي تأثير العمارة الأرمنية على هذه المنشآت الدفاعية بوضوح ^{٢٧}.

^{٢٥} نفسه ١٣٠ - ١٣١ ، ابن القلائي : ذيل ٢٧٠ ، ابن ظافر : أخبار ٩٩ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٩٠ .

^{٢٦} نفسه ١٣٣ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٩١ ، المقرئ : المقفى ٢٦٦ ظ الاتعاظ ٣ : ١٧٥ ، وذكر ساويرس : تاريخ ٣ / ١ : ٢٣ ان تابوته اخرج من باب السباط بالقصر إلى كنيسة الرغوى .
^{٢٧} انظر فيما يلي الفصل الرابع عشر .

رضوان بن وَلَحْشَى وبداية الإصلاح السنى

فور أن فرَّ بَهْرَام من القاهرة دخل إليها رضوان بن وَلَحْشَى ووصل إلى بين القصرين ، واضطر الخليفة الحافظ إلى الرضوخ لضغط الأمراء وأشار بنزول رضوان في دار الوزارة وتخلَّع عليه يخلع الوزارة في ١١ جمادى الأولى سنة ٥٣١ / فبراير ١١٣٧ ، ونعته في سجل توليته بـ « السيد الأجل الأفضّل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الفتح رضوان الحافظى »^{٣٨}.

كان رضوان بن ولحشى أول وزير سنّى يتولّى الوزارة للفاطميين ، وكان أصله من « صبيان الرّكاب » وكان يتّصف بالشجاعة حتى لقّب بـ « فحلّ الأمراء » ، وشارك في القبض على أبى على الأفضّل كتيّفات سنة ٥٢٦ / ١١٣١^{٣٩} ، وترقى في الخدم حيث تولى ولاية قوص وإخميم سنة ٥٢٨ / ١١٣٤^{٤٠} . وكان بَهْرَام الأرمنى يخشاه فأخرجه من مصر سنة ٥٢٩ / ١١٣٥ وولّاه ولاية عسقلان فمنع كثيرًا من الأرمن من التوجّه منها

^{٣٨} ذكر ابن الأثير ونقل عنه أبو الفدا والمقرئزى أن رضوان بن ولحشى هو أول من لقّب « بالملك » مضافاً إلى بقية الألقاب من وزراء الفاطميين . (ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٨ ، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٢ ، المقرئزى : الخطط ١ : ٤٤٠ ، اتعاظ ٣ : ٦١) . ويبدو أن الصواب غير ذلك فسجل تولية رضوان الذى أورده الفلقشنلى : صبح ٨ : ٣٤٢ - ٣٤٦ لم يرد فيه ذكر للقب الملك . وذكر المقرئزى في ترجمة الصالح طلائع بن رزيك أنه « أنشئ له سجل عظيم نعت فيه بالملك الصالح ، ولم يلقب أحد من الوزراء قبله بالملك وذلك يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٩ . (اتعاظ ٣ : ٢١٨ وقارن ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٤٠ - ١٤٣ وانظر كذلك ابن ظافر : أخبار ٩٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٦ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٩٠ وفيما على الفصل العاشر) .

^{٣٩} المقرئزى : الخطط ٢ : ٢٠٣ ، اتعاظ ٣ : ١٥٧ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣ / ١ : ٣٠ س ٤ .
^{٤٠} ابن ميسر : أخبار ١٣٨ ، المقرئزى : اتعاظ ٣ : ١٨٤ .

إلى مصر ، مما أثار غضب بَهرام فاستدعاه منها وولاه الغريبة . وقد حمد له المصريون تصرفه مع الأَرَمَن ولجئوا إليه عندما ثاروا عليهم .

وقد جاء في سِجِلِّ تقليده الوزارة ، الذى أنشأه ابن الصَّيرَفِي ، « لأنك أذهبت عن الدولة عارها ، وأمطت من طرق الهداية أوعارها ، واستعدت ملابس سيادة كان قد دنسها من استعارها »^{٤١} . وبدأ رضوان إصلاحاته باستخدام المسلمين فى المناصب التى كانت بأيدي النَّصارى^{٤٢} وعمل على تقلُّم أرباب المعارف سيفًا وقلمًا ، فأحسن إليهم وزاد فى أرزاقهم^{٤٣} وشدَّد على النَّصارى أصحاب بَهرام وصادرهم وقتلهم بالسيف وأباد أكثرهم^{٤٤} وأبعد صنيعة الخلافة أبا الكرم الأخرم النصرانى عن ديوان النَّظر ، وهو النصرانى الوحيد الذى تولى هذا الديوان وتوصل إليه بالضَّمان ، واستخدم عوضًا عنه كاتبًا مسلمًا بلا ضمان هو القاضى المرتضى بن المُحَنِّك^{٤٥} .

وبعد ذلك طلب رضوان إلى ديوان الإنشاء بإنشاء سِجِلِّ فى الوضع من النَّصارى واليهود ، أنشأه ابن الصَّيرَفِي ، مُنعوا فيه من « إرحاء النَّوائب ، وركوب البغلات ، وأن لا يلبس أحدٌ منهم طيلسان ، وأمرهم بشدِّ الزَّنانير المخالفة لألوان ثيابهم ، وألاَّ يجوزوا على معابد المسلمين ركباناً - فما روى فى أيامه يهودى ولا نصرانى يجوز على الجامع راكباً ، وإذا اضطر إلى الجواز نزل وقاد دابته - وأمر أن لا تُسَلَّم الجزية منهم إلاَّ على مساطب وهم أسفلها ،

^{٤١} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٤٨ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٨٤ .

^{٤٢} نفسه ٥٠ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٨ - ١٢٩ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٢ : ٦٢ ظ .

^{٤٣} نفسه ٤٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .

^{٤٤} ابن ميسر : أخبار ١٢٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .

^{٤٥} ابن الطوير : نزهة ٢٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ . وانظر عن الضمان فيما يلى الفصل الثانى

ومنعهم من التكني بأبي الحسن وأبي الحسين وأبي الطاهر ، وأن لا يبيضوا قبورهم ^{٤٦} .

وقد ضاعف رضوان الجزية على اليهود والنصارى وجعلها ثلاث درجات : الأغنياء ويدفعون أربعة دنائير وسدس ، والأوسطين ويدفعون دينارين وقيراطين ، ثم بقية عامتهم ويدفعون دينارًا واحدًا وثلاث وربع ، وألزمهم أن يشتتوا زنانيرهم في أوساطهم ^{٤٧} .

ولاشك أن رضوان بن وَلَحْشَى لم يكن يعترف بشرعية خلافة الحافظ بما أنه سنى المذهب ، فعمل على تخلع الحافظ بحجة أنه ليس خليفة أو إمام وإنما هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يصح ، واستفتى العلماء في ذلك فامتنعوا ، وبلغ ذلك الحافظ فأضمره له ^{٤٨} .

الإصلاح السنّي

كان وصول رضوان إلى منصب الوزارة ، كأول وزير سنى للفاطميين ، بداية تحول سنى بطيء قاد إلى انتصار السنة النهائي في مصر بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا . ولما كانت الإسكندرية من أهم مراكز المقاومة السنية في مصر وملجأ كل الخارجين على الدولة الفاطمية ، فقد بنى بها الوزير ابن وَلَحْشَى أول مدرسة في مصر لتدريس المذهب المالكي في سنة ٥٣٢ / ١١٣٨ ^{٤٩} . فقد كان المذهب الشائع بين أهل الإسكندرية هو المذهب المالكي بسبب علاقتها الواسعة مع شمال إفريقيا والأندلس . وكان الفقيه المالكي أبو بكر محمد بن الوليد

^{٤٦} نفسه ٤٩ - ٥٠ ، ابن الفرات : تاريخ - غ ٢ : ٦٢ ظ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .

^{٤٧} ساويرس : تاريخ البطارقة ٣ / ١ : ٣١ ، وانظر فيما يلي الفصل الثاني عشر .

^{٤٨} ابن الطوير : نزعة المقلتين ٥١ - ٥٢ .

^{٤٩} ابن ميسر : أخبار ١٣٠ ، (التويري : نهاية - غ ٢٦ : ٢٩٠ القلقشندي : صبح ١٠ :

٤٥٨ - ٤٥٩ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٦٧ . وانظر فيما يلي الفصل الرابع عشر .

الطُّرُوشِي ، الذي استقر في الإسكندرية سنة ٤٩٠ / ١٠٩٧ ، قد قام ، كما تذكر المصادر ، بتدريس المذهب المالكي في مدرسة أنشأها في بيته^{٥٠}. لذلك كان من الطبيعي أن يبنى ابن وَلَحْشِي مدرسته في الإسكندرية لأن القاهرة كانت في هذا الوقت عاصمة الفاطميين ومركز النشاط الشيعي في العالم الإسلامي ، والمدرسة ابتكار سني وظاهرة جديدة في مصر . ولاشك أن إقامة مؤسسة سنية هامة كالمدرسة في العاصمة الشيعية كان من شأنه قلب التوازن بين الخليفة ووزيره . وبما أن الإسكندرية مدينة كل سكانها من أهل السنة ، كان طبيعياً أن يبنى رضوان مدرسته بها ليقاوم بها مذهب الدولة وليُعَلِّي كلمة الإسلام السني في مواجهة اتساع نفوذ أهل الذِّمَّة الذي تزايد في العقود الأولى للقرن السادس^{٥١}. ومع ذلك استصدر رضوان سِجِلًا من الخليفة تُسَبِّت فيه المدرسة إلى الخليفة وعرفت « بالمدرسة الحافظية » ولم تنسب فيه إلى الوزير الذي بناها ، لأن الخليفة وليس الوزير هو الذي كان يصدر الأمر بتعيين مدرستها بناء على اقتراح من الوزير . وتولى تدريس هذه المدرسة الفقيه المالكي أبو الطاهر بن عَوْف^{٥٢} ، وعرفت لذلك في المصادر بـ « المدرسة العَوْفية » وقد حفظ لنا القلقشندي نص السِّجِل الخاص بإنشاء هذه المدرسة^{٥٣}.

وبعد أربعة عشر عامًا من إنشاء المدرسة الحافظية ، أنشأ وزيراً سنياً آخرًا هو العادل بن السُّلار مدرسة ثانية في الإسكندرية لتدريس المذهب الشافعي ، وقرَّر في تدريسها الحافظ الشهير أبا الطاهر السُّلَفِي^{٥٤} . ويذكر السُّبُكِّي أن

^{٥٠} الضبي : بغية الملتبس في تلويح الأئلس ١٢٧ .

^{٥١} راجع أيمن فؤاد سيد : المدرس في مصر قبل العصر الأيوبي (تحت الطبع) .

^{٥٢} راجع ابن فرحون : الدياج المذهب ١ : ٢٩٢ - ٢٩٥ ، أبا المحاسن : النجوم ٦ : ١٠٠ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٤٥٢ - ٤٥٣ .

^{٥٣} القلقشندي : صبح ١٠ : ٤٥٨ - ٤٥٩ ، الشيال : أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية

الإسلامية « مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية » (١٩٥٧) ٣ - ٢٩ .

^{٥٤} أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٢٧ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ١٠٥ ، ٣ : ٤١٧ ، السبكي :

طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٣٧ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ٧ : ٣٥٤ ، المقرئ : تعاض

ابن السُّلار بنى هذه المدرسة وهو واليًا على الإسكندرية قبل أن يلى الوزارة^{٥٥}، بينما حدّد ابن خُلِّكان تاريخ بنائها في سنة ٥٤٦ / ١١٥٠^{٥٦}، أى في الوقت الذى تولّى فيه ابن السُّلار الوزارة، إلّا أنه عاد في موضع آخر ليؤكد أن ابن السُّلار بناها وهو مازال واليًا على الإسكندرية^{٥٧} متابعًا في ذلك نص السُّبكي.

رضوان يواجه الفِرْنَج (الصليبيين)

كان استيلاء الفِرْنَج (الصليبيين) على بيت المقدس في سنة ٤٩٢ / ١٠٩٩ حافزًا للفاطميين على حفظ ماتبقى لهم من ممتلكات في جنوب فلسطين، فاهتموا بإيجاد حامية قوية في عَسْقَلان تجرّد إليها العساكر والأساطيل في شكل أبنال تتوالى على حمايتها كل ستة أشهر^{٥٨}.

وعندما تولّى رضوان الوزارة للحافظ سنة ٥٣١ / ١١٣٧ استجد « ديوان الجهاد » واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عَسْقَلان بالعدد والآلات، وهىء الناس للخروج إلى الشام وغزو الفِرْنَج^{٥٩}. ولكن الخليفة الحافظ منعه من ذلك إذ أرسل يستدعى بهرام (الوزير الذى حلّ محله رضوان) وأسكنه معه في القصر يستشيره في أموره، كما حثّ الجند على التحرش برضوان حتى ثاروا عليه وضعفت قدرته على مواجهتهم واضطر إلى الفرار من مصر في ١٥ شوال سنة ٥٣٣ / ١٥ يونية ١١٣٩ وقصد الاحتاء بأمين الدولة كُشْتَكِين الأتابكي صاحب صرّخد الذى أحسن استقباله وأكرم ضيافته كما يذكر أسامة بن منقذ وابن القلانسي^{٦٠}

^{٥٥} السبكي : طبقات الشافعية ٦ : ٣٧ .

^{٥٦} ابن خلكان : وفيات ١ : ١٠٥ .

^{٥٧} نفسه ٣ : ٤١٧ .

^{٥٨} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣ ، ٤١ .

^{٥٩} ابن ميسر : أخبار ١٢٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٦٣ - ١٦٤ .

^{٦٠} نفسه ١٣٠ - ١٣١ ، نفسه ٣ : ١٦٩ - ١٧٢ ، ابن القلانسي : ذيل ٢٧٠ ، ابن ظافر : =

ففى سنة ٥٢٩ / ١١٣٥ كان رضوان والياً على عسقلان وقام بجهد كبير فى محاولة منع توافد الأرمن على مصر^{٦١}. ولاشك أنه تمكن خلال هذه الفترة من عقد صلات ودية مع أمراء الشام. وتوضّح لنا رسالة بعث بها كمشتكين إلى رضوان أثناء توليه الوزارة، أوردتها القلقشندى، أنه كانت تربطهما علاقة ودية قبل أن يتولّى رضوان الوزارة^{٦٢}.

وقد اتصل رضوان، أثناء وجوده فى صرّنجد، بعماد الدين زنكى وهو يحاصر بعلبك وطلب إليه أن يمدّه بمعونة عسكرية تساعد على دخول القاهرة كقائد منتصر. ولكن الخطر الذى كان من الممكن أن يمثله تحالف رضوان مع عماد الدين زنكى على البوريين^{٦٣} حكام دمشق، جعل أسامة ابن منقذ، الذى كان فى دمشق اعتباراً من عام ٥٣٢ / ١١٣٨ ويتمتع بمكانة عالية لدى أميرها وكذلك لدى معين الدين أئمر، يقترح على رضوان الحضور إلى دمشق. ولكن بدلاً من أن يحضر إليها فوراً طلب إليه أن ينتظر رسالة تدعوه إلى الحضور. غير أن كمشتكين كان يتعجل عودة رضوان إلى مصر « لما قد وعده به وأطمعه فيه »^{٦٤}. فلا شك أن رضوان قد وعد كمشتكين، إن هو نجح فى استعادة مكانته فى القاهرة، أن يُقلّده منصباً أعلا من ولاية مدينة صغيرة فى إقليم حوران فى الشام^{٦٥}. وبذلك جمع كمشتكين لرضوان جمعاً من الأتراك سيرهم معه، إلا أنهم غدروا به بعد دخوله حدود مصر مما ألجأه إلى طلب الأمان من

٦١ أخبار ٩٩، أسامة بن منقذ: الاعتبار ٥٢ - ٥٦، القرئزى: نهاية - خ ٢٦ : ٩٠، ساويرس: تاريخ البطارقة ٣ / ١ : ٣٢.

٦٢ نفسه ١٢٤، نفسه ٣ : ١٥٦.

٦٣ القلقشندى: صبح ٧ : ١٠٧ - ١٠٩، Canard, M., "Fatimides et Burides a l'époque du calife al Hâfiz li - Dīn Illāh" REI XXXV (1967), pp - 122 - 117

٦٤ البوريون. أسرة تركية حكمت دمشق فى الفترة من سنة ٤٩٧ / ١١٠٤ وحتى سنة ٥٤٩ / ١١٥٤. أسسها طغتكين أتابك الملك شمس الملوك دقاق بن السلطان تثنش السلجوقى.

(le Tournau, R., EI², art. Burides I, pp. 1372 - 1373

٦٤ أسامة: الاعتبار ٥٤.

٦٥ Canard, M., op. cit. p. 144

الحافظ الذي اعتقله بالقصر في الرابع من ربيع الآخر سنة ٥٣٤ / أول ديسمبر سنة ١١٣٩^{٦٦}.

اعتقال رضوان .

ظل رضوان معتقلاً في القصر ثمان سنوات حتى نجح في الهروب منه من نخب نخبه في الموضع الذي كان معتقلاً فيه في ٢٣ ذي القعدة سنة ٥٤٢ / ١٥ إبريل سنة ١١٤٨ ، واجتمع إليه جماعة ممن كان يكاتبهم وخرج معهم إلى الجيزة حيث استنجد بجماعة من العربان وتمكن من هزيمة العسكر الذي سيره إليه الحافظ عند جامع ابن طولون ، ودخل في إثرهم إلى القاهرة ونزل بالجامع الأحمر وحاول الاتصال برؤساء الدواوين لاستعادة مكانته ، غير أن الخليفة الحافظ أمر مقدمى السودان بالهجوم عليه فقتلوه غدراً وحملوا رأسه إلى الحافظ الذي أرسلها بدوره إلى زوجة رضوان^{٦٧} ، وبذلك قضى على واحد من الذين حاولوا التصدي للأخطار الحقيقية التي كانت تهدد العالم الإسلامي في هذا الوقت .

الحافظ يمتنع عن اتخاذ وزراء

وقد أدرك الحافظ خطر الوزراء على سلطته وتطلعاتهم فلذلك لم يستوزر أحداً منذ فرار رضوان في سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ ، وإنما اتخذ كُتّاباً على سنة الوزراء أرباب العمائم ولم يسم أحداً منهم وزيراً مثل : أبو عبدالله محمد بن

^{٦٦} أسامة : الاعتبار ٥٤ - ٥٥ ، ابن القلانسي : ذيل ٢٧٢ ، - ٢٧٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٣٢ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٠ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٧٣ .

^{٦٧} أسامة : الاعتبار ٥٥ (وجعل هذه الحادثة في غير موضعها) ابن القلانسي : ذيل ٢٩٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٣٧ - ١٣٨ ، ابن ظافر : أخبار ٩٩ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٩ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٠ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٣ : ٦٠ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٨٤ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣ / ١ : ٢٤٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٨١ .

الأنصارى ، والقاضى الموفق محمد بن معصوم الشَّيْسى : وصنيعة الخلافة أبى الكرم الأتَّحَرَم النصرانى ^{٦٨}.

لم تمر السنوات الأخيرة لخلافة الحافظ دون مشاكل أو أزمات فقد شهدت السنوات من ٥٣٦ وحتى ٥٣٨ أزمة اقتصادية طاحنة غلت فيها الأسعار وكثر فيها الوباء حتى هلك فيها من المصريين عالم لا يحصى ^{٦٩}.

كذلك فقد كثر المطالبون بمنصب الوزارة ، وكان من بينهم أبو الحسين ابن الخليفة المستنصر وعم الحافظ الذى اعتقله الحافظ ، وكذلك أحد أمراء المماليك المقيمين بالصعيد ويدعى بختيار ، وقد أمر الحافظ بقتله وصلبه ^{٧٠}.

^{٦٨} ابن ميسر : أخبار ١٤٠ ، ابن ظافر : أخبار ٩٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٨٩ .

^{٦٩} نفسه ١٣٤ ، ابن القلانسى : ذيل ٢٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٩٢ ، المقرئى : اتعاظ ٣ :

١٧٦ .

^{٧٠} نفسه ١٣٦ ، ١٣٧ ، عماد الدين الأصفهاني : البيستان الجامع ١٢٦ ، ١٢٨ ، المقرئى : اتعاظ

٣ : ١٧٩ .

الفصل الثامن الأصنام خلال

الصراع على منصب الوزارة

بنهاية عهد الخليفة الحافظ لم يبق للخلفاء أى سلطان على الدولة ، ودارت الصراعات مرة أخرى بين طوائف الجند وخاصة الطائفتين الرّيحانية والجُوشية^١ . وتطلّع ولاية الأقاليم إلى منصب الوزارة وتنافسوا عليه ، يقول ابن الأثير : « إن الوزارة فى مصر كانت لمن غلب والوزراء كالمتملكين ، وقل أن وليها أحد بعد الأفضل بن بدر الجمالى إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك »^٢ .

ببيع أبو المنصور إسماعيل ، الابن الأصغر للخليفة الحافظ ، بالإمامة فى نفس يوم انتقال والده ، وهو يوم الأحد ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ / ١٣ سبتمبر سنة ١١٤٩ وتلقّب بـ « الظّافر بالله » أو « الظّافر بأعداء الله » . ونظرًا لأن الحافظ لم يُصدر أى سِجِل بتعيين ولى عهد له بعد السّجّلات الثلاثة التى أصدرها فى سنتى ٥٢٨ و ٥٢٩ وعهد فيها لأبنائه سليمان ثم حَيْكْرَة ثم حسن على التوالى ، بسبب ما لقيه من عنت وعقوق من ابنه حسن . فقد

^١ أسامة بن منقذ : الاعتبار ٢٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٠ ، ١٤٢ .

^٢ ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٥ وقرن عمارة اليمنى : النكت العصرية ١١٣ ، عماد الدين الأصبهاني : البستان الجامع ١٣٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٧ - ١٣٨ .

اضطر إسماعيل إلى إصدار هذا السَّجِل ينص فيه على أن الخليفة الراحل كان قد أوصى له بولاية العهد، ويُعلن فيه في الوقت نفسه تولّيه الخلافة^٣.

وزارة ابن مصال

وفور مبايعته بالخلافة اتخذ الظاهر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم (سليمان) بن محمد بن مصال اللّكي وزيراً وتخلّع عليه خلّع الوزارة بوصية من أبيه ولقبه بـ « الأفضل أمير الجيوش سعد الملك ليث الدولة »^٤، وهو بذلك آخر وزير فاطمي يعين بهذه الطريقة . وكان ابن مصال في آخر عهد الحافظ ناظرًا للأمور أو المصالح اعتبارًا من سنة ٤٣٩ / ١١٤٤ من غير أن يُطلق عليه اسم الوزارة^٥، وكان في الوقت نفسه عالمًا بأصول الدين^٦. وقد نجح ابن مصال في إعادة النظام بعد محاربه لطائفتي الريحانية والسودان قرب البهنساوية بصعيد مصر^٧.

وزارة العادل بن السلار

لم يرز على بن السلار ، والى الإسكندرية والبحيرة ، أن يلى الوزارة شيخًا مثل ابن مصال ، فاتفق مع ابن زوجته الأمير عباس الصنهاجى - والى الغربية - على التوجه إلى القاهرة وإجبار الخليفة أن يولى الوزارة . وعندئذ

^٣ الفلقشندي : صبح الأعشى ٩ : ٢٨٦ - ٢٩١ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٠٨ - ١١٣ ، ٢٦٩ - ٢٧٤ .

^٤ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٥٥ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٢ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٤٢ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٣ : ٢١ و ، بينا ذكر ابن ميسر : أخبار ١٤١ ، والتويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٩٢ أن لقبه كان « الفضل » وانظر كذلك Canard, M., *El², art. Ibn Masāl III*, p.

^٥ ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥٢١ ، ٥٤٠ .

^٦ ابن الطوير : نزعة ٥٤ .

^٧ ابن ميسر : أخبار ١٤٢ .

طلب الخليفة إلى ابن مصال أن يتجه إلى الحَوْف ليجمع العربان لملاقاة ابن السُّلار، إلا أن ابن السُّلار تمكن من دخول القاهرة وإجبار الخليفة على أن يخلع عليه خلع الوزارة ويلقبه بـ «العاذل سيف الدين ناصر الحق». ورغم تمكن ابن مصال من جمع جيش قوامه من بربر لواتة ومن السودان والعربان، ونجاحه في تحقيق نصر مبدئي واستيلائه على الوجه القبلي، فقد سُرَّ إليه ابن السُّلار جيشاً على رأسه الأمير عباس الصنهاجي تمكن من تعقبه وقتله عند مدينة دِلاص قرب البهنسا في ١٩ شوال سنة ٥٤٤ / ١٩ فبراير سنة ١١٥٠ وحملت رأسه إلى القاهرة وطيف بها هناك^٨.

كان ابن السُّلار أحد الصُّبيان الحُجَريَّة^٩ سنى على المذهب الشافعي ووجد الظَّافر نفسه مجبراً على توليته الوزارة بعد محاصرته للقصر الفاطمي. وقد حاول الظَّافر لذلك أكثر من مرة التَّأمر على وزيره الذي احترز من الخليفة وانتدب رجالاً لحراسته عرفوا «بصبيان الزُّرد»^{١٠}.

وقد عمل ابن السُّلار على تقوية الجيش واهتم بتحسين عَسْقلان وتجريد الأبدال إليها^{١١}. ويعتبر ابن السُّلار أوَّل من حاول عقد اتفاق مع نور الدين

^٨ ابن القلانسي: ذيل ٣١١، أسامة بن منقذ: الاعتبار ٣١، ابن الطوير: نزهة المقلتين ٥٥ - ٥٩، ابن الأثير: الكامل ١١: ١٤٢، أبو شامة: الروضتين ١: ١٩٥، ابن ميسر: أخبار ١٤٢، التويري: نهاية - خ ٢٦: ٩٢، ابن خلكان: وفيات ٣: ٤١٦، ابن الفرات: تاريخ ٣: ٢١ و ٢١ ظ، المقرئ: اتعاظ ٣: ١٩٦ - ١٩٧.

^٩ صبيان الحجر: جماعة من الشباب كانوا يربون في أيام الفاطميين في حجر بجوار باب النصر، مثل الطبايق السلطانية في عصر المماليك، ويطلقون تدريبات عسكرية مثلهم مثل الداوية والاستبارية. (ابن الطوير: نزهة ٥٧، ابن خلكان: وفيات ٣: ٤١٨، المقرئ: الخطط ١: ٤٤٤).
^{١٠} ابن الطوير: نزهة ٥٩، ابن الفرات: تاريخ - خ ٣: ٢٣ و، المقرئ: اتعاظ ٣:

١٩٧ - ١٩٨ وراجع عن العادل Wiet, EI², art. al - Adil b. al - Salār I, p. 204

^{١١} كانت العادة أن يجرد خليفة مصر كل سنة شهور الأبدال إلى عسقلان حسب تواجد الفرنج في الشام. وكان عددهم يتراوح في القلة بين ثلاثمائة إلى أربعمائة فارس وفي الكثرة من خمسمائة إلى ستمائة (ابن الطوير: نزهة ٤١ - ٤٢)

أمير حلب لعمل جبهة موحدة في مواجهة الفرنج الصليبيين^{١٢}. وقد كان ذلك دون شك سابقاً لأوانه ، فقد كان نور الدين يتطلع إلى الاستيلاء على دمشق التي كان الفرنج قد حاصروها قبل ذلك بسنوات^{١٣} ولو كان نور الدين متنبهاً له لتمكنا من تطويق الفرنج في مدن الشام الساحلية . ولإثبات حسن نيته أرسل ابن السلار في سنة ٥٤٦ / ١١٥١ قطعاً من الأسطول المصري إلى يافا تمكنت من أسر عدد من مراكب الفرنج وأحرقت ما عجزت عن أخذه ، وقتل جنوده خلقاً كثيراً من أهل يافا ، ثم اتجهوا إلى عكا وصيدا وبيروت وطرابلس حيث أبلوا بها بلاءاً حسناً وقتلوا جماعة من حجاج الفرنج وكانت هذه الحملة في نفس الوقت تمثل ثأراً من الفرنج الذين أغاروا على القرام وأخربوها في العام السابق^{١٤}.

المؤامرات وضعف الخلافة

أدى التنافس على الوزارة إلى إشاعة الفوضى في البلاد ، كما أن الفساد بلغ القصر الفاطمي نفسه الذي حيكت فيه المؤامرات وكثرت المفاصد الأخلاقية بين سكانه . وتبعاً لابن ظافر وابن الأثير فقد لعب أمير شيزر أسامة بن منقذ ، الذي قدم إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ / ١١٤٤^{١٥} ، دوراً كبيراً في حثك هذه المؤامرات وإذكاء هذه الفتن ، فقد اتصل أسامة بالوزير ابن السلار الذي أكرم مقدمه ، واختص بصحبة ابن زوجته الأمير عباس الصنهاجي^{١٦}.

^{١٢} أسامة بن منقذ : الاعتبار ٢٣ - ٤١ ، ابن الفلاني : ذيل ٣١٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٠٣ .

^{١٣} ابن الأثير : التلخيص الباهر ١٠٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٣٧ .

^{١٤} ابن الفلاني : ذيل ٣١٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٠٢ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٤ ، ١٤٥ ، النويري : نهاية ٢٦ : ٩٣ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، الخطط ١ : ٢١٢ .

^{١٥} أسامة بن منقذ : الاعتبار ٢٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٣٦ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٧٩ .

^{١٦} ابن ظافر : أخبار ١٠٢ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٤ ، ١٩١ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٠٩ ، ٣١٥ ، المقرئ : المقتى (غ . السليمية) ١٧٢ ط ، (غ . باريس) ٢١ و .

وقد تأكد لابن السُّلار أن الفِرثُج في طريقهم إلى الاستيلاء على عَسْقَلان في أعقاب محاولته مهاجمة مدن الشام الساحلية في عام ٥٤٦ / ١١٥١ . وكانت العادة جارية كل ستة أشهر بتجريد عسكر من مصر لحفظ عَسْقَلان^{١٧} وجاء الدور في هذه النوبة على عَبَّاس الصُّنْهَاجِي ، فخرج ومعه نفر من الأمراء فيهم مُلْهم وضرغام وأسامة بن مُنْقِذ^{١٨} . وقد نزل عَبَّاس ومن معه في بَلْبَيس في انتظار قلوب العساكر ، فما كان من أسامة إلا أن حرَّض عَبَّاس على العادل بن السُّلار بعد أن شكاه له اختياره لهذه المهمة وإبعاده عن مصر « بطيها وحسنا ولَّذَّه المقام بها » . وقال له إنه لو أراد لكان سلطان مصر وطلب إليه أن يستغل المودة القائمة بين ولده نصر والخليفة الظافر ، وينقل إليه رغبته في أن يحل محل ابن السُّلار ، وأن الظافر سيجيبه إلى طلبه لكرهه لابن السُّلار ، ومتى أجابه إلى ذلك قتل عمه . وقد نجح نصر في إتمام هذه المهمة بنجاح وقتل الوزير ابن السُّلار في ٦ محرم سنة ٥٤٨ / ٣ إبريل سنة ١١٥٣^{١٩} .

لم تمض مؤامرة قتل ابن السُّلار دون مقاومة ، فقد تجمع أصحاب ابن السُّلار وغلماناه وشغبوا على الظافر وخرجوا إلى ظاهر القاهرة ، وقد حاول الخليفة تسكينهم ولكنهم استوحشوا مما حدث ولم يثقوا في عود الخليفة بمنحهم عفواً عاماً ، وخرجوا ليلاً قاصدين الشام . كما أن أهل السنة بمصر لم

^{١٧} ابن الطوير : نزهة ٤١ ، ٤٢ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٦ .

^{١٨} أسامة : الاعتبار ٤١ - ٤٢ ، ابن الطوير : نزهة ٦١ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٦ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٣ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٥٥ - ٥٦ ، اتعاط ٣ : ٢٠٤ - ٢٠٥ ، المقفى (خ . السليمية) ١٧٢ ظ .

^{١٩} أسامة : الاعتبار ٤١ - ٤٢ ، ابن القلانسي : ذيل ٣١٩ - ٣٢٠ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٣ ، ابن الطوير : نزهة ٦٢ - ٦٦ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٤ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ٢١٤ - ٢١٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤١٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٦ - ١٤٧ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٣ ، ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥٥٣ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٥٥ - ٥٦ ، اتعاط ٣ : ٢٠٤ - ٢٠٥ ، المقفى (خ . السليمية) ١٧٢ ظ .

يرضوا عن مقتل ابن السُّلار ولكنهم لم يتمكنوا من إعلان عدم رضاهم خوفاً من بطش الخليفة وعبّاس الصنّهاجى وولده نصر^{٢٠}.

وقد نكّل الظّافر بجثة ابن السُّلار حيث حملت رأسه إلى القصر وأشرف عليها الخليفة من باب الذهب ، ثم رفعت ليراها الناس ثم أمر بإيداعها بخزانة الرؤوس بيت المال^{٢١}.

كان رد الفعل المباشر لقتل الوزير ابن السُّلار هو استيلاء الفرنج على مدينة عسقلان التي وقعت في أيديهم في ٢٧ جمادى الأولى سنة ٥٤٨ / ٢٠ أغسطس سنة ١١٥٣ . وبذلك فقد الفاطميون آخر ممتلكاتهم في الشام^{٢٢}.

وزارة عبّاس الصنّهاجى وفقد هيبة الخلافة

كان من الطبيعي أن يُقلد الظّافر الوزارة لعبّاس الصنّهاجى ولقبه بـ « السيد الأجلّ الأفضّل أمير الجيوش .. أبو الفضل العباس الظّافرى »^{٢٣} . وقد ازداد عبّاس في تقرب أسامة بن مُنقذ وإكرامه اعترافاً منه بفضله عليه . كذلك عمل على التقرب إلى الأمراء وإكرامهم وأحسن إلى الجنود لينسيهم العادل بن السُّلار .

أما ولده نصر فقد استمر على مخالطة الخليفة الظّافر ، وكان الخليفة يخرج من قصره لزيارة نصر بداره التي بالسُّيوفيين قريباً من القصر بحيث لا يعلم عبّاس بأخبار هذه اللقاءات .

^{٢٠} ابن الطوير : نزهة ٦٤ - ٦٥ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٧ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٩٣ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٠٥ .

^{٢١} ابن ميسر : أخبار ١٤٧ .

^{٢٢} ابن القلانسى : ذيل ٢٢٠ - ٢٢٢ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٨ - ١٨٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٢٣ - ٢٥٥ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٠٩ ، ابن قاضى شعبة : الكواكب الدرية ١٣٩ ، ١٤٤ .

^{٢٣} ابن الطوير : نزهة ٦٦ ، القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٢٢ ، Siern, S., Fatimid Decrees pp. 65 - 69; id., El², art . Abbās b. abil - Futūh 1, pp. 9 - 10 .

وقد استوحش الأمراء من أسامة بن مُنقذ واللبور الذي قام به في قتل ابن السُّلار وهمّوا بقتله . فلما بلغه ذلك أخذ في إثارة عباس على ولده نصر متهماً له بأن الخليفة يفعل به مايفعل مع النساء . ففاتح عبّاس ابنه في ذلك وانزعاجه مما يتناقله الناس . فما كان من نصر إلا أن قتل الخليفة في أحد زياراته له بتحريض من والده ومن أسامة بن مُنقذ فقتله في داره بالسيوفيين في آخر المحرم سنة ٥٤٩ / ١٦ إبريل ١١٥٤^{٢٤}.

وقد برّء أسامة بن منقذ نفسه في هذه التهم في سيرته الذاتية^{٢٥}.

لم تسر الأمور على الوجه الذي أراده لها الوزير عبّاس ، فبعد أن أوهم أهل القصر في مشهد درامي أن إخوة الخليفة هم الذين قتلوه وأنه قتلهم به . أحضر طفلاً صغيراً للظافر يدعى عيسى وأقامه في منصب الخلافة ولقبه بـ « الفائز بنصر الله » وهو لم يبلغ الخمس سنوات ، فكاد الطفل يموت رَوْعاً من هول مشاهدته من منظر الدماء والقتل في القصر ، وظل طول خلافته القصيرة مصاباً بالصَّرَع^{٢٦}.

^{٢٤} أسامة : الاعتبار ٤٣ - ٤٤ ، ابن الفلّانسي : ذيل ٣٢٩ - ٣٣٠ ، عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٠ ، ابن الطوير : نزهة ٦٧ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩١ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٥ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣ / ١ : ٤٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٣ - ٢٤٥ ، ابن خلّكان : وفيات ١ : ٢٣٧ ، ٣ : ٤١٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٧ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٤ ، ابن أيك : كثر ٦ : ٥٥٧ ، ٥٦٣ ، الصفدي : الوافي ٩ : ١٥١ - ١٥٢ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٠٨ ، المقفي (خ . السليمية) ١٧٢ ظ ، ١٨٩ ظ ، الخطط ٢ : ٣٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٨٩ .

^{٢٥} أسامة : الاعتبار ٤٤ .

^{٢٦} أسامة : الاعتبار ٤٤ ، عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣١ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٨ - ١٠٩ ، ابن الطوير : نزهة ٦٩ - ٧٠ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٨ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣ / ١ : ٤٥ - ٤٦ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٤ ، ابن الفرات : تاريخ - خ ٣ : ٨٠ ظ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢١٣ - ٢١٤ ، ٢٣٩ ، المقفي (خ . باريس) ٢١ ظ .
وانظر توقيع هذا الخليفة في المجلة التاريخية المصرية ٥ (١٩٥٦) ١٠٨ .

طلّاع بن رزّيك آخر وزراء الفاطميين الأقوياء

أدت هذه الأحداث إلى قلق واضطراب القصر وجماهير الشعب على السواء . فسارع نساء القصر بالكتابة إلى والى الأشمونين والبهنسا طلائع بن رزّيك ، وأرسلن إليه شعورهن في طيّ الكتب - وهو أقصى ما يمكن في التوسّل عند المرأة المسلمة - يستنجدن به لإنقاذ الخلافة وليقوم بدور المنقذ الذى لاغنى عنه ^{٢٧}.

قدم طلائع بن رزّيك بقواته حتى وصل إلى المَقَس في ١٥ ربيع الأول سنة ٥٤٩ / أول يولية سنة ١١٥٤ ، ودخل إلى القاهرة مؤيداً من كافة الأطراف بعد ذلك بأربعة أيام ^{٢٨} بعد أن تحقّق عبّاس ونصر وأسامة بن مُنقذ من معاداة الناس ورفضهم لهم وهربوا بما خف من المال والتحف إلى أيلة قاصدين الشام ، ونهب العامة مابقى في دورهم ^{٢٩}.

وقد دخل طلائع إلى القاهرة مع قواته لابساً ثياباً سوداء ورافعاً أعلاماً وبنوداً سوداء وكذلك شعور نساء القصر على الرماح حزناً على الظافر . ونزل بدار نصر بن عبّاس وعلم المكان الذى دفن فيه الظافر فأخرجته وغسّله وكفّنه ، وحمله الأستاذون والأمراء في تابوت إلى القصر ، وطلّاع خلفهم

^{٢٧} أسامة : الاعتبار ٤٥ : ابن ميسر : أخبار ١٤٩ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٩٢ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢١٥ ، القلقشندي : ص ٣ : ٢٧٠ .

^{٢٨} أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٣ .

^{٢٩} أسامة : الاعتبار ٤٨ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٨ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩٣ ، ابن يسر : أخبار ١٤٩ - ١٥٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٦ ، ٣ : ٤٩٢ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٩٥ ، الصفدى : الوافى ٩ : ١٥٢ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢١٥ - ٢١٧ ، الخطط ٢ : ٢٩٣ ، ٤١٠ .

حاف قد شق ثيابه ومعه الناس ، حيث صلى عليه ابنه الخليفة الفائز وأعيد دفنه مع آبائه في تربة القصر المعروفة بتربة الرُّعْفَران^{٣٠}.

وفور انتهاء هذه الرسوم ، خلع الخليفة الفائز على طلائع بن رُزَيْك خِلع الوزارة وأمر بإنشاء سِجِلٍّ نُعت فيه بـ « الملك الصَّالح » ليصبح بذلك أول من تلقب « بالملك » من وزراء الفاطميين ، وذلك يوم الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٩/٥٤٩ يونيه ١١٥٥ ، وهذا السِّجِلُّ من إنشاء المَوْفَّق ابن الخلال^{٣١}.

وقد أُرْسِلَتْ أخت الخليفة الظَّافر إلى الفرنج بعَسْقَلان تطلب تسليم عبَّاس ونصر وتخبرهم بما اقترفوه في حق ابن السُّلار والخليفة الظَّافر وعرضت عليهم مالا جزيلًا إذا أوقعوا به ، فتمكنوا منه وقتلوه قرب المَوَيْلِح في ٢٣ ربيع الآخر سنة ٧/٥٤٩ مايو ١١٥٤ ، وتمكن أسامة من الفرار إلى الشام^{٣٢}، أما نصر فقد تسلمته جماعة الدَّاوية في فلسطين مقابل ثلاثين ألف دينار وأرسلته في قفص من حديد إلى نساء القصر بالقاهرة اللاتي عَذَّبْنَهُ وأرسلته مقعدًا فاقد البصر لكي يعرض في شوارع القاهرة ثم يُصَلَّب حيًّا على باب زُوَيْلَةَ^{٣٣}، وذلك

^{٣٠} ابن ظافر : أخبار ١٠٨ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٩ - ١٥٠ ، سلويز : تاريخ البطارقة ٤٦/١/٣ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٦ ، ٣ : ٤٩٢ ، ابن سعيد : النجوم ٩١ ، ٢٢١ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٥ ، الصفدي : الوافي ٩ : ١٥٢ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٢٧٠ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢١٥ - ٢١٧ ، الخطط ٢ : ٢٩٣ ، ٤١٠ .

^{٣١} ابن ميسر : أخبار ١٥٠ ، ١٥١ ، سلويز : تاريخ البطارقة ٣ : ٤٦ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٥ ، ٩٧ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢١٨ ، ٢١٩ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٦ ، ٣ : ٤٩٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٥٠ ، ٥ : ٣١١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ٢١٤ - ٢١٥ ، الشيال مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥١ - ١٥٣ وانظر ألقابه كذلك عند Wiet, G., RCEA VIII, no 3189, IX, no 3231; Stern, S., Fatimid Decrees pp. 70-79 .

^{٣٢} أسامة : الاعتبار ٥٠ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٥٠ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٩٢ ، ابن أيك : كنز الدرر ٦ : ٥٦٧ - ٥٦٨ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٢٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣١٠ .

^{٣٣} ابن ظافر : أخبار ١٠٩ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٩٣ ، سلويز : تاريخ البطارقة ٣ : ١ / ١ =

في ربيع الأول سنة ٥٥٠ / يولية ١١٥٤ . وتحفظ مخطوطة بالمتحف البريطاني بنصّ السّجلّ الذي يعلن وصوله إلى القاهرة ^{٢٤}.

يعد الصّالح طلائع بن رزّيك خاتمة الوزراء الفاطميين الأقوياء ، وآخر دعامة في الدولة المتداعية ، إلّا أنه كان إمامي المذهب شديد التعصب له مبغضاً للنصارى ^{٢٥}. واعتبر عمارة اليمنى أن زوال دولة الفاطميين من مصر قد تم مع نهاية حكم طلائع بن رزّيك وولده ^{٢٦}.

وفور أن تولى الصّالح طلائع الوزارة استولى على مقاليد الأمور لصيغر سن الخليفة ، مثلما فعل الوزير الأفضل من قبل مع الخليفة الأمر ، وأخذ في تتبّع كبار رجال الدولة وأعيانها وصادر أموالهم خوفاً منهم ، حتى اضطر بعضهم إلى مغادرة مصر ^{٢٧}.

واستن الصّالح طلائع سنة جديدة إذ أخذ يبيع ولايات الأعمال للأمرء بأسعار مقرّرة تعرف بـ « البراطيل » . وجعل لكل ولاية سعراً ، وحدّد مدة كل متول بستة أشهر فقط ، خوفاً منه أن يثوروا عليه وينازعوه الوزارة . ومن ناحية أخرى احتكر الغلات الزراعية حتى غلت أسعارها مما أضعف اقتصاد الدولة ^{٢٨}.

ولاشك أن الصّالح طلائع كان آخر وزراء ، الفاطميين الذين حاولوا التصدّي للفرنج في الشام . فابتداء من عام ٥٥٠ / ١١٥٥ أخذ في إرسال

= ٤٦ ، ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥٦٧ - ٥٦٨ ، المقرئ : المقفى (غ . السليمية) ، ١٧ ، ظ (غ . باريس) ٢١ ظ ، Stern , S., EI², art. 'Abbās b. abīl' - Futūh I, p. 9 ، Br. Mus. Suppl. 1140 ^{٢٤}

^{٢٥} ابن الأثير : الكامل ١١ : ٢٧٥ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣ / ١ : ٤٦ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٢٩٤ ، اتعاظ ٣ : ٢٢٢ ، ٢٤٩ .

^{٢٦} عمارة اليمنى : النكت المصرية ٦٨ .

^{٢٧} ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩٤ ، ابن ظافر : أخبار ١١١ .

^{٢٨} ابن ظافر : أخبار ١١١ ، ابن خلكان : وفیات ٣ : ١١٠ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٢٢ ، ٢٤٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٣٩ .

الأسطول والجيش لمحاربة الفرنج في صور وتمكن من إحراقها وأسر حجاجاً من النصارى وظفر كذلك بغنائم كثيرة^{٣٩}.

وفي عام ٥٥٢ / ١١٥٧ فُسيخت الهدنة التي عقدها مع الفرنج في العام السابق ، فأخذ في إعداد العساكر وتجهيزهم للإغارة مرة أخرى على الفرنج حيث تمكنت جيوشه من مهاجمة غزّة وعسقلان والشريعة وبيروت والشوَبك وعكا^{٤٠}. وكرّر المحاولة في عام ٥٥٣ / ١١٥٨ حيث وصلت قواته إلى بيت المقدس مما اضطر الفرنج إلى طلب الصلح . وقد بلغ جملة ما أنفقه الصّالح طلائع على العساكر في هذه الحملات أكثر من مائة ألف دينار^{٤١}.

وقد أدرك الصّالح أن مصر لا تستطيع بمفردها مواجهة المملكة اللاتينية في بيت المقدس ، فاستعاد التقليد الذي بدأه قبله العادل ابن السلار فأرسل إلى نور الدين ، صاحب دمشق ، يطلب إليه توحيد جهودهما . وكان رسول الصّالح طلائع في هذه المهمة الأمير أسامة بن مُنقذ الذي تبادل معه مجموعة من القصائد قصد بها تيسير مهمته لدى نور الدين لخلق نوع من التحالف بين مصر الشيعية والشام السنية ضد الفرنج في الشام^{٤٢}. وتأكيّداً لنيته أرسل الصّالح سفارة إلى نور الدين ومعها هدية « من الأسلحة وغيرها قيمتها ثلاثون ألف دينار ، وسبعون ألف دينار عيّنًا عونًا له على قتال الفرنج »^{٤٣}.

^{٣٩} ابن القلانسي : ذيل ٣٣٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٥٣ ، المقرئزي : اتعاظ ٣ : ٢٢٤ .

^{٤٠} نفسه ٣٣١ ، ابن ميسر : أخبار ١٥٥ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٦ ، المقرئزي : اتعاظ ٣ : ٢٣٠ .

^{٤١} أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٨٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٥٦ ، المقرئزي : اتعاظ ٣ : ٢٣٤ .

^{٤٢} أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٨٨ : ٢٩٩ .

^{٤٣} ابن القلانسي : ذيل ٣٥٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٥٧ ، المقرئزي : اتعاظ ٣ : ٢٣٤ .

وقد تنبّه الفرنج إلى خطورة مثل هذا التحالف عليهم ، فأرسلوا في سنة ٥٥٤ / ١١٥٩ رسولا إلى القاهرة ومعه هدية لطلب الهدنة^{٤٤} ، ولكن الصالح رفض ذلك واستمر على مساندته لنور الدين .

كان من الطبيعي أن تتآلف المملكتان الإسلاميتان في دمشق والقاهرة في مواجهة الفرنج ، ولكن اختلاف المذاهب الدينية وقف حجر عثرة في سبيل هذا الائتلاف .

كانت هذه آخر محاولة للملك الصالح إذ أن هموم السياسة والمشاكل الداخلية لم تترك له متسعاً من الوقت لاستعادة مهاجمة الفرنج . ومع ذلك فقد كان يحترز من الفرنج ويخشى انتقامهم فبنى في سنة ٥٥٤ / ١١٥٩ حصناً من لبن على بليس حفظ له خلفاؤه من الوزراء امتناً كبيراً عليه^{٤٥} .

وإذا كانت هذه هي آخر محاولات وزراء الفاطميين في مهاجمة الفرنج ، فإن الفرنج أخذوا بعد هذا التاريخ يهتمون بأمر مصر وصراعاتها الداخلية كما سنرى بعد ذلك . ولسبب مجهول فقد التزم الملك الصالح بأن يدفع للفرنج جزية سنوية مقدارها ٣٣ ألف دينار امتنع شاور السعدى بعد أن تولى الوزارة عن دفعها لهم^{٤٦} .

وإلى الصالح طلائع يرجع فضل بناء آخر المعالم العمرانية للفاطميين في القاهرة ، وهو الجامع الذي مازال قائماً إلى الآن خارج باب زويلة والذي يعود تاريخ بنائه إلى سنة ٥٥٥ / ١١٦٠^{٤٧} .

^{٤٤} المقرئى : اتعاط ٣ : ٢٣٦ .

^{٤٥} نفسه ٣ : ٢٣٦ .

^{٤٦} أورد خير هذه الجزية غليوم أسقف صور (Cahen, Cl., Un récit inédit du vizirat de

Dirgham " an Isl, VIII (1969), pp. 29 - 30, 40, 42

^{٤٧} المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩٣ ، التويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٩٧ .

أطماع الصالح طلائع

كان الملك الصالح يطمع في أن يجعل أمر الخلافة الفاطمية في عقبه ، فعندما توفي الخليفة الفائز في ١٧ رجب سنة ٥٥٥ / ٢٣ يولية سنة ١١٦٠ دون وريث ، أقام مكانه في الخلافة الأمير عبدالله حفيد الحافظ ، وهو أصغر الأقارب^{٤٨} ، ونعته بـ « العاضد لدين الله » وزوجه من ابنته عسى أن ترزق منه ولداً « فيجتمع لبني رزّيك الخلافة مع الملك »^{٤٩}.

وقد استبد الصالح بجميع أمور الدولة ولم يكن للعاضد معه أمر ولا نهى ، حتى أنه نقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة .

ضاق الخليفة العاضد بتسلط طلائع عليه ، كما أن نساء القصر لم يقبلن بسهولة زواج ابنته من الخليفة فدبرت السيدة العمة ست القصور ، أخت الظافر الصغرى ، لقتله حيث تربص له بعض الخدام في دهليز القصر وأردوه قتيلاً في ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ / ١١ سبتمبر سنة ١١٦١^{٥٠}.

^{٤٨} يلاحظ أن الصالح أقام العاضد خليفة مباشرة وليس « إماماً مستودعاً » كما تقضى بذلك العقيدة الإسماعيلية . كما أنه اختار أصغر أقارب الخليفة المتوفى وليس أكبر الأقارب سناً . فقد أشار عليه أصحابه باختيار أصغر الأقارب كما فعل الوزير عباس مع إخوة الظافر ، وراجع Wiet, G., EI², art. al - Adid li - Dini llâh I, pp. 202 - 203

^{٤٩} المقرئى : اتعاط ٣ : ٢٤٦ ، وقرن عمارة اليمنى : النكت العصرية ٥٣ ، ٦١ ، ٦٢ ، ابن ظافر : أخبار ١١٢ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، الصفدى : الوافى ١٦ : ٥٠٣ ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ٣١٨ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٩٦ .

^{٥٠} عمارة اليمنى : النكت ٤٨ ، ١٠٠ ، ١٤٥ (وفيه أنه لما قتل الصالح هاجت القاهرة وماجت) ، عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٣ ، ابن ظافر : أخبار ١١٢ ، سلويز : تاريخ البطارقة ٣ : ١ : ٤٧ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٢٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣١١ - ٣١٣ ، ٤١٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٨ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٩٦ - ٩٧ ابن الفرات : تاريخ - خ ٥ : ٧٩ ظ ، الصفدى : الوافى ١٧ : ٦٨٦ ، ابن سعيد : النجوم ٢٢٢ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩٤ ، اتعاط ٣ : ٢٤٦ - ٢٤٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٤٥ ، ٣٥٩ - ٣٦٠ .

كانت آخر كلمات الصّالح عند وفاته أسفه على أنه لم يعمل على غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفرنج . وعلى بنائه جامع على باب زويلة لأنه مضرّة على القاهرة ، وتحذيره لابنه لكي يحتسب من شاور حاكم الصعيد وأن لا يتعرض له بإساءة لأنه لن يأمن عصيانه^{٥١}.

وزارة العادل رُزّيك

خلف الصّالح طلائع في منصب الوزارة ولده رُزّيك وتلقب بـ « الملك العادل » وعمل على إصلاح سياسة والده حيث ساهم الناس بما عليهم من البواقي الثابتة في الدواوين ، وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة ، وأدّى عن الحُجّاج ما يلزمهم إلى أمير الحرمين^{٥٢}.

حاول المقرّبون من العادل رُزّيك أن يُحسّنوا إليه صرف شاور عن ولاية قوص ليم له الأمر بلا منافسة ، فأقصاه - بالرغم من وصية والده - سنة ٥٥٧ / ١١٦٢ وعيّن محله الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرُّفعة والياً على قوص^{٥٣}. وقد اضطر شاور بعد محاولة للسير صوب القاهرة أوقفها رُزّيك في مصر الوسطى أن يقبل مؤقتاً هذا الإقصاء حيث توجه بقواته إلى الواحات ومنها إلى أقاليم غرب الدلتا وتمكن من الاستيلاء على القاهرة من جهة الشمال في سنة ٥٥٨ / ١١٦٣^{٥٤}.

^{٥١} ابن الأثير : الكامل ١١ : ٢٩٠ ، ابن خلكان : وفیات ٢ : ٤٣٩ - ٤٤٠ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٩٧ ، ابن أبيك : كنز الدرر ٧ : ١٩ ، المقرئى اتعاظ ٣ : ٢٥٤ : الخطط

٢ : ٢٩٣ .

^{٥٢} المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٥٣ .

^{٥٣} نفسه ٣ : ٢٥٤

^{٥٤} نفسه .

الفصل السابع النهائية وانقلاب صلاح الدين

كانت السنوات الأخيرة في عمر الدولة الفاطمية سلسلة من الصراعات والحروب بين ولاية الأقاليم المتنافسين على منصب الوزارة والقوى الخارجية التي استعانوا بها لتثبيت مكانتهم .

الصراع بين شاور وضرغام

ففي سنة ٥٥٨ / ١١٦٣ تلبّ شاور بن مجير السّعدى ، والى قوص ، على الملك العادل رُزّيك بن الصّالح طلائع واعتقله ، ثم قتله طيّ بن شاور في ٢١ رمضان سنة ٥٥٨ / ٢٣ أغسطس سنة ١١٦٣^١ .

كان شاور قد تولّى الوزارة في ٢٢ محرم سنة ٥٥٨ / يناير سنة ١١٦٣ ، ولم تكد تمضى على تولّيه الوزارة تسعة أشهر حتى نافسه عليها أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار المنرى ، مُقَدِّم الأمراء البرقية وصاحب الباب (وهى رتبة تلى الوزارة مباشرة)^٢ ، الذى تمكن من الظهور عليه بعد قتال

^١ عمارة اليمنى : النكت ٦٦ - ٦٧ ، مؤلف مجهول : أخبار الدولة المصرية ٤٠ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣٠ / ١ : ٥٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤١٦ ، ابن خلكان : وفیات ٢ : ٤٤٠ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٤٦ ، اتعاط ٣ : ٢٥٧ - ٢٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٤٦ ، ابن قاضى شهاب : الكواكب الدرية ١٦٣ .

^٢ ابن الطوير : نزعة المقلتين ١٢٢ . وعن ضرغام راجع ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٣٩ ، ٢ : ١٢ - ١٣ ، اتعاط ٣ : ٢٦ ، Canard, M., EI¹, art . Dirghām II, pp . 327 - 28 .

انتهى بمقتل الأمير طي بن شاور ، فخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه بـ « الملك المنصور »^٢.

اضطر شاور إلى الفرار من مصر قاصدا الشام في آخر رمضان سنة ٥٥٨ / أغسطس سنة ١١٦٣ مستجدا بالسلطان العادل نور الدين محمود ، صاحب دمشق ، فوصل إليها في ٦ ربيع الأول سنة ٥٥٩ / ٥ فبراير سنة ١١٦٤ وتعهد له إن هو ساعده في إعادته إلى منصبه والقضاء على منافسه ضيرغام أن يدفع له ثلث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر ، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه في مصر ، وأن يتصرف هو بأوامر نور الدين واختياره^٤.

كانت محاولة شاور الاستعانة بأمراء الدول المجاورة هي مؤشِّر نهاية الدولة الفاطمية ، فقد دلت أمراء الشام ثم ملوك الفرنج بعد ذلك على مواطن ضعف الدولة وأغرثهم بالطمع فيها والاستيلاء عليها .

وكان نداء شاور لنور الدين نقطة تحول هامة في مستقبل سياسة نور الدين ، فقد وجه أنظار الأمير الشامي صوب مصر ، وكانت الظروف مواتية

^٢ عمارة : النكت ٦٨ - ٦٩ ، ٨١ ، مؤلف مجهول : أخبار الدولة المصرية ٤٠ - ٤١ ، عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٤ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٢٠ ، الكامل ١١ : ٢٩١ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤١٧ ، ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٤٥ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٩ ، الصفدي : الوالي ١٦ : ٥٠٧ ، المقرئ : الخطط ١ : ٣٣٨ ، ٢ : ١٢ ، اتعاظ ٣ : ٢٦٠ ، ٢٦١ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٣٨ ، ٣٤٦ .

^٤ ابن ظافر : أخبار ١١٤ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٢٠ ، الكامل ١١ : ٢٩٨ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ٣٦ ، البنداري : سنا البرق الشامي ١٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣١ - ٣٣٣ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٧ - ١٣٨ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٧ : ١٤٥ - ١٥١ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٩ ، السبكي : طبقات الشافعية ٧ : ٣٤١ ، الصفدي : الوالي ١٦ : ٩٤ ، ٣٦٥ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٦٤ ، الخطط ١ : ٣٣٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٨٧ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ١٦٤ .

للتدخل فقد كانت الدولة الفاطمية تحتضر ولم تكن تحتاج سوى قليل من الوقت لتلقى حتفها، ومن ناحية أخرى فإن أى استقرار لعناصر شامية في مصر أو فرض رقابة على حكومة الفاطميين كان سيتيح محاصرة المملكة اللاتينية في بيت المقدس التي كان عليها مواجهة جبهتين واحدة في الشمال والأخرى في الجنوب، كما أن الأسطول المصري كان مائزاً قادراً على إزعاج حركة سفن الفرنج في البحر^٥.

وفي نفس الوقت الذي استقبل فيه شاور في البلاط النوري، أرسل منافسه ضيرغام إلى نور الدين رسالة يطلب فيها دعمه وتأييده في منصبه الجديد. ولكن طلبه لم يعره نور الدين أى اهتمام وخاب ظنه في مسعاه. وبعد رفض نور الدين مساعدة ضيرغام حاول ضيرغام أن يكسب تأييد عموري Amaury ملك بيت المقدس ليدافع عنه ضد أى هجوم يقوم به شاور، وعرض عليه دفع مبلغ كبير من المال، ولكن عموري تباطأ في الرد عليه^٦.

رحلة شيركوه الأولى على مصر.

أجاب نور الدين شاور إلى مطلبه بعد تردد خوفاً منه من الفرنج، فأرسل معه في جمادى الأولى سنة ٥٥٩ / إبريل سنة ١١٦٤ جيشاً على رأسه أسد الدين شيركوه، الذي كان له دور أساسي في اتخاذ نور الدين لقراره، ليعيد شاور إلى منصبه.

لم يكن ضيرغام يجهل أن جيش نور الدين جاء ليعيد منافسه شاور إلى الوزارة، وأن العهود التي قطعها شاور لنور الدين ستمكنه من الاستيلاء على مصر واستغلالها لصالحه. وقد أدرك ضيرغام أنه ضائع لا محالة. وبما أنه لم

^٥ Elisséeff, N., Nūr al - Din , un grand prince musulman de syrie au temps des

Croisades, II, p. 585

^٦ أبو شامة: الروضتين ١ : ٤١٨ ، المقرئ: انماظ ٣ : ٢٦٣ ، ٢٧٦ .

تكن له ثقة في قواته فقد وجه نداءً جديدًا إلى الفرنج ، وعرض على عمورى - إذا استطاع أن يقطع الطريق على شيركوه - عقد تحالف معه يجعل مصر ، في حالة انتصار الفرنج ، مقطوعة لمملكة بيت المقدس بدلًا من أن تكون تابعة للسوريين . وقد قبل عمورى هذا العرض واستعد للتدخل ، ولكنه لم يكن يملك قواتًا كافية فقد نجح نور الدين في تحويل أنظار الفرنج إلى ناحية بانياس ليحمى تقائم قوات شيركوه ، وجعلهم مضطرين إلى استبقاء بعض القوات هناك^٧.

وقد انتهى تدخل الجيوش الشامية بقتل ضيرغام في رجب سنة ٥٥٩ / يونية ١١٦٤ عند المشهد النفيسى جنوب القاهرة ، بعد أن تفرق عنه أنصاره وتخلّى عنه الخليفة العاضد^٨.

شاور يعود إلى الوزارة

وفور القضاء على ضيرغام أصدر الخليفة العاضد سجلًا بتولية شاور الوزارة للمرة الثانية في الرابع من رجب سنة ٥٥٩ / ٢٦ يونية سنة ١١٦٤^٩ ، يقول

^٧ Ellséeff, N., op. cit., II, pp. 582 - 84

^٨ عمارة : النكت ٧٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣٢ - ٣٣٣ ، ٤٢٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٩ ، النويرى : نهاية - ح ٢٦ : ١٠٠ ، ابن خلكان : وفیات ٢ : ٤٤٢ ، ٧ : ١٤٦ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٧٠ ، الخطط ٢ : ١٢ - ١٣ . وتجد تفصيل الحرب التى دارت بين شاور وضرغام وحديث عن أبواب القاهرة واستحكاماتها فى نص مجهول المؤلف نقله ابن الفرات فى تاريخه واعتمد عليه المقرئى فى الخطط والاتعاظ ونشره كلود كاهن سنة ١٩٦٩ Cahen, Cl., "Un récit inédit du vizarat de Dirgham", An, Isl. VIII (1969), pp. 27 - 61.

^٩ انظر نص سجل تولية شاور الوزارة للمرة الثانية عند القلقشندى : صبح ١٠ : ٣١٠ - ٣١٨ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥٥ ، ٣٦٩ - ٣٧٩ ، وهو من إنشاء الموفق بن الخلال . وكتب فى نفس الوقت سجل آخر بتولية الكامل بن شاور « نيابة الوزارة » (صبح ١٠ : ٣١٨ - ٣٢٥) وهى أول مرة يقابلنا فيها هذا المنصب .

أبو شامة : « ولم يُغَلَّب وزيرٌ لهم وعاد سوى شاور »^{١٠}. وبالطبع لم يف شاور بتعهداته التي قطعها لنور الدين ، بل طلب إلى شيركوه أن يغادر مصر ويعود على الفور مع قواته إلى الشام . ولكن شيركوه سارع بإرسال قواته فاستولت على بلبس وحكم على البلاد الشرقية^{١١}.

لم يجد شاور أمامه هذه المرة سوى اللجوء إلى الفرنج يطلب نجدهم ومساعدتهم على إخراج جيوش نور الدين ويخوفهم منه إن هو ملك مصر . وإذا كان لجؤ شاور لطلب نجدة نور الدين يعد خيانة لأنه قصد أميراً سنياً موال لبغداد ومخالف لعقيدة الدولة التي يمثلها ، فإن لجوءه في هذه المرة إلى عموري الأول Amaury I ملك مملكة بيت المقدس ، يعد خيانة كاملة الأركان إذ أنه لم يطلب في هذه المرة مساعدة حاكم مسلم بل لجأ إلى أعداء المسلمين يطلبهم على نقاط ضعف بلاده ويطمعهم فيها .

وقد رحّب الفرنج ، الذين وعدهم شاور بدفع ألف دينار يومياً ، بهذا العرض على أمل أن يتمكنوا من الاستيلاء على مصر لحسابهم ، وبعد أن حاصروا قوات شيركوه في بلبس لمدة ثلاثة أشهر ، قبل شيركوه عرضاً بالعودة إلى الشام بعد أن اضطر الفرنج إلى فض حصارهم ومغادرة مصر بعد أن علموا بهزيمة قواتهم في حارم وبتقدّم جيوش نور الدين صوب بانياس^{١٢}.

^{١٠} أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣٤ .

^{١١} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٢١ - ١٢٢ ، الكامل ١١ : ٢٩٩ - ٣٠٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٩ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ١٠٠ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٧٤ - ٢٧٨ ، الصفدي : الوافي ١٦ : ٢١٤ - ٢١٥ ، ابن قاضي شهاب : الكواكب ١٦٥ .

^{١٢} نفسه ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، نفسه ١١ : ٣٠٠ - ٣٠٤ ، نفسه ١ : ٣٣٦ ، ٤٢٣ ، نفسه ١ : ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، نفسه - خ ٢٦ : ١٠٠ ، نفسه ٣ : ٢٧٧ ، ابن قاضي شهاب : الكواكب ١٦٦ .

يذكر أبو صالح الأرمني أن الفرز الأكراد قاموا معهم عوام أهل مصر بهدم وإحراق العديد من البيع والكنائس في أثناء حملة شيركوه الأولى سنة ٥٥٩ ، عندما علموا باستجداد شاور بملك بيت المقدس لينصره عليهم . (تاريخ ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٠) .

كان شاور هو الفائز الحقيقي في هذا الصراع ، فبعد أن أعادته جيوش شيركوه إلى منصب الوزارة ، نجح بفضل تدخل نور الدين ضد جيوش عمورى في فلسطين في التخلص من جيوش السوريين وجيوش الفرنج على السواء ، وأصبح طوال العامين التاليين ابتداء من المحرم سنة ٥٦٠ / نوفمبر سنة ١١٦٤ هو صاحب الأمر والنهى والمتحكم في مقادير مصر وتخلص من أنصار ضيرغام وفرض على الخليفة وصايته الكاملة .

حملة شيركوه الثانية على مصر

ظلَّ شيركوه منذ أن اضطر إلى الخروج من مصر يفكر في كيفية العودة إليها مرة أخرى للاستيلاء على السلطة بالقاهرة ، فقد داعبته فكرة الاستقلال بها والخروج على سيطرة نور الدين وإقامة سلطة قوية مستقلة في مصر

وهكذا جاءت حملة شيركوه الثانية على مصر في سنة ٥٦٢ / ١١٦٧ ، والتي اصطحب فيها ابن أخيه صلاح الدين^{١٣} . وقد أيقن شاور من استقراء الأحداث أن شيركوه إذا قدم إلى مصر في هذه المرة فسيكون بنية البقاء فيها وعدم مغادرتها . لذلك فإنه لم يتوان عن التفاوض مع الفرنج موضعاً لهم الخطر الذى يمثله نور الدين على بيت المقدس لو نجح في الاستيلاء على مصر ، وقد رحّب الفرنج للمرة الثانية بدعوة شاور طمعاً في تملك مصر ، وخوفاً من أن يستولى عليها نور الدين وجيوشه وبذلك يتمكن من تطويق مملكتهم التى ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين^{١٤} . وقد وعدهم شاور بدفع ٤٠٠ ألف دينار منهم مائتى ألف معجلة . وكان مفاوض الفرنج في هذه الصفقة Hugues de Césarée ومعه Geoffroy Foucher ممثلاً للاستتارية ولمزيد من

^{١٣} ابن شداد : النوادر السلطانية ٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٣ ، ابن واصل : مفرج ١ :

١٤٩ .

^{١٤} ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٤٩ .

التأكيد أرادا الحصول على ضمانات كافية من الخليفة في حالة تغيير متولي الوزارة . وقد شرح شاور للخليفة أهمية هذا التحالف وتم توقيع اتفاق بهذا المعنى^{١٥} . ورغم أن المصادر العربية لم يرد بها ذكر لهذا اللقاء الذي تم بين مبعوثي الملك عموري والخليفة العاضد ، فإن غليوم أسقف صور Guillaume de Tyr حَفَظَ لنا بتفاصيل غنية رسوم هذا الاحتفال الذي تم في القصر الفاطمي بحضور الوزير شاور^{١٦} .

وحتى يتفادى شيركوه مواجهة مبكرة مع الفرنج عَبَّرَ النيل عند إطفيح ونزل بالجيزة وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً متصرفاً فيها^{١٧} . وبعد سلسلة من المناوشات تعرّضت لها بالتفصيل كتب الحوليات ، تقابل الجيشان السوري والفرنجي في مصر العليا حيث نجح شيركوه في تحقيق انتصار على الفرنج في ٢٥ جمادى الثاني سنة ٥٦٢ / ١٨ إبريل سنة ١١٦٧ في معركة « البابين » قرب الأشمونين^{١٨} . ولكن هذه المعركة لم تحسم الموقف ، فبدلاً من أن يتوجّه شيركوه إلى القاهرة خلف جيش شاور والفرنج قصد الإسكندرية وجبى ما في طريقه من القرى ، وقد وجد شيركوه في الإسكندرية قوة دعم له ، فالإسكندرية معقل من معاقل السنة بمصر ، وقد أرسل إليه رؤساؤها يعرضون عليه تسليمها إليه ويعرفونه أنه سيجد فيهم أنصاراً مخلصين . فاستتاب بها صلاح الدين وعاد هو إلى الصعيد حيث ملكه وجبا أمواله^{١٩} .

^{١٥} Elisséeff, N. op. cit., II, p. 604

^{١٦} Schlumberger, G., Compagnes du Roi Amaury I de Jérusalem en Egypte au XII^e siècle, Paris 1906, pp. 118 - 121

^{١٧} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٢٤ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٤٩ ، ابن قاضي شهاب : الكواكب ١٦٩ .

^{١٨} نفسه ١٣٢ ، نفسه ١ : ٣٦٥ ، نفسه ١ : ١٥١ ، المقرئ : الانعاظ ٣ : ٢٨٤ ، Ehernkreutz, A. S., Saladin pp. 41 - 44

^{١٩} عمارة : النكت ٨٠ ، عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٦ - ١٣٧ ، ابن ظافر : أخبار ١١٥ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٣ ، الكامل ١١ : ٣٢٤ - ٣٢٦ ، سبط ابن =

كان تقسيم جيش نور الدين إلى قسمين قسم في الإسكندرية بقيادة صلاح الدين وآخر في الصعيد بقيادة شيركوه في غير صالح القوات السورية . فقد نجح شاور والفرنج في إعادة تنظيم قواتهم وتوجهها لمحاصرة الإسكندرية ، وانتهى الأمر بعقد صلح بين الفرنج والمصريين من جهة والجيش السوري من جهة أخرى حيث بذل الفرنج والمصريون لشيركوه خمسين ألف دينار مقابل مغادرته مصر ، فوافق على ذلك بشرط عدم إقامة الفرنج في البلاد وأن لا يملكوا منها قرية واحدة وأن يعود الجيشان في وقت واحد إلى الشام وفلسطين^{٢٠} .

ومع ذلك فقد جاء اتفاق المصريي مع الفرنج باهظًا ومكلفًا للمصريين الذين كان عليهم قبول تواجد « شِخْنَة » للفرنج بالقاهرة ، وأن تكون أبواب المدينة بأيدي فرسانهم حتى يمتنع نور الدين عن إرسال عسكر إليها وأن يكون لهم كذلك من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار^{٢١} .

فرسان الفرنج يدعون عموري لغزو مصر

كان الغرض من ذلك هو محاولة منع جيوش نور الدين من العودة إلى مصر وحماية الجباة الذين كانوا يحصلون الجزية المفروضة حيث نجحوا في جمع مائة

= الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ٢٦٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٥ - ٣٦٦ ، ٤٢٤ ، ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٤٧ - ١٤٨ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥١ ، النويري : نهاية ٢٦ : ١٠١ ، المقرئ : الخطط ١ : ١٧٤ ، ٣٣٨ ، اتعاط ٣ : ٢٨٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٨٧ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ١٧١ - ١٧٢ .

^{٢٠} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٦ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥١ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ١٧٢ .

^{٢١} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤ ، الكامل ١١ : ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٥ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٦ ، ابن الفرات : تاريخ ٤ / ١ : ١٩ - ٢٤ ، المقرئ : الخطط ١ : ٣٣٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٤٩ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ١٧٢ .

وكان الصالح طلائع يحمل إلى الفرنج كل سنة ٣٣ ألف دينار لا تعلم سببها . (مؤلف مجهول : أخبار الدولة المصرية ٤٠ ، المقرئ : اتعاط ٣ : ٢٥٩) .

ألف دينار قيمة الجزية السنوية المتفق عليها . وقد نبّه هؤلاء الفرسان الفرنج في بيت المقدس إلى ضعف وعدم استقرار الحكومة الفاطمية في مصر ، وأوضحوا لهم أن البلاد لا يوجد بها من يدافع عنها ، وهوتوا عليهم عملية غزو مصر ، وأيدهم في ذلك جماعة من أعيان مصر كراهة منهم لشاور وحكمه^{٢٢} . ومن ناحية أخرى فإن الرأي العام في مصر لم يكن ينظر بارتياح إلى وجود « شحنة » للفرنج في القاهرة ، كما أن كثيرًا من المصريين لم يقبلوا بتصرف شاور المهين ، فقد أرسل الكامل شجاع ابن الوزير شاور يعرض على نور الدين الدخول في طاعته ويضمن له أن يجمع كلمة المصريين وراءه ، وقد وافقه نور الدين على ذلك^{٢٣} .

لا شك أن الكامل بن شاور لم يكتب نور الدين إلا بعد أن عينه الخليفة العاضد نائباً لأبيه . فقد أورد القلقشندي سجلاً هاماً بتولية ابن شاور نيابة الوزارة عن أبيه ، وهي المرة الأولى التي عُيّن فيه لأحد وزراء الفاطميين نائباً أثناء وجوده ومباشرة الحكم ، ويدل صدور هذا السجل على أن شاور قد ضعف شأنه وضعفت ثقة الخليفة فيه في أواخر أيامه ، يدل كذلك على أن الكامل ابن شاور كان مدركاً لخطر الفرنج ومبلغ أطماعهم فأثر أن يربط سياسته وسياسة مصر بالاتفاق مع نور الدين ، فانتقال مصر إلى يد أمير مسلم أهون من انتقالها إلى أيدي الفرنج^{٢٤} .

لم يستجب عموري بسهولة إلى إلحاح الفرسان على ضرورة الإسراع بغزو مصر ، فقد كان يرى أنه لا داعي الآن لمهاجمة مصر بما أنها تحمل إليهم جزية

^{٢٢} ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٨٩ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٥ - ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخ ٤ / ١ : ٢١ .

^{٢٣} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤ ، الكامل ١١ : ٣٢٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٦ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٢ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٨٤ .

^{٢٤} القلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ٣١٨ - ٣٢٥ ، جمال الدين الشبال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥٧ - ١٧٠ ، ٣٥٧ - ٣٦٦ .

سنوية يتقوون بها على مواجهة نور الدين في الشام ، كما أن أهالي مصر وعساكرها سيدافعون عنها بالقطع أمام الفرنج ، وسيحملهم الخوف منهم على تسليم البلاد إلى نور الدين^{٢٥}.

وأمام إلحاح الفرسان اضطر عموري إلى إجابتهم على كره منه ، وسارت قوات الفرنج من عسقلان في النصف من المحرم سنة ٥٦٤ / ٢٠ أكتوبر سنة ١١٦٨ حيث وصلوا إلى بليس في أول صفر وتمكنوا من حصارها وتملكها وسبوا أهلها وأقاموا بها مدة خمسة أيام توجهوا بعدها إلى القاهرة حيث أنانخوا عليها وحاصروها في عاشر صفر / ١٣ نوفمبر . وقد دفع خوف أهالي القاهرة من أن يفعل بهم الفرنج مثلما فعلوا بأهالي بليس إلى الدفاع عن المدينة والقتال دونها^{٢٦} ، يقول ابن الأثير : « ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بليس لملكوا مصر والقاهرة بسرعة »^{٢٧}.

حريق الفسطاط الثاني .

وعندما علم شاور بما فعله الفرنج في بليس أمر في تاسع صفر - أي قبل نزول الفرنج على القاهرة يوم واحد - بإحراق الفسطاط وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة وأمر الجنود بنهب الفسطاط ، فهجرت ونُهبت وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يومًا^{٢٨}.

^{٢٥} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٩٠ .

^{٢٦} أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٠ ، ابن واصل : مفرج : ١ : ١٥٧ ، المقرئ : اتعاط ٣ :

٢٩٦ ، Ehrenkreutz, S., op. cit., pp. 48-50 .

^{٢٧} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨ ، الكامل ١١ : ٣٣٦ .

^{٢٨} عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٨ ، ابن طاهر : أخبار ١١٦ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨ ، الكامل ١١ : ٣٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩١ ، ٤٣٢ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٧ ، ابن أبيك : كنز الدرر ٧ : ٣٠ ، ابن الفرات : تاريخ ١ / ٤ : ٢٤ - ٢٥ ، المقرئ : الخطوط ١ : ٢٨٦ ، ٣٣٨ - ٣٣٩ ، اتعاط ٣ : ٢٩٦ - ٢٩٧ ، أبو الحسن : النجوم =

أُخس شاور بخرج موقفه وعجزه عن مقاومة الفرنج ، فلجأ مرة أخرى إلى مراسلة عموري مُذكِّراً له بما بينهما من مودة ، ومُخوِّفاً له في نفس الوقت من نور الدين ، وأن المسلمين لن يوافقوه على تسليم البلاد ، ويطلب إليه عقد اتفاقية صلح حتى لا سُلِّم البلاد إلى نور الدين يدفع له بمقتضاها ألف ألف دينار يُعَجَّل له منها مائة ألف فأجابه عموري إلى ذلك بشرط موافقة الخليفة العاضد فلم يكن الفرنج يُتقون في شاور^{٢٩}. واستمراراً في سياسته في ضرب قوة الفرنج بقوة نور الدين طلب شاور إلى الخليفة العاضد أن يكتب إلى نور الدين طالباً معونته خوفاً من سقوط مصر في أيدي الفرنج فأُرْسِلَتْ « الكتب إلى نور الدين مُسوَّدة وفي طيها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة » ويقول له فيها « إن لم تبادر ذهبت البلاد »^{٢٠}.

حملة شيركوه الثالثة

كانت استجابة نور الدين وشيركوه سريعة لمطلب المصريين ، وأمدَّ نور الدين شيركوه ، في هذه المرة ، بمائتي ألف دينار بالإضافة إلى الأسلحة والخياب والدواب ، وأذن له في أن يختار من العسكر ألفي فارس ومنح كلاً منهم عشرين ديناراً غير محسوبة من جامعتهم ، فسار إلى مصر ومعه ستة آلاف

= ٥ : ٣٥٠ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ١٧٥ - ١٧٦ ، وانظر كذلك Kubiak, W., "the Burning of Misr al - Fustat in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence », Africana Bulletin XXV (1976), pp. 51 - 64

^{٢٩} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩١ - ٣٩٢ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٧ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٧ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٩٨ ، ابن الفرات : تاريخ ٤ / ١ : ٢٥ .

^{٢٠} نفسه ١٣٨ ، الكامل ١١ : ٣٣٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩١ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٨ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ١٠٢ ، ابن الفرات : تاريخ ٤ / ١ : ٢٢ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٩٣ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ١٧٦ .

فارس . ومجموعة من مقدمى الأمراء^{٣١} ، كذلك ندب نور الدين صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن أخى شيركوه ليجبى معه إلى مصر ، فخرج معه على كره منه^{٣٢} ، لا يعلم ما ينتظره من مجد في مصر .

وبينا الفرنج يستحثون أهل القاهرة على حمل المال المتفق عليه ، وصلت مقدمة جيش شيركوه وصلاح الدين إلى مصر لتصرة المصريين في ٧ ربيع الأول سنة ٥٦٤ / ٨ يناير سنة ١١٦٩ ، فاضطر عمورى إلى مغادرتها مصطحباً معه إثني عشر ألف أسير ما بين رجل وصبي وامرأة^{٣٣} .

كان ظاهر مجيء شيركوه في هذه المرة هو مساندة شاور والخليفة العاضد ضد الفرنج ، إلا أنه كان يُبطن الاستيلاء على مصر ووجد أنه لا سبيل إلى تحقيق ذلك مع بقاء شاور ، فدبر لقتله بموافقة الخليفة العاضد في أواخر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ / يناير ١١٦٩ ، بعد أن كان شاور قد عقد العزم على الخلاص من شيركوه لولا تحذير المقرئين إليه من مغبة ذلك وأنه قد يؤدي إلى عودة الفرنج إلى مصر مرة ثانية^{٣٤} .

^{٣١} ابن الأثير : الكامل ١١ : ٢٢٨ ، التاريخ الباهر ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٤ ، ابن خلكان : وفیات ٢ : ٤٤٧ ، ابن واصل . مفرج ١ : ١٥٨ ، ابن الفرات : تلخ ١/٤ ، ٢٦ المقرئى : اتعاط ٣ : ٢٩٤ .

^{٣٢} أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٤ ، ابن قاضى شهاب : الكواكب ١٧٧ .

^{٣٣} ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٨ ، المقرئى : اتعاط ٣ : ٢٩٩ .

^{٣٤} عمارة : النكت ٨١ ، عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٨ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٩ - ٣٤٠ ، التاريخ الباهر ١٤٠ ، سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٧٦ - ٢٧٨ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٦ ، ٤٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب : ١٦١ - ١٦٢ ، ابن خلكان : وفیات ٢ : ٢٤٤ ، ٧ : ١٤٩ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ١٠٣ ، ابن أيك : كنز الدرر ٧ : ٣٤ - ٣٥ ، الصفدى : الوافى ١٦ : ٩٥ - ٩٦ ، ٢١٤ - ٢١٥ ، ابن الفرات ١/٤ : ٢٩ - ٣٣ ، المقرئى : اتعاط ٣ : ٢٩٩ - ٣٠٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٥١ ، ٣٨٨ ، Ehrenkreutz; A. S.; op. cit. pp. 54 - 56 .

وبلاحظ أن شاور والداعى ابن عبد الحقيق قد فكرا جدلياً في التبرع بالدعوة الفاطمية لابنى =

شريكوه وزيراً للفاطميين

فور التخلص من شاور خَلَعَ الخليفة العاضد على شريكوه تبعاً للتقاليد المصرية خَلَعَ الوزارة وفَوَّضَ إليه الحكم والتقدمة على الجيوش ، ولَقَّبَهُ بـ « الملك المنصور سلطان [أمير] الجيوش » فنزل في دار الوزارة واستقرت له الأمور دون منازع ^{٢٥} . وأمر الخليفة بكتابة سجل بذلك من إنشاء القاضي الفاضل ^{٢٦} وَقَعَ العاضد على طُرَّة السَّجَل بخطه « هذا عَمْدٌ لا عَهْدَ لوزير بمثله وتقليد أمانة رآك الله تعالى ومأير المؤمنين أهلاً لحمله .. » ^{٢٧} .

وفور أن استقرت الأمور لشريكوه « أقطع البلاد للعساكر التي قدمت معه » وأبقى للمصريين ما بأيديهم و « لم يغير على أحد شيئاً ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأموالهم » . غير أن شريكوه لم يلبث أن توفي فجأة بعد عدة أسابيع يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ / مارس سنة ١١٦٩ ^{٢٨} .

= صاحب غُتْن الزَّيْمِي بعد وفاته لولا أن عمارة اليمنى حذَّرها من ذلك وقال لهما : إنما أهل اليمن يبعثون اليكم النجاوى والفطرة من أجل الدعوة ، فإذا تنازلتم عنها فقد هَوَّنتم حرمتها . (عمارة اليمنية : النكت المصرية ٩٢)

^{٢٥} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤٠ ، الكامل ١١ : ٣٤٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٠٢ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٣ - ١٦٤ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ١٠٣ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٣٠٢ ، ابن قاضي شعبة : الكواكب ١٧٨ - ١٧٩ .

^{٢٦} انظر نص السجل عند ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٣٤ - ٤٤ ، القلقشندي : صبح ١٠ : ٩١ - ٩٢ وفقرات منه عند أبي شامة : الروضتين ١ : ٤٠٢ - ٤٠٣ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٤ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٧١ - ١٧٣ ، ٣٨٣ - ٣٩٧ .

^{٢٧} القلقشندي : صبح ٩ : ٤٠٦ - ٤٠٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٠٢ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٥ ، ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٤٩ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ١٠٧ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٣٠٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٥٣ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٧٤ ، ٤٠١ .

^{٢٨} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤١ ، الكامل ١١ : ٣٤١ - ٣٤٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٠٢ - ٤٠٥ ، ٤٣٨ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٥ ، ١٦٨ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ١٠٧ - ١٠٨ ، الصفدي : الوافي ١٦ : ٢١٥ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٣٠٤ - ٣٠٥ .

صلاح الدين على رأس السُلطة في مصر

صلاح الدين وزيراً رغماً عنه

أيقظت خلافة شيركوه في منصبه الكثير من الطموحات ، فقد طمع الكثيرون من القادة الذين كانوا على رأس جيش نور الدين في منصب الوزارة . ولكن شهاب الدين محمود الحارمي ، خال صلاح الدين وأحد هؤلاء القادة ، قام بدور هام في تولية صلاح الدين الوزارة . فهو الذي أشار على العاصد أن يوليها له ، ووافق العاصد على ذلك ظناً منه أنه قادرٌ على السيطرة عليه وأنه لن يستطيع مخالفته ، لأنه لم يكن له عسكر ولا رجال^{٣٩} . وستثبت الأحداث قصر نظر العاصد وأنه لم يُقدر صلاح الدين حق قدره .

تخلع العاصد على صلاح الدين خلع الوزارة^{٤٠} وأمر القاضي الفاضل بإنشاء سجل بتوليته الوزارة ولقبه بـ « الملك الناصر » في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ / ٢٦ مارس سنة ١١٦٩ ، وكتب على طرته بخطه : « هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله تعالى عليك ، فأوف بعهدك ويمينك ... »^{٤١} .

^{٣٩} ابن الأثير : التاريخ الباه ١٤١ - ١٤٢ ، الكامل ١١ : ٣٤٣ - ٣٤٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٠٦ - ٤٠٧ ، ٤٣٨ - ٤٣٩ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٨ - ١٦٩ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ١٠٨ ، الصفدي : الوافي ١٨ : ٣٤٠ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٥٦ - ٥٧ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٣٠٨ ، ابن قاضي شهاب : الكواكب ١٨٠ ، Ellséeff ; N . ، op . cit . pp . 638 - 39 .

^{٤٠} وصف لنا بن أبي طي خلعة الوزارة التي خلعت على صلاح الدين ، ونقله عنه أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٣٩ والمقرئ : اتعاظ ٣ : ٣٠٩ ، ابن قاضي شهاب : الكواكب ١٧٩ .
^{٤١} نفسه وانظر كذلك ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٥٧ - ٦٣ ، القلقشندي : صبح ١٠ : ٩١ - ٩٨ ، ٤٠٧ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٣٠٩ ، ابن قاضي شهاب : الكواكب ١٧٩ - ١٨٠ .

وبتولى صلاح الدين منصب الوزارة ، كأخـر وزير فى الدولة الفاطمية ، وَصَلَ أَلَمَدَ السَّنى الذى بدأه السُّلاجقة قبل نحو مائة عام وأكملـه ورثـهم الزنكيون والنوريون إلى مصر .

مؤامرة مؤتمن الخلافة

أدرك بعض تُخَدَّام القصر من السودان مصير الدولة الفاطمية على يدى صلاح الدين فعملوا على مكاتبة الفرنج سنة ١١٦٨/٥٦٤ ليصلوا إلى البلاد حتى إذا خرج صلاح الدين للقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة ، وانضموا إلى الفرنج فى محاربتـه فيظهروا عليه ويقتسموا البلاد بينهم وبين الفرنج ، لولا أن وقع كتابهم فى يد صلاح الدين . وقتل صلاح الدين رئيسهم مؤتمن الخلافة فى ذى القعدة من نفس العام ، مما أدى إلى ثورة عبيد القصر من السودان وكانوا يزيـدون على خمسين ألف ، فتمكـن صلاح الدين من القضاء عليهم وأحرق الحارة المنصورية المختصة بهم على باب زويلة وخربها وأصبح أمر السودان كأن لم يكن . وتبع صلاح الدين فلولهم فى الصعيد حتى قضى على نقوذهم تماماً^{٤٢} .

وقد فوّض صلاح الدين أمر القصر إلى أحد خواصه هو الخصى بهاء الدين قراقوش الذى نولى فيما بعد بناء القلعة وسور القاهرة^{٤٣} .

^{٤٢} ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٤٥ - ٣٤٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٥٠ - ٤٥٢ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٧٤ - ١٧٧ ، ٢٠٢ ، ابن خلكان : وفيات ٤ : ٩١ ، ٧ : ١٥٧ ، التويرى : نهاية - خ ٢٦ : ١٠٨ - ١٠٩ ، ابن أليك : كنز الدرر ٧ : ٤٤ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٦٧ - ٧١ ، ١٣١ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٢ - ٣ ، ١٩ ، اتعاظ ٣ : ٣١١ - ٣١٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٥٤ ، ٦ : ٢٠ ، ابن قاضى شهاب : الكواكب ٢٨٣ - ١٨٥ .

^{٤٣} راجع ، ابن خلكان : وفيات ٤ : ٩١ - ٩٢ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٣١ ، ابن قاضى شهاب : الكواكب ١٩٩ ، Sobernheim , M . Ei . art . Karakūsh IV , p . 638 .

مهاجمة الفرنج لدمياط

أدرك عمورى ، منذ أن استولى أسد الدين شيركوه على السلطة في مصر ، أن نور الدين لا يُحكم سيطرته على مصر . فعمل على توجيه نداءات لطلب العون من كل مسيحي العالم . وقد وَجَدَ طلب عمورى استجابة حيث جُهِزَ أسطول ضخّم بالتعاون بين أوربا والدولة البيزنطية وصل إلى دميّاط في ٣ صفر سنة ٥٦٥ / ٢٧ أكتوبر سنة ١١٦٩ . وقد اختار الفرنج النزول بدمياط لأنهم كانوا يأملون أن يقيموا في هذا الميناء قاعدة عسكرية يستطيعون دعمها عن طريق البر وطريق البحر ، حيث أملوا إذا سيطروا على الدلتا المصرية أن يتمكنوا من توجيه عملياتهم صوب القاهرة^{٤٤} .

وقد أرسل صلاح الدين الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ونخاله شهاب الدين الحارمى للسيطرة على دميّاط . ونظرًا لأن صلاح الدين لم يكن يثق في عساكر المصريين وخاف إن تقدم لملاقاة الفرنج استولى المصريون على القاهرة ويحصرونه بينهم وبين الفرنج ، كتب إلى نور الدين في دمشق يشكو إليه ما هو فيه من المخاوف ويطلب نجدة ، فجهز إليه نور الدين طوائفًا صارت إليه طائفة وراء طائفة . وفي نفس الوقت أغار نور الدين على بلاد الفرنج في الشام ونهبها حتى تتحرك قواتهم لحفظ البلاد الشامية ويخفف الحصار عن دميّاط . وقد اضطر الفرنج أمام تتابع الإمدادات إلى دميّاط من القاهرة ومن الشام ، وأمام دخول نور الدين بلادهم ونهبها وإحراقها إلى الرحيل عن دميّاط بعد أن حاصروها خمسين يوماً^{٤٥} .

^{٤٤} Blisséeff, N., op. cit., pp. 645, 647 .

^{٤٥} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤٣ - ١٤٤ ، الكامل ١١ : ٣٥١ - ٣٥٢ ، ابن خلكان : وفيات
٧ : ١٥٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٥٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٧٩ -
١٨٣ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٨٢ - ٨٧ ، المقرئ : اتعاظ الحفنا ٣ : ٣١٥ - ٣١٦ ،
ابن قاضي شهاب : الكواكب ١٨٥ - ١٨٧ .

إنقلاب صلاح الدين وإصلاحاته السنية

عندما تولّى صلاح الدين الوزارة كانت المؤسسة الفاطمية في مصر تسيطر على موارد البلاد وتمتلك نسبياً قوة عسكرية قوية وتشرف على النظام القضائي وعلى ديوان الإنشاء . وكان يشارك في تسيير هذه المؤسسة أفراد ينتسبون إلى ديانات وطوائف مختلفة (الإسماعيليون والمسلمون السنة والأقباط) وإلى مجموعات عرقية متنوعة (العرب والأرمن والسودان) . ولم تتم عملية تصفية الدولة الفاطمية والقضاء عليها إلا بفضل خطة محكمة نفذها صلاح الدين ومؤيدوه ضد النظام الفاطمي . ففي البداية حرص صلاح الدين على تقوية مكانته فاستقدم والده وإخوته ليلحقوا به في مصر ، وأدخل تغييرات كبيرة على نظام الجيش في أعقاب فشل مؤامرة مؤتمن الخلافة ، حيث تخلّص من القادة المصريين واستبدل عوضهم رجالاً من أنصاره كما ضمن السيطرة على موارد الدولة بتوليته والده « أمر الخزائن كلها » في ٢٥ رجب سنة ١٦/٥٦٥ إبريل سنة ١١٧٠^{٤٦} .

وفي أواخر عام ١١٧٠/٥٦٥ بدأ صلاح الدين في اتخاذ خطوات حاسمة ضد المؤسسة الفاطمية لإضعاف المذهب الإسماعيلي وتقوية المذهب السني في مصر . ففي العاشر من ذي الحجة سنة ٢٥/٥٦٥ أغسطس سنة ١١٧٠ أبطل من الأذان « حتى على خير العمل »^{٤٧} وأمر أن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء

^{٤٦} Ehrenkrutz, A. S., "Saladin's coup d'état in Egypt", Medieval and Middle Eastern Studies in Honor of Aziz Suryal Atiya, ed. by Sami A. Hanna, Leiden 1972, pp. 145, 147 . وانظر أبا شامة : الروضتين ١ : ٤٦٥ .

^{٤٧} أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٨٨ ، التويري : نهاية - خ ٢٦ : ١٠٩ ، المقرئزي : الخطط ٢ : ٢٧١ ، اتعاظ ٣ : ٣٠٧ .

الراشدون^{٤٨} ونزع المناطق الفضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتي كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين^{٤٩}.

وفي الأيام الأولى من شهر المحرم سنة ٥٦٦/سبتمبر سنة ١١٧٠ أمر صلاح الدين بهدم دار المعونة المجاورة للجامع العتيق بمصر وبنائها مدرسة للشافعية . وفي منتصف هذا الشهر عُمِّر دار العَزْل المجاورة لباب الجامع العتيق مدرسة للمالكية عرفت بالمدرسة القمحية . وفي منتصف شعبان من هذه السنة اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه - ابن أخي صلاح الدين - منازل العِزِّ بالفُسْطَاط وجعلها مدرسة للشافعية عرفت بالمدرسة التقوية^{٥٠} ، كما حوّل صلاح الدين دار سعيد السَّعْدَاء الواقعة شمال القصر الفاطمي الشرقي ، خانقاه للصوفية وهي بذلك تعد أول خانقاه للصوفية تنشأ بمصر^{٥١} . وفي العام نفسه أبطل صلاح الدين « مجالس الدَّعْوَة » من القصر والجامع الأزهر^{٥٢} ، وعَزَلَ جميع القضاة الإسماعيليين وفَوَّض قضاء مصر في ٢٢ جمادى الآخر/٢ مارس سنة ١١٧١ إلى القاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن دِرْبَاس الماراني الشافعي^{٥٣} ، حيث اشتهر من حيثئذ المذهب الشافعي في مصر . كذلك جعل

^{٤٨} المقرئى : السلوك ١ : ٤٥ .

^{٤٩} المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣١٧ .

^{٥٠} ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٦٦ ، البندارى : سنا البرق ٥٧ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان

٨ : ٢٨٣ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٨٦ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٥٦ ، ابن واصل :

مفرج ١ : ١٩٧ - ١٩٨ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ - ١٠٩ ، السبكى : طبقات الشافعية

٧ : ٣٥٦ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٢٤ - ١٢٥ ، ١٢٨ ، القلقشندى : ٣ : ٣٤٢ ،

المقرئى : الخطط ١ : ٢٤٨٥ ، ٢ : ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، الاتعاظ ٣ : ٣٢٠ ، أبو

المحاسن : النجوم ٥ : ٣٨٥ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ١٩٤ ، وانظر كذلك . I. Lapidus

M . " Ayyubid Religious Policy and the Development of The Schools of Law In

. Cairo " , CIHC . PP . 279 - 286 .

^{٥١} عن خانقاه سعيد السعداء والخانقاوات بصفة عامة انظر ، ابن ميسر : أخبار ١٤٤ ، القلقشندى :

صبح ٣ : ٣٦٤ - ٣٦٥ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٤١٥ - ٤١٦ ، اتعاظ ٣ : ٢٠٠ .

^{٥٢} النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ١٠٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٢٠ .

^{٥٣} ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٦ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٨٣ ، أبو شامة : =

صلاح الدين القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء^{٥٤} فضمن بذلك سيطرته على النواحي الدينية ومراسلات الدولة .

وكان من أشهر مظاهر تحوّل مصر إلى المذهب السني نشر المذهب الأشعري ، فقد كان صلاح الدين وجميع ورثة السلاجقة يتعصبون لمذهب الأشعري في الأصول ، وهو المذهب الذي تولّاه السلاجقة من قبل في مواجهة مذهب المعتزلة العقلي وأنشأوا له « المدارس » ليحاربوا من خلالها مذاهب الفاطميين^{٥٥} .

وهكذا ، ومع نهاية عام ١١٧١/٥٦٦ أتم صلاح الدين عددًا من الإجراءات الضرورية في مواجهة المؤسسة الفاطمية عجّلت بالخطوة الحاسمة وهي القضاء على الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للعباسيين من على منابر مصر .

الخطبة للعباسيين وسقوط الفاطميين

وفي سنة ١١٧١/٥٦٧ جاءت الخطوة الحاسمة في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر ، عندما أسقط صلاح الدين خطبة الفاطميين وأمر الخطباء بالدعوة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله وذلك في السابع من المحرم / العاشر من سبتمبر وأعاد السواد شعار العباسيين^{٥٦} . وأصبح يخطب باسم صلاح الدين

= الروضتين ١ : ٤٨٦ ، ابن خلكان : وفیات ٣ : ٣٤٢ - ٤٣ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٩٨ ،
النوبري : نهاية - خ ٢٦ : ١١٠ ، ابن أليك : كنز الدرر ٧ : ٤٧ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ :
١٢٥ ، المقرئ : الخطوط ٢ : ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٣٤٣ ، الاتعاظ ٣ : ٢١٩ ، ابن حجر : رفع
الإصر ١ : ٣٦٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ابن قاضي شهاب : الكواكب
١٩٤ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ٥ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٣٣ .
^{٥٤} الصفدي : الوافي بالوفيات ١٨ : ٣٤٠ - ٣٤١ .

^{٥٥} أنظر أعلاه ص .

^{٥٦} عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٩ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٥٦ ، الكامل ١١ :
٣٦٨ - ٣٧١ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ٢٨٥ ، البنداري : سنا البق ٥٨ : أبو
شامة : الروضتين ١ : ٤٩٢ - ٩٣ ، ابن خلكان : وفیات ٧ : ١٥٧ ، ابن واصل : مفرج ١ : =

على منابر مصر بعد الخليفة العباسي والملك العادل نور الدين . وقد تم هذا التحول الخطير في هدوء تام « فلم ينتطح فيه عنزان » كما ذكر المؤرخون^{٥٧}. ذلك الهدوء الذي أعلن به من قبل القائد جوهر قيام الخلافة الفاطمية في مصر قبل قرنين ، واستقبل المصريون هذا التحول بنفس السلبية واللامبالاة التي استقبلوا بها المذهب الفاطمي من قبل .

وفي الحقيقة فإن غالبية الشعب المصري لم تعتق إطلاقاً المذهب الإسماعيلي ، ولم يعتنقه فقط سوى العناصر التي تعاونت مع الخلافة الفاطمية ممثلة في الأقليات الأجنبية التي جاءت صحبة الفاطميين أو استعانوا بها طوال فترة حكمهم من أجل تحقيق سياستهم ، وهؤلاء فقط هم الذين نستطيع القول أنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلي في مصر .

نور الدين وموقفه من مصر

كان السلطان نور الدين محمود يطمع في الاستيلاء على مصر ، ويظن أن صلاح الدين « نائباً عنه في مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه » ولكن صلاح الدين كانت له طموحات أخرى ، وكان ذلك سبب تأخره في الإنصياح لطلب نور الدين في قطع خطبة الفاطميين قبل ذلك ، لأنه خشى إن هو فعل ذلك أن يسير نور الدين إلى مصر وينزعها منه^{٥٨}.

٢٠ - ٢٠٢ ، النويري : نهاية ٢٣ : ٣٠٢ ، ٢٦ : ١٠٣ ، ١١٠ ، ابن أليك : كنز الدرر ٧ : ٤٨ ، السبكي : طبقات الشافعية ٧ : ٣٤١ ، ٣٥٦ ، الصفدي : الوافي ١٧ : ٦٨٩ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٦١ ، ١٦٣ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٣٢٥ - ٣٢٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٥٥ - ٥٦ ، ٦ : ٦٣ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ١٩٥ - ١٩٧ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٤٥ - ٤٤٧ . Ehrenkreutz . A. S. , Saladin, p. 89 .

^{٥٧} ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٦٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٩٣ ، ابن الفرات : التاريخ ١/٤ : ١٦٣ .

^{٥٨} المقرئ : ٣ : ٣٢٥ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ١٨١ .

ولم تكد تمض أيام على قطع خطبة الفاطميين إلا وقد توفي الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ليلة عاشوراء سنة ٥٦٧ / ١٢ سبتمبر ١١٧١ . فأمر صلاح الدين بإنشاء الكتب إلى البلاد بوفاة العاضد وإقامة الخطبة رسمياً للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي^{٥٩}.

نهاية الفاطميين

وبذلك وضع صلاح الدين نهاية للدولة الفاطمية في مصر لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخها عادت فيها إلى قلب العالم الإسلامي السني ولتؤدي تحت قيادة الأيوبيين ومؤسس دولتهم صلاح الدين دوراً هاماً في توحيد الجبهة الإسلامية ومواجهة خطر الفرنج ، الذي أدى ضعف وتخاذل السلطة الحاكمة في مصر في آخر عهد الفاطميين إلى زيادة نفوذهم وسطوتهم وتهديدهم لوحدة العالم الإسلامي .

وفور وفاة العاضد طلب صلاح الدين من بهاء الدين قراقوش ، متولى زمام القصر ، التحفظ على كل ما فيه . ولم يجد فيه كثير من المال وإنما وجد فيه العديد من التحف والذخائر التي لا تقدر بثمن والتي جمعها الفاطميون طوال فترة حكمهم ونجت من الأزمات المتتالية ، بالإضافة إلى مكتبتهم النفيسة التي بلغ عدد كتبها ألف ألف وستمائة كتاب ، منها مائة ألف بخطوط منسوبة .

أما أهل البيت الفاطمي نفسه فقد وجد منهم في القصر مائة وثلاثين نفساً وخمسة وسبعين طفلاً نقلهم إلى دار المظفر بحارة بـرجوان وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا .

وأقطع صلاح الدين قصور الفاطميين لخواصه وباع بعضها . فكان القصر

^{٥٩} نفسه ٣ : ٣٢٧ - ٣٢٨ .

الشرق الكبير. من نصيب أمرائه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب في قصر (منظرة) اللؤلؤة على الخليج ، وتفرق الأمراء بقية القصور والرّباع^{٥٧} .

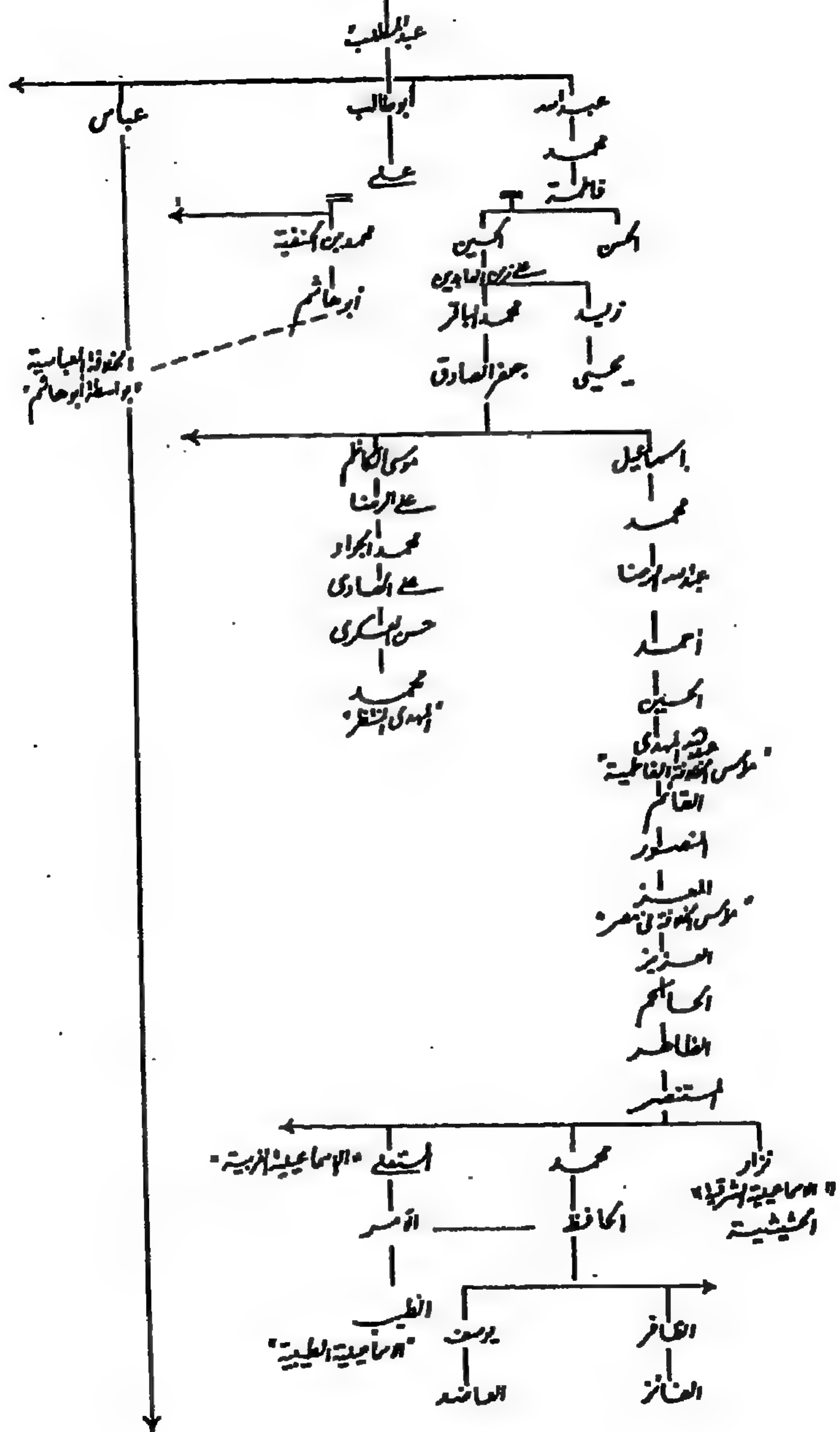
محاولة إعادة الدولة الفاطمية

لا شك أن الخطوة التي أقدم عليها صلاح الدين لم ترق لكثير من أتباع الدولة الفاطمية والذين كانوا في الأغلب من الأجانب غير المصريين ، فلم يكذب يمضى عامان على سقوط الخلافة الفاطمية حتى قام جماعة من بقايا أتباع الفاطميين بينهم داعي الدعوة ابن عبد القوى والشاعر نجم الدين عمارة اليمنى^{٦١} ، واتفقوا فيما بينهم على إقامة خليفة ووزير وكتبوا الفرنج في بيت المقدس ليعينوهم على تحقيق انقلابهم . ولكن صلاح الدين تمكن من كشف مؤامرتهم بوشاية واحد منهم ، واعترفوا بمؤامرتهم ، وأحضر صلاح الدين العلماء واستفتاهم في أمرهم ، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ، فقتلهم جميعاً وصلبهم في آخر عام ١١٧٣/٥٦٩^{٦٢} . وهكذا قضى على آخر أمل لأتباع الدعوة الفاطمية في مصر ، وانتهى دور الدولة الفاطمية السياسي في التاريخ .

^{٦٠} ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٥٦ - ١٥٧ ، الكامل ١١ : ٣٦٨ - ٣٧٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٩٢ - ٤٩٥ ، ابن واصل : مفرج ١ : ٢٠٢ - ٢٠٤ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٩٦ - ٤٩٨ ، اتعاظ ٣ : ٣٣٠ - ٣٣١ ، ٣٤٧ - ٣٤٨ .

^{٦١} رثى عمارة اليمنى الفاطميين بقصيدة تعد من أحسن ما قيل في رثاء الدول مطلقاً :
رَمَيْتْ يَآ ذَهْرُ كَفِّ الْمَجْدِ بِالشَّلِّ وَجِيهَهُ بَعْدَ حُسْنِ الْحَلِّ بِالْعَطْلِ
(ديوان عمارة ٦١٢ - ٦١٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٥٧ - ٥٧١ ، ابن واصل : مفرج ١ : ٢١٢ - ٢١٦ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٥٢٦ - ٥٢٨ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٩٥ - ٤٩٦)

^{٦٢} العماد الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر (قسم الشام) ٣ : ١٠٣ ، ١٤٠ - ١٤١ ، العماد الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٩ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٩٨ - ٤٠١ ، البنداري : سنا البرق ٢٩ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ٢٩٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٥٦٠ - ٥٦٢ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٣٥ ، ابن واصل : مفرج ١ : ٢٤٣ - ٢٤٧ ، ٢ : ٤٧٦ - ٤٧٩ ، التويري : نهاية - ٢٦ : ١١١ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٨٠ - ٨١ ، المقرئ : السلوك ١ : ٥٣ - ٥٤ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٦ : ٧٠ - ٧١ ، ابن قاضي شهاب : الكواكب ٢٢٤ - ٢٢٦ .



الخلفاء الفاطميون في إفريقيا وفي مصر

أ - في إفريقيا

- ١ - عبد الله المَهْدِي (٢٩٧ - ٩٠٩/٣٢٢ - ٩٣٤) .
- ٢ - القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (٣٢٢ - ٩٣٤/٣٣٤ - ٩٤٦) .
- ٣ - المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل (٣٣٤ - ٩٤٦/٣٤١ - ٩٥٣) .
- المُعَزَّز لدين الله أبو تميم مَعَدَّ (٣٤١ - ٩٥٣/٣٦٢ - ٩٧٢) .

ب - في مصر

- ٤ - المُعَزَّز لدين الله أبو تميم مَعَدَّ (٣٦٢ - ٩٧٢/٣٦٥ - ٩٧٥) .
- ٥ - العزيز بالله أبو منصور نِزَار (٣٦٥ - ٩٧٥/٣٨٦ - ٩٩٦) .
- ٦ - الحكيم بأمر الله أبو علي المنصور (٣٨٦ - ٩٩٦/٤١١ - ١٠٢١) .
- ٧ - الظَّاهِر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي (٤١١ - ١٠٢١/٤٢٧ - ١٠٣٦) .
- ٨ - المستنصر بالله أبو تميم مَعَدَّ (٤٢٧ - ١٠٣٦/٤٨٧ - ١٠٩٤) .
- ٩ - المُسْتَعْلَى بالله أبو القاسم أحمد (٤٨٧ - ١٠٩٤/٤٩٥ - ١١٠١) .
- ١٠ - الأمر بأحكام الله أبو علي منصور (٤٩٥ - ١١٠١/٥٢٤ - ١١٣٠) .
- انقلاب أبي علي الأَفْضَل كُتَيْبَات (١٦ ذى القعدة ٥٢٤/٢١ أكتوبر ١١٣٠ - ١٦ محرم ٥٢٦/٦ ديسمبر ١١٣١) .

- ١١ - الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد (٥٢٦ - ١١٣٢/٥٤٤ - ١١٤٩) .
- ١٢ - الظَّاهِر بأعداء الله أبو منصور إسماعيل (٥٤٤ - ١١٤٩/٥٤٩ - ١١٥٤) .
- ١٣ - الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى (٥٤٩ - ١١٥٤/٥٥٥ - ١١٦٠) .
- ١٤ - العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله (٥٥٥ - ١١٦٠/٥٦٧ - ١١٧١) .

الكتاب الثاني

النظم والحضرة

الفصل العاشر نُظْمُ الْحُكْمِ وَالْإِدَارَةِ

بدأ الخليفة المُعِزُّ حكمه في مصر بإعفاء القائد جَوْهَرٍ من جميع مناصبه ، بعد أن تولَّى أمر مصر نيابة عن المُعِزِّ مدة أربع سنوات . وقد اعتبر المُعِزُّ أن دور جَوْهَرٍ قد انتهى عند هذا الحد ، ولكنه اعترف له بفضله ودوره في إقامة الخلافة الفاطمية وإعلانها في الشرق . « فخلع عليه خِلْعَةً مذهبة وعمامة حمراء ، وقلده سيفاً ، وقاد بين يديه عشرين فرساً مسرجة ملجمة ، وحمل بين يديه خمسين ألف درهم وثمانين تَحْتًا من ثياب »^١ . ثم عَهَدَ إلى يعقوب بن كِلْسٍ بإعادة تنظيم إدارات الدولة الفاطمية في مصر ، لمعرفة الجيدة بأمورها ، وعلى الأخص ما يُدْرُهُ كل إقليم فيها^٢ . وعيَّن المُعِزُّ عُسْلُوجَ بن الحسن لمعاونة ابن كِلْسٍ في الإشراف على الشؤون المالية^٣ .

وقد وضع ابن كِلْسٍ في مصر أساس نظام مركزي هرمي يأتي على رأسه « الإمام » ، الذي اعتبره الشيعة الإسماعيليون مُمَثِّلَ الله على الأرض ومنه تنبثق كل سلطة^٤ . وتقاسمت إدارة هذا النظام سلطات ثلاث : إدارية وقضائية ودعائية ؛ أما الجيش فكان يَأْتَمِرُ بأوامر الإمام (الخليفة) مباشرة . ولم يستمر

^١ المقرئى : اتعاط ١ : ١٣٩ .

^٢ ابن الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ٤٧ - ٥٢ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٥ ، Lev, Y., "The Fatimid vizier Ya'qub ibn Killis and the Beginning of the Fatimid Administration in Egypt", Der Islam 58 (1981), pp. 237 - 249 .

^٣ ابن ميسر : أخبار ١٦٣ ، المقرئى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٢ : ٥ - ٦ ، ٢٦٩ ؛ اتعاط الخنفا ١ : ١٤٤ - ١٤٥ ، ٢٢٣ ؛ المقتنى ٣٨٤ .

^٤ السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٣٥ .

هذا النظام طويلاً ، فقد كان لما لحق بالدولة الفاطمية من أحداث متلاحقة ، وما أصابها من ضعف ، دورٌ في تبديل وتغيير هذه الأنظمة ، وخاصة مع بداية ازدياد نفوذ الوزراء أرباب السيوف ، ولكنها احتفظت بالخطوط العريضة لهيكل هذا النظام . وكان الوزير - ابتداء من عام ٩٧٩/٣٦٨ - هو الذى يتولّى الإشراف على السلطة الإدارية ، وقاضى القضاة هو المشرف على الشؤون الدينية والتشريعية ، وداعى الدعاة هو المشرف على الدعاية الفاطمية التى كانت بمثابة السلاح الإيديولوجى للنظام ، وأحياناً كانت هاتان السلطتان تجمعان لشخص واحد .

وبوصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة ، فى أواسط القرن الخامس/الحادى عشر ، وبداية عصر الوزراء العسكريين (أرباب السيوف) ، أصبح الوزير هو قائد الجيش وقاضى القضاة وداعى الدعاة فى الوقت نفسه . ولكن هذا لا يعنى أن الوزير صاحب السيف كان يقوم بنفسه بعمل القاضى والداعى ، وإنما جعل القاضى والداعى نائين عنه ويذكران ذلك فى الكتب الحكمية وكتب الأنكحة ، ومجالس الدعوة^٥ .

النظام السياسى

الإمام (الخليفة)

يأتى على رأس النظام الفاطمى شخصية الإمام أو الخليفة ، وإذا كان تولى الخليفة لدى أهل السنة يأتى نتيجة انتخاب أو تعيين من الخليفة السابق تؤكد مبايعة عامة ، فإن الإمام الفاطمى هو خليفة من سبقه بموجب الحق الإلهى ويُختار ليكون وصياً للنبي ﷺ ولعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وتنقل الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر أى يجب أن تكون فى الأعقاب . والشرط

^٥ ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٨٩ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٤٠ ، الاتماظ ٣ : ١٥٦ ، المقفى (غ . السليمية) ٢٢٦ و .

الوحيد اللازم توافره فى شخص الإمام هو « الوصية » أى « النص » عليه من الإمام السابق^٦ ، وبالتالى فلا يتطلب الفاطميون توافر شروط خاصة فى الإمام (أو الخليفة) مثل الشروط التى يتطلبها أهل السنة فى شخص الخليفة أو الزيدية فى شخص الإمام الزيدى . وكان من الممكن للإمام أن يخفى وصيته عن مجموع المؤمنين ولا يعلم بها إلا بعض الثقات لا غير الذين عليهم أن يكشفوا عنها فقط فى الوقت المناسب^٧ .

وقد أدى هذا النظام إلى وصول عدد كبير من الأطفال والمراهقين إلى منصب الإمامة مما مكن لرجال القصر ونسائه وللوزراء وقادة الجيش السيطرة التامة على الدولة وأن تكون بأيديهم السلطة الحقيقية .

ظلّ توارث الإمامة يسير دون اعتراضات ذات شأن^٨ إلى حين وفاة المستنصر بالله سنة ١٠٩٤/٤٨٧ ، حيث تدخّل الوزير القوى الأفضل شاهنشاه لعزل نزار - الإبن الأكبر للمستنصر وصاحب الحق الشرعى فى الإمامة - وتولية المستعلى الإبن الأصغر مما أدى إلى نشوء أول انقسام فى الدعوة الإسلامية^٩ . كذلك فبعد وفاة الخليفة الأمر بأحكام الله سنة ١١٣٠/٥٢٤ دون وريث (وإن كان أشار إلى أنه ترك إحدى جهاته حاملاً) تولى الأمر بعده ابن عمه عبدالمجيد - أكبر الأقارب سنًا - كإمام مستودع وفقًا للمصطلح الإسماعيلى إلى أن عزله الوزير أبو على الأفضل كُتيفات واستولى على السلطة لمدة أربعة عشر شهرًا باسم « الإمام المنتظر » ، إلى أن قُتل أبو على وأعيد عبدالمجيد فى المحرم سنة ٥٢٦/نوفمبر ١١٣١ « وليًا لعهد المسلمين » ، ثم عُيّن نفسه إمامًا باسم « الحافظ لدين الله » فى ربيع الآخر سنة

^٦ ماجد : نظم الفاطمين ورسومهم فى مصر ١ : ٥١ - ٧٧ .

^٧ الجوزى : سيرة الأستاذ جوذر ١٣٩ .

^٨ انظر أعلاه ص .

^٩ انظر أعلاه .

٥٢٦ / فبراير سنة ١١٣٢^{١٠}. كما أن الخليفة العاضد ، آخر خلفائهم ، لم يكن أبوه إمامًا كما يتطلب المذهب الإسماعيلي^{١١}.

وكان يُنظر للإمام في الدولة الفاطمية دون أى التباس على أنه ممثل الله على الأرض . وبأنه المُفسر الأول للشرع ومصدر كل العلم . وحرص كبار رجال الدعوة على تأكيد هذا المعنى والإشارة إلى أن الإمام هو « وَلِيَّ اللَّهِ » الشافع لهم جميعًا^{١٢}، واشتط الحاكم بأمر الله من بينهم وذهب في سنة ١٠١٧/٤٠٨ إلى حد اعتبار شخصه تجسيدًا للألوهية أو على الأقل إدعاء الألوهية^{١٣}.

وتلقب الفاطميون في سِجَلاتهم وعلى نقودهم بـ « الإمام » و بـ « أمير المؤمنين » ولم يتلقبوا في الوثائق الرسمية بالخليفة حرصًا منهم على إظهار صفتهم الروحية وسلطتهم الدينية^{١٤}. وقد تدهورت سلطة الإمام (الخليفة) قرب نهاية القرن الخامس وأصبح الوزراء الأقوياء أرباب السيوف هم أصحاب السلطة الفعلية بعد انقسام الدعوة الإسماعيلية أكثر من مرة وإتيان الوزراء بالإمام الذي يريدونه دون اعتبار لشروط الإمامة عند الإسماعيلية .

الوزارة

انقسمت الوزارة في عصر الفاطميين ، كبقية العالم الإسلامي ، إلى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض . ولم يعرف الفاطميون في المرحلة الإفريقية منصب

^{١٠} انظر أعلاه ص .

^{١١} المقرئى : اتعاط ٣ : ٣٢٩ ، أبو الحسن : النجوم ٥ : ٢٣٧ .

^{١٢} السجلات المستنصرية (سجل رقم ٣٥) ، Sourdél , D . El^{١٢}, art . " Khalifa " IV , p .

977

^{١٣} انظر أعلاه ص .

^{١٤} راجع السجلات المستنصرية والوثائق التى جمعها جمال الدين الشيال ونشرها في « مجموعة الوثائق

الفاطمية » ، القاهرة ١٩٥٨ ، وكذلك الوثائق التى نشرها صمويل شيرن Stern , S .

" Fatimid Decrees " London 1964 وأيضًا ما سجلوه على نقودهم عند Miles , G. ,

" Fatimid Coins " NY 1952 .

الوزير^{١٥}. أما في مصر فقد كان الغالب على وزراء العصر الفاطمي الأول وزراء التنفيذ ، بينما كان كل وزراء العصر الفاطمي الثاني ابتداء من بدر الجمالي وزراء تفويض . .

فعند وصول الخليفة المَعزّ إلى مصر فَضَّل أن لا يُفَوِّض سلطاته إلى أحد وأن « يياشر التدبير بنفسه ولا يُعَوِّل فيه على غيره »^{١٦} ، ولكنه أوجد ما أطلق عليه « الوَساطَة » ، لأن صاحبها كان يتوسَّط بين الخليفة والرعية . ولم يظهر لقب الوزير في مصر الفاطمية إلَّا في رمضان سنة ٣٦٨ / إبريل سنة ٩٧٩ عندما مَنَح الخليفة الفاطمي الثاني العزيز بالله ليعقوب بن كِلْس لقب « الوزير الأَجَل » وأصبح بذلك أول وزراء الدولة الفاطمية^{١٧} ، ولم يَثْبُت هذا اللقب رسميًا إلَّا في زمن الخليفة الفاطمي الرابع الظَّاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧) بتولَّى الوزير أُمى القاسم على بن أحمد الجَرَجَرَانِي وزارة التنفيذ في سنة ١٠٢٨/٤١٨ حيث أصبحت الوزارة منذ هذا التاريخ منصبًا وتكليفًا ويطلق عليها « رُتْبَة »^{١٨}.

وكان وزير التنفيذ لا يزيد عن كونه وزيرًا معينًا ذو سلطات محدودة حيث كان للخليفة كل السلطة على الوزير ويراجع جميع أفعاله . وكان الوزير الحسن ابن علي اليازوري (٤٤٢ - ٤٥٠ / ١٠٥٠ - ١٠٥٨) آخر وزراء التنفيذ

^{١٥} عرفت هذه الرتبة في مصر منذ زمن الطولونيين (السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٢٠١ ، Hassan , Z . M . , " Les Tulunides " , Paris 1933 , p . 194 ونحن نعرف أن جعفر بن الفرات كان وزيرًا للإخشديين ، ولكن عند قدوم الفاطميين توقَّف جوهر عن مخاطبته بالوزير إلَّا بعد مراجعة لأنه ، كما قال ، لم يكن وزير خليفة . (المقرئزي : اتعاظ ١ : ١٠٧ ، ١١٨ ، الخطط ١ : ٤٣٩ ، المقفى ٣٨٣) .

^{١٦} ابن الصيرفي : الإشارة ٤٧ .

^{١٧} ابن زولاق - ابن ميسر : أخبار مصر ١٦٣ ، ابن الصيرفي : الإشارة ٤٩ ، ابن ظافر : أخبار ٣٨ ، المقرئزي : المقفى ٣٨٤ ، الخطط ١ : ٨٢ ، ٢ : ٥ - ٦ ، ٢٦٩ ، اتعاظ الحنفا ١ : ١٤٤ - ١٤٥ .

^{١٨} ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٨١ الذي أورد سجل تولية الوزارة للوزير الجَرَجَرَانِي وهو مؤرخ في ذي الحجة سنة ٤١٨ / يناير سنة ١٠٢٨ .

الأقوياء^{١٩} حيث دخلت مصر بعد عزله في سنة ١٠٥٨/٤٥٠ وبعد فشل الفاطميين أمام السلاجقة في أزمة إدارية حادة أُبعد فيها أربعة وخمسون وزيراً واثنتان وأربعون قاضياً ، حتى استتجد الخليفة المستنصر بوالى عكّا بدر الجمالى لإنقاذ عرشه من طغيان الأتراك الذين تسلطوا على الدولة^{٢٠}.

فور أن انتهى بدر الجمالى من إعادة النظام إلى الدولة والقضاء على المعارضين فوضه الخليفة المستنصر في جميع سلطاته ومنحه إشرافاً عاماً على شئون الدولة . وهكذا أصبح بدر الجمالى أول قائد عسكري يوليه الفاطميون الوزارة التي أصبحت منذ هذا التاريخ ١٠٧٤/٤٦٧ تقوم مقام السلطنة . يقول المقرئى : « فصارت الوزارة من حيثها وزارة تفويض ويقال لتوليها « أمير الجيوش » وبطل اسم الوزارة »^{٢١}. وقد أضفى بدر الجمالى شهرة على هذا اللقب حتى أنه حل محل اسمه الشخصى للتدليل عليه . فرغم أن خلفاءه تلقبوا كذلك بلقب « أمير الجيوش » بما أنهم كانوا « وزراء سيوف » أى قادة للجيش في نفس الوقت ، فإن بدر الجمالى احتفظ وحده لدى المؤرخين المتأخرين بميزة أنهم كانوا يكتبون فقط لتعريفه بذكر لقبه « أمير الجيوش »^{٢٢}.

واعتباراً من بدر الجمالى حمل جميع وزراء التفويض ألقاباً خاصة بهم لتأكيد قوة منصبهم ، فقد جمعوا إلى جانب قيادة الجيش جميع الإدارات المدنية

^{١٩} كان الوزير اليزوى يشغل مناصب القضاء والدعوة والنظر في ديوان أم المستنصر بالإضافة إلى منصب الوزارة وكان يُنعت « بالناصر للدين غياث المسلمين الوزير الأجل المُكرَّم سيّد الرؤساء تاج الأصفياء قاضى القضاة وداعى الدعوة » . (ابن ميسر : أخبار ١١ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٧٣ ، ابن ظافر : أخبار ٧٨ ، المقرئى : ١٩٧ ، المففى (نخ . السليمة) ٣٥٩ ظ - ٣٦٨ ، ابن حجر : رفع الإصر ١٩٠ - ١٩٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٢) .
^{٢٠} عن وزارة التنفيذ راجع ، ابن الصيرفى : الإشارة ٦٨ - ٩٧ ، ابن ميسر : أخبار ٥٥ - ٥٦ ، ٥٨ .

^{٢١} المقرئى : الخطوط ١ : ٤٤٠ ، وانظر أعلاه ص .

^{٢٢} Wiet , GIA Egypte II, pp . 147 - 148 ; Fuád Sayyid , A . " La Capitale de l'Egypte " (sous press)

والقضائية وحتى الدينية . وهكذا فإن جميع شئون الدولة ، دون استثناء ، خضعت لسلطتهم ولم يبق للخليفة معهم أية سلطة ^{٢٢} . واستقر ترتيب ألقاب وزراء السيوف الفاطميين ابتداء من بدر الجمالي وحتى ظهور لقب « الملك » بين ألقاب الوزير كآلآي : « السيد الأجل » [النعت الشخصي للوزير الذي أصبح ابتداء من الصالح طلائع لقب « ملك »] أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام كافل قضية المسلمين وهادى دعاة المؤمنين (ثم اسم وكنية ولقب الوزير الشخصي) ^{٢٤} .

وعادة ما يتبع لقب السيد الأجل مباشرة النعت الشخصي للوزير . وكان هذا النعت هو « أمير الجيوش » بالنسبة لبدر الجمالي و « الأفضل » بالنسبة لابنه شاهنشاه وحفيده ألى على كُتَيْفَات وكذلك رضوان بن وَلَحْشَى و « المأمون » لمحمد بن فاتك البطائحي ، و « الْمُفَضَّل » لسليم بن مصال ، و « العادل » لعلى بن السُّلَار . أما الوزير عَبَّاس الصَّنْهَاجِي فقد ورد لقبه أحياناً « الأفضل » وأحياناً أخرى « العادل » . والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة الوزير يانس الرومي والوزير بَهْرَام الأَرْمَنِي ، فقد لُقِّبَ الأول بـ « أمير الجيوش » فقط ولُقِّبَ الثاني بـ « سيف الإسلام تاج الملوك » .

وذكر ابن الأثير وأبو الفدا أن رضوان بن وَلَحْشَى « هو أول من لُقِّبَ من وزراء الفاطميين بـ « الملك » مضافاً إلى بقية الألقاب » ^{٢٥} ، وأكد المقرئى ذلك في اتعاظ الحنفا ^{٢٦} . ولكن ما ذكره المقرئى يناقض نصاً آخر للمقرئى في الاتعاظ حيث يذكر في ترجمة الوزير طلائع بن رُزَيْك أنه نُعِتَ في سجل

^{٢٢} القلقشندي : صبح ١٠ : ٣١٠ ، ماجد : نظم الفاطميين ١ : ٨٣ - ٨٤ .

^{٢٤} (Wiet, G., CIA Egypte II, pp. 173 - 174; Fu'ad Sayyid, A., op. cit., (Sous press) .

ومقدمة نزهة المقلتين لابن الطوير ٤٩ - ٥٣ .

^{٢٥} الكامل ١١ : ٤٨ ، المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٢ .

^{٢٦} اتعاظ الحنفا ٣ : ١٦١ .

توليته بـ « الملك الصالح » وأنه « لم يُلقَّب أحد من الوزراء قبله بالملك وذلك في يوم الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٥٤٩ هـ »^{٢٧}. يؤكد ذلك ما ورد عند ابن ميسر وكذلك سجل تقليد رضوان الوزارة والذي لم يرد فيه لفظ الملك^{٢٨}.

ولعل أهم ما يُمَيِّز منصب الوزارة في العصر الفاطمي هو أن الكثير من وزراء الفاطميين ، سواء الذين منحوا لقب الوزارة أو لقب الوساطة كانوا من النصارى مثل عيسى بن نسطورس وزير العزيز وكذلك زُرْعَة بن نسطورس الشافى الذى خلف وزيراً نصرانياً آخر هو منصور بن عبدون الكافى ، كلاهما في أيام الحاكم^{٢٩}. ويعد بهرام الأرمنى الذى تولى وزارة التفويض للخليفة الحافظ أوضح مثل لذلك فقد ظل هذا الوزير على نصرانيته رغم كونه وزير سيف ولُقِّب بـ « سيف الإسلام »^{٣٠}. وفى المقابل فإن اليهود رغم شغلهم مناصب هامة في زمن الفاطميين ، فيبدو أنه كان عليهم ان يتحولوا إلى الإسلام ليتولوا منصب الوزارة مثلما فعل ابن كِلْس وأبو سعد التستري وصدقة بن يوسف الفلاحى^{٣١}.

ولم تكن لوزير القلم (وزير التنفيذ) قبل بدر الجمالى ، سلطة كاملة على بقية موظفى الإدارة الذين كان يُعَيِّنهم الخليفة ، فقد كان للخليفة كل السلطة على الوزير ويراجع جميع أفعاله . أما وزير السيف (وزير التفويض) فقد كان « هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية »^{٣٢}.

^{٢٧} نفسه ٣ : ٢١٨ ، ٢٥١ والنظر أعلاه ص .

^{٢٨} ابن ميسر : أخبار ١٢٦ ، القلقشندي : صبح ٨ : ٣٤٢ - ٣٤٦ .

^{٢٩} القلقشندي : صبح ٣ : ٤٨٦ .

^{٣٠} ابن ميسر : أخبار ١٢٢ .

^{٣١} نفسه ٣ - ٥ ، ٢٥ ، ٥٦ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٢٤ ; Fischel, W., op.cit, p. 80;

. Goitein, S.D., A Med. Soc. II, p. 377

^{٣٢} المقرئى : الخطط ١ : ٤٤٠ . وعن نظام الوزارة عموماً راجع ، عطية مصطفى مشرفة : نظم =

النظام الإداري

مرَّ تطوُّر « الدواوين المصرية » بثلاث مراحل متميِّزة رغم أن استمرارية النُظُم الإدارية في مصر تميل إلى أن تكون أقوى من تغيير الحكومات والأنظمة الحاكمة . فلا يوجد في الواقع فاصلٌ واضحٌ بينها . وهذه المراحل هي : عصرُ الولاية والثُلُوم المُستَقِلَّة (١٩ - ٦٣٩/٣٥٨ - ٩٦٩)^{٢٢} وعصرُ الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٩٦٩/٥٦٧ - ١١٧١)^{٢٣} والعصرُ الأيوبي المملوكي (٥٦٧ - ١١٧١/٩٢٣ - ١٥١٧)^{٢٤} . فقد استحدث الفاطميون أمورًا كثيرة في نظام الحُكْم لم تكن قبلهم ، كما أن الأيوبيين استمَثُوا نظام دولتهم من نظام الأتابكة والسلاجقة^{٢٥} ، وكانوا أصل الدولة التركية^{٢٦} بحيث أن الممالك لم يُدخِلوا تغييرًا كبيرًا على أسلوب الحُكْم وجهاز الإدارة الأيوبي .

= الحكم بمصر في عصر الفاطميين (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ ، ٩٦٨ - ١٧١١ م) ، القاهرة ١٩٤٨ ، ٩٦ - ١٢٠ ، ماجد ، المصدر السابق ١ : ٧٨ - ٩٣ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٢٧ - ١٧٨ ، محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، القاهرة ١٩٧٠ ،
al - 'Imād, L.S., "The Fatimid Vizirate 969 - 1172", Ph. D. Univ, NY 1986.
^{٢٢} القلقشندي : صبح ٣ : ٤٦٧ وانظر سيده إسماعيل كاشف : مصر في عصر الولاية ، القاهرة ١٩٨٨ ، ٢٥ - ٦٦ ومصر في عصر الإخشيديين ، القاهرة ١٩٧٠ ، ١٦٥ - ١١٢ ،
Hassan, Z. M., Les Tulunides, Paris 1933, pp. 163 - 231

^{٢٤} نفسه ٣ : ٤٦٨ - ٥٢٦ ، عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ .
^{٢٥} نفسه ٤ : ٥ - ٧٢ ، ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (مصر والشام والحجاز واليمن) ، القاهرة ١٩٨٥ ، Rabie, H., The Financial System of Egypt ، ١٩٨٥ ،
A.H. 564-741 / A.D. 1169-1341, London 1972 ، علي إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ الممالك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ ، ١٨١ - ٢٩٥ ،
عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين الممالك ورسومهم في مصر ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ ،
Gottschalk, H. L., El', art. Diwān, II, PP. 336-341

^{٢٦} القلقشندي : صبح ٣ : ٥ .

^{٢٧} نفسه ٧ : ١١٩ .

وقد لقيت دواوين الدولة تغييرات وتعديلات كبيرة طوال الفترة الفاطمية التي استمرت أكثر من قرنين من الزمان . ولم يعرف الفاطميون أغلب هذه الدواوين خلال الستين عامًا التي أمضوها في شمال إفريقيا ، كما أن قسمًا كبيرًا منها لم تعرفه التُّظُم المصرية السابقة على الفاطميين ، بل استحدثه الفاطميون بعد انتقالهم إلى مصر . فالتظيم الصارم الذي أدخله يعقوب بن كِلْس وعُسلُوج بن الحسن على الإدارة والتُّظُم المالية كان أساس النظام المُعَقَّد للمُؤَسَّسات العامة التي نَمَت وتبدَّلت أو استُجِدَّت تدريجيًا طوال العصر الفاطمي .

ومصادر معلوماتنا الرئيسية عن دواوين الدولة الفاطمية في مصر نستمدّها من كتابين هما : « صُبْح الأَعْشَى » للقلقشندى و « خِطَط » المقرئى . وبالنسبة للفاطميين المتأخرين وبداية العصر الأيوبي يُمثّل كتاب « المِنْهاج في أحكام صنعة الخراج » للمَحْزُومى وكتاب « قوانين الدواوين » لابن مَمَّاق بالإضافة إلى كتابيّ « لَمَعَ القوانين المُضِيَّة » و « تاريخ القيوم وبلاده » للنابلسي أهمية خاصة . أما « ديوان الإنشاء » أو « الرِّسَائِل » فنحن نملك عنه كتابين مستقلّين أحدهما عن الفترة الفاطمية الأولى هو « مَوَاذُ الْبَيَان » لعلى بن خَلَف ، والآخر عن الفترة الفاطمية الثانية هو « قانون ديوان الرسائل » لعلى بن مُنَجِّب ابن الصَّيْرَفِي بالإضافة إلى صُور السُّجَلَّات والمناشير التي أوردها القلقشندى في « صُبْح الأَعْشَى » .

وقد اعتمد عَرَضُ القلقشندى والمقرئى للدواوين الدولة الفاطمية في الأساس على ما أورده ابن الطُّوَيْر في كتاب « نَزْهَة الْمُقْلَتَيْن » الذي ألفه في عصر صلاح الدين بعد سقوط دولة الفاطميين بفترة قصيرة .

وتُقَدِّم لنا الوثائق الرسمية القليلة التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي أسماء عدد من الدواوين لم يرد لها ذِكْرٌ في القائمة التي أوردها القلقشندى والمقرئى . فقد كانت العادة أن يُسَجَّل الكاتب في نهاية كل سِجَلٍّ أو مَنشور أسماء الدواوين التي يجب أن يُثَبَّت أو يُخْلَد بها السِّجَلُّ أو المنشور .

الدواوين الفاطمية

عَرَفَ الفاطميون في بداية حكمهم في مصر عددًا من الدواوين ، ذكر أغلبها المُسَبَّحِي في تاريخه ، استمر بعضها يعمل إلى نهاية دولتهم و زال أغلبه أو تبدّل أو تغيّرت أهميته في النصف الثاني من تاريخ الدولة . ولا تعيننا المعلومات المتوافرة لنا على دراسة تطوّر الدواوين الفاطمية في النصف الأول من تاريخ حكمهم في مصر . فتاريخ المُسَبَّحِي - وهو أقدم مصدر فاطمي وصل إلينا إذا استثنينا تاريخ ابن زولاق - لا يذكر لنا سوى أسماء سبعة دواوين فقط استمر عددٌ قليلٌ منها وتغيّر أكثرها وتبدّل بعد ذلك هي : ديوان الأُخْبَاس وديوان البريد وديوان الترتيب وديوان الخَراج وديوان الشَّام وديوان العَرَائِف وديوان الكُتَّامِين^{٢٨} ، أضاف إليها ابن مُيَسَّر والمقريزي : الديوان المُفَرَّد والديوان الخاص وديوان النُّفَقَات وديوان دِمَشْق وديوان أم الخليفة المستنصر^{٢٩} ؛ بالإضافة إلى ديوان الزَّمام وديوان الأولياء الكبار وديوان الطحاوية (أو الظاهرية) والديوان الفَرَجِي ، وهي الدواوين التي وردت في إسطجلات « السَّجَل المنشور » الصادر عن الخليفة الظاهر في المحرم سنة ٤١٥ / مارس سنة ١٠٢٤^{٤٠} . ويجب أن نضيف إلى هذه الدواوين دون شك « ديوان الإنشاء والمكاتبات » أو « ديوان الرسائل » و « ديوان الجَيْش » . وواضح أن بعض هذه الدواوين نشأ لخدمة أغراض معينة ثم زال بزوال الغرض الذي أنشئ من أجله .

^{٢٨} المسبّحي : أخبار ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨١ ،

٨٢ ، ١٠٩ ، أبو صالح : تاريخ ٥١ (٤٠ ب) .

^{٢٩} ابن ميسر : أخبار ٥ ، ٢٤ ، ٩٠ ، ابن خلّكان : وفیات ٣ : ٤٠٨ ، المقريزي : اتعاظ ٢ : ٤٨ ،

٩٠ ، ١٠٨ .

^{٤٠} Stern, S. M., Fatimid Decees pp. 17 - 18 .

وقد قَسَمَ على بن خَلَف في كتابه « مَوَادِّ الْيَمَانِ » ، الذي أَلْفَه نحو سنة ٤٣٧/١٠٤٥ ، مراتب الوظائف الديوانية أو المتعلقة بصناعة الكتابة إلى خمس عشرة مَرْتَبَةً هي : الْوَزَارَةُ ، وَالتَّوْقِيعُ وَالرِّسَالُ ، وَالخَرَاجُ ، وَالضِّيَاعُ ، وَبَيْتُ الْمَالِ وَالخَزَائِنُ ، وَالتَّنْفَقَاتُ ، وَالْجَيْشُ ، وَالزُّمَامُ ، وَالْبَرِيدُ وَالْقَصَصُ ، وَالْمِظَالِمُ ، وَكِتَابَةُ الْقَضَاءِ ، وَكِتَابَةُ الْقَوَادِّ وَالْأَمْرَاءِ ، وَكِتَابَةُ الْمَعَاوِنِ^{٤١} .

ولا يَتَّفِقُ هذا الترتيب كذلك مع ما أورده المُسَبِّحِي وابن مُيَسَّر ، كما أنه لا يفيدنا كثيرًا في التعرف على طبيعة الوظيفة الموكلة إلى هذه الدواوين أو إلى هذه الوظائف الديوانية .

وأغلب هذه الدواوين لا يرد ذكره في توصيف دواوين الإدارة الفاطمية في العصر الفاطمي المتأخر الذي ترجع إليه هذه الأوصاف ، ولكن دراستها تدلنا على أن بعضها قد زال في النصف الثاني من تاريخ الدولة الفاطمية وبعضها الآخر تغير اسمه والدور الذي يقوم به .

فديوان الشَّامِ وديوان دِمَشْقَ وديوان الكُتَّامِين وديوان أم الخليفة المستنصر والديوان الفَرَحِي زالت بزوال سبب وجودها . فدور الكُتَّامِين تلاشى في أوائل القرن الخامس ، وديوان أم الخليفة تغير دوره بتغير دور نساء القصر ونفوذهن ، كما أن ديوان الشام وديوان دمشق زال دوره بخروج دمشق والشام عن السيطرة الفاطمية في سنة ٤٦٧/١٠٧٥ .

أما أهم دواوين العصر الفاطمي الأول التي استمرت في العصر الفاطمي الثاني ، مع تبدل أسمائها وتوسيع دورها ، فيأتى على رأسها « ديوان الترتيب » أو « الرُّتِيب » ، وقد تولاه المؤرخ المُسَبِّحِي أكثر من مرة في زمن الحاكم بأمر الله^{٤٢} ، كما تولاه أبو سَعْدٍ مُحَمَّد بن أحمد العَمِيدِي الكاتب وعُزِل عنه سنة

^{٤١} على بن خلف : مواد البيان ٧٠ - ٨٨ .

^{٤٢} المسبحي : أخبار ١٠٩ ، ابن خلكان : وفیات ٤ : ٣٧٧ ، الصفدي : إلهي ٤ : ٨ .

١٠٢٢/٤١٣ قبل أن يتولّى ديوان الإنشاء^{٤٣}، كما ذكره ابن الصيرفي في زمن أبي على الأفضل كُتِّفَات^{٤٤}. وقد جدد أبا عبد الله الأنصاري في عهد الخليفة الحافظ ديواناً سماه « ديوان الترتيب » تعادل وظيفته « ديوان البريد »^{٤٥}. أما عمل « ديوان الترتيب » في العصر الفاطمي الأول فهو أشبه بالتنسيق بين دواوين الدولة وهو الدور الذي سيقوم به في العصر الفاطمي الثاني « ديوان التحقيق ».

الدَّيَّوان الثاني هو « الدَّيَّوان المُفَرَّد » وهو ديوان أحدثه الخليفة الحاكم سنة ١٠٠٩/٤٠٠ برسم مَنْ يُقْبَضُ ماله من المقتولين أو من يَسْخَطُ عليه الخليفة^{٤٦}، وربما كان هذا الديوان هو الدَّيَّوان الذي عُرف في نهاية العصر الفاطمي « بديوان المُرتَّجِع » وقد جاء في السَّجَل الخاص بولاية متولّي هذا الدَّيَّوان ، والذي أورده القلقشندي ، أنه الدَّيَّوان الخاص بالمُرتَّجِع عن الوزير بهَّرام وغيره وأنه من أجَل الدواوين وأوفاهها^{٤٧}.

أما « ديوان التَّمام » الذي جاء ذكره في السَّجَل المنشور الصادر عن الخليفة الظَّاهر سنة ١٠٢٤/٤١٥^{٤٨} فيبدو أنه الدَّيَّوان الذي تحوّل في أواسط القرن الخامس إلى ديوان المَجْلِس . فالمقرّيزي ينقل عن « جامع سيرة الوزير الناصر

^{٤٣} نفسه ١٣ ، ياقوت : معجم الأدباء ١٧ : ٢١٢ ، القفطي : إنباه الرواه ٣ : ٤٧ ، الصفدي : الوافي ٢ : ٧٦ ، السيوطي : بغية الوعاة ١ : ٤٧ . وانظر كذلك ساويرس : تاريخ ٢/٣ : ١٧٨ س ١٧ .

^{٤٤} ابن الصيرفي : قانون ديوان الرسائل ٣٥ .

^{٤٥} المقرّيزي : اتعاظ ٣ : ١٩٤ - ١٩٥ .

^{٤٦} نفسه ٢ : ٨١ ، ٨٢ ، والخطط ٢ : ١٥ س ٢٦ - ٢٧ و ٢٨٧ س ١٤ - ١٥ .

^{٤٧} القلقشندي : صبح ١٠ : ٣٥٧ - ٣٥٩ . ربما كان هو الديوان الذي ذكر في وثائق ديرسانت

كاترين باسم « ديوان الاستيفاء على الاقطاعات المترجمة ... » Stern S . M . , op . cil . , p . ٣٧ .

^{٤٨} Stern , S . M . , op . cil . , p . ١٧ .

للدين الحسن بن علي اليازوري « أن يوان المَجْلِس هو زمام الدواوين ، بما يعنى أن ديوان المَجْلِس هو اسم جديد لديوان الزمام »^{٤٩}.

ولا ندرى إن كان « ديوان الخاص » ، الذى كان يتولاه عيسى بن نسطورس في زمن الحاكم^{٥٠} ، هو نفسه « الديوان الخاص » الذى كان يتولاه أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن ألى قيراط في زمن الأمر بأحكام الله^{٥١} ! والذى يبدو أنه الديوان المختص بنفقات الإمام والقصور .

ديوان المَجْلِس وديوان النُّظَر

لا شك أن الديوان الرئيسى بين الدواوين الإدارية الأربعة عشر للدولة الفاطمية والذى يقابلنا اسمه في المصادر مع أواخر القرن الخامس ، هو « ديوان المَجْلِس » . وهذا الديوان ، كما يقول ابن الطُّوَيْر ، هو أصل الدواوين وفيه علوم الدولة بأجمعها ويقال لمتوليه « صاحب ديوان المَجْلِس » ، ويشرف على إدارته المختلفة عددٌ من الكُتَّاب لكل واحد منهم مجلس مفرد ويعاونه معين أو معينان ، وصاحب هذا الديوان هو المتحدث في الإقطاعات . وأهم كُتَّاب هذا الديوان هو « صاحب دَفْتَر المَجْلِس » ويكون عادة من الأستاذين المُحَنِّكين^{٥٢} . وتتولَّى إدارات هذا الديوان المختلفة الإشراف على الإنعامات والأعطية ، ومنح الكُسُوات ، وتسجيل ما يرد من التُّحف والهدايا من الملوك والأمراء ، وضبط ما يُتفق في الدولة من المهام لمعرفة ما بين كل سنة من التفاوت ، ويتم تنزيل كل ذلك في « دَفْتَر المجلس »^{٥٣}.

^{٤٩} المقرئى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ آخر سطر .

^{٥٠} ابن ميسر : أخبار ١٧٩ ، المقرئى : الخطط ٢ : ١٩٦ س ٢٦ .

^{٥١} أبو صالح : تاريخ ٥٤ (٤٢ ب) .

^{٥٢} من بين من تولوا دفتر المجلس : أبو الفضائل ابن ألى اللّيث أخو الشيخ أبو البركات يُحَنَّا بن ألى اللّيث . (أبو صالح : تاريخ ٦٤ (٥٠ ب) ، المقرئى : المقفّى (خ . لين) ٢ : ٢٠٦ ظ) .

^{٥٣} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٧٥ .

ويُتَّسَم الدور الفَعَّال لـديوان المَجْلِس بالمرونة حيث يشتمل على كل ما يتَّصل بالخليفة وتنظيم البلاط وتنظيم الأعياد والاحتفالات والنفقات الزائدة وتوزيع الإقطاعات ، والسياسة العامة... إلخ .

ومن أهم مَهَام « ديوان المَجْلِس » عمل « الاستيثار » في نهاية ذى الحجة من كل عام . فقد كان كُتَّاب ديوان الرُّوَاتِب (الذى أصبح في فترة نجلها فرعاً لـديوان المَجْلِس بعد أن كان فرعاً لـديوان الجيش) ^{٥٤} يجتمعون في هذا الوقت عند صاحب ديوان المَجْلِس ويحررون قائمة بأسماء المرتزقين والمبالغ المؤداة لهم عَيْنًا وورقًا . وقد تولَّى المؤرخ ابن الطُّوَيْر بنفسه ديوان المَجْلِس ، وذكر أن الاستيثار انعقد وقت تولَّيه هذا الدِّيوَان على ما مبلغه نيف ومائة ألف دينار أو قريب من مائتي ألف دينار ^{٥٥}.

أما « ديوان النُّظَر » فقد كان صاحبه يرأس دواوين الأموال ^{٥٦} ، وكان له العَزَل والولاية ، وهو الذى يتولَّى عرض الأوراق في أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير ، وله الاعتقال بكل مكان يتعلَّق بنوَاب الدولة ، وهو الذى يندب المترسلين لطلب الحساب والْحَثَّ على طلب الأموال ، ولا يُعْتَرَض فيما يقصده من أحد من الدولة . ولم يكن يتولَّى هذا الديوان سوى المسلمين فيما عدا الأُخْرَم (الأَكْرَم) النُّصْرَانِى الذى توصل إلى ولايته بالضَّمان في سنة ١١٣٦/٥٣٠ ^{٥٧}.

وقد أمدنا ابن مُيَسَّر بأسماء من تولَّوا نَظَرَ الدِّوَانِين في آخر عصر الدولة الفاطمية ، أقدمهم الشريف معتمد الدولة بن جعفر بن غَسَّان المعروف بابن

^{٥٤} الخزومى : المنهاج في علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن ، القاهرة ١٩٨٦ ، ٦٨ ، ٩٨ .

^{٥٥} Stern , S . M . , op . cit . , p . 17 ، المقرئى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ .

^{٥٦} ربما كان الديوان الذى يسمِّيه الخزومى « ديوان المال » (المنهاج ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢) .

^{٥٧} ابن الطوير : نزهة ٧٩ - ٨٠ . وعن تولى الدواوين بالضَّمان انظر ابن عمات : قوانين ٢٩٨ -

أبى العساف الذى تولّى نظَر الدواوين بعد عَزَل وَلّى الدولة أبى البركات يُحَنّا ابن أبى الليث عن ديوان التحقيق والمَجْلِس سنة ١١٣٣/٥٢٧^{٥٨}. وفى سنة ١٠٣٥ - ٣٤/٥٢٩ وَلّى الخليفة الحافظ صنيعة الخلافة أبا الكرم الأخرم ابن أبى زكريا النَّصْرانى نظَر الدواوين ، وهو النصرانى الوحيد الذى تولّى هذا الديوان ، إلى أن عزله الوزير ابن وَلَحْشَى سنة ١١٣٧/٥٣٢ واستخدم عَوْضًا عنه القاضى المرتضى الْمُحَنِّك الطَّرَابُلْسَى^{٥٩}، ولكنه لم يلبث أن صرفه الخليفة الحافظ وأعاد الأخرم النصرانى إلى ضَمَان الدولة بعد عَزَل رضوان بن وَلَحْشَى^{٦٠}. وفى سنة ١١٤٥/٥٤٠ أوكل نظَر الدواوين إلى القاضى الموفق أبى الكرم محمد بن معصوم التَّيْسَى ثم صُرِف عنه فى سنة ١١٤٧/٥٤٢ وأعيد إليه القاضى المرتضى الْمُحَنِّك^{٦١}. ومن تولّى هذا الديوان أبو الحسن على بن سليم البَوَّاب الذى قتله الوزير الصَّالِح طَلَّاع مع آخرين فى سنة ١١٥٥/٥٥٠^{٦٢}، ومحمد بن محمد بن محمد بن بنان الأتبارى الذى ذكر الصَّفْدَى أنه « تولّى ديوان النَّظَر فى الدولة المصرية وتقلَّب فى الخِدم فى الأيام الصَّلاحية بِتَّيْس والإسكندرية »^{٦٣}.

وعلى العكس من « ديوان النَّظَر » فلم يكن يتولّى « ديوان المَجْلِس » عادة سوى النَّصْرانى إلى أن استخدم الوزير ابن وَلَحْشَى المسلمين فى المناصب التى كانت بأيدي النصارى سنة ١١٣٧/٥٣١. ورغم أن هذا الديوان قد عُرف منذ وزارة الوزير اليازورى^{٦٤}، فإن أول اسم يقابلنا فى المصادر لمتولّى هذا

^{٥٨} ابن ميسر : أخبار ١١٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٤٨ .

^{٥٩} نفسه ١٤٠ ، نفسه ٣ : ١٦٥ ، وانظر ابن ظافر : أخبار ٩٩ .

^{٦٠} المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٨٤ .

^{٦١} ابن ميسر : أخبار ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ .

^{٦٢} نفسه ١٥٣ ، نفسه ٣ : ٢٢١ .

^{٦٣} الصفدى : الوافى ١ : ٢٨٢ ، ابن شاکر : فوات ٣ : ٢٦٠ .

^{٦٤} المقرئى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ تحر سطر .

الديوان هو أبو الطَّيِّب سَهْلُون بن كيل المتوفى سنة ١٠٨٧/٤٨٠ . وفى أيام الوزير الأفضَل شاهنشاه كان الشيخ أبو الفضل المعروف بابن الأسقف هو « كاتب الأفضَل والموقع عنه فى الأموال والرجال ومتولى ديوان المَجْلِس والنظر فى جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة »^{٦٦} . كذلك فقد تولى هذا الديوان أكثر من مرة فى زمن الفاطميين والأيوبيين أبو الحسن على بن عثمان المَخْزومى صاحب كتاب « المنهاج فى علم خراج مصر »^{٦٧} .

ديوان التحقيق

فى سنة ١١٠٧/٥٠١ استجدَّ الوزير الأفضَل ديوانًا سماه « ديوان التحقيق » مقتضاه المقابلة على التواوين ، كان لا يتولاه إلا كاتب خبير ويُلقب بمتولى النظر^{٦٨} . كان أول من تولاه الشيخ وَلَّى الدولة أبو البركات يُحَنَّا بن أبى الليث^{٦٩} وأطلق عليه ابن ميسر اسم « ديوان المملكة »^{٧٠} ، وبعد وفاة الشيخ أبو الفضل بن الأسقف ، متولى ديوان المَجْلِس ، فى مطلع القرن السادس جُمع لابن أبى الليث « ديوان المَجْلِس » إلى « ديوان التحقيق » وظلَّ يليهما إلى أن صرَّفه الخليفة الحافظ فى سنة ١١٣٣/٥٢٧ « لأشياء نغمها عليه » وسلَّم أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة على بن جعفر بن غَسَّان المعروف بابن العسَّاف^{٧١} ، ولكن لم يكد يمضى عامان حتى استخدم الخليفة الحافظ الشيخ صنيعة الخلافة

^{٦٥} ساويرس بن المقفع : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢٢٣ .

^{٦٦} نفسه ١/٣ : ٣ والمقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٩ .

^{٦٧} المَخْزومى : المنهاج - خ ٤٦ و .

^{٦٨} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨١ .

^{٦٩} ابن المأمون : أخبار ٥٣ ، ٦٥ ، أبو صالح : تاريخ ٦٤ ، ابن ميسر : أخبار ٧٧ ، ١٠٨ ،

ساويرس : تاريخ ١/٣ : ٢٦ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٩٩ ، الاتعاظ ٣ : ١٢٦ .

^{٧٠} ابن ميسر : أخبار ٩٠ .

^{٧١} ابن ميسر : أخبار ١١٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٤٨ .

أبو ذكرى بن يحيى بن بولس الكاتب النَّصْراني في ديوان التحقيق في أيام وزارة
بَهْرَام الأرمني سنة ١١٣٦/٥٣٠^{٧٢}.

وعندما تولَّى رِضْوَان بن وَلَخْشِي الوزارة في سنة ١١٣٦/٥٣١ ، بعد عَزَل
بَهْرَام الأرمني ، « أمر بعدم استخدام النَّصَارَى في الدَّوَابِين الكبار ولا نُظَّارًا
ولا مُشَارَفِينَ »^{٧٣}، فَعَيَّن القاضي الخطير أبا الحسن علي بن سليم بن البَّوَاب
والقاضي المرتضى الْمُحَنِّك بن الطَّرَابُلْسِي على ديواني التحقيق والمَجْلِس وديوان
النَّظَر عَوَضًا عن ابن بولس وعن الأَخْرَم النَّصْراني^{٧٤}.

وفي أول الأمر كان ديواني التحقيق والمَجْلِس يُجْمَعَان لشخص واحد كما
حَدَّث مع الشيخ وَلَّى النُّوْلَة أبا البركات يُحَنَّا بن أبي اللَّيْث ويؤكد ذلك أن
الْمَنْشُور الذي أصدره الخليفة الأمر بأحكام الله في أعقاب وفاة الوزير الأفضَل
ابن بدر الجمالي في شَوَّال سنة ١١٢١/٥١٥ « بِإِمضاء ما كان الوزير قد قرَّره
وخرجت به توقيعاته قبل قتله وعدم تغيير شيء منه » أمر باعتياده في ديواني
التحقيق والمَجْلِس وأن يُخَلَّد بهما^{٧٥}.

ويبدو أن « ديوان المَجْلِس » قد أُلغِيَ بعد فترة قصيرة من بداية الدولة
الأيوبية ، فيذكر النَّابُلْسِي عند حديثه عن « ترتيب الدَّوَابِين بالديار المصرية » :
« أن أحوال الدَّوَابِين بالديار المصرية كان على أنحاء مختلفة من زمن المصريين
[أي الفاطميين] فكان لهم ديوان يُعرف « بديوان المَجْلِس » وهو النظر في
أموال الزُّكَاة والجَوَالِي بالديار المصرية جميعها مع ما يضاف إليه من دواوين
الباب ، وكان أَجَل رُتْبَة عندهم وكان هو الذي يوقع بإطلاق جامَكِيَّات المستوفين
ويكتب على مستحقات المستحقين من أرباب الجامكيات والرواتب فيه ، ليس
لأحد مع ناظر هذا الديوان حديث ، وهو الذي يتولَّى إرسال التذاكر إلى

^{٧٢} ساوئرس : تاريخ ٣/٣١ .

^{٧٣} نفسه ٣/ : ٣١ وانظر ابن ميسر : أخبار ١٢٨ - ١٢٩ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٦٣ .

^{٧٤} نفسه ٣/١ : ٣١ والاتعاظ ٣ : ١٦٥ .

^{٧٥} المقرئ : اتعاظ ٣ : ٦٩ .

الأعمال بطلب ديوان الزكاة والجوالي وحساباتهما ويستخدم فيهما ويصرف ، وكذلك ديوان الخراج وديوان الموارث والتطرون والثغور وغير ذلك من الدواوين . « ثم تغيّر ذلك على أنحاء مختلفة إلى أن انتهى الحال إلى أن يؤمر المستوفون بعمل أوراق بالأشغال والدواوين »^{٧٦} .

أما « ديوان التحقيق » فيذكر ابن ميسر صراحة أنه زال بسقوط الفاطميين إلى أن أعاده الملك الكامل محمد في سنة ١٢٢٧/٦٢٤ واستخدم فيه ابن كوجك اليهودي ثم أبطله نهائياً في سنة ١٢٢٩/٦٢٦ ، ويضيف ابن ميسر أنه في أيام المعز أيك التركاني استخدم صفى الدين عبد الله بن علي المغربي مستوفياً على مقابلة الدواوين ، الذي يُعدّ نوعاً من ديوان التحقيق^{٧٧} .

وقد استعاض الأيوبيون عن هذين الديوانين بما أُطلق عليه « مجلس أصحاب الدواوين » الذي كان يجتمع بحضرة السلطان لتسمية ناظر الدواوين . وقد عُقد مرّة في العاشر من صفر سنة ٥٨٠ / ٢٣ مايو سنة ١١٨٤ للمفاضلة بين شخص يُدعى ابن شكر وآخر يُدعى ابن عثمان . ووقع اختيار المجلس أولاً على ابن عثمان ثم صُرف بابن شكر الذي سُمّي في خامس عشر ربيع الأول من السنة نفسها بـ « ناظر الدواوين » . وعُقد المجلس كذلك في رابع المحرم سنة ٥٩٠ / ٣٠ ديسمبر سنة ١١٩٣ بحضرة السلطان العزيز عثمان^{٧٨} .

الديوان الخاص

والى جانب ديوانى المجلس والتحقيق كان هناك ديوان آخر يُعرف بـ « ديوان الخاص » يشرف على نفقات الخليفة والقصر وكان يُجمّع دائماً إلى ديوان المجلس فيقال « ديوانى المجلس والخاص السعدين »^{٧٩} أو « ديوان

^{٧٦} النابلسي : لمع القوانين المضية ٣٠٦ .

^{٧٧} ابن ميسر : أخبار ٧٧ - ٧٨ ، التويرى : نهاية ٢٦ : ٨١ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٩ .

^{٧٨} المقرئى : السلوك ١ : ٨٨ ، ١٢٠ ، Rabie , H . , op . cit . , p . 146 .

^{٧٩} - Stern , S . M . , op . cit . , p . 36 .

الخاص والمَجْلِس «^{٨٠} وعادة ما كانت هذه الدواوين تُنسب إلى الخليفة الحاضر كأن يقال « الديوان الخاص الأمرى »^{٨٢} أو « ديوان المَجْلِس الفائزى »^{٨٣}.

ديوانُ الرِّسائل أو ديوانُ الإنشاء والمُكاتبات

وإلى جانب الدواوين المالية استمر يؤدي وظيفته طوال العصر الفاطمى دون تغيير يُذكر « ديوانُ الرِّسائل » ، وهى التسمية التى كانت تُطلق على هذا الديوان حتى حل محلها نهائياً ابتداءً من القرن الرابع مصطلح « الإنشاء »^{٨٤}. وهو ديوان مشترك فى جميع الأقاليم الإسلامية طوال العصور الوسطى . ورغم أن ابن الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢/١١٤٧ ، ألف كتاباً اهتم فيه بذكر الشروط التى يجب أن تتوافر فى موظفى هذا الديوان وتوضيح تنظيمه الداخلى وسمّاه « قانون ديوان الرِّسائل » ، فقد أطلق عليه فى مؤلف آخر هو « الإشارة إلى مَنْ نال الوِزارة » : « ديوان الإنشاء »^{٨٥}. وتُطلق جميع مصادر العصر الفاطمى التى وصلت إلينا على هذا الديون : « ديوان الإنشاء » وأحياناً « ديوان المكاتبات »^{٨٦}. وكان يرأس هذا الديوان كاتبٌ من أَجَل كُتّاب البلاغة يقال له « رئيس »^{٨٧} أو « متولّى الديوان » ، أو « صاحب الديوان » وكان يُخاطَب « بالشيخ الأجل » ويُلقب « بكاتب الدُّست الشريف »^{٨٨}.



^{٨٠} ابن المأمون : أخبار ٦٦ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٩٩ .

^{٨١} نفسه ٣٠ ، ٣١ ، نفسه ١ : ٨٤ .

^{٨٢} أبو صالح : تاريخ ٥٤ (٤٢ ب) .

^{٨٣} Stern , S . M . , op . cit . , p . 72 .

^{٨٤} القلقشندى : صبح ١ : ١٠٣ .

^{٨٥} ابن الصيرفى : الإشارة ٨٥ .

^{٨٦} على بن خلف : مواد اليان ٧٥ - ٧٦ ، ابن المأمون : أخبار ٢٧ ، ٥٢ ، ١٠٣ ، ابن ميسر :

أخبار ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٩٠ ، القلقشندى : صبح ١ : ٨٩ - ٩٦ ، المقرئى :

اتعاض ٣ : ١٩٤ .

^{٨٧} ابن الصيرفى : قانون ديوان الرِّسائل ٧ .

^{٨٨} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٤ ، ابن ميسر : أخبار ١١٢ ، القلقشندى : صبح ١ : ١٠٢ ، =

وبالإضافة إلى هذه الدواوين فهناك عددٌ آخر من الدواوين ورد ذكره في المصادر الأدبية وعلى الإسجلات المثبتة على السجلات والمناشير المحفوظة في دير سانت كاترين . فبالإضافة إلى « ديوان الجيش » و « ديوان الجهاد » (الذين سنتحدث عنهما عند حديثنا عن النظام الحرثي) نعرف دواوين مثل : « ديوان الإقطاع » ، و « ديوان الاستيفاء على الصعيدين الأعلى والأدنى وما جمع إليه »^{٨٩} أو « ديوان الاستيفاء على الأعمال القبلية وما جمع إليه »^{٩٠} ، و « ديوان الاستيفاء على الثغور المحروسة والطور الشريف وما جمع إليه »^{٩١} ، و « ديوان أسفل الأرض » ، وكذلك « ديوان الاستيفاء على الأعمال الشرقية »^{٩٢} ، و « ديوان الاقطاعات المرتجعة والرُّباع والأجنة (؟) السلطانية وما جمع إليه »^{٩٣} الذي يبدو أنه هو نفسه « الديوان المُرتَّجَع » الذي ذكره القلقشندي^{٩٤} .

النَّظَامُ الْقَضَائِي

كانت السُّلْطَةُ القَضَائِيَّةُ واحدة من السُّلْطَات الثلاث التي اشتمل عليها النظام الفاطمي في مصر . فبوصول الفاطميين إلى مصر أضحت القَاهِرَةُ ، مثلها مثل بَعْدَاد و قُرْطُبَة ، مركز خلافة بعد أن كانت مصر مجرد ولاية تابعة للخلافة العبَّاسية بها قاضي يُعَيِّنُه الخليفة العبَّاسي السني ، وهكذا عَرَفَت مصر في العصر الفاطمي منصب « قاضي القضاة »^{٩٥} .

^{٨٩} ١٠٣ ، المقرئ : الخطوط ١ : ٤٠٢ ، ٢ : ٨٦ س ٣٥ - ٣٦ .

^{٩٠} Stern , S , M . , op . cil . pp . 37 .

^{٩١} القلقشندي : صبح ١٠ : ٤٦٤ .

^{٩٢} Stern , S , M . , op . cil . , pp . 54 , 66 .

^{٩٣} Ibid., p . 54 .

^{٩٤} Ibid., p . 37 .

^{٩٥} القلقشندي : صبح ١٠ : ٣٥٧ .

^{٩٦} ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١ : ١٤٠ .

وحرصاً من القائد الفاتح جَوْهَر الصَّقْلَبِي على عدم خلخلة النظام الإداري في مصر ، وهو من أعقد أنظمة البلاد الإسلامية ، احتفظ بالموظفين الإخشديين في مناصبهم ومن بينهم القاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد الدُّهْلِي الذي كان قد عيّنه الخليفة العباسي في سنة ٩٥٩/٣٤٨ . ورغم مكانة القاضي النُّعْمَان بن حَيُّون الكبيرة لدى الخلفاء الفاطميين ودوره في التعبير عن المعتقدات الفاطمية وتسجيل تاريخ أئمتهم ، فإنه لم يُكَلَّف رسمياً بالقضاء في مصر وإنما شارك القاضي أبا الطاهر في نظر بعض القضايا إلى أن توفي سنة ٩٧٣/٣٦٣^{٩٦} . وبعد ذلك استمر القاضي أبو الطاهر على حاله وجعل له الخليفة المُعِزُّ علياً بن النعمان معاوناً له وكان يحكم بالجامع العتيق^{٩٧} . ولما تولى العزيز بن المعز الخلافة سنة ٩٧٥/٣٦٥ ردّ أمر دار الضرب والجامع لعلي بن النعمان ، فشارك بذلك أبا الطاهر الدُّهْلِي وجرى التنافس بينهما إلى أن أصابت أبا الطاهر رطوبة عطّلت شِقِّه وأعجزته عن الحركة ، فقوّض الخليفة الحُكْم إلى علي بن النُّعْمَان لليلتين خلتا من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة^{٩٨} . وهو أول من خوطب بـ « قاضي القضاة » بالديار المصرية ، كما يقول ابن حجر ، لأنه جاء في سِجْلِهِ ، الذي قرىء بالجامع الأزهر وبالجامع العتيق ، أن جميع الأعمال داخلة في ولايته^{٩٩} . أما أول من كُتِب في سِجْلِهِ « قاضي القضاة » فابنه الحسين بن علي بن النعمان^{١٠٠} .

وقد توارث ستة من أسرة بني النعمان منصب القضاء في مصر أكثر من ستين عاماً تخلّلها بعض الانقطاع^{١٠١} .

^{٩٦} Gottheil , R . , " A Distinguished Family of Fatimid Cadis (al - Nu'man) in the

Thenth Century " , JAOS 27 (1906) , p. 239 . المقرئى اتعاط ١ : ٢١٥ .

^{٩٧} المقرئى : اتعاط ١ : ٢٢٥ .

^{٩٨} Gottheil , R . op . cit , p . 240 .

^{٩٩} Ibid , p . 243 .

^{١٠٠} ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢١٠ .

^{١٠١} انظر مقال Gottheil المذكور أعلاه في هامش^{٩٦} .

وجرت العادة أن يُقرأ سِجِلٌ تولية قاضي القضاة في الجامع بالقاهرة ومصر وهو قائم على قدميه وكلما مرَّ ذكر الخليفة أو أحد من أهله أوماً بالسجود^{١٠٢}.

وكان قاضي القضاة ، في العصر الفاطمي الأول ، هو الذي يُعيّن سائر قضاة الأنحاء . ففي ربيع الآخر سنة ٣٨٢ / يونية سنة ٩٩٢ خلع القاضي محمد ابن النعمان على مالك بن سعيد الفارقي وقلّده قضاء القاهرة^{١٠٣} ، فلما تخلف القاضي الحسين بن النعمان عمّه محمداً أقره على ذلك واستخلف الحسين بن محمد بن طاهر على الحكم بمصر^{١٠٤}.

ولم يتول أحدٌ من أسرة بني النعمان أمر الدّعوة الفاطمية قبل الحسين بن علي ابن النعمان الذي كان « أول من أضيفت إليه الدّعوة من قضاة العبيدين »^{١٠٥} كما فُوض إليه كذلك الحكم بجميع المملكة وكذلك الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة والنظر عليها وعلى غيرها من المساجد ، وولى أيضاً مُشارفة دار الضرب وقراءة المجالس بالقصر وكتابتها وذلك في سنة ٩٩٨/٣٨٩^{١٠٦}.

والحسين بن علي بن النعمان هو كذلك أول من أفرد لمؤدع الحكم مكاناً معيناً في زقاق القناديل بمصر الفسطاط ، فقد كانت الأموال قبل ذلك تودع عند القضاة أو أمنائهم^{١٠٧} ..

^{١٠٢} Gottheil , R . , op . cit . , p . 241 .

^{١٠٣} المقرئى : اتعاط ١ : ٢٧٥ .

^{١٠٤} ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠٨ .

^{١٠٥} نفسه ١ : ٢٠٩ .

^{١٠٦} نفسه .

^{١٠٧} نفسه ١ : ٢٠٩ وقارن ابن ميسر : أخبار ٨٣ — ٨٤ ، المقرئى : اتعاط ٣ : ٧٢ ،

السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٥١ .

ورؤية قاضي القضاة من المناصب العليا في الدولة الفاطمية كان يتقدم على داعي الدعاة ويتزياً بزيه وهو من طبقة أرباب العمائم^{١٠٨}. وكان من عاداته الجلوس بالقصر في يومى الاثنين والخميس أول النهار عند باب البحر للسلام على الخليفة^{١٠٩}، ويبدو أن هذا التقليد اتبع بانتظام ابتداء من عصر الخليفة الأمر.

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير الحق، فأمر أن يضعف للحسين بن على بن النعمان رزقه وصلاته وإقطاعاته، وشروط عليه ألا يتعرض من أموال الرعية للرهيم فما فوقه^{١١٠}. وكان دخل القاضي عبد الحكم بن سعيد الفارقي عشرين ألف دينار في السنة^{١١١}. ويذكر ناصر خسرو أن مرتب قاضي القضاة بمصر، نحو سنة ١٠٤٨/٤٤٠، بلغ ألفى دينار «حتى لا يطمع القضاة في أموال الناس أو يظلمونهم»^{١١٢}، بينما يذكر ابن الطوير أن المستقر لقاضي القضاة ولداعي الدعاة مائة دينار في الشهر من واقع ما سجل في ديوان الرواتب^{١١٣}. أما ابن ميسر فيذكر أن جرى الحكم كان أربعين ديناراً في الشهر^{١١٤} وذلك، في أغلب الظن، لقضاة النواحي.

ويعد الوزير الحسن بن على الياوزرى أول من تولى الوزارة مضافاً إلى قضاء القضاة والتقدمة على الدعاة في سنة ١٠٥٠/٤٤٢ «ولم يجمع ذلك لأحد قبله»^{١١٥} ونعت بـ «الناصر للدين غياث المسلمين الوزير الأجل المكرم سيد

^{١٠٨} ابن الطوير: نزهة ١١٠.

^{١٠٩} نفسه ٢٠٥، المقرئى: المقي (خ. السليمة) ٣٥٩ ظ، الانعاظ ٢: ١٩٨.

^{١١٠} ابن حجر: رفع الإصر ١: ٢٠٨ - ٢٠٩.

^{١١١} نفسه ١: ٢٠٨.

^{١١٢} ناصر خسرو: سفرنامه ١٠٩.

^{١١٣} ابن الطوير: نزهة المقلتين ٨٤.

^{١١٤} المقرئى: انعاظ ٣: ١٧٤.

^{١١٥} ابن ميسر: أخبار ٥٥.

الرؤساء تاج الأصفياء قاضي القضاة وداعى الدعاة « إلى أن قضى عليه في المحرم سنة ٤٥٠/مارس ١٠٥٨ ^{١١٦} .

وبعد عزل الوزير اليازورى في أول سنة ٤٥٠/١٠٥٨ دخلت مصر في أزمة إدارية حادة ، فخلال السبعة عشر عامًا التى أعقبت وفاته أبعد أربعة وخمسون وزيراً واثنان وأربعون قاضياً إلى أن وصل إلى مصر أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٦٦/١٠٧٣ .

وابتداء من هذا التاريخ طرأ تغير كبير على وظيفة قاضي القضاة . فقد نُعت بدر الجمال في أول الأمر بـ « السيّد الاجلّ أمير الجيوش » ثم أضيف إلى ألقابه نحو سنة ٤٧٠/١٠٧٧ « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » ^{١١٧} وجعل القاضى والداعى نائين عنه . وهكذا أصبح القضاة نواب الوزراء ويذكرون النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنكحة ^{١١٨} .

وكان قاضى القضاة طوال العصر الفاطمى يُختار من بين الفقهاء الإسماعيليين ويُشترط عليه أن لا يحكم إلا بمذهب الدولة ؛ فعندما استخلف على بن النعمان أخاه محمداً والحسن بن خليل الفقيه الشافعى « شَرَط عليه أن يحكم بمذهب الإسماعيلية لا بمذهب الشافعى » ^{١١٩} . وبعد وفاة القاضى أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى عقيل سنة ٥٣٣/١١٣٨ « قام الناس بلا قاضى ثلاثة أشهر » ، ثم اختير الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله بن الحُطَيْئة المالكى اللُحْمى « فاشترط أن لا يقضى بمذهب الدولة فلم يُمكن من ذلك » ، فعهد الوزير بن وَلَحْشى إلى

^{١١٦} نفسه ١١ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٢١٢ ، المقفى (غ . السليمية) ٣٦١ و ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٤ .

^{١١٧} ابن ميسر : أخبار ٤٥ ، ٥٠ .

^{١١٨} ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، التويرى : نهاية ٢٦ : ٨٩ ، الفلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٤٠ ، الاتعاظ ٣ : ١٥٦ والمقفى (غ . السليمية) ٢٦٦ و .

^{١١٩} Gottheil , R . , op . cit . , p . 242 -

الفقيه أئى محمد عبد المولى اللبئى بعقد الأئكبة فأجاب وبقى الحكم شاغراً^{١٢٠}.

والاستثناء الوحيد لذلك حءء فى الفترة التى تولئ فىها الوزارة أبو على الأفضل كئىفات ، عندما سجن الخليفة الحافظ ودعا للإمام المئئظر (ذو القعدة ٥٢٤ - المحرم ٥٢٦) . فقد رئب فى الحكم فى سنة ١١٣١/٥٢٥ أربعة قضاة يحكم كل قاض بمذهبه ويورث بمذهبه : قاضى للشافعية وقاضى للمالكية وقاضى للإسماعيلية وقاضى للإمامية ، وعلق ابن مئسر على ذلك بأنه « لم يسمع بهذا قط فيما سلف »^{١٢١}.

لذلك فقد كان يُعهد أحياناً إلى القاضى بتدريس دار العلم بالقاهرة مثلما حءء مع القاضى هبة الله عبد الله بن الحسين المعروف بابن الأزرق فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٣٤/١٣ فبراير سنة ١١٤٠^{١٢٢}.

وكان مجلس القاضى دائماً يومئ الثلاثاء والسبت بالزيادة البحرية والشرقية لجامع عمرو بالفسطاط ، فإذا أقبل العصر عاد القاضى إلى القاهرة^{١٢٣}. وله فى مجلسه طراحة ومسند حرير ، وقد استجد هذا الرسم بعد أن تولئ القاضى أحمد بن عبد الرحمن بن أئى عقيل فى المحرم سنة ٥٣١/أكتوبر سنة ١١٣٦ ، فإنه لما دخل مجلس القضاء « ووجد المرتبة أمر برفعها وجلس على طراحات السامان

^{١٢٠} ابن ميسر : أخبار ١٣١ ، ابن أئيك : كنز الدرر ٦ : ٥٢٨ ، المقرئى : المقفى (غ .

السلمية) ١٠٥ ظ ، الاتعاظ ٣ : ١٧٢ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٨٠ .

^{١٢١} نفسه ١١٤ ، التويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ - ٨٨ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٤٢ ، الخطط ٢ :

٣٤٣ ، المقفى (غ . السلمية) ٨١ ظ ، ابن حجر : الإصر ١ : ٢٤٧ ، السيوطى : حسن

الماضرة ٢ : ١٦٥ ، Allouche , A . , "The Establishment of Four Chief

Judgeships in Fatimid Egypt " , JAOS 105 (1985) , pp . 317 - 320 .

^{١٢٢} نفسه ١٣٢ ، الاتعاظ ٣ : ١٧٣ .

^{١٢٣} ابن الطوير : نزهة ١٠٧ ، ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٢ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٢٥٣

والاتعاظ ٢ : ٢٢٤ .

فاستمر هذا الرسم ^{١٢٤} . ويجلس الشهود حواله يَمَنَة وَيَسَرَة بحسب تاريخ عدالتهم ، وقد بلغ عِدَّة الشهود في أيام القاضي محمد بن هبة الله بن مُيسَّر (نحو سنة ٥٢٤ هـ) مائة وعشرين شاهداً ، وكانوا قبل ذلك دون الثلاثين ^{١٢٥} . وكان يجلس بين يديه في المجلس خمسة من الحُجَّاب : اثنان بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد يُنفذ الخصوم إليه ، كما كان له كذلك أربعة من المُوقَّعين بين يديه اثنان يقابلان اثنين وله كرسى اللوة ، وهى داوة محلاة بالفضة تُحمَل إليه من خزان القصور ، ولها حاملٌ بجامكية في الشهر على الدولة ^{١٢٦} .

وكان للقاضي برسم ركوبه على الدوام بَغْلَة شَهْبَاء تخرج له من الاصطبلات الخليفة ، وهو مخصوص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة . وكانت تأتيه في المواسم الأطواق ويُخلع عليه الخلع المذهبة بلا طَبْل ولا بوق ، إلا إذا جُمِعَ له الحكم والدعوة ، فإن من بين رسوم الدَّعوة في الخلع الطبل والبنود . إما إذا نُحِلَ عليه للحُكْم خاصة فيكون حواله القراء رجالة والمُؤذِّنون يُعلنون بذكر الخليفة أو الخليفة والوزير ، إن كان الوزير صاحب سيف ^{١٢٧} .

وإذا حضر قاضى القضاة في مجلس لا يتقدَّم عليه أحد من أرباب السيوف أو الأقلام ، ولا يحضر عقود الأُنْكِيحَة أو الجَنَائِز إلا بإذن ، ولا سبيل إلى قيامه لأحد وهو في مجلس الحُكْم ، ولا يعدل شاهد إلا بأمره ^{١٢٨} .

وابتداء من وزارة أمير الجيوش بدر الجمالى لم يعد يخاطب من يتولَّى الحكم بـ « قاضى القضاة » لأنه أصبح من نعوت الوزير صاحب السيف . وكان من أهم أعباء منصبه النظر في عِيَار دار الضَرْب لضبط ما يُضْرَب من الدنانير ^{١٢٩} .

^{١٢٤} ابن الطوير : نزهة ١٠٧ .

^{١٢٥} ابن ميسر : أخبار ١٠٧ ، المقرئى : الاتعاظ ٣ : ١٢١ .

^{١٢٦} ابن الطوير : نزهة ١٠٨ .

^{١٢٧} ابن الطوير : نزهة ١٠٨ .

^{١٢٨} نفسه .

^{١٢٩} نفسه ١٠٨ والمقرئى : الخطط ١ : ١١٠ .

وكان القاضي لا يُصْرَف إذا وُلِّيَ إلا بُجُنْحَة .

وكان للقاضي مكان متميز في المواكب والاحتفالات فمن ذلك « ركوب عيد الفطر » و « ركوب عيد النحر » . فبعد فراغ الخليفة من الصلاة كان يصعد المنبر للخطبة العيدية وكان القاضي من بين من يَشْرَفون بالوقوف مع الخليفة ويَرْقَى معه المنبر لِيُزَرَّ عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس^{١٢٠} ، ويقرأ مدرجاً يكون قد أُخْضِرَ إليه من ديوان الإنشاء يتضمن ثبثاً بمن شَرَف بصعود المنبر الشريف مع الإمام يوم العيد^{١٢١} . كما أنه يرقى المنبر مع الإمام في صلاة الجمعة في رمضان « وفي يده مدخنة لطيفة خيزران يُخْضِرُها إليه صاحب بيت المال فيها جمرات ، ويجعل فيها نَدَّ مثلث لا يُشَمُّ مثله إلا هناك ، فيَنَحُرُ ، الذروة التي عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ويكرّر ذلك ثلاث دفعات » ثم يصحب الإمام ومعه الوزير إلى المنبر حتى يستوى الإمام جالساً فيزَرُّ عليه المزرة ويقف صاحب الباب ضابطاً للمنبر إلى أن يخطب الخليفة خطبة الجمعة^{١٢٢} .

والقاضي هو الذي يمسك الحربة للخليفة لينحر بها الأضاحي يوم عيد النحر في « المنحر » فتكون بيد الخليفة الحربة من رأسها الذي لا سنان فيه ويد القاضي في أصل سنانها ، فيجعله القاضي في نحر النحيرة فيقطع به الخليفة^{١٢٣} .

وفي عيد غدير تُحَمَّ كان من الرسم أن يجلس القاضي والشهود تحت كرسي الدعوة الذي كان يُنصب في الإيوان الكبير وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب

١٢٠ ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٥٦ .

١٢١ ابن المأمون : أخبار ٨٧ ، ٨٨ .

١٢٢ ابن الطوير : نزهة ١٧٤ .

١٢٣ نفسه ١٨٤ .

في هذا العيد ، فإذا فرغ الخطيب ونزل صَلَّى قاضي القضاة بالناس ركعتين ^{١٣٤}.

وفي شهر رمضان يُعقد كل ليلة بقاعة الذهب سباطاً إلى آخر السادس والعشرين منه ، ولم يكن يُستدعى له قاضي القضاة إلا في ليالي الجمع فقط توقيراً له ^{١٣٥}.

وفي الاحتفال بالموالد الستة كان لقاضي القضاة دورٌ أساسي فهو أول أرباب الرُسوم في تفريق الحُلّواء التي تُعمل بدار الفِطْرة احتفالاً بالمولد . وهو الذي يجلس بالجامع الأزهر بعد صلاة ظهر هذا اليوم مقدار قراءة الختمة الكريمة ، ثم يركب ومعه الشهود وداعى الدُّعاة بالنقباء إلى بين القصرين والركن المُخلّق لنظر الخليفة في المنظرة المعدة لذلك ويرد عليه الخليفة السلام بواسطة أحد الأستاذين المُحنّكين ^{١٣٦}.

والقاضي كذلك هو الذي كان يقود موكب الاحتفال بليالي الوقود الأربعة بعد صلاة العصر إلى حيث رَحْبة باب العيد أمام باب الزُّمُرد من القصر ، ويخطب الخطباء ويُسلّم عليه الخليفة مثلما حدث في الاحتفال بالمولد ، وبعد زيارة قصيرة للوزير يشق القاضي والجماعة القاهرة وينزل على باب كل جامع بها ويُصَلّي ركعتين ، ثم يخرج من باب زُوَيْلَة طالباً الفُسطاط وفي خدمته والى القاهرة ، فيدخل في طريقه جامع ابن طولون للصلاة ويدخل المَشاهد في طريقه أيضاً ، ثم يجد والى الفسطاط في خدمته بعد خروجه من جامع ابن طولون ويستمر في اختراق الشارع الأعظم حتى يصل إلى باب الجامع من جهة الزيادة التي يحكم فيها ويُوقد له التور الفضة الذي كان معلقاً بها ^{١٣٧}.

^{١٣٤} نفسه ١٨٨ .

^{١٣٥} نفسه ٢١٢ .

^{١٣٦} نفسه ٢١٨ .

^{١٣٧} نفسه ٢٢٠ - ٢٢١ .

وكانت عملية الإشراف على الأقباس وصيانتها موكولة كذلك إلى القضاة فيذكر محمد بن أسعد الجَوَّاني أن القضاة بمصر ، كانوا إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام ، طافوا يوماً على المساجد والمَشَاهِد بمصر والقاهرة يبدؤون بجامع المَقْس ثم القاهرة ثم المَشَاهِد ثم القرافة ثم جامع مصر ثم مشهد الرأس لنظر حُصْر ذلك وقناديله وعمارته وما تَشَعَّت منه وظل الأمر على ذلك حتى زوال الدولة الفاطمية^{١٣٨}.

النظام الديني

لما كانت الدولة الفاطمية قد قامت على أساس تشابكت فيه السياسة مع الدين إلى حد أن كل تنظيم سياسي في هذه الدولة كان انعكاساً لروح العقيدة الفاطمية نفسها ، حتى أصبحت أصدق مثال للدولة الدينية العقائدية (الشيوعية) في الإسلام . فإن « الدَّعْوَة » كانت عماد هذه الدولة وأهم ما مَيَّزها عن الأنظمة الإسلامية الأخرى . وكانت وظيفة داعي الدُّعَاة ، كما يقول المقرئزي ، من مفردات الدولة الفاطمية^{١٣٩}.

ولا تمدنا المصادر بمعلومات كافية عن حقيقة دور « داعي الدُّعَاة » في مصر الفاطمية . ونحن نعرف ، تبعاً للعقيدة الإسماعيلية ، أن داعي الدُّعَاة هو أحد دعائم هذه العقيدة وأن مرتبته تلي مباشرة مرتبة الإمام^{١٤٠}. ولكن كل مصادرنا التي تحدَّثنا عن داعي الدُّعَاة في مصر تعتمد على النص الوحيد المنقول عن ابن الطَّوَيْر وفيه أن داعي الدُّعَاة « يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيَّأ بزِيَّه في اللباس

^{١٣٨} المقرئزي : الخطط ١ : ٤٩١ ، ٢ : ٢٩٥ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٢٢ .

^{١٣٩} المقرئزي : الخطط ١ : ٢٩١ ، وراجع : Ivanow , W . , "The Organization of the

. Fatimid Propaganda " , JBBRAS XV (1939) , pp . 1 - 35

^{١٤٠} Hamdani , A . , " Evolution of the Organisational Structure of the Fatimid

. Dawa " In Arabian Studies III (1976) , pp . 85 - 114

وغيره ^{١٤١}. وهذا التعريف ، الذى أورده ابن الطَّوَّير ، يبدو مُحَيَّرًا إذ أن داعى الدُّعاة هو الذى يعقد « مجالس الحِكم » سواء فى « المُحوّل » بالقصر أو فى « الجامع الأزهر » أو فى « دار الحِكْمَة » ثم فى فترة متأخرة فى « دار العِلْم » ^{١٤٢}، وهو كذلك الذى يأخذ العهد وينشر الدُّعوة بين المستجيبين وهو الذى كان يكتب ما يُلقى فى « مجالس الحِكم » بعد أن يأخذ عليه علامة الخليفة ويقرؤه على أتباع الدُّعوة على أنه صادر من الخليفة نفسه فى كل يوم اثنين وخميس ، للرجال على كرسى الدُّعوة بالإيوان الكبير وللنساء بمجلس الداعى ! وكان داعى الدُّعاة يقوم كذلك « بأخذ النُّجوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالها لاسيما الصُّعيد ، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث فيجتمع من ذلك شيء كثير يحمله إلى الخليفة بيده بينه وبينه وأمانته فى ذلك مع الله تعالى » . ويضيف ابن الطَّوَّير أن من بين الإسماعيلية الممولين من يحمل ثلاثة وثلثين دينارًا وثلثى دينار على حكم النُّجوى وبصحبته رقعة مكتوبة باسمه فيتميز فى المُحوّل وتعود إليه وعليها خط الخليفة « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » فيُدخِر ذلك ويتفاخر به ^{١٤٣}.

وقد حَفَظ لنا المقرئى وثيقة هامة ومطوّلة عن وظيفة داعى الدُّعاة وَوَصَف الدُّعوة وترتيبها ^{١٤٤}.

وعلى ذلك فإنه يبدو غريباً أن يقدم الفاطميون فى رُسُومهم قاضى القضاة على داعى الدُّعاة . وقد حدث كثيراً أن جمع قاضى القضاة بين وظيفته ووظيفة داعى الدُّعاة ، بينما لم يحدث العكس إطلاقاً . وابتداء من وصول بدر الجمالى

^{١٤١} ابن الطَّوَّير : نزهة ١١٠ .

^{١٤٢} القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٣٧ . وانظر Stern , S . , " Cairo as the Center of the

. Isma'ili Movement " , CIHC , p . 438 - 441

^{١٤٣} ابن الطَّوَّير : نزهة ١١١ .

^{١٤٤} المقرئى : الخطط ١ : ٣٩١ - ٣٩٧ ، Casanova , P . , " La Doctrine secrète des

. Fatimides d' Egypte " , BIFAO XVIII (1920) , pp . 121 - 165

إلى الحكم جَمَعَ الوزراء بين الوزارة والقضاء والدُّعْوَة وقيادة الجيش ، وإن كان القاضي والدَّاعِي نائين عن الوزير . وقرب نهاية عصر الدولة الفاطمية أصبح لقب « هادي دعاة المؤمنين » لقباً شرفياً بما أنه كان من بين ألقاب أسد الدين شيركوه رغم أنه سني المذهب .

ورغم أن مرتبة داعي الدُّعَاة تلي الإمام في تسلسل مراتب الدُّعْوَة الفاطمية ، فإنه يبدو لي أن ذلك كان في وقت استار الإمام أو الجُرُر (ج . جزيرة حيث قسّم الفاطميون العالم إلى اثنتي عشرة جزيرة) التي تشرف عليها رئاسة الدُّعْوَة الفاطمية . فبظهور الإمام لم تعد الحاجة ماسة إلى وجود داع للدُّعَاة في وجود الإمام حتى إن أكبر فقهاء الدُّعْوَة الإسماعيلية القاضي النعمان ابن حيّون يُعرف في المصادر باسم القاضي وليس الدَّاعِي ، كما أن أبناءه الذين عاونوا الدولة الفاطمية في مصر تولّوا جميعاً القضاء فيما عدا الحسين بن علي ابن النعمان الذي جَمَعَ بين الدُّعْوَة والقضاء في سنة ٣٩٣/١٠٠٣^{١٤٥} . كذلك فإن شهرة داعي الدُّعَاة المؤيد في الدين الشيرازي ترجع إلى الدور الذي لعبه في فارس ومعلونته لأبي الحارث أرسلان البساسيري لإقامة الدُّعْوَة الإسماعيلية في بغداد أكثر من دوره كداع للدُّعَاة ومتولي لدار العلم في مصر الفاطمية .

وأول الوزراء الذين جُمع لهم الوزارة والقضاء والدُّعْوَة (قبل عصر الوزراء العظام) هو الوزير أبو الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري وذلك في سنة ٤٤٢/١٠٥٠^{١٤٦} ، والذي يعد بحق أهم وزراء الدولة الفاطمية في عصرها الأول بعد يعقوب بن كِلّس .

^{١٤٥} المقرئ : اتعاط ٢ : ٤٩ - ٥٠ ، ابن حجر : رفع الإصرار ١ : ٢٠٩ وحفظ القلقشندي سجل توليته في صبح ١٠ : ٣٨٤ - ٣٨٨ .

^{١٤٦} ابن الصيرفي : الإشارة ٧٦ ، ابن ميسر : أخبار ١١ ، المقرئ : اتعاط ٢ : ١٦٧ ، ٢١٢ ، المقرئ (مخ . السليمية) ٣٦١ و ، ابن حجر : رفع الإصرار ١ : ١٩٣ ، ١٩٤ .

وقد تولّى أمر الدّعوة بعد المؤيد فى الدين أسراً بأعيانها توارثت المنصب أهمها بنو عبد الحقيق كان أولهم ولى الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق المتوفى سنة ١١٢٣/٥١٧ ، وبنو عبد القوى الذين كان آخرهم الجليس بن عبدالقوى الذى أدركه أسد الدين شيركوه .

ومهما كان الأمر فبفضل « تنظيم الدّعوة » تمكّن الفاطميون من بسط نفوذهم وسيادتهم على أماكن مترامية من الأراضى الإسلامية : فى السّند والهند وعمّان واليمن . وقام الدّعاة بدور ملحوظ فى فرض السيطرة الفاطمية على طرق التجارة البحرية المؤدية إلى الهند ، وفى العمل على إثارة القلاقل فى أراضى الخلافة العبّاسية نفسها . وقد ظلّ أتباع الدعوة ، فى أغلب هذه المناطق ، محتفظين بحماسهم لها ولم يتهاونوا فى ذلك أبداً - كما حدث فى مصر مركز الخلافة الفاطمية - فحفظوا لنا بذلك جزءاً كبيراً من التراث الإسماعيلى بدأ يرى النور منذ وقت غير بعيد .

النظام الحرى

الجيش

كان جيش الفاطميين الذى فتح مصر يتكون من الرّوم والصّقالبة والزّويليين والبرّقية والباطلية والعييد والسود ، وكان الكتاميون يمثلون الجزء الأكبر من جيش جوهر . ولا شك أن التركيب الاجتماعى العرقى للجيش الفاطمى ذو أهمية خاصة . فقد زالت الكافورية والإخشيدية - بقايا الجيش المصرى فى زمن الإخشيديين - فور دخول جوهر ولم يلق الجيش الفاتح أية مقاومة تذكر . ولكن عندما واجه الجيش الفاطمى جيوشاً عسكرية أكثر تفوقاً عندما خرج إلى الشام ذات نظام وتقاليد مثل الجيش البويهى العبّاسى والجيش البيزنطى ، كان على الفاطميين أن يعيدوا التفكير فى تركيبة الجيش الفاطمى .

وبعد المواجهة التي تمت بين الجيش الفاطمي وجيش القائد ألبتكين في دمشق قرّر الخليفة العزيز ووزيره ابن كلس إصلاح الجيش الفاطمي . وكان أهم ما ميّز هذا الإصلاح إدخال عنصر الأتراك والمُديّالة في الجيش الفاطمي الذين اصطنعهم العزيز . ونتج عن ذلك نشؤ جنسيات وتخصّصات عسكرية جديدة ولكن بدون ترابط شامل أو تماثل مع طبيعة الدولة^{١٤٧} .

ونحو سنة ٩٨١/٣٧١ انضم إلى الجيش الفاطمي قوات من الحمدانية والبكجورية الذين تركوا خدمة الحمدانيين وبكجور التركي^{١٤٧} . وعندما أنشأ العزيز بالله القصر الغربى الصغير ونحّصه لسكن ابنته سيدة الملك جعل لها طائفة برسمها كانت تسمى « القصرية »^{١٤٩} .

وأدى التنوع والتباين في قوات الجيش الفاطمي إلى نشؤ صراع دائم بين مختلف طوائفه ظهر في أول الأمر بين المغاربة والمشاركة ، فقد خشي المغاربة على فقد مكانتهم في الدولة وثار فتنة بينهم وبين المشاركة انتهت بإقصاء زعيمهم أمين الدولة بن عمّار سنة ٩٩٧/٣٨٧ وإحلال برّجوان محله . وعندما قُتل برّجوان سنة ١٠٠٠/٣٩٠ اعتبر الأتراك ما حدث ضربة لهم من برّبر كُتامة^{١٥٠} .

وتفيدنا الأمانات التي أصدرها الحاكم بأمر الله في التعرف على طوائف الجيش في هذه الفترة فقد كان بينهم الدّيلم والغلمان الشّراية والغلمان المرتاحية والغلمان البشارية والرّوم المرتزة بالإضافة إلى الرّوَيْليين والبنادين والبطالين

^{١٤٧} Lev , Y . , " Army , Regime And Society in Fatimid Egypt , 358 - 487/968 - 1094 " , IJMES. 19 (1987) , p , 337 .

^{١٤٨} ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٣١ ، المقرئى : اتعاط ١ : ٢٦ ، ٢ : ٢٩ . Lee , Y . , op . cit . , p . 343 .

^{١٤٩} المقرئى : الخطط ١ : ٤٥٧ .

^{١٥٠} انظر أعلاه ص ٩٧ - ٩٨ .

والبرقيين والعطوفية والجوانية والجودرية والمظفرية والصنهاجيين وعبيد الشراء والميمونية والفرحية^{١٥١}.

وقد أظهر المسيحي في حوادث سنة ١٠٢٥/٤١٥ الوضع الصعب الذى آل إليه أمر الكُتّامين في خلافة الظاهر الذى كان ميله إلى الأتراك والمشاركة^{١٥٢}.

كانت هذه الطوائف التى صحبت جيش جوهر والتى قدمت مع المُعزّهم سكان القاهرة عند اختطاطها ، فقد كانت القاهرة مدينة مُحَصَّنَة يسكنها الخليفة وجنوده فقط ، وكان لكل طائفة حارة (ج . حارات) اختطتها وسكنتها طوال العصر الفاطمى ، وقد حدثنا المقرئى فى الخطط بالتفصيل عن هذه الحارات وحدد مواقعها^{١٥٣}.

وعند تولى المستنصر بالله كانت أمه صاحبة السلطة فى أول الأمر ، فقد كان عمره وقت اعتلائه العرش سبع سنين ، وكانت جارية سوداء فاستكثرت من العبيد حتى بلغوا نحوًا من خمسين ألف أسود ، واستكثر هو من الأتراك وزاد التنافس بينهم مما أدى إلى نشوب القتال الذى قاد إلى الفوضى السياسية فى منتصف القرن الخامس^{١٥٤}. ولما وصل بدر الجمالى إلى مصر سنة ١٠٧٤/٤٦٦ اصطحب معه جنوده وقتل رجال الدولة وأقام له جنودًا وعسكرًا من الأُرْمَن « فصار من حيثئذ معظم الجيش الأُرْمَن » . وبلغ عدد جنود الجيش الفاطمى فى عرض ديوان الجيش فى آخر أيام الدولة أربعين ألف فارس ونيّفًا وثلاثين ألف راجل^{١٥٥}.

١٥١ المسيحي : نصوص ضائعة ٢١ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٥٦ ، الخطط ٢ : ٢٠ - ٢١ .

١٥٢ المسيحي : أخبار مصر ٦٠ - ٦١ ، ٨٦ .

١٥٣ المقرئى الخطط ٢ : ٢٠ - ٢١ .

١٥٤ انظر أعلاه ص ١٣٥ - ١٣٨ .

١٥٥ المقرئى : الخطط ٢ : ١٢ ، ١ : ٨٦ .

وكان هذا الجيش يَأْتَمِرُ في أوَّل عصر الدولة الفاطمية بأمر الإمام ولكن بعد بدر الجمالي ووصول العسكريين إلى السلطة أصبح « أمير الجيوش » هو قائد الجيش الفاطمي .

ولا نجد أية إشارة فيما بين أيدينا من مصادر إلى تنظيم هذا الجيش ، وكل ما نجده هو مصطلحات مثل قائد (ج . قواد) ، عريف (ج . عرفاء) ، أمير (ج . أمراء) . والمعلومات التي يمكننا أن نخرج بها ضئيلة وذات طابع عام ، فنحن نعرف مثلاً أن الكتاميين كانوا يتكونون من عرفات (ج . عَرَافَة) على رأس كل منها عريف^{١٥٦} .

ديوانُ الجَيْش .

عُهِدَ بإدارة الجيش الفاطمي إلى ديوان عرف بـ « ديوان الجَيْش »^{١٥٧} . وكان هذا الديوان ينقسم إلى قسمين : « ديوان الجَيْش » وفيه مستوف أصيل لا يكون إلا مسلماً ويكون في خدمته نقباء الأمراء الذين يُنْهَوْنَ إليه أخبار الجند من حياة وموت وصحة ومرض^{١٥٨} . و « ديوان الرُّوَاتِب » ويشتمل على أسماء كل مرتزق في الدولة ، وفيه كاتب أصيل ونحو عشرة من المُعَيَّنِينَ والمُيَيَّضِينَ وفيه ثمانية عروض تحوى جميع أرباب الدولة^{١٥٩} .

ولا نجد عند ابن الطُّوَيْر ، مصدر هذه المعلومات ، تفاصيل عن طبيعة العمل داخل ديوان الجيش ، ولكن معاصره المَخْزُومِي يمدنا ببعض التفاصيل

^{١٥٦} المسبحي : أخبار ٨٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٧٨ .

^{١٥٧} المَخْزُومِي : المناج ٦٤ - ٧٢ ، ابن الطوير : نزهة المقتلين ٨٢ - ٨٥ ، المقرئزي : الخطط ١ : ٩٤ ، ٤٠١ .

^{١٥٨} ابن الطوير : نزهة ٨٢ .

^{١٥٩} نفسه ٨٣ - ٨٥ ، ابن القرات : تاريخ ١/٤ : ١٤٣ - ١٤٥ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٣٩١ ، ٥٢١ - ٥٢٣ ، المقرئزي : الخطط ١ : ٤٠١ - ٤٠٢ ، الاتعاض ٣ : ٣٣٩ - ٣٤٢ .

التي لا نستطيع للوهلة الأولى أن نُحدّد إن كانت تتعلق بالنظام الفاطمى المنقضى أم بالنظام الأيوى الجديد^{١٦٠}. فهو يذكر صراحة « أن كتابة الجيش التي كان كُتاب المصريين يعتمدون عليها ... فيها من الرسوم والتقسيمات والأحكام والإقطاعات ما قد دَرَسَ رسمه وذهب حكمه إلا يسير ... »^{١٦١}. وبعد ذلك يذكر المَخْزومى أن رسوم ديوان الجيش بالديار المصرية تجتمع في أربع جهات ، ولا شك أن حديثه يربط بين النظام القديم والنظام الأيوى الجديد ، فمن المؤكد أن مصطلحات مثل الصِّيَّان الحُجْرِيَّة والرَّهَجِيَّة وديوان المَجْلِس الوارد ذكرها في نص المَخْزومى تتعلق بالعصر الفاطمى ، كما أن الإقطاع الجيشى يتعلق دون جدال بالعصر الأيوى .

ويُقسم نص المَخْزومى في العموم بالصعوبة في الفهم لأنه موجه في الأساس إلى طبقة المشتغلين بالأعمال الديوانية ، فهو يستخدم مصطلحات خاصة وتعاير مركزة وفي غاية الاختصار ، أرهقت كل الذين تعاملوا مع نصه من قبل ولم يستطيعوا ، رغم كل الجهد المبذول ، أن يقدموا لنا نتائج واضحة^{١٦٢}.

وتنحصر الطرق الأربع التي ذكر المَخْزومى أنها تجمع رسوم ديوان الجيش بالديار المصرية في : الإنفاق الواجب ، وإيجاب المُشَاهَرَة ، والإقطاع الجَيْشِي ، وإقطاع الاعتِدَاد^{١٦٣}.

يكون « الإنفاق الواجب » للحُجْرِيَّة المرسومين بالحُجَر - وهم جماعة من الغلمان المختصين بالخلفاء الفاطميين كانوا يختارونهم ويربّونهم في حُجَر خاصة

^{١٦٠} عن المَخْزومى وتاريخ تأليف كتابه انظر فيما يلى ص .

^{١٦١} المَخْزومى : المنهاج ٦٤ .

^{١٦٢} Cahen , Cl . , Makhzūmiyyāt - Etudes Sur l'histoire économique et Financière

: de l'Egypte médiéval, Leiden - Brill , 1977 , p . 156 no . 2 .

« ديوان الجيش في الدولة الأيوبية » ، الموسم الثقافي - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ،

القاهرة ١٩٧٨ ، ١٧٦ الذى اعتبر حديث المَخْزومى عن الإنفاق الواجب وإيجاب المُشَاهَرَة متعلق

مباشرة بالعصر الأيوى ا

^{١٦٣} المَخْزومى : المنهاج ٦٨ .

قرية من باب النصر^{١٦٤} - ويقتضى هذا الإنفاق خصم أو اقتطاع من رواتبهم يتم بطرق ثلاث : الأول من الوزن وهذا النوع لا نقص فيه ولعل المقصود به أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم وزناً وليس عدداً . والثاني إقتطاع من « العدد الثقيل (أو الثقيل) » - وهو مصطلح غير واضح ولم يشرحه المَحْزُومى - وهذا الاقتطاع بنسبة ٥% على حساب قيراط^{١٦٥} ونُحْص عن كل دينار ، وعادة ما يجبر كُتَّاب الجيش الكَسْر في هذا الحساب . والثالث اقتطاع شبيه بالنوع الثاني ولكن مع تطبيق قاعدة حساية أخرى ، فالنسبة المقتطعة هنا هي ستة دنانير وثلثان من المائة $٦\frac{٢}{٣}$ % من حساب قيراط وثلثة أخماس قيراط من كل دينار . ويذكر المَحْزُومى أن هذا النوع من الإقتطاع كان يطبق على الطائفة المعروفة بـ « الرَهْجِيَّة » ومن يجرى مجراهم ، وهم جماعة كانت تخدم أمام الخليفة في المواكب الاحتفالية ، وأحياناً كانت تخدم أمام الوزير في بعض الاحتفالات ، كما كانت تقوم بنفس العمل إذا ركب الخليفة عُشارى في النيل ، كما يتولون حراسة القصر الفاطمى ومنظرة اللؤلؤة عندما يتواجد بها الخليفة^{١٦٦} . وكان لهم زمام يعرف دائماً بسنان الدولة بن الكَرْكَنْدى كان يتلقى الخِلع في المناسبات عن زَم الرَهْجِيَّة والميت على أبواب القصور^{١٦٧} .

وأحياناً ما كان أرباب الإنفاق يحصلون على رواتب عينية سمّاها المَحْزُومى « الجِرايَّة » و « القَضِيم » . ويمكن أن تكون « الجِرايَّة » خبزاً أو قمحاً . وفي حالة دفعها خبزاً لم تكن متساوية لجميع أرباب الإنفاق فقد كان هناك جماعة لها الحق في « وظيفتين » - أى حصّتين - وجماعة لها الحق في « وظيفة واحدة

^{١٦٤} ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤١٨ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٤٣ - ٤٤٤ وقد شبههم ابن خلكان باللاوية والاستارية .

^{١٦٥} ينقسم الدينار إلى ٢٤ قيراطاً ، والقيراط عملة حساية نظرية لمعرفة القيمة الحقيقية لمختلف السلع تساوى حتى شعير مقلومة الأطراف ، والحبة تساوى ثلاث دانق . (صلاح أببحرى : المرجع السابق ١٨٩) .

^{١٦٦} ابن المأمون : أخبار مصر ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ٩٩ .

^{١٦٧} نفسه ٥٤ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤١٢ ، ٤٦٢ ، ٢ : ٢٨ ، ٣٨ .

ونصف « ومنهم من له « وظيفة واحدة » ويطلق على ذلك فى الديوان « قَدر الجراية » . أما من تطلق جرايته قمحاً فتكون فى الشهر التام ثلث أردب ، أما فى الشهر الناقص فتكون رُبْع ونصف ثمن أردب . أما « القضم » (الشعير) فكان يوزع كل يوم على شكل أنصبة يبلغ كل منها نصف وِية^{١٦٨} .

أما « أرباب الإيجاب » فهم ، كما ذكر المَحْزومى ، « أرباب الخِدم التى لا تستقر على حال لما يتخلل ذلك من التولية والصَّرف والزيادة والنقص » ، أى أنهم جنود مؤقتون كانوا يؤدون بعض الخدمات لفترات محدَّدة ، فكان يوجب لهم فى كل شهر استحقاقهم بقدر المباشرة ، مثلهم فى ذلك مثل أرباب الرُّواتب . كانت هذه المعاملة تجرى أساساً فى ديوان الجيش ، ثم انتقلت إلى ديوان تُخصَّص لذلك هو ديوان الرُّواتب الذى أصبح فرعاً لـديوان الجيش ثم انتقل ، فى تاريخ مجهله ، إلى أن أصبح فرعاً لـديوان المجلس الذى كانت تجرى فيه معاملات الأموال^{١٦٩} . وكل ذلك دون شك فى العصر الفاطمى .

وكان ديوان الجيش يدفع راتباً شهرياً للأجناد المستخدمين فى المراكز والمعروفين بـ « المركزية »^{١٧٠} ، وقد ذكر ابن المأمون هؤلاء المركزية فى حوادث عام ١١١٥/٥٠٩ ، وكان يتولى أمرهم وإلى الشرقية ، وذلك لمواجهة بلدوين ملك الفرنج الذى وصل إلى القَرَمَا فى هذه السنة^{١٧١} . كما كان هناك كذلك جنود من المركزية فى القُلُزم^{١٧٢} ، أما أسوان فقد رابط فيها رجال من العسكر مستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان ، ذكر المقرئى أن ذلك أهمل بعد زوال الدولة الفاطمية^{١٧٣} . ويضيف المَحْزومى

١٦٨ المَحْزومى : المنهاج ٦٨ ، صلاح البحيرى : المرجع السابق ١٧٧ - ١٨٠ .

١٦٩ نفسه ٦٨ - ٦٩ .

١٧٠ نفسه ٦٩ .

١٧١ ابن المأمون : أخبار مصر ١٣ ، المقرئى : الخطط ١ : ٢١٢ .

١٧٢ المقرئى : الخطط ١ : ٢١٣ س ٨ .

١٧٣ المقرئى : الخطط ١ : ١٩٨ .

أنه كان بكل مركز نائب عن « ديوان العَرَض » - الذي ربما كان فرعًا لديوان الجيش - كانت مهمته إثبات صلاحية هؤلاء الأجناد المستخدمين أمام مجلس الحرب واستمرار خدمتهم وذلك في سجل مفرد يثبت في آخره عدد المستمرين منهم يعتمدونه متولى الحرب ويرفع بعد ذلك إلى متولى ديوان المال لصرف استحقاقه . أما الأجناد المركزية الذين كانت تجب لهم رواتب عينية في شكل « جراية » فكان لهم « تَخْرُجُ مفرد » إلى جانب « خرج الإيجاب » يشتمل ما يجب اقتطاعه منسوبًا إلى ستة (؟) . أما الأجناد الذين كانوا مجردون إلى الثغور الشامية - وذلك في العقود الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية - فكان يطبق عليهم نفس نظام الاقتطاع السابق ولكن يستعوضون عن ذلك ببديل قيمته عشرة دنانير عدد مقابل إقامتهم في هذه الثغور^{١٧٤} .

أما « الإقطاع الجيشي » فيذكر المَخْزُومِي أن له حكمين : حكم هلالى وحكم خراجى . وواضح أن نص المَخْزُومِي يرتبط بالعصر الأيوبي ، فالإقطاع الجيشي عرف في مصر مع وصول الجيش التركى الكُرْدِي المصاحب لشيركوه وصلاح الدين . فمصر في العصر الأيوبي كان لها وضع خاص يختلف عما كان سائدًا في الشرق في هذه الفترة^{١٧٥} ، ويشير المقرئى في نص واضح إلى أنه لم يكن في الدولة الفاطمية ولا في الدول السابقة عليها في مصر إقطاعات بمعنى ما عليه الحال في وقته في أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تُضمَّن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه^{١٧٦} . وسأناقش نظام القبالة والإقطاع الفاطمى عند حديثى عن النظام الضرائبى للفاطميين^{١٧٧} . ولكن يجب أن نشير إلى أنه كان بين الدواوين المصرية في العصر الفاطمى « ديوان للإقطاع » مختص بما يُقَطَّع للأجناد عن طريق الضَّمان^{١٧٨} ،

^{١٧٤} المَخْزُومِي : المنهاج ٦٩ ، صلاح البحيرى : المرجع السابق ١٨٢ - ١٨٥ .

^{١٧٥} Cahen , Cl . , op . cit . , pp . 163 , 167 .

^{١٧٦} المقرئى : الخطط ١ : ٨٥ .

^{١٧٧} انظر فيما يلى ص ٣٢٨ - ٣٣٣ .

^{١٧٨} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٦ .

وهو نظام مالي عمل به الفاطميون لتسهيل جباية الخراج وسائر أنواع الضرائب^{١٧٩}.

والجهة الأخيرة من رسوم ديوان الجيش التي ذكرها المَخْزُومِي هي « إقطاع الاعتداد^{١٨٠} » الذي يذكر ابن الطَّوِير أنه مختص بالعُربان وكان يقع عادة في أطراف البلاد ، وهو مائة دينار على كل ألف دينار مقبوضة^{١٨١} ، وهو في الوقت نفسه إقطاعًا جماعيًا ويعنى طريقة في دفع الرواتب لمجموعة من العربان بواسطة زعيم لهم^{١٨٢}.

الأسطول

إذا كان الجيش الفاطمي ، مشاة وفرسانًا ، لم يُخْتَبَر خارج حدود مصر ، فقد لعب الأسطول الفاطمي دورًا كبيرًا في البحر المتوسط منذ أن كان الفاطميون في إفريقية . فكانت دار صناعة المَهْدِيَّة وإعادة بناء أسطول سُوسَة خطوة أساسية لدعم سيطرة الفاطميين على الحوض الغربي للبحر المتوسط^{١٨٣}.

وعندما انتقل الفاطميون إلى مصر أنشأوا دارًا للصناعة بالمَقْصِ^{١٨٤} (موضع ميدان رمسيس الآن) ، وأخرى في الجزيرة (جزيرة الرُّوضَة) نُقِلَتْ بعد ذلك إلى ساحل مصر المُسْطَاط^{١٨٥}. كان يصنع بها الأسطول والمراكب الحاملة

^{١٧٩} انظر فيما يلي ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

^{١٨٠} المَخْزُومِي : المنهاج ٦٩ .

^{١٨١} ابن الطَّوِير : نزهة المقلتين ٨٦ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٤٧ - ١٤٨ ، الفلقشندي : صبح ٣ : ٤٨٩ .

^{١٨٢} Cahen, Cl., op. cit., pp. 165, 170 .

^{١٨٣} عن دور الفاطميين في البحر المتوسط راجع ، صابر محمد دياب : سياسة الدولة الفاطمية في حوض البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٧٣ ، ٩٣ - ١٦٦ ، السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ ، ٦٣ - ٨٤ .

^{١٨٤} المقرئزي : الخطط ٢ : ١٩٥ ، اتعاط ١ : ١٣٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ .

^{١٨٥} ابن المأمون : أخبار ١٠٠ - ١٠١ ، المقرئزي : الخطط ١ : ٤٨٢ ، ٢ : ١٩٧ .

للغلات السلطانية ، وكان عددها في أيام المُعِزِّ لدين الله يزيد على ستائة قطعة^{١٨٦} . كما بلغ عدد المراكب المُخصَّصة للخليفة خمسون عُشاريًا^{١٨٧} وعشرون ديماسًا ، وكان لكل عُشارى رئيس ونواقي . أما المراكب الحربية المعروفة بالشَّوانى^{١٨٨} والشَّلنديات^{١٨٩} والمُسَطَّحات^{١٩٠} فكانت تنشأ بالفُسْطاط والإسكندرية ودِمْياط ، وكانت تصل إلى مدن الشام الساحلية مثل صور وعكا وعسقلان عندما كانت ما تزال بأيدي الفاطميين^{١٩١} .

ويقدم لنا ابن الطُّوَيْر وصفًا لتجهيز الأسطول ولكيفية النفقة فيه ووداعه نعرف من خلاله أنه متى تَجَهَّز الأسطول الفاطمى للغزو يتولى النفقة فيه

^{١٨٦} ابن الطوير : نزهة ٩٤ .

^{١٨٧} عُشارى ج . عشاريات . اسم معرب ، وهو نوع من المراكب كان يستعمل في البحرين المتوسط والأحمر وكذلك في النيل . وهو نوع من القوارب الصغيرة التى تلحق بالأسطول أو بالمراكب الكبيرة . وتفيض المصادر الفاطمية في ذكر هذا النوع من المراكب كأحد القطع النهرية التى تعددت أغراض استعمالها في العصر الفاطمى . ومع ذلك فيمكننا القول أنه كاد أن يكون موقوفًا في استعماله على الخلفاء والوزراء وزوالة الأعمال . فكان الخلفاء يستخدمونه في النزه النيلية (المسبحى : أخبار مصر ١٠ - ١١ ، ٢٣ ، ٤٢ ، ٩٥ ، المقرئى : اتعاظ ١ : ٢٨٢ ، الخطط ٢ : ١٥٤ - ١٥٥) كما كان الخليفة يستخدم نوعًا خاصًا من العشاريات في الاحتفال بوفاء النيل أتى على وصفه ابن الطُّوَيْر : نزهة المقتلين ١٩٢ - ١٩٤ ، وكذلك ابن المأمون : أخبار مصر ٧١ - ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ١٠١ (وراجع ، درويش النخيل : السفن الإسلامية على حروف المعجم ٩٥ - ١٠١) .

^{١٨٨} شينى ج . شوانى (ويقال أيضًا شانى أو شينية أو شونة) . السفينة الحربية الكبيرة ، وكانت تطلق عليها أحيانًا أسماء مثل « الغراب » الذى ذكر ابن مئاق أنه كان يجدف بمائة وأربعين مجدافًا . (ابن الطوير : نزهة المقتلين ٩٥ ، درويش النخيل : المراجع السابق ٨٣ - ٨٥) .

^{١٨٩} الشَّلندى ج . شلنديات . مركب مسقف تقاثل الغزاة على ظهره والمجدفون يجدفون تحتهم . وقد عرف المسلمون هذا النوع من المراكب الحربية ونقلوه عن البيزنطيين . (ابن الطوير : نزهة ٩٥ ، درويش النخيل : المرجع السابق ٧٨ - ٨١) .

^{١٩٠} مُسَطَّح ج . مسطحات . نوع من السفن الحربية الكبيرة يشبه بالشَّلندى كان يسم نحو خمسمائة راكب ، استخدمه المسلمون والفرنج على السواء في العصور الوسطى . (ابن الطوير : نزهة ٩٥ ، درويش النخيل : المرجع السابق ١٤١ - ١٤٣) .

^{١٩١} ابن الطوير : نزهة ٩٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٨٣ ، ٢ : ١٩٣ ، القلقشندى : صبح ٣ :

الخليفة بنفسه ومعه الوزير ، فيدفع لرجاله وهم عشرون نقيباً رواتب شهرية وجرايات مستقرة مدة أيام السفر ، ويحضر هذه الرسوم صاحباً ديوان الجيش وهما : « المُستوفى » الذى يجب أن يكون من عدول المسلمين ، و « الكاتب » الذى يكون غالباً من اليهود !^{١٩٢}.

وإذا اكتملت النفقة فى الأسطول وتجهزت المراكب للغزو ، ركب الخليفة والوزير إلى المنطرة بساحل المَقَس لوداع الأسطول ، فيأتى القواد بالمراكب مزينة بأسلحتها ولبوسها وتستعرض فى النيل أمام الخليفة . ثم يستدعى الخليفة « المُقَدِّم » و « الرئيس » فيوصيهما ويدعو للأسطول بالسلامة والنصر ، ويعطى المُقَدِّم مائة دينار والرئيس عشرين ديناراً ، ثم ينحدر الأسطول فى النيل إلى دمياط ويخرج منها إلى البحر المالح . ويُحْتَفَل باستقبال الأسطول عند عودته كذلك بمنطرة المَقَس^{١٩٣} . وقد وصف لنا ابن المأمون كيفية وداع الخليفة الأمر بأحكام الله للأسطول فى منطرة المَقَس عندما خرج للقاء الفرنجة سنة ١١٢٣/٥١٧ بناء على طلب صاحبى دمشق وحلب^{١٩٤}.

ديوانُ الجهاد

كان الإشراف على الأسطول يتولاه « ديوان الجهاد » الذى يعرف أيضاً « بديوان العماثر » وكان محله بدار الصنّاعة بالفسطاط . وكانت جريدة قواد الأسطول فى آخر عهد الدولة ، كما يذكر ابن الطُّوَيْر ، تزيد على خمسة آلاف مُدَوَّنة ، منهم عشرة أعيان يقال لهم « القَوَاد » (واحدهم قائد) تتراوح جامكيتهم بين عشرين ديناراً ودينارين . ولهم إقطاعات تعرف بـ « أبواب الغزاة » . ويختار من يقع عليه الإجماع من القَوَاد العشرة لرئاسة الأسطول

^{١٩٢} نفسه ٩٧ ، نفسه ١ : ٤٨٣ ، ٢ : ٣٩١ .

^{١٩٣} ابن الطوير : نزعة ٩٧ - ٩٨ ، المقيرى : الخطط ٢ : ١٩٣ .

^{١٩٤} ابن المأمون : أخبار مصر ٦٠ - ٦٢ ، ٦٨ - ٦٩ ، المقيرى : الخطط ١ : ٤٨٣ ، ٤٨١ -

٤٨٢ .

المتجه للغزو فيكون معه المقدم والفانوس فتبتدى به بقية المراكب تُقلع بإقلاعه وترسو بإرسائه . كما يُقَدَّم على الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء ويعرف الاثنين « بالمقدم » و« الرئيس »^{١٩٥} .

وذكر ابن المأمون أن الباقي من استيमार سنة ١١٢٣/٥١٧ والذي حمل إلى الصناديق الخاصة برسم المُهِمَّات لما يتجدد من تسفير العساكر وما يُحْمَلُ إلى الثغور عند نفاذ ما بها ثمانية وتسعين ألف ومائة وسبعين ديناراً (١٩٧ و ٩٨) وربعاً وسدساً^{١٩٦} .

وإلى جانب أسطول الفاطميين بالبحر المتوسط كان لهم أسطولٌ بعيذاب على البحر الأحمر كان يُتَلَقَّى به الكارم خوفاً على مراكب الكارم من القراصنة الذين كانوا يعترضونها ، وكان يتولَّى أمر الإشراف عليه والى قوص^{١٩٧} .

^{١٩٥} ابن الطوير : نزهة ٩٤ - ٩٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٨٣ ، ٢ : ١٩٣ ، الفلقشندي : صبح ٥١٩ : ٣ .

^{١٩٦} ابن المأمون : أخبار مصر ٧١ ، الخطط ١ : ٣٩٩ .

^{١٩٧} الفلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٥١٩ - ٥٢٠ وانظر عن تجارة الكارم مايلي ص .

ولتفاصيل أكثر عن الأسطول والبحرية الفاطمية راجع ، السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، بيروت - جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ ، ٨٤ - ١٥٢ ، سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧ ، ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١ : ٢١٨ - ٢٢٩ .

الفصل الحادى عشر النشاط الاقتصادى

الزراعة

تعد الزراعة هى عَصَب الاقتصاد المصرى ، وقد تنبّه إلى ذلك الفاطميون منذ قديم جواهر القائد^١ . وتوقف نجاح الزراعة فى مصر على عاملين : فيضان النيل ، وعناية الحكومات بتوفير الإمكانيات اللازمة للعناية بالزراعة^٢ . فقد كان فيضان النيل ذا أثر عظيم بالنسبة لرخاء البلاد وعائد الإيرادات التى تحصل عليها الحكومة . وكان الفيضان المنخفض (وهو الظمأ أى اثنتا عشر ذراعاً) يعنى استحالة رى جميع الأراضى مما يؤدى إلى نقص المحصول وعجز الحكومة عن جباية الخراج ، كما أن الفيضان العالى (وهو الاستبحار أى ثمانية عشر ذراعاً) كان يؤدى إلى إغراق الأرض وإتلاف الزرع فيقل الكلاً والمرعى مما يضر بالبهايم ، وفى كلا الحالتين يهدّد البلاد القحط الذى كثيراً ما صاحبه الوباء^٣ .

لذلك فقد قَسَم المصريون الأرض الزراعية إلى حياض يصل إليها الماء فى زمن الفيضان بواسطة شبكة واسعة من الترع والقنوات التى تُسَدّ حتى يبلغ

^١ انظر أعلاه ص ٨١ .

^٢ البرواى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ٦٣ .

^٣ الخزومى : المنهاج - خ ٤٧ ظ ، ناصر خسرو : سفرنامه ٨٢ ، ٨٣ ، ابن مباتى : قوانين ٧٦ ،

القلقشندى : صبح ٣ : ٢٩٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٥٨ - ٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة

ارتفاع النيل حدًا معينًا اتَّفَق المؤرِّخون أنه ستة عشر ذراعًا^٤. وحتى يتسنى غمر هذه الحياض بالماء كان من الضروري أن يبلغ النيل حد الوفاء، وأن يتم تطهير هذه الترع في فصل الجفاف^٥. وقد عَجَز الفاطميون، وحكام مصر الإسلامية عمومًا، عن مواجهة النتائج المترتبة على ظاهرة نقص فيضان النيل. وقد استتبع ذلك ضرورة صيانة الجسور، التي يتوقف عليها بقاء الماء فوق سطح الحياض ومنعها من التسرب مرة أخرى إلى النهر من وراء الجسور^٦.

أما العامل الثاني فقد تمثل في ضرورة عمل الحكومات المتعاقبة على تحسين الري وتعميق الترع والقنوات والمحافظة على الجسور المقامة على النيل^٧. فكانت صيانة الجسور عملًا إجباريًا، وكان هناك نوعان من الجسور: جسور سلطانية تشرف عليها الحكومة، وجسور بلدية تنتفع بها ناحية دون أخرى كان يتولَّى صيانتها وإقامتها المُلَّاك والمُتَقَبِّلون، تُخصَّم نفقات عملها وصيانتها من الخراج الذي يتعيَّن عليهم دفعه^٨.

وقد أدَّى اعتماد الزراعة في مصر على مجيء فيضان النيل وما يحمله من طمى، إلى تعطيل الأرض الزراعية معظم أوقات العام، ولم يسمح سوى بزراعة محصول واحد في السنة من المحاصيل الأساسية وبذلك امتازت مصر بالزراعة الشتوية^٩.

^٤ المقرئى : الخطط ١ : ٦٠ .

^٥ محمد محمود إدريس : تاريخ الحضارة الإسلامية (العصر الفاطمى) ، القاهرة ١٩٨٦ ، ٨٤ -

٨٥ ، البراوى : المرجع السابق ٦٣ .

^٦ البراوى : المرجع السابق ٦٣ .

^٧ نفسه ٦٥ .

^٨ الخزومى : المناهج - خ ٤٤ ظ ، ٤٨ و ، ابن مئاق : قوانين الدواوين ٢٣٢ ، المقرئى : الخطط

١ : ٨٢ ، ١٠٢ ، الحموى : روضة الأديب (أبحاث ألفية القاهرة) ١٠٨٣ ، البراوى : المرجع

السابق ٦٥ .

^٩ البراوى : المرجع السابق ٦٦ .

كانت الزراعة الشتوية تبدأ فى شهر كيهاك (ديسمبر) - فقد كان التقويم القبطى هو الذى يُعتمد عليه فى معرفة مواسم الزراعة والحصاد وكذا جباية الخراج - وتمتد حتى شهر بؤونة (مارس) . فكانت الأراضى التى يغمرها الفيضان غمرًا كاملاً تعرف بـ « البياض » وتنتج المحاصيل التى لا تحتاج للرى حتى وقت حصادها ، وهذا النوع كان سائداً فى معظم أراضى مصر العليا والوسطى باستثناء الفيوم . أما الأراضى التى لم يغمرها الفيضان غمرًا كاملاً أو التى لم يغمرها على الإطلاق فكان يُلجأ فيها إلى الرى الصناعى عن طريق الآبار ، وتعرف بـ « الشتوى » ورغم ما تُكلفه المحاصيل الناتجة عن هذا النوع من الزراعة ، فإن عائدها كان أكبر مما تدره محاصيل النوع الأول ^{١٠} .

وكانت الزراعة الصيفية تبدأ بعد حصاد المحاصيل الشتوية فى الأماكن الواقعة على جانبي النهر نظراً لجفاف الترع ، وتمتد من شهر بؤونة (إبريل) وحتى آخر شهر توت (يولية) . وكان الفلاحون يوفرون الماء فى هذه الحالة عن طريق رفعه من النيل بالسواقي والقواديس وغيرها من أدوات ^{١١} .

أما الأراضى المنخفضة المجاورة للنهر والتى لا تحتاج إلى آلات لرفع المياه إلى منسوب الأرض فكانت تزرع طوال العام وبأكثر من محصول وعلى الأخص المحاصيل التى لا تضار من وفرة الماء مثل القصب والأرز . وتعرف هذه الطريقة باسم « الرى بماء الراحة » ^{١٢} .

وكانت أهم المحاصيل الشتوية هى : القمح والشعير والبرسيم والكتان والجلبان ، أما أهم المحاصيل الصيفية فكانت قصب السكر والأرز والنيلة والسمسم والفواكه ، وخاصة الكروم والرمان والخوخ والنانج والبطيخ والأترج والسفرجل والليمون التفاحى ^{١٣} .

^{١٠} محمد محمود إدريس : المرجع السابق ١١٨ ، البراوى : المرجع السابق ٦٦ - ٦٧ .

^{١١} الراوى : المرجع السابق ٦٧ .

^{١٢} محمد محمود إدريس : المرجع السابق ٨٧ .

^{١٣} البراوى : المرجع السابق ٧١ .

وكانت الأزمات الاقتصادية التي حلت بمصر في العهد الفاطمي وخاصة في أوائل القرن الخامس ومنتصفه عادة نتيجة لقصور ماء النيل وانقطاع الفيضان . وعادة ما كان يعقب هذه الأزمات انتشار الأوبئة وخراب الكثير من المواضع العمرانية مع ما يصحب ذلك من ندرة الأقوات وارتفاع الأسعار^{١٤}.

وكجزء من محاولة التصدي لهذه الكوارث الطبيعية عملت الحكومة ، في أعقاب الشدة العظمى وبعد استيلاء بدر الجمالي على السلطة ، على العناية بأمر الترع والجسور مما أدى إلى ارتفاع إيرادات البولة ، فيذكر المَحْزُومِي أن جملة الخراج في زمن بدر الجمالي بلغ سنة ٤٨٣/١٠٩٠ ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار بزيادة ثلاثمائة ألف دينار عن ما كان يُحْصَل قبل قدومه^{١٥}.

وفي أيام الوزير الأفضل شاهنشاه تم فتح خليج من النيل إلى الشرقية . فقد كان الماء لا يصل إليها إلا من السَّرْدُوسِي ومن الصمصام فكان أغلب أراضي هذه المنطقة يَشْرُق في أكثر السنوات^{١٦} . وكان مُشارف هذه المنطقة رجلاً يهودياً يعرف بسنى البولة وأمينها أبى المُنْجَا شلومو بن شُعْيَا^{١٧} . فتضرر إليه المزارعون وطالبوه بفتح ترعة يصل الماء منها في ابتداء الفيضان إليهم . فبدأ في حفر الخليج المعروف بـ « خليج أبى المُنْجَا » يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ٥٠٦/٣٠ يناير سنة ١١١٣ واستمر حفر هذا الخليج سنتين وكانت الفائدة منه تبرر ما غُرِم عليه . وقد استنكر الأفضل ، بعد ما أنفق على فتح هذا الخليج ، أن يسمى خليج أبى المُنْجَا وأمر أن يُغَيَّر اسمه إلى « البحر

^{١٤} انظر أعلاه ص ، ودراسة السيد الصاوي : مجاعات مصر الفاطمية - أسباب ونتائج ، بيروت - دار التضامن ١٩٨٨ ، ٢٥ - ٧١ .

^{١٥} المَحْزُومِي : المتهاج - ٤٦ و ، المقرئى : الخطط ١ : ١٠٠ .

^{١٦} ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤ ، المقرئى : الخطط ١ : ٨٣ ، ١٠٠ ، اتعاظ الخنفا ٣ : ٧٢ .

^{١٧} ابن المأمون : أخبار مصر ١١ .

^{١٨} انظر عنه Goiten , S . D . , A Med . Soc . II pp . 356 , 358 , 377

الأفضل ، ومع ذلك فإنه لم يعرف عند المؤرخين أو بين الناس إلا باسم « خليج أبى المُنَجَّج^{١٩} » .

وقد اقترح الوزير المأمون البطائحي على الخليفة الأمر أن يكون لهذا الخليج يوم كخليج القاهرة ، فأمر ببناء منظره بحرى سد الخليج لينظر منها الخليفة الاحتفال بفتح هذا الخليج ، وظل يُحتفل بيوم فتح هذا الخليج حتى نهاية الدولة الفاطمية^{٢٠} .

وربما كان خليج أبى المُنَجَّج هو نفسه الفرع البيروزى القديم الذى كان قد طُمِر ولكن بقيت آثاره تدل عليه ، فأعاد الفاطميون حفره وتعميقه مما ساعد على رَئى جانب كبير من الأراضى الواقعة فى شرقى فرع دمياط^{٢١} .

١٩ ابن المأمون : أخبار ١١ - ١٢ ، القلقشنلى : صبح ٣ : ٣٠١ - ٣٠٢ ، المقرئى : الخطط

١ : ٧١ - ٧٢ ، ٤٨٧ - ٤٨٨ ، اتعاط الحنفا ٣ : ٥٠ .

^{٢٠} نفسه .

^{٢١} البراوى : المرجع السابق ٤٠١ .

الصُّنَاعَة

لا شك أن التطور الكبير في تجارة مصر الدولية وافتتاح أسواق جديدة لها ، بالإضافة إلى الرفاهية العالية للبلاط الفاطمي قد أدّى إلى ازدهار مختلف فروع الصُّنَاعَة في مصر الفاطمية ^{٢٢} . كذلك فقد دعت الحياة الاجتماعية المترفة ، التي وصفها لنا الرّحّالون الذين زاروا مصر في هذه الفترة ، إلى تقدم الصُّنَاعَة من حيث الكم والكيف ، وألّقت أعباءً جديدة على الإنتاج الصناعي المحلي ^{٢٣} . فقد زاد حجم الصُّنَاعَات القديمة القائمة في مصر وأوجدت لها فروع جديدة ، وظهرت معها صناعات لم تكن معروفة من قبل ، واستُخدِمت أساليب جديدة كما تحسّنت الطرق القديمة أو تم تقليد الطرق المستعملة في مراكز أخرى بنجاح ^{٢٤} .

ويمكننا تفسير هذا الازدهار ، ولو جزئياً ، بسياسات الفاطميين الاقتصادية التي تبنّت مبدأ حرية المشاريع ^{٢٥} . ولما كان الأقباط هم عماد الصُّنَاعَة في مصر في هذا الوقت ، فقد كان لسياسة التسامح التي اتبعتها أغلب خلفاء الفاطميين ، أثرٌ في أن يجد الأقباط أنفسهم ويأمنون على أموالهم ويجودون أعمالهم ، وكان وراء هذه الروح الجديدة رغبة الفاطميين في استغلال مهارة الأقباط في الإنتاج الصناعي ^{٢٦} ، وقد جذب هذا الازدهار الكثير من العمال الأجانب الذين استقدمهم الفاطميون من بلادهم واجتذبوهم بالرواتب المغرية ، كما أن الفاطميين استعانوا ببعض الأسرى الأجانب في مجال الصُّنَاعَة ^{٢٧} .

^{٢٢} Ashtor, E., op. cit., p. 198.

^{٢٣} راشد البراوي : المرجع السابق ١٢٢ .

^{٢٤} Ashtor, E., op. cit., p. 198 ، وعن الصناعات في مصر قبل العصر الفاطمي انظر ، زكي

محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ، القاهرة ١٩٣٥ ، ٨٣ - ١١٥ .

^{٢٥} Ibidem .

^{٢٦} البراوي : المرجع السابق ١٢١ .

^{٢٧} ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤١ - ١٤٢ ، البراوي : المرجع السابق ١٢١ - ١٢٤ .

وأهم الصناعات التي ازدهرت في عصر الفاطميين « صناعة النسيج » التي انتشرت في ديبق وثئيس وتونة وشطا في الوجه البحري . كما تشير أوراق الجنيزة إلى مراكز جديدة لصناعة الكتان مثل : قطا ومينة الخصيب ومينة غمر أو مينة زفتى^{٢٨}.

وأصبحت « صناعة السكر » دون شك تمثل جانباً هاماً في الاقتصاد المصري في القرن الخامس/الحادي عشر . وقد تحسنت طرق تكرير عصير قصب السكر في مصانع القصب العديدة القائمة في هذه الفترة في مدن وقرى كثيرة في مصر ، حيث استخدم النطرون والشب في تنقية المواد المتخلفة وذلك بدلاً من الغلي المتكرر . وكانت صناعة السكر في ظل الفاطميين ذات طابع رأسمالي بالتأكيد ، فالطرق المعقدة التي استخدمت في هذه العملية كان لا يمكن استخدامها إلا في المصانع الكبيرة التي كان يطلق عليها « مطابخ السكر »^{٢٩}.

وفي هذه الفترة كذلك بدأت « صناعة الورق » في الازدهار بعد انقراض إنتاج البردي ، وأصبحت « مطابخ الورق » في القسطنطينية تنتج الورق المعروف بالورق الطلحي ، نسبة إلى طلحة بن طاهر وإلى خراسان المتوفى سنة ٨٢٨/١٢٣ ، أحد أوائل من أدخل « مطابخ الورق » في الإسلام^{٣٠}.

^{٢٨} Ashfor, E. op. cit, p. 198 انظر فيما يلي الفصل الرابع عشر عن صناعة النسيج .

^{٢٩} Ibid., 199 .

^{٣٠} Ibid., 199, Goltein, S. D., A Med. Soc. I, p. 81 وانظر الفصل الرابع عشر حول

صناعة الخرف والأخشاب .

التجارة

لم تلعب مصر في بداية العصور الوسطى دوراً هاماً في التجارة المتجهة إلى آسيا ، بينما كان لها دورٌ ملحوظ في حركة التجارة المتجهة إلى أوروبا وبيزنطة^{٣١} . وكانت التجارة بين أراضي البحر المتوسط والمناطق الشرقية تمر منذ الزمن القديم عبر طريقين : الأول من خلال وادي الرافدين والخليج الفارسي ، والثاني من خلال مصر والبحر الأحمر إلى الهند والسند والصين .

وقد حاول أحمد بن طولون أن تشارك مصر بدور بارز في التجارة الشرقية وأن يُقلل من اعتمادها على الخلافة العباسية ، ولكن هذا المشروع قضى عليه مع وفاته . ولم يكن خلفاؤه من الطولونيين ثم الإخشيديين من القوة التي تتيح لهم تحدى سيطرة الخلافة في بغداد^{٣٢} ، فقد كانت بغداد في هذه الفترة ، مركز الخلافة العباسية والعاصمة التجارية للعالم الإسلامي وأثرت تأثيراً سلبياً على التجارة المصرية .

وقد خلق الفتح الفاطمي لمصر سنة ٩٦٩/٣٥٨ موقفاً جديداً تماماً ، بحيث انتقل حجم التجارة الإسلامية في أواخر القرن الرابع/العاشر تدريجياً من العراق والخليج الفارسي إلى مصر والبحر الأحمر ، وخدمت المتغيرات في أراضي الخلافة العباسية سياسة الفاطميين ، الذين كانوا في أوج قوتهم ، بينما كانت الاضطرابات المتتالية في جنوب العراق بالإضافة إلى عدم الأمان المتزايد في الخليج عاملاً في صالح الموانئ المصرية والتجارة الفاطمية .

^{٣١} Labib , S . , " Egyptian commercial Policy in the Middle Ages " in Cook , H. A. , (ed.) Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day , London 1970 , p . 63

^{٣٢} . Lewis , B . , " The Fatimid and the route to India " . p. 50

وقد هجر كثير من الناس بغداد والعراق خوفاً من هذه الاضطرابات وفروا إلى مصر . وكان المستفيد الأول من ذلك « مدينة الفسطاط » ، عاصمة مصر التجارية في زمن الفاطميين ، حيث كانت السفن تُفرغ بضائعها في هذا الميناء الداخلي ، سواء القادمة من الإسكندرية ، أو القادمة من البحر الأحمر ، حيث تحمل براً إلى الصعيد قرب مدينة قوص ، ومن هناك تحملها السفن النيلية إلى الفسطاط .

وأدت استراتيجية الفاطميين الشرقية ومحاولة قضائهم على العبّاسيين ، إلى إحكام سيطرتهم على طرق التجارة المؤدية إلى الهند ، سواء للانتعاش الاقتصادي أو لنشر الدعوة الإسماعيلية على طول الطرق التجارية ، وذلك بالإضافة إلى تجارتهم مع جنوب أوروبا وشمال إفريقيا وصقلية وبيزنطة في الشمال .

كانت هذه البضائع كلها تُصبّ في « الفسطاط » ، التي جعل لها الجغرافى المقدسى ، في أواخر القرن الرابع ، مكانة تسبق بغداد في هذا الوقت^{٢٤} . وأصبحت المركز الحيوى للنشاط الاقتصادي والتجارى في المنطقة .

الفسطاط والإسكندرية مراكز التجارة في العصر الفاطمى

كانت الفسطاط في العصر الفاطمى ، دون شك ، هي العاصمة التجارية Metropole لمصر . وكان يُطلق عليها في أوراق الجنيزة : « مصر » بينما أطلق عليها في الوثائق الشرعية : « فسطاط مصر » وهو مصطلح كان يستخدم لتمييزها عن المدينة الأخرى حديثة النشأة « القاهرة » ، العاصمة السياسية^{٢٥} .

وسيكون من الخطأ أن نظن أن الإسكندرية ، الميناء الواقع على البحر المتوسط ، كانت مركز توزيع التجارة ، وأن الفسطاط كانت تستمد أهميتها

^{٢٥} Goitein, S.D., " Cairo, An islamic City in the light of the Geniza Documents " in

Lapidus, Ira M. (ed.), Midle Eastern Cities, Berkeley 1969, p.81; id., A

.Mediterranean Society IV (Berkeley 1983), p.6 -7

من كونها مقرًا للإدارة . فالنصوص التي لا تقبل الشك لمئات من أوراق الجنيزة^{٣٦} التي ترجع إلى القرن الخامس/ الحادى عشر تُثبت أن الفُسطاط ، المدينة الواقعة في عمق الإقليم ، كانت أيضًا المركز التجارى والمالى للبلاد ، وأن الإسكندرية المدينة الساحلية ، كانت ترتبط من كل النواحي بالفُسطاط التي كانت بمثابة الوكالة التجارية لكل المنطقة والتي تتجمع بها كل أنواع البضائع .

وفيما يخص البضائع التي كانت ترسل إلى ما وراء البحار فإن مكوسها كانت تُحصّل مسبقًا في الفُسطاط ، ولم يكن يسمح بنقلها إلى الإسكندرية دون أن تكون مصحوبة بما يُثبت دفع المكوس عنها في العاصمة . وحتى السلع التي كانت تُجلب من موانئ البحر المتوسط إلى الإسكندرية لم تكن تصل إليها إلا بإذن من الفُسطاط .

كانت الفُسطاط والإسكندرية مختلفان كذلك في تركيب سكانهما فالمدينتان كانتا تعجان بالأجانب ، ولكن الفرق بينهما كان ينحصر في أن من كان يلحق منهم بالعاصمة كانت لديه النية للاستقرار بها ، بينما من كان يقيم منهم بالإسكندرية كان مصممًا على مغادرتها « بعد قضاء الحوائج »^{٣٧} .

على كل حال فقد كانت طرق التجارة ، سواء القادمة من الإسكندرية أو من داخل أفريقيا أو من البحر الأحمر ، تلتقى كلها في الفُسطاط بسبب قربها من النيل . وكانت تمر من خلالها كافة أنواع البضائع الشرقية والغربية من منسوجات وجلود ومعادن مشغولة وعطارة وكافة أنواع التوابل التي يحتاج إليها بلاط الفاطميين والتجار الإيطاليين^{٣٨} .

^{٣٦} عن الجنيزة أنظر أعلاه مقدمة الكتاب .

^{٣٧} Ibid., 82; Ibid., IV p. 8 .

^{٣٨} Goitein, S.D., "From the Mediterranean to India", Speculum XXIX (1954), p. 192 - 93; Garcin, J.C., Un centre musulman de la haute - Egypte medieval: Qūs, IFAO, 1975, p. 100 .

وكان الطريق الذي تسلكه التجارة الشرقية هو نفس الطريق الذي كان يسلكه ركب الحجيج ، وهو الطريق الذي سلكه ووصفه ابن جبير بعد بضع سنوات من سقوط الفاطميين . فبعد خروجه من القسطنطينية سار في النيل جنوباً ماراً بالصعيد تجاه مدينة قوص ومن هناك عبر الطريق البري إلى عيذاب على البحر الأحمر^{٣٩}.

فابتداء من النصف الثاني للقرن الخامس/الحادي عشر أصبح لمدينة قوص مكانة أساسية في نقل حركة التجارة الشرقية في أعقاب الإصلاحات الإدارية التي أدخلها نظام بدر الجمالي على الإدارة المصرية ، وشاركت القسطنطينية في نشاطها التجاري ، وتمثلت المرحلة الأساسية في هذا التطور في قرض وتحصيل مكوس على البضائع الواردة إلى قوص تؤكد لنا أوراق الجنيزة اعتباراً من سنة ١٠٩٧/٤٩٠^{٤٠}.

ثراء القسطنطينية في العصر الفاطمي

يصف الرحالة المقدسي ، في أواخر القرن الرابع ، ثراء القسطنطينية ورخائها بقوله : « إن الأسواق قد التفت حول جامع عمرو ، إلا أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشطّ وخزائن وميضأة ، وهو أعمر موضع بمصر ، وزقاق القناديل عن يساره ، وما يدريك ما زقاق القناديل ... ويطول الوصف بنعت أسواقها وجلالته غير أنه أجل أمصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وأهل بلدانهم »^{٤١}.

أما ناصر خسرو ، بعد ذلك بنحو خمسين عاماً ، فيقول : إن جامع عمرو يقع في وسط سوق مصر ، بحيث تحيط به الأسواق من جهاته الأربع وتفتح

^{٣٩} ابن جبير : الرحلة ٢٢ - ٤٣ وانظر كذلك ناصر خسرو : سفرنامه ١١٦ ، ١١٨ .

^{٤٠} Goitein, S.D., op.cit., p. 193; Garcin, J. Cl., op.cit., p. 101.

^{٤١} المقدسي : أحسن ١٩٩ .

عليها أبوابه . ويقع سوق القناديل على الجانب الشمالى للجامع وأضاف أنه « لا يعرف سوقاً مثله في أى بلد ، وفيه كل ما في العالم من طرائف »^{٤٢}

التجار الأجانب في الفسطاط

كانت مصر لفترة طويلة من العصور الوسطى مركزاً هاماً للتجارة الدولية وبالتالي فقد كانت تعج بالعديد من التجار الأجانب القادمين من خارج « دار الإسلام » والذين كانوا يصلون إلى الموانئ الساحلية ، وأعنى بهم التجار القادمون من أوروبا المسيحية وبيزنطة الذين كانوا يقصرون موانئ البحر المتوسط . كان هؤلاء التجار يصلون إلى الإسكندرية وأحياناً إلى دمياط وحتى تَنيس . ولم تكن هناك ضرورة لتوجههم إلى داخل البلاد أو حتى الفسطاط ، حيث كان هناك وسطاء محليون يقومون بنقل البضائع التي أحضروها أو التي يحتاجون إليها^{٤٣}.

وفي رواية لواقعة حدثت بمصر سنة ٩٩٦/٣٨٦ أوردها مؤرخان متعاصران هما : المُسَبِّحِي ويحيى بن سعيد الأنطاكي ، نعرف أن تجار مدينة أمالفى Amalfi الإيطالية كانوا يقيمون مع بضائعهم في الفسطاط في مبنى مخصص يعرف بـ « دار مانك » كان يقع في خط الرُفَّائين . مما يعنى أنه كان لهم في الفسطاط وليس فقط في الإسكندرية ، فُنْدُقاً إن لم يكن مِلْكاً لطائفتهم كان على الأقل موضوعاً تحت تصرفهم من قبل الحكومة الفاطمية^{٤٤}. وقد نُهبت العامة هذه الدار بما فيها من ثروات ، بلغت تسعين ألف دينار ، في أثناء حادثة سنة

^{٤٢} ناصري خسرو : سفر نامه ١٠٢ - ١٠٣ .

^{٤٣} Cahen, Cl., "Les marchands étrangers au Caire sous les Fatimides et les

Ayyoubides " CIHC p.97

^{٤٤} Ibid., p. 98; id., Makhzūmiyyāt - Etudes sur l'histoire économique et financière

de l'Egypte médiévale, Leiden - Brill 1977, pp. 105 - 106

٩٩٦/٣٨٦ حيث كان بها نحو مائة تاجر أما لفي Amalfitains ، وهو رقم كبير يجعلنا نفترض أن لفظ أمالفى ، الوارد في نص يحيى بن سعيد ، كان يشمل أيضاً بعض الإيطاليين الآخرين من سكان الجنوب^{٤٥}.

ورغم أن المُسَبَّحَى قد ذكر خطأً أن « دار مَانِك » كانت تقع في المُقَس (موضع ميدان رمسيس الآن) ، فإنه صَوَّب ذلك في حوادث سنة ١٠٢٤/٤١٥ ، وذكر دار مانك بين الدور الواقعة في الفُسْطَاط^{٤٦}.

وتظهر دار مَانِك في وثائق الجنيزة كمكان لدفع المكوس على عدد كبير من السلع المُصَنَّعة وعلى تجارة العبور ، وعلى الأخص أصناف تجارة الجملة كالكتان والتوابل^{٤٧}.

وكان المُقَس ميناءً قديماً على النيل ، عرف في وقت الفتح بضَيِّعة أم دُثَيْن ، وعرف بالمُقَس لأن العاشر ، وهو صاحب المُكَس ، كان يقعد به فقيل لها المُكَس ثم قلبت فقيل المُقَس^{٤٨}. أنشأ به الفاطميون دار صِنَاعَة لا نعرف عنها شيئاً كثيراً^{٤٩}. ويبدو أنه استخدم كميناء للقاهرة لجلب ما يحتاج إليه القصر الفاطمي ، فيذكر المُسَبَّحَى في حوادث ربيع الآخر سنة ٤١٥/يونية سنة ١٠٢٤ أن مراكب مملوئة قمحاً وصلت إلى ساحل مصر الفُسْطَاط ، ورثى

^{٤٥} المسبحى : نصوص ضائعة ١٥ - ١٦ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٧٨ - ١٧٩ ، المقرئى الخطط ٢ : ١٩٥ - ١٩٦ ، النورى : نهاية - خ ٢٦ : ٤٨ ، Cahen , Cl . , " Un texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amalfi au X^e siècle " , Archivio storico per la provincia napoletana (1953 - 54) , pp . 3 - 8 , id . , " Le commerce d'Amalfi dans le proche - orient musulman avant et après la Croisade " , Comptes rendus d'Académie des Inscriptions & Belles - Lettres (1977) , pp . 292 - 294 .

^{٤٦} المسبحى : أخبار مصر ٦٩ .

^{٤٧} Goitein , S . D . , A Mediterranean Society IV , p . 27 .

^{٤٨} القلقشندى : صبح ٣ : ٣٥٧ ، المقرئى : الخطط ٢ : ١٢١ ، أبو الحسن : النجوم ٤ : ٥٣ .

^{٤٩} المقرئى : الخطط ٢ : ١٩٥ .

نقل ما فيها إلى القصر الفاطمي ، فأمر بأن تصل إلى المَقَس مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وزيادة الغلاء في هذا العام^{٥٠}.

وُكَلَاءُ التِّجَارِ بِالْفُسْطَاطِ

وإلى جانب ذلك كان بالْفُسْطَاطِ عددٌ كبيرٌ من « وُكَلَاءِ التِّجَارِ » أو « دور الوكالة » وهي دار لوكيل للتجار يمكن استخدامها كمُسْتَوْدَعٍ أو مَصْرَفٍ أو عنوان بريدى أو كل هذه الوظائف مجتمعة تبعاً لأهمية الوكيل^{٥١}. وقد نشأ هذا النشاط منذ الأيام الأولى للدولة الفاطمية في مصر أو قبل ذلك بقليل . فيذكر المُسَبِّحِي في حوادث سنة ١٠٢٤/٤١٥ وفاة الشريف أبى إسماعيل إبراهيم بن تَجِّ المَعْدَل الذى عمل بـ « الوكالة للتجار » فحملت إليه البضائع والمتاجر من كل ناحية ، وأنه خَلَّفَ عند وفاته مَالاً كثيراً جداً^{٥٢}.

وكان لكبار التجار في المدن الكبرى الداخلية وكلاء عنهم في الثغور ، فيذكر ناصر خسرو أنه لما اعتزم مغادرة أسوان إلى عَيْذاب ليتوجّه منها إلى الحجاز كتب له تاجر من أسوان يدعى أبو عبد الله محمد بن فليح كتاباً إلى وكيله بَعِيْذاب يوصيه به أن يدفع له ما يريد ، وأن ناصر سيعطيه مقابل ذلك صكاً بالحساب يتولى الوكيل إرساله إلى التاجر بأسوان^{٥٣}.

وكان أغلب « وكلاء التجار » المسلمين المذكورين في أوراق الجنييزة من « القضاة » وفي بعض الأحيان لم يكونوا يحملون هذا اللقب رغم شغلهم وظيفته القاضي^{٥٤}. يقول ابن مَيْسَر عن شخص ، أصبح ولده فيما بعد قاضى

^{٥٠} المسيحي : أخبار مصر ٣٩ .

^{٥١} Goitein , S . D . , op . cit . , IV , p . 26 .

^{٥٢} المسيحي : أخبار مصر ١٠٨ .

^{٥٣} ناصر خسرو : سفرنامه ١١٩ ، ١٢٠ .

^{٥٤} Goitein , S . D . , op . cit . , I , p . 187 . , id . , Studies in Islamic History pp . 346 - 47 .

قضاة مصر ، إنه بعد هجرته من الشام إلى مصر فتح بالفسطاط دار وكالة^{٥٥} ، ويذكر ابن المأمون في حوادث سنة ١١٢٢/٥١٦ أن الوزير المأمون البطائحي أمر في هذه السنة ببناء دار وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار^{٥٦} . وهي أول مرة تشهد فيها القاهرة هذا النوع من الأنشطة .

وبما أن وظيفة وكيل التجار أصبحت منذ هذا التاريخ وظيفة شبه حكومية ، فيمكننا الظن بأنه كان يحصل على ترخيص ، أو تأكيد لوظيفته من المُحتسب أو من والى مدينته ل مباشر وظيفته . وعند الترخيص لشخص بوكالة التجار - إذا كان يُتبع في الأساس إجراء كهذا - فإن السلطات الحكومية كانت تضع في اعتبارها مكانة الشخص بين زملائه التجار .

وفي ظل هذه الظروف يمكننا اعتباره (في وقت لم تعرف فيه النقابات) رئيساً لما يشبه نقابة للتجار . ويكون وكيلاً مستقلاً في مجتمع التجار المستقل . وكبعية المِهَن الأخرى . فإن وظيفة وكيل التجار كانت تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، وتعطينا وثائق الجنيزة مثلاً عن وكيل للتجار أصبح ابنه وحفيده أطباء ، بينما ورث أحد أحفاده بعد ثلاثة أجيال وظيفة جده الأعلى^{٥٧} .

اتصال القاهرة بالفسطاط

أُسِّسَت القاهرة ، كما نعلم سنة ٩٦٩/٣٥٨ لتكون حصناً تتحصن به الأسرة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر ، وظلَّت القاهرة طوال القرن الفاطمي الأول مدينة خاصة لا يُسمح بدخولها لأفراد الشعب ، الذين كانوا يقيمون بالفسطاط إلا بإذن خاص وبغرض خدمة أهل الحصن الفاطمي الذين كانوا من خواص الخليفة ورجال الدولة وفرق الجيش .

^{٥٥} ابن ميسر : أخبار ١٢٦ - ١٢٧ .

^{٥٦} ابن المأمون : أخبار ٣٩ ، ابن ميسر : أخبار ٩٢ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٥ ، انعاظ ٣ :

٩٢ .

^{٥٧} Goitein , S . D . , A Med . Soc . I , pp . 186 - 192 , id . , Studies p . 347 - 48 .

وقد أدت الأزمة الاقتصادية الطاحنة والفوضى السياسية التي اجتاحت مصر في أواسط القرن الخامس/الحادى عشر إلى خراب الفسطاط ، وأصابته بقسوة الأحياء العباسية والطولونية القديمة الواقعة شمال شرق الفسطاط (العسكر والقطائع) . ولما استعان الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بوالى عكّا ، أمير الجيوش بدر الجمالى ، وقام بتدبير أمر مصر « نُقِلَت أنقاض ظاهر مصر مما يلي القاهرة ، حيث كان العسكر والقطائع ، وصار فضاءً وكيماً فيما بين مصر والقاهرة ، وفيما بين مصر والقرافة »^{٥٨} واستغلت هذه الأنقاض في البناء داخل السور الفاطمى . فكان هذا - كما يقول المقرئى - أول وقت اختط الناس فيه بالقاهرة «^{٥٩} . وبذلك فقدت القاهرة ، مؤقتاً ، مكانتها كمدينة خاصة ، وإن كان بدر الجمالى قد تدارك ذلك بعد قليل وحافظ على شكل المدينة وخصوصيتها عندما أعاد تحصينها وجدد بناء أبوابها وأسوارها وزاد في مساحتها من جهة الشمال والجنوب فيما بين سنتى ١٠٨٧/٤٨٠ و ١٠٩٢/٤٨٥ .

لكن التغيير الذى عرفته القاهرة تم في العقود الأولى للقرن السادس/الثانى عشر ، في خلافة الأمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحي (٥١٥ - ٥١٩) . فقد عاد للأحياء الشمالية للفسطاط ازدهارها مرة أخرى وأعيد تعمير المنطقة الواقعة بين المشهد النفيسى جنوباً وباب زويلة شمالاً^{٦٠} ، يقول المقرئى : « حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمستخدمون يُصلُّون العشاء الآخرة بالقاهرة ويتوجّهون إلى سكنهم في مصر ولا يزالون في ضوء وسرج وسوق موفور من الباب الجديد خارج باب زويلة إلى باب الصفا ... والمعاش مستمر في الليل والنهار »^{٦١} وبذلك اتصلت المدينتان القاهرة والفسطاط .

^{٥٨} المقرئى : الخطط ١ : ٢٢٧ س ٣٥ - ٣٨ .

^{٥٩} نفسه ١ : ٥ .

^{٦٠} المقرئى : الخطط ١ : ٣٠٥ ، ٢ : ٢٠ ، ١٠٠ ، ٢٦٥ .

^{٦١} نفسه ٢ : ١٠٠ .

ثم شاركت القاهرة الفُسطاط في بعض الأنشطة الاقتصادية ، ففي سنة ١١٢٢/٥١٦ قام الوزير المأمون البطائحي ببناء دار للضرب في القاهرة في منطقة القشاشين (الصنادقية الآن) بالقرب من الجامع الأزهر ، وأنشأ في نفس السنة دار وكالة بالقرب منها لمن يصل من تجار العراق والشام وغيرهما^{٦٢} . مما دعى الخليفة الأمر إلى إعادة تخطيط المدينة بعد انتشار المحلات والدكاكين والأسواق بها^{٦٣} .

وتفيدنا وثائق الجنيزة بأن تاجرًا من لبدة بليبيا يعرف بمضمون اللبدى اشترى في سنة ١١٠٢/٤٩١ جزءًا من دار في القاهرة مقابل ثلاثمائة دينار^{٦٤} ، مما يشير إلى فتح القاهرة لأبوابها أمام التجار الأجانب .

وكان للحريق المتعمد الذي اجتاح الفُسطاط قرب نهاية العصر الفاطمي في سنة ١١٦٨/٥٦٤ الدور الأساسي في هجرة الكثير من أهل الفُسطاط إلى القاهرة بعد تدمير جزء كبير من الجانب الغربى للمدينة . ولكن الوزير شيركوه تمكن بعد أن تولّى الوزارة للفاطميين من إقناع قسم من أهالى الفُسطاط بالعودة إلى ديارهم وإعادة بناء مدينتهم^{٦٥} . ويبدو أن عملية إعادة البناء قد تّمت بصورة فعلية خلال عام ١١٧٦/٥٧٢ ، وهو التاريخ الذى يجعله أبو صالح الأزمئى بداية إصلاح العديد من كنائس الفُسطاط^{٦٦} . كما أن ابن جبير ، الذى زار مصر بعد هذا التاريخ بنحو خمس سنوات ، يذكر أن أغلب المدينة كان قد استُجِدَّ وقت زيارته وأن البنيان بها متصل^{٦٧} .

٦٢ انظر اعلاه هـ ٥١ .

٦٣ Fu'ad Sayyid , A , La Capitale de L'Égypte pp. 511 , 529 .

٦٤ Coitein S .D . , From the Mediterranean to India p . 191 .

٦٥ المقرئى : الخطوط ٢٢٧ - ٢٢٩ .

٦٦ أبو صالح : تاريخ ٢٧ و ، ٢٣ ظ ، ٢٨ ظ ، .

٦٧ ابن جبير : الرحلة ٢٩ .

التجارة الكارمية

ترجع أقدم إشارة إلى التجارة الكارمية في المصادر التاريخية إلى ما أورده المؤرخ ابن أبيك اللؤاداري عن تأخر وصول التجار وانقطاع الكارم في سنة ١٠٦٣/٤٥٦^{٦٨}، وإن لم يوجد في المصادر التاريخية التي تشير إلى هذه الفترة ما يؤكد ذلك. وتُرجَّح هذه الإشارة أن الكارم^{٦٩} كان معروفاً قبل هذا التاريخ، وتؤيدها مئات من أوراق الجنيزة^{٧٠} التي ترجع إلى العصر الفاطمي والتي تشير إلى أن التجارة الكارمية عرفت في عصر الفاطميين وعلى الأخص الأوراق المتعلقة بالنشاط التجاري وحجم أعمال بيت أبي الفرج يوسف بن يعقوب بن عوكل التي تعد أقدم أرشيف لنشاط جرفي وتجاري في أوراق الجنيزة، وواحدة من أقدم مجموعات المراسلات المتعلقة بالأعمال الخاصة في العصور الوسطى. ويحوى هذا الأرشيف واحدًا وستين موضوعًا (مراسلة) تغطي أربعة أجيال من بيت ابن عوكل ما بين عامي ٩٨٠/٣٦٩ و ١٠٧٦/٤٦٩. وتختلف مراسلات بيت ابن عوكل في محتواها ودلالاتها عن

^{٦٨} ابن أبيك : كثر الدرر ٦ : ٣٨٠ .

^{٦٩} لم يتوصل بعد الباحثون إلى تحديد مؤكد لمعنى لفظ « الكارم » أو « الكارمية » الوارد في المصادر العربية وأوراق الجنيزة . (راجع صبحي لبيب : « التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى » ، المجلة التاريخية المصرية ٤ (مايو ١٩٥٢) ٦ - ٧ ، Labib , S . y . , El^٢ . , art .) ويرى جويتين أن هذه الكلمة غير عربية ، وأنه توجد في لغة التاميل جنوب الهند كلمة « كاريام » وتعني ضمن ما تحمل من معاني « الأعمال » و « الأشغال » ، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسية مع ساحل الهند الشرق هي الأساس أعمالاً تجارية ، فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أطلق على مُلاك السفن والتجار المترددين على هذه البلاد (Goitein , S . , D . , Studies p . 300) . ويرى الشاطر بصيلي رأياً قريباً من رأى جويتين ، ولكنه يُرجع الكلمة إلى أصل عرني وأنها تتكون من مقطعين : « كار » و « يم » و « كار » بمعنى الجِرْفَة أو التجارة و « يم » بمعنى المحيط أو البحر البعيد الشواطئ ، وسقطت الياء فصارت « كارم » أي « حرفة التجارة في البحار » . (الشاطر بصيلي : « الكارمية » ، المجلة التاريخية المصرية ١٣ (١٩٦٧ / ٢٢٠) .

^{٧٠} عن الجنيزة انظر اعلاه مقدمة الكتاب .

بقية أوراق الجنيزة ، كما لا تقتصر أهميتها فقط على التاريخ الإسلامى أو التاريخ اليهودى بل تتعداهما إلى التاريخ الاقتصادى عمومًا ، كما يقول ستيلمان Stilmann الذى درس هذه الأوراق . وقد استقرت أسرة ابن عَوَّكَل فى القُسْطَاط على الأقل منذ وقت أى بشر يعقوب والد يوسف ، فكل الرسائل التى كتبت لهما موجهة إلى القُسْطَاط ، ويبدو أن هذه الأسرة فارسية الأصل هاجرت إلى إفريقية فى أواسط القرن الرابع/العاشر وقدمت إلى مصر مع الفاطميين بعد سنة ٩٦٩/٣٥٨^{٧١} .

وتمدنا كذلك الأوراق المتعلقة بالتاجر محروس بن يعقوب ، والتى يرجع أقدمها إلى سنة ١١٣٤/٥٢٩ ، بمعلومات هامة عن التجارة الكارمية وتجارة الهند . وكانت أخت هذا التاجر زوجة لأبى زكرى كوهين وكيل التجار اليهود فى القاهرة^{٧٢} . وتظهر أوراق الجنيزة التى تشير إلى هذه التجارة أن التوابل وعلى الأخص الفلفل والزنجبيل والإهليلج والقرفة والقرنفل وكذلك الخُلُنْجان والراوند والأصباغ مثل العَنَم أو البقم وصمغ اللك قد حُلَّت محل العطور الثمينة التى كانت السلع الرئيسية للتجارة الهندية زمن الخلافة العبّاسية . فالتوابل ، نتيجة لرخص ثمنها ، تُسْتَهْلَك على نطاق واسع مما يعنى زيادة حجم التجارة^{٧٣} .

وتثبت أوراق الجنيزة بطريقة مقنعة أن العديد من التجار المنتسبين إلى الطبقة الوسطى كان لهم نشاطٌ فى تجارة الهند . وأن التجار الذين لم يملكوا سوى رؤوس أموال صغيرة شاركوا آخرين ، أى أنهم وظَّفُوا بعض الأموال بعقود الضمان^{٧٤} .

^{٧١} Stilmann , N . A . , " The Eleventh Century Merchant House of Ibn 'Awkal (A Geniza Study) " , JESHO XVI (1973) pp . 16 - 17 .

^{٧٢} . Goitein , S . D . , Studies p . 353 .

^{٧٣} Stilmann , N . A . , op , cit . , pp . 18 - 88 , Ashtor , E . , A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages , London - Collins 1976 , pp . 196 -

197 .

^{٧٤} . Ashtor , E . , op . cit . , p . 197 .

ومعظم أوراق الجنيزة الخاصة بتجارة المحيط الهندي والبحر الأحمر هي خطابات أرسلت من عَدَن أو جَدَّة أو موانئ أخرى في شبه الجزيرة العربية أو ساحل الهند الغربي إلى مدينة الفُسطاط بمصر أو العكس ، فقد كانت الفُسطاط في هذا الوقت آخر طريق تجارة الهند وتجارة البحر المتوسط ، وأخذت هذه الأوراق طريقها إلى حجرة الجنيزة بطريقة أو بأخرى ^{٧٥}.

وكانت عَدَن وعَيْذاب وقوص والفُسطاط من أكبر مراكز التجارة الكارمية في العصور الوسطى ، فكانت المتاجر تأتي من عَدَن إلى عَيْذاب حيث تُحصَل فيها المكوس ، وهي الزكاة على التجار المسلمين وواجب الذمة على الذميين من رعايا المسلمين ^{٧٦}، ومن عَيْذاب تحمل القوافل المتاجر عبر الصحراء الشرقية إلى مدينة قوص في صعيد مصر ثم تحملها المراكب النيلية شمالاً إلى الفُسطاط .

وقد توصل جويتين Goitein من دراسته لنصوص الجنيزة التي ذكرت الكارم في أيام الفاطميين إلى أن التجار اليهود شاركوا في تجارة الكارم جنباً إلى جنب مع التجار المسلمين حيث كان سائداً قبل ذلك أن هذه التجارة اقتصرَت فقط على التجار المسلمين وأن من أراد المشاركة فيها كان عليه اعتناق الإسلام ^{٧٧}. كذلك تفيدنا هذه النصوص بأن كلمة « الكارم » أصبحت شائعة في بيوت الفُسطاط في القرن السادس/الثاني عشر بحيث أن أي امرأة كان يتوجّه زوجها إلى الهند كانت تنتظر منه الهدايا « في الكارم » ^{٧٨}. وأن هذا المصطلح ورد في الأوراق التي ترجع إلى العصر الفاطمي بمعنى السلعة أو البضائع التي اتجر فيها أولئك التجار ونسبوا إليها ، ولم تكن كلمة « كارمي » أو « التاجر الكارمي » التي شاعت في العصر المملوكي معروفة في زمن

^{٧٥} حسنين محمد ربيع : « وثائق الجنيزة وأهميتها للدراسة التاريخ الاقتصادية ... » ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ١٩٧٩ ، ٢ : ١٣٤ .

^{٧٦} ناصر خسرو : سفرنامه ١١٨ ، ابن عمّاق : قوانين اللواوين ٣٢٧ ، وانظر فيما يلي ص .

^{٧٧} Goitein , S . D . , op . cit , p . 360 .

^{٧٨} Ibid . , p . 358 .

الفاطمين . لذلك فإن هذه الأوراق تستخدم ألفاظًا مثل : « ينفذها في الكارم » أو « وأما الكارم فقد وصلني منه كتاب » أو « جميع من خرج من أصحابنا في الكارم »^{٧٩} .

ولعل الدليل على عناية الحكومة الفاطمية واهتمامها بأمر « الكارم » هو الإشارة الواضحة التي أوردها القلقشندي - رغم تأخره النسبي - إلى أن الفاطمين كان لهم بعثات أسطول يُتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها ، خوفًا على مراكب الكارم من قوم كانوا يجزائر بحر القلزم (البحر الأحمر) يعترضونها ، وكان يتولى الإشراف عليه وإلى قوص^{٨٠} . وتشير أوراق الجنيزة ، التي ترجع إلى الفترة الفاطمية ، إلى أن حاكم جزيرة دهلوك كان يتزعم حركة القرصنة في جنوب البحر الأحمر . ففي خطاب مطول للتاجر العدني الشهير يوسف بن أبراهام ، كتب في الثلاثينات أو الأربعينات من القرن السادس/الثاني عشر ، نجده يعرب عن أسفه من أن المرسل إليه أبي عمران بن نُفيع قد احتجز مدة طويلة ولقى مصاعب كثيرة أثناء إقامته في ميناء دهلوك على البحر الأحمر^{٨١} . ولا شك أن العامل الأساسي في نجاح التجارة الكارمية هو الحماية الخاصة التي وفرتها لها الدولة الفاطمية ، فقد جاء في أوراق الجنيزة أن مضمون - وكيل التجار اليهود في عدن - عقد اتفاقات مع « حكام البحار والصحراء » لحماية السفن الخاصة به والقوافل الموكلة إليه حمايتها . ومع ذلك ، فإن أوراق الجنيزة تخبرنا بأنه كانت هناك صيحات عالية تطلب دائمًا حماية السلطات الفاطمية وأسطولها الراسي بعذاب . ويرى جويتين Goitein أنه كانت هناك دواعي مالية وراء حماية الأسطول الفاطمي لتجار الكارم ، فقد كان هؤلاء التجار قادرين على الدفع بينما كان على صغار التجار أن يتحملوا

^{٧٩} Ibid . , pp . 353 , 354 , 357 .

^{٨٠} القلقشندي : صبح ٣ : ٥١٩ - ٥٢٠ ، وانظر محاولة لنهب ثغر عيذاب سنة ١١١٨/٥١٢ من

أمير مكة ورد فعل الوزير الأفضل عليها عند التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٨٢ ، الفاسي : العقد

اليمين ٧ : ٢٩ .

^{٨١} Goitein S . D . , op , cit . p , 356 .

تقلبات القرصنة التي كانت تشكل آنذاك خطرًا فعليًا في جنوب البحر الأحمر^{٨٢}.

وُجِدَ في أوراق الجنيزة كذلك « التماس » Petition مرفوع إلى الخليفة الأمر بأحكام الله من التاجر اليهودي موسى بن صدقة يشكوا فيه أنه أثبت في مجلس القاضي جلال الملك تاج الأحكام [أبى الحجاج يوسف بن أيوب المتوفى سنة ١١٢٧/٥٢١] أنه وصل من الهند واليمن بتجارة وقراض^{٨٣} معه وأنه أعيق بشبهة لم تثبت ويلتمس من الإمام أن يخرج توقيعه إلى القاضي حتى يرد إليه حقه^{٨٤}.

^{٨٢} Ibid . , pp . 359 - 360 .

^{٨٣} عن القراض ، وهو اتفاق بين أصحاب المال وأحد الوكلاء على المتاجرة لهم في أموالهم مقابل نسبة من الربح ، انظر Udovitch , A . L . El . art . Kirad V , pp . 132 - 133 .

^{٨٤} Stern , S . M , " Three Petitions of the Fatimid Period " Oriens 15 (1962) , p .

الطَّوائِفُ الحِرَفِيَّةُ

بدأت الإشارة إلى ما يمكن أن نسميه تكتُّل بين التجار وأصحاب الحِرَف ، كما يقول لويس Lewis في القرن الثالث/التاسع . ولكن هذه التجمعات لم تكن قد وصلت بعد إلى ما يمكن أن نعتبره نموذجاً للطوائف الإسلامية ، وإنما هي مجرد تنظيم عام وضبط للأسواق والحِرَف^{٨٥}.

ويرى ماسينيون Massignon أن الحركة الإسماعيلية - التي أرادت أن تجمع كل العالم الإسلامي تحت شعار العدالة الاجتماعية - هي التي أوجدت في القرن الرابع/العاشر الطوائف الإسلامية وأعطاها ميزتها الخاصة^{٨٦}. فقد خَصَّصَتْ « رسائل إخوان الصفا » - وهي مجموعة رسائل فلسفية يُظَنُّ أن مؤلفيها من دعاة الإسماعيلية - فصلاً كاملاً للنظر في الحِرَف اليدوية وتبويبها وتصنيفها ، وتشير هذه الرسائل كذلك إلى نُظُم تشكيل الجمعيات ونعلم منها بوجود جمعيات لإخوان الصفا منتشرة في العالم الإسلامي لبثَّ أرائها بين كل طبقات الشعب وخاصة بين الصُّنَّاع وأصحاب الحِرَف^{٨٨}. ولتوصِّل الإسماعيليون إلى استقلال أصحاب الحِرَف أوجدوا الطوائف وسيطروا عليها ، وأصبح لهذه الطوائف خاصيتان : كونها أصنافاً للحِرَف ، وكونها مؤسسات أخوية إسماعيلية^{٨٩}. ومع ذلك فنستطيع القول بأنه لم يوجد بعد برهان واضح يؤكد أن الحركة الإسماعيلية أوجدت الطوائف أو الأصناف^{٩٠}.

^{٨٥} لويس ، ب : « النقابات الإسلامية » ترجمة عبد العزيز الدوري ، مجلة الرسالة ٨ (١٩٤٠) ٦٩٦ .

^{٨٦} Massignon , L . , EI¹ . , art . Sinf IV , p . 455 .

^{٨٧} عن إخوان الصفا انظر مقال - Marquet , Y . , EI² . , art . Ikhwan al - Safa II , pp . 1098 - 1103 .

^{٨٨} رسائل إخوان الصفا ، القاهرة ١٩٢٨ ، ١ : ١١٣ - ١١٥ .

^{٨٩} لويس ، ب . : المرجع السابق ٧٣٥ .

^{٩٠} Cahen , Cl . , " Y'a - t - il eu des Corporations professionnelles dans le monde

ويرى ماسينيون كذلك أن المدينة الإسلامية بنيت في الأساس على فكرة « السوق » التي أدت إلى نشوء ما يمكن أن نُطلق عليه « الطوائف المهنية »^{٩١}. ويضيف جويتين Goitein أن « السوق » هو الشيء الجديد حقاً في مدينة الشرق الأدنى العصور الوسطى ، فهو في رأيه ظاهرة جديدة تماماً وفريدة من الناحية الطبوغرافية والناحية الاقتصادية الاجتماعية^{٩٢}.

ولعل الذي دفع ماسينيون إلى تبني فكرة أن الحركة الإسماعيلية هي التي أوجدت الطوائف أو الأصناف ، هو موقف الريبة والاحتقار للعمل اليدوي الذي أظهره فقهاء السنة بحيث أصبحت التجمعات الحرفية خاضعة لقيود عديدة ومحرومة في ظل الحكومات السنية من حقوق قانونية . بينما اتخذ الإسماعيليون موقفاً مؤيداً للمهنة وتمتعت التجمعات المهنية في ظل الحكم الفاطمي برخاء عظيم واعتراف بها من قبل الدولة وتمتعت بامتيازات كبرى ، كما لعبت دوراً كبيراً في النشاط التجاري والصناعي الذي تميّز به العصر الفاطمي^{٩٣}.

وساعدت روح التسامح التي سادت طوال أغلب فترات العصر الفاطمي على انخراط أفراد من أديان مختلفة في الطوائف ، حيث كان المسلمون والمسيحيون واليهود يُقبلون بنفس الشروط فيها ، حتى أن بعض هذه الطوائف غلب عليها غير المسلمين كطوائف الأطباء والمتعاملين بالمعادن الثمينة^{٩٤}.

و « الطوائف الحرفية » هي تجمعات تضم كل رؤساء حِرْفَةٍ معينة ، وتنظم

= "musulman classique", dans Hourani & Stern, the Islamic City, Oxford 1970, p. 56.

^{٩١} Massignon, L., Opera Minora, Beirut 1963, I, p. 370.

^{٩٢} Goitein, S. D., A Med. Soc. IV p. 3.

^{٩٣} لويس ، ب . : المرجع السابق ٧٣٥ .

^{٩٤} نفسه ٧٣٦ .

طريقة ممارستهم لها ، وتتولى الإشراف على بعض أنشطة المتتمين إليها وخاصة في مجال الدين والتضامن الاجتماعي^{٩٥}.

ولا شك أنه كان يوجد في الفسطاط - عاصمة مصر الاقتصادية زمن الفاطميين - شكل للتنظيم الحرفي ، فقد ورد بها تقسيم طبوغرافي للمهنة والأسواق^{٩٦} ، خاصة وقد ورد في بردية ترجع إلى أوائل القرن الثالث/التاسع قائمة بأسماء الصناعات المتعلقة بحرفة معينة ، تحوى : القطّاعين والمقشرين والدباغين والبقالين والنحاسين والحجارين والطباخين^{٩٧} ، وكانت هناك كذلك أعراف يجب احترامها وأيضاً قواعد تُتبع عند قبول أفراد جدد في الطائفة أو عند تدريب المبتدئين في الصنعة .

وقد حفظ لنا المقرئى - رغم تأخره النسبى - نصاً هاماً عن تنظيم الأسواق في مصر الفسطاط زمن الفاطميين ، يقول فى معرض حديثه عن أزمة سنة ١٠٥٢/٤٤٤ : « وكان فى كل سوق من أسواق مصر (الفسطاط) على أرباب كل صنعة من الصنائع « عريف » (ج . عرفاء) يتولى أمرهم »^{٩٨} وقد سمى ابن الطوير هؤلاء العرفاء « عُرَفاء الأسواق » وأرباب المعاش «^{٩٩} . وكان انتخاب هؤلاء العرفاء أو اختيارهم يتم بموافقة المُختَسب ، ممثل الحكومة المسئول عن الإشراف على الأسواق لمراجعة الأسعار والمكايل والأوزان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والذي يمكن أن نعتبره الموظف البلدى الوحيد فى المدينة الإسلامية . ولكن كتب الحِسبة والمصادر التاريخية تُظهر « العريف »

^{٩٥} Cahen , Cl . , op . cit . , p . 53 .

^{٩٦} ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٤ : ٣٢ - ٣٤ ، ٣٧ - ٤٠ .

^{٩٧} جروهمان ، أ : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن وراجعه عبد الحميد حسن ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٥٥ ، ٣ : ٢٣٢ - ٢٣٤ بردية رقم ٢١٤ .

^{٩٨} المقرئى : إغاثة الأمة ١٨ - ١٩ ، المقفى (خ . السليمية) ٣٦٢ ظ ، اتعاط ٢ : ٢٢٤ .

^{٩٩} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٤ - ٢٥ ، أبو الحسن : النجوم ٥ : ١٨٤ .

كوكيل أو ممثل للمُحتَسب لدى الطوائف والمِهَن أكثر من كونه شخصاً مختاراً من أصحاب المِهَن ليدافع عن مصالحهم لدى السُّلْطَة^{١٠٠}. وكثيراً ما كان الوالى يلجأ إلى « العُرفاء » لمعاونته في فرض الأمن والتعرف على مَنْ من شأنهم تكديره^{١٠١}. ولا شك أن كل طائفة مهنية في مصر الفاطمية كان لها « عريف » ، فابن المأمون يحدثنا في أحد نصوصه عن « عُرفاء السَّقَّائين »^{١٠٢} ، ويذكر نص المقرئى - السابق ذكره - « عريف الخَبَّازين »^{١٠٣} ، كما أن سائر الطوائف كان لهم عُرفاء مثل « عرفاء العبيد » الذين يحدثنا عنهم المُسَبِّحى^{١٠٤}.

^{١٠٠} أيمن فؤاد سيد : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها زمن الفاطميين » ، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ١٢ - ١٣ .

^{١٠١} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤ .

^{١٠٢} ابن المأمون : أخبار ٦٩ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٦٣ ، اتعاض ٣ : ١٠٠ .

^{١٠٣} المقرئى : إغاثة ١٨ وعن العريف راجع ، S . Ah . El - Ali & Cahen , Cl . , El^١ , art . arif ، ١ ، pp . 649 - 651 .

^{١٠٤} المسبِّحى : أخبار ٨٩ .

الدينار الفاطمي

يذكر ابن أبي طي أن المعز لما خرج من بلاد المغرب كان معه خمسمائة جمل محملة بالذهب الذي جمعه الفاطميون طوال الستين عامًا التي أمضوها هناك وأمر بسبكه على هيئة أرحية الطواحين^{١٠٥}. وهو أمر غير مستبعد في ضوء ما نعرفه عن سيطرة الفاطميين على كل الطرق التجارية المؤدية إلى غانا التي كانوا يجلبون منها الذهب بعد قضائهم على إمارة تاهرت واحتلالهم لسيجلماسة^{١٠٦}. وقد فقد الفاطميون هذا المصدر الهام بعد انتقالهم إلى مصر وإن استعاضوا عنه بما كانوا يحصلون عليه من منجم وادي العلاقي جنوب مصر ومن مقابر الفراعنة، حيث أشرف عمال الخليفة بأنفسهم على عملية استخراج الذهب من هناك^{١٠٧}. كذلك فقد تمكن الفاطميون من مناجم الشام بعد فتحهم لها وإن كانوا قد فقلوها تبعًا بعد استيلاء السلاجقة ثم الصليبيين على ممتلكاتهم هناك^{١٠٨}.

وبدأ الفاطميون إصلاحاتهم الاقتصادية في مصر برفع قيمة الدينار إلى ما كانت عليه العملة الفاطمية في إفريقية بحيث تراوح وزنه بين ٤ جرام و ٤,٠٦ جرام^{١٠٩}. ورغم أن الأزمة الاقتصادية التي شهدتها مصر في أواسط القرن الخامس/الحادي عشر قد أدت إلى تخفيض قيمة العملة إلا أنها سرعان

^{١٠٥} المقرئى : الخطط ١ : ٤٣٢ .

^{١٠٦} Lombard, M., "L'or musulman du VII^e au XI^e siècle", Annales ESC 11

152, p. (1947), وانظر إبراهيم على طرخان : « غانة في العصور الوسطى » ، المجلة التاريخية

المصرية ١٣ (١٩٦٧) ٦١ - ٦٤ .

^{١٠٧} المقرئى : الخطط ١ : ١٩٧ س ٢٢ ، Lombard, M., op. cit., pp. 150-51 .

^{١٠٨} Ehrenkreutz, S. A., "The Fiscal Administration of Egypt in the Middle

Agcs", BSOAS XVI (1954), p. 507 .

^{١٠٩} ابن المأمون : أخبار مصر ٢٨ ، ابن ميسر : أخبار ٩٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٤٥ ، انعاظ

٩٢ : ٣ .

ما استعادت مكانتها في عصر الخليفة الأمر بأحكام الله حيث ارتفعت درجة نقاوة الدينار مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل ، وذلك بعد أن أنشأ الوزير المأمون البطائحي في سنة ١١٢٢/٥١٦ أول دار ضرب بالقاهرة^{١١٠} . فتبعاً لابن بكرة بلغ دينار الأمر أقصى درجات النقاوة في العصور الوسطى بعد أن جرت عمليات كيميائية بلغت بالذهب حداً لم يصل إليه أحد قبله^{١١١} . وقد أثبت Ehrenkreutz ، بعد دراسة ٤٩ قطعة من الدنانير التي تعود إلى عصر الأمر ، أن خمس عشرة قطعة من بينها (أو ١٥,٩ %) تحوى ما لا يقل عن ٩٠ % من الذهب ، بينما اثنتي عشرة قطعة (أو ٧٥,٥ %) تحوى أكثر من ٩٦ % من الذهب مما يجعلها دنانير شبه تامة . وجدير بالذكر أنه لم يوجد أى دينار ضرب بعد سنة ١١٢٤/٥١٨ (وهو تاريخ أول دينار ضرب بدار ضرب القاهرة) به نسبة أقل من ٩٠ % من الذهب^{١١٢} . فقد أدت عمليات الاستكشاف ، التي توصل إليها في زمن الأمر ، « إلى أن صار دينار دار الضرب المصرية أعلى عياراً من جميع ما يضرب بجميع الأمصار »^{١١٣} ، حتى أصبح كما أطلق عليه Ehrenkreutz « الدولار الإسلامى في العصور الوسطى »^{١١٤} ، ويعكس مستوى الرخاء الاقتصادى الذى عرفته مصر في عصر الفاطميين .

^{١١٠} ابن بكرة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمى - القاهرة

١٩٦٦ ، ٤٩ - ٥٠ .

^{١١٢} Ehrenkreutz , A . S . " Arabic Dinars Struck by the Crusaders " , JESHO VII

176 - 177 , pp . (1964) .

^{١١٣} ابن المأمون : أخبار ٣٨ ، ابن بكرة : كشف ٥٠ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٤٥ .

^{١١٤} Ehrenkreutz , A . S . , op . cit . , p . 179 .

الفصل الثاني عشر

النظام الضرائبي للفاطميين

في تفسيره للتاريخ الإسلامي ذكر عبد الحى شعبان أن نظام الفاطميين الضرائبي ، الذى كان حَجَر الأساس في نجاحهم وفشلهم معاً ، لم يُناقش أبداً^١. ولعل سبب ذلك راجع إلى قِلَّة المصادر التى يمكن الاعتماد عليها في دراسة من هذا النوع ، وإن كان الدكتور راشد البراوى في كتابه « حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين » قد أشار إلى نظام الجباية عند الفاطميين^٢ ، كما أن الدكتور حسنين ربيع أشار أيضاً إلى النظام الضرائبي للفاطميين كمدخل لدراسة النظام المالى في مصر بين سنتي ٥٦٤ - ١١٦٩/٧٤١ - ١٣٤١^٣.

والواقع فإنه ، بعد أن وصل إلينا كتاب « المِنتَهاج في أحكام خراج مصر » للمَحْزُومى ، وما نعرفه من كتاب « قوانين الدواوين » لابن مَمَّاتى ، يمكننا أن نُقدِّم عرضاً للنظام الضرائبي للفاطميين ، وذلك بمقارنة معطياتهما مع الجزء الثامن من « نهاية الأرب » للنويرى والمؤلفات المتأخرة مثل « صُبْح الأَعَشَى » للقلقشندي الذى اعتمد مطولاً على ابن مَمَّاتى ، أو « خِطَط » المقرئى الذى يتابع كذلك ابن مَمَّاتى ولكن مع الأخذ من مؤلفين آخرين من بينهم المحْزُومى ، وكذلك كتاب « روضة الأديب » لمحمد بن إبراهيم بن ظهير الحنفى الحموى :

^١ . Shaban , A . , op . cit . p . 186 .

^٢ البراوى : حالة مصر الاقتصادية ٢٢١ - ٣٥٣ .

^٣ Rabie , H . , " The Financial System of Egypt " , London 1972 .

وهاذان هما المؤلفان الوحيدان اللذان عرفا كتاب المَخْزُومِي ويتيحان لنا من بعض النواحي استكمال نقص مخطوط المِنْهَاج^٤.

وترجع قيمة كتاب « المِنْهَاج » للمَخْزُومِي إلى أن مؤلفه تولى أكثر من مرة ، في زمن الفاطميين والأيوبيين ، ديوان المَجْلِس^٥ (وهو ديوان لم يختلف فوراً في زمن صلاح الدين ولكنه اختفى دون شك في زمن الأيوبيين)^٦ ، واكتسب المَخْزُومِي نتيجة لذلك خبرة عملية بالعمليات المتعلقة بجباية المكوس وعلى الأخص في ثغر الإسكندرية وكذلك جباية الجزية التي كان يدفعها الذُمِّيون^٧.

وتبعاً للبروفيسير كاهن فقد كان هناك تأليفان لكتاب « المِنْهَاج » تأليف أول في آخر عصر الفاطميين نحو سنة ١١٦٩/٥٦٥ والنظام الفاطمي ما زال سائداً ، ثم أضاف إليه إضافات ومراجعات في سنة ١١٨٥/٥٨١ أو بعد ذلك بقليل بعد أن مضى وقت طويل على النظام الأيوبي ودخلت العديد من التحسينات عليه^٨. ولا شك في أن كتاب « المِنْهَاج » يعد مصدراً لا نظير له عن النواحي الإدارية ونظام الزراعة والنظام المالي في مصر في القرن السادس/الثاني عشر ، ويتيح لنا أن نُحدِّد وأن نُكْمِل أو نراجع ، من بعض النواحي ، معارفنا عن نظام الضرائب في مصر قبل العصر الأيوبي .

الضرائب

لن نعرض هنا للتباين بين آراء الفقهاء في موضوع الضرائب والتنظيمات العملية للضرائب . فالضرائب الأصلية أو الضرائب الشرعية التي تستقى منها

^٤ Cahen , Cl . , " Makhzūmiyyat " p . 7 .

^٥ المَخْزُومِي : المنهاج - خ ٤٦ و .

^٦ النابلسي : لمع القوانين المضية ٣٦ .

^٧ Cahen Cl . , op . cit . , p . 4 .

^٨ Ibid . , p . 3 . المَخْزُومِي : المنهاج - خ ٣٨ و ، المقرئ : الخطط ١ : ٢٧٦ - ٢٧٧ .

الدولة مواردھا فی نظر الفقهاء هی : الفئیء ، وهو ما یؤخذ من المشرکین دون قتال ویشتمل علی : الخراج والجزیة والضرائب المفروضة علی تجار أهل الذمة وعلی التجار المشرکین القادمین من خارج دار الإسلام . والخمس علی ما یستخرج من المعادن والركاز والغنائم وخمس سبب البحر مما یقذف به البحر ویستخرج منه . والزكاة أو الصدقة وتجب علی : المواشی والزروع والثمار والذهب والفضة وعلی بضاعة التجار المسلمین ^٩ .

أما ماعدا ذلك من ضرائب فیعد ضرائب فرعية فرضت لتعویض احتیاجات بیت المال وترتبط عادة بأوساط التجار ویطلق علیها « المكوس » وهی بنظر الفقهاء ضرائب غیر شرعية .

الموارد الشرعية

قسم المَحْزُومِ موارد بیت المال إلى ثلاثة أقسام : « المال الخراجی » ، وهو ما یُسْتَأْدى مُسَانَهَةً مما هو مفرد علی الأراضي المرصدة للزراعة والنخل والبساتین والكروم ، ینقسم إلى نوعین : « خراجی الزراعة » وأول عامه توت وآخره مسری ، و « خراجی البساتین » وهو ما یُروى بالسواقی وما یجرى مجراها وأول عامه أمشیر وآخره طوبة . « وحساب ذلك ینظم للسنة الخراجیة الواقع علیها من الاسم ما وافق زمانها من سنی الهجرة » ^{١٠} .

و « المال الهلالی » ، وهو ما تُسْتَأْدى أموره مُشَاهَرَةً وتنقسم أصوله علی أربعة أقسام : « الجوالی » (الجزیة) وتنظیم حساباتها علی أساس استخراجها ابتداء من المحرم من السنة الهلالیة . و « الزكاة » ، وإن كانت سنتها هلالیة إثنی عشر شهراً ، فإنها تختلف باختلاف ابتداء ملك صاحب المال .

^٩ متر : الحضارة الإسلامية ١٩٤ ، ٢١٠ ، النوری ، عبد العزیز : تاریخ العراق الاقتصادی فی القرن

الرابع الهجری ، بیروت - دار المشرق ١٩٧٤ ، ١٨٧ - ١٨٢ .

^{١٠} المحزومی : المنهاج ٣٤ وقارن التویری : نهاية ٨ : ٢٤٥ ، المقریزی : الخطط ١ : ١٠٣ .

و « الرُّباع » ومثلها أجر الأملاك المسقفة من الأدر والخوانيت والحمامات والأفران وأرحية الطواحين الدائرة بالعوامل وسنتها هلالية وابتداؤها من استقبال إسكانها واستخراجها مشاهرة . و « ما يستأدى من ثُجَّار الروم » وغيرهم وفيه حكمان : من ورد في البر وينظم حسابه لمدة أولها المحرم وآخرها ذو الحجة ، وأما من يرد في البحر الملح فيستحسن لنظم حسابه « أن يكون لحَوْل أوله من الشهور العربية ما وافق افتتاح البحر من شهور القبط »^{١١} .

و « ماله عام مفرد يخالف شهور الهلالى والخراجى » وهى ثلاثة أنواع : المراكب النيلية وأبقار الجاموس وأبقار الخيس . وشهور سنة ذلك ثلاثة عشر شهراً ، ولكل نوع منها حساب مستقل^{١٢} .

الموارد غير الشرعية

يقول المقرئى إن أول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد بن مُدبِّر لما ولى الخراج بمصر سنة ٨٦٤/٢٥٠ فحجر على « النُّطرون »^{١٣} بعد أن كان مباحاً لجميع الناس ، وقرَّر على الكلا الذى ترعاه البهائم مالا سَمَّاه « المَراعى » كما قرَّر على ما يخرج من البحر مالا سَمَّاه « المَصائد » ، وقد عرفت هذه الضرائب التى استحدثها ابن المُدبِّر بـ « المرافق والمعاون »^{١٤} ، وعندما تولَّى أحمد بن طولون إمرة مصر أسقط هذه الضرائب وكانت تبلغ مائة ألف دينار فى كل سنة^{١٥} .

ولما وصل الفاطميون إلى السلطة أرادوا أن يستغلوا إمكانيات مصر الزراعية والصناعية إلى أقصى درجة ، وأن يأخذوا منها أقصى ما يمكن من عائدات

^{١١} نفسه ٣٤ وقرن نفسه ٨ : ٢٢٨ ، ١ : ١٠٧ .

^{١٢} نفسه ٣٤ .

^{١٣} انظر فيمايل ص .

^{١٤} المقرئى : الخطط ١ : ١٠٣ - ١٠٤ .

^{١٥} البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، دمشق ١٣٥٨ ، ٧٤ - ٧٦ ، ابن سعيد : المغرب ٨٥ -

٨٦ ، المقرئى : الخطط ١ : ١٠٤ ، ٢ : ٢٦٦ - ٢٦٧ .

مالية تلبي احتياجاتهم الخاصة ، مثلما كانوا يقومون بالجباية في شمال إفريقية^{١٦} ، فأعادوا « الأموال الهلالية » وصارت تعرف بـ « المكوس » - وهو الاسم الذى يطلق على الضرائب غير الشرعية - وقد لجأ الفاطميون إلى ذلك لمواجهة النفقات الباهظة لبلاطهم الفخم واحتفالاتهم الباذخة .

وحينما أراد الخليفة الحاكم أن يرجع إلى أصول الإسلام الأولى في المرحلة التى أطلقنا عليها « تصوّف الحاكم » ، أسقط جميع الرسوم والمكوس التى جرت العادة بأخذها ، وأقطع ووهب جل الضياع والأعمال والعقارات والأموال السلطانية^{١٧} ، فلما استولت أخته سيدة الملك على مقاليد الأمور بعد اختفائه ، قبضت على جميع الإقطاعات التى أقطعها وأعادت المكوس إلى ما كانت عليه قبل تسامح الحاكم بها^{١٨} . ويبدو أن اللولة كانت تلجأ إلى إلغاء المكوس أثناء الأزمات الاقتصادية تيسيراً على الناس ، فيذكر المسبّحى أن دّوأس بن يعقوب الكتامى متولى الحسبة قرأ سجلاً في شوارع مصر الفسطاط أثناء أزمة الحنطة التى مرّت بها مصر عام ١٠٢٤/٤١٥ - ١٠٢٥ ، بحظيطة جميع المكوس عن سائر أصناف الغلات الواردة إلى سواحل مصر الفسطاط ، مما أدّى إلى توافر الأخباز في الأسواق وانخفاض سعر الدقيق^{١٩} .

وقد عُدّ المقرئى ثمانين نوعاً من المكوس التى كانت موجودة في زمن الفاطميين وأسقطها السلطان صلاح الدين عن مصر والقاهرة ، وقد بلغ عائد هذه المكوس مائة ألف دينار سنوياً^{٢٠} وأضاف ابن أبى طى - راوى الخبر - أن

^{١٦} القاضي النعمان : المجالس والمسائرات ٣٣٧ - ٣٣٨ .

^{١٧} يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٦ ، ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٢٨٦ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٧٤ ، ١٠٢ ، ٩٢ .

^{١٨} نفسه ٢٣٧ .

^{١٩} المسبّحى : أخبار مصر ٧٥ .

^{٢٠} المقرئى : الخطط ١ : ١٠٤ - ١٠٥ ، القلقشنلى : صبح ٣ : ٤٦٦ - ٤٦٧ ، وانظر نص سجل إسقاط المكوس وهو مؤرخ في ٣ صفر سنة ١١٧١/٥٦٧ عند أبى شامة : الروضتين ١ : ٥٢٢ - ٥٢٣ .

الذى أسقطه السلطان صلاح الدين من المكوس والذي ساع به لعدة سنين آخرها سنة ١١٦٨/٥٦٤ مبلغه ألف ألف دينار وألفى ألف أردب ، وكان أشهر هذه المكوس مكس البهار^{٢١} . ويفهم مما ذكره المقرئى أنه لم يسلم أى إنتاج أو أية مهنة أو أية حرفة من دفع المكوس . وقد أبدى الرحالة والجغرافى المقدسى ، الذى زار مصر نحو سنة ٩٨٥/٣٧٥ ، استغرابه من ثقل المكوس خاصة فى تَنيس ودمياط وعلى ساحل النيل بالفسطاط ، وذكر أن الثياب الشطوية (التى تصنع بمدينة شطا) فرضت عليها مكوس عالية القيمة فى جميع مراحل تصنيعها ونقلها وبيعها^{٢٢} . ويذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، الذى زار مصر نحو سنة ١٠٤٨/٤٤٠ ، أن عائد بيت المال من تَنيس بلغ يوميًا ألف دينار مغرى^{٢٣} .

نظام الضمان

كانت الحكومات الإسلامية تلجأ فى تحصيل الضرائب (المكوس) إما إلى الجباية المباشرة بواسطة العامل المختص أو عن طريق الضمان^{٢٤} . والضمان نظام مالى غير شرعى^{٢٥} أشبه بنظام الإلتزام ، يتعهد بموجبه الضامن أن يدفع إلى الدولة سنويًا مبلغًا اتفقيًا عن قيمة الضرائب أو المكوس المفروضة على الجهة أو العمل الذى تضمنه مقدمًا . وعادة ما يكون هذا المبلغ أدنى من العائد الذى سيُحصّله الضامن من هذه الجهة ويحصل على الزيادة لحسابه الشخصى . أما إذا نقص العائد عن المبلغ المتفق عليه - وهو الأمر النادر حدوثه - فيلزم الضامن

^{٢١} نفسه ١ : ١٠٥ .

^{٢٢} المقدسى : أحسن التقاسيم ٢١٣ ، ناصر خسرو : سفرنامه ٧٧ .

^{٢٣} ناصر خسرو : سفرنامه ٧٩ .

^{٢٤} Cahen , Cl . , EI² . , art . Bayt al - Mal I , p . 1178 .

^{٢٥} الماوردى : الأحكام السلطانية ١٦٠ .

بتسديد كل المبلغ^{٢٦} إلا إذا ساعده ولى الأمر في ذلك ، مثلما حدث مع هبة الله بن عبد المحسن الشاعر الذي انكسر عليه مأل في ضمانه سنة ١١٣٦/٥٣١ فساعده الوزير رضوان بن وَلَخْشِي مما عليه من الباقي^{٢٧}. كما أن الوزير المأمون البطائحي أمر في نهاية عام ١٢٢١/٥١٥ بكتابة سجل يتضمن المسامحة بالبواقي إلى آخر سنة عشر وخمسمائة بعد أن انتهى إليه حال المعاملين والضُمَّناء والمتصرفين وما في جهاتهم من بقايا معاملاتهم واختلال أحوالهم وتجمد البقايا في جهاتهم . وقد أورد السجل مبلغ ماسوح به من العَيْن والغَلَّة^{٢٨}.

وقد لجأ الفاطميون منذ وصولهم إلى مصر إلى هذا الأسلوب في تحصيل الأموال ، حيث ضمنوا أموال الدولة كلها . ففي سنة ٩٧٤/٣٦٣ ضمن محمد بن القاضي أبو الطاهر الدُّهْلِي الأُخْبَاس بمبلغ ألف ألف وخمسمائة درهم^{٢٩}. وبعد وفاة الوزير يعقوب بن كِلْس ضمن الخليفة العزيز بالله أموال الدولة بجماعة من المستخدمين ، حيث ضمن على بن عمر العدَّاس مال الدولة والتفقات سنة ٩٩١/٣٨١ ثم حوسب بعد انقضاء السنة على دخلها وخرجها^{٣٠}.

ولما علم الوزير المأمون البطائحي ما يُعتمد في الدواوين من قبول الزيادات وفَسْخ عقود الضمانات وأخذها ممن تعب في تحصيلها ونقلها إلى من يتعهد ببذل زيادة في قيمتها دون جهد مبذول ، أمر بقراءة منشور في سنة ١١٢٢/٥١٦ بالجامع الأزهر بالقاهرة وجامع عمرو بالفسطاط بإنكار ذلك

^{٢٦} القلقشندي : صبح ٣ : ٤٦٦ ، Cahen , Cl . , op . cit . , I , p . 1179 , Rabie , H . , op .

^{٢٧} ابن ميسر : أخبار ١٢٩ ، القريري : اتماظ ٣ : ١٦٤ .

^{٢٨} ابن المأمون : أخبار ٢٨ - ٢٩ ، القريري : الخطط ١ : ٨٣ ، اتماظ ٣ : ٨٠ - ٨١ .

^{٢٩} القريري : الخطط ٢ : ٢٩٥ .

^{٣٠} ابن الصيرفي : الإشارة ٥٤ ، ابن أبيك : كثر الدرر ٦ : ٢٢٩ .

ومنعه وأعفى كافة الضُّمَّاء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم.^{٣١}

ويفهم مما ورد في هذا المنشور أن من بين الجهات التي كانت تُضمَّن الأبواب والرُّباع والبساتين والحمامات والقياسر والمساكن.^{٣٢}

وكان خازن ديوان الرسائل (الإنشاء) يتولى عمل أضاير (جـ . إضبارة) تتضمن ما يصل من الضَّمان إلى الديوان والجهة المرسلة منها لتيسير الرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ذلك.^{٣٣}

وكانت تولية الدواوين - كما ذكر ابن مماتي - تتم بثلاثة أوجه بالأمان أو بئذل أو بضمان . وفي حالة الضَّمان كان إذا تأخر من مال الضَّمان شيء لزم الضَّامن القيام به ، فإن بقي له في ذمة المعاملين مأل كان للسلطان أن يقبل الحوالة عليهم بعد اعترافهم أو لا يقبل ، وله أن يطالبه بما في ذمته ويعود متولى الديوان بالضَّمان بالطلب على من كان الباقي عنده.^{٣٤}

المال الخراجي

الخَرَاج

كانت الضَّريبة الشرعية الأساسية هي ضريبة الأراضي الزراعية المعروفة بـ « الخَرَاج »^{٣٥} . وكانت تُفرض أصلاً على كل أراضي سكان البلاد الأصليين

^{٣١} ابن المأمون : أخبار ٢٩ - ٣١ ، المقرئى : الخطط ١ : ٨٣ ، اتعاظ ٣ : ٨١ .

^{٣٢} نفسه ٣٠ ، ٣٠٩٨ . ٣٠٩٨ n° . 219 p . RCEA VIII ، Wiet , G . ، حسن الباشا : الفنون الإسلامية

والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٦٦ ، ٧٢٥ .

^{٣٣} ابن الصيرفي : القانون في ديوان الرسائل ٣٥ - ٣٦ .

^{٣٤} ابن مماتي : قوانين الدواوين ٢٩٨ - ٣٠٠ .

^{٣٥} عن الإدارة الزراعية في مصر بصفة عامة راجع دراسة فرانز ميرف الهامة Frantz-Murphy , The

Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans , Suppl .

. An . Isl . Cahier N° 10 , Le Caire IFAO 1986

غير المسلمين . وقد عرّفها الماوردي بأنها « حَقٌّ معلوم على مساحة معلومة »^{٣٦} . والخراج اجتهاد من الحاكم بعكس « الجزية » التي نُصّ عليها في القرآن^{٣٧} . وعندما تُخشى مع الوقت أن يؤدي تحوّل عدد كبير من سكان البلاد الأصليين إلى الإسلام إلى تقليل موارد بيت المال ، فقد رُوِيَ أن لا تتأثر ضريبة الأرض بتغير اعتقاد مالكيها ، أي أن دخول الإسلام كان يعفى من الجزية ولكنه لا يعفى من الخراج . وبذلك أصبح الخراج بنظر الفقه الإسلامي إيجاباً دائماً للأرض لمصلحة الأمة المالك الأعلى لها بوصفها قبي^{٣٨} ، بينما كان بوجهة نظر السكان المحليين مجرد استمرار لضريبة الأرض الزراعية التي كان معمولاً بها قبل الإسلام^{٣٩} ، وعلى خلاف السائد في بقية العالم الإسلامي لم توجد في مصر أراضي عُشرية بل كانت كلها أرض خراجية .

وكانت هناك مجموعة من الاعتبارات يجب مراعاتها عند تقدير الخراج أهمها مراعاة نوع الأرض ونوع المزروع وطريقة الري^{٤٠} . ولا يجب الخراج إلا إذا أوفى النيل ستة عشر ذراعاً ، فقد كان أقل حدّ للري دون خوف القحط إثنا عشر ذراعاً ، كما كان يُخشى من الاستبحار إذا بلغ منسوب النيل ثمانية عشر ذراعاً^{٤١} . ومعنى ذلك أن الفيضان المنخفض كان يستحيل معه رَيّ جميع الأراضي مما يؤدي إلى نقص المحصول وعجز الحكومة عن جباية الخراج ، كما أن الفيضان العالي كان يؤدي إلى إغراق الأراضي وإتلاف الزرع وفي كلا الحالتين يهدد البلاد القحط الذي كثيراً ما صاحبه الوباء^{٤٢} .

^{٣٦} الماوردي : الأحكام السلطانية ١٣٧ .

^{٣٧} الآية ٢٩ سورة التوبة .

^{٣٨} الماوردي : الأحكام ١٢٧ ، ١٣١ - ١٣٢ .

^{٣٩} Cahen , Cl . , El . , art . , " Bayt al - Mâe " I , p . 1179 .

^{٤٠} النويري : نهاية الأرب ٨ : ٢٤٦ - ٢٤٧ ، الحموي : روضة الأديب ١٠٧٥ .

^{٤١} الخزومي : المنهاج - خ ٤٧ ظ ، ناصر خسرو : سفرنامه ٨٢ ، ابن مباتي : قوانين ٧٦ ،

القلقشندي : صبح ٣ : ٢٩٥ ، المقرئ : الخطط ١ : ٥٨ - ٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم ١ :

٥٤ .

^{٤٢} البرلوي : حالة مصر الاقتصادية ٦٣ ، وانظر مثلاً لزيادة فيضان النيل وأثره على الزرع في علم

٤٠٦ ، ٤١٦ (المقرئ : اتعاظ ٢ : ١١٢ ، ١٧٥) .

وعادة ما كانت تبدأ زيادة ماء النيل في الخامس من بؤونة (يونية) من السنة القبطية ، وينادى بالزيادة في السابع والعشرين منه ويحسب كل ذراع (في المقياس) ثمانية وعشرين إصبعا إلى أن يكمل إثني عشر ذراعاً فيحسب كل ذراع أربعاً وعشرين إصبعا ، فإذا وَفَى ستة عشر ذراعاً كُسِر الخليج ووجب الخراج^{٤٣} . وكان الناس إذا توقّف النيل في أيام زيادته أو زاد قليلاً يزداد قلقهم ويظنون أن النيل لن يوفى « فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون عن بيعها رجاء ارتفاع السعر ، ويجتهد من عنده مأل في خزن الغلّة ، إما لطلب السعر أو لطلب ادخار قوت عياله ، فيحدث بهذا الغلاء » . لذلك رأى الخليفة المُعِزّ لدين الله في سنة ٩٧٣/٣٦٢ مَنع النداء بزيادة النيل وأن لا يُكْتَب بذلك إلا إليه وإلى القائد جوهر ، ولم يبح النداء إلا إذا تمّ ست عشرة ذراعاً وكُسِر الخليج ، وبذلك منع الناس من تخزين الغلال ورفع الأسعار^{٤٤} .

نظام القبالة

في نص مجمل أوضح لنا المقرئى نظام « القبالة » قائلاً : « كان متولى خراج مصر يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تهباً فيه قبالة الأراضي ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج يكتبون ما ينتهي إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنوات لأجل الظماً والاستبحار وغير ذلك . فإذا

^{٤٣} الخزومي : المنهاج (Pellat , Ch . Cinq Calendriers Egyptien p . 99) ابن عمّاق : قوانين ٢٥٣ (Ibid . , p . 79) . القلقشندي : صبح ٣ : ٢٨٩ - ٢٩٠ ، المقرئى : الخطط ١ :

٢٧٢ م ٢٨ - ٢٩ .

^{٤٤} الخزومي : المنهاج - خ ٤٧ ظ ، ابن ميسر : أخبار ١٦٠ ، المقرئى : الخطط ١ : ٦١ ، اتعاظ ١ : ١٢٨ .

انقضى هذا الأمر خرج كل من تقبل أرضاً وضمها إلى ناحيته فتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من خراج في أبانه على أقساط (انظر فيما يلي) وتُحسب له من مبلغ قبالة وضممانه لتلك الأراضي ما ينفق على عمارة جسورها وسدّ ترعها وحفر خلجها بضاربة مقدرة في ديوان الخراج ،^{٤٥}

يتضح من هذا النص أن نظام تقبل الأرض عملٌ ماليٌ بحسب الغرض منه تسهيل جباية الخراج (بما أن أرض مصر كانت كلها منذ الفتح أرضاً خراجية) ولا علاقة له بملكية الأرض مطلقاً ، حيث ضمنت الحكومة الفاطمية الخراج وسائر الضرائب الأخرى مقابل مبالغ محددة ، واعتبر الفائض بعد ذلك أرباحاً للضامنين ، لذلك فكثيراً ما حدث في المصادر خلطٌ بين الضمان والقبالة (انظر أعلاه) . وعادة ما كان يتأخر من مبلغ الخراج في كل عام في جهات الضمان والمتقبّلين قسمٌ يقال له « البواقي » كانت الولاة تشدّد في طلبه مرة وتسامح به مرة ، فكثيراً ما كانت تكتب سِجِلَات « بالمُسامحة بالبواقي » يحدد فيها آخر السنة المُسامح بها .^{٤٦}

وكانت الحكومة تؤجر للفلاحين الأراضي التابعة لبيت المال مقابل إيجار محدود أو تعطى لهم وفق نظام « المزارعة » أو « المُقاسمة » في المحصول .^{٤٧} أما جباية الخراج طوال العصر الفاطمي في بقية الأراضي فكانت تتم على أساس « القبالة » ، أي التعهد بدفع مبلغ معين عن منطقة محددة . وكانت هذه التلزيّات تجري بالمراد وتُعطى لمن يتعهد بدفع المبلغ الأكبر .^{٤٨} فلم تكن في

^{٤٥} المقرئى : الخطط ١ : ٨٢ .

^{٤٦} راجع ، ابن الصيرفي : الإشارة ١٠٦ - ١٠٧ ، ابن المأمون : أخبار ٢٨ - ٣١ ، ابن ميسر :

أخبار ٥٣ ، عمارة اليمنى : التكت العصرية ٥٣ ، المقرئى : الخطط ١ : ٨٣ ، ٨٦ ، ٣٨٢ ،

الانعاظ ٢ : ١١٤ ، ٣٢٩ ، ٣ : ٨٠ ، ٨١ - ٢٥٣ .

^{٤٧} البراوى : المرجع السابق ٥٣ .

^{٤٨} المقرئى : الخطط ٢ : ٥ - ٦ .

الدولة الفاطمية لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى الإقطاع الأسيوى الشرقى ، وإنما كانت تُضمَّن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجهاء بما عليها من الفلاحين الأقنان ، وأصبح ما يُطلق عليه « إقطاع » هو منطقة زراعية مؤجرة مقابل مبلغ اتفاقى يُطلق عليه « قبالة » ، ويسمى المزارع المقيم في البلد « فلاحاً قراراً » فيصير عبداً قنّاً لمن أقطع تلك الناحية . وقد عرف من نسخة المسموح الذى تضمن ترك البواقي في أيام الخليفة الأمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحي ، أن بلاد مصر في زمن الفاطميين كانت تُقبل بغير غلة وأصناف^{٤٩}.

ويوضح نص المَخزومى ما جاء في نسخة المسموح المذكور حيث قسم « القبالات » إلى نوعين : « القبالات المقررة الأسعار » وهى التى تعنى عقداً يتضمن سعراً ثابتاً غير قابل للمناقشة ، و « قبالات المناجزة » بالعين والحب^{٥٠} . وهى تعنى اتفاقاً بالمزايدة ، بحيث أن لفظ « القبالة » بإطلاقه يصبح ممثلاً للفظ « المناجزة »^{٥١}.

ويبدو أنه كان سائداً في مصر الفاطمية ثلاثة أنواع من الإقطاع : « إقطاع الاستغلال » وهو في حقيقته لا يزيد عن نظام الالتزام ، وفيه تُمنح بعض أراضي الدولة إلى الأفراد من الوزراء والأمراء والأجناد ، مقابل أن يدفع المُقطع مبلغاً معيناً من المال يذكر في الأمر الصادر بإقطاعه جهة ما ، وهذا المبلغ ، الذى يُطلق عليه الضمان ، يقل بطبيعة الحال عما يجبيه المُقطع من أهل الجهة^{٥٢}.

^{٤٩} نفسه ١ : ٨٦ ، اتعاض ٣ : ٨٠ - ٨١ ، Cahen , Cl . , El^١ . art . Kabala IV , pp . 337- . 338 .

^{٥٠} المخزومى : المنهاج ٦٠ .

^{٥١} Cahen , Cl , Markhzūmiyyāt p . 42 , Cooper , R . S . " The Assessment and Collection of Kharaj Tax in Medieval Egypt " , JAOS 96 (1974) . p . 381 .

^{٥٢} البراوى : المرجع السابق ٥٨ .

« إقطاع الارتفاع » وفيه يستفيد المُقْطَع من ارتفاع بعض النواحي عوضاً عن الرواتب ، مثلما حَدَّث مع الوزير ابن كِلْس حيث جعل له الخليفة العزيز بالله إقطاعاً في كل سنة بمصر والشام مبلغه مائة ألف دينار^{٥٣}. كما أن إقطاع قاضي القضاة مالك بن سعيد كان مبلغه في السنة خمسة عشر ألف دينار^{٥٤}، ويحدثنا المُسَبِّحِي كذلك عن إقطاع مماثل لشمس الملك مسعود بن طاهر الوزان في عام ١٠٢٤/٤١٥^{٥٥}.

« إقطاع التملك » وفيه تتنازل الدولة تنازلاً تاماً مُطلقاً عن جزء من الأراضي التابعة لها إلى بعض الأفراد . حيث لجأت الدولة الفاطمية في أول عهدهما إلى التصرف في أراضي الحُوز (وهي الأراضي التي تعد ملكاً لبيت المال فلا هي خراجية ولا هي عُشرية ، وهي مامات أربابه بلا وارث وآل إلى بيت المال) مكافأة لأعوانها^{٥٦}. ويرى الفقهاء أنه لا يجوز مصادرة إقطاع التملك حيث يصير المُقْطَع بالتملك كالكأ لرقبتها . غير أن الحكومة الفاطمية كانت في مصادرتها للإقطاعات لا تُمَيِّز بين إقطاع التملك وإقطاع الاستغلال^{٥٧}.

ويلاحظ أن أغلب المُقْطَعِينَ في آخر وقت الدولة الفاطمية كانوا من الأجناد ، وذلك بعد أن هَزَّت الحوادث العنيفة المجتمع المصري والحياة الاقتصادية منذ أواخر خلافة المستنصر وانتشر الخراب والفقر في أنحاء البلاد ، وأصبح العسكريون هم أصحاب الكلمة العليا وتعذر على أفراد الشعب المشاركة في المزايدات التي كانت تعقد بشأن هذه الإقطاعات^{٥٨}.

^{٥٣} ابن ظافر : أخبار ٣٩ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٤٩ ، ابن الصيرفي : الإشارة ٥٢ ، ابن أيك : كنز الدرر ٦ : ٢٢٥ ، المقرئ : الخطط ٢ : ٦ (وفيه أن إقطاعه بلغ ثلاثمائة ألف دينار) .

^{٥٤} المقرئ : اتعاظ ٢ : ١٠٧ .

^{٥٥} المسبَّحِي : أخبار مصر ٢٩ - ٣٠ .

^{٥٦} البراوي : المرجع السابق ٥٤ ، ٥٩ .

^{٥٧} نفسه ٥٩ ، الموردي : الأحكام ١٦٨ - ١٧١ .

^{٥٨} ابن ظافر : أخبار ١٠٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٩ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢١٦ .

وقد انتهز الأفراد وكبار الأجناد فرصة الاضطرابات التي حدثت في أيام المستنصر وزادوا إقطاعاتهم وجاروا على ما في أيدي صغار المقطعين حتى أن بعض أرباب الأملاك في الصعيد أضافوا إلى حيازاتهم من أملاك الدواوين أراضي اغتصبوها ومواضع مجاورة لأملاكهم تعثروا عليها وخلطوها بها وحازوها . ونتيجة لذلك اقترح القاضي الرشيد بن الزبير ، الذي أطلع الوزير الأفضل شاهنشاه على ذلك أثناء مُشارفته الصعيد الأعلى ، بإرجاع هذه الأملاك إلى الديوان . غير أن الوزير الأفضل أصدر منشوراً قرىء بالصعيد الأعلى « بإقرار جميع الأملاك والأرضين والسواقي بأيدي أربابها من غير انتزاع شيء منها ولا ارتجاعه وأن يقرر عليها من الخراج ما يجب تقريره »^{٥٩} وهذا يدل على أن الحكومة الفاطمية - على الأقل في زمن الأفضل - اعتبرت وضع اليد زمناً على أملاك الدولة أو على الأراضي غير المملوكة - والتي تعتبر من مال الديوان - مما يكتسب واضع اليد حتى امتلاكها .

وفي سنة ١١٠٧/٥٠١ خاطب القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحي الوزير الأفضل بن بدر الجمالي في حُلّ جميع الإقطاعات وإعادة رَؤُكها^{٦٠} للمحافظة على قيمة العائد والخدمات ، وذلك بعد أن تضرّر كثير من العسكرية والمُقطّعين من كون إقطاعاتهم قد قلّ ارتفاعها وساءت أحوالهم لقلة المُتَحَصِّل منها ، وأن إقطاعات الأمراء قد تضايف ارتفاعها وازدادت عُبرُتها^{٦١} بحيث صار في كل ناحية للديوان جملة تجبي بالعُسْف . فُحْمِلَتْ

^{٥٩} ابن المأمون : أخبار مصر ٣٢ - ٣٣ ، المقرئى : الخطط ١ : ٨٥ .

^{٦٠} الرُّوك . كلمة قبطية أصلها (روش) ومعناها الحبل ، ثم استعملت للدلالة على عملية قياس الأراضي الزراعية وحصرها في سجلات وتثمينها على أن يتم ذلك مرة كل ثلاث وثلاثين عامًا ، وذلك لتقدير خصوبة تربتها لربط خراج مناسب عليها ثم إعادة إقطاعها . (طرخان . النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ابن المأمون : أخبار ١٠ هـ) وهي تعنى في الوقت الحاضر : فك الزمام أو تعديل الضرائب العقارية .

^{٦١} العبرة : هي مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأراضي ، وما يتحصّل من كل قرية من عتّين وغلّة وصنف . (المقرئى : الخطط ١ : ٨١ ، ٨٢ ، Cahen, Cl.)

الإقطاعات كلها على أملاك البلاد ودعى الأمراء والأجناد والطوائف للمزايدة عليها في دار الوزارة ، ووعدهم الأفضل بترك أملاكهم التي لهم فيها يتصرفون فيها بالبيع أو الإيجار ، ثم حُل جميع الإقطاعات ووقعت المزايدة عليها ، وتَمَيَّز لكل منهم إقطاع وكتب لهم السُّجَلَات بأنها باقية في أيديهم لمدة ثلاثين عامًا ما يقبل منهم فيها زائد ، وحصلت بذلك للديوان بلادٌ مُقَوَّرة^{٦٢} بما كان مُفَرَّقًا في الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار^{٦٣} .



ولما كان التفاوت بين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يومًا تقريبًا ، وكانت كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية تعادل اثنين وثلاثين سنة شمسية ، فقد كان « التوفيق بين السنين الشمسية والقمرية » أمرًا ضروريًا لأن استحقاق الخراج وجبايته منوطان بالزروع والثمار وهي مرتبطة بالشهور والسنين الشمسية وما يقابلها من التقويم القبطي^{٦٤} . ونتيجة للأزمة التي اجتاحت مصر في أواسط القرن الخامس/الحادى عشر أُغْفِل نُقْلُ السنين في الديار المصرية ، يقول المَخْزُومى : « ... حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربعمائة للهلال تجرى مع سنة سبع وتسعين الخراجية ، فنُقِلَت سنة سبع وتسعين الخراجية إلى سنة إحدى وخمسمائة . هكذا رأيت في تعليقات أبى رحمه الله »^{٦٥} . ويضيف ابن المأمون في حوادث سنة ١١٠٧/٥٠١ أنه قد

^{٦٢} البلاد المُقَوَّرة . الأماكن والأراضى المتسعة التى لا نيات فيها . (طرخان : المرجع السابق ٥٠٥) ، وفى نهاية الأرب والاتعاظ : ضياع مفردة .

^{٦٣} ابن المأمون : أخبار ٩ - ١٠ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٨١ - ٨٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٨٣ ، اتعاظ ٣ : ٤٠ ، Cahen, Cl., El², art. Iktā' III, p. 1116 .

^{٦٤} ابن ميمى : قوانين ٣٥٨ - ٣٥٩ ، القلقشنلى : صبح ١٣ : ٥٤ ، المقرئى : الخطط ١ : ٢٧٥ .

^{٦٥} المخزومى : المناجى - خ ورقة ٣٨ و ، القلقشنلى : صبح ١٣ : ٦٠ ، المقرئى : الخطط ١ : ٢٧٦ .

حصل بين السنة الشمسية والعربية تفاوت أربع سنين ، ففاتح القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك الوزير الأفضل في ذلك (وهو نفس العام الذي تم فيه الرُّوك الأفضلي) فأمر ابن الصيرفي ، كاتب الإنشاء بإنشاء سِجَلٍّ « بنقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى سنة إحدى وخمسمائة لتكون موافقة لها ... ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية إلى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ... وكتب في محرم سنة إحدى وخمسمائة »^{٦٦}.

وقد ظل نظام القبالة سائدًا حتى قلوب الجيش الكردي التركي المصاحب لشيركوه وصلاح الدين والذي اعتاد أفرادُه على الأنظمة المتوارثة عن السلاجقة ، فأدخل الأيوبيون تغييرًا جذريًا على النظام السابق مستمداً في غالبه من الإقطاع الشرقي وإن ارتبط بخصوصية نظام الزراعة في مصر . وزالت القبالة سريعاً أمام نمو الشكل الجديد للإقطاع الأيوبي^{٦٧}.

جباية الخراج

كان ينظم عمل جباية خراج أراضي مصر المزروعة « أدلاء » (ج . دليل) يقومون بإعداد ما يعرف بـ « سِجَلَّات التحضير » يسجلون فيها البقاع التي في النوحى يرسم الزرع بأسمائها وعدد فدانها ونوعها (ما يروى منها ، والباقي ، والبروية ، والوسخ المزروع ، والوسخ الغالب ، والشرقي) ويعين تحت كل باب عدد فدنه^{٦٨}.

^{٦٦} ابن المأمون : أخبار ٣ - ٨ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٨٢ ، المقرئ : الخطط ١ : ٢٧٩ - ٢٨١ ، اتعاظ ٢ : ٤٠ .

^{٦٧} Cahen , Cl . , El^٢ . , art . Iktâ' III , p . 1116 ; id . El^٢ , art Kabâla IV , pp . 337 - 38 .

وعن الإقطاع بعد العصر الفاطمي انظر Rabie , H . op . cit . , pp . 26 - 72 ، طرخان : المرجع السابق ١٧ - ٥٨ .

^{٦٨} الخزومي : المنهاج ٥٨ - ٥٩ ، ابن عثاني : قوانين ٣٠٥ .

و « السَّجَلَات » هي الأساس الذى يتم على أساسه جمع الخراج ، بعد تحضير الأراضى وتسجيلها استنادًا على « قوانين الزراعة » المشتملة على ذكر البقاع^{٦٩} . وإذا تكاملت الزراعة (أى بعد مرور أربعة أشهر من السنة الخراجية^{٧٠}) يُنْدَب من الديوان المُسَاح لمساحة الأراضى ومعهم شهود لمساحة الأرض ، فيخرج المشارف والعامل والماسح والشاهد والأدلاء ووجوه المزارعين والقصابون ، فيبتدئون بالمساحة ويثبتون عدة الأقسام إلى أن تمسح الأرض كلها ويثبتها الماسح من إملاء القصاب من مشاهدته ، ويعمل بها كل يوم « قُنْدَاق » يقدم وصفًا مساحيًا للزراعات المنفذة أولًا ضِيْعَة ضِيْعَة ثم باسم كل مزارع على حروف المعجم^{٧١} ، ويرفع « القُنْدَاق » إلى الديوان ، ثم تعمل بعد ذلك « المُكَلِّفَة » (ج . مُكَلِّفَات) التى تَوْضِّح لكل مزارع ما يجب عليه من خراج^{٧٢} .

ويتم تقدير خراج الأرض حسب نوعها وهى : القَبَالَة والمناجِزَة والمُفَادَنَة . وقد تحدثنا فيما سبق عن القَبَالَة ، أما المُفَادَنَة فهى عملية مساحية تعنى تقدير خراج الأراضى غير المزروعة بساتين ، ونموذج ذلك أراضى الحَبْس الجيوشى الذى كان يسجل جميعه للمزارعين « مُفَادَنَة » بالعَيْن ، وذلك بمبلغ محدد (قطيعة) عن وحدة الفدان^{٧٣} . أما نظام القَبَالَة/المناجِزَة فيطبق على الأخص على الزراعات التى تشغل مساحات كبيرة دون أن تحصل عائدا مرتفعًا بعكس زراعة المُفَادَنَة^{٧٤} .

^{٦٩} نفسه ٥٩ ، Cooper , R . S . , op . cit . , p . 378 .

^{٧٠} المقرئى : الخطط ١ : ٨٦ ، ٤٠٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٤ .

^{٧١} الخزومى : النهاج ٥٩ ، ابن ممالى : قوانين ٣٠٥ .

^{٧٢} نفسه ٥٩ ، ٦٠ ، Cooper , R . S . , op . cit . , p . 50 , Cahen , Cl . Makhzūmiyyāt . 374 .

^{٧٣} ابن ممالى : قوانين ٣٣٦ - ٣٣٧ ، Cahen , Cl . , op . cit . , p . 41 .

^{٧٤} Cahen , Cl . , op . cit . , p . 43 .

وكان الخراج يدفع إما على ثلاث دفعات وفق ما تشهد به « المُكَلَّفَات »^{٧٥} أو على ثمان دفعات إذا أخذ من واقع « السجلات » ، وكان افتتاح الخراج ومطالبة الزّراع به يبدأ في شهر طوبة (يناير) حيث يحاسب المتقبلون على الثمن من السجلات ، ويتم دفع الربع في أمشير (فبراير) وهكذا^{٧٦} .

وكان الذين يتولون استخراج الخراج أفراد غير الذين تولوا مساحة الأرض .

المال الهلالي

الجوالى

« الجالية » (ج . الجوالى) هي الاسم الشائع في الاستخدام الإدارى في مصر لتعريف الضريبة المفروضة على أهل الذمة^{٧٧} ، والتي تعرف في كتب الفقه باسم « الجزية »^{٧٨} . وهي ضريبة موضوعة على الرؤوس على الذّمين (النصارى واليهود) تؤخذ طالما ظل الكتانى على عقيدته ، وتسقط بدخوله الإسلام^{٧٩} . وكما يذكر ابن ممتاى فهي واجبة على أهل الذمة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين^{٨٠} . وتبعاً لوثيقة من أوراق الجنيزة ،

^{٧٥} المقرئى : الخطط ١ : ٨٦ ، ٤٠٥ .

^{٧٦} ابن حوقل : صورة الأرض ١٣٦ - ١٣٧ ، المقرئى : الخطط ١ : ٢٧١ .

^{٧٧} الخزومى : المنهاج ٣٤ ، ٣٥ ، ابن ممتاى : قوانين ٣١٧ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٨ ،

المقرئى : الخطط ١ : ١٠٧ ، art . ، El² . ، p . 26 ; id . , Makhyūmiyyāt p . 26 ; id . , El² . ،

Djawālī II , p . 502 ; id . , El² . , art . Djizya II , pp , 573 - 576 ; Rabie , H . , op . cit . ,

p . 108 ; Goitein , S . D . , A . Med . Soc . II . pp . 380 - 44 .

^{٧٨} المارودى : الأحكام السلطانية ١٢٧ .

^{٧٩} نفسه .

^{٨٠} ابن ممتاى : قوانين ٢١٧ - ٣١٨ ، التنويرى نهاية ٨ : ٢٣٦ .

كتبت نحو سنة ٤٨٨/١٠٩٥ ، فإن « الجالية » كانت تجب متى بلغ الصبي سن التاسعة ^{٨١} !

ويتفق المَخْزُومِي وابن مَمَّاقِي على أن الجزية في وقتها (٥٦٥ - ٥٨٥) كانت ثلاث طبقات : من الغنى أربع دنانير وسدس ، ومن المتوسط ديناران وقيراطان ، ومن الفقير دينار واحد وثلاث وربع وحبتان (أى دينار و $\frac{5}{8}$) ^{٨٢} . ويؤكد المَخْزُومِي أن أكثر أهل الذمة في وقته في الطبقة السفلى والغنى منهم قليل ^{٨٣} ، وانفرد ابن مَمَّاقِي بالقول بأنه كان يضاف إلى كل جزية درهمان وربع عن رسم المُشِيدِّ والمستخدمين ^{٨٤} .

ولا شك أن الوصف الذى يقدمه لنا كل من المَخْزُومِي وابن مَمَّاقِي يتعلق بما كان سائداً في العصر الفاطمى واستمر في صدر العصر الأيوبي . فهذا التقسيم راجع إلى الإجراءات التى اتخذها الوزير السنى رضوان بن وَلَحْشَى سنة ١١٣٧/٥٣٢ لمواجهة تسلط النصارى ^{٨٥} ، حيث ذكر صاحب « تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية » هذه القيم من بين الإجراءات التى اتخذها ابن وَلَحْشَى ^{٨٦} .

ويتطابق ما ذكره المَخْزُومِي وابن مَمَّاقِي مع ما كان مطبقاً في الواقع ، فقد دفع طبيب يهودى - كما جاء في وثيقة من الجهنيزة مؤرخة في سنة

^{٨١} Goitein , S . D . op , cit . , II , p . 383 .

^{٨٢} المَخْزُومِي : المنهاج ٣٥ ، ابن مَمَّاقِي : قوانين ٣١٨ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٤٥٨ . ويلاحظ أن أهل الذمة في مصر في الفترة الإسلامية المبكرة كانوا يدفعون الجزية بمسئولية تضامنية على أساس متوسط هو ديناران على الرأس ، بينما في سائر البلاد الأخرى كانت تدفع برسم متناقص تبعاً لحالة كل فرد .

^{٨٣} المَخْزُومِي : المنهاج ٣٥ ، وهذا دليل على أن الذين تحولوا إلى الإسلام كانوا من الأغنياء بغرض كسب مراكز اجتماعية متميزة في الدولة الإسلامية .

^{٨٤} ابن مَمَّاقِي : قوانين ٣١٩ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٤٥٨ .

^{٨٥} انظر أعلاه ص ٢٠٠ ..

^{٨٦} ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٣١ .

١١٨٢/٥٧٨ - أربع دنانير وسدس كجالية^{٨٧}. ونجد أن تاجرًا من تونس دفع أيضًا ، قبل هذا التاريخ بنحو ١٢٠ عامًا ، في الفسطاط جالية عن حمّال يهودي يعمل في مركز زراعة الكتان في بوصير قيمتها مماثلة لما ذكره المَحْزُومِي وابن مَمّاتى^{٨٨}. كذلك فقد ورد في أوراق فينا ما يفيد أن المدعو أبا إلياس بن مينا دفع في ١١ رمضان سنة ٤١٦/٥ نوفمبر سنة ١٠٢٥ ما قيمته دينار واحد وثلثين ونصف قيراط كجزية عن عام ٤١٥/١٠٢٤^{٨٩}. وكان على دافع الجزية أن يحمل مخالصة تفيد أنه أدّى ما عليه خاصة إذا كان مسافرًا حتى لا يتعرّض لأى متاعب مع السلطات^{٩٠}.

وتجب الجزية بحلول الحَوْل ، أى أنها تُستأدى مُسَانَّهَةً بعد انقضاء السنة بالشهور الهلالية^{٩١}، وتستخرج عادة في مصر في المحرم^{٩٢}. وقد اصطلح الكتّاب في مصر على إيرادها قلمًا واحدًا مستقلًا بذاته بعد الهلالى وقبل الخراجى ، وكانوا يرون وجوبها مشاهرة حتى يُلْزَمُوا من أسلم أو مات أثناء الحَوْل بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته^{٩٣}.

وشرح لنا المَحْزُومِي عمليًا الطريقة التى يجب أن يتبعها المُشارِف^{٩٤} والعامل^{٩٥} اللذين يتوليان أمر الجَوالى ، إذ يجب عليهما أن يطلبوا إلى من

^{٨٧} Goitein , S . D . , op . cil . II , p , 387 .

^{٨٨} . Ibid . , p . , 387 .

^{٨٩} . Rabie , H . , op . cit . , p . 109 .

^{٩٠} . Goitein , S . D . , Studies in Islamic History p .

^{٩١} الموردي : الأحكام ١٢٦ ، النويرى : نهاية ٨ : ٢٣٩ .

^{٩٢} المحزومى : المنهاج ٣٤ ، ابن مماتى : قوانين ٣١٩ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٤٥٨ .

^{٩٣} المقرئى : الخطط ١ : ١٠٧ .

^{٩٤} أورد لنا القلقشندي نسخة سجل بمشارفة الجوالى بالصعيد الأدنى والأشمونين (صبح ١٠ : ٤٦٢ - ٤٦٣) والمشارف لا ينبغي لأحد مستخدميه أن يتفرد عنه بشيء ويكتب خطه على ما يرفع من الحساب ، ويكون الحاصل من المستخرج فى مودعه وتحت حوطته . (ابن مماتى : قوانين ٢٩٨ ، ٣٠٢) .

^{٩٥} العامل هو من يتولى عمل الحسابات ورفعها والكتابة على ما يرفع من معاملات بالصحة والموافقة ، وهو الأصل فى الخدمة والمشارف والناظر لضبطه والشد منه . (نفسه ٣٠٣) .

تقدمهما بيانات مُفَصَّلَةٌ تتضمَّن عدد من يجب عليهم الجزية وطبقاتهم وأسمائهم كما كانت في آخر شهر من السنة الهلالية المنصرمة ، وكذلك تعيين الحُشَّار^{٩٦} الذين تولوا جمعها . كما يجب أن تحتوى هذه البيانات على القيمة الكاملة للمبالغ التي جُبيت بالفعل وكذلك العبرة (أى تقدير ما يجب أن يُدفع عادة) مأخوذة من القائمة المحتوية على أسماء من يجب عليهم دفع الجزية . وفي هذه الحالة يستثنى منها من هلك أو اهتدى أو بُعد من الناحية المذكورة وانتقل إلى ناحية أخرى ، ويثبت ذلك في « محاضر مجلس الحكم » وتستنزل هذه القيمة من الحساب الختامى لكل ناحية . ومن جهة أخرى يجب أن يؤخذ في الاعتبار « النَّشُو » الذين بلغوا السن التى يجب عليهم فيها دفع الجزية^{٩٧} .

ويتولَّى العمل الحقيقى للحصر والجباية « الحاشر جـ . حُشَّار » يعاونهم في ذلك أدلاء (جـ . دليل) موجودين بكل ناحية . ويُتَوَّن الحُشَّار أعمالاً تشتمل على عدد وطبقات وأسماء من تجب عليهم الجزية يعينون فيها « الراتب المستقر » (أى المقيمين بالناحية) « والنَّشُو » (الذين بلغوا من الصبيان) و « والطارىء » (الأجانب الوافدين على الناحية) ويستثنى من هلك أو اهتدى أو بُعد في تلك السنة^{٩٨} .

ومن ناحية أخرى يُعَدَّ « المشارف » و « العامل » وكذلك « الجَهَبْد »^{٩٩} الذى ينضم إليهما لعمليات الجباية ، « تعليقاً » يشتمل على المبالغ المحصَّلة

^{٩٦} الحاشر جـ . حُشَّار . هو الموظف المختص بجمع الجزية من أهل النمة (نفسه ٣٠٦) . وكان يوجد حاشر لليهود وحاشر للنصارى يعرف أرباب الأسماء الواردة في الديوان ومن ينضم إليهم ممن يبلغ في كل عام من الصبيان ويعبر عنهم (بالنَّشُو) ، ومن يقدم إلى الحاضرة من البلاد الخارجة عنها ويعبر عنهم « بالطارىء » ومن يهتدى أو يموت ممن اسمه وارد في الديوان . (القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٨ ، النويرى : نهاية ٨ : ٢٤٢ - ٢٤٣) .

^{٩٧} الخزومى : المنهاج ٣٦ - ٣٧ .

^{٩٨} نفسه ٣٧ .

^{٩٩} الجَهَبْد جـ . جهابذة . كاتب يرسم استخراج المال وقبضه ، وكتب الوصولات به . وعليه عمل الخازيم والرزمنجات والخيمات وتواليها . (ابن مئآت : قوانين ٣٠٤) .

بالفعل لحساب الجوالى في كل ناحية عن كل يوم متضمنة أسماء دافعى الجزية والسنة المستحقة عنها ، ويعمل الجَهْدُ بها « مَخْزُومَة » (ج . مخازيم ، نوع من الدفاتر يُحْرَق)^{١٠٠} يوقع عليها العامل والمشارف ويحتفظ كل منهم بنسخة منها . ويعمل كل عشرة أيام « روزنامج » وصفته مثل صفة « المَخْزُومَة » إلا أن جملته تكون في آخره ، يحتفظ كل من العامل والمشارف بنسخة منه .

وإذا انقضى الشهر ينظم الجَهْدُ « نَحْتَمَة » (ج . نَحْتَم) تتضمن المستخرج على يده من الأعمال ويعين اسم العمل لشهر كذا وكذا بمشارفة فلان وتولى فلان . وإذا انقضت السنة نَظَمَ العامل « عملاً » بما اشتمل عليه ارتفاع الجوالى بالأعمال الفلانية لسنة كذا مما اعتمد في أصوله على ما تضمنته أعمال الحُشَّار^{١٠١} .

وبذلك فإن « النَحْتَمَة » و « العمل » يُحْتَفَظُ بهما كوثيقة في بيت المال باعتبارهما مؤشراً على ما تغلّه الجوالى عن كل عام .

الزكاة - النَجْوَى

الزكاة هي الصَّدَقَة التى لا يجب على المسلم فى ماله حقٌ سواها . وهى تجب فى الأموال المرصدة للنماء والتى حال عليها الحَوْل . وينقسم هذا المال من وجهة نظر الفقه إلى مال ظاهر يشمل الزروع والثمار والمواشى ، ومال باطن يشمل الذهب والفضة وعروض التجارة . ويختص نظر والى الصَّدَقَات فقط بزكاة الأموال الظاهرة ، أما زكاة المال الباطن فليس لوالى الصَّدَقَات نظرٌ فيه وإنما أربابه أحق بزكاته^{١٠٢} .

^{١٠٠} انظر النويرى : نهاية ٨ : ٢٦٠ ، ٢٧٤ .

^{١٠١} المخزومى : المناجج ٣٧ - ٤٢ ، Cahen , Cl . , op . cit . , pp . 26 - 30 .

^{١٠٢} الماوردى : الأحكام السلطانية ٩٨ - ١٠١ .

وحدّد ابن ممّاتي في جدول جامع ما تجب فيه الزكاة ومصارفها وما لم تجب فيه^{١٠٣}، مع ملاحظة أن مصرف الزكاة منصوص عليه وليس للأئمة اجتهاد فيه^{١٠٤}.

وما يذكره المخزومي في « المنهاج » حول حساب الزكاة يصدق دون شك على فترة حكم صلاح الدين^{١٠٥}. فالمقرّيزي يذكر أن السلطان صلاح الدين أوّل من جبا الزكاة بمصر^{١٠٦}. فقد كان الناس قبل ذلك يدفعون الزكاة إلى المستفيد منها مباشرة دون وساطة الدولة .

وبدلاً من أن يحرص الفاطميون على تعيين متولى للزكاة فقد كان على الإسماعيليين أن يدفعوا للحكومة الفاطمية ممثلة في شخص الداعي أو نقبائه ما يُعرف « بالفطرة » و « التجوى » ومبلغها ثلاثة دراهم وثلاث فيجتمع من ذلك شيء كثير يحمله الداعي إلى الخليفة بيده بنيه وبينه وأمانته في ذلك مع الله تعالى ، فيفرض له الخليفة منه ما يعنيه لنفسه ولنقبائه^{١٠٨}، وقد اتخذ الفاطميون التجوى من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُجِئْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدُّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نُجُوكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ [الآية ١٢ سورة المجادلة] . يقول الإمام المستنصر في سبجل مؤرّخ في العشر الآخر من ذي القعدة سنة ٤٨١ / أوائل فبراير سنة ١٠٨٩ « فقد صارت هذه الصدقات فرضاً واجباً على كل مؤمن العمل به ، ومن تركه كمن ترك فرضاً من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد ؛ وليس ما يراه أمير المؤمنين من متابعة أوامره بإخراج الفطرة والتجوى احتذاءً يحتذيه ، ولا اتساعاً في بيت ماله يلتمسه ويستدعيه ، ولكن لما كانت من الفروض اللازمة للإمام على المؤمنين وبها قوام دين المؤمن ، تُعين على أمير

^{١٠٣} ابن ممّاتي : قوانين الدواوين ٣١٠ - ٣١٦ .

^{١٠٤} الآية ٦٠ سورة التوبة ، الماوردي : الأحكام ١٠٧ .

^{١٠٥} المخزومي : المنهاج ٤٢ - ٤٣ .

^{١٠٦} المقرّيزي : الخطط ١ : ١٠٨ .

^{١٠٧} المقرّيزي : اتعاظ ٢ : ٥٠ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٣ : ٨٥ ، ٨٦ ، ٣٢٧ .

^{١٠٨} ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٢ ، المقرّيزي : الخطط ١ : ٣٩١ وانظر أعلاه ص .

المؤمنين تَعَهَّد أوليائه بحملها ليرفع لهم في الأعمال الصالحات ويحجبتوا بها ثمرة الباقيات « ١٠٩ .

الرَّباع

الرَّبيع (جـ . رباع) هي المساكن المشتركة التي يقطنها أكثر من أسرة في وقت واحد بعكس الدور (مفردها دار) وهي المساكن التي تسكنها أسرة واحدة من بابها « ١١٠ .

يقول ناصر خسرو « إن في القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان ، كلها ملك للسلطان (الخليفة) ، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية في الشهر ، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين . والأرْبَطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحَصْر وكلها ملك السلطان ، إذ ليس لأحد أن يملك عقارًا أو بيتًا غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه . وسمعت أن للسلطان ثمانية ألف بيت في القاهرة ومصر وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر . يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يُجْبَر شخصٌ على شيء « ١١١ . ويضيف ناصر خسرو أنه حين كان مقيمًا في مصر أُجِّر منزل مساحته عشرون ذراعًا في إثني عشر ذراعًا (نحو ٧٨ م^٢) بخمسة عشر دينارًا مغربيًا في الشهر ، وكان أربعة طوابق ، ثلاثة منها مسكونة والرابع خالي « ١١٢ .

وقد أوكلت الحكومة الفاطمية أهمية خاصة للإشراف على الرَّباع ، فقد حفظ لنا القلقشندي نص سيجل بحماية الرَّباع صادر إلى من يتولَّى « حماية الرَّباع السُّلْطانية بالمعزية القاهرة المحروسة » محدّدًا مهامه « بكشف أحوال هذه

١٠٩ السجلات المستصرية ، سجل رقم ٢٣ وانظر أيضًا السجلات رقم ٣٦ ، ٥٧ .

١١٠ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٩٢ .

١١١ ناصر خسرو : سفرنامه ٨٩ .

١١٢ نفسه ٩١ .

الرّباع كَشْفًا يُعْرَف به حالها ... وأن يستخرج مالها من السكان ويستعمل في استيوائه غاية الاستطاعة والإمكان ... وأن يتعهّدها بالطواف فيها ويحافظ على حراسة غيرها وتناول أجرها ورّم ماله يُسْتَرَم منها ويتشعّث ... وحمل مال ارتفاعها إلى بيت المال المعمور بعد ما يُصْرَف في مصالحها ..^{١١٣} .

ويحدّد هذا النص وكذلك نص ناصر خسرو وجود نوعين من الرّباع : الرّباع السلطانية والرّباع الخاصة التي سمّاها ناصر خسرو « بيوت » وفي وثائق الجنيزة ما يفيد بأن التاجر اللّبدى أجّر في سنة ٤٩٦/١١٠٢ قسماً من رُبْع (منزل) في القاهرة مقابل ٣٠٠ دينار في الشهر وقدمت أسرته لتقيم فيه^{١١٤} .

ويوضّح لنا المَخْزومى أن سنة الرّباع هلالية وابتدائها من استقبال إسكانها ، واستخراج إيجارها مُشَاهِرة ، وأن الحَوْل الذى ينظم به حساب عملها الجامع من المحرم إلى آخر ذى الحجة^{١١٥} .

وتبعاً للمَخْزومى فإن « متولّى الرّبْع » يتولى إعداد « جريدة استقرار » تتضمن ما استقرت عليه أجرة المسكون منه. وعَبْرَةَ الخال إلى آخر شهر ذى الحجة وكذلك اسم الوكيل الذى يتولّى الإسكان والخلوة والجباية فى الرّبْع ، ويُفَصِّل فى هذه الجريدة ما فى الرّبْع من قاعات وطباق ، ويذكر كذلك حِلَّة كل منزل منها وما فيه من أخشاب كالأبواب التى يخشى ذهابها وما يجرى مجراها دون السقوف التى يوثق باستقرارها ، مفصلاً كل موضع منها بعَبْرته واسم ساكنه واستقبال إجارته التى عادة ما تكون سنوية ، ولكن يمكن أن تكون كذلك لعدة أيام ، وتجب الإجازة شهرياً ، ولكن تبقى أحياناً بعض البواق المؤجلة . ويجب على العامل أن يرفع إلى الديوان تعريفاً يومياً يسمى

^{١١٣} القلقشندي : صبح ١٠ : ٤٤٩ - ٤٥٠ .

^{١١٤} Goitein , S . D . , " From the Mediterranean to India " p . 791 .

^{١١٥} المَخْزومى : المنهاج ٣٤ .

« المَخْزُومَة » بمائسكن من الخال وما يُنْذَل من الزيادة في المسكون ، و « نَحْتَمَة » يرفعها مشاهرة يوضع فيها ما استخرج خلال الشهر ، وكذلك عملا في آخر العام يسمى « عمل الزائد والناقص » يتضمن مبلغ ما اشتمل عليه أجرة المسكون من الرُّبْع وما سكن من الخالي منه ^{١١٦} .

وتقربًا إلى الله وابتغاء لثوابه ، لا سيما في شهر رمضان ، أصدر الإمام الأمر بأحكام الله منشورًا في شهر رمضان سنة ٥١٧/نوفمبر سنة ١١٢٣ بمُسامحة كافة سكان الرُّباع السُّلطانية بالقاهرة ومصر من الأدر والحمامات والحوانيت ... بأجرة شهر رمضان من كل سنة لاستقبال رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة وما بعدها إحسانًا وتعظيمًا لحزمة هذا الشهر ، وأمر أن يُخلَّد بالجامع العتيق بالقسطاط . ولما قرئ هذا المنشور ضجَّ العامة بالدعاء ^{١١٧} .

ما يُستأدى من تُجَّار الرُّوم

أو الخُمس الرُّومى

كان على الروم ، وهو لفظ يُقصد به التجار البيزنطيين والإيطاليين وخاصة الجنوبيين والبنادقة ، أن يدفعوا بوصفهم تجارًا أجنب غير مسلمين رسومًا جمركية على البضائع الواردة إلى الموانئ المصرية المطلّة على البحر المتوسط عرفها المَخْزُومى باسم « الخُمس » أو « الخُمس الرُّومى » ^{١١٨} . ويشرح لنا ابن ممّاتى كلمة الخُمس بأنها عبارة عما يستأدى من تجار الروم الواردين على

^{١١٦} المخزومى : المنهاج ٤٤ - ٤٥ ، Cahen , Cl . op . cit . , pp . 34 , 36 .

^{١١٧} المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٠٤ - ١٠٥ .

^{١١٨} المخزومى : المنهاج ٤٥ ، ٤٩ ، Cahen , Cl . op . cit . , pp . 63 , 75 وكانت العادة أن يجبي من التجار غير المسلمين الذين يفلدون إلى دار الإسلام « العُشْر » من قيمة بضائعهم ، وقد أباح الإمام الشافعى للحاكم أن يزيد هذه النسبة إلى الخُمس أو ينقصها إلى نصف العُشْر أو يزيلها نهائيًا . (القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٥٩ ، متر : الحضارة الإسلامية ٢٠١ - ٢٠٣) .

الثغور بمقتضى ما صولحوا عليه ، ورغم أن قيمة الرسوم الواجب عليهم أدائها يبلغ قيمته ٣٥ بالمائة من قيمة بضائعهم وقد ينحط إلى مادن العشرين بالمائة ، فإنها تسمى مع ذلك « خُمسًا »^{١١٩} . ويوضح هذا النص ، الذى أورده ابن ممتى ، أن الحكومة الفاطمية لم تكن تعامل التجار الأجانب غير المسلمين على أساس واحد ، الأمر الذى يمكن إرجاعه إلى اعتبارات سياسية واقتصادية . فقد تُخفّض الرسوم على تجار البلاد التى تُزود الحكومة الفاطمية بما يلزمها من المواد الضرورية لصناعة السفن على سبيل المثال^{١٢٠} . وأمام ارتفاع قيمة هذه الرسوم حرص التجار على تخفيض المبالغ التى يدفعونها عما ينقلونه من متاجر ، يدل على ذلك ما وعد به روجر الثانى Roger II أهالى مدينة سالرنو Salerne سنة ١١٣٧/٥٣٢ بالتدخل لدى الحكومة الفاطمية لتخفيض الرسوم الجمركية (الخُمس الرومى) التى يدفعها تجار هذه المدينة فى ميناء الإسكندرية إلى القيمة التى يدفعها أهالى صقلية^{١٢١} . وقد عقد روجر الثانى نحو سنة ١١٤٣/٥٣٨ معاهدة تجارية مجزية مع مصر ، لم يصل إلينا للأسف نصها ، وهى دون شك أول اتفاقية تجارية معروفة وقّعت بين قوة مسيحية غربية ومصر^{١٢٢} . أما ما يُفرض من رسوم على التجارة الخارجية الواردة على ثغور البحر المتوسط من بقية التجار الأجانب غير الروم فيفضل أن يُطلق عليه « المَكْس »^{١٢٣} .

ويدلنا على ارتفاع عائد الخُمس أن شاور وعمورى الأول ، عندما حاصرا صلاح الدين فى الإسكندرية سنة ١١٦٦/ ٥٦٢ ، عرض شاور على أهالى

^{١١٩} ابن ممتى : قوانين ٣٢٦ ، المقرئى : الخطط ١ : ١٠٩ ، الفلقشندي : صبح ٣ : ٤٥٩ .

^{١٢٠} Stern, S.M., "An Original Document from the Fatimid chancery concerning Italien Merchants", Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi Della Vida, Roma 1956, II, 529-38.

^{١٢١} Canard, M., "Une lettre du calife fatimite al - Hâfiz (524 - 544/1130 - 1149) à Roger II", Atti del convegno Internazionale di Studi Ruggeriano (Palermo 1955), pp. 125-126 ، البراوى : المرجع السابق ٢٥٠ ، ٢٦٨ .

^{١٢٢} Ibid., p. 126

^{١٢٣} Cahen, Cl., op. cit., p. 75

الإسكندرية أن يُسَلِّموا إليه صلاح الدين ومن معه مقابل أن يضع عنهم « المكوس » ويعطيهم « الأثمان »^{١٢٤}.

والثغور التي تناولها نص المَخْزومي هي : الإسكندرية ودمياط وتُنيس مع إشارة عابرة إلى رشيد وتُسْتَرُوهُ المواجهة لها . ولم يذكر المَخْزومي أى ميناء من موانئ البحر الأحمر . وربما يُوضَّح لنا نص لابن مماتي سبب عدم ذكر المَخْزومي لموانئ البحر الأحمر ، فهو يذكر أنه على العكس من الإسكندرية ودمياط وتُنيس فإنه لا يوجد بعثذاب - ميناء البحر الأحمر - سوى الزكاة وواجب الذمة لا غير^{١٢٥} . وهذا يعنى أنه لم يكن يتردد عليه سوى تجار مسلمين أو ذميين قادمين من البلاد الإسلامية ، وأن المتاجر الشرقية الصينية والهندية كانت تصل إلى عَدَن ثم يحملها تجار مسلمون أو ذميون من أصل عربى إلى عَيْذاب ، رغم أن ناصر خسرو يذكر أنه كانت تُحَصَّل بعثذاب المكوس على ما فى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن !^{١٢٦}.

والصفة الغالبة على نص المَخْزومي هي الغموض والالتباس فى بعض مواضعه حيث يقسم الرسوم الواجبة إلى : رسوم أصلية ورسوم مقابل خدمات الحماية ثم رسوم بناء على اتفاقيات ومعاهدات تجارية . والخط الفاصل الوحيد للتقسيم بينها ، كما يرى البروفسير كاهن برغم بعض التداخل ، هو التمييز بين « الوارد » و « الصادر »^{١٢٧}.

ويتولى الإشراف على جباية « الخُمس » فى الإسكندرية ودمياط تُنيس جهاز مكون من : ناظر ومُشارف وشاهد الخُمس وعامل وعدد من الكتاب

^{١٢٤} التويرى : نهاية - خ ٢٦ : ١٠١ .

^{١٢٥} ابن مماتي : قوانين ٣٢٧ .

^{١٢٦} ناصر خسرو : سفرنامه ١١٨ .

^{١٢٧} Cahen , Cl . . op . cit . . p . 84 .

يتولون إعداد عدد من التعليقات والجرائد لحفظ الارتفاعات وضبط الأموال وصيانتها^{١٢٨}.

وتتضمن « التعريفات » بيانات عن ورود المراكب الرومية ميينًا لكل مركب من أى البلاد قدمت ونوع البضائع التى تحملها موضعًا وزنها وعددها . ثم تعد « تعريفات » بما يُقرَغ في كل يوم من جميع المراكب من البضائع فى المخازن بالصناعة ، كما يُعَدَّ « تعريف » مفصل بأسماء التجار ومراكبهم^{١٢٩}.

وإذا كان عرض المَخْزومى عما يؤدى إلى الخُمس بثمر الإسكندرية ناقصًا أو غير واضح ، فإن ما يعرضه عن ثمر تَيْس - رغم قلة المترددين عليها بالقياس إلى الإسكندرية - ملء بالتفصيلات حيث يقدم لنا كشفًا بنسبة الخُمس الواجب أداؤها عما قيمته مائة دينار من أنواع متعددة من البضائع^{١٣٠}. ويفيدنا عرضه كذلك بأنه كان يُعَقَد بها بيع بالمزاد العلنى للبضائع الواردة يعرف « بِحَلَقِ الخُمس » (ج . حلقة) تُفَرِّض عليه الدولة مكوسًا لا تجب إلا بعد إتمام عملية البيع ، وينال السماسرة والمنادين والمستخدمين نسبة منها^{١٣١}. وكذلك كان من بين الرسوم المفروضة « رسم التوفير » وهو عما يُستخرج على يد جُهْد الديوان من التجار المشترين وتجار الروم عن كل مائة دينار سدس وثمان دينار^{١٣٢}.

ويمكننا أن نُصنِّف الرسوم المُعَقَّدة التى كان على التجار الروم دفعها فى الإسكندرية وبقية الثغور إلى مجموعتين أساسيتين هما : « القوف » و

١٢٨ الخزومى : المنهاج ٤٥ - ٤٦ .

١٢٩ نفسه ٤٦ .

١٣٠ نفسه ٢٢ - ٢٩ .

١٣١ نفسه ٩ .

١٣٢ الخزومى : المنهاج ١٠ .

« العَرَصَة » ومعنى هذين المصطلحين غير واضح على الإطلاق^{١٣٣}. ويظن البروفسير كاهن أن كل الرسوم التي كانت تُدفع في الإسكندرية تتجمع حول هاتين المجموعتين الرئيسيتين ، ويبلغ مجموعها ١٩ بالمائة^{١٣٤}.

ونستطيع أن نتبين من بين العمليات المتنوعة والرسوم التي يُطَلَق عليها « القُوف » مع بعض الصعوبات ، ثلاثة تقسيمات : مراكب تدفع رسومًا بالكامل ، وهي المراكب التي يكون ارتفاعها ألف دينار فما فوق ، وتدفع ما قدره مائة وأحد وخمسين دينارًا وربع ، ومراكب تدفع رسومًا بحق الثلثين عن ستمائة ست وستين دينارًا وثلثين قدرها مائة دينار ما قدره خمسة وسبعين دينارًا ونصف وثمان من جميعه^{١٣٥} وهذا التقسيم ، كما يذهب الدكتور ربيع ، يبدو غامضًا إلى حد ما^{١٣٦}. ويمثل العائد من « القُوف » من قيمة الخمس نسبة قدرها $\frac{1}{8}$ بالمائة تشمل رسوم المستخدمين وهم : الجُباة والخُزان والأمناء وبوايين البحر ، ورسوم لعديد من الأبواب مثل رسم « الحُتمة » ورسم « الطُعْمَة » ورسم « الضيافة »^{١٣٧}. أما ما يُطلق عليه الروم « العَرَصَة » فهو كما يذكر الخزومي ، ما يؤخذ عن محاسبة المراكب الخمسية متعلقًا برسم الإشراف والعمل ورسم صاحب البحر ورسوم الولاية ورسوم الترجمة وكاتب الخمس والجَهْد والمحاسبة^{١٣٨}. وهذا فيما يخص التجار الأجانب غير المسلمين .

أما التجار المسلمون فقد اعتبر الفقهاء المكوس أو الضرائب الجمركية ، بالنسبة لهم داخلة ضمن الزكاة ، ومن هنا نشأت فكرة أن التاجر المسلم

^{١٣٣} نفسه ١٠ - ١٢ ، ١٣ ، Rabie , H . , op . cit . , p . 90 .

^{١٣٤} Cahen Cl . , op . cit . , pp . 88 - 89 .

^{١٣٥} الخزومي : النهاج ١٠ .

^{١٣٦} Rabie , H . , op . cit . , p . 91 .

^{١٣٧} الخزومي : النهاج ١١ ، ١٢ .

^{١٣٨} نفسه ١٣ ، ١٢ ، Rabie , H . , op . cit . , p . 91 .

يستطيع أن يطوف عامًا كاملاً أينما شاء من حدود البلاد معفى من المكوس متى دفع المَكْس مرة واحدة وهو « العُشْر » ، وذلك بالإضافة إلى الزكاة الشرعية على عَيْن المال ، وهى عن كل مائة دينار ديناران ونصف ($\frac{1}{4} \times 2\%$) ، وقد أطلق عليها المَخْزومى « عروض (عيون) التجارات » ، وكانت تجبى بعد أن يحدد المُشارف حَوْل كل تاجر على ما يقتضيه ابتداء ملكه للمال . وضَرَب المَخْزومى مثلاً عملياً على ما يجب عن مائتى أردب من الغلّة قيمتها أربعون ديناراً وهو دينار واحد ، وكذلك على ما يجب عن مائة قنطار من القطن قيمتها خمسون ديناراً وهو دينار واحد وربع^{١٣٩} . وقد أبدى الرحالة ابن جُبَيْر تدمره من الإجراءات الجمركية بالإسكندرية عندما وصل إليها سنة ١١٨٣/٥٧٨ في طريقه لأداء فريضة الحج ، وذكر أن الموكلين بهذا الأمر طالبوهم بأداء زكاة ما معهم دون أن يبحثوا إذا كان قد حال عليه الحَوْل أو لم يحل ، رغم أن ما يحملونه لم يزد عن كونه زاد لطريقهم ولم يكن لغرض الاتجار^{١٤٠} .

أما الرسوم المفروضة على ما يرد ويصدر مع التجار الذُّمَّين فتعرف « بواجب الذِّمَّة » ، وكانت في وقت ابن مَمَّاتى تُسْتَأدى في أماكن ثلاثة هى : مصر والفُسْطَاط والإسكندرية وأخميم^{١٤١} ، التى يجب أن نضيف إليها عَيْذاب التى ذكرها ابن مَمَّاتى في موضع آخر^{١٤٢} ، وإن كان لم يحدّد لنا قيمة هذه الرسوم .

الْمَتَجَر

كانت الحكومة الفاطمية تحتكر بعض البضائع التى يشرف عليها ديوان يعرف « بِالْمَتَجَر » أو « الْمَتَجَر الديوانى السعيد » . وقبل تولّى الوزير اليازورى الوزارة

١٣٩ الخزومى : المنهاج ٤٢ ، ٤٦ ، ، Rabie , H , op . cit . , pp . 75 - 91 ; Cahen , Cl . , op . cit . , pp . 96 - 97 .

١٤٠ ابن جبیر : الرحلة ١٣ .

١٤١ ابن مَمَّاتى : قوانين ٣٤٩ .

١٤٢ نفسه ٣٢٧ وانظر كذلك ناصر خسرو : سفرنامه ١١٨ .

سنة ٤٤٢/١٠٥٠ كان يُبتاع للسلطان في كل سنة غلة بمائة ألف دينار وتُجعل مَتَجَرًا حتى إذا نقصت الأقوات من الأسواق ، بسبب جَشَع التجار أو بسبب العوامل الطبيعية ، أخرجت الحكومة ما في مخازنها وباعته للناس ، وبذلك تتحكم في أسعار السلع التي لا غنى عنها للناس ، وقد وجد الوزير اليازوري أن المَتَجَر الذي يقام بالغلة فيه مَضَرَّة على المسلمين إذ ربما انحط السعر عن السعر الذي اشترت به فلا يمكن بيعها فتتغير بالمخازن وتتلف . فاقترح في سنة ٤٤٤/١٠٥٢ إقامة مَتَجَر لا كلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة ولا يُخشى عليه من تَغْيُر في المخازن أو انحطاط سعره وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك ، فوافقه الخليفة على رأيه واستمر ذلك النظام^{١٤٣} .

وكانت كل هذه الأصناف عندما ترد على ظهور السفن يبتاعها المَتَجَر الديواني السعيد - وهو الاسم الذي أطلقه عليه المَخْزومي - لحاجة الدولة إليها في صناعة السفن والسلاح ، فقد كانت هذه المواد ذات أهمية خاصة للدولة ، فلم تكن مصر أو الشام تملك موارد متاحة من الحديد أو الأخشاب ، وعلى عكس وضع السوق الحرة فإن هذه البضائع كان يبتاعها المَتَجَر برسم مستقر مقدمًا لحساب المَتَجَر الديواني السعيد من التجار الواردين على الثغور مقابل رسم يعادل ١٠٪ من قيمتها يدفعها التاجر للمَتَجَر^{١٤٤} . يقول ابن مماتي : « فإن زاد ثمن المبتاع من التاجر شيئًا عما يجب عليه من الخمس أُعطي به شئًا بحق الثلث . وأصل ثمن هذا الشئ ورد من جملة ارتفاع المَتَجَر »^{١٤٥} ، فقد احتكرت الحكومة الفاطمية الشئ لتبيعه إلى تجار الروم ، وكان إذا عثر على أحد اشترى منه شيئًا أو باعه ، غير الديوان ، تُكَل به^{١٤٦} . كذلك فقد احتكرت الحكومة الفاطمية ، مثل الحكومات السابقة عليها ، النُّطْرُون^{١٤٧} . ويدل على قيمة

^{١٤٣} المقرئى : إغاثة الأمة ٢٠ ، الخطط ١ : ١٠٩ ، ٤٦٥ ، اتعاط ٢ : ٢٢٥ .

^{١٤٤} المَخْزومي : المنهاج ٩ ، Cahen , Cl . , op . cit . , p , 98 .

^{١٤٥} ابن مماتي : قوانين ٣٢٧ ، المَخْزومي : المنهاج ٤٨ ، ٥٧ .

^{١٤٦} نفسه ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، المقرئى : الخطط ٢ : ١٠٩ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٤٥٥ .

^{١٤٧} نفسه ٣٣٤ - ٣٣٦ ، نفسه ١ : ١٠٩ .

موارد الدولة من الشَّبَّ ما جاء في سجل المُسامَحَة بالبواقى إلى آخر عام ١١١٧/٥١٠ ، والذي أمر بكتابته الوزير المأمون البطائحي في آخر سنة ١١٢١/٥١٥ ، فقد بلغ ما سوح به من الشَّبَّ ما قيمته تسعمائة وثلاثة عشر قنطاراً ونصف^{١٤٨}.

وقد أشار النابلسي إلى أن الديوان كان يتتاع ما يرد في البحر من خشب وحديد ورصاص وغير ذلك ، ثم يبيعه إلى الناس بكسب يسير ، ولكن إذا دعت الحاجة لمهمات الدولة من عمل الشوانى وعمارة الحصون وغير ذلك اشترى الديوان من التجار الذين اشترؤا من الديوان بضعفى الثمن ، وربما كان ذلك في العصر الأيوبي الذى كتب فيه النابلسي كتابه^{١٤٩}.

الموارد غير المنتظمة

المُصَادَرَة

تُعَدُّ مُصَادَرَة أموال وممتلكات كبار رجال الدولة فى أعقاب عزلهم أو التخلص منهم مورداً من موارد الدولة غير المنتظمة . وقد عُرفَت المُصَادَرَات فى مصر قبل العصر الفاطمى ، فقد صادر الإخشيدون الكثير من عُمَاهم وخاصتهم بعد القبض عليهم ، وكان إذا أفلت أحد من المصادرة حياً لم يَسَلَم من أخذ أمواله بعد وفاته ، وكذلك كانوا يفعلون مع التجار المياسير^{١٥٠} . وفى العراق شاعت كذلك ظاهرة مصادرة كبار الموظفين فى القرن التاسع/العاشر وأثرت تأثيراً سلبياً على الملكيات الخاصة ، وأنشئ فى بغداد ديوان خاص لذلك سُمى « ديوان المصادرين » مهمته إدارة الأملاك المُصَادَرَة^{١٥١}.

أما فى مصر الفاطمية فكان أول من صودر هو الوزير يعقوب بن كِلْس ، فعندما صرفه الخليفة العزيز من منصبه فى ثامن شوال سنة ١٨/٣٧٣ مارس

^{١٥٠} ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ١٦٥ ، ١٨٧ .

^{١٥١} الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ٢٥٨ - ٢٥٩ ، متر : الحضارة الإسلامية ١٣٦ .

سنة ٩٨٤ اعتقله وحمل من ماله خمسمائة ألف دينار ، ولكنه لم يلبث أن أفرج عنه وأعادته إلى منصبه في العالم التالي ^{١٥٢}. وفي الفترة التي انقلب فيها الخليفة الحاكم بأمر الله على معاونيه وتخلص من أغلبهم بالقتل ، نجده يصادر عددًا منهم مثل الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن النعمان سنة ١٠١٠/٤٠٠ . واضطر الحاكم أمام كثرة المصادرات إلى إحداث ديوان جديد سماه « الديوان المفرد » برسم من يُقبض ماله من المقتولين وغيرهم ^{١٥٣}.

ولم يكتف الخلفاء فقط بالمصادرة بل شاركهم في ذلك أيضًا الوزراء ، فيذكر كل من ابن الصيرفي وابن ميسر أن الوزير أبا البركات الحسين بن محمد الجرجاني (٤٣٩ - ٤٤١/١٠٤٧ - ١٠٤٩) « كثر في أيامه القبض والمصادرات واصطفاء الأموال والنفي » ^{١٥٤}.

وعندما حاصر الوزير القوي أمير الجيوش بدر الجمالي ولده الأوحّد في الإسكندرية وتمكّن من أسره في أوائل عام ١٠٨٤/٤٧٧ أعاد بناء جامعها المعروف بجامع العطارين من مال المصادرات ومن أموال أخذها من الإسكندرانيين ^{١٥٥}. أما في عصر ولده وخليفته الأفضل شاهنشاه فيذكر ابن ميسر أنه « لم يُعرف أحدٌ صودر في زمانه ولا قُسط » ^{١٥٦}. ولكن بعد أن تخلص الخليفة الأمر بأحكام الله من وزيره المأمون البطائحي واستعان بالراهب المعروف بأبي نجاح بن قنا كثرت المصادرات على يديه ، وبذل في مصادرة قوم من النصاري مائة ألف دينار ، ولم يسلم منه جميع رؤساء الديار المصرية

^{١٤٨} ابن المأمون : أخبار ٢٩ ، المقرئ : الخطط ١ : ٨٣ .

^{١٤٩} النابلسي : لمع القوانين المضية ٤٥ - ٤٦ .

^{١٥٢} التويري : نهاية - خ ٢٦ : ٤٨ .

^{١٥٣} المقرئ : اتعاظ ٢ : ٨١ ، ٨٢ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٤٥٣ .

^{١٥٤} ابن الصيرفي : الإشارة ٧٢ ، ابن ميسر : أخبار ١٠ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ٢٠٨ .

^{١٥٥} ابن طاهر : أخبار ٧٧ ، ابن ميسر : أخبار ٤٦ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ٣٢١ .

^{١٥٦} ابن ميسر : أخبار ٨٣ .

وقضاتها وكتابها وغيرهم^{١٥٧}، وبلغ به الأمر أنه صادر رجلاً جملاً فأخذ له عشرين ديناراً ثمن جمل ابتاعه لم يكن يملك سواه^{١٥٨}. وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص ويستدعى الناس للمصادرة حتى قُتل بأمر الخليفة الأمر سنة ١١٢٩/٥٢٣. فلما قام أبو علي الأفضل كُتِّفَت بانقلابه في أعقاب وفاة الخليفة الأمر « أعاد على الناس ما أخذ من أموالهم »^{١٥٩}.

ويشير ابن ظافر إلى أن الوزير طلائع بن رزّيك وقت وزارته « احتكر الغلات إلى أن غَلَّت أسعارها ... وكان أشدَّ الناس تطلّعاً إلى ما في أيدي الناس من أموالهم وصادر أقواماً لم يكن بينهم وبينه معاملة ولا سبب يوجب التّعريض »^{١٦٠}.

ويبدو أن الدولة الفاطمية قد استعاضت عن « الديوان المُفرد » الذي أنشأه الخليفة الحاكم في أواخر القرن الرابع « بالديوان المُرتَجع » وهو ديوان نشأ في عصر الخليفة الحافظ بعد عزل الوزير بهرام لارتجاع ما أخذ منه ومن غيره من الضياع^{١٦١}.

الموارث الحشرية

وهي مال من يموت وليس له وارث خاص بقراءة أو نكاح أو ولاء ، أو الباقي من القرض من مال من يموت وله وارث أو قرض لا يستغرقه جميع المال ولا عاصب له^{١٦٢}.

^{١٥٧} ابن ظافر : أخبار ٨٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٨ ، النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٨٦ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٢٥ .

^{١٥٨} نفسه ٨٩ .

^{١٥٩} ابن ميسر : أخبار ١١٧ .

^{١٦٠} ابن ظافر : أخبار ١١١ ، وقارن النويري : نهاية - خ ٢٦ : ٩٧ ، المقرئ اتعاظ ٣ : ٢٤٤ .

^{١٦١} القلقشندي : صبح ١٠ : ٣٥٧ ، وراجع حول المصادرة - Rabie , H., op . cit . , pp . 127 . 122 .

^{١٦٢} القلقشندي : صبح ٣ : ٤٦٠ وانظر ابن ماضي : قوانين ٣١٩ - ٣٢٥ ، النابلسي : لمع القوانين المضية ٥٤ .

وكان القائد جوهر قد وعد المصريين في « الأمان » الذي منحه لهم وقت الفتح : أن يجريهم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ويضع ما كان يؤخذ من تركات موتاهم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها ، لأنه لا استحقاق لتصييرها لبيت المال^{١٦٣} . وما جاء في أمان جوهر يدل على أن نظام الميراث في مصر قبل مجيء الفاطميين كان يسير وفق ما يأخذ به المذهب السني في الميراث الذي يرى أن من مات ولم يكن له من يرثه من عَصَبَة وذى سَهْم ذهب إرثه إلى بيت المال ، كما أنه إذا بقي شيء من الإرث ، بعد إعطاء كل ذي سَهْم من الورثة سَهْمه ، فإنه يذهب إلى بيت المال^{١٦٤} . كذلك فإن ما جاء في أمان جوهر يدل على أنه كانت تؤخذ من تركة المتوفى ما يُطْلَق عليه « ضريبة الإرث » وهي ضريبة غير مشروعة^{١٦٥} .

أما المذهب الشيعي (سواء الإسماعيلي أو الإمامي أو الزيدي) فيرى توريث ذوى الأرحام وأن البنت إذا انفردت تأخذ الإرث جميعه بلا عصبية ولا بيت مال^{١٦٦} ، بينما يقضى مذهب السنة أن لا ترث البنت أكثر من نصف الثروة التي يتركها أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت .

وقد أورد لنا ابن زولاق خلافاً في تنفيذ قوانين الميراث بين السنة والشيعية حدث وقت المُعِزِّ حول قضية حَمَّام ادَّعى رجل يدعى ابن بنت كيجور أنه من إنشاء جده لأمه وأخذ توقيعا من المُعِزِّ بأن ينظر في أمره القاضي الإسماعيلي عبد الله بن أبي ثوبان فأقام البينة على أن جده المذكور هو الذي بنى الحمام وأنه توفي وانحصر إرثه في بنته - والدته المدعى - وكان المُعِزِّ يطلب إلى قضاته أن

^{١٦٣} المقرئى : المقفى ٣٣٤ ، الاتعاظ ١ : ١٠٥ ، ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد ٥١ .

^{١٦٤} الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ١٩٠ .

^{١٦٥} نفسه ١٩١ ، متر : الحضارة الإسلامية ١٩٥ .

^{١٦٦} القاضي النعمان : المجالس والمسائرات ٩٧ ، دعائم الإسلام ٢ : ٣٧٩ - ٣٨٠ ، ابن حجر : رفع الإصرار : ٢٩٦ ، المقرئى : الخطط ١ : ١١١ ، اتعاظ ٣ : ٨٩ ، Fyzec , A . A . A . .

“ The Fatimid Law of Inheritance ” , SI IX (1958) , pp . 61 - 69 .

يورثوا البنت جميع الميراث إذا لم يكن معها أخ أو أخت . غير أن القاضي السني أبا الطاهر الذهلي اعترض على ذلك لأنه كان قد سبق وحكم في هذه القضية بأن محمد بن علي الماذرائي قد حبس هذا الحمام بعد وفاة صاحبه وأنه لا حق له فيه ^{١٦٧}.

ولكن بعد وفاة القاضي أبي الطاهر الذهلي أصبح قضاة الفاطميين جميعهم من الإسماعيليين يحكمون وفق المذهب الإسماعيلي . ويبدو من نص للمقریزی أن الدولة الفاطمية كانت تُلزم رعاياها باتباع الفقه الشيعي في الميراث إلى أن استجد أمير الجيوش بدر الجمالي وقت وزارته نظامًا جديدًا هو « أن كل من مات يُعمل في ميراثه على حُكم مذهبه » ^{١٦٨}، وقد أدى ذلك إلى أن تؤول كثير من أموال الموارث إلى ديوان الموارث الحشرية ، ولكن عندما تولى الأفضل شاهنشاه الوزارة أفرد مال الموارث ، كما يذكر ابن ميسر ، ومنع من أخذ شيء من التركات وأمر بحفظها بمودع الحكم حتى إذا حضر من يطلبها موطالعه القاضي بثبوت استحقاقها أطلقها في الحال ، وكان القاضي قد أراد رفعها إلى بيت المال بعد أن بلغ ما اجتمع منها في مودع الحكم مائة ألف وثلاثون ألف دينار ^{١٦٩}.

وفي أيام الوزير المأمون البطائحي أراد الفقيه المالكي أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي مناقشة أمور الموارث وما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وهو رُبُع العُشر ، وتوريث البنت نصف المال حيث كان الفاطميون يورثونها جميع المال مع وجود ذوى العصية . وكان رأى الوزير المأمون أنه لا يقول بذلك وأنه من ابتكار الوزير بدر الجمالي ، وانتهت المناقشة بين الفقيه والوزير إلى إصدار منشور كتب في ٢٨ ذى القعدة سنة ٥١٦/٢٧ يناير سنة ١١٢٣

^{١٦٧} ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ١ : ٢٩٦ - ٢٩٨ ، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ٣١٥ .

^{١٦٨} المقریزی : اتعاظ ٣ : ٨٩ .

^{١٦٩} ابن ميسر : أخبار ٨٣ - ٨٤ ، المقریزی : اتعاظ ٣ : ٧٢ .

بأن « يَخْلَصَ لِحُرْمِ ذِي التَّشْيِيعِ الْوَارِثَاتِ جَمِيعَ مَوْرُوْثِهِمْ »^{١٧٠} ... وَيُحْمَلُ مِنْ سِوَاهُنَّ عَلَى مَذْهَبِ مَخْلَفِيَّيْنِ ، وَيُشْرِكُهُنَّ بَيْتُ الْمَالِ فِي مَوْجُودِهِمْ ، وَيَحْمَلُ إِلَيْهِ جُزْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي أَحْلَاهَا اللَّهُ لَهُنَّ بَعْدَهُمْ ... أَمَّا مَنْ تَوَفَّى حَشْرِيًّا وَلَا وَارِثَ لَهُ حَاضِرٌ أَوْ غَائِبٌ ، فَإِنْ مِيرَاثُهُ يُوَوَّلُ بِأَجْمَعِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَيْهِ مَالٌ يَسْتَحِقُّ لِأَحَدٍ الْجِهَاتِ الْحُكُومِيَّةِ أَوْ دَيْنٌ يُوْدِي إِلَى مَسْتَحْقِيهِ ... وَإِذَا تَوَفَّى شَخْصٌ وَلَهُ وَارِثٌ غَائِبٌ فَيَتَحَفَّظُ الْحُكَّامُ وَالْمُسْتَخْدَمُونَ عَلَى تَرْكَةِ احتياطًا حُكْمِيًّا ، فَإِذَا حَضَرَ وَاتَّبَتِ اسْتِحْقَاقُهُ ذَلِكَ فِي مَجْلَسِ الْحُكْمِ عَلَى الْأَوْضَاعِ الشَّرْعِيَّةِ طَوَّلَ بِذَلِكَ لِيُخْرَجَ الْأَمْرُ بِتَسْلِيمِهِ إِلَيْهِ وَالْإِنْتِهَاءُ بِقَبْضِهِ عَلَيْهِ ،^{١٧١}

وَجَاءَ فِي هَذَا الْمَنْشُورِ كَذَلِكَ الْأَمْرُ بِتَعْوِيزِ أَمْنَاءِ الْحُكْمِ عَمَّا يَتَقَاضُونَهُ مِنْ رُبْعِ الْعُشْرِ مِنْ ثَمَنِ مَا يَبِيعُونَهُ مِنَ التَّرَكَاتِ بِمَا يُوْدِي إِلَى نَقْصِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ، وَذَلِكَ بِتَقْرِيرِ جَارٍ لَهُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ مَالِ الدِّيَّوَانِ عَلَى الْمَوَارِثِ الْحَشْرِيَّةِ^{١٧٢}.

أَمَّا إِذَا تَوَفَّى ذِمِّيٌّ وَلَمْ يَخْلَفْ وَارِثًا فَتَرَدَّ تَرْكُهُ عَلَى أَهْلِ مِلَّتِهِ لَا عَلَى بَيْتِ الْمَالِ ، وَذَلِكَ عَمَلًا بِمَا رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَرِثُ الْكَافِرَ ، وَأَنَّ الْكَافِرَ لَا يَرِثُ الْمُسْلِمَ ، وَأَنَّهُ لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ^{١٧٣}.

وَقَدْ حَفِظَ لَنَا الْقَلْقَشَنْدِيُّ نَسْخَةً مَنَشُورَ تَقْلَمَ بِكَتَبِهِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ الْأَفْضَلِ (رَبْمَا رِضْوَانُ بَنِ وَلَجَشِي) إِلَى الْقَاضِي الرَّشِيدِ سَدِيدِ الدَّوْلَةِ أَبِي الْفَتْوحِ مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاضِي السَّعِيدِ عَيْنِ الدَّوْلَةِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي عَقِيلٍ يَقْرَهُ فِيهِ عَلَى

^{١٧٠} تبعاً لما جاء في سورة الأنفال الآية ٧٥ .

^{١٧١} المقرئى : اتعاط ٣ : ٩٠ - ٩١ ، المقفى (خ . ليدن) ٣ : ١٩٥ و - ١٩٧ ظ ، حسن

إبراهيم حسن : المرجع السابق ٣١٦ - ٣١٧ .

^{١٧٢} نفسه ٣ : ٨٩ ، ٩١ ، نفسه ٣ : ١٩٥ و ، ١٩٧ ظ .

^{١٧٣} متر ، ١ : الحضارة الإسلامية ١٩٥ .

ما هو متوليه من الخدمة في مشاركة الموارث الحشرية وتقرير الفروض الحكمية^{١٧٤}.

وكان يشرف على الموارث الحشرية ، باعتبارها موردًا من موارد الدولة الفاطمية غير المنتظمة ، ديوانٌ يعرف بـ « ديوان الموارث » أو « ديوان الموارث الحشرية » ، وكان يُضَمُّ أحيانًا كما يُفهم من نصِّ لابن الطَّوِير إلى « ديوان الجوالى »^{١٧٥}.

ويبدو أن الحشَّرين كانوا يضيِّقون بقوانين هذا الديوان ، فكانوا يتنازلون في حياتهم عما يمتلكون من عقار ثابت أو أموال منقولة بمختلف الطرق الشرعية ، نظرًا لأن الديوان - كما يذكر النابلسي - كان يُهمل أموال الحشَّرين التي لهم لدى أفراد متفرقين في أقاليم الديار المصرية بحجة استحالة تحصيلها وبذلك لا تؤول هذه الأموال إلى الديوان ولا تصرف في الوجوه المقررة لها^{١٧٦}. وتوضَّح لنا حُجَّة تملك ووقف ترجع إلى العصر الأيوبي مؤرخة سنة ١٢٥١/٦٤٩ ، كيفية تصرف الحشَّرين في العقارات الخاصة بالوقف حتى لا تؤول إلى ديوان الموارث الحشرية^{١٧٧}. ولا شك أن الناس قد لجأوا أيضًا إلى هذه الحيلة في العصر الفاطمي .

الأخباس

ظَلَّت الأوقاف (الأخباس) في مصر منذ الفتح الإسلامي في أيدي مستحقيها أو تُظَارر الوقف حَسَب شروط الواقف دون أى تَدْخُل أو إشراف

^{١٧٤} القلقشندي : صبح ١٠ : ٤٦٦ .

^{١٧٥} ابن الطوير : نزهة المقلتين ٩٢ ، ابن القرات : تاريخ ١/٤ : ١٤٩ ، القلقشندي : صبح ٣ :

٤٩٢ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٤٢ وقارن Rabie , H . , op . cit . , p . 127 .

^{١٧٦} النابلسي : لمع القوانين المضية ٥٤ ، والهامش التالي .

^{١٧٧} حسنين محمد ربيع : « حجة تملك ووقف » ، المجلة التاريخية المصرية ١٢ (١٩٦٤) -

(١٩٦٥) ، ١٩٢ ، ١٩٦ .

من الدولة ، حتى ولي قضاء مصر القاضي الأموي توبة بن نمر في مستهل صفر سنة ١٩/١١٥ مارس سنة ٧٣٣ فخاف عليها من الهلاك والتوارث ، ولما كان مآل الأقباس إلى الفقراء والمساكين ، فقد وجد أنه من الأفضل أن يضع يده عليها فأفرد لها ديواناً سُمي « ديوان الأقباس » كان يتولّى الإشراف عليه القاضي^{١٧٨} . ويعتبر هذا الديوان أول تنظيم للأوقاف ليس في مصر فحسب بل في كافة الدولة الإسلامية^{١٧٩} .

وظل القضاة يتولون النظر في الأوقاف بحفظ أصولها واستثمارها وقبض ريعها وصرفه في الأوجه التي أرصدت لها . ومنذ النصف الأول للقرن الرابع/العاشر كان يُعيّن في بعض الأحيان متولى للأقباس ونفقة الأيتام بالإضافة إلى القاضي^{١٨٠} . وكانت الأقباس في أول الأمر في الرباع وما يجري مجراها من المباني ، أما الأراضي فلم يكن سلف الأمة من الصحابة والتابعين يتعرضون لها^{١٨١} . أما أول من حبس الأراضي والبساتين في مصر فأبو بكر محمد بن علي الماذرائي الذي حبس نحو سنة ٩٣٠/٣١٨ ، بركة الحبش وأسيوط على الحرمين وعلى جهات برّ مختلفة^{١٨٢} . يقول المقرئى : « فلما قدمت الدولة الفاطمية من المغرب إلى مصر بطل تحبّيس البلاد وصار قاضي القضاة يتولّى أمر الأقباس من الرباع ، وإليه أمر الجوامع والمشاهد ، وصار للأقباس ديوان مفرد »^{١٨٣} ، كذلك فقد أدخل الفاطميون الكثير من التنظيمات الخاصة بالوقف . فقد أمر الخليفة المعزّ لدين الله في ربيع الآخر سنة ٩٧٤/٣٦٣ أن تُحوّل المحصّلات المالية المجبة من الممتلكات الموقوفة من مودع الحكم إلى بيت المال ، وطالب

١٧٨ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٦١ .

١٧٩ محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ١٢٥٠/٩٢٣ - ١٥١٧ -

دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ١٩٨٠ ، ٤٨ .

١٨٠ نفسه ٤٨ - ٤٩ ، ٥١ .

١٨١ المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩٤ .

١٨٢ نفسه ٢ : ٢٩٥ .

١٨٣ نفسه ٢ : ٢٩٥ .

المنتفعين بأن يظهروا الوثائق التى تدل على أحقيتهم فى ريع هذه الأوقاف^{١٨٤}.
ويُعَدُّ محمد بن القاضى أبى الطاهر محمد الذُهلى أول من ضَمَنَ جباية أموال
الأخباس فى الدولة الفاطمية ، ففى النصف من شعبان من سنة ٩٧٤/٣٦٣
ضَمَنَ الأخباس بألف ألف وخمسمائة ألف درهم فى كل سنة ، على أن يدفع إلى
المستحقين حقوقهم ويحمل الباقي إلى بيت المال^{١٨٥}.

وهكذا أصبح لبيت المال منذ أيام الفاطميين نصيبٌ من متحصلات
الأخباس ، التى صارت تمثل أحد موارد الدولة المالية^{١٨٦}. وحتى يضمن
الفاطيون موردًا ثابتًا يُنفقون منه على تعمیر المساجد وفرشها والصرف على
قَوَمَتها وتُحْدِثها ، أوقفوا الكثير من الأراضى الزراعية وغيرها من المواضع .
فيذكر المُسَبِّحى أن الخليفة الحاكم بأمر الله أمر فى سنة ١٠١٢/٤٠٣ بإثبات
المساجد التى لا غَلَّةَ لها ولا أحد يقوم بها أو التى لها غَلَّةٌ لا تقوم باحتياجاتها
فأُثِّبَتْ فى سِجَلٍ رُفِعَ إليه ، وبلغت عدتها ثمانمائة وثلاثين مسجدًا قُتِرَ لها نفقة
شهرية قيمها ٩٢٢٠ درهمًا بواقع اثنى عشر درهمًا لكل مسجد^{١٨٧}. وبناء
عليه أمر الحاكم فى يوم الجمعة ١٨ صفر سنة ١٩/٤٠٥ أغسطس سنة ١٠١٤
بقراءة سجل بتحيس ضياع هى : إطفيح وصول وطوخ وست ضياع آخر
وعدة قياسر وغيرها على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع ، وعلى المصانع
والقوام بها ونفقة المارستانات وأرزاق المستخدمين فيها وثمان الأثفان لفقراء
المسلمين^{١٨٨}. ويذكر الشريف محمد بن أسعد الجَوَّانى أن القضاة بمصر كانوا
إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يومًا على المساجد والمَشَاهِد بمصر
والقاهرة ، يبدؤون بجامع المقس ثم جوامع القاهرة ثم المَشَاهِد ثم القرافة ثم
جامع عمرو بالفسطاط ثم مشهد الرأس لتظر حصر ذلك وقناديله وما تَشَعَّتْ

١٨٤ نفسه ٢ : ٢٩٥ ، المقرئى : اتعاظ ١ : ١٤٨ ، محمد محمد أمين : المرجع السابق ٥٢ .

١٨٥ نفسه ٢ : ٢٩٥ ، محمد محمد أمين : المرجع السابق ٥٢ ، انظر أعلاه ص .

١٨٦ محمد محمد أمين : المرجع السابق ٥٢ .

١٨٧ المسبِّحى : نصوص ضائعة ٣١ ، المقرئى : الخطوط ٢ : ٢٩٥ ، ٤٠٩ ، اتعاظ ٢ : ٩٦ .

١٨٨ نفسه ٣٢ : نفسه ٢ : ٢٩٥ ، ٤٠٩ .

منها وما يحتاج إلى عمارة منها وظل الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية^{١٨٩}.

وكان أمير الجيوش بدر الجمالي قد حبس على عقبه وقت وزارته عددًا من النواحي عرفت « بالحبس الجيوشي » ، بعضها في البر الشرقى وهي بَهيت والأميرية والمنية ، وبعضها في البر الغربى جهة الجيزة هي : سَقَط ونَها ووسيم . وظلَّت جميع البساتين المختصة بهذا الحبس بأيدي ورثة أمير الجيوش حتى وزارة المأمون البطائحي ، فلما توفى الخليفة الأمر واستولى أبو على الأفضل كُتِفَت حفيد بدر الجمالي على السلطة أعاد جميع الحبس إلى المُلَّاك لكون نصيبه في ذلك الأوفر ، فلما قُتِل كُتِفَت وأعيد الخليفة الحافظ أمر بالقبض على جميع الأملاك وحلَّ الأخباس المختصة بأمر الجيوش لولا تدخل غلمان الأفضل عز الملك ويانى - الذى أصبح وزير الحافظ - وأقنعا الحافظ بإبقائها . ولما انقضى عقب أمير الجيوش ولم يبق منه سوى امرأة أفتى الفقهاء بأن الحبس باطل فصار ماله يُخَمَل إلى بيت المال لِيُتَفَقَ في مصالح المسلمين^{١٩٠}.

ولعل أقدم حُجَّة وَقَف وصلت إلينا من مصر وتعد الوحيدة التى ترجع إلى العصر الفاطمى ، هي حُجَّة وَقَف الوزير الملك الصالح طلائع بن رُزَيْك الذى أَوْقَف في مستهل جمادى الأولى سنة ٥٥٤/٢١ إبريل سنة ١١٥٩ بعض الرُّباع ونصف بركة الحبش^{١٩١} وناحية بَلَقَس الأشراف^{١٩٢} على أن يكون النصف

^{١٨٩} المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩٥ .

^{١٩٠} ابن المأمون : أخبار ١٠٥ ، ابن عمات : قوانين ٣٣٦ - ٣٣٩ ، المقرئى : الخطط ١ : ١١٠ ، ٢ : ١٢٩ ، ٤٨٧ .

^{١٩١} بركة الحبش . حوض من الأراضي الزراعية التى يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنويًا ، كانت تقع جنوب مدينة القسطنطاط بين النيل وجبل المقطم وكان الماء يصل إليها بواسطة خليج بنى وائل الذى كان يستمد مائه من النيل جنوب القسطنطاط ، فكانت الأرض وقت أن يغمرها الماء تشبه البرك ولهذا سميت بركة . ونظرًا لأن الصالح طلائع أوقفها على الأشراف فقد عرفت أحيانًا في المصادر باسم « بركة الأشراف » . (المقرئى : الخطط ٢ : ١٥٢ ، ابن دقماق : الانتصار ، القاهرة ١٨٩٤ ، ٤ : ٥٥ - ٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزهراء ٦ : ٣٨٢ من تعليقات المرحوم محمد رمزي) .

^{١٩٢} بَلَقَس الأشراف . قرية قديمة ذكرها ابن عمات ضمن أعمال الشرقية (قوانين الدواوين =

والثمن منها ، أى خمسة عشر من أربعة وعشرين سهماً على الأشراف الحسينيين والحسينيين المقيمين بالقاهرة المعزية ومصر خاصة ، والثالث ، أى ثمانية أسهم من أربعة وعشرين سهماً ، على الأشراف الحسينيين والحسينيين القاطنين بمدينة رسول الله وفي بوادى الفرع القريب منها ، ويُمْنَع السَّهْم الباقي للشرىف ابن معصوم على أن يكون له أمد حياته ثم من بعده لولده وولد ولده ، وإن انقرضوا رجعت منافع هذا السهم إلى الأشراف الأقارب والمقيمين بالمدينة^{١٩٣}.

كان يتولى الإشراف على الأخباس فى العصر الفاطمى ديوانٌ يعرف بـ « ديوان الأخباس » ، يقول ابن الطوير : هو أوفر الدواوين مباشرة ، ولا يخدم فيه إلا أعيان كُتَّاب المسلمين من الشهود المعتلين - بحكم أنها معاملة دينية - وفيه علة مديرين ينوبون عن أرباب هذه الخِلم فى إيجاب أرزاقهم من ديوان الرواتب بعد حضور ورقة من جهة مشارف الجوامع والمساجد تفيد استمرار خدمة صاحبها طوال الشهر ، ومن تأخر تعريفه تأخر صرف راتبه وإن تمادى ذلك استبدل به آخر أو توفر ما بإسمه لمصلحة أخرى ، أما المشاهد فإنها لا توفر ولكنها تنتقل من مُقَصَّر إلى ملازم . وكان يطلق لكل مشهد خمسون درهماً فى الشهر لتزويدها بالماء لزوارها والمترددین عليها .

= (١١٠ س ٢) وذكرها ابن الجيعان ضمن أعمال القليوبية (التحفة السنية ٦ س ٢١) وهى الآن من بين قرى محافظة القليوبية شمال بهنيم وهى تابعة لمركز قليوب وكانت قبلاً من قرى مركز شبرا الخيمة . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القاهرة ١٩٤٥ ، ق ٢ ج (ص ٥٥) .

^{١٩٣} ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٤ - ١١٥ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٤٥ - ١٤٦ ، ابن دقماق : الإلتصار ٥ : ٤٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨١ - ٤٨٢ ، المقرئى : الخطوط ٢ : ٢٩٤ ، Cahen , Cl. , Ragib , Y. et Taher , M. A. , "L'achat et le wakf d'un , grand domaine égyptien par le vizir fatimide Tala'i b. Ruzzik " , An. Isl. XIV (1978), pp. 113 - 115 .

وكان بالديوان كاتبان ومعيان لتنظيم الاستمارات ويورد كل منهم في استيماره كل ما ورد في الرقاع والرواتب وماجبي له من جهات الوجهين القبلي والبحري^{١٩٤}.

مُتَحَصِّلُ دار الضَّرْب ودار العِيار

كانت الدولة تُحَصِّلُ مقابل تحرير ما يتعامل به الناس من الذهب والفضة رسماً مقابل هذا العمل منعاً للتلاعب في قيمته إذا خرج عن إشراف الدولة . ويعتبر هذا الرسم أجرة دار الضرب عما يُحضِّره المورِّدون وغيرهم من التجار من الذهب على اختلاف أصنافه وهو ثلاثة وثلاثون ديناراً وثلاث عن كل ألف دينار تستثنى منه أجرة الضرايين وهو ثلاثة دنائير ونصف عن كل ألف دينار ، وأجرة مشارف العيار وهي دينار واحد وثلاثان عن كل ألف دينار^{١٩٥}.

أما الفضة فكان يُحَصِّلُ على تحرير عيارها رسماً قدره نصف دينار (حوالي عشرين درهماً) عن كل ألف درهم خالصاً من أجرة الضرايين وحق متولى العيار وسائر المؤن لأنها تلزم مالكيها دون الديوان^{١٩٦}، وهو ما أطلق عليه ابن بكرة « رسم واجب السكة وأجرة الضرايين »^{١٩٧}.

ودار العيار هي الدار التي تتولَّى ضبط الموازين والمكاييل والصنَّج ، وإيرادات هذه الدار عبارة عن أثمان ما يباع من هذه الموازين ، وكذلك مصاريف إصلاحها وتحجيرها لمن يريد^{١٩٨}. وكان المُحتَسَب هو المنوط به التأكد من ذلك ، ففي ذى

^{١٩٤} ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠٠ - ١٠١ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٤٩ - ١٥٠ ،

المقرئى : الخطوط ٢ : ٢٩٥ ، القلقشنلى : صبح ٣ : ٤٩٠ .

^{١٩٥} الخزومى : المنهاج ٣١ ، وقارن نفسه آخر الصفحة وابن مماتى : قوانين ٣٣٢ ، النابلسى : لمع القوانين المضية ٥٢ بالنسبة للعصر الأيوبرى .

^{١٩٦} نفسه ٣١ ، ابن مماتى : قوانين ٣٣٣ والقيمة التي ذكرها هي أربعة عشر درهماً ونصف عن كل ألف درهم يخصم منها درهماً وربع برسم المشاركة .

^{١٩٧} ابن بكرة : كشف الأسرار العلمية ٦١ .

^{١٩٨} ابن مماتى : قوانين ٣٣٣ - ٣٣٤ ، Rabie , H . , op . cit . , p . 116 .

القعدة سنة ٤١٥/يناير ١٠٢٤ ضرب المُختسب جماعة من الخبّازين ضرباً وجيعاً لأنه وجد موازين أراطهم باخسة وصنّجهم التي يزنون بها الدراهم زائدة^{١٩٩}. وفي شهر ذى الحجة من نفس العام/فبراير ١٠٢٤ ضرب المُختسب رجلاً يبيع الحلواء في حانوت على باب زقاق القناديل بالفُسْطاط وطاف به على جمل لأنه وجد أراطاله ينقص كل رطل منها أوقيتين ، وكل صنجة يزن بها الدراهم تزيد ثمن درهم^{٢٠٠}.

وفيدنا هذا النص في أن التعامل بالدراهم في العقود الأولى للقرن الخامس/الحادى عشر كان يتم بالوزن وليس بالعدد .

^{١٩٩} المسبحى : أخبار مصر ٧٣ .

^{٢٠٠} نفسه ٧٨ .

الفصل الثالث عشر الحياة الاجتماعية

في كتابه « إغاثة الأمة » قَسَمَ المقرئى طبقات الناس في مصر سبعة أقسام ، ورغم أن المقرئى كتب ذلك في سنة ١٤٠٦/٨٠٨ (تاريخ تأليفه للكتاب) إلا أنه يصدق في العموم على سكان مصر في العصور الوسطى . وهذه الأقسام هي : « أهل الدولة ، وأهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، والباعة - وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب البز - ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق ، وأهل الفلح - وهم أهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف ، والفقراء - وهم جل الفقهاء وطلّاب العلم ، وأرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن ، ثم ذور الحاجة والمسكنة وهم السّؤال الذين يتكفّفون الناس ويعيشون منهم »^١ .

بناء المجتمع

وعندما وصل الفاطميون إلى مصر كان السكان المصريون أو المواطنون الأصليون من القبط ومن أهل السنة . وقد صحب الفاطميين عناصر متعددة استعانوا بهم في توطيد سيطرتهم ومدّ نفوذهم ، كان أسبقهم العنصر المغرى متمثلاً في الكتّامين والزّويليين والصنّهاجيين والباطليين والبرّقيين بالإضافة إلى عنصرى الروم والصنّقالبة ، وهؤلاء هم الذين قدموا مع جيش جوهر ثم مع الخليفة المعزّ إلى مصر . وقد أقاموا جميعهم بوجه خاص في المدينة المُحصّنة « القاهرة » واقتسموا حاراتها المختلفة . فقد كانت القاهرة عند إنشائها مدينة

^١ المقرئى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ٧٢ - ٧٣ .

خاصة يسكنها « الخليفة وحرمة وجنده وخواصه » ولا يُسَمَح بدخولها لأفراد الشعب الذين كانوا يقيمون في مصر الفُسْطَاط - مركز النشاط الاقتصادي والتجاري والصناعي للبلاد - إلا بإذن خاص وبغرض خدمة أهل الحصن الفاطمي^٢.

وقد انضاف إلى هذه العناصر الأجنبية ، التي سكنت الحصن الفاطمي ، طوال القرن الفاطمي الأول عنصرى الأتراك والدَّيْلَم اللذين اصطنعهما الخليفة العزيز بالله ، وكذلك العنصر الأسود الذى استكثرت منه والددة الخليفة المستنصر .

وفي أعقاب الشدة العظمى في عصر المستنصر وقدم بدر الجمالى وتوليّه السلطة في مصر أباح لمن وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء في القاهرة - وذلك بعد خراب القسم الشمالى من الفُسْطَاط في أثناء الأزمة - ولكنه قصر ذلك على العسكرية والملّحية والأرمن ، وهم العنصر الجديد الذى أصبح يكوّن أغلب سكان القاهرة وضواحيها في العقود الأولى للقرن السادس/الثانى عشر . وكان الغالب على هذه العناصر الطابع العسكرى وكانوا يكوّنون فرق الجيش الفاطمي المختلفة .

أما الفُسْطَاط فقد كانت قبل العصر الفاطمي وطوال العصر الفاطمي ، المركز الاقتصادي النشط لمصر ، فكان يقطنها « التجار والباعة وأصحاب المعاش » ، وقد وصف ناصر خسرو في سنة ١٠٤٨/٤٤٠ أسواق الفُسْطَاط وما بها من عمال مهرة وتجار بين « بقالين وعطّارين وبائعى خردوات »^٣ . كما أن أوراق الجنيزة التى لا تقبل الشك تقدم لنا وصفاً غنياً عن نشاط الطبقة البرجوازية في الفُسْطَاط .

^٢ راجع مقال : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها في زمن الفاطميين » ، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ١ - ١٣ .

^٣ ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٥ .

وكانت الفُسطاط كذلك هي والإسكندرية مركز المقاومة السنية في مصر ، ويقدم لنا ناصر خسرو أيضًا وصفًا للحركة العلمية التي كان يقودها العلماء أو طبقة أرباب العمائم في جامع الفُسطاط فذكر أنه يقيم به المدرسون والمقرئون وأنه مكان اجتماع سكان المدينة وأنه لا يقل من فيه في أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب^٤.

ونظرًا لأننا لا نملك كتابًا في طبقات العلماء وتراجمهم شاملًا قبل كتاب « وفيات الأعيان » لابن خُلُكان فإننا لا نستطيع أن نقدم تصورًا واضحًا لدور طبقة العلماء كذلك الذى يمكن أن تقدمه في العصر المماليكى اعتمادًا على مؤلفات مثل « الدرر الكامنة » أو « الضئ اللامع » للسخاوى^٥.

ومن بين أرباب العمائم الذين قاموا بدور هام في هذه الفترة دعاة الإسماعيلية الذين استقروا في القاهرة - أكبر مركز شيعى في العالم الإسلامى في هذا الوقت - بجوار الجامع الأزهر ودار العلم والمُحوّل بالقصر ، بالإضافة إلى تقبائهم الذين انتشروا في أقاليم مصر لجمع الفِطْرة والتَّجوى من أتباع المذهب^٦.

أما معلوماتنا عن الفلاحين والزَّراع في هذه الفترة ونشاطهم الاجتماعى فمحدودة للغاية ، ويذكر المقرئى أن المزارع المقيم على الأرض الزراعية التى يَتَقَبَّلُها الوجوه والأمراء والأجناد ، يسمى « فلاحًا قَرَارًا » وأنه يصير عبدًا قنًا لمن أقطع تلك الناحية هو ومن وُلِد له كذلك لا يرجو أن يباع ولا أن يُعْتَق^٧.

وإلى جانب أهل السُنَّة والإسماعيلية وبعض الإمامية ، فإن الأقباط واليهود كانوا يمثلون عنصرًا هامًا في مصر . وقد استفادوا من روح التسامح التى سادت

^٤ نفسه ١٠٢ .

^٥ انظر مثلاً دراسة بترى ، Petry , C . , The Civilian elite of Cairo in the later middle ages ,

. Princeton 1971

^٦ انظر أعلاه ص ٣٤١ .

^٧ المقرئى : الخطط ١ : ٨٥ .

في العصر الفاطمي ، كما استغل الفاطميون مهارة الأقباط في الصنّاعة والشئون المالية وأسندوا إليهم العديد من المناصب الهامة ، وكذلك فعلوا مع اليهود^٨. ولا شك في أن موقف الفاطميين المحايي للأقباط نابع من عدم ثقتهم برعاياهم المسلمين السنيين .

وأدى تزايد ظاهرة تولّي الأقباط والنصارى من الأرمين للعديد من المناصب الهامة في العقود الأولى للقرن السادس/الثاني عشر إلى قيام رد فعل سني قوى قادة الوزراء السنيين رضوان بن ولّخشي والعدل بن السلار أبعد أهل الذمة عن شغل المناصب الهامة^٩. ويعرض لنا كتاب « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » المنسوب إلى ساويرس بن المقفّع وكتاب « كنائس وأديرة مصر » المنسوب إلى أبي صالح الأرميني حياة الأقباط وعلاقتهم بالدولة^{١٠}.

وتقدّم لنا كذلك أوراق جنيزة القاهرة Cairo Ceniza Douments صورة مفصّلة عن المجتمع اليهودي في مصر وفي حوض البحر المتوسط ونشاطه الاقتصادي وعلاقاته الاجتماعية والأسرية وحياته اليومية والمعيشية . وتوضّع لنا هذه الأوراق كذلك التسامح الذي كان سائداً في مصر الفاطمية ، وأن مدن مصر لم تعرف الـ Ghetto الديني أو الجرفي على الإطلاق وأن اليهود والأقباط كانوا يعيشون جنباً إلى جنب مع المسلمين في القسّطاط وغيرها من أقاليم ومدن مصر المختلفة^{١١}.

^٨ راجع ، قاسم عبده قاسم : أهل الذمة في مصر العصور الوسطى - دراسة وثائقية ، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٧ ، سلام شافعي محمود : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي ، القاهرة - دار المعارف ١٩٨٢ .

^٩ انظر أعلاه ص ١٩٩ .

^{١٠} انظر ثبت المصادر والمراجع .

^{١١} راجع بصفة خاصة Mann , J . , The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs , I - II . Oxford 1920 , Fischel , W . J . , Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam , NY 1969 , pp , 45 - 89 , Golb , N . , " The Topography of the Jews of Medieval Egypt " , JNES 24 (1967) , pp. 251 - 270; 32

تurf الحياة الاجتماعية

اتسمت الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي بمظاهر العظمة والأبهة التي لم تقتصر فقط على الخلفاء بل تعدتهم إلى الوزراء وكبار رجال الدولة . كذلك فقد امتازت احتفالات الفاطميين المختلفة بالبذخ والرؤعة ، وشهدت العديد من الأسيمطة (ج . سماط) التي كان يُقَدَّم فيها الكثير من أنواع الأطعمة والحلوى التي وقروا لها المقادير الكبيرة من الدقيق والسكر اللازمة لصناعتها . وكانت هذه الاحتفالات أيضاً مناسبة لتفريق الخلع والكسوات على رجال الدولة والتي كانت تصنع في دور الطراز العامة ودار الديباج ، وقد وصف لنا تفصيل هذه الاحتفالات وصفاً حياً مؤرخون من أمثال ابن المأمون وابن الطوير وأكدها شاهدو عيان مثل ناصر خسرو وغيلوم رئيس أساقفة صور Guillaume de Tyr .

وأنشأ الخلفاء الفاطميون ووزرائهم العديد من « المناظر » (ج . منظر) التي كانوا ينتقلون إليها في ضواحي القاهرة والفسطاط للاستجمام وخاصة أيام زيادة النيل التي كان ينتقل فيها الخليفة ، وعلى الأخص ابتداء من عصر الخليفة الأمر ، إلى منظر اللؤلؤة على الخليج^{١٢} وكان الناس يوم ركوبه

= (1974) pp . 116 - 149 ; Stern , S . M . " A Petition of the Fatimid Caliph al - Mustansir concerning a Conflict within the Jewish Community " REJ 138 (1969) , pp . 203 - 215 ; Goitein , S . D , Mediterranean Society - the Jews Communities of the Arab World as portrayed in the documents of the Cairo Geniza I - V , Berkeley - Los Angeles 1967 - 1989 ; Cohen , M . R , Jewish Self - Government in Medieval Egypt - the Origins of the Office of Head of the Jews , ca 1065 - 1126 , Princetan 1980 . وانظر كذلك مارك كوهن : المجتمع اليهودي في مصر الإسلامية في العصور الوسطى ، جامعة تل أبيب ١٩٨٧ ، قاسم عبده قاسم : اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني ، القاهرة - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٧ ، والمراجع المذكورة في الهامش رقم ٨ أعلاه .

١٢ ابن المأمون : أخبار ٥٦ ، ٩٨ - ١٠٠ ، المقرئى : الخطوط ١ : ٤٦٨ ، ٤٧٠ .

يخرجون من القاهرة ومصر بمعايشهم ويجلسون للنظر إليه فيكون كيوم العيد ، وكانوا يصنعون أخشاباً متراكبة بعضها على بعض يجلسون فوقها للتفرج يوم كسر الخليج ، لذلك فقد أمر الخليفة الأمر بأحكام الله - الذي استعاد هذه الرسوم التي انقطعت منذ استيلاء الوزير الأفضل على الدولة - في سنة ١١٢٤/٥١٨ ببناء دار واسعة ليتفرج الناس فيها عند كسر الخليج بالكراء^{١٣} .

ويفيدنا كذلك نصٌّ أورده المقرئ في حوادث سنة ١١٢٣/٥١٧ أنه وجدت في العصر الفاطمي دورٌ مختصة بالأفراح تؤجّر لهذا الغرض وأن الوالي أخذ الحجة على ملاك مثل هذه الدور بأن يزيلوا التطرُّق إليها حتى لا يطلع أحدٌ على النساء أثناء العرس^{١٤} .

ويرجع أغلب ما نعرفه عن الاحتفالات الفاطمية إلى الفترة التي شارك فيها الخليفة الأمر الوزير المأمون البطائحي في الحكم (٥١٥ - ١١٢١/٥١٩ - ١١٢٥) والتي قدّم لنا كل من ابن المأمون وابن الطُّوَيْر تفاصيل دقيقة عنها .

المَوَاقِبُ الاحتفالية زَمَنُ الفاطميين

كانت رسوم البلاط الفاطمي تتضمن عدداً من المواقب الاحتفالية بعضها ديني مثل : ركوب أوّل رمضان وركوب أيام الجُمُع الثلاث من شهر رمضان وركوب عيد الفِطْرِ وركوب عيد النحر . وبعضها الآخر مدني مثل : ركوب أوّل العام وركوب تخليق المقياس وركوب فتح الخليج .

فالعادة أن يحتفل المسلمون طوال العام بعيدَي الفِطْرِ والأضحى ، وهما العيدان اللذان يحتفل بهما المسلمون في كل مكان . وإلى جانب هاذين العيدين كانت العادة في مصر الفاطمية أن يُحتَفَل كذلك « برأس السنة

^{١٣} ابن ميسر : أخبار مصر ٩٧ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٠٧ .

^{١٤} المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٠٠ .

الهجرية « (أول المحرم) ، باحتفال ليلي يستمر إلى اليوم التالي « أول العام » ، و « مولد النبي » (١٢ ربيع الأول) ، و « قافلة الحج » ، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك الاحتفال « بليالي الوقود الأربع » (ليلة مستهل رجب وليلة نصفه ، وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه) . وأخيراً ، فإن « صَوم رمضان » كانت تصحبه بعض الرسوم في البلاط الفاطمي خاصة وقت « إفطار » و « سُحور » الخليفة^{١٥}.

أما إحياء ذكرى المناسبات الشيعية فقد كانت عديدة على رأسها : « حُزْن عابثوراء » (١٠ محرم) حيث يُمدُّ فيه سَماط يعرف « بِسَماط الحُزْن » ، وكذلك « مَوْلِد الحُسَيْن » (٥ ربيع الأول) و « مَوْلِد السَّيِّدة فاطمة » (٢٠ جمادى الآخر) ، و « مَوْلِد الإمام علي » (١٣ رجب) و « مَوْلِد الحسن » (١٥ رمضان) و « مَوْلِد الإمام الحاضر » ويطلق على هذه الموالد الخمسة الأخيرة بالإضافة إلى « المولد النبوي » : « المَوَالِد الستة » أما آخر هذه الاحتفالات الشيعية « فَعِيد غَدِير خُحْم » (١٨ ذى الحجة)^{١٦}.

وكعادة سابقهم كان الفاطميون يحتفلون بأعياد النيل حيث كان « كَسْرُ الخليج » مناسبة لخروج الجماهير للاستمتاع بمنظر النيل ومشاهدة الخليفة وهو ينظر هذا الاحتفال . ويدخل في هذا النوع من الاحتفالات رأس السنة القبطية أو « الثَّورُوز » (أول توت) الذي يتوافق قدومه مع أقصى ارتفاع للفيضان .

كذلك فقد كان الخلفاء الفاطميون يُبرزون بحضورهم قيمة الاحتفالات الشعبية التي كانت تصحب بعض الأعياد القبطية مثل : « المِيلَاد » و « الغِطَّاس » و « خميس العَهْد » الذي كان مناسبة تُضْرَب فيها الحكومة الفاطمية قطعاً صغيرة ذهبية تسمى « خَرَارِيب الذَّهَب »^{١٧}.

^{١٥} ابن المأمون : أخبار ٨٢ - ٨٣ ، الخطط ١ : ٤٩١ - ٤٩٢ .

^{١٦} ابن الطوير : نزعة ٢١٧ ، Fu'ād Sayyid ، Wiet , G . , CIA Egypte II , pp . 176 - 177 .

A . , op . cit . , pp . 503 - 505 .

^{١٧} ابن المأمون : أخبار ٩٥ ، الخطط ١ : ٤٥٠ ، Balog , p . , " Monnaies islamiques ,

ميزانية الاحتفالات الفاطمية .

وبالطبع فإن كل هذه الاحتفالات لم تكن تمر دون إرهاق ميزانية الدولة الفاطمية . فبمطالعة « الاستيमार » أو « الروزنامج » الذى يتضمن ما أتفق عينا من بيت المال فى مُدَّة أولها محرم سنة ٥١٧ وأخرها سلخ ذى الحجة منها (أول مارس ١١٢٣ - ١٨ فبراير ١١٢٤) ، والذى حفظه لنا ابن المأمون فى تاريخه ، نستطيع أن نلاحظ حجم المبالغ المنصرفة فى هذا العام بعد خمسة عشر شهرا فقط من تولّى المأمون الوزارة . فقد بلغ حجم المنصرف عينا « أربعمائة ألف وسبعة وستين ألفا ومائة وأربعين دينارا ونصف » (٤٦٨,٧٩٧) وفى حقيقة الأمر فقد وُفر من أبواب هذا الاستيमार ٩٨,٣٩٧ دينارا حملت إلى الصناديق الخاص برسم المهمات العسكرية الاستثنائية .

أما القسم الثانى من هذا الروزنامج فقد بلغ مائتى ألف دينار تُخصّصت « للديوان المأمونى » الذى ابتلع بذلك أكثر من رُبُع مجموع نفقات الدولة وهو يتضمن مصروفات الوزير وإخوته وأولاده بالإضافة إلى ما يُحمّل مشاهرة إلى موظفى الدولة^{١٨} .

وفى الوقت فإننا نعلم كذلك المُتفق فى مطابخ وأسمطة الخليفة الأمر فقد كان يُذبح له فى كل شهر خمسة آلاف رأس من الضأن ثَمَن الرأس ثلاثة دنانير ، غير ما يذبح من الأنواع الأخرى^{١٩} . ومن جهة أخرى يذكر لنا ابن المأمون أن عدد ما ذُبِح فى عيد النحر وعيد الغدير سنة ٥١٥/فبراير سنة ١١٢٢ بلغ ألفين وخمسمائة وأحد وستون رأسا تفصيله ، نوق : مائة وسبعة

. rares fatimites et ayyubites ", BIE XXXVI (1953 - 54), pp . 328 - 329

^{١٨} نفسه ٧٠ - ٧١ ، الخطط ١ : ٣٩٩ ، القفى (غ . ليدن) ٢ : ٢١٢ و ، Wiet , G . , op .

cit . , p . 181 ; Fu'ād Sayyid , A . , op . cit . , pp . 506 - 508

فى زمن الوزير اليازورى فى منتصف القرن الخامس (الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩) .

^{١٩} المقرئى : اتعاط ٣ : ١٢١ .

عشر رأسًا ، بقر : أربعة وعشرون رأسًا وهو عدد ما كان يذبحه الخليفة بيده في المصلى والمنحر وباب السباط . بينما كان الجزارون يذبحون ألفين وأربعمائة رأس من الكباش^{٢٠} .

وهذا بالطبع غير ميزانية الكسوات والخِطْلَع التي كانت تُوزَّع في المناسبات المختلفة ، وكذلك ميزانية دار الفطرة والأسبطة التي كانت تُمد في الاحتفالات الدينية والمدنية .

الخِطْلَع والتشاريف

هي الملابس ذات القيمة والتي يُطلَق عليها حُلَّة (ج . حُلَل) وبَدَلَّة (ج . بدلات) والتي يمنحها الحكام إلى رعاياهم الذين يودون مكافأتهم أو تشریفهم^{٢١} . والخِطْلَع في اللغة هي ما يُخلع على الإنسان من الثياب^{٢٢} .

فقور وصول الخليفة المعز لدين الله إلى مصر أمر بعمل دار سماها « دار الكسوة » ، كان يُفصل فيها جميع أنواع الثياب ويكسوها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف من العمامة إلى السراويل وما دون ذلك من الملابس ، وبلغ مقدار ما أنتجته هذه الدار في أحد الأعوام أكثر من ستائة ألف دينار^{٢٣} .

وبالإضافة إلى دار الكسوة أنشأ الفاطميون دورًا للطراز ، وهي مصانع للنسيج تشرف عليها الحكومة تميز منها نوعين : طراز الخاصة وكان لا يشتغل إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته ، وطراز العامة الذي كان يشتغل لحساب رجال البلاط وما يخلعه الخليفة على كبار رجال الدولة وأفراد الشعب^{٢٤} .

^{٢٠} ابن المأمون : أخبار : ٢٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٣٦ وقارن ذلك بما ذبحه الخليفة سنة ٥١٦ (ابن المأمون ٤١ - ٤٢ ، الخطط ١ : ٤٣٦) .

^{٢١} انظر ٦-٧ ، Stilman , N . A . , El . . , art . Khil'a V , pp . 6-7 .

^{٢٢} الزيدى : تاج العروس ، القاهرة ١٢٨٦ هـ ، ٥ : ٣٢٢ .

^{٢٣} المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٩ .

^{٢٤} زكى محمد حسن : الفن الإسلامى في مصر ٨٣ - ٨٤ وانظر الفصل التالى .

وأوفى مصدرين يحدثانا عن تفريق الكُسُوات والخِلَع وأنواعها والتشريف في العصر الفاطمي هما : « تاريخ المُسَبِّحِي » بالنسبة لبداية عصر الفاطميين ، « وتاريخ ابن المأمون » فيما يخص الفترة التي تولّى فيها والده المأمون البطائحي الوزارة للخليفة الأمر (٥١٥ - ٥١٩) . فيمدنا هذان المؤرخان بمعلومات غنية عن أنواع الملابس والعمائم والخِلَع ، سواء التي كان يرتديها الخليفة أو التي كان يَخْلَعُها على وزارته وخاصته وكبار رجال الدولة ، وكذلك قيمتها . فيذكر ابن المأمون أن كاتب الدَفْتَر - وهو أحد موظفي ديوان المَجْلِس - كان يعد قبل بداية الشتاء ما يطلق عليه « جرائد كُسُوة الشتاء » ، وقد بلغ ما اشتمل عليه المنفق فيها سنة ١١٢٢/٥١٦ - أى في بداية وزارة المأمون البطائحي - من الأصناف أربعة عشر ألفاً وثلاثمائة وخمس قطع (١٤،٣٠٥) ، بينما لم يتعد أكثر ما أُنفِق فيها في أيام سلفه الوزير الأفضل شاهنشاه ، على طولها ، ثمانية آلاف وسبعمائة وخمس وستون قطعة (٨،٧٦٥) صُرِفَتْ في عام ١١١٩/٥١٣^{٢٥} . ولا شك أن كاتب الدَفْتَر كان يعد جرائد مماثلة قبل حلول موسم الصيف .

وكانت المواسم التي توزّع فيها الخِلَع والكُسُوات ، كما يذكر ابن المأمون ، هي عيد الفِطْرِ وعيد النَّحْرِ ، وهي الموسم الكبير ويطلق عليها لذلك « عيد الحُلَل » لأن الحُلَل تعم فيها الجميع بينما توزّع في غيرها على الأعيان والخاصة^{٢٦} ، ويوم فَتْح الخليج ويوم النوروز^{٢٧} . أما الكُسُوة المختصة بغُرّة شهر رمضان وجمعيته والمعروفة باللباس الجُمُعِي ، فيبدو أنها كانت للخليفة فقط بهذه المناسبة ، وكانت في عام ١٠٢٣/٤١٥ مكونة من طِيلَسَان شَرَب مَفُوط وعمامة قَصَب يياض مذهبة وثياب ديقى يياض للجمعة الأولى من رمضان^{٢٨} ، ورداء يياض مُحَشَى قصباً وذهباً يياض ديقى وثوب مُصَمَّط

^{٢٥} ابن المأمون : أخبار مصر ٤٨ ، ٥٥ .

^{٢٦} نفسه ٣٨ ، ٤٨ .

^{٢٧} نفسه ٢٤ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٤ .

^{٢٨} المسبّحي : أخبار مصر ٦٢ .

أيض وعمامة مذهب للجمعة الثانية^{٢٩}. أما في عام ١١٢٢/٥١٦ ، في عهد الخليفة الأمر ، فكانت بدلة كبيرة موكية مكمل مذهب لغرة رمضان ، وبدلة موكية حريري مكمل منديلها وطيلسانها يياض يرسم صلاة الجمعة الأولى بالجامع الأزهر^{٣٠} ، وبدلة منديلها وطيلسانها شعري يرسم صلاة الجمعة الثانية^{٣١} ، وكان إخوة الخليفة والوزير يصرف لهم كذلك خلع في غرة رمضان وجمعيته .

كانت خزانة الكسوة تستقبل ما تنتجه دور الطراز وكانت تتألف من قسمين : الخزانة الباطنة التي يحفظ بها ملابس الخليفة ويتولى أمرها امرأة تعرف أبدأ « بزّين الخزان » يعاونها ثلاثون جارية ، والخزانة الظاهرة التي تُفصل فيها الثياب حسب ما تدعو إليه الحاجة ، ومنها كانت تُوزع الخلع التي يخلعها الخليفة على الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وضيوفها^{٣٢}.

وكان الذي يستلم ما يختص بالخليفة في العيدين « مقدم خزانة الكسوة الخاص » ، وهي بدلة خاصة جليلة مذهب يرسم الموكب ، ونصف بدلة يرسم الجلوس على السّمّاط بالإضافة إلى البدلة الحمراء التي كان يرتديها الخليفة عند دخوله المنحرف في عيد النحر^{٣٣} . وكان الخليفة يلبس في الأعياد والمواسم المنديل (العمامة) بالشدة العربية المعروفة بـ « شدة الوقار » (وكان لشدة ترتيب خاص لا يعرفه كل أحد ، يتولاه أحد الأستاذين المُحتكين ، يأتي بها في هيئة مستطيلة ، ويكون المنديل من لون ثياب الخليفة)^{٣٤} ، أما في غير هذه المناسبات فكان الخليفة يرتدي منديلاً « بالشدة الدانية » غير العربية^{٣٥}.

^{٢٩} نفسه ٦٤ .

^{٣٠} ابن المأمون : أخبار ٥٤ - ٥٥ .

^{٣١} نفسه ٨١ - ٨٢ .

^{٣٢} ابن الطوير : نزعة المقلتين ١٢٨ - ١٢٩ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٦٣ .

^{٣٣} ابن المأمون : أخبار ٤٨ ، ٤٩ .

^{٣٤} نفسه ٤١ ، ٧٥ .

^{٣٥} نفسه ٧٩ .

وفي موسم فتح الخليج كان يصل إلى خزانة الكُسوة بدلتان إحداها منديلها وطيلسانها طميم يرتديها عند ذهابه لفتح الخليج ، والأخرى جميعها من الحرير يريدتها عند رجوعه إلى القصر^{٣٦}.

وكان يُصنَّع بدار الطراز ثوب خاص للخليفة يقال له « البَدَنَّة » ، لا يدخل فيه من الغزل سداء ولُحْمَة غير أوقيتين ، ويُنسَج باقيه من الذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار^{٣٧} ، أغلب الظن أن الخليفة كان يرتديه عند جلوسه على سرير الملك في قاعة الذهب . وقد وصل إلينا وصفان لسرير الملك واحد في أواسط القرن الخامس/الحادي عشر أورده صاحب « الذخائر والتحف » يذكر أن « فيه من الذهب الإبريز الخالص مئة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال . وأنه رُصِّع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه »^{٣٨} . والآخر أورده غليوم رئيس أساقفه صور حيث يصف الخليفة العاضد بأنه « جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة »^{٣٩}.

وكانت الخِلع تُوزَّع على إخوة الخليفة وأبناء وبنات عمومته وللوزير والأمراء المُطَوَّقِينَ والأستاذين المُحَنِّكِينَ والمُتَمَيِّزِينَ وكاتب الدُّسْت ومتولى حُجْبَة الباب وكبراء الدولة وشيوخها . وقد بلغت كُسوة عيد الفِطْرِ في سنة ١١٢١/٥١٥ مائة قطعة وسبع قطع (١٠٧)^{٤٠}.

وعندما كان يتولَّى أحد كبار الموظفين وظيفة جديدة كان الخليفة يخلع عليه ، فعندما قلَّد سني الدولة حمَّد بن أخى التاهرتي جميع سيارات أسفل الأرض في ٢٣ رجب سنة ٤١٥/سبتمبر سنة ١٠٢٤ خلع عليه الخليفة الظاهر

^{٣٦} نفسه ٥٥ .

^{٣٧} بن الطوير : نزهة المقلتين ١٠٣ ، ١٢٤ ، ١٩٨ ، المقرئى : الخطط ١ : ١٧٧ .

^{٣٨} الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٦٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٣٨٥ .

^{٣٩} Schlumberger , G . , op . cit . , p . 126 .

^{٤٠} ابن المأمون : أخبار ٢٥ ، ٤٨ ، ٤٩ .

« عمامة صغرى مذهب وثوب طميم »^{٤١}. وتخلع على دؤاس بن يعقوب الكتامي « ثوب مثقل وعمامة » عندما قلَّد الحسبة والأسواق والسواحل في رجب سنة ٤١٤/أكتوبر سنة ١٠٢٣^{٤٢}. وبمناسبة وفاء النيل سنة ٤١٥/١٠٢٤، خلع الخليفة على ابن أبي الرّداد، متولى المقياس، « خلعاً ديقية مذهب ورداء مُحشّي مذهب وعمامة شرب مذهب »^{٤٣}، كما خلع الخليفة كذلك على أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الرّسى نقيب نقباء الطالبين في جمادى الأولى سنة ٤١٤/أغسطس سنة ١٠٢٣ « ثوباً ديقياً مذهباً مصففاً بأطواق عراض ومن تحته ثوب مصمت مذهب وغلالة مذهب وكذلك عمامة شرب مذهب »^{٤٤}. كما كانت الخلع تخلع كذلك على الرسل والأجانب الذين يزورون العاصمة^{٤٥}.

الأسبطة

السّمّاط (ج . أسبطة وسماطات) هو ما يُمدُّ من الطعام^{٤٦}. وقد تعدّدت الأسبطة الرسمية التي كان يحضرها الخليفة بنفسه في العصر الفاطمي، وكان السّمّاط يُمدُّ في قاعة الذهب من القصر الفاطمي الشرق وذلك في ليالى رمضان وفي العيدين وفي ليالى الوقود الأربعة والمولد الأربعة : النبوى والعلوى والفاطمي والإمام الحاضر^{٤٧}، بالإضافة إلى سمّاط الحُزن الذي كان يُمدُّ في يوم عاشوراء^{٤٨}.

^{٤١} المسبحي : أخبار ٥٠ .

^{٤٢} نفسه ١٤ .

^{٤٣} نفسه ٤٧ .

^{٤٤} نفسه ٦ وانظر كذلك المسبحي : أخبار ٣ ، ١٧ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٦٣ ، ٨٣ .

^{٤٥} ٣ ، ٥٤ . وانظر عن صناعة التسيج الفصل التالي .

^{٤٦} الزبيدي : تاج العروس ٥ : ١٥٩ .

^{٤٧} ابن المأمون : أخبار ٦٢ ، ابن الطوير : نزهة ٢١٧ .

^{٤٨} ابن الطوير : نزهة ٢٢٤ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٣١ .

وكانت الأطعمة التي تقدم في هذه الأسمطة تعمل في موضعين : اللحوم وما شاكلها في مطبخ القصر ، والحلوى والكعك بدار الفطرة . ويقدم لنا المسبّحي وابن المأمون مرة أخرى بالإضافة إلى ابن الطويز معلومات غنية عن ما كان يقدم في هذه الأسمطة من أنواع المآكل وتكلفتها .

ففي بداية العصر الفاطمي كان سماء عيدي الفطر والنحر يحمل قبل يوم العيد يوم ويحتفل بذلك بأن يشق به الشارع الأعظم وحوله المجانية وأفراس الخيال والسودان والطبالون ويجتمع الناس في الشوارع لمشاهدته^{٤٩} . وكان يشتمل على التماثيل والترازين وقصور السكر وبلغ عدد قطعه في عيدي الفطر والنحر عام ١٠٢٥/٤١٥ مائة واثنين وخمسين قطعة من التماثيل وسبعة قصور سكر كبار^{٥٠} . ويذكر المسبّحي أنه نتيجة لأزمة عام ١٠٢٥/٤١٥ كبس العامة القصر يوم عيد النحر صائحين : الجوع الجوع ، نحن أحق بسماط مولانا ، ولم يبالوا بضرب الصقالبه لهم وتهافتوا على الطعام وضرب بعضهم بعضاً ونهبوا جميع ما أصلح من الأخباز والأشوية والحلوى ونهبوا القصاع والطيافير (ج . طيفور) والزبديات (ج . زبدية)^{٥١} .

وقبل كل موسم كبير كان « متولى المائدة » يُحضر مطالعة يستدعى بها ما جرت به العادة في هذا الموسم من الحيوان والضأن والبقر وغيره^{٥٢} .

ويصف لنا ابن الطويز السّماط الذي كان يُمدّ في شهر رمضان كل ليلة بقاعة الذهب ابتداء من اليوم الرابع من الشهر وحتى اليوم السادس والعشرين منه ، وكان يدعى إليه الأمراء نوبة نوبة بمسطور يخرج إليهم . أما قاضي القضاة فكان يُستدعى له في ليالي الجُمع فقط توقيراً له . وكان السّماط يُبسّط في

^{٤٩} المسبّحي : أخبار ٦٥ ، ٧٩ .

^{٥٠} نفسه ٦٥ ، ٧٩ .

^{٥١} نفسه ٨٢ .

^{٥٢} ابن المأمون : أخبار ٧٤ .

طول القاعة من أول الرواق إلى ثلثي القاعة ، والفراشون قيام لخدمة الحاضرين ، وكانت تقدم فيه أفخر أنواع المأكولات والأغذية . وبلغ ما يُنفق في شهر رمضان على سَمَاطه مدة سبعة وعشرين يومًا ثلاثة آلاف دينار^{٥٣} .

أما سَمَاط العيدين فهو سَمَاطان في عيد الفِطْرِ وسَمَاط واحد في عيد النَّحر . وكان يوضع على السَّمَاط أواني الفضة والذهب والصيني وطوله بطول القاعة وعرضه عشر أذرع . ويوضع في وسطه واحد وعشرون طبقًا في كل طبق واحد وعشرون خروفًا ، ومن الدجاج ثلاثمائة وخمسون طائرًا ، ومن الفرائج مثلها وكذلك من الحمام . ويتخلَّل هذه الأطباق صحون خزفية في جنبات السَمَاط يبلغ عددها خمسمائة صحن في كل صحن تسع دجاجات في ألوان فائقة من الحلوى والطَّباهِجَة المفتقة بالمِسْك . وبعد ذلك يحضر قصران من حلوى عملا بدار الفِطْرَة زنة كل واحد سبعة عشر قنطارًا ينصبان أول السَّمَاط وآخره . ويستمر السَّمَاط إلى قرب الظهر ويتداوله الناس ولا يرد عنه أحد حتى يذهب عن آخره^{٥٤} .

وفي الموالد الستة ، التي أبطلها الوزير الأفضل وأعادها الخليفة الأمر في سنة ١١٢٢/٥١٦ هـ : مولد النبي ﷺ ، ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ومولد السيدة فاطمة عليها السلام ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين عليهما السلام ومولد الخليفة الحاضر^{٥٥} ، وكذلك في ليالي الوقود الأربعة ، كان السَّمَاط يشتمل على الكعك والحلوى وعلى الأخص الخُشْكَنانج (وهو نوع من الحلوى المصنوعة من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يُملأ وسطها باللوز أو الفُسْتُق) والبَسْتَلود والفانيد ، التي كانت تعمل بدار الفِطْرَة وكان يوفر لها ما يلزم من السكر والعسل واللوز والدقيق والسيرج^{٥٦} . ففى « مولد

^{٥٣} ابن الطوير : نزهة ٢١٣ ، ٧٥ ، المقریزی : الخطط ١ : ٣٨٧ .

^{٥٤} نفسه ٢١٣ - ٢١٤ ، نفسه ١ : ٣٨٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزهراء ٤ : ٩٧ - ٩٨ .

^{٥٥} ابن الطوير : نزهة ٢١٧ .

^{٥٦} ابن المأمون : أخبار ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ .

النبي ، كان يُعمل في دار الفِطْرَة عشرون قنطاراً من السكر اليابس حلواء يابسة تعبى في ثلاثمائة صينية من النحاس تفرّق في أرباب الرسوم من أرباب الرّتب وكل صينية في قوارة^{٥٧}.

وكان يوفّر لدار الفِطْرَة سنوياً ما يلزم لإعداد هذه الحلوى ابتداء من النصف الثاني من شهر رجب من السكر والعسل والقلوب والزّعفران والطيب والدقيق وذلك لعمل الحُشْكَنانج والبَسْتَنود وأصناف الفانيد الذى يقال له كعب الغزال والبزماورد والمفتق^{٥٨}. وكان ما يُتفق في دار الفِطْرَة فيما يفرق على الناس منها ما قيمته سبعة آلاف دينار^{٥٩}. ويذكر ناصر خسرو أن راتب السكر في اليوم الذى تنصب فيه مائدة السلطان خمسون ألف منّ وأنه شاهد على المائدة شجرة أعدت للزينة - تشبه شجرة الترنج - كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، وعليها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً^{٦٠}.

وفي الموالد الستة كان يُعمل بدار الفِطْرَة ما يقرب من خمسة قناطير حلوى تفرق على المتصدرين والقراء والفقراء بالمشاهد والمساجد الستة^{٦١}. أما عدد الصواني التى كانت تقدم على سماء الخليفة في هذه المناسبات فكانت ما يقرب من أربعين صينية حُشْكَنانج^{٦٢}.

ويقدم لنا ابن المأمون تفاصيل غنية عن قيمة ما كان يصرف من مواد

^{٥٧} ابن الطوير : نزهة ٢١٧ . والقوارة ج . قوارات . غطاء من شرب تكون تحت العراضى الديقى
تعمل بدار الطراز للولائم ويغطى بها الصواني . (ابن المأمون : أخبار ٧٣) .

^{٥٨} ابن الطوير : نزهة ١٤٤ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٢٦ (نقلًا عن ابن عبد الظاهر) .

^{٥٩} نفسه ١٤٥ .

^{٦٠} ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٨ .

^{٦١} ابن المأمون : أخبار ٣٦ ، ٦٠ . والمساجد الستة هي : الأزهر والأقمر والأنور بالقاهرة والطولونى

والعتيق بمصر وجامع القراقة . (نفسه ٦٣) .

^{٦٢} نفسه ٣٥ ، ٦٢ ، ٦٤ .

لصناعة ما كان يقدم في هذه الأسِطَـة^{٦٢}. ويكفى أن نعلم أن ما كان ينفقه الوزير المأمون البطائحي على السُّمَاط الذي كان يده في داره بلغ ١٣٢٦ وربع وسدس دينار ، وثمانية وأربعون قنطاراً من السكر برسم قصور الحلواء والقطع المنفوخ التي كانت تصنع له بدار القِطَـة^{٦٤}.

^{٦٢} نفسه ٩٢ - ٩٣ .

^{٦٤} نفسه ٢٦ ، ٤٢ .

الفصل الرابع عشر

النشاط العلمي والثقافي

دار العلم وبدايات المدارس

دار العلم

كانت القاهرة طوال العصر الفاطمي هي مركز الدعوة الإسماعيلية في العالم الإسلامي . وتركزت هذه الدعوة في جامع القاهرة الذي عرف بالجامع الأزهر ، والمُحوّل في القصر ، ودار العلم مقر داعي الدعاة الفاطمي .

وكانت بداية الدعوة الإسماعيلية في الأزهر في سنة ٩٧٥/٣٦٥ . ففي صفر من هذا العام جلس القاضي علي بن النعمان في الجامع وأملى مختصر أبيه في الفقه المعروف بـ «الاقتصار» في جمع حافل من العلماء والكبراء وأثبتت أسماء الحاضرين ، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر^١ . ولما تولّى يعقوب بن كلس الوزارة سنة ٩٧٩/٣٦٨ رتب في العام التالي في داره «مجالس» للعلماء والشعراء والقراء والمتكلمين وأجرى لهم الأرزاق ، كما كان هو نفسه يقرأ على الحاضرين «الرسالة الوزيرية» ، وهي كتاب ألفه في فقه الإسماعيلية يتضمن ما سمعه عن المعز لدين الله وابنه العزيز بالله^٢ .

^١ المقرئى : الخطط ٢ : ٣٤١ ، اتعاظ ١ : ٢٢٧ .

^٢ ابن الصيرفي : الإشارة ٤٩ - ٥٠ ، ابن خلكان : وفيات ٧ : ٣٠ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٣٤١ ، ٣٦٣ .

وشهدت سنة ٩٨٨/٣٧٨ أول محاولة لترتيب درس مُنظَّم في الأزهر حيث عيَّن الوزير ابن كِلْس سبعة وثلاثين فقهياً بالأزهر يرأسهم الفقيه أبو يعقوب قاضي الخَنْدَق ، كانوا يتحلَّقون كل يوم جمعة بالجامع بعد الصلاة ويتكلمون في الفقه حتى وقت العصر . ورُتِّب لهم الخليفة العزيز أرزاقاً وجرايات شهرية وأقام لهم داراً للسكنى بجوار الجامع الأزهر^٣ . يقول المقرئزي : « وهى أول مرة يُقام فيها درس في مصر بمعلوم جارٍ من قِبَل السلطان »^٤ .

أما الجهد الواضح للفاطميين في مجالى الثقافة والتعليم فقد تركَّز في دار العِلْم (الحِكْمَة) التى أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله وافتتحت رسمياً يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥/أبريل سنة ١٠٠٥^٥ . وقد أراد مؤسسها أن تكون شبيهة ببيت الحكمة الذى أقامه الخليفة المأمون العباسى فى بغداد ، فحمل إليها من خزانة كتب القصر كتباً كثيرة تحتوى على سائر العلوم والآداب وأباح الاطلاع عليها لمن يريد فتردد عليها الناس ونسخ كل من التمس نسخ شئ مما فيها ما التمس . ورُتِّب فيها أناساً يُدرِّسون الناس العلوم المختلفة بين منجمين وأطباء وقراء ونحويين ولغويين ، وعيَّن بها خُزَّاناً وخُدماءً وقُراشين ، وأجرى الأرزاق لمن رُسم له الجلوس فيها والخدمة بها من الفقهاء والعلماء وغيرهم ، ووفَّر بها ما يحتاج إليه الناس من حبر وأقلام وورق ومخابر^٦ .

وقد مرَّت هذه الدار على امتداد ١٧٢ عاماً من الحياة المليئة بالتقلُّبات والتغييرات بثلاث فترات مختلفة . فعندما أنشأها الحاكم سنة ٣٩٥/١٠٠٥ كان يقصد إلى إظهار حماسة وتقربه إلى أهل السنة وتشجيع العلوم على إطلاقها

^٣ المسبحى : نصوص ضائعة ٣٨ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٣٦٣ ، المقرئزي : الخطط ٢ : ٢٧٣ ، ٣٤١ ، محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ٤٣ - ٤٤ .

^٤ المقرئزي : الخطط ٢ : ٣٦٣ .

^٥ انفرد المسبحى ومن أخذ عنه بإطلاق اسم « دار الحكمة » على الدار التى أنشأها الحاكم ، بينما سُمِّيتا معاصره يحيى بن سعيد باسم « دار العلم » .

^٦ المسبحى : نصوص ضائعة ٢٢ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٨٨ ، المقرئزي : الخطط ١ : ٤٨٥ - ٤٨٦ ، اتعاظ ٢ : ٥٦ .

وظلّت كذلك في عهد مؤسّسها ، وإن تغيّر دورها الديني اعتباراً من عام ١٠١٠/٤٠٠ وقُتل بعض علمائها وتحفّي عدد آخر منهم ، وأصبحت مركز الدعاية الإسماعيلية^٧. وفي عام ١١١٩/٥١٣ أغلقت دار العلم مؤقتاً لمساعدتها على نمو روح معادية لمذهب الدولة الديني^٨، ثم أعيد افتتاحها سنة ١١٢٣/٥١٧ في موضع مغاير لموضعها الأول لتستمر كمؤسسة إسماعيلية حتى قضى عليها بوصول الأيوبيين إلى السلطة في عام ١١٧١/٥٦٧^٩.

ورغم أن المصادر لا تحدّثنا عن نشاط دار العلم فيما بين عهد الحاكم وعام ١١١٩/٥١٣ ، فلا شك أنها كانت بين هذين التاريخين تؤدي دورها كمكتبة عامة وكانت مركز نشاط جدير بالاهتمام هو الدعوة الإسماعيلية . ويؤكد أهمية هذه الدار في هذه الفترة أن واحداً من كبار رجال الدعوة هو داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي دُفن بها عند وفاته سنة ١٠٧٧/٤٧٠^{١٠}.

وبعد إعادة افتتاح دار العلم في سنة ١١٢٣/٥١٧ بأمر الوزير المأمون البطائحي ، أصبحت المقر الرسمي للدعوة الإسماعيلية ، فيذكر ابن الطوير عن داعي الدعاة - وهو يكتب في نهاية الدولة الفاطمية - أنه يُجب أن يكون فقيهاً عالماً بجميع مذاهب أهل البيت ، وأنه يقوم بأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم ، ويردّد عليه فقهاء الدولة ويجتمعون في مكان يعرف بـ « دار العلم »^{١١}.

^٧ انظر أعلاه الفصل الثالث .

^٨ ابن المأمون : أخبار مصر ٤٤ - ٤٦ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٥٩ - ٤٦٠ ، المقفي (غ) . السليمة ٢٧٧ ظ - ٢٧٨ .

^٩ ابن ميسر : أخبار مصر ٩٥ ، - Les bibliothèques arabes publiques et semi - publiques en Mesopotamie , en Syrie et en Egypte au Moyen Age , Damas 1967 . , p . 75 .

^{١٠} المقرئ : الخطط ١ : ٤٦٠ .

^{١١} ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٠ ، القلقشندي : صبح ٤٨٣ ، المقرئ : الخطط ١ : ١ : ٣٩١ .

أما « خزانة كتب الفاطميين » فقد وصفها ابن أبي طي بأنها « من عجائب الدنيا ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر .. ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة »^{١٢}. ولدينا كذلك وصفاً مشيراً للإعجاب لمكتبة القصر أمدنا به صاحب الكتاب « الذخائر والتحف » ، الذي كان في مصر بين سنتي ١٠٦٧/٤٥٩ و ١٠٦٩/٤٦١ ، وأضاف أن أغلب كتب هذه الخزانة قد ذهب عندما تسلط الأتراك على القاهرة في أيام المستنصر وأخذوه عِوَضاً عن مرتباتهم^{١٣}. وقرب نهاية العصر الفاطمي يُقدّم لنا ابن الطُّوَيْر وصفاً دقيقاً لترتيب هذه الخزانة وتنظيمها ، فيذكر أنها تحتوي على عدد من الرفوف في دائر المكان المخصص لها ، وهذه الرفوف مُقطّعة بمحاجز وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات ، تتراوح موضوعاتها بين الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء ، وعلى باب كل خزانة ورقة ملصقة توضح محتوياتها من هذه الكتب . أما المصاحف الكريمة فكانت في مكان منفصل فوق الخزائن ، وكانت بها دروج بخط ابن مُقْلَة وابن البَوَّاب وغيرهم من مشاهير الخطاطين^{١٤}. وقد بيعت هذه المكتبة الضخمة بعد استيلاء صلاح الدين على السلطة تولّى بيعها شخص يعرف بابن صورة ، وتُخصّص لبيعها يومان في الأسبوع لمدة عشر سنوات^{١٥}.

^{١٢} المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٩ .

^{١٣} الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٦٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٨ ، Khoury , G .R . . ،

“ Une description fantastique des fonds de la Bibliothèque “ Hizanat al - Kutb ”

au Caire ” , proceedings of the Ninth Gongess of the union Européenne des

. Arbisans et Islamisans ., Leiden 1981 , pp . 123 - 100

^{١٤} ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٢٧ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٩ .

^{١٥} أبو شامة : الروضتين ١ : ٦٨٦ - ٦٨٧ ، المقرئى : ١ : ٤٠٩ .

المدارس

إذا كانت المدارس في الشرق الإسلامي ، وخاصة في بغداد ، قد نشأت في مجتمع سني بهدف تأييد المذهب الأشعري ولمواجهة مذاهب الشيعة ، وللمساعدة في إعداد رجال الدين وكوادر الموظفين الرسميين^{١٦} . فإن نشأة المدارس في مصر في آخر العصر الفاطمي كان له مغزى آخر إذ قامت لتدعيم الإسلام ضد تحدي أو استفزاز أهل الذمة الذين وصلوا إلى شغل مناصب عليا في الدولة في العقود الأولى للقرن السادس/الثاني عشر عندما كان الأرمن هم أصحاب السيادة وعلى الأخص في فترة وزارة بهرام الأرمني (٥٢٩ - ٥٣١) . وقد قام رضوان بن ولحشى ، الوزير السنّي الذي خلف بهرام ، ببناء أول مدرسة في الإسكندرية لتدريس المذهب المالكي في سنة ١١٣٨/٥٣٢ وقرّر في تدريسها الفقيه المالكي أبا الطاهر بن عوف ، وقد عرفت هذه المدرسة بـ « المدرسة الحافظية » وبـ « المدرسة العوفية »^{١٨} . وأنشأها رضوان في الإسكندرية باعتبارها مركز المقاومة السنية ، فقد كان كل سكانها من السنة والمذهب الشائع بينهم هو المذهب المالكي بسبب صلاتها بشمال إفريقيا والأندلس ، وبعد أربعة عشر عامًا أنشأ وزيراً سنياً آخر هو العادل بن السلار مدرسة ثانية في الإسكندرية ولكن في هذه المرة لتدريس المذهب الشافعي نحو سنة ١١٥٠/٥٤٦ ، وقرّر في تدريسها الفقيه والمحدث

^{١٦} Leier , G . , " The Madrasa and the Islamization of the Middle East - The case of Egypt " , JARCE XXII (1985) , p. 29; id., " Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society " , MW LXXV (1986) , p. 16 .

^{١٧} ابن ميسر : أخبار ١٢٢ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٣١ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٥٩ ، وأنظر أعلاه ص .

^{١٨} ابن ميسر : أخبار ١٣٠ ، القلقشندي : صبح ١٠ : ٤٥٩ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٦٧ ، الشيال : « أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية » ، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١١ (١٩٥٧) ٣ - ٢٩ .

الشَّافِعِي الحافظ أبا الطاهر السِّلَفِي^{١٩} . ولكن المدرسة كمؤسسة سنية رسمية لم تُعرَف على مستوى واسع في مصر إلا مع تولَّى صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، وأُسِّست المدارس الأولى في مصر في مدينة القُسطاط سنة ١١٧١/٥٦٦^{٢٠} .

الفنون والآثار

العمارة

انحصرت فنون العمارة الفاطمية التي وصلت إلينا في المدن التي أسَّسها الفاطميون في إفريقية ومصر (المَهْدِيَّة ، صَبْرَة المنصورية ، القاهرة) . وما زالت المَهْدِيَّة ، التي أسَّسها الخليفة المهدي سنة ٩١٥/٣٠٣ وانتقل إليها سنة ٩٢٠/٣٠٨ ، تحتفظ بأنقاض تحصيناتها الفاطمية ، ومسجد جامع أعيد بناؤه ، وبقايا قصر القائم بأمر الله ويتميز جامع المَهْدِيَّة بمدخل رئيسي بارز عن سَمْت جدار المؤخر على هيئة بوابة تُذَكِّرنا بأقواس النصر الرومانية ، وقد انتقل هذا الطراز إلى العمارة الفاطمية في مصر^{٢١} . وعند مدخل مدينة القيروان - حيث أنشئت مدينة صَبْرَة المنصورية - ما زالت هناك بقايا لقصر يُظَن أنه من عمل المنصور بالله إسماعيل ، نستطيع أن نُميِّز منه قاعة عريضة تفتح عليها ثلاث قاعات على شكل إيوان^{٢٢} . ويشبه هذا التنسيق شكل القاعات

^{١٩} ابن خلكان : وفيات ١ : ١٠٥ ، ٣ : ٤١٧ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٣٧ ، الصفدي : الوافي ٧ : ٣٥٤ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٩٨ .

^{٢٠} المقرئ : الخطط ٢ : ٣٦٣ ، اتعاظ ٣ : ٣١٧ ، وانظر أمين قواد سيد : « المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي » مقال في كتاب « المدارس في مصر الإسلامية » (تحت الطبع) .

^{٢١} انظر Lezine , A . , Mahdiya, Recherches d'Archéologie Islamique, Paris 1965; Fu'ād sayyid, A . , La capitale de l'Egypte (sous press) .

^{٢٢} انظر Zbiss, S. M., " Mahdia et Sabra Mansouria. Nouveaux documents d'art fatimide d'occident " , JA CCXLIV (1956) , pp . 79 - 93 .

الطولونية التي كُشِفَتْ في القُسْطَاط ، وهو يدل على وجود علاقات بين مصر وإفريقية سابقة على انتقال المُعِزِّ إلى مصر^{٢٣}.

وفي مصر أسَّس جوهر مدينة القاهرة واستخدم في بناء أسوارها وأبوابها الأولى الآجُرَّ ، وقد زالت آثار سور جوهر وأبوابه منذ زيادة ناصر خسرو لمصر في أواسط القرن الخامس/الحادي عشر^{٢٤}.

وفي نفس الليلة التي اختط فيها جوهر مدينة القاهرة وضع أساس « قصر كبير » في وسط المدينة اعتمادًا على التصميم الذي وضعه الخليفة المُعِزُّ بنفسه ، وبالطبع فإن هذا التصميم لم يكن يتضمَّن نصف الأبهاء والقاعات الفخمة التي وصفها المقرئزي . وهو عبارة عن مجموعة من الأبنية والقصور الصغيرة أُطلق على مجموعها « القصور الزاهرة » . وللأسف الشديد فنحن نجهل كل شيء عن عمارته حيث زال كل أثر لهذا القصر وحلَّت محله الآن المدارس التي أنشئت في العصرين الأيوبي والمملوكي وحَيَّ خان الخليلي وحَيَّ الجمالية . ومصدر معلوماتنا عن هذا القصر ما أمَدَّنَا به المقرئزي في كتاب الخِطَط نقلًا عن مصادر أيوبية أو ما شاهده بنفسه من بقايا أطلال القصر التي قُضِيَ عليها تمامًا نحو سنة ١٤٠٨/٨١١ في أيام استبداد جمال الدين الأُسْتَاذَار^{٢٥} . وعلى عكس المدن الإسلامية فقد كان القصر الفاطمي وليس المسجد الجامع هو مركز مدينة القاهرة الذي يتركز حوله نشاط المدينة .

وفي عام ٩٧٠/٣٥٩ وضع جوهر القائد أساس « جامع القاهرة » - الذي

^{٢٣} Marçais, G. , EI² . , art . L'Art Fatimide II , p . 882

^{٢٤} Creswell , K. A. C . , " The Founding of Cairo " CIHC pp . 125 - 130 ; Fu'ad sayyid ,

A. , La capitale de L'Egypte jusqu'à l'époque fatimide (sous press)

^{٢٥} المقرئزي : الخِطَط ١ : ٣٨٤ - ٤٥٨ ، Ravaisse , P . , Essai sur l'histoire et sur la

. topographie du Caire , MMIFAQ, II (1887 , 1890) , Fuâd Sayyid , A . , op . cit

عرف فيما بعد « بالجامع الأزهر »^{٢٦} - ولم يُفْتَح هذا الجامع للصلاة إلا في ٧ رمضان سنة ٢٠/٣٦١ يولية سنة ٩٧١ ، وقد استخدم في بنائه أيضًا الأجر . ويشبه التخطيط الأصلي له تخطيط جامع ابن طولون وجامع المهدية ، والجامع الذي نراه اليوم ليس كله بالجامع الفاطمي الذي وضع أساسه جوهر ، بل هو مجموعة من المباني ضُمَّت إليه أزمنة لاحقة . ولم يبق من الجامع الفاطمي سوى المجاز المتجه إلى المحراب الفاطمي وعقوده وهي الجزء الوحيد الباقي من العقود القديمة^{٢٧} .

أما « جامع الحاكم » فقد بدأ بناءه الخليفة العزيز بالله خارج باب الفتوح القديم سنة ٩٩٠/٣٨٠ وسمّاه « جامع الخطبة » ، ثم توقّف العمل فيه إلى أن أكمله ولده الحاكم بأمر الله سنة ١٠٠٣/٣٩٣ ، ولكنه لم يُفْتَح رسميًا للصلاة إلا في سنة ١٠١٢/٤٠٣ وأطلق عليه في فترة لاحقة اسم « الجامع الأنور » ويجمع هذا الجامع في تخطيطه بين عناصر إفريقية وعناصر مصرية ، فتخطيط الجامع بلا جدال يماثل تخطيط جامع ابن طولون الذي بنى على طراز سامرًا ، ويفتح مدخل الجامع الرئيسي في منتصف جدار مؤخر الجامع في موضع يقابل المحراب ، وهو يتفق في ذلك مع مدخل جامع المهدية . ويبرز المدخل الرئيسي خارج سَمَت جدار المؤخر متخذًا هيئة برجين يتوسطها ممر يؤدي إلى باب بحيث أصبح شكل المدخل يماثل البوابة بالمعنى المصطلح عليه في عمارة الأسوار ، بينما كانت المداخل الرئيسية قبل ذلك تفتح عادة في الجدارين

^{٢٦} استخدم الفاطميون صيغة أفعل التفضيل في تسمية منشآتهم الدينية التي أنشأها الخلفاء مثل : الجامع الأزهر ، الجامع الأنور ، الجامع الأفقر ، الجامع الأفخر . فقد كان الجامع الأزهر يطلق عليه في عصر المسيحي (مطلع القرن الخامس/الحادي عشر) جامع القاهرة ، وكذلك الجامع الأنور الذي ظل لفترة غير قصيرة يعرف بجامع الحاكم .

^{٢٧} المقرئى : الخطط ٢ : ٢٧٣ - ٢٧٧ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ١ : ٤٧ - ٦٣ ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارها ١ : ٤١ - ٥٩ ، Creswell , K . A . C . MAE I , pp . 36 - 64 ; Jomier , J . , El² . , art . al - Azhar I , Fu'ad Sayyid , A . , op . cil ، محمد عبدالله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ١٩٥٨ .

الجانبين غير جداري القبلة والمؤخر كما هو واضح في جامع ابن طولون ، وقد تكرر هذا الطراز في جامع الأقمر (١١٢٥/٥١٩) ولكن بأبعاد مختلفة . أما مئذنتي هذا الجامع فطرز فريد بين المآذن في مصر الإسلامية وقد بنيتا من الحجارة ، واحدة في الركن الغربى الشمالى والأخرى في الركن الشمالى الشرقى على شكل محور أسطوانى تحيط به كتلة مربعة الشكل . وتمثل الزخرفة ذات الأشكال الهندسية والنباتية على قاعدة هاتين المئذنتين وعلى المدخل الرئيسى للجامع مرحلة حاسمة في تشكيل الزخرفة الإسلامية^{٢٨} .

ولم تظهر الحجارة في العمارة الفاطمية إلا عند بناء جامع الحاكم (الأتور) وبذلك أصبح يمكن الاستغناء عن الاستعانة بالطلاء الجصى في غطاء المسطحات الجدارية وتسويتها . وقد أضافت الزخرفة المنحوتة على الحجارة أهمية إلى واجهات المساجد الفاطمية تظهر بوضوح في جامعى الأقمر والصالح طلائع .

ومنذ بناء جامع الحاكم ، لم يبن فى القاهرة أى مسجد ، وكان أول مسجد بنى بعد ذلك هو « الجامع الأقمر » ، ورغم أنه يعرف بالجامع ، فإنه لم يكن جامعاً إذ لم تكن فيه خطبة كما يذكر المقرئى^{٢٩} . وقد شُيّد هذا الجامع ، كما يذكر ابن ميسر ، فى آخر عام ١١٢١/٥١٥ فى أيام الأمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحي^{٣٠} ، وافتتح للصلاة فى عام ١١٢٥/٥١٩^{٣١} . وقد بنيت جدران المسجد وواجهته من الحجارة ، وهى أول واجهة لمسجد قائم بالقاهرة عنى بنائها وزخرفتها ولا تقتصر هذه الزخرفة على البوابة فقط بل تشمل

^{٢٨} المقرئى : الخطط ٢ : ٢٧٧ - ٢٨٢ ، أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ٨٣ - ٨٥ ،

Creswell , K. A. C., MAE I , pp . 65 - 66; Bloom , J. M. " The Mosque of al - Hakim in Cairo " , Muqarnas I (1983) , pp. 15 - 36; Fu'ad sayyid, A., op , cit

^{٢٩} المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩٠ .

^{٣٠} ابن ميسر : أخبار ٩١ ، المقرئى : تعاض ٣ : ٧٧ .

^{٣١} Wiel , G . , CIA Egypte II , pp . 170 - 181; id . , RCEA VIII , pp . 146 - 148 no

واجهه المسجد كلها المواجهة لجدار القبلة ، وهى واجهة تحوى جناحين متماثلين على يمين ويسار المدخل تظهر فيها أشكال المقرنصات لأول مرة في عمارة القاهرة^{٣٢}.

ويعد « جامع الصالح طلائع » ، الذى بناه خارج باب زويلة في عام ١١٦٠/٥٥٥ الوزير الملك الصالح طلائع^{٣٣} ، آخر المساجد الجامعة التى أقامها الفاطميون في القاهرة وهو من المساجد المعلقة ، فقد أقيم على أبنية طابق تحت سطح الأرض كانت تستخدم كمخازن وحوانيت ، وهو بذلك الأول من هذا النوع في القاهرة . وقد تعرّض هذا الجامع لكثير من الحوادث والإصلاحات إلى أن تم ترميمه وإعادة بنائه بواسطة لجنة حفظ الآثار العربية في العقد الثانى من هذا القرن^{٣٤}.

ويلاحظ أن مساحة المساجد في العصر الفاطمى ، التى بنيت بعد جامع الحاكم ، قد أخذت في التقلص ، ويرجع ذلك إلى كثرة وتعدد المساجد الجامعة . كما يلاحظ في تخطيط المساجد الفاطمية اتساع أسكوب المحراب وبلاطته وذلك لتمهيد قاعدة مربعة للقبة التى تقام أمام المحراب على تقاطع أسكوبه ببلاطته . وقد استوجبت قاعدة القبة المربعة تساوى ضلوع هذه القاعدة وأصبحت بذلك عنصراً جديداً في تخطيط المساجد^{٣٥}.

وعرفت مصر في العصر الفاطمى نوعاً آخر من المنشآت الدينية هو المسجد

^{٣٢} انظر ، المقرئى : الخطط ٢٩٠ - ٢٩١ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ٦٩ -

٧٣ ، أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ٩٥ - ١٠٢ ، K. A. C. , MAE I , pp . 241 - 246 ;

Williams, C. , " The Mosque of al - Aqmar " , Muqarnas I (1984), pp. 43 - 52;

. Fu'ad Sayyid , A. , op . cit

^{٣٣} . Wiet , G, RCEA IX no 3231

^{٣٤} انظر المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩٣ ، حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ٩٧ - ١٠٥ ، أحمد

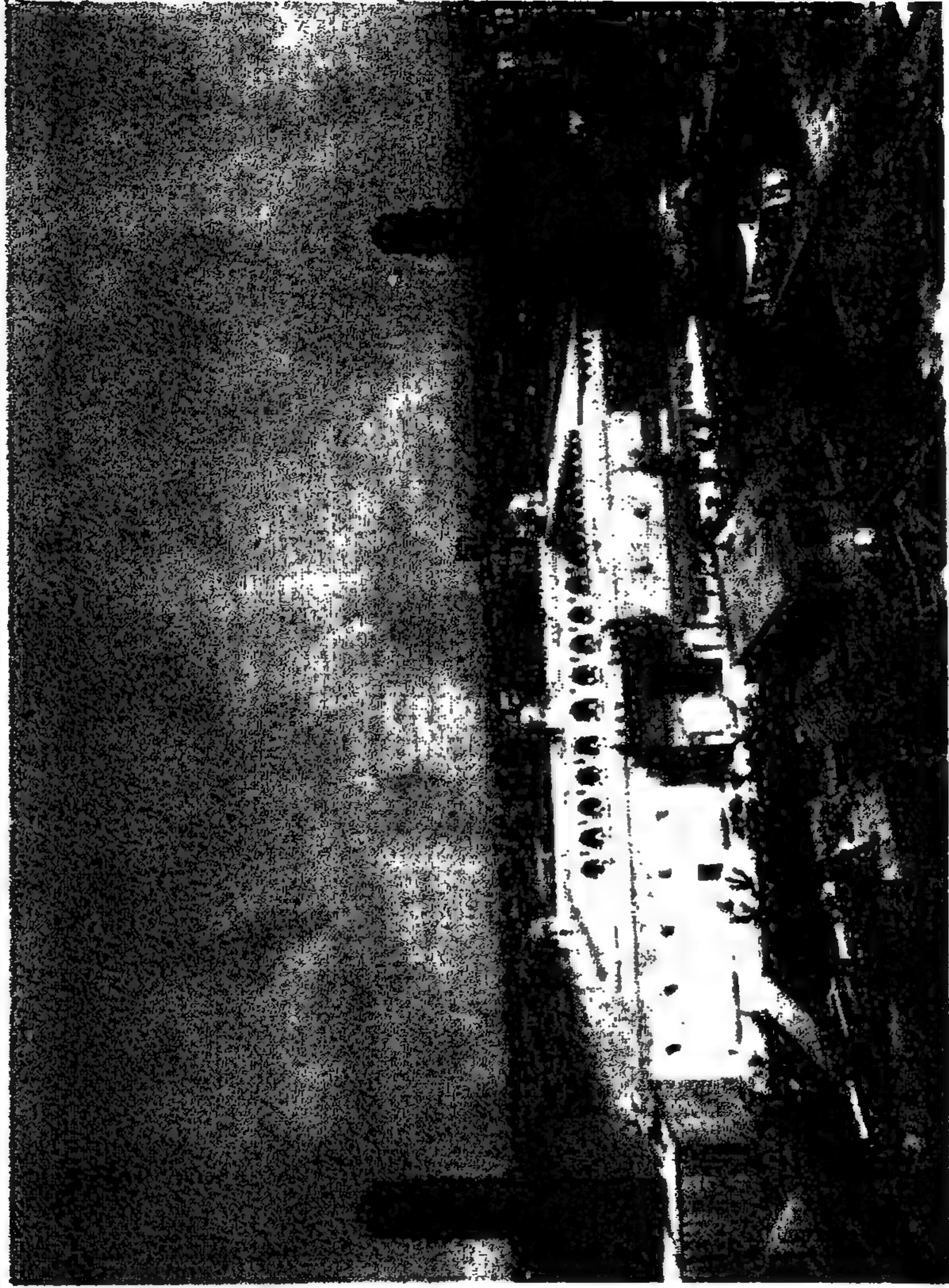
فكرى : المرجع السابق ١ : ١١٠ - ١٢١ ، K. A. C. , MAE I , pp , 275 -

. 288; Fu'ad Sayyid , A. , op . cit

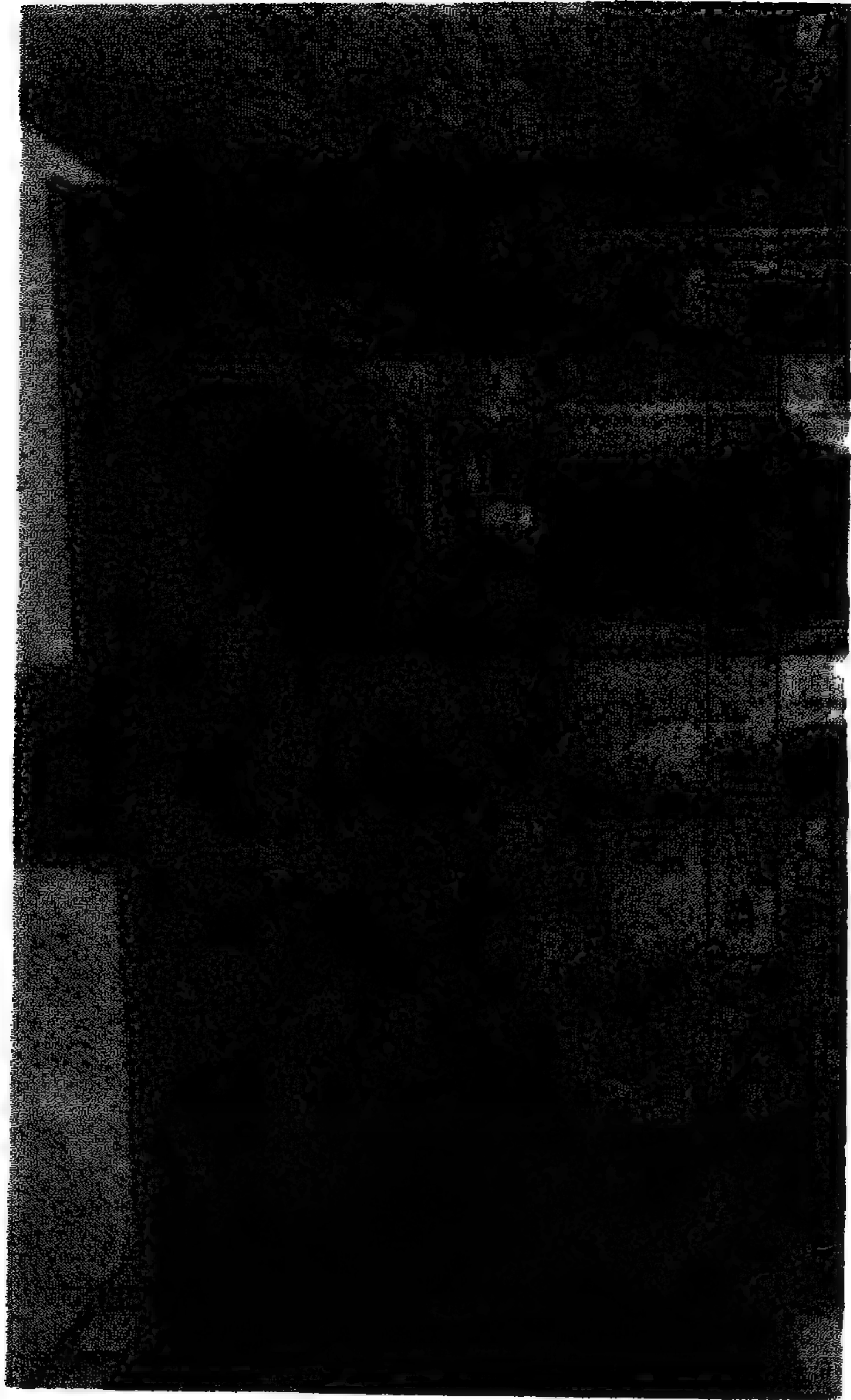
^{٣٥} أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ١٢٦ ، ١٢٧ .



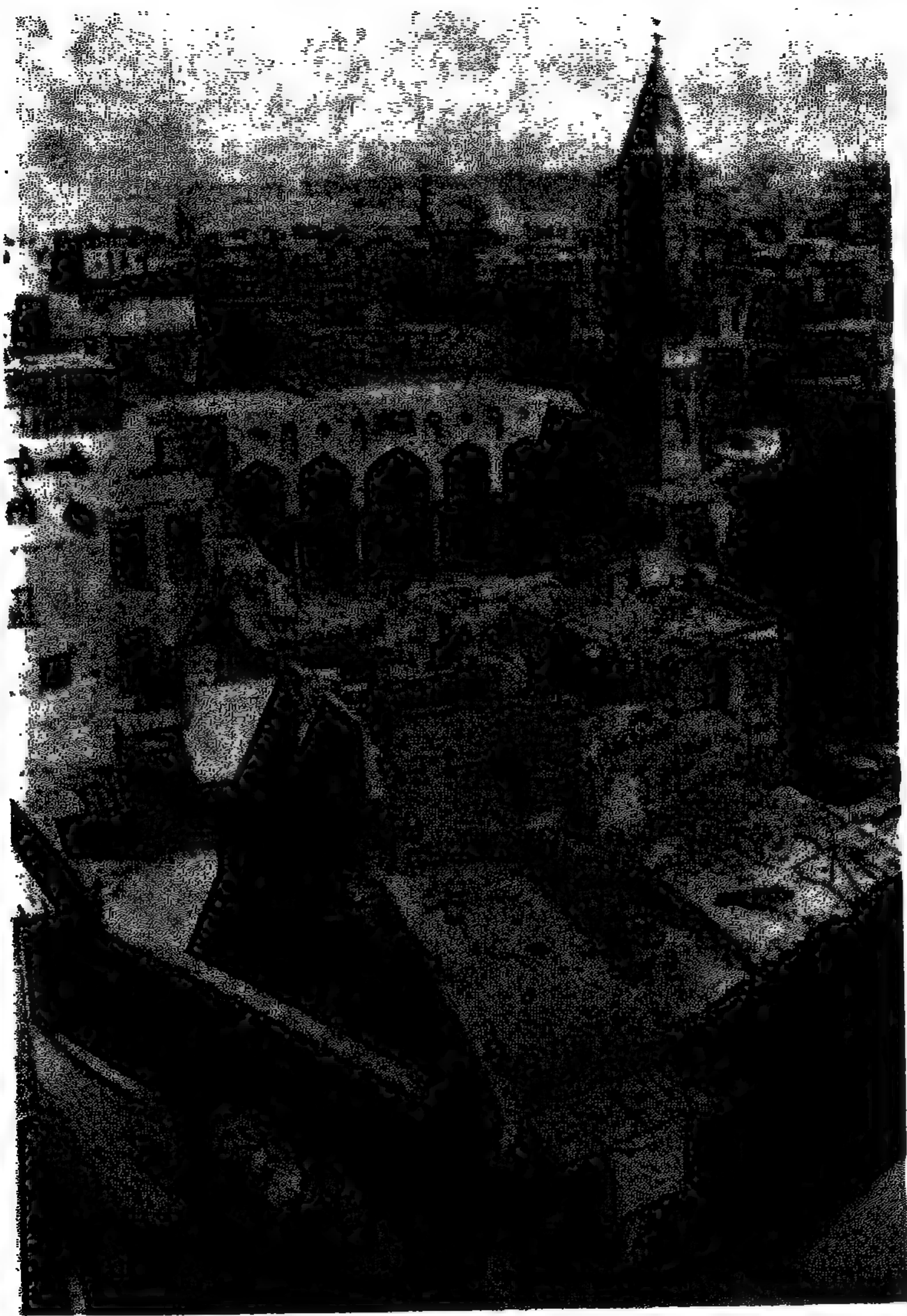
واجهة جامع الحاكم بأمر الله (الأتور)



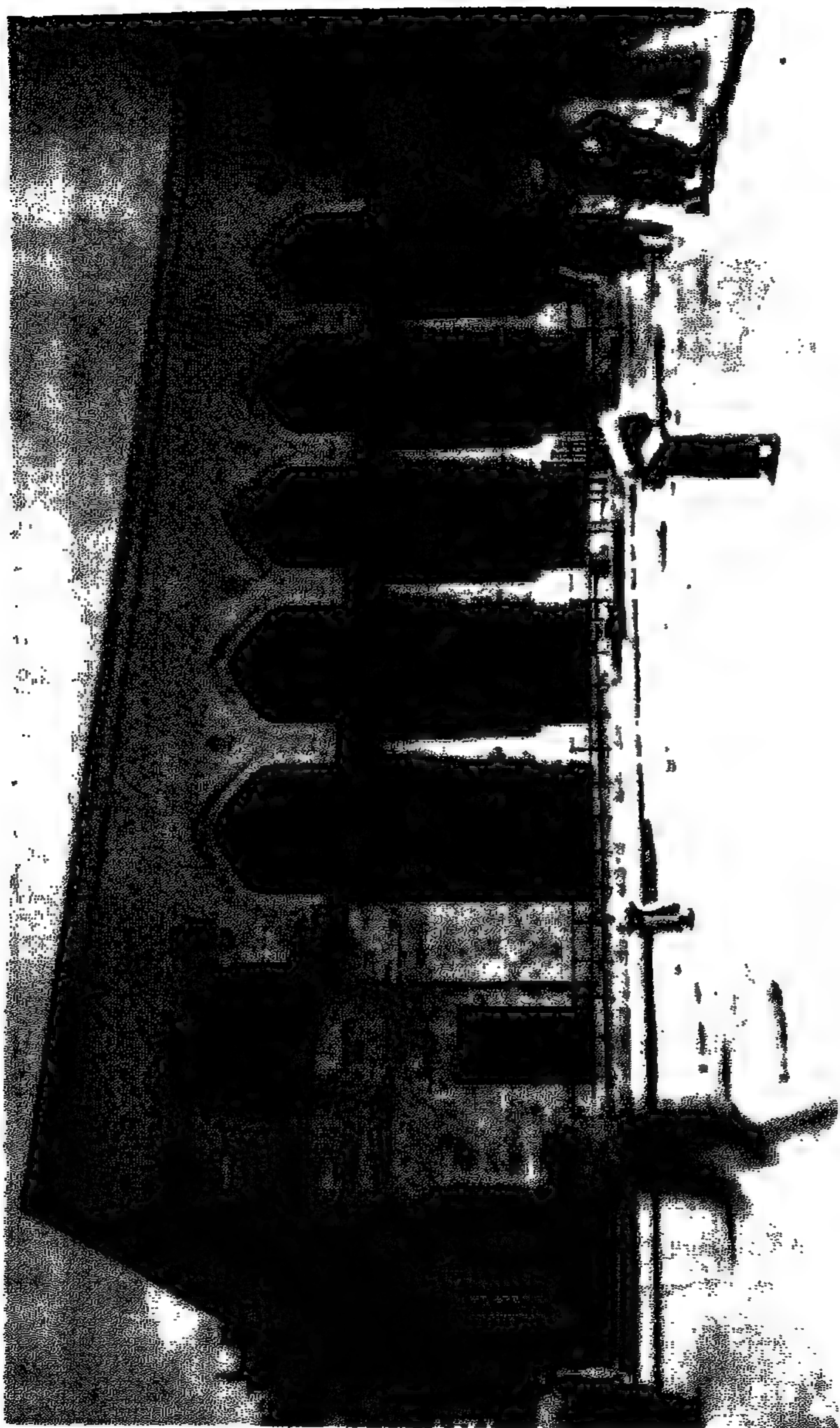
واجهة جامع الحاكم بأمر الله (الأنور) بعد ترميمها



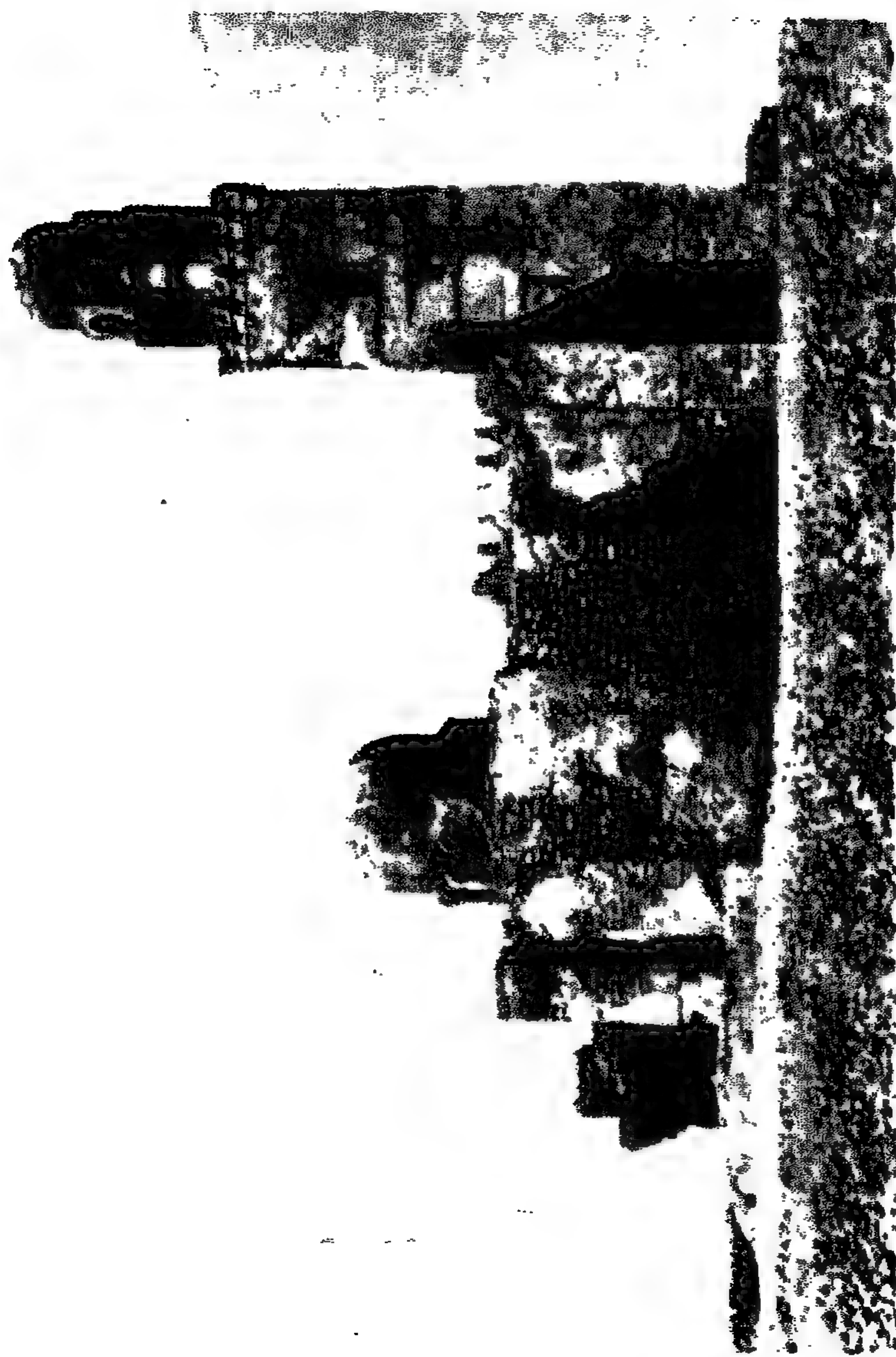
الجامع الأقر (١١٢٥-١١٢١/٥١٩-٥١٥)



جامع الصالح طلائع (١١٦٠/٥٥٥) قبل ترميمه



جامع الصالح طلائع (١١٦٠/٥٥٥) - الواجهة الغربية بعد ترميمها



مشهد الجيوشي (١٠٨٥/٤٧٨) - الواجهة الشمالية الشرقية

ذو الضريح أو « المَشَاهِد » ، وهى مشاهد أقيمت لإحياء ذكرى آل البيت ، وأغلب هذه المشاهد مشاهد رُويّة ويقع أغلبها فى المنطقة المعروفة بالمَشَاهِد بين القاهرة والفُسطاط . ومعظم هذه المشاهد غير ثابت التاريخ ويقوم ترجيح انتماؤها إلى العصر الفاطمى على دراسة عناصرها المعمارية والزخرفية ، وعادة ما يحتفظ المَشْهَد أو المسجد المستخدم ضريحًا بجميع العناصر التخطيطية للمسجد . وأهم هذه المشاهد : مَشْهَد السيدة سُكَيْنَة ، مَشْهَد عَاتِكَة والجَعْفَرى ، مَشْهَد السيدة رُقِيَّة ، مَشْهَد إخوة يوسف ، مَشْهَد اللُّؤلؤة والمشاهد التسعة والقباب السبع بالقرافة^{٣٦} . ويمكننا أن نضيف إلى هذه المشاهد « مَشْهَد الجُيوشى » الذى أقامه بدر الجمالى على هضبة المقطم سنة ١٠٨٥/٤٧٨ ، ربما ليُدفن فيه^{٣٧}

أما « أبواب القاهرة » و « وأسوارها » التى شَيَّدها بدر الجمالى بين عامى ١٠٨٧/٤٨٠ و ١٠٩٢/٤٨٥ فما زال باقيا منها جزء من السور الشمالى وأربعة أبواب : باب النَّصْر وباب الفتوح فى السور الشمالى وباب زُوَيْلَة فى السور الجنوبى وباب البرقية الذى كان يفتح فى السور الشرقى . وقد بنيت

^{٣٦} نفسه ١ : ٢٨ - ٣٨ ، Ragib , y . , " Les Mausolées du quartiers d'al - Masāhid " ،

An . Isl . XVII (1981) pp . 1- 30; id . , " Les Sanctuaires des gens de le famille dans la cité des morts du Caire " , RSO LI (1977) , pp . 47- 46 ; id . , " Sur un groupe de mausolée du cimetière du Caire " , REI XL (1972) , pp . 189 - 159 ;

. Fu'ad Sayyid , A , op . cit

^{٣٧} عن هنا المشهد أو المسجد راجع Van Berchem , M . , " Une mosquée du temps des

Fatimites au Caire " , MIE II (1889) , pp . 605 - 619 , Creswell , K . A . C . , MAE I

، ٩٤ - ٨٩ : ١ ، pp . 155 - 160; Shafei , F . ,

^{٣٨} The Mashhad al - Juyûshi - Archeological notes and Studies " , in Studies in Islamic Art and Architecture 1965 , pp . 237 - 252 ; Ragib , Y . , " Un oratoire

fatimide au sommet du Muqattam " , SI LXV (1987) , pp . 51- 67

مصلى إقامة على المقطم بدر الجمالى لتخليد انتصاره على الخارجين وقضائه على الفوضى رغم أن

نصه التذكارى يذكر أنه مشهد ، Fu'ad Sayyid , A . , op . cit

أبواب القاهرة التي شيدها بدر الجمالي من الحجارة وهي أبنية ضخمة سواء من حيث المساحة التي تشغلها كل بوابة ، وهي حوالى خمسة وعشرين متراً مربعاً ، أو من حيث ارتفاعها الذى يزيد عن عشرين متراً ، أو من حيث الكتل الحجرية التي استخدمت في بنائها وقد جُلب الكثير منها من الآثار الفرعونية وواضح بها إلى الآن الكتابة المصرية القديمة . ويتقدم كل بوابة بدنتان أو برجان ضخمان في الجهة الخارجية عن سَمت الأسوار ، فيما عدا باب البرقية . وتظهر في بوابة النصر أقدم أمثلة لتجميع الصنّج المُعشّقة في عمارة القاهرة إن لم تكن في تاريخ العمارة كلها^{٣٨}.

ويتّضح في هذه الأبواب تأثير العمارة الأرمنية . فيذكر المقرئ أن ثلاثة إخوة قدموا من الرّها بنّائين هم الذين بنوا الأبواب الثلاثة^{٣٩}، بينما يذكر أبو صالح الأرمني أن الذى هُنّس سور القاهرة وأبوابها شخص يدعى يوحنا الراهب^{٤٠}.

الفنون الفرعية

يعد العصر الفاطمى ، من الوجهة الفنية ، عصر النجاح في الوصول إلى طراز فنى يضم بين ثناياه شتى الأساليب الفنية في العصور السابقة . ورغم أن الأساليب الفنية في بداية العصر الفاطمى استمدت الكثير من الأساليب الطولونية وأساليب سامراً إلا أنها لم تلبث أن تفوّقت عليها وتميّزت برهافة الذوق والدقة والبراعة في الإبداع والتنفيذ . وقد تأثرت فنون الفاطميين ببعض التقاليد الإيرانية ، كما أخذت أيضاً عن فنون بيزنطة . ويرى G . Wiet أن اختلاط هذين العنصرين على يد الفنانين المصريين أنتج تحفاً ألطف وأرق من

^{٣٨} أحمد فكرى : مساجد القاهرة ١ : ٢٦ ، ١٥١ ، ٢٠٧ .

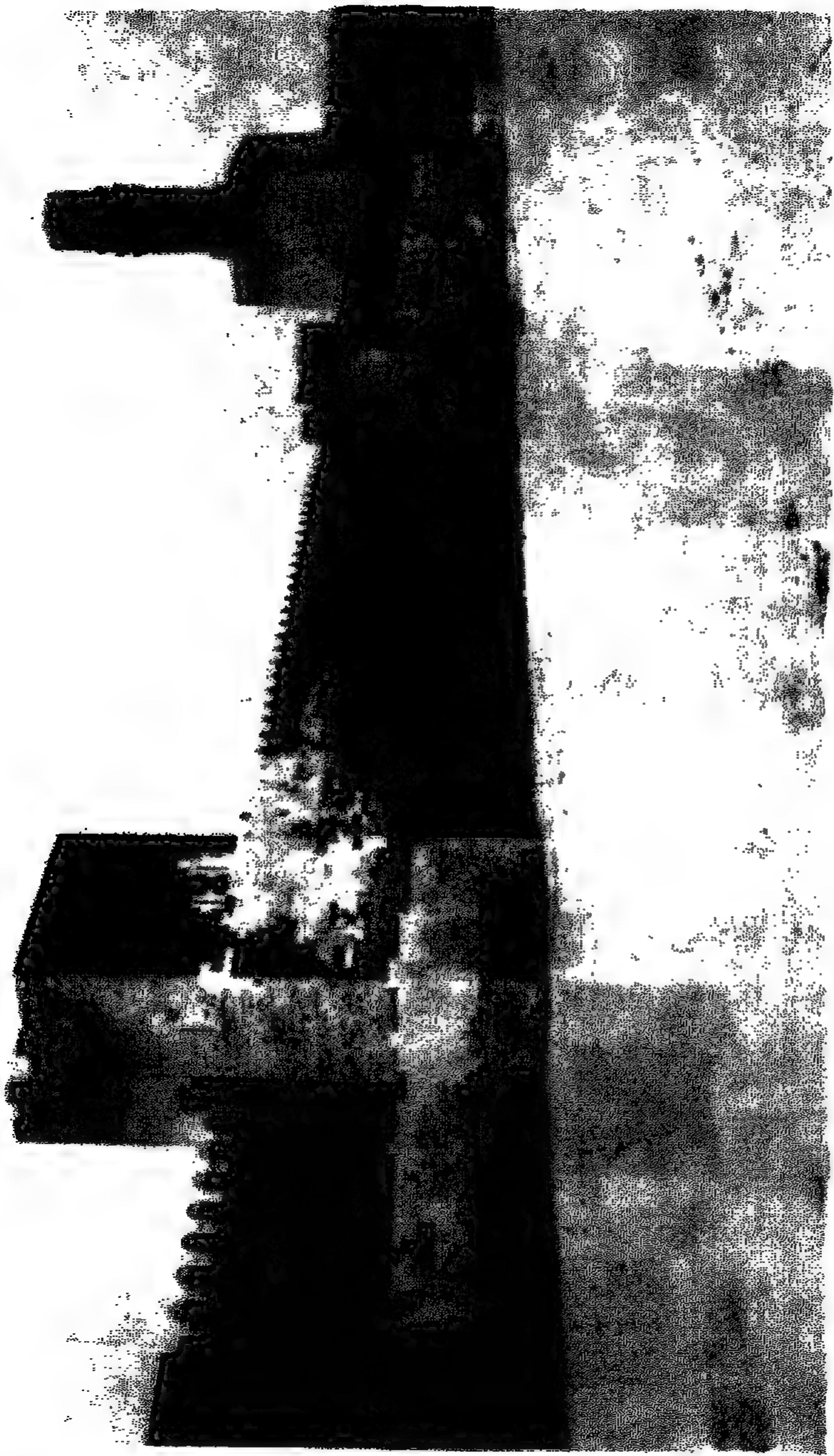
^{٣٩} المقرئ : الخطط ١ : ٣٨١ .

^{٤٠} أبو صالح : تاريخ ٦٥ . وراجع ، أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ٢١ - ٢٨ ، K . Greswell .

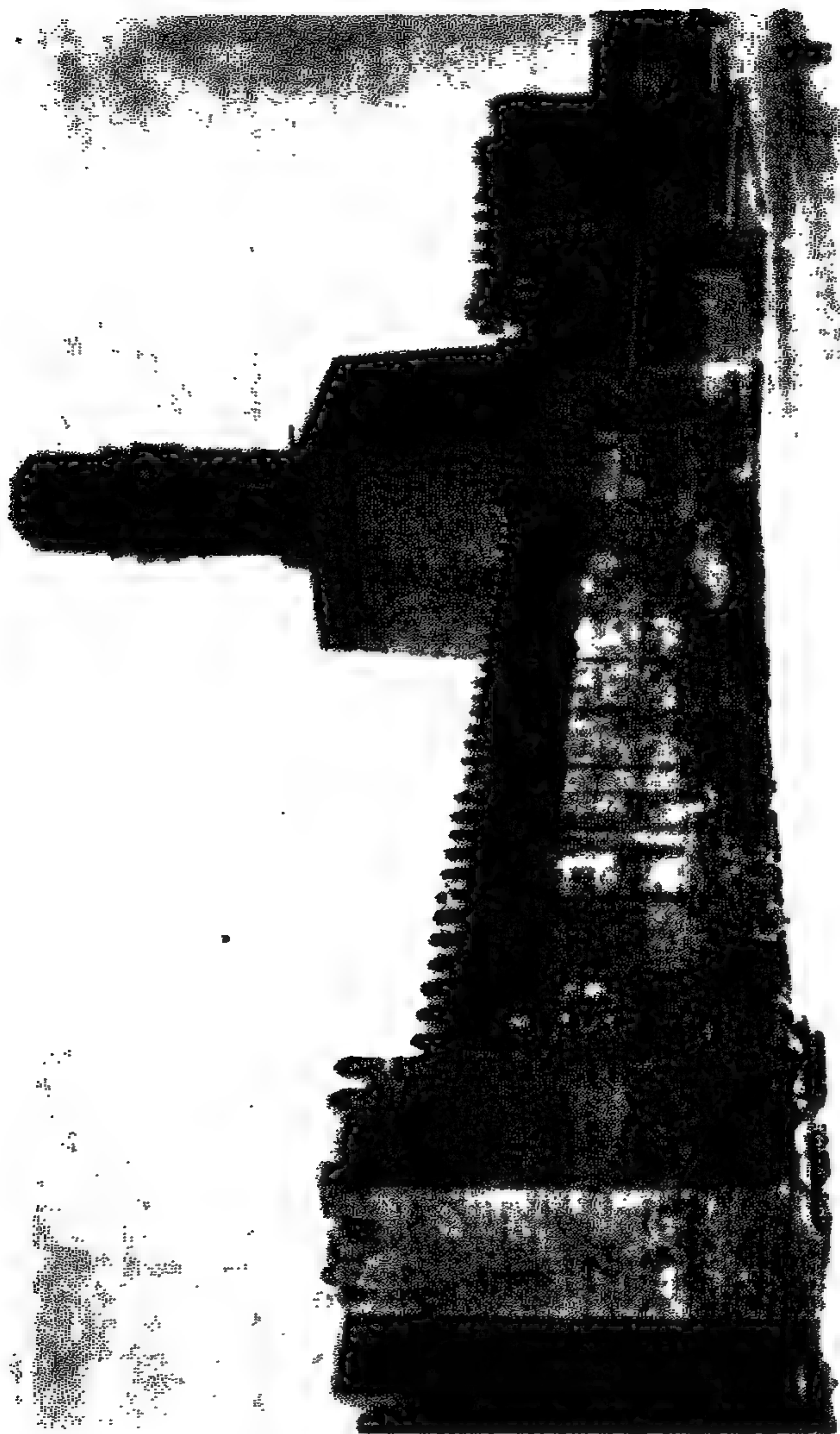
. A . C . I , pp . 161-216; Fu'ad , Sayyid , A . , op . cit . ,



سور القاهرة الشمالى الذى بناه بدر الجمالى سنة ١٠٧٨/٤٨٠ ويربط بين باب النصر وباب الفتوح



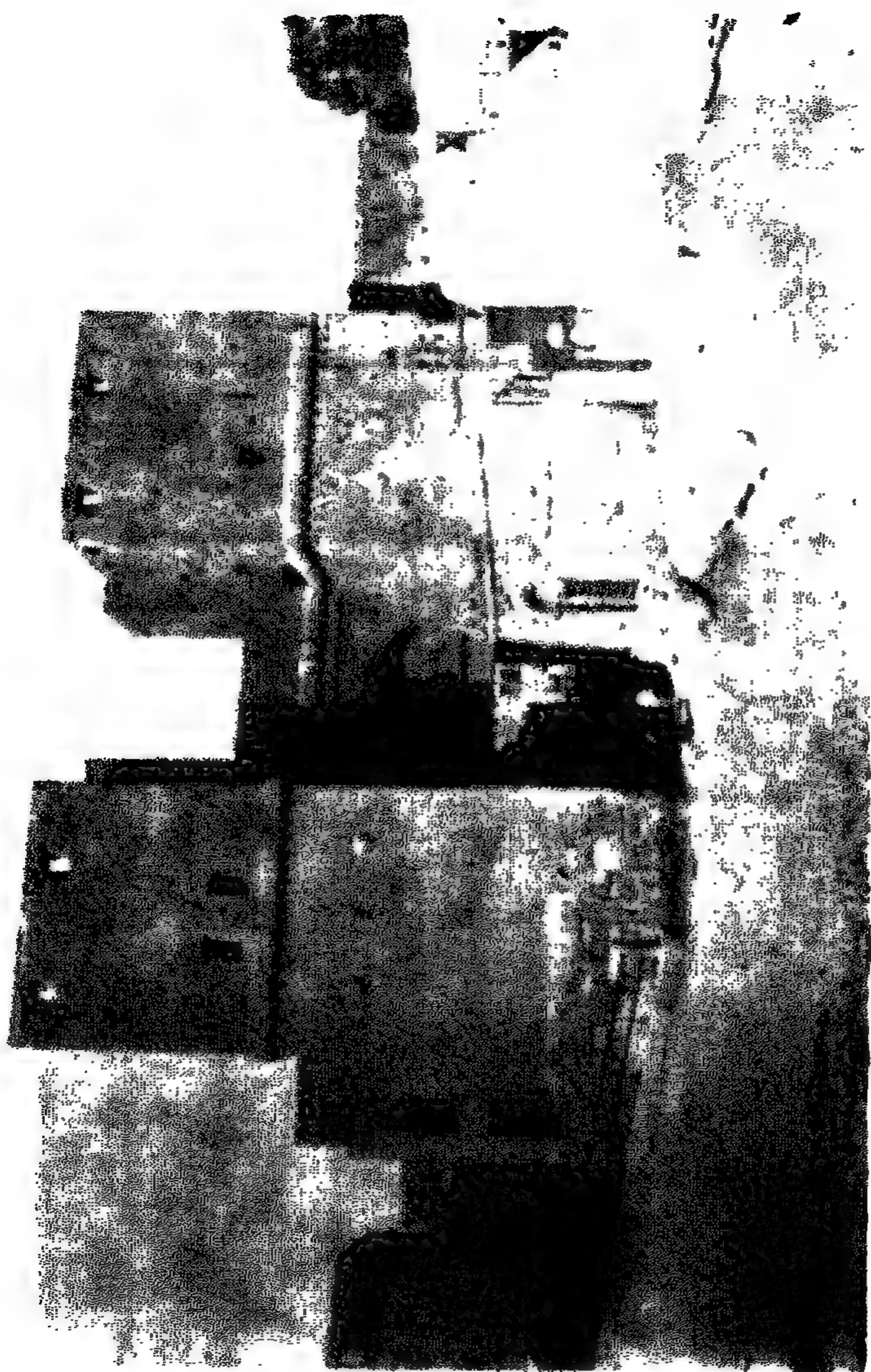
جزء من سور القاهرة الشمالى من جهة باب النصر



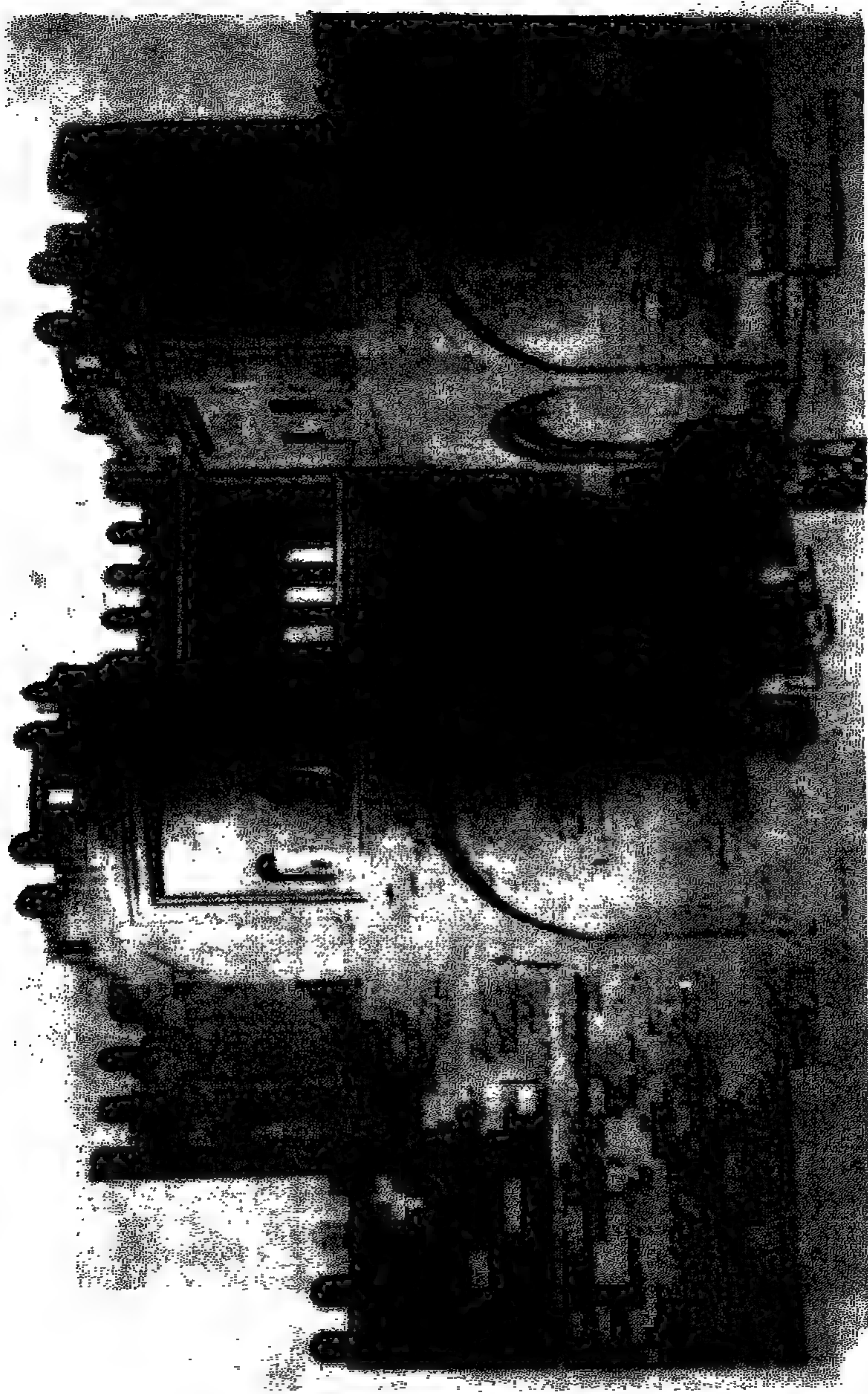
جزء من سور القاهرة الشمال من جهة باب الفتوح



منظر عام لسور القاهرة الشمالى تظهر فيه البَدَنَة اليسرى لباب الفتوح ومئذنة جامع الحاكم



باب النصر (١٠٨٧/٤٨٠)



باب الفتوح (١٠٧٨/٤٨٠)



باب البرقية (١٠٧٨/٤٨٠)
اكتشف سنة ١٩٥٧



باب زَوَيَّة (١٠٩٢/٤٨٥)

منتجات أى عصر آخر ، تميّزت بصدق التعبير وبدقة تصوير الحركة بطريقة لا نجد لها فى النماذج السابقة عليهم حتى يمكننا القول بأن عصر الفاطميين كان « عصر ثورة ملموسة فى الفن » فلم يكتف الفنان الفاطمى بالزخارف النباتية والهندسية أو اتخاذ الكتابة عنصراً أساسياً للزخرفة ، كما كان سائداً فى الطرز السابقة ، بل اكتشف مركّبات وموضوعات زخرفية جديدة حاكى فيها الطبيعة الصادقة ، بل واستمد وحيها فى بعض الأحيان من الحياة اليومية مع براعة فى إبداع النقش والزخارف الدقيقة^{٤١}.

وقد ازدهرت فى العصر الفاطمى العديد من الفنون الفرعية كالتصوير وصناعة النسيج والخزف والأخشاب ذات الزخارف المحفورة .

فقد شجّع الفاطميون (التصوير) والمصورين الذين شملوهم برعايتهم ، وحذا حذوهم الوزراء وكبار رجال الدولة . وقد أشار المقرئ فى الخطط ، فى معرض حديثه عن المنافسة بين المصورين ابن عزيز وقصير ، والتي تمت بحضرة الوزير اليازورى (٤٤٢ - ٤٥٠) ، إلى كتاب طبقات المصورين المنعوت بـ « ضؤ النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المزوّقين من الناس »^{٤٢} . ويقدم لنا المقرئ كذلك وصفاً لصور ونقوش ملونة كانت فى جامع القرافة الذى بنته على طراز الجامع الأزهر السيدة زوجة الخليفة المعزّ ، ولصورة لسيدنا يوسف فى الجبّ كانت فى دار النعمان بالقرافة^{٤٣} . كذلك فقد ذكر الشريف الجوائى أن الخليفة الأمر بأحكام الله بنى على منظره بئر دكة الحركة بالقرب من بركة الحبش منظره من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف على خضرة البركة وصوّر فيها الشعراء كل شاعر وبلده وجعل بجانب كل منهم رف لطيف^{٤٤} . وللأسف فلم يصل إلينا من المخطوطات الفاطمية المزينة بالرسوم

^{٤١} فييت ، جاستون : دليل موجز لعروضات دار الآثار العربية ، ترجمه بتصرف زكى محمد حسن ،

القاهرة ١٩٣٩ ، ١٢ - ١٣ .

^{٤٢} المقرئ : الخطط ٢ : ٣١٨ .

^{٤٣} نفسه ٢ : ٣١٨ .

^{٤٤} نفسه ١ : ٤٨٦ - ٤٨٧ .

والصور ، ولكن أبرز مثال وصل إلينا عن التصوير عند الفاطميين لم يوجد في مصر - مقر الخلافة الفاطمية - بل في جنوب أوروبا وهو زخارف صور الفريسكو بالكابلا بلاتينا Capella Palatina في باليرم بصقلية والتي أمر بعملها الملك النورماندى روجر الثانى Roger II. فمجموعة الصور الجدارية بألوانها الزاهية التى تُزيّن هذه الكنيسة تختلف تمامًا عن الفسيفساء البيزنطية الموجودة فى نفس الكنيسة ، فأسلوب صور هذه الأيقونات والكلمات العربية الموجودة داخل الصور وكذلك صيغ التبرك العربية المطوّلة المستخدمة كأطر لتزيين الصور ، تُظهر بوضوح أن الذى نُفذ هذه الأعمال فنانون مسلمون ظل الفن الفاطمى مستمرًا معهم منذ أن كانت صقلية خاضعة للمسلمين^{٤٥}. وتشتمل هذه الرسوم على كثير من الصور المدنية مثل صور الراقصات والموسيقىات ومجالس الشراب والطرب ، وصور الحيوان والطيور فى أوضاع متماثلة أو فى حالة انقراض بعضها على بعض ، فضلاً عن زخارف نباتية من النخل والأزهار وأوراق الشجر والفاكهة . ومن بين صور الكابلا بلاتينا صورة تمثل إنساناً جالساً وفى يده اليمنى كأس وفى اليسرى زهرة ، ويتدلى فوق جبهته وصدغيه خُصَلات من الشعر ويخف برأسه هالة ، ويكسو الرداء الذى يرتديه زخارف تتألف من وحدة متكررة^{٤٦}. وتتفق هذه الصورة فى كثير من المميزات مع الصورة التى كُشِفَتْ بالحمام الفاطمى بجوار منطقة أبى السعود بمصر القديمة والمرسومة على الجصّ والمحفوطة الآن بمتحف الفن الإسلامى ، وهى تمثل شاباً جالساً يمسك بيده كأساً ، ويرتدى جلباباً تزيّنه حلقات من زخرفة نباتية حمراء اللون وعلى رأسه عمامة ذات طيّات وحول الرأس هالة كاملة الاستدارة^{٤٧}.

^{٤٥} Ettinghausen , R. " Painting in the Fatimid Period - A Reconstruction " , Ars Islamica IX (1942) , p . 113 .

^{٤٦} زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٣٧ ، ١٠٥ ، حسن الباشا : التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ٨٢ .

^{٤٧} حسن الباشا : المرجع السابق ٧٨ ، ٨٢ - ٨٣ . وراجع فى موضوع التصوير ، زكى محمد =

وازهرت (صناعة النسيج) في العصر الفاطمي في دور الطراز العامة والخاصة الموجودة في تَنيس ودمياط وشطا وفي بعض مدن الصعيد . وقد أشار ابن الطوَّير مطولاً إلى وظيفة صاحب الطراز وما كان يُعْمَل في طراز الخاص برسم الخليفة مثل المِظَلَّة وبَدَلَتِها والبَدَنَّة واللباس الخاص الجُمْعَى^{٤٨} . كما أن دار الوزير ابن كِلْس حُوِّلَت في العصر الفاطمي الثاني إلى دار للديباج^{٤٩} ، فقد كان الخلفاء الفاطميون في حاجة ماسة إلى كميات هائلة من المنسوجات لهم ولرجال البلاط وللكُسوة الشريفة وللخَلَع التي كانوا يمنحونها في الاحتفالات والمواسم^{٥٠} . وقد سجَّل ناصر خسرو أثناء زيارته لتَنيس إعجابه بما كان يُنْسَج بها من « قَصَب » ملون تُصنع منه العمام الشَّرْب والطواقى وملابس النساء ، وكذلك قماش البوقلمون وهو قماش ذهبي يتغيَّر لونه بتغير ساعات النهار^{٥١} .

وقد نجح النَسَّاجون في العصر الفاطمي نجاحاً كبيراً في توزيع الألوان واختيارها بالإضافة إلى ثروتهم الزخرفية الواسعة وابتكارهم في الرسوم المستخدمة ذاتها . فنجد فيما وصل إلينا من قطع النسيج الفاطمي السيقان والفروع النباتية مرشومة بثقة وبدقة سواء في التواءاتها أو في ثَقَرُها ونشُوْ غيرها منها ، كما نجدها مزدحمة برسوم الحيوانات على اختلاف أنواعها . وظلت زخارف الأقمشة في العصر الفاطمي في تطور مستمر ، فقد كانت في أوَّل الأمر تحمل أَشْرَطة متوازية في بعضها كتابات ، ثم أخذت هذه الأشرطة تزداد

حسن : المرجع السابق ٨٦ - ١٠٦ ، حسن الباشا : المرجع السابق ١٥٩ - ١٦٥ ، فنون

التصوير الإسلامي في مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ، ٥٦ - ٩٠ ، محمود إبراهيم حسين : التصوير

الإسلامي في مصر في العصر الفاطمي ، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

^{٤٨} ابن الطوَّير : نزهة المقلتين ١٠١ - ١٠٤ ، وانظر كذلك Goitein , S. D. " Petitions to

Fatimid Caliphs from the Cairo Geneza ", the Jewish Quarterly Review XLV

. (1954), pp. 34 - 36

^{٤٩} المقرئى : الخطط ١ : ٤٦٤ .

^{٥٠} انظر أعلاه ص ...

^{٥١} ناصر خسرو : سفرنامه ٧٧ .

عرضاً وعدداً بين القرنين الخامس والسادس/الحادى عشر والثانى عشر حتى أصبحت فى بعض الأحيان تكسو سطح النسيج كله ، كذلك فإننا نجد على المنسوجات الفاطمية زخارف فى معينات وفى جامات (مناطق) مختلفة الأشكال^{٥٢}.

وكانت أسماء الخلفاء وألقابهم تكتب على الأقمشة بلحمة من الذهب أو الفضة أو بخيوط متعددة الألوان ومن مادة أغلى من مادة النسيج ، وكان شريط الكتابة يشمل أيضاً بعض عبارات الأدعية وتاريخ الصنعة واسم مصنع الطراز الذى نسجت فيه هذه الزخرفة^{٥٣} ، فقد كانت كتابة أسماء الخلفاء على الطراز أحد رموز السيادة^{٥٤}.

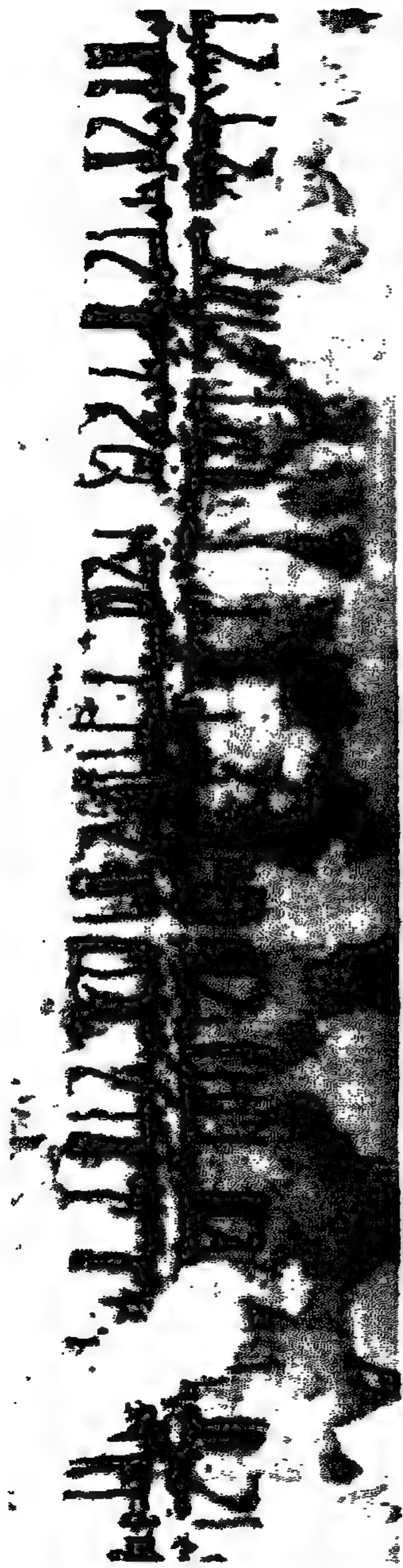
ووصل إلينا العديد من نماذج النسيج الفاطمى محفوظة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة وفى المتاحف العالمية^{٥٥}.

^{٥٢} فيت ، جاستون : المرجع السابق ٧٦ - ٧٧ .

^{٥٣} زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ٨٣ - ٨٥ ، وعن الطراز راجع ، الخزومى : المنهاج ٣٢ - ٣٣ ، ابن ممانى : قوانين ٣٣٠ - ٣٣١ ، ابن الطوير : نزهة ١٠١ - ١٠٤ والمراجع المذكورة فى الهامش رقم ٥٥ ، Cahen , Cl . , Makhzūmiyyāt , pp . 190 - 193 ، صلاح الدين البهري : نص هام عن أحوال دار الطراز المصرية فى أوائل الدولة الأيوبية ، القاهرة - مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٣ .

^{٥٤} ابن الصيرفى : الإشارة ١٠٥ ، وانظر تفاصيل الأمتعة المخرجة من القصر الفاطمى وقت الأزمة زمن المستنصر من الستور والمقاطع والثياب المنسوجة من الذهب والفضة وغير ذلك عند الرشيد ابن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

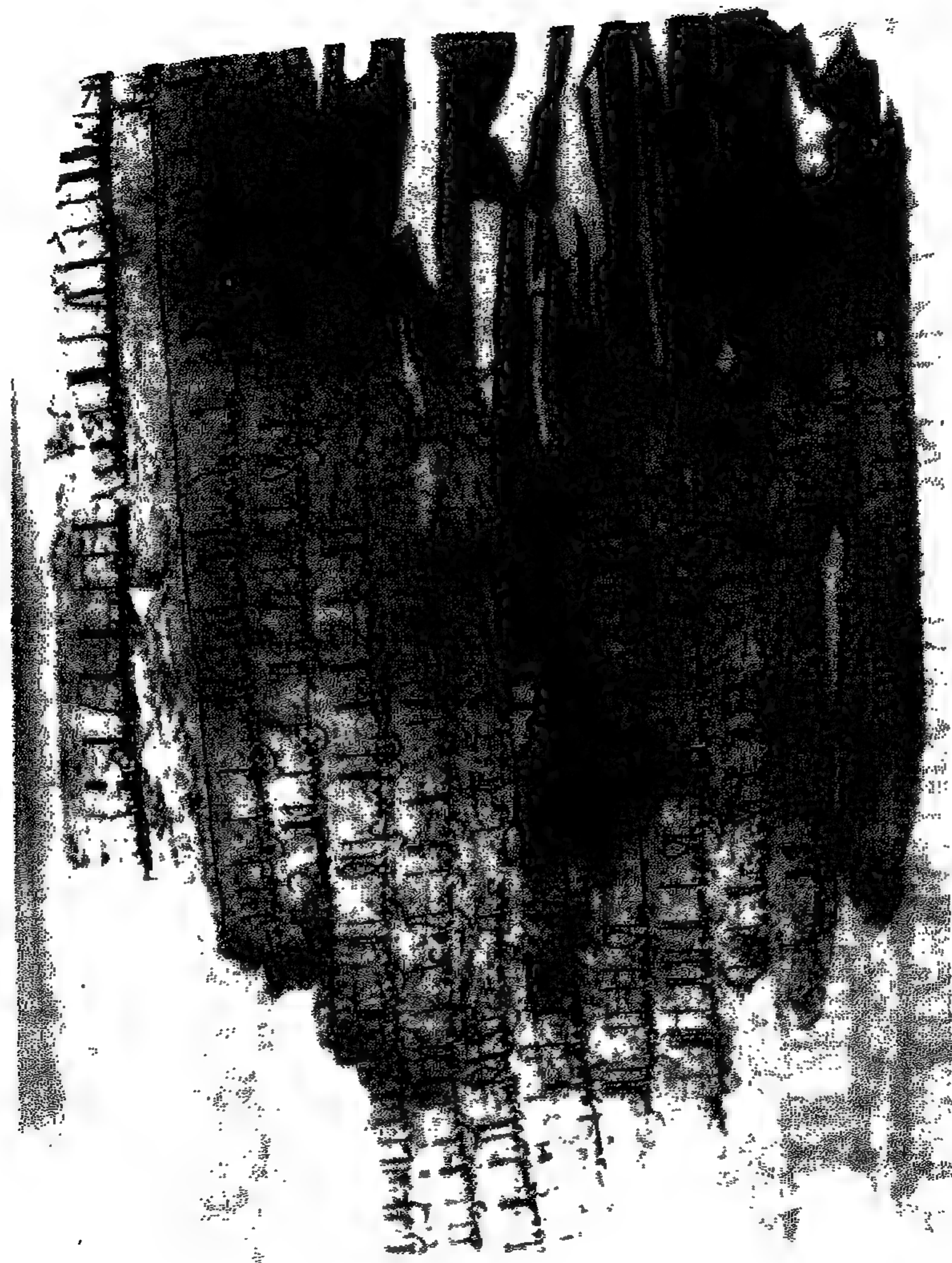
^{٥٥} عن صناعة النسيج وما وصل إلينا من قطع النسيج الفاطمى راجع ، محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٤٢ ، سعد ماهر : النسيج الإسلامى ، القاهرة ١٩٧٧ ، Bahgat , A . , Les manufactures d'etoffes en Egypte " , BIE (1903) , pp . 351 - 61 ; Combe , E . , " Tissus fatimides du Musée Benaki " , Melanges Maspero , Le Caire IFAO 1940 , III , pp . 259 - 272 ; Serjeant , R . B . Islamic Textiles - Material for a History up to the Mongol Conquest , Beirut 1972 ; Rogers , Early Islamic Tetiles , Brighton 1983 .



قطعة نسيج باسم العزيز بالله



قطعة نسيج باسم الحاكم بأمر الله ٩٩٧/٣٨٧



عقد زواج على القماش من عهد المستنصر

ويعد (الخَزَف ذو البريق المعدني) من أهم الفنون التي تميّز بها العصر الفاطمي . وإن كان مما يؤسف له أن النماذج السليمة التي نعرفها منه نادرة جدًا ، فما كُثِفَ منه في أطلال الفُسطاط ، على كثرته ، نماذج غير كاملة . وقد استخدم المسلمون الخَزَف ذا البريق المعدني بدلًا من الأواني الذهبية التي حرّم الإسلام استعمالها لماله من بريق يعادل بريق الأواني الذهبية ، وإن كنا نعلم من المصادر أن الفاطميين ، رغم ذلك ، قد استخدموا الأواني الذهبية والفضية .

وقد تطورت هذه الصناعة في مصر تطورًا طبيعيًا حتى بلغت أقصى درجات الجودة في العصر الفاطمي . وهذا الضرب من الخَزَف يعد من مفاخر صناعة الخَزَف الإسلامية ، لا سيما وأن الصين الدائعة الصيت في صناعة الخَزَف لم تعرف هذه الصناعة ، كما لم يَفْلَح الخَزَافون الغربيون في تقليده إلا في القرن الثامن عشر^{٥٦} . وقد أشاد ناصر خسرو بصناعة الفخار في مصر الفاطمية من كل نوع ووصفه بأنه لطيف وشفاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وأنه كانت تُصنَع منه الكؤوس والأقداح والأطباق ، ويضيف ناصر أن المصريين كانوا يزينونها بألوان تختلف وتتغير باختلاف أوضاع الإناء^{٥٧} . ومما يدل على ازدهار صناعة الفخار عمومًا في العصر الفاطمي ما ذكره ناصر خسرو أيضًا من أن التجار في مصر من بقالين وعطارين وبائعي خردوات كانوا يعطون الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج أو خزف بحيث لا يحتاج المشتري أن يحمل معه وعاء^{٥٨} .

وذكر صاحب كتاب « الذخائر والتحف » أن من بين ما وجد في القصر في أثناء الأزمة سنة ١٠٦٨/٤٦١ خزائن مملوءة من سائر أنواع الصيني الذي

^{٥٦} جمال محمد محرز : « الخزف الفاطمي ذو البريق المعدني » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٧

(١٩٤٤) ١٤٣ .

^{٥٧} ناصر خسرو : سفر نامه ١٠٣ - ١٠٤ .

^{٥٨} نفسه ١٠٥ .

يستعمله الناس ، وجد في بعضها أجاجين (ج . إجانة وهو الإناء المعد لغسل الثياب) صيني كبار وصغار محمولة على ثلاث أرجل على صور الوحوش والسباع والبهائم قيمة كل قطعة منها ألف دينار^{٥٩}.

وتكتسب القطعة الخزفية هذا البريق المعدني باستخدام أملاح معدنية كالنحاس والحديد وربما الفضة لرسم الموضوعات الزخرفية فوق الطبقة الزجاجية التي يُطلى بها الفخار لتمنعه من امتصاص الألوان ، ولهذا تدخل القطعة الخزفية الفرن ثلاث مرات : الأولى لإكساب الطمى صلابة ، والثانية لتثبيت الزجاج فوق الفخار ، والثالثة لتثبيت المعدن ، إذ أن الأملاح تتحول باتحادها بالدخان المتصاعد من النار إلى طبقة رقيقة من المعدن فوق الطبقة الزجاجية التي يغلب عليها اللون الأبيض والتي تكون معتمدة في أكثر الأحيان نتيجة إضافة القصدير إلى المادة الزجاجية كما قد تكون شفافة إذا ما أضيف الرصاص^{٦٠}.

ويمتاز الخزف الفاطمي بأنه ذو لون واحد يميل إلى الاحمرار ويغطي مسطحه الخارجي طلاء رقيق أبيض أو أبيض مائل إلى الزرقة أو الإخضرار وتعلوه رسوم ذات بريق معدني ذهبية اللون^{٦١}. ولم يتقيد شكل التحف الخزفية الفاطمية بشيء ، حتى أننا نجد منها ضروباً شتى من الأواني ذات الأحجام والأشكال المتنوعة : قدور كبيرة ذات أجسام ضخمة ، وسلطانيات عميقة تشبه الأواني الإغريقية وأطباق مسطحة تشبه الصحون^{٦٢}. أما العناصر الزخرفية التي نجدها على التحف الخزفية الفاطمية فهي رسوم آدمية أو حيوانية أو زخارف نباتية في مناطق هندسية تصاحبها أحياناً كتابات كوفية^{٦٣}. وبلغ

^{٥٩} الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٥ (المقريزي : انعاظ ٢ : ٢٨٥ - ٢٨٦ ، الخطط ١ : ٤١٥).

^{٦٠} جمال محرز : المرجع السابق ١٤٤ .

^{٦١} زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٥١ .

^{٦٢} جمال محرز : المرجع السابق ١٦٥ .

^{٦٣} نفسه ١٦٥ ، Grabar, O., "Imperial and Urban Art in Islam: The Subject Matter of Fatimid Art", CIHC pp. 178-179.



طبق من الخزف ذي البريق المعدني - آخر القرن الرابع الهجري



طبق من الخزف ذى البريق المعدنى - القرن الخامس الهجرى



طبق من الخزف المرسوم - القرن الخامس الهجرى



طبق مرسوم من الخزف ذى البريق المعدنى - القرن الخامس الهجرى

الخزافون الفاطميون مرحلة متقدمة في دقة التعبير في الرسوم الآدمية التي صوروا فيها أشخاصاً يقومون بمختلف الأعمال حيث نرى فيها راقصين ومناظر الشراب والطرب والموسيقى ورسوماً لنساء رشيقات ، إلى حد قد يبعث على الظن بأنهم تأثروا في بعض الأحيان برسوم هيلينستية أو بيزنطية^{٦٤}. وقد وصلت إلينا نماذج عديدة من الخزف الفاطمي مثبت عليها مكان الصنع وتوقيع الصانع^{٦٥}.

ومن الفنون المتطورة في العصر الفاطمي (المصنوعات الزجاجية) و (صناعة البلّور الصخري). فمن المصنوعات الزجاجية التي وجدت رواجاً في العصر الفاطمي « الصُّنَجُ الزجاجية » التي تستخدم كعيارات وزن وكَيْل ويطبع بها على الأواني لبيان أحجامها المختلفة^{٦٦}. ويحدثنا المقرئى وهو يصف قرية سمناي ، إحدى قرى تَنيس ، نقلاً عن شاهد عيان أنه كُشِفَ بها في ربيع الأول سنة ٨٣٧/أكتوبر سنة ١٤٣٣ غضارات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الإمام المُعزّ لدين الله وعلى البعض الآخر اسم الإمام العزيز بالله وكذلك اسم الإمام الحاكم بأمر الله واسم الإمام الظاهر لإعزاز دين الله وأكثرها عليه اسم الإمام المستنصر بالله^{٦٧}. وقد وصل إلينا العديد من هذه الصُّنَجِ ووجدت طريقها إلى المتاحف العالمية^{٦٨}.

^{٦٤} زكى محمد حسن : « تحف جديدة من الخزف الفاطمي ذى البريق المعدنى » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٣ (١٩٥١) ٩٤ .

^{٦٥} عبدالرؤوف على يوسف : « خزافون من العصر الفاطمي وأساليبهم الفنية » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٢٠ (١٩٥٨) ١٧٣ - ٢٢٣ .

وراجع بالإضافة إلى المراجع المذكورة في الهوامش السابقة ، زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٤٧ - ١٧٥ ، حسن الباشا : « طبق من الخزف باسم (غُثْن) مولى الحاكم بأمر الله » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٨ (١٩٥٦) ٧١ - ٨٥ ، عبدالرؤوف على يوسف : « طبق غُثْن والخزف الفاطمي المبكر » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٨ (١٩٥٦) ٨٧ - ١٠٦ ، Wiet, G., "Deux pièces de Céramiques égyptienne", Ars , 1936 (1936) pp. 172 - 179 .

^{٦٦} زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٧٩ .

^{٦٧} المقرئى : الخطط ١ : ١٨١ ، زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٨٠ .

^{٦٨} = Jungfleisch, H., "Jetons (ou Poids) en verre de l'Imam al-Montazar", BIE

ولا شك أن صناعة الزجاج قد تقدمت في العصر الفاطمي تقدماً كبيراً مهّد لبلوغها الذروة في عصر المماليك الذي صنعت فيه المشكاوات المموّهة بالمينا والتي تعد فخر صناعة الزجاج عند المسلمين على الإطلاق^{٦٩}.

ويدلنا على تَقَدُّم صناعة الزجاج والبلّور في العصر الفاطمي ما كتبه ناصر خسرو وما ذكره صاحب كتاب «الدخائر والتحف» في منتصف القرن الخامس/الحادي عشر، بالإضافة إلى النماذج المتعددة التي وصلت إلينا من الكؤوس والقوارير والأواني الزجاجية.

فيذكر ناصر خسرو أنهم كانوا «يصنعون بالفسطاط قوارير كالزبرجر في الصفاء والرقّة ويبيعونها بالوزن»^{٧٠} وأنه شاهد هناك أيضاً بسوق القناديل «معلمين مهرة ينحتون بلوراً غاية في الجمال، يحضرونه من المغرب» وأضاف أنه ظهر حديثاً، عند بحر القلزم «بلور أطف وأكثر شفافية من بلور المغرب»^{٧١}.

ولعل أهم المصنوعات الزجاجية الفاطمية وأكبرها قيمة فنية هو الزجاج المذهّب والمزّين بزخارف ذات بريق معدني. وللأسف فإن ما وصل إلينا من هذا النوع وكشف في حفائر الفسطاط ليس نماذج كاملة^{٧٢}.

واستخدم الفاطميون كذلك البلّور الصخري في عمل الكؤوس والأباريق وغيرها، فيذكر صاحب كتاب «الدخائر والتحف» أنه وُجِدَ في خزائن

XXXIII (1950 - 51), pp. 359 - 374, Balog, P., "Fatimid Glass Jetons: Token = Currency or Coin - Weights?", JESHO XXIV (1981), pp. 93 - 109, id., "The Fatimid Glass Jeton", Annali dell'Istituto Italiano 18-19 (1971 - 72), pp. 175 - 264; 20 (1973), pp. 121-212.

^{٦٩} زكي محمد حسن: المرجع السابق ١٨٠.

^{٧٠} ناصر خسرو: سفرنامه ١٠٤.

^{٧١} نفسه ١٠٣.

^{٧٢} زكي محمد حسن: المرجع السابق ١٨٣.

الطرائف والفضة ، وقت الأزمة ، « ستة وثلاثون ألف قطعة من مُحْكَم وبلّور مجرود من سائر أنواعه »^{٧٣} ، وأن ناصر الدولة حصل من خزائن القصر على « قاطرميز وعاء عميق ذو غطاء بلّور فيه صور نابتة عن جسمه يسع من الشراب سبعة عشر رطلاً ، ودكّوَجَة^{٧٤} بلّور مجرود تسع وعشرين رطلاً »^{٧٥} ، كذلك وجد في خزائن القصر « مجمع سكارج^{٧٦} مخروط من قطعة بلّور بغطائه ، وفيه سكارج بلّور تخرج منه وتعود إليه ، فتحتة أربعة أشبار في مثلها مليح الصنعة في غلاف خيزران مذهب »^{٧٧} . وكان مما حصل عليه ناصر الجيوش ، على هيئة كيزان الزير المعمولة من النحاس ، نوع معمول من البلّور المجرود مقبضه مستخرج منه يحمل عشرة أرطال من الماء بالمصرى^{٧٨} .

أما أحسن فروع الفن الفاطمي حظاً في وفرة النماذج التي وصلت إلينا فهي (الأخشاب ذات الزخارف المحفورة - Bois Sculptés) . وقد وصلت إلينا منها نماذج كثيرة على شكل حَشَوَات وألواح خشبية ومصاريع أبواب ومناير متنقلة ، كانت في المساجد والكنائس وبقايا القصر الفاطمي الصغير ، محفوظة اليوم في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، وتعد أغنى المجموعات الخشبية في متاحف العالم أجمع .

وفي دراسته الهامة عن « مميزات الأخشاب المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي في مصر » قَسَمَ فريد شافعي الطراز الفاطمي إلى ثلاث مراحل . المرحلة الأولى وتشمل النصف الأول من القرن الخامس/الحادي عشر ،

^{٧٣} الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٨ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٢٩٠ .

^{٧٤} دَكُّوَجَة أو دَكُّوَشَة (ج . دكاكيج . جَرَّة صغيرة) . (Dozy , R . , Suppl . Dict . Ar . I .) . 453 .

^{٧٥} نفسه ٢٥٩ ، نفسه ٢ : ٢٩١ .

^{٧٦} سُكْرُوَجَة أو سُكْرُجَة (ج . سكارج) . القَصَّة أو الجَفَنَة ، (Dozy , R . Suppl . Dict . Ar . I . 668) .

^{٧٧} الرشيد بن الزبير : الذخائر ٢٦٠ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ٢٩٢ .

^{٧٨} نفسه ٢٦١ ، نفسه ٢ : ٢٩٣ .

والمرحلة الثانية وتشمل النصف الثاني من القرن الخامس/الحادى عشر والرابع الأول من القرن السادس/الثانى عشر ، والمرحلة الثالثة وتشمل الربع الثانى والرابع الثالث من القرن السادس/الثانى عشر^{٧٩}.

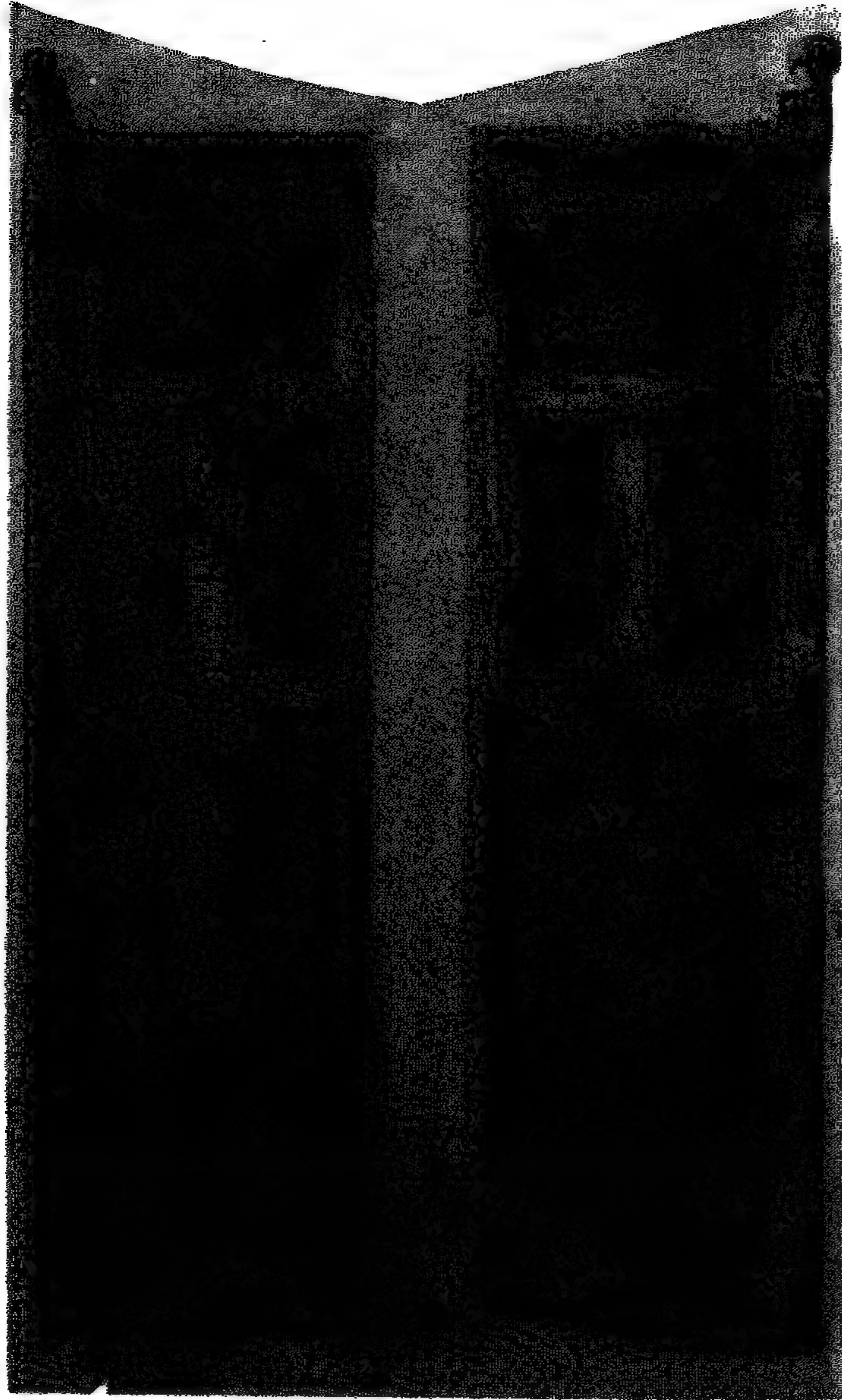
وتعد المرحلة الأولى استمراراً للطراز الطولونى أو الطراز السامرى الثالث فى مصر (نسبة إلى سامراء) ، وأهم نماذجها حشوات مصراعى الباب الذى أمر بعمله الحاكم بأمر الله ليوضع فى الجامع الأزهر وقت تجديده سنة ١٠١٠/٤٠٠^{٨٠}.

وأهم نماذج المرحلة الثانية الأخشاب التى اكتشفت أثناء عملية ترميم مارستان قلاوون فى مطلع هذا القرن ، فقد كشف فيه عن مجموعة نادرة من التحف الخشبية كانت مستخدمة بالقصر الفاطمى الغربى ، الذى بنى فى موضعه المارستان ، وأعيد استخدامها فى المارستان على وجهها الآخر فى كسوة الجزء العلوى من جدران مارستان قلاوون . وهى عبارة عن ألواح طويلة يبلغ عرض الواحد منها نحو ٣٠ سم كانت مستخدمة فى تغطية الإفريز الأعلى بالجدران^{٨١}. وقد زخرفت هذه الألواح بتقسيمها إلى ثلاثة أشرطة ، الأوسط عريض وفى حافته العليا والسفلى شريطان رفيعان مزخرفان بعروق على هيئة أمواج مطردة أو متقابلة فى تماثل وتخرج منها أوراق نخيلية وأنصاف نخيلية ، وزخرفت أمثلة قليلة من هذه الأشرطة الرفيعة بحلزونات بداخلها عناصر نباتية ورسوم حيوانات وطيور . أما الشريط الأوسط العريض فقد قُسم إلى مناطق

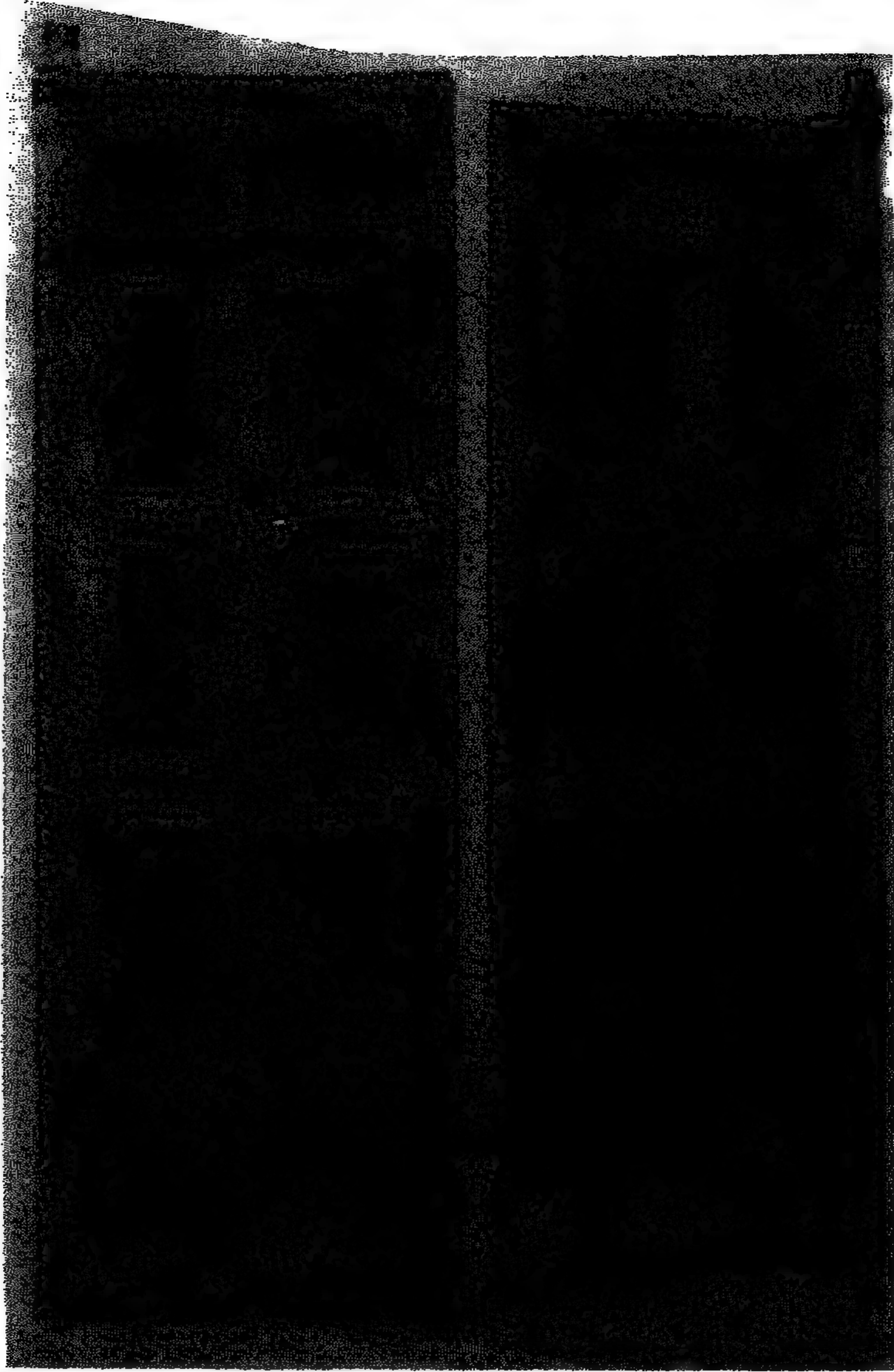
^{٧٩} فريد شافعى : « مميزات الأخشاب المزخرفة فى الطرازين العباسى والفاطمى فى مصر » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٦ (مايو ١٩٥٤) ٦٦ - ٩١ .

^{٨٠} زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٠٢ - ٢٠٢ ، فريد شافعى : المرجع السابق ٦٤ .

^{٨١} انظر Herz , M . , " Boiserie fatimite aux Sculptures figurale " , Orientalisches Archiv III (1913) , pp . 169 - 174 ; Marçais , G . , " Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés d'époque fatimide conservés au Musée du Caire " , Melanges Maspero , Le Caire IFAO 1940 , III , 241 - 57 .



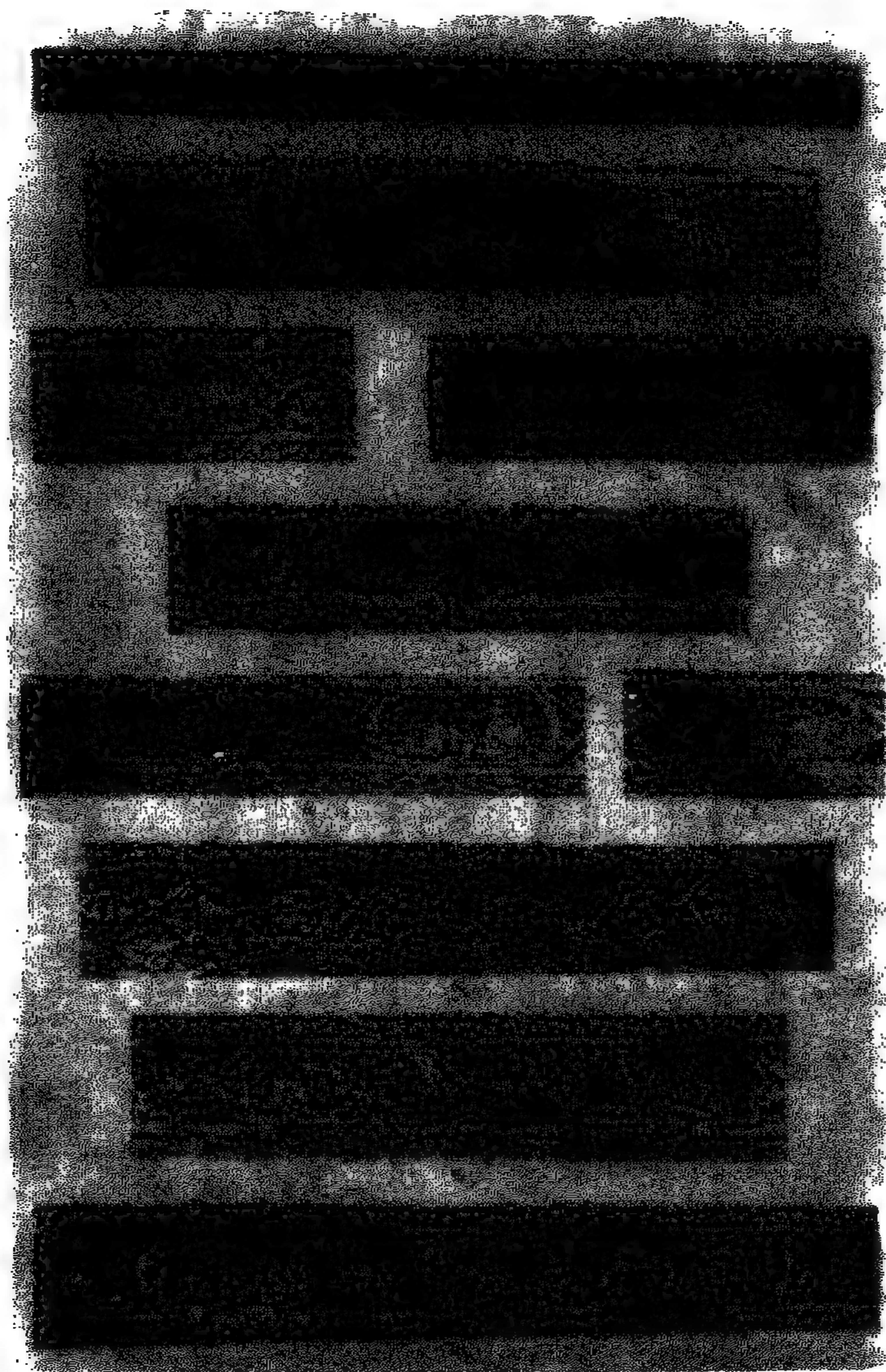
مصراعى باب الحاكم بأمر الله سنة ١٠١٠/٤٠٠



أحد الأبواب المستخدمة في القصر الفاطمي الغربي وجد في مارستان قلاوون



محراب خشبي وجد في مشهد السيدة نفيسة



أخشاب فاطمية محفورة وجدت في مارستان قلاوون

هندسية تملأها عناصر آدمية وحيوانات وطيور تمثل موضوعات مختلفة منها مناظر صيد وقنص ومنها مجالس شراب وطرب وغير ذلك ، وملئت أرضية تلك العناصر بزخارف نباتية دقيقة مستواها منخفض عن مستوى المناطق الهندسية والأشرطة الرفيعة وعناصر الكائنات الحية ، أى أن الحفر في هذه الألواح قد عمل على مستويات ثلاثة^{٨٢}.

ويرى فريد شافعى أن الألواح المُنبتة بالجلدران الداخلية لمدفن شجر الدر ، في مستوى أعتاب الأبواب وتحت قبة المحراب ، قد صنعت في العصر الفاطمى وانتزعت من مكانها الأصيل وأعيد استخدامها في هذا المدفن ، حيث أن التكوين الزخرفى فيها هو نفسه الموجود في الألواح المكتشفة في مجموعة قلاوون . وتميّزت ألواح مَدْفَن شَجَر الدَّر بأن الأشرطة الوسطى العريضة بها ملئت بكتابات كوفية كلها آيات قرآنية ما عدا شريط واحد به عبارات دعائية ، عوضاً عن العناصر الآدمية والحيوانية ورسوم الطيور التى وجدت في مجموعة قلاوون ، إلا أن الحفر في هذه الألواح تم على مستويين وليس على ثلاثة مستويات كما في المجموعة السابقة^{٨٣}.

أما المرحلة الثالثة فتميّزت بظهور عناصر ذات أصل هِلِينِسْنى وأخرى ذات طابع إسلامى أهمها زخارف الأرايسك وازدياد التعقيد والتوزيع في التقسيم الهندسى والاتجاه نحو تجميع حشوات صغيرة منفصلة مختلفة الأشكال بواسطة ضلوع مُعَشَّقَة^{٨٤}. وأهم نماذج هذه المرحلة : ضلعتا باب من مسجد السيدة نفيسة ، ومحراب مسجد السيدة نفيسة ، ومحراب السيدة رُقِيَّة ، وحشوات باب جامع الفكهانى (الأفخَر) ، وأضاف إليها فريد شافعى حجاب الهيكل

^{٨٢} فريد شافعى : المرجع السابق ٧٤ - ٧٥ .

^{٨٣} نفسه ٧٥ .

^{٨٤} نفسه ٨٠ - ٨١ .

في كنيسة الست بربارة بمصر القديمة المحفوظ في المتحف القبطي^{٨٥}، والذي كان الباحثون يرجعون عادة إلى المرحلة الأولى^{٨٦}.

^{٨٥} فريد شافعي : المرجع السابق ٨٢ .

^{٨٦} زكي محمد حسن : المرجع السابق ٢٠٤ وانظر كذلك حول موضوع الأخشاب المحفورة : Pauty, E.,

Les bois sculptés jusqu'à L'époque ayyoubide , Le Caire - IFAO 1931 ; id., Bois sculptés

d'églises coptes (époque fatimide) , Le Caire — IFAO 1930 .

خاتمة

تُعَدُّ الدولة الفاطمية نموذجًا منفردًا في التاريخ الإسلامي لم يتكرَّر على الإطلاق . فقد كانت دولة ذات طابع ديني فلسفي وحضارة متميزة أرادت بَسْط نفوذها على كل العالم الإسلامي المعاصر . وجاء فتحهم لمصر سنة ٩٦٩/٣٥٨ مُمَثِّلًا المرحلة قبل الأخيرة في سبيل تحقيق هدفهم البعيد وهو الإحلال محل الخلافة العباسية كحكام وحيدين للعالم الإسلامي .

ولكن آمال الفاطميين تحطَّمت في الشام التي كانت سَتُستَخدم كنقطة إنطلاق للهجوم النهائي الذي كان سيحمل جيوش الفاطميين إلى بغداد لتضع نهاية لحكم البُويهيين وللخلافة العباسية . فقد استغرقت محاولة إخضاعهم لسوريا الشمالية وقتًا طويلًا ولم تخلص لهم أبدًا ، وقبلوا في النهاية أن يتقاسموا نفوذهم في الشام مع البيزنطيين - الشريك التجاري الأهم للفاطميين - بينما كانت بغداد ، التي استولى عليها السَّلاجقة نحو أواسط القرن الخامس/الحادي عشر ، تتولَّى حركة نشطة للجهاد الإسلامي .

وهكذا - إذا استثنينا محاولة التَّساسيري وداعى الدُّعاة الشَّيرازي - فإن فكرة مواجهة العباسيين ظلَّت في إطار الهدف ولم تخرج على الإطلاق إلى حَيِّز السياسات العملية . وبدلًا من أن يحافظ الفاطميون على حدود إمبراطوريتهم في الغرب فقدوا ممتلكاتهم في صِيقَلِيَّة وفي إفريقية كما لم يلبثوا أن فقدوا ممتلكاتهم في سوريا الوسطى والجنوبية أمام السَّلاجقة والفِرَنْج . وبعد فشلهم في مواجهة العباسيين تبنَّى الفاطميون استراتيجية شرقية حيث مَلَّوا نفوذهم على جنوب وشرق الجزيرة العربية (اليمن وعُمان) ، وعملوا على تَشَرُّد دعوتهم على طول طرق التجارة الشرقية التي تخلَّى عنها العباسيون ، ونجحوا في إحلال البحر

الأحمر محل الخليج الفارسي كطريق رئيسي للتجارة من الهند إلى البحر المتوسط .

وأنشأ الفاطميون بمصر لأول مرة قصرًا خلفيًا وبلاطًا للخلفاء ، ولم يكتف فقط بمنافسة بلاط خلفاء بغداد وأباطرة بيزنطة ، بل تفوق عليهما بمظاهر الترف والبدخ والأبهة التي استغل الفاطميون في إضفائها عليه كل إمكانيات مصر الحضارية وما تميّز به مذهبهم العقائدي الخاص . كذلك فقد أدخل الفاطميون تغييرًا جذريًا على نظم الحكم والإدارة في مصر تمثل في استحداث مناصب الوزارة وقاضى القضاة وداعى الدعاة ، والعديد من الدواوين الإدارية والحرية التي لم تعرفها مصر من قبل .

وكانت سياسة الفاطميين الاقتصادية ونظامهم الضرائبي من أهم التطورات التي شهدتها القرنين الخامس والسادس للهجرة . فقد تبنى الفاطميون مبدأ حرية المشاريع ، ولم يسلم في وقتهم أى إنتاج أو أية مهنة أو أى حرفة من الضريبة أو المكوس . وقد استفاد خلفاؤهم الأيوبيون والمماليك فيما بعد من سياسات الفاطميين الاقتصادية ونظامهم الضرائبي .

ولعل من أهم إنجازات فترة الحكم الفاطمي لفت الانتباه إلى وضع مصر الاستراتيجى في قلب العالم الإسلامى - وهو الوضع الذى حاول الطولونيون إظهاره من قبل . وأبرزوا كذلك دور مصر السياسى وقدرتها على قيادة العالم الإسلامى ، لو تمتعت حكومتها بتأييد هذا العالم ، وهو الأمر الذى استثمره بنجاح خلفاؤهم الأيوبيون والمماليك .

تَبَيَّنُ الْمَصَادِرُ وَالْمَرَاجِعُ وَبَيَّانُ طَبْعَانِهَا

المَصَادِرُ

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد) المتوفى سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م .
- « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣ .
- « الكامل في التاريخ » ، ١ - ١٣ ، بيروت - دار صادر ١٩٦٥ - ١٩٦٧ .
- أسامة بن مُنقِذ (مؤيد الدولة المظفر أسامة بن مُرشيد الشيزري) المتوفى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م .
- « الاعتبار » ، تحقيق وتقديم قاسم السامرائي ، الرياض - دار الأصاله ١٩٨٧ .
- استار الإمام = النيسابوري .
- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى) المتوفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م .
- « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، الجزء الأول - القسم الأول ، تحقيق محمد مصطفى ، نشرات الإسلامية ١/٥ - آ ، القاهرة ١٩٧٥ .
- ابن أَيْتَك الدَّوَادَرِي (أبو بكر عبد الله بن أَيْتَك) المتوفى بعد سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م .
- « كنز الثرر وجامع الثرر » - الجزء السادس المسمى « النرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية » ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الجزء السابع المسمى « الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب » ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة - المعهد الأملاني للآثار ١٩٦١ ، ١٩٧٢ .

° ليس هنا ثبُتًا بجميع المؤلفات المستخدمة في كتابة هذا المؤلف ، وإنما أذكر فقط المؤلفات المستخدمة دائمًا أثناء البحث . أما المصادر والمراجع التي استخدمت لشرح واقعة معينة أو للرجوع إليها لمزيد من التفصيل فقد ذكرت جميع المعلومات البيبلوجرافية الخاصة بها في موضعها .

ابن بَعْرَة (منصور الذهبي الكامل) القرن السابع/الثالث عشر .

« كَشَفُ الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية » ، تحقيق عبد الرحمن فهمي ،
القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٥ .

البُكْرِي (أبو عَيْد عبد الله بن عبد العزيز) المتوفى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م .

« جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك » ، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم ،
الكويت - مكتبة دار العروبة ١٩٨٠ .

البَلَوِي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن عُمَيْر بن محفوظ المدني) من علماء القرن الرابع/العاشر .

« سيرة أحمد بن طولون » ، حَقَّقَهَا وعلَّقَ عليها محمد كُرْد علي ، دمشق - مطبعة الترقى
١٣٥٨ .

البُنْدَارِي (أبو إبراهيم الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني) المتوفى سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م .

« سَنَا البَرِّق الشَّامِي » اختصره من كتاب « البَرِّق الشَّامِي » للعماد الكاتب الأصفهاني ،
تحقيق فتحة التراوي ، القاهرة - مكتبة الخانجي ١٩٧٩ .

ابن ثَعْرِي بِرْدِي = أبو المحاسن .

ابن جُبَيْر (أبو الحسين محمد بن أحمد الكتامي) المتوفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .

« الرُّحْلَة » ، بيروت - دار صادر ١٩٦٧ .

الجَزِيرِي (زين الدين عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصاري) المتوفى نحو سنة

٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م .

« الثَّرَر الفَرَائِد المُنْتَظَمَة فِي أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة » ، ١ - ٣ ، أعده

لنشر حمد الجاسر ، الرياض - دار اليمامة ١٩٨٣ .

الجَوْدَرِي (أبو علي منصور العززي) المتوفى بعد سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م .

« سيرة الأستاذ جَوْدَر » تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ،

القاهرة - دار الفكر العربي ١٩٥٤ .

ابن الجَوَزِي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م ..

« المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » ، ٥ - ١٠ ، الهند - دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧ - ١٣٥٩ هـ .

ابن حَجَر العَسْكَلَانِي (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي) المتوفى سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م .
« رَفْع الإصر عن قضاة مصر » الجزء الأول في قسمين تحقيق حامد عبد المجيد وآخرين ،
القاهرة - الإدارة العامة للثقافة ، وزارة التربية والتعليم ١٩٥٧ - ١٩٦١ .

ابن حَزْم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأنطلسي) المتوفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م .
« جمهرة أنساب العرب » ، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة - دار
المعارف ١٩٧٧ .

ابن حَمَّاد (أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى) المتوفى سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٣٠ م .
« أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم » ، تحقيق وتعليق جلال أحمد البدوي ، الجزائر -
المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٤ .

الحَمَوِي (شمس الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن ظهير الحنفى) المتوفى بعد سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م .
« رَوْضَةُ الأديب ونَزْهَةُ الأريب » ، عُرِفَ به ونشر قسمًا منه محمد الحبيب الهيلة باسم
« النظم الإدارية بمصر في القرن التاسع الهجري من خلال كتاب روضة الأديب ونزهة الأريب
لمحمد بن إبراهيم بن ظهير الحنفى الحموي » ، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة ، القاهرة -
دار الكتب المصرية ١٩٧١ ، ١٠٤١ - ١٠٩٥ .

ابن حَوْقَل (أبو القاسم محمد بن علي) المتوفى بعد سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م .
« صورة الأرض » ، نشرة كريمز ، لندن ١٩٣٨ .

ابن تَحْلُوتُون (ولّى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي) المتوفى سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م .

« العَبَر وديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والعجم والبربر » ، ١ - ٧ ،
بولاك ١٢٨٤ هـ .

ابن خَلِّكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م .
 « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ١ - ٨ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت - دار
 الثقافة ١٩٦٩ - ١٩٧٢ .

ابن دُقماق (صبارم الدين إبراهيم بن محمد بن أَيْلُثُر العَلَّاقِي) المتوفى سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م .
 « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ، ٤ - ٥ ، نشرة فولرز ، القاهرة ١٨٩٤ .
 الذَّهَبِي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز) المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م .
 « العَبَر في خير من غير » ، ١ - ٥ ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيّد ، الكويت -
 سلسلة التراث العربي ١٩٦٠ - ١٩٦٥ ..

الرَّاوندى (نجم الدين أبو بكر محمد بن علي بن سليمان بن محمد) المتوفى بعد سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٧ م .
 « راحة الصلور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية » ، ألفه بالفارسية الراوندى
 ونقله إلى العربية إبراهيم أمين الشوارى وعبد النعم حسنين وفؤاد عبد المعطى الصياد ،
 القاهرة - دار القلم ١٩٦٠ .

الرَّشيد بن الرُّبَيْر (رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم الأسواني) المتوفى سنة
 ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م .

« الدُّخائر والتحف » ، تحقيق محمد حميد الله ، الكويت - سلسلة التراث العربي ١٩٥٩ .
 الرُّوذَرَاوَرى (ظاهر الدين أبو شجاع محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم) ، المتوفى
 سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م .

« ذيل تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مَسْكويه » ، اعتنى بنشره هـ . ف . آمدروز ،
 مصر ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م .

ابن زولَاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين الليثي) المتوفى سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م .
 « أخبار سييويه المصرى » ، نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الديب ، القاهرة ١٩٣٣ .
 « فضائل مصر وأخبارها » ، مخطوطة باريس رقم Paris B. N. n° 1817 .

ابن الزُّيَّات (شمس الدين أبو عبد الله محمد الأنصارى) المتوفى سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م .
 « الكواكب السَّيَّارة في ترتيب الزَّيَّارة » ، نشره أحمد تيمور باشا ، بولاق ١٣٢٥ هـ .

ساويرس بن المُقَفِّع ، أسقف الأشمونين .

« تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » المعروف بـ « سِيرَ الْيَتَمَةِ الْمُقَدَّسَةِ » (المنسوب إلى) ، ٢ - ٤ ، نشره : يَسَى عبد المسيح وعزيز سورمال عطية وأزولد بورمستر وأنطوان خاطر ، القاهرة - جمعية الآثار القبطية ١٩٥٩ - ١٩٧٤ .

سَيْبُط ابن الجَوْزَى (شمس الدين أبو الْمُظَفَّر يوسف بن قَزَّأوغلى) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م .
« مِرْآة الزمان في تاريخ الأعيان » ، المجلد الثامن ، حيدر آباد الدكن - الهند ١٣٣٧ - ١٣٣٩ هـ .

السَّبْكِى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي) للتوفى سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م .

« طبقات الشافعية الكبرى » ، ١ - ١٠ ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو وعمود محمد الطناحي ، القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٣ - ١٩٧٦ .

السَّجِلَّات المستنصرية .

« سَجِلَّات وتوقعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، إلى دعاة اليمن وغيرهم قدس الله أرواح جميع المؤمنين » ، تحقيق عبد النعم ماجد القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٥٤ .

السَّخَاوَى (نور الدين أبو الحسن علي بن أحمد) المتوفى بعد سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م .

« تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات » ، نشره محمود ربيع وحسن قاسم ، القاهرة ١٩٣٧ .

ابن سَعِيد (علي بن سعيد المغربي) المتوفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م .

« الْمُغْرِب في حُلَى الْمَغْرِب » ، القسم الخاص بالفسطاط ، حَقَّقَهُ زكى محمد حسن وآخرون ، القاهرة - جامعة قُزَّاد الأول ١٩٥٣ .

« النجوم الزاهرة في حُلَى حضرة القاهرة » ، تحقيق حسين نصَّار ، القاهرة - مركز تحقيق التراث ١٩٧٢ .

سيرة المُؤَيَّد في الدين = المُؤَيَّد في الدين .

السُّيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد) المتوفى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م .

« بُغْيَةُ الرِّعَاةِ فِي طَبَقَاتِ اللُّغَوِيِّينَ وَالنَّحَاةِ » ، ١ - ٢ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٦ .

« تَارِيخُ الْخُلَفَاءِ » ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٦ .

« حُسْنُ الْمَحَاضِرَةِ فِي تَارِيخِ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ » ، ١ - ٢ ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ .

ابن شاکر الکتبی (صلاح الدين محمد بن شاکر بن أحمد) المتوفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م .
« فَوَاتُ الْوَفِيَّاتِ » ، ١ - ٥ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت - دار صادر ١٩٧٣ - ١٩٧٤ .

أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي) المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م .
« الرُّؤُوسَتَيْنِ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَتَيْنِ » ، الجزء الأول في قسمين ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٦٢ .

أبو شجاع = الروذراوري .

ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم) المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٩ م .
« النُّوَادِرُ السُّلْطَانِيَّةُ وَالْمَحَاسِنُ الْيُوسُفِيَّةُ » أو « سيرة صلاح الدين » ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤ م .

الشَّهْرِسْتَانِي (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) المتوفى سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م .
« الْمَلَلُ وَالنَّحْلُ » ، ١ - ٢ ، تخرّج محمد بن فتح الله بدران ، القاهرة - مكتبة الأنجلو ١٩٥٦ .

أبو صالح الْأَزْمَتِي = أبو المكارم سعد الله .

الصَّفْدِي (صلاح الدين خليل بن أَيْتَك) المتوفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م .
« الْوَاقِي بِالْوَفِيَّاتِ » ، ١ - ١٨ و ٢٢ ، تحقيق مجموعة من العلماء (النشرات الإسلامية - ٦) ، استامبول - بيروت ١٩٤٩ - ١٩٨٨ .

- ابن الصيرفي (تاج الرئاسة أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان) المتوفى سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م .
« القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى ممن نال الوزارة » ، حققها وكتب
مقدمتها وحواشيها ووضع فهرسها أمين فؤاد سيد ، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية
١٩٩٠ .
- الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عُميرة) المتوفى سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م .
« بُغْيَةُ الْمُتَمَسِّسِ فِي تَارِيخِ رِجَالِ الْأَنْدَلُسِ » ، مجرط ١٨٨٤ .
- ابن الطَّوْثِر (أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن الفهري القيسرائي) المتوفى سنة
٦١٢ هـ / ١٢٢٠ م .
نُزْهَةُ الْمُقْلَتَيْنِ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَتَيْنِ « ، أعاد بناءه وحققه وقدم له أمين فؤاد سيد ،
النشرات الإسلامية - ٣٩ ، شتوتجارت ١٩٩٢ .
- ابن ظَافِر (جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي منصور ظافر الأزدي) المتوفى سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م .
« أخبار التَّوَلِ الْمُتَقَطِّعَةِ » ، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدمة وتعقيب
أندريه فريه ، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٢ .
- ابن العَدِيم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد) المتوفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢١٦ م .
« بُغْيَةُ الطُّلُبِ فِي تَارِيخِ حَلَبِ » ، التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة ، عنى بنشره علي
سويم ، أنقرة ١٩٧٦ .
- « زُبْدَةُ الْحَلَبِ مِنْ تَارِيخِ حَلَبِ » ، ١ - ٣ ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق - المعهد
العلمي الفرنسي ١٩٥١ - ١٩٦٨ .
- ابن عِذَارِيِّ (أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي) المتوفى نحو سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م .
« البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » ، ١ - ٤ ، تحقيق ج . س . كولان و . ل .
ليفى بروفنسال ، لندن ١٩٤٨ .
- علي بن خَلَف (أبو الحسن علي بن خَلَف بن علي بن عبد الوهاب) المتوفى بعد سنة
٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م .

- « مواد البيان » ، تحقيق حسين عبد اللطيف ، طرابلس - جامعة الفاتح ١٩٨٢ .
- عماد الدين إدريس بن الحسن بن عبد الله الأنف المتوفى سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م .
- « تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب » ، تحقيق محمد اليعلاوى ، بيروت - دار الغرب الإسلامى ١٩٨٥ .
- الجزء السابع ، مخطوطة المكتبة المملوكية .
- « عيون الأخبار وفتون الآثار » ، ٤ - ٦ ، تحقيق مصطفى غالب ، بيروت - دار الأندلس ١٩٨٤ .
- « نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار » ، مخطوطة عباس ممداني .
- عماد الدين الأصفهاني من علماء القرن السادس/الثاني عشر .
- « البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان » ، حققه كلود كاهن Cahen, Cl., " Une chronique syrienne du VI^e - XII^e siècle " , BEO VII - VII (1937-38), pp. 113-158 .
- العماد الكاتب الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبو الفرج) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م .
- « جريدة القصر وجريدة العصر » ، قسم شعراء الشام ، ١ - ٣ ، تحقيق شكرى فيصل ، دمشق - المجمع العلمى العربى ١٩٥٥ - ١٩٦٤ .
- عمارة اليمنى (نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على الحكيم) المتوفى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م .
- « تاريخ اليمن » ، نشره حسن سليمان محمود ، القاهرة - مكتبة مصر ١٩٥٧ .
- « التكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية » ، تحقيق هرتويج درنبرغ ، شالون ١٨٩٧ .
- القاسمى (تقى الدين محمد بن أحمد المكي) المتوفى سنة ٨٣٢ هـ / ١٤٢٩ م .
- « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين » ، ١ - ٨ ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٩ - ١٩٦٨ .

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي صاحب حماة) المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م .

« المختصر في أخبار البشر » ، ١ - ٤ ، مصر ١٣٢٥ هـ .

ابن القُرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) المتوفى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م .

« تاريخ الدول والملوك » ، مخطوطة مكتبة فينا رقم ٨١٤ ، الجزء الرابع / ١ - ٢ ، تحقيق حسن محمد الشماخ ، البصرة ٦٧ - ١٩٦٩ .

ابن قُرحون (برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد) المتوفى سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م .

« الديباج المذهب في تراجم أعيان المذهب » ، ١ - ٢ ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة ١٩٧٩ .

ابن فُهد (النجم عمر بن محمد بن محمد الكبي) المتوفى سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م .

« إتحاف الوري بأخبار أم القرى » ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، مكة - جامعة أم القرى ١٩٨٣ .

« في نسب الخلفاء الفاطميين - أسماء الأئمة المستورين كما وردت في كتاب أرسله المهدي عبد الله إلى ناحية اليمن » ، تقديم حسين فيض الله الهملاني ، القاهرة - الجامعة الأمريكية ١٩٥٨ .

ابن قاضي شُهبة (بدر الدين أبو الفضل محمد بن أبي بكر بن أحمد الأمسي اللمشقي الشافعي) المتوفى سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م .

« الكواكب الثرية في السيرة الثورية » ، تحقيق عمود زايد ، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧١ م .

القاضي عبد الجبار (أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الهملاني) المتوفى سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م .

« تثبيت دلائل النبوة » ، ١ - ٢ ، تحقيق عبد الكريم العثمان ، بيروت ١٩٧٠ .

القاضي النُعمان بن محمد بن حيّون المتوفى سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م .

« دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام » ، ١ - ٢ ، تحقيق آصف بن علي بن أصغر فيضي ، القاهرة - دار المعارف ١٩٦٥ .

« رسالة افتتاح الدَّعْوَة » (رسالة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية) ، تحقيق وداد القاضي ، بيروت - دار الثقافة ١٩٧٠ .

« المجالس والمسائرات » ، تحقيق الحبيب الفقى ، إبراهيم شيوخ ، محمد اليعلاوى ، تونس - الجامعة التونسية ١٩٧٨ .

ابن القَطَّان (... بن أبو الحسن على بن محمد الكتامي) القرن السابع/الثالث عشر .

« نَظْمُ الْجُمَان » - جزء من كتاب ، تحقيق محمود على مكى ، الرباط - د . ت .

ابن القَلَانِسِي (أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي) المتوفى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م .

« ذيل تاريخ دمشق » ، تحقيق آمدروز ، بيروت ١٩٠٨ .

الْقَلَقَشْتَنْدِي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م .

« صُبْحُ الْأَعْشَى فِي صِنَاعَةِ الْإِنْشَاء » ، ١ - ١٤ ، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩١٢ - ١٩٣٨ .

الْقُصِّي (أبو القاسم سعد بن عبد الله الأشعري) المتوفى سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م .

« المقالات والفرق » ، تحقيق محمد مشكور ، طهران ١٩٦٣ .

الْكِنْدِي (أبو عمر محمد بن يوسف) المتوفى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م .

« كتاب الولاية وكتاب القضاة » ، نشره رغن جست ، سلسلة جب Gibb التذكارية - بيروت ١٩٠٨ .

المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله محمد بن عبد الله) المتوفى سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م .

« رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية » ، ١ - ٣ ، تحقيق بشر البكوش ومراجعة محمد العروسي المطوي ، بيروت - دار الغرب الإسلامي ١٩٨٣ .

ابن المأمون (الأمير جمال الدين أبو على موسى) المتوفى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م .

« أخبار مصر - نصوص من » ، حققها وكتب مقدمتها أيمن فؤاد سيد ، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي للآثار ١٩٨٣ .

- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب) المتوفى سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م .
 «الأحكام السلطانية» ، عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي ،
 القاهرة ١٩٠٩ .
- أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغري يردى) المتوفى سنة ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م .
 «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ، ١ - ١٦ ، نشرة دار الكتب المصرية -
 القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٢ .
- محمد بن محمد اليماني ، عاش في أواسط القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي .
 «سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي صلوات الله عليه وآله الطاهرين
 من سلمية إلى سيجلماسة وخروجه منها إلى رقّاده» - تحقيق و . إيفانوف ، مجلة
 كلية الآداب - الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ١٠٧ - ١٣٣ .
- المَحْزُومِي (القاضي السعيد ثقة الثقات ذو الرياستين أبو الحسين علي بن أبي عمرو عثمان بن يوسف)
 المتوفى سنة ١١٨٩/٥٨٥ .
- «المنهاج في علم خراج مصر» ، مخطوطة المتحف البريطاني رقم Add 23, 483 ،
 ونشره كلود كاهن ، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي للآثار ١٩٨٦ (منتخبات) وانظر
 . Cahen, Cl.
- المُسَبِّحِي (الأمير المختار عَزَّ الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد) المتوفى سنة ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م .
 «أخبار مصر» ، الجزء الأربعون ، حققه أيمن فؤاد سيّد وتيارى يانكي ، القاهرة - المعهد
 العلمي الفرنسي للآثار ١٩٧٨ .
- «نصوص ضائعة من أخبار مصر» ، اعتنى بجمعها أيمن فؤاد سيّد An. Isl. XVII
 . (1981), pp. 1-54 .
- المَسْعُودِي (أبو الحسن علي بن الحسين) المتوفى سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٦ م .
 «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ، ١ - ٧ ، طبعة بريه دي منار وبافيه دي كرتاي ،
 عنى بتحقيقها وتصحيحها شارل بلا ، بيروت - الجامعة اللبنانية ١٩٧٠ - ١٩٨٠ .

- مُصَنَّب الزُّبَيْرِي (أبو عبد الله المُصَنَّب بن عبد الله) المتوفى سنة ٢٣٦ هـ/٨٥٠ م .
- « نَسَب قُرَيْش » ، عنى بنشره | . ليفى بروفنسال ، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٦ .
- المَقْدِسِي (محمد بن أحمد البشاري) المتوفى بعد سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م .
- « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، نشر دى خوية ، لندن - بريل ١٩٠٦ .
- المَقْرِيْزِي (تقى الدين أحمد بن علي) المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م .
- « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » ، ١ - ٣ ، الأول تحقيق جمال الدين الشيال ، الثاني والثالث تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٧ - ١٩٧٣ .
- « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ .
- « الخِطَط » = « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، ١ - ٢ ، بولاق ١٢٧٠ هـ .
- « المُقَفِّي الكبير » ، مخطوطة برتف باشا بالسليمانية رقم ٤٩٦ ، مخطوطة باريس رقم ٢١٤٤ ، مخطوطة لندن (١ - ٣) رقم ١٣٦٦ . وتراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية من كتاب المُقَفِّي الكبير ، اختيار وتحقيق محمد اليعلاوي ، بيروت - دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧ .
- « النقود الإسلامية » ، نشرة القاهرة ١٩١٤ .
- أبو المَكَارِم (المؤتمن أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود) عاش في القرن السادس/الثاني عشر .
- « تاريخ الكنائس والأديرة » ، ١ - ٢ ، إعلاد وتعليق الراهب صمويل السرياني ، القاهرة ١٩٨٤ ، الجزء الثاني بتحقيق B. T. A. Evets . لندن ١٨٩٥ . عندما نشر Evets الجزء الثاني ، اعتمادًا على نسخة باريس ، نسب هذا الكتاب إلى أبي صالح الأرمني . ولكن نسخة خطية مؤرخة في سنة ١١٩١ م ، كانت في ملك أحد أقباط طنطا ، أطلع عليها على مبارك الذي استفاد منها كثيرًا في الجزء السادس من خططه وهو يتكلم عن كنائس القاهرة ، ثبت أن مؤلف الكتاب هو المؤتمن

أبو المكارم سعد الله Iscarus, T., "Un nouveau manuscrit sur les églises et monastères de l'Égypte au XII^e siècle" dans Congrès International de Géographie, Avril 1925, Le Caire 1926, V, pp. 207-208 . وقد نشر الراهب صمويل الكتاب اعتماداً على صورة لهذه المخطوطة التي أُخرجت للأسف خارج مصر . وهذه النشرة ، التي كتبها ناشرها بخط يده ، لا تتناسب مع قيمة الكتاب وأهميته وفي حاجة إلى إعادة نشر بمنهج علمي .

ابن مَمَاتِي (أبو المكارم الأسعد بن مُهَنْب الخطير أبو سعيد بن مينا) المتوفى سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م .
« قوانين الدواوين » ، حَقَّقَه عزيز سوريال عطية ، القاهرة - الجمعية الملكية الزراعية . ١٩٤٣ .

مؤلف مجهول .

« أخبار الدولة المصرية » نشره كلود كاهن Cahen, Cl., "Un récit inédit du vizirat de Dirham" An . Isl XIII (1969), pp. 27 - 46 .

« الاستبصار في عجائب الأمصار » ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ .

« العيون والحدائق في أخبار الحقائق » ، الجزء الرابع / ١ - ٢ ، تحقيق عمر السعيدني ، دمشق - المعهد العلمي الفرنسي ١٩٧٤ .

المؤيد في الدين . هبة الله بن موسى الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م .

« سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة - ترجمة حياته بقلمه » ، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة - دار الكاتب المصري ١٩٤٩ .

ابن مُيَسَّر (تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن بَلْب راجب) المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م .
« أخبار مصر » المتقى من ، حَقَّقَه وكتب مقدمته وحواشيه أيمن فؤاد سيد ، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨١ .

النابلسي (علاء الدين أبو عمرو عثمان بن إبراهيم) المتوفى بعد سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م .

« تجريد سيف الهمة لاستخراج ما في ذمّة أهل الذمّة » ، نشره كلود كاهن

. Cahen, Cl., "Histoires coptes d'un Cadi médiéval" BIFAO LIX (1960), pp. 133-150

« لَمَعَ القوانين المُضيئة » ، نشره كلود كاهن ، (1958 - 60) BEO XVI .

ناصر خسرو ، قام برحلته بين سنتي ١٠٤٥/٤٣٧ - ١٠٥٢/٤٤٤ .

« سَفَرُ نَاصِرَة » رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس

الهجري ، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب ، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧٠ .

ابن التَّيْم (محمد بن إسحاق) المتوفى نحو سنة ٤١٢ هـ/١٠٢١ م .

« الفَهْرَسْت » نشره رضا تَجُود ، طهران ١٩٧١ .

التَّوْبِخْتِي (أبو محمد الحسن بن موسى بن الحسن) المتوفى سنة ٣١٠ هـ/٩٢٢ م .

« فِرَقُ الشَّيْعَة » ، تحقيق هيلموت ريتز ، استامبول ١٩٣١ .

التَّوْبِرِي (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) المتوفى سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٣ م .

« نهاية الأرب في فنون الأدب » ، المجلد السادس والعشرين مخطوطة دار الكتب المصرية

رقم ٥٥٩ معارف عامة ، والجزء الثالث والعشرين بتحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٨٠ ،

والجزء الثامن القاهرة ١٩٣١ .

النَّيْسَابُورِي (أحمد بن إبراهيم) كان يعيش في أواخر القرن الرابع/العاشر .

« استتار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة في الجزائر لطلبه » ، نشره و . ايغانوف في

مقاله « ملاكرات في حركة المهدي الفاطمي » ، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية

٤ (١٩٣٦) ٩٣ - ١٠٧ .

« الهداية الآمرية في إبطال الدعوى النزارية » ، نشرها آصف على أصغر فيضي في

كلكتا سنة ١٩٣٨ ، وجمال الدين الشيال في « مجموعة الوثائق الفاطمية » ،

القاهرة - ١٩٥٨ ، ٢٠٥ - ٢٣٠ .

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم الحموي) المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢١٧ م .

« مُفَرَّجُ الكُروِب في أخبار بني أيوب » ، ١ - ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيال ،

القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠ : ٤ - ٥ ، تحقيق حسين محمد ربيع ، القاهرة
١٩٧٢ - ١٩٧٧ .

يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م .

« تاريخ » ، نشره لويس شيخو مع كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » لابن
البطريق ، بيروت ١٩٠٨ ، واستخدمت في بعض المواضع نشرة كراتشكوفسكى وفازيليف
. Patr. Or. . XVIII (1924), pp. 699-833; XXIII (1932), pp. 347-504 .

المراجع القرية

آدم متر : « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » أو « عصر النهضة في
الإسلام » ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريطة ، ١ - ٤ ، تونس - الدار التونسية
للنشر ١٩٨٦ .

إبراهيم شيوخ : « حول منارة قصر الرباط بالمنستير وأصولها المعمارية » ، مجلة إفريقية ٣ -
٤ (١٩٧١) ٥ - ١٥ .

إبراهيم طرخان : « النظم الإقصائية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى » ، القاهرة -
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٨ .

أحمد فكرى : « مساجد القاهرة وملازمها » ، الجزء الأول - العصر الفاطمى ، القاهرة - دار
المعارف ١٩٦٥ .

أمين فؤاد سيد : « تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس
الهجري » ، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٨ .

— : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها في زمن الفاطميين » ، حوليات إسلامية ٢٤
(١٩٨٨) ، ١ - ١٣ .

— : « دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين في مصر » ، دراسات عربية وإسلامية مهتدة إلى
عمود محمد شاکر ، القاهرة ١٩٨٢ ، ١٢٩ - ١٧٩ .

— : « مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامى » ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار
الشرقية ١٩٧٤ .

وانظر : ابن الصيرفي ، ابن الطوير ، ابن المأمون ، المسبحي ، ابن ميسر ، Fu'ad Sayyid, A. البراوي = راشد .

جمال محمد محرز : « الخزف الفاطمي ذو البريق المعدني في مجموعة الدكتور علي إبراهيم باشا » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٧ (١٩٤٤) ١٤٣ - ١٦٧ .

حسن إبراهيم حسن : « تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب » ، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ .

حسن الباشا : « التصوير الإسلامي في العصور الوسطى » ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٥٩ .

حسن عبد الوهاب : « تاريخ المساجد الأثرية » ، ١ - ٢ ، القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٤٦ .

حسنين محمد ربيع : « حجة تمليك ووقف » ، المجلة التاريخية المصرية ١٢ (١٩٦٤ - ٦٥) ، ١٩١ - ٢٠٢ .

— : « وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى » ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ١٩٧٩ ، ٢ : ١٣١ - ١٤٤ .

درويش التحيلي : « السفن الإسلامية على حروف المعجم » ، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤ .

الدوري ، عبد العزيز : « تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري » ، بيروت - دار المشرق ١٩٧٤ .

راشد البراوي : « حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين » ، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .

زكي محمد حسن : « الفن الإسلامي في مصر » ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٣٥ .

— : « كنوز الفاطميين » ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٣٧ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : « شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية » ، المجلة التاريخية المصرية ١٦ (١٩٦٩) ١٥ - ٦٦ .

- السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : « تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام » ، ١ - ٢ ، بيروت - جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ .
- سيدة إسماعيل كاشف : « مصر في عصر الإخشيديين » ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٧٠ .
- الشَّيَال ، جمال الدين : « أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية » ، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١١ (١٩٥٧) ٣ - ٢٩ .
- : « مجموعة الوثائق الفاطمية » ، القاهرة - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٨ .
- صلاح الدين البحيري : « ديوان الجيش في الدولة الأيوبية » ، الموسم الثقافي - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٨٧ ، ١٦٩ - ١٩٠ .
- صلاح الدين المُنْجِد : « ولاية دمشق في العهد السلجوقي » - نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق للحافظ بن عساكر ، دمشق ١٩٤٩ .
- عثمان الكعك : « مَسَلِّك القاهرة » ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة ١٩٧١ ، ٧٧٧ - ٨٣٢ .
- على مبارك : « الخطط التوفيقية الجديدة » ، ١ - ٨ ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٦٩ - ١٩٩٠ .
- عمر السعيدى : « انتقال الفاطميين إلى مصر » ، ملتقى القاضى النعمان للدراسات الفاطمية - الدورة الثانية - تونس ١٩٨١ ، ١٣٩ - ١٤٩ .
- فريد شافعى : « مميزات الأخشاب المنحرفة في الطرازين العباسى والفاطمى في مصر » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٦ (مايو ١٩٥٤) ٥٧ - ٩٤ .
- فييت ، جاستون : « دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية » ، ترجمه بتصرف زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٣٩ .
- كوهن ، مارك : « المجتمع اليهودى في مصر الإسلامية في العصور الوسطى » ، جامعة تل أبيب ١٩٨٧ م .
- لويس ، برنارد : « النقابات الإسلامية » ، ترجمة عبد العزيز النورى ، مجلة الرسالة ٨ (١٩٤٠) ٦٩٦ - ٦٩٨ ، ٧٣٥ - ٧٣٧ ، ٧٨٦ - ٧٨٨ ، ٩٧٣ - ٩٧٥ .

- ماجد ، عبد المنعم : « نظم الفاطميين ورسومهم في مصر » ، ١ - ٢ ، القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢ - ١٩٥٥ .
- محمد أبو الفرج العُشّ : « مصر - القاهرة على التقود العربية الإسلامية » ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧١ ، ٩٠٥ - ٩٩٥ .
- محمد كامل حسين : « طائفة الإسماعيلية ، تاريخها ، نظمها ، عقائدها » ، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ .
- محمد محمد أمين : « الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ١٢٥٠/٩٢٣ - ١٥١٧ - دراسة تاريخية وثائقية » ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٨٠ .
- محمد محمود إدريس : « تاريخ الحضارة الإسلامية - العصر الفاطمي » ، القاهرة - مكتبة النهضة الشرق ١٩٨٦ .
- المنأوى ، محمد حمدي : « الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي » ، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٠ .
- يحيى الخشاب : « وصف مصر من كتاب السفرة لناصر خسرو » ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧١ ، ١٣٠٧ - ١٣١٢ .

المراجع الأجنبية :

- Ashtor , E., *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages* , London , Collins 1976 .
- Bacharach, J. L., « African Military Slaves in the Medieval Middle East, The Cases of Iraq (869 - 955) and Egypt (869 - 1171) » , *IJMES* 13 (1981), pp. 471 - 95 .
- Beshir, B.I., « Fatimid Military Organization » , *Der Islam* LV (1978), pp. 37 - 56 .
- ., « New Light on Nubian Fatimid Relations » , *Arabica* XXII (1975), pp. 15 - 24 .
- Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide 359 - 468/969 - 1076* , Damas IFD 1986 .
- ., « Al-Hakim bi amr Allah ou la folie de l'unité chez un souverain fatimide » , *les Africains* XI (1978), pp. 107 - 133 .
- ., « La prise du pouvoir par les Fatimides en Egypte » , *An. Isl*, XI (1972), pp. 49 - 108 .

- ., « Une crise frumentaire dans l'Egypte fatimide », *JESHO* XXIII (1980), pp. 67 - 101 .
- Blachère , R., « La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme Arabo - Islamique au IV^e siècle », *CIHC* , pp. 95 - 96 .
- Cahen, CL., « Le commerce d'Amalfie dans le Proche - Orient musulman avant et après la Croisade », *Comptes rendus d'Academie des Inscriptions et Belle - Lettres* (1977) pp. 292 - 294 .
- ., *Makhzumiyyat - Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiévale* , Leiden - Brill 1977 .
- ., « Les marchands étrangers au Caire au Moyen Age » , *CIHC*, pp. 97 - 101 .
- ., « Un récit inédit du vizirat du Dirgham », *An. Isl.* VIII (1969) , pp. 27 - 46 .
- ., « Un texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amelfie au X^e siècle » , *Archivio storico per le provencio napolitane* (1953 - 54), pp. 3 - 8 .
- ., « Y'a-t-il eu des corporations dans le monde musulman médiéval », in *The Islamic City* , ed, S.M. Stern & A. Hourani, Oxford 1970, pp. 51 - 63 .
- Canard, M., « L'imperialisme des Fatimides et leur propagande », *AIEO* VI (1947), pp. 156 - 193 .
- ., « Notes sur les Arméniens en Egypte à l'époque fatimite », *AIEO* XIII (1955), pp. 143 - 157 .
- ., « Un vizir chrétien à l'époque fatimide : l'Arménien Bahram », *AIEO* XII (1954), pp. 84 - 157 .
- ., « Une lettre du calife al- Hafiz à Roger II » dans *Atti del convegno Internazionale di Studi Ruggeriani* , Palermo 1955, pp. 125 - 146 .
- Cooper, R.S., « The Assessment and Collection of Kharaj Tax in Medieval Egypt », *JAOS* 96 (1974), pp. 365 - 382 .
- Creswell, K.A.C., *MAE : The Muslim Architecture of Egypt*, I. Ikhshids and Fatimids, Oxford 1952 .
- Dachraoui, F., *Le califat fatimide au Maghreb 296 - 362/ 909 - 973. Histoire politique et institutions*, Tunis 1981 .
- Daftary, E., *The Isma'ilis Their History and Doctrines*, Cambridge 1990 .
- Daghfous, R., « Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du V^e siècle/ milieu du XI^e siècle : Contribution à l'étude des conditions de l'immigration des tribus arabes (Hilal et Sulaym) en Ifriqiya », *CTXXV* (1977), 11. 23 - 50 .
- Dozy, R., *Supplement aux Dictionnaires Arabes* I-II, Paris 1927 .
- Eche, Y., *Les bibliothèques arabes et semi publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen Age*, Damas IFD 1967 .

- Ehrenkreutz, A.S., « Arabic dinars struck by the Crusaders », *JESHO* V (1964), pp. 167 - 182 .
- ., « Contributions of the Knowledge of the fiscal administration of Egypt in the Middle Ages », *BSOAS* XVI (1954), pp. 502 - 514 .
- ., *Saladin* , N.Y. Albany 1972 .
- ., « Saladin coup d'état in Egypt », in *Medieval and Middle Eastern Studies in honour of Aziz Suryal Atiya* , edited by Sami A. Hanna , Leiden 1972, pp. 144 - 157 .
- Elisséeff, N., *Nûr al- Din, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades* , I-III, Damas IFD 1967 .
- Ettinghausen, R., « Painting in the Fatimid period : A Reconstruction », *Ars Islamica* IX (1942), pp. 112 - 124 .
- Fischel, W.J., *Jews in the Economic and Political life of Mediaeval Islam*, N.Y. 1969 .
- Fu'ad Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte jusqu' à l'époque fatimide (al- Qâhira et al- Fustât) - Essai de reconstitution topographique .* (sous press) .
- ., « Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte », *An. Isl.* XIII (1977), pp. 1-41 .
- Garcin, J. Cl, *Un Centre musulman de la Haute Egypte médiéval : Qûs*, Le Caire IFAO 1976 .
- Goitein, S. D., *A Mediterranean Society : The Jewish Communities of the Arab World as portrayed in the Documents of the Cairo Geniza* .
- I. Economic Foundations .
- II. The Community .
- III. The Family .
- IV. Daily Life .
- V. The Individual., University of California press 1967 - 1989 .
- ., « Cairo, an Islamic City in the Light of the Geniza Documents » in Lapidus, Ira M. (ed), *Middle Eastern Cities*, Berkeley 1969, pp. 80 - 96 .
- ., « From the Mediterranean to India : Documents on the Trade to India , South Arabia , and East Africa from the Eleventh and Twelfth Centuries », *Speculum* XXXIX (1954), pp. 181 - 197 .
- ., *Studies in Islamic History and Institutions* , Leiden - Brill 1966 .
- Grabar, O., « Imperial and Urban Art in Islam : The Subject Matter of Fatimid Art » , *CIHC*, DDR 1973, pp. 173 - 189 .
- Grunebaum, G.V., « The Nature fo the Fatimid Ahievement » , *CIHC*, DDR 1973 .
- Hamdani, A., « Byzantine - Fatimid Relations before the battle of Manzikert » , *Byz. St.* I/2 (1974) , pp. 169 - 179 .

- ., « Some Considérations on the Fatimid Caliphat as a Mediterranean Power , Including an Interpretation of the Fatimid Split with the Qarmatians » in *Atti del Terzo Congresso di Studi Arabi E Islamici* , Ravello - Napoli 1967, pp. 385 - 396 .
- Hamdani, A. & de Blois, F., « A Re - examination of al - Mahdi's letter to the Yemenites on the Genealogy of the Fatimid Caliphs » , *JRAS* (1983), pp. 173 - 207.
- Hassan, Z.M., *Les Tulunides, études de l'Egypte musulmane à la fin du IX^e siècle 868 - 905*, Prais 1937 .
- Hawwari (al-), H., « Trois minarets fatimides à al frontière nubienne » , *BIE* XV, (1934 - 35) , pp. 141 - 153 .
- Idris, H.R., *La Berbérie Orientale sous les Zirides X^e - XII^e siècles* , I- II , Paris 1962 .
- Leiser, G., « The Madrasa and the Islamization of the Middle East - The Case of Egypt » , *JARCE* XII (1985), pp. 29 - 47 .
- ., « Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society » , *MW* LXXVI (1986), pp.3 - 27 .
- Lev , Y., « Army , Regime and Society in Fatimid Egypt 358 - 487 / 968 - 1094 » , *LJMES* 19 (1987), pp. 337 - 366 .
- ., « The Fatimid Conquest of Egypt - Military , Political and Social Aspects » , *Isr. Or. St.* IX (1979) , pp. 315 - 328 .
- ., « The Fatimids and Egypt 301 - 358 / 914 - 969 » , *Arabica* XXXV (1988) , pp. 186 - 196 .
- ., « Fatimid Policy Towards Damascus (358 / 968 - 386 / 996) - Military , Political and Social Aspects » , *Jersusalem Studies in Arabic and Islam* III (1981 - 82) , pp. 165 - 183 .
- ., « The Fatimid Princess Sitt al - Mulk » , *JSS* XXXII (1987), pp. 319 - 328 .
- ., « The Fatimid vizier Ya'qub Ibn Killis and the Beginning of the Fatimid Administration in Egypt » , *Der Islam* 58 (1981) , pp. 237 - 249 .
- Lewis, B., « An Interpretation of Fatimid History » , *CIHC* , DDR 1973, pp. 287 - 295 .
- ., « The Fatimid and the route to India » , *Revue de la Faculté des Sciences économiques - Univ. d'Istanbul* XI (1949 - 50) , pp. 50 - 54 .
- Lombarb , M., « L'or musulman du VII^e au XI^e siècles » , *Annales ESC* II (1947) , pp. 143 - 160 .
- Miles , G., *Fatimid Coins* , N.Y. 1952 .
- Pellat , Ch., *Cinq Calandriers Egyptiens* , Le Caire - IFAO 1986 .

- Quatremère, E., « Mémoires historiques sur la dynastie des khalifes fatimites », *JA* 3^e série II (1936), pp. 97 - 142 .
- Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564 - 641 A.D. 1169 - 1341*, London 1972 .
- Ragib, Y., « Un épisode obscure d'histoire fatimide », *SI* XLVIII (1978), pp. 125 - 132 .
- Schlumberger, G., *Campagnes du Roi Amaury I^{er} de Jérusalem en Egypte au XII^e siècle*, Paris 1906 .
- Shaban, M. Ab., *Islamic History A.D 750 - 1055 (A.H. 132 - 448) - A New Interpretation*, Cambridge 1976 .
- Stern, S.M., « A Petition to the Fatimid Caliph al- Mustansir concerning a Conflict within the Jewish Community », *Revue des études Juives* 128 (1969), pp. 203 - 215 .
- ., « An Original Document from the fatimid chancery concerning Italian Merchants », *Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi della Vida*, Roma 1956, II, pp. 529 - 38 .
- ., *Fatimid Decrees - Original Documents from the Fatimid Chancery*, London 1964 .
- ., « Heterodox Ismailism at the Time of al- Mu'izz », *BSOAS* XVII (1955), pp. 10 - 33 .
- ., « Three Petitions of the Fatimid Period », *Oriens* 15 (1962) pp. 172 - 209 .
- Stilmann, N.A., « The Eleventh Century Merchant House of Ibn Awkal (A Geniza Study) », *JESHO* XVI (1973), pp. 15 - 88 .
- Talbi, M., *L'Emirat Aghlabide 184 - 296 / 800 - 909 - Histoire politique*, Paris - Adrien Maisonneuve 1966 .
- Wiet, G., *CIA = Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicum*, 1^{re} partie - Egypte II, Le Caire - IFAO 1929 - 30 .
- ., *L'Egypte Arabe* dans « Histoire de la Nation Egyptienne » publié sous la direction de G. Hanotaux t. IV, Paris 1937 .
- Wiet, G., Combe, E., & Sauvaget, J., *RCEA = Répertoire chronologique d'Epigraphie Arabe I- XVI*, Le Caire - IFAO 1931 - 64 .

الرموز والاختصارات

ABBREVIATIONS

AI EO	= <i>Annales de l'Institut d'Etudes Orientales</i> (Alger) .
An. Isl.	= <i>Annales Islamologiques</i> (Le Caire) .
BEO	= <i>Bulletin d'Etudes Orientales</i> (Damas) .
BIE	= <i>Bulletin de l'Institut d'Egypte</i> (Le Caire) .
BIFAO	= <i>Bulletin de l'Institut Francais d'Archéologie Orientale</i> (Le Caire) .
BSOAS	= <i>Bulletin of the School of Oriental and African Studies</i> (London) .
Byz. St	= <i>Byzantine Studies</i> .
CIA	= <i>Corpus Inscriptionum Arabicum</i> .
CIHC	= <i>Colloque International sur l'Histoire du Caire</i> , DDR 1973 .
CT	= <i>Les Cahiers de Tunisie</i> .
EI ¹	= <i>Encyclopédie de l'Islam</i> (1 ^{ère} édition) .
EI ²	= <i>Encyclopédie de l'Islam</i> (2 ^{ème} édition) .
IC	= <i>Islamic Culture</i> .
JMES	= <i>International Journal of Middle Eastern Studies</i> .
Isr. Or. St.	= <i>Israel Oriental Studies</i> .
JA	= <i>Journal Asiatique</i> .
JAOS	= <i>Journal of the American Oriental Studies</i> .
JARCE	= <i>Journal of the American Research Center in Egypt</i> .
JBBRAS	= <i>Journal of the Bengal Branch of the Royal Asiatic Society</i> .
JESHO	= <i>Journal of the Economic and Social History of the Orient</i> .
JNES	= <i>Journal of Near Eastern Studies</i> .
JRAS	= <i>Journal of the Royal Asiatic Society</i> .
JSS	= <i>Journal of Semitic Studies</i> .
MAE	= <i>Muslim Architectur of Egypt</i> .
MUSJ	= <i>Melanges de l'Université Saint - Joseph</i> .
MW	= <i>Muslim World</i> .
PO	= <i>Patrologia Orientalis</i> .
RCEA	= <i>Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe</i> .
REI	= <i>Revue d'Etudes Islamiques</i> .
REJ	= <i>Revue d'Etudes Juives</i> .
RSO	= <i>Rivista degli Studi Orientale</i> .
SI	= <i>Studia Islamica</i> .

فهارس الكتاب

١ - الأعلام

- الأمير بأحكام الله ٧٠، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٣،
 ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٤، ١٧٦،
 ٢٤٩، ٢٦٤، ٢٩٥، ٣٠٦، ٣١٢،
 ٣١٨، ٣٣٠، ٤٠٩ .
 إبراهيم بن تيج المَعْلَل، وكيل التجار ٣٠٤ .
 إبراهيم بن سهل التستري، أبو سعد ١٣٦،
 ١٣٧، ٢٥٤ .
 إبراهيم شيوخ ٨٤ .
 إبراهيم الكاتب السامري، أبو يعقوب ١٧٤ .
 الأبنسي (شهاب الدين محمد بن أحمد)
 ١٦٤ .
 أنس بن إبراهيم ١٣٣، ١٤٦ .
 ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد)
 ٢٠٧، ٢٣٠ .
 أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكيرمالي
 ١١٢ .
 أحمد بن طولون ٢٩٨، ٣٢٢ .
 أحمد بن محمد بن مُلَيَّر ٣٢٢ .
 أخت نزار ١٥٨ .
 الأنعم بن أبي زكريا النصراني، صبيحة الخلافة
 أبو الكرم ١٩٩، ٢٥٠، ٢٦٢ .
 أخو محسن النساب ٣٥ .
 أرسانيوس، مطران القاهرة والقسطنطينية ٩١ .
 أرسنس، مطران بيت المقدس ٩١ .
 أبو أسامة جنادة بن محمد اللغوي ١٠١ .
 أسامة بن منقذ ٢٠٣، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢،
 ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥ .
 أسد الدين شيركوه = شيركوه .
 إسماعيل بن جعفر الصادق ٣٠، ٣١، ٣٢،
 ٣٤، ٣٥، ٩٣، ١٧٩ .
 إسماعيل بن سلامة الأنصاري، داعي الدعوة
 الإسماعيلية ١٨٧ .
 أفتكين التركي ١٥٥، ١٥٦ .
 أفرهام السرياني، البطرك ٩١ .
 الأفضل بن بدر الجمالي ١٤٨، ١٤٩، ١٥١،
 ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٩،
 ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥،
 ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ٢٠٧،
 ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٦٣، ٢٩٤، ٣٢٢،
 ٣٥٥ .
 الأفضل شاهنشاه = الأفضل بن بدر الجمالي .
 ألب أرسلان ١٣٨ .
 ألتكين التركي ٩٤ .
 الذكر ١٣٩ .
 أم المستنصر ١٣٥، ١٣٧ .
 = والدة المستنصر .
 أمير الجيوش = بدر الجمالي .
 أمين الدولة لاوون ١٥٣ .
 أمين الدولة بن عمار = الحسن بن عمار
 ابن أبي الحسين، أمين الدولة أبو محمد .
 أمين الدولة كمشكين ٢٠٢، ٢٠٣ .
 أنوشكين التتاري ١٢٢ .
 الأوحدي بن بدر الجمالي ١٥١، ١٥٢ .
 ابن إلياس التورخ ٨٤ .

- ابن أيك الدوادارى ٣٤ ، ٣٠٨ .
 الباساك ، أخو بهرام والى قوص ١٩٥ .
 باسيل الثانى ١٠٢ .
 بدر الجمالى ، أمير الجيوش ١٢٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٩٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ .
 بَرْجَوَان ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ .
 البساسيرى ، أبو الحارث أرسلان ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٧٨ .
 بكجور التركى ٢٨٠ .
 أبو بكر الصديق ١١٣ .
 بلدكوش ١٣٩ ، ١٤٤ .
 بلدوين ملك بيت المقدس ١٦٣ ، ٢٨٥ .
 بهاء الدين قراقوش ٢٣٥ ، ٢٤١ .
 بهرام الأرمنى ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٧ .
 أبو البيان الصقلى ١١٨ .
 تاج المعالى مختار كاتب الأفضل ١٦١ .
 التستري = إبراهيم بن سهل .
 هارون بن سهل .
 تقى الدين الفاسى المكى ١١٤ .
 تميم بن المعز ٧١ ، ٩٢ .
 توبة بن نمر ٣٥٨ .
 ابن جُبَيْر الرحالة ، محمد بن أحمد الكتامى ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٤٩ .
 الجَرْجَرَانِى = على بن أحمد ، نجيب الدولة أبو القاسم .
 الجزيرى المؤرخ ، عبد القادر بن محمد الخنبلى ١١٣ ، ١١٤ .
 جعفر الصادق ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٩٣ .
 جعفر بن عبد المنعم بن أبى قمرط ، أبو الفضل أبو الفضل ٢٧٤ .
 جعفر بن فلاح الكتامى ٨٥ .
 جعفر بن الفرات ، أبو الفضل ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٧ .
 جعفر بن منصور اليمنى ٣٦ .
 جمال الدين الأستاذار ٣٨٩ .
 جوامرد ، هزار الملوك ١٧٨ .
 الجوائى النسابة ، الشريف محمد بن أسعد ١٨٥ ، ٢٧٦ ، ٣٥٩ ، ٤٠٩ .
 ابن الجَوْزى ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على ٩٢ .
 جوهر الصقلبى ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٨ .
 جويتين ، س . د . ٢٤ ، ١٠٣ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ .
 الحافظ لدين الله ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٤٩ .
 الحاكم بأمر الله ٩٠ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٣٢٣ ، ٣٨٤ ، ٤٢٢ .

- ابن خزم ، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي . ٣٣ .
 حسان بن جراح . ١٢٢ .
 الحسن بن جعفر ، أبو الفتوح الحسن بن أمير مكة . ١١٤ ، ١١٥ .
 حسن بن الحافظ . ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٧ .
 الحسن بن حيدرة القرغالي الأخرم . ١١٠ .
 الحسن بن صباح . ١٥٦ ، ١٥٧ .
 الحسن بن علي بن أبي طالب . ٩٣ .
 الحسن بن علي بن عبد الرحمن البازوري . ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ٢٥١ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٣٤٩ .
 الحسن بن عمار بن أبي الحسين ، أمين الدولة أبو محمد . ٨٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ٢٨٠ .
 الحسن بن فرح بن خورشيد بن زاذان الكوفي منصور اليمن . ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ .
 حسين بن محمد ربيع . ٣١٩ .
 الحسين بن جوهر القائد . ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .
 الحسين بن قواس الكتامي ، سيف الدولة . ١١٦ ، ١١٨ .
 الحسين بن علي صاحب فتح . ٣٠ .
 الحسين بن علي بن أبي طالب . ٩٣ .
 الحسين بن علي بن النعمان . ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
 الخلواني . ٤٥ ، ٤٦ .
 حمزة بن محمد اللباد الزوزني . ١١٠ ، ١١٧ .
 حيدرة بن الحافظ . ١٩٠ ، ٢٠٧ .
 ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد ابن محمد . ٧٦ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٠٢ ، ٣٦٧ .
 راشد البراوي . ٣١٩ .
 الراضي بالله ، الخليفة العباسي . ٥٣ .
 ابن رزام ، أبو عبد الله محمد بن علي الطائي . ٣٤ .
 رزيك بن الصالح طلائع . ٢٢٠ ، ٢٢١ .
 الرشيد بن الزبير . ٣٣٢ .
 رضوان بن ولخشني . ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨ ، ٣٨٧ .
 أبو ركوة ، الوليد الأموي الناصر . ١٠٠ ، ١٠١ .
 روجر الثاني ملك صقلية . ٣٤٥ ، ٤١٠ .
 ريدان الصقلبي ، صاحب المظلة . ٩٨ .
 زرع بن نسطورس الشامي . ٢٥٤ .
 أبو زكري كرهين ، وكيل التجار اليهود في القاهرة . ٣٠٩ .
 ابن زولاق ، الحسن بن إبراهيم المؤرخ . ٧٦ ، ٨٤ ، ٣٥٤ .
 ساويرس بن المقفع . ٣٦٨ .
 السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ابن علي . ٢٠٢ .
 ست القصور أخت الظاهر بالله . ٢١٩ .
 ست الملك ابنة بلر الجمال . ١٥٤ .
 السخاوي ، صاحب تحفة الأجيال . ١٥٢ .
 ستيلمان . ٣٠٩ .
 سعيد الخير ، أبو علي محمد الحبيب . ٣٨ ، ٣٩ .
 أبو سفيان داعي المغرب . ٤٥ ، ٤٦ .
 ابن السلار = العادل بن السلار .
 سليم بن مصال . ٢٥٣ .
 سليمان بن الحافظ لدين الله . ١٩٠ ، ٢٠٧ .
 سليمان بن عزة ، متولى الحسبة . ٨٠ .
 السهمودي ، صاحب وفاء الوفا . ١١٤ .

- سنان بن البنا ١٢٢ .
 سنان الدولة بن الكركندى ٢٨٢ .
 السيدة الحرة الصليحية ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٥ .
 سيدة الملك أخت الحاكم ١٠٨ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ٢٨٠ ، ٣٢٣ .
 السيدة والدته المستعل ١٥٧ .
 أبو شامة المؤرخ ٢٢٥ .
 شاهنشاه بن بدر الجمالى = الأفضل .
 شاور بن مجمر السعدى ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٣٤٥ .
 الشريف الرضى ١٢٦ .
 الشريف المرتضى ٣٥ ، ١٢٦ .
 شهاب الدين محمد الحارمى ٢٣٤ .
 الشهرستانى ، صاحب الملل والنحل ٣١ .
 شيركوه ، أسد الدين ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٦ .
 أبو صالح الأرمنى ٣٠٧ ، ٣٦٨ ، ٤٠٠ .
 الصالح طلائع = طلائع بن رزّيك .
 صالح بن مرداس ١٢٢ .
 صدقة بن يوسف الفلاحى ١٣٦ ، ٢٥٤ .
 صلاح الدين يوسف بن أيوب ١٣٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٨٨ .
 الصليحي = على بن محمد .
 ابن الصيرفى ، كاتب الإنشاء ١٥٨ ، ١٩٩ ، ٢٥٦ ، ٢٦٦ .
 ضرغام بن عامر بن سوار المنذرى ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
 أبو طالب العجمى ، الشريف ١١٩ .
 طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوى (ابته) ١٣٨ .
 أبو الطاهر الذملى ، القاضى محمد بن أحمد ٧٧ ، ٧٩ ، ٢٦٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ .
 أبو الطاهر السلفى ، الحافظ أحمد بن محمد ٢٠١ ، ٣٨٨ .
 أبو الطاهر بن عوف ، الفقيه المالكى ٢٠١ ، ٣٨٧ .
 الطائع العباسى ٩٤ ، ٩٥ .
 الطرطوشى ، أبو بكر محمد بن الوليد ٢٠١ ، ٣٥٥ .
 طلائع بن رزّيك ، الملك الصالح ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٣ .
 طلحة بن طاهر ، والى خراسان ٢٩٧ .
 ابن أبى طىّ المؤرخ ، يحيى بن حميد الحلبي النجار ٣١٧ ، ٣٢٣ ، ٣٨٦ .
 طىّ بن شاور ٢٢١ ، ٢٢٢ .
 الطيب بن الأمر بأحكام الله ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ .
 ابن الطوثير المؤرخ ، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٩٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٣١٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤١١ .
 ابن ظافر المؤرخ ، جمال الدين على بن ظافر ٩٥ ، ١٩١ .
 الظافر بأمر الله (بالله) ٢٠٧ ، ٢١١ .
 الظاهر لإعزاز دين الله ٧٧ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ٢٥٠ ، ٤٢١ .

- العادل بَرَعَش ١٧٨ ، ١٨٠ .
 العادل رَزِيك = رَزِيك بن الصالح طلائع .
 العادل بن السَلار ٢٠١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٧ .
 ٢٥٣ .
 العاضد لدين الله ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٥٠ ، ٣٨٧ .
 أبو العباس الشيعي ٥٠ .
 عباس الصنهاجي ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٥٣ .
 عبد الحى شعبان ٣٢١ .
 عبد الرحمن الثالث الأموي ٦٣ .
 عبد الرحيم بن إلياس ، ولى عهد الحاكم بأمر الله ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٧ ، ١١٨ .
 عبد السميع بن عمر العباسي ، خطيب جامع مصر ٧٧ .
 ابن عبد الظاهر المؤرخ ١٠٣ .
 عبد العزيز بن النعمان ١٠٦ ، ١٠٧ .
 عبد الغنى بن سعيد الحافظ ١٠١ ، ١١١ .
 ابن عبد القوى ، داعي الدعاة ٢٤٢ .
 عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني ٣٨ .
 عبد الله بن جحدم ٨٧ .
 عبد الله بن جعفر الصادق ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .
 أبو عبد الله الشيعي ، الحسين بن أحمد ابن محمد ابن زكريا ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ .
 أبو عبد الله محمد بن الأنصاري ٢٠٥ ، ٢٥٩ .
 عبد الله بن المعز لدين الله ٩٢ ، ٩٣ .
 عبد الله بن ميمون الفتاح ٣٥ .
 عبد الله بن مخلف الكتامي ٨٨ .
 عبد المجيد ، أبو الميمون الحافظ لدين الله ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٤ .
 عبد المستصر بن المكرم أحمد الصليحي ١٥٢ .
 عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني ، قاضي القضاة الشافعي ٢٣٨ .
 أبو عيد البكري الجفرائي ١١٣ ، ١١٤ .
 ابن عزيز للمصور ٤٠٩ .
 العزيز بالله ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨٠ ، ٣٢٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٤٢١ .
 عسلوج بن الحسن ٨٢ .
 عضد الدولة البويهي ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ .
 أبو علي الأفضل كُتَيْفَات ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٠ .
 ١٩٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ .
 علي بن أحمد ، نقيب الدولة أبو القاسم الجرجرائي ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٢٥١ .
 علي بن الحسين بن علي ، الإمام الإسماعيلي ٣٦ .
 علي بن خلف صاحب مواد البيان ٢٥٦ ، ٢٥٨ .
 أبو علي الداعي ٤٨ .
 علي بن سليم بن البواب ، أبو الحسن ٢٦٤ .
 علي بن سليمان المقرئ الأنطاكي ، أبو الحسن ١٠١ .
 علي بن أبي طالب ٢٩ ، ٢٤٨ .
 علي بن الفضل الجيشاني ، أبو الحسن القرمطي ٤٣ .
 علي بن محمد الصليحي ١٢٩ .
 علي بن النعمان ٢٦٨ .
 عماد الدين إدريس الأنف ، اللاعي المؤرخ الإسماعيلي ٣٢ ، ٣٧ ، ١٨٥ .
 عمار بن محمد ، خطير الملك أبو الحسين ١١٨ .
 عمارة البيني ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٢٤٢ .
 عمر بن الخطاب ١١٣ .

- أبو عمران بن نفيح التاجر ٣١١ .
عمورى الأول ملك بيت المقدس ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٣٤٥ .
ابن أبى العوام ، قاضى القضاة ١١١ .
ابن عوكل ، أبو الفرج يوسف بن يعقوب ٣٠٨ .
عيسى بن نسطورس ٩٢ ، ٢٥٤ .
غليوم رئيس أساقفة صور ٢٢٧ ، ٣٦٩ .
الفائز بنصر الله ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٩ .
فاطمة بنت محمد ٢٩ ، ٧٤ .
ابن الفرات = جعفر بن الفرات .
أبو الفرج البابلي الوزير ١٣٧ .
فرحات الدشراوى ٥٨ .
فريد شافعى ٤٢٣ ، ٤٢٩ .
أبو الفضل بن الأسقف ١٦٢ .
فهد بن إبراهيم النصرانى ٩٨ .
ابن فهد المكي المؤرخ ١١٣ ، ١١٤ .
فيروز الداعى ٤٨ .
قيت ، جاستون ٤٠٠ .
القادر بالله العباسى ١٢١ ، ١٢٦ .
القاضى الفاضل ٢٣٤ ، ٢٣٩ .
القاضى النعمان بن حَيَّون ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ .
٤٦ ، ٦٢ ، ١٢٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨ .
القائم بأمر الله العباسى ١٢٧ ، ١٣٢ .
القائم بأمر الله الفاطمى ٣٨ ، ٥٨ ، ٥٩ .
قراقوش = بهاء الدين قراقوش .
ابن قِرْقَة اليهودى الطيب ١٩٢ .
قصير المصور ٤٠٩ .
القضاعى المؤرخ ١١٦ .
قُفَيْفَة بن الأمر ١٨٥ .
ابن القلانسى المؤرخ ١٦٣ .
القلقشندى ، أحمد بن على الفزارى ١٨٧ ، ٢٠١ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ ، ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ .
القُمى ٣١ ، ٣٤ .
قزوق ملك النوبة ٨٣ .
كافور الإخشيد ٦٤ ، ٦٥ ، ٩٠ .
الكامل بن شاور ٢٢٩ .
كانار ، ماريوس ٧٠ .
الكامل محمد الأيوبي ٢٦٥ .
كاهن ، كلود ٣٢٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ .
الكرمانى = أحمد حميد الدين بن عبد الله ابن محمد .
لويس ، برنارد ٣١٣ .
ماسينيون ، لويس ٣١٣ ، ٣١٤ .
مالك بن سعيد ٣٣١ .
ابن المأمون ، جمال الدين أبو على موسى المؤرخ ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣٣٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٤ .
المأمون البطائحي ، محمد بن فاتك ١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ٢٥٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ .
المأمون العباسى ٣٨٤ .
الماوردى صاحب الأحكام السلطانية ٣٢٧ .
المتوكل العباسى ٨٤ ، ١٠٥ .
أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ٦٢ ، ٩٧ ، ١٧٨ .
محروس بن يعقوب التاجر ٣٠٩ .
محسن بن بنوس ، الشيخ العميد ١١٩ .

- محمد بن إبراهيم بن ظهير الحنفى الحموى ٣١٩ .
محمد بن أحمد ، الإمام المستور ٣٦ ، ٤٢ .
محمد بن أحمد الذهلى القاضى = أبو الطاهر
الذهلى .
محمد بن أحمد العميدى ، أبو سعد الكاتب
٢٥٨ .
محمد بن إسماعيل أنوشتكين الدرزي ١١٠ ،
١١١ .
محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ٢٢ ، ٤١ .
محمد الباقر ٣٥ .
محمد بن جعفر المغرى ، أبو الفرج ١٣٢ ،
١٣٧ ، ١٤٤ .
محمد بن الحسن العسكري ٤١ .
محمد بن طنج الإخشيد ٦٤ .
محمد بن فاتك البطائحي = المأمون البطائحي .
محمد بن فليح ، أبو عبد الله ٢٠٤ .
محمد بن القاضى أبى الطاهر الذهلى ٣٢٥ .
محمد كامل حسين ٤١ .
عمود بن سبكتكين ١٢١ .
عمود بن مصال اللكى ١٥٥ .
المخزومى ، أبو الحسن على بن عثمان صاحب
المنهاج ٢٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،
٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٣١٩ ،
٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،
٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
٣٥٠ .
مخلد بن كئند النكارى ٥٩ .
المرتضى بن المهنك القاضى ١٩٩ ، ٢٦٢ .
المُسَبَّحى المورخ ، الأمير المختار عز الملك محمد
ابن عيسى الله ١١٩ ، ١٢١ ، ١٣٩ ،
٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
٣٢٣ .
المستعلى بالله ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
٢٤٩ .
المستصر بالله ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ،
١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،
١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٢٤٩ ،
٢٥٢ ، ٣٠٦ .
المسعود بن طاهر السوزان ، شمس الملوك
أبو الفتح ١١٩ ، ١٣١ .
أبو مسلم الخراسانى ٥٠ .
ابن مصال اللكى ، نجم الدين أبو الفتح سليم
(سليمان) بن محمد ٢٠٨ .
مصعب بن الزبير ٣٣ .
المصطفى لدين الله (نزار بن المستصر) ١٥٦ .
مضمون وكيل التجار اليهود فى عدن ٣١١ .
المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ٢٣٦ .
معاوية بن أبى سفيان ١٠٥ .
معتمد الدولة بن جعفر بن غسان ٢٦١ .
المعز أليك التركالى ٢٦٥ .
المعز بن باديس ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .
المعز لدين الله ٢٢ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ،
٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
٧٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ،
٩٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٨٧ ،
٣٥٤ ، ٣٨٣ ، ٤٢١ .
معضاد الخادم الأسود ، القائد الأجل عز الدولة
وسنانها ١١٩ .
معين الدين أنر ٢٠٣ .
المقدسى الجغرافى ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٢٤ .
المقريزى المورخ ، تقي الدين أحمد بن على
٣٤ ، ٣٧ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ،
١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٧٠ .

- ١٩٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٣٥٧ ، ٢٧٧ ،
 ٢٨٦ ، ٣٠٦ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٣٥٥ ،
 ٣٦٥ ، ٣٨٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٩ .
- ملهم القائد ٢١١ .
- ابن مَنَاقٍ صاحب قوانين اللواوين ٢٥٦ ،
 ٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ .
- أبو المنجا شلومو بن شعيا ٢٩٤ .
- مِنْشَا بن إبراهيم القَزَاز ٩٢ .
- المنصور بالله الفاطمي ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ .
- أبو منصور بن سورين كاتب الإنشاء ٩٩ .
- منصور بن عبدون الكالي ٢٥٤ .
- منصور اليمن بن حوشب = الحسن بن فَرَح .
- موسى بن صدقة التاجر اليهودي ٣١٢ .
- موسى بن العازار طبيب المعز ٩٠ .
- موسى الكاظم ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ .
- المهدي لدين الله الفاطمي ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ،
 ٣٥ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ .
- المؤمن بن البطائح ١٧٣ .
- مؤمن الخلافة ٢٣٥ .
- الموفق محمد بن معصوم التيسبي ٢٠٥ .
- مؤنس الخادم ٥٨ .
- المؤيد في الدين الشيرازي ، داعي الدعوة ١٢١ ،
 ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ .
- ابن مُيَسَّر المؤرخ ، محمد بن علي بن يوسف
 ابن جلب راغب ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
 ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ،
 ١٩٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،
 ٣٠٤ .
- النابلسي صاحب تاريخ القيوم ٢٥٦ .
- ناصر الجيوش يانس ١٨٤ .
- ناصر خسرو الرحالة الفارسي ١٣٥ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٤ ، ٣٢٤ ، ٣٤٢ ، ٣٣٤ ، ٣٦٦ ،
 ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٢٢ .
- ناصر الدولة أفتكين التركي ١٥٥ .
- ناصر الدولة بن حمدان ١٣٨ ، ١٣٩ .
- ناصر الدين الأوحدي إبراهيم أخو رضوان
 ابن ولختشي ١٩٦ .
- أبو النجاح بن قنا الراهب ١٧٤ .
- نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ٢٤٢ .
- نزار بن المستنصر ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .
- نصر بن عباس الوزير ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 ٢١٥ .
- نظام الملك الوزير السلجوقي ١٣٤ .
- ابن النديم ، محمد بن اسحاق ٣٤ .
- التونجتي ٣١ ، ٣٤ .
- نور الدين عمود ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ،
 ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ .
- النويري صاحب نهاية الأرب ١٧٨ ، ٣١٩ .
- هارون الرشيد ٣١ .
- هارون بن سهل التستري ، أبو نصر ١٣٦ .
- هلال الصائغ ١١٦ .
- ابن واسول ، أمير سجلماسة ٦٣ .
- والدة المستنصر ١٣٥ ، ١٣٩ .
- يانس الأرمني ، أبو الفتح ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٥٣ .
- يحيى بن سعيد الأنطاكي ١١٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
- ياروختكين العضدي ١١٥ .
- اليازوري = الحسن بن علي بن عبد الرحمن .
- يعقوب بن كِلْس ٦٦ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٩٠ ،
 ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٢٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ،
 ٣٢٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

- أبو اليمن وزير بن عبد المسيح ١٦٢ .
 يوحنا الراهب ، مهندس سور القاهرة ٤٠٠ .
 يوحنا بن أبي الليث ، ولي الدولة أبو البركات
 النصراني ١٦١ ، ٢٦٢ .
 يوسف بن أبراهام التاجر العدلي ٣١١ .
 يوسف بن بُلْكِين الصنهاجي ٨٨ .

٢ - الأماكن والمواقع والبلدان

- أبواب القاهرة ٣٩٩ .
 أجنادية ٧١ .
 الأحساء ٥٤ .
 أحميم ١٩٦ ، ٣٤٩ .
 الأديرة البيض ١٩٦ .
 الإسكندرية ٧٤ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ،
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
 ٣٠٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٦٧ .
 إسنا ٨٤ .
 أسوار القاهرة ٣٩٩ .
 أسوان ٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٠٤ .
 أشموم ١٥١ .
 الأشمونين ٢١٤ ، ٢٢٧ .
 أطفيح ٢٢٧ .
 أعمال الشرق ١٢١ .
 إفريقية ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ،
 ٦٦ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ٩٢٠ ، ٩٥ ، ٩٧ ،
 ١٢٨ ، ١٣٠ .
 إقريطش (كريت) ٦٩ .
 الأقصر ٨٤ .
 أمالفي ٣٠٢ .
 الأندلس ٥٣ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٩ .
 الأهواز ١٢١ .
 إيران ١٢٩ ، ١٣٠ .
 إيطاليا ٥٧ .
 إيكجان ٤٩ .
 الإيوان بالقصر ١٥٣ ، ١٦٨ .
 باب البرقية ٣٩٩ ، ٤٠٠ .
 الباب الجديد ٣٠٦ .
 باب الذهب ٢١٢ ، ٢٧٥ .
 باب زويلة ١٧١ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٣٥ ،
 ٣٠٦ ، ٣٩٩ .
 باب الصفا ٣٠٦ .
 باب الفتوح ١٠٠ ، ١٩٣ ، ٣٩٩ .
 باب القنطرة ٨٦ .
 باب مجلس اللعبة بالقصر ١٦٨ .
 باب مراد ١٦٢ .
 باب النصر ٢٨٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ .
 بالرم ٤١٠ .
 باتياس ١٦٣ ، ٢٢٥ .
 البجة ٨٣ .
 البحر الأحمر ٧٠ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣١١ .
 البحر الأنضلى (خليج أبي المتجا) ٢٩٤ ،
 ٢٩٥ .
 البحر المتوسط ٥٧ ، ٧٠ .
 البحرين ٥٤ .
 البحيرة ١٤٣ .
 برقة ٥٩ ، ٦٩ ، ٧٠ .
 بركة الحبش ٨٦ ، ٤٠٩ .
 بستان البعل ١٧١ .

- البستان الكافورى ١٦٢ .
 البصرة ١٢١ .
 بغداد ٣٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ،
 ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
 ١٥٠ ، ٢٩٩ .
 بلاد الروم ١٠٢ .
 بلاد الشام ٩٤ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٣٠ .
 = الشام .
 بلاد فارس ١٥٧ .
 بليس ١٥١ .
 البهنسا ٢١٤ .
 بيت الحكمة ببغداد ٣٨٥ .
 بيت المقدس ٩١ ، ١٠٢ ، ١٥٩ ، ٢٠٢ ،
 ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ .
 بيروت ١١٧ ، ١٦٣ ، ٢١٠ ، ٢١٧ .
 البيضاء بليبيا ٧١ .
 بين القصرين ١٩١ .
 التاج ، منظره ١٧١ .
 تالا ٤٥ .
 تاهرت ٥٦ ، ٦٣ .
 تبنين ١٦٣ ،
 التربة المعزية بالقصر ١٣٨ .
 تل باشر ١٩٣ ، ١٩٦ .
 تنيس ٨٧ ، ١٤٤ ، ٣٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٤٦ ،
 ٣٤٧ .
 توزر ٤٩ .
 الجامع الأزهر (جامع القاهرة) ١٠٩ ، ٢٣٨ ،
 ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩١ .
 جامع الأقمر ١٧٢ ، ٣٩١ .
 الجامع الأنور (جامع الحاكم) ١٠٠ ، ١٧٢ ،
 ٣٩١ ، ٣٩٠ .
 جامع الحاكم (الجامع الأنور) ١٠٠ ، ١٠٩ ،
 ٣٩٠ .
 جامع الخطبة (جامع الحاكم) ٣٩٠ .
 جامع راشدة ١٠٠ ، ١٠٩ .
 جامع الصالح طلائع ٢١٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ .
 جامع ابن طولسون ٧٩ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ،
 ٢٠٤ ، ٢٧٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ .
 جامع عمرو بالفسطاط ٧٩ ، ١٠١ ، ١٧٥ ،
 ٣٠١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ .
 جامع القاهرة (الجامع الأزهر) ٧٩ ، ٣٨٣ ،
 ٣٨٩ .
 جامع القرافة ٤٠٩ .
 جامع القسطنطينية ١٢٢ ، ١٢٧ .
 جامع المقس ١٠٠ ، ١٠٩ .
 جامع المهدي ٣٨٨ ، ٣٩٠ .
 جبيل ١٦٣ .
 جدة ٣١٠ .
 جزيرة دهلك ٣١١ .
 حارة برجوان ٢٤١ .
 حارة الجودرية ١٠٣ .
 حارم ٢٢٥ .
 الحبس الجيوشى ٣٦٠ .
 الحجاز ٨٦ ، ١٢٥ ، ١٣٣ .
 الحرمان الشريفان ١٢١ .
 الحسينية ١٩٣ .
 حلوان ١١٦ .
 حلب ٨٥ ، ١٢٢ ، ٢١٠ .
 حوران ٢٠٣ .
 الحوف ٢٠٩ .
 خراسان ٣٤ .
 خزانة البنود ١٧٤ .

- خزانة الكسوة ٣٧٥ .
خط الرفائين ٣٠٢ .
الخليج الفارسي ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٩٨ .
خليج أبي المنجا ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
الخمسة وجوه (منظر) ١٧١ .
الخنديق ٨٦ .
الدار الأمرية ١٦٩ .
دار جعفر الصادق بالمدينة ١١٥ .
دار الحكمة (دار العلم) ١٠١ ، ١٠٢ ، ٣٨٤ .
دار الدياج ٤١١ .
دار الذهب ١٧١ .
دار سعيد السعداء ٢٣٨ .
دار صناعة الجزيرة ٢٨٧ .
دار صناعة الفسطاط ٢٨٧ ، ٢٨٩ .
دار صناعة المنقش ٢٨٧ ، ٣٠٣ .
دار صناعة المهدية ٢٨٧ .
دار الطراز ٢٧٣ ، ٣٧٦ .
دار العلم (الحكمة) ١٠٩ ، ١٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ .
دار الغزل ٢٣٨ .
دار القطرة ٣٧٣ ، ٣٨٠ .
دار الكسوة ٣٧٣ .
دار مانك بالفسطاط ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
دار المظفر ٢٤١ .
دار الملك بالفسطاط ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ .
دار المعونة بالفسطاط ٢٣٨ .
دار التعمان بالقرافة ٤٠٩ .
دار الوزارة ١٩٨ ، ٢٣٣ .
دار وكالة ٣٠٥ .
دار وكالة القاهرة ٣٠٥ ، ٣٠٧ .
دمشق ٨٥ ، ٩٤ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٣٣ ، ٢٢٨ .
٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢٣٦ .
دمياط ١٤٤ ، ٢٣٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٢ ، ٣٤٦ .
رأس الجسر ١٦٣ .
رقادة ٤٩ ، ٥٧ ، ٧١ .
الركن المخلق ١٧٢ .
الرملة ٨٥ .
الرها ٤٠٠ .
زقاق القناديل بالفسطاط ١٤٠ ، ٢٦٩ ، ٣٠١ .
سبتة ٦٣ .
سجلماصة ٤٩ ، ٦٣ ، ٣١٧ .
السردوسي ٢٩٤ .
سردينية ٦٩ .
سلمية ٣٨ ، ٤٧ ، ٤٩ .
سمناي ٤٢٠ .
سوجمار ٤٦ .
سور القاهرة ١٥٠ .
سوق القناديل ٤٢٢ .
السيوفين ٢١٢ ، ٢١٣ .
شاطئ الخليج ١٧١ .
الشام ٥٨ ، ٨٥ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٥٦ .
الشرق ٥٦ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢١ .
الشرق الأقصى ٧٠ ، ١٢٩ .
الشرقية ١٥٠ ، ٢١٧ .
شطا ٣٢٤ .
الشمال الإفريقي ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ١٢٥ ، ٢٥٦ .
الشوبك ٢١٧ .
صالة ٦٣ .
صيرة التنصورية ٦١ ، ٢٨٨ .
الصعيد ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ٢٢٧ .

- صقلية ٥٧ ، ٦٩ ، ٨٨ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ٤١٠ .
 الصمصم ٢٩٤ .
 صَهْرَجَت بالشرقية ١٤٦ .
 صور ١٦٣ ، ٢٨٨ .
 صيدا ١١٧ ، ١٦٣ ، ٢١٠ .
 طبرستان ٥٤ .
 طُرا جنوب القسطنطينية ١٩٣ .
 طرابلس الغرب ٥٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ١٦٣ .
 عدن ١٣١ ، ١٨٩ ، ٣١٠ ، ٣٤٦ .
 عدن أبين ٤٣ .
 عدن لاعة ٤٣ .
 العراق ٦٦ ، ٩٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ .
 عرقة ١٦٣ .
 عسقلان ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٨٨ .
 العسكر ١٤١ ، ١٤٥ ، ٣٠٦ .
 عكا ١٤٤ ، ١٦٣ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٨٨ .
 علوة ٨٣ .
 عُمان ١٢٩ .
 عَيْلَاب ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥١ ، ٢٩٠ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣٤٦ .
 عين شمس ١٢٠ .
 غانا ٣١٧ .
 الغريبة ١٥٠ .
 غَزَّة ١٢١ .
 غزة ٢١٧ .
 فارس ١٢١ ، ١٥٩ .
 فانس ٥٦ .
 فخ ٣٠ .
 الفرع اليلوزي ٢٩٥ .
 الفرما ٨٧ ، ١٦٤ ، ٢١٠ ، ٢٨٥ .
 القسطنطينية ٧٥ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ٢٣٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٨٨ ، ٤٢٢ ، ٣٨٩ .
 فلسطين ١٢٢ ، ١٣٣ ، ٢١٥ .
 قاعة الذهب ١٧١ ، ١٧٣ .
 القاهرة ٦٢ ، ٧٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٩٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٦٥ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ .
 قبر الإمام الشافعي ٨٦ .
 قبر السيدة نفيسة ٦٤ .
 قبر كافور ٨٧ .
 قبر كلثم ٦٤ .
 قبر النبي ﷺ ١١٣ .
 قبة الهواء (منظر) ١٧١ .
 القرافة ٨٦ ، ١٨٥ .
 قرطبة ٥٣ .
 القسطنطينية ٥٣ ، ١٢٢ ، ١٢٧ .
 قسطنطينية ٤٩ .
 قصر سيادة الملك ١٠٨ ، ١١٨ ، ٢٨٠ ، ٤٢٤ .
 القصر الفاطمي الكبير ٩٨ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، ١٦١ ، ٣٠٤ ، ٣٨٩ .

- القصور الزاهرة ٣٨٩ .
 القطائع ١٤١ ، ٣٠٦ .
 القلزم ٨٧ ، ٢٨٥ .
 قلوب ١٤٤ ، ١٥١ .
 قوص ١٣١ ، ١٥٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٠ .
 القديوان ٥٦ ، ٥٧ .
 الكابلا بلاتينا ٤١٠ .
 كُجرات (الهند) ١٢٩ .
 الكرخ ٥٤ .
 كرسى الجسر ١٧٥ .
 كنيسة الزهرى ١٩٤ .
 كنيسة قمامة (القيامة) ١٠٢ ، ١٢٢ ، ١٢٧ .
 كنيسة مارى جرجس ١٩٤ .
 كنيسة مرقورة ٩١ .
 الكنيسة المعلقة بقصر الشمع ٩١ .
 الكوفة ١٢١ .
 ليبيا ٧١ .
 مارستان قلاوون ٤٢٤ .
 متحف الشحات بليبيا ٧١ .
 المَحَوَّل بالقصر ١٠٧ ، ٢٧٧ ، ٣٦٧ ، المحيط الهندى ٧٠ .
 المدرسة التقوية ٢٣٨ .
 المدرسة الحافظية ٢٠١ ، ٣٨٧ .
 مدرسة العادل بن السلار ٢٠١ ، ٣٨٧ .
 المدرسة العوفية ٢٠١ ، ٣٨٧ .
 المدرسة القمحية بالفسطاط ٢٣٨ .
 مدفن شجر الدر ٤٢٩ .
 المدينة النبوية ٩٥ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ .
 مرماجنة ٤٥ .
 مسجد تير ١٢٠ .
 المشاهد ٢٧٥ .
 المشرق ٦٩ .
 الموصل ٩٧ .
 المشاهد ٣٩٩ .
 مشهد إخوة يوسف ٣٩٩ .
 المشهد البحرى ٨٤ .
 مشهد الجيوشى ٣٩٩ .
 مشهد السيدة رقية ٣٩٩ .
 مشهد السيدة سكينة ٣٩٩ .
 مشهد عاتكة والجعفرى ٣٩٩ .
 المشهد القبلى ٨٤ .
 مشهد اللؤلؤة ٣٩٩ .
 المشهد النفيسى ١٧٢ ، ٣٠٦ .
 مصلى القاهرة ٧٩ .
 المغرب الأقصى ٥٩ ، ٦٤ .
 المغرب الأوسط ٦٩ .
 المقس ٨٦ ، ٢١٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ .
 المقطم ١١٦ .
 مكة ٣٠ ، ٩٥ ، ١٤٦ .
 منارة الطاية ٨٤ .
 منازل العزّ بالفسطاط ١٣٩ ، ٢٣٨ .
 المنّخر ٢٧٤ .
 منزل الرسول ١١٤ .
 منظره اللؤلؤة ١٦٢ ، ١٧١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٤ .
 ٣٦٩ .
 منظره المقس ٢٨٩ .
 المهديّة ٥٧ ، ٧٠ ، ٣٨٨ .
 ميدان الإخشيد ٨٦ .
 النبوية ٨٣ .
 الهند ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
 الهودج بجزيرة الروضة ١٧٧ .
 الواحات ٢٢٠ .

- وادی العلاق ٣١٧ .
وادی النيل ٥٩ .
الوجه البحرى ٧٧ ، ٢٤٥ .
الوجه القبلى ٧٧ .
يافا ٢١٠ .
البحر ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٧٠ ،
٩٧ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٤٨ ،
١٨٨ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٧٤ .

٣ - المصطلحات وأسماء الدواوين

- الأئمة المستورون ٣٢ ، ٣٣ .
الإباضية ٥٥ .
الأببال ٢٠٩ .
أبواب الغزاة (إقطاعات رجال الأسطول)
٢٨٩ .
الحماس ٣١٢ .
الإثنا عشرية ٣٠ ، ٤١ ، ٤٣ .
الأجناد المركزية ٢٨٥ ، ٢٨٦ .
الأحياس ٣٢٥ ، ٣٥٧ .
الإحياء السننى ١٣٣ .
الأخشاب ذات الزخارف المحفورة ٤٢٣ .
الأراضى البيضاء ٢٩٣ .
الأراضى الشتوية ٢٩٣ .
أرباب الإيجاب ٢٨٥ .
أزمة الخنطة سنة ٤١٥ ١٣٩ .
الإستيجار ٢٦١ ، ٢٩٠ ، ٣٧٢ .
الأسطول ٢٨٧ ، ٢٨٩ .
أسطول سوسة ٧٠ ، ٢٨٧ .
الأسطول الفاطمى ٢٨٨ ، ٣١١ .
أسكوب المحراب ٣٩٢ .
الإسماعيلية = الحركة الإسماعيلية .
الإسماعيلية الجديدة ١٥٦ ، ١٥٧ .
الإسماعيلية الخالصة ٣١ .
الإسماعيلية الواقعة ٣١ .
الإسماعيلية النزارية ١٧٢ .
أسمطة الأعياد ١٦٩ .
إضبارة ج . أضابير ٣٢٦ .
إقطاع الارتقاء ٣٣١ .
إقطاع الاستقلال ٣٣٠ .
إقطاع الاعتداد ٢٨٣ ، ٢٨٧ .
إقطاع التملك ١٣١ .
الإقطاع الجيشى ٢٨٣ ، ٢٨٦ .
إمارة تاهرت ٣١٧ .
الإمام (الإمامة) ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،
٢٨٢ ، ٢٥٤ .
الإمام المستودع ١٧٨ ، ٢٤٩ .
الإمام المنتظر ٢٤٩ .
أمان ج . أمانات ١٠٦ .
أمان جوهر ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٣٥٤ .
إمبراطور بيزنطة ٩٧ ، ١٢٢ ، ١٢٧ .
الإمبريالية الفاطمية ٧٠ .
أمرء مكة ١٢١ .
إمرة الجيوش ١٤٨ .
الأموال الهلالية ٣٢٣ .
= المال الهلالي .
أمير الجيوش ١٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٢ .
وانظر بئر الجمال فى فهرس الأعلام .
الإنفاق الواجب ٢٨٣ .
أوراق التسقيع ١٧٣ .
أوراق جنيزة القاهرة ٢٣ ، ٢٤ ، ١٠٣ ،

- الجنيزة = أوراق جنيزة القاهرة . ١٣١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٦٨ .
 أوراق قينا ٣٣٨ .
 إيجاب المشاهرة ٢٨٣ .
 بذلة ج . بدلات ٣٧٣ .
 البراطيل ٨٠ ، ٢١٦ .
 البَقَط ٨٣ .
 بلاد مُقَوَّرَة ٣٣٣ .
 البلور الصخرى ٤٢٢ .
 البنود ١٠٨ .
 البهرة ١٣١ .
 البويهيون ٥٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨٥ .
 بيت ابن عوكل ٣٠٨ .
 تجارة العبور ٣٠٣ .
 التجارة الكارمية ١٣١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ .
 تجارة الهند ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ .
 التصوير ٤٠٩ .
 التعريفات ٣٤٧ .
 التقية ٣٥ ، ٣٦ .
 تنظيم الدعاة ٥٣ .
 الثياب البيض ، شعار الفاطميين ٧٨ .
 الجالية ج . الجوالى ٣٢١ ، ٣٣٦ .
 = الجزية .
 جرائد كسوة الشتاء ٣٧٤ .
 الجراية ٢٨٤ ، ٢٨٦ .
 الجزية ١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ ، ٣٣٨ .
 = الجالية .
 الجسور البلدية ٢٩٢ .
 الجسور السلطانية ٢٩٢ .
 الجنيزة = أوراق جنيزة القاهرة . ١٣١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٦٨ .
 الجهبذ ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ .
 الجيش ٢٤٧ .
 الجيش البويهى العباسى ٢٧٩ .
 الجيش البيزنطى ٢٧٩ .
 الجيش الفاطمى ٢٨٠ .
 حارة ج . حارات ٢٨١ .
 حاشر ج . حشار ٣٣٩ .
 حجة وقف الوزير الملك الصالح طلائع ٣٦٠ .
 الحركة الإسماعيلية ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٦٠ ، ٣١٣ .
 الحسبة ٨٠ .
 الحق الإلهى فى الحكم ٧٤ .
 حَلَق الحُثُث ٣٤٧ .
 حُلَّة ج . حُلَل ٣٧٣ .
 الحمدانيون ٦٤ ، ٨٥ .
 الحياض ، رى ٢٩١ ، ٢٩٢ .
 تحفة ج . ختم ٣٤٠ .
 الخراج (ضريبة الأرض) ٦٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٤٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .
 خراجى البساتين ٣٢١ .
 خراجى الزراعة ٣٢١ .
 خرج الإيجاب ٢٨٦ .
 خرج مفرد ٢٨٦ .
 الخزف ذو اليريق المعدنى ٤١٥ .
 خطبة العباسيين ٧٧ .
 خطبة الفاطميين ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
 خطبة الفاطميين بمكة والمدينة ١٤٥ .
 الخلافة الأموية ٥٣ .
 الخلافة العباسية ٩٤ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٩٨ .

- الخلافة الفاطمية ٥٣ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ .
 خَلْع الوزارة ١٥٣ ، ١٩٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
 خَلْعَة جـ . خَلْع ٣٧٣ .
 الخلفاء العباسيون ١٥٠ .
 الخُمس (عند الإسماعيلية) ١٠٧ ، ٣٢١ .
 الخُمس الرومى ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ .
 الخوارج ٥٥ .
 = الإباضية .
 الصفرية .
 دار الضرب بالقسطاط ٧٨ ، ١٦٩ .
 دار الضرب بالقاهرة ٣٠٧ .
 دار الضرب المصرية ٣١٨ ، ٣٦٢ .
 دار العيار ٣٦٢ .
 داعى الدعاة ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ .
 درقة حمزة بن عبد المطلب ١١٥ .
 الدعاة ١٣٣ .
 الدعاة الدروز ١١٠ ، ١١٢ .
 دعاة الفاطميين ٦٤ ، ٧١ ، ١٢١ .
 الدعوة الإسماعيلية ٢٩ ، ٢٩٩ .
 الدعوة الطيبة ١٨٤ .
 الدعوة العباسية ١٣٨ .
 الدعوة الفاطمية ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٥٩ ، ١٥٤ .
 دفتر المجلس ٢٦٠ .
 دليل جـ . أدلاء ٣٣٤ ، ٣٣٩ .
 دهليز القصر ٢١٩ .
 دولة الإدارة ٤٤ ، ٥٦ .
 الدولة الأغلبية ٤٩ .
 الدولة البيزنطية ٥٣ .
 الدولة الرسمية ٥٦ .
 ديماس (نوع من العشاريات) ٢٨٨ .
 الدينار الأبيض ٨٢ .
 الدينار الراضى ٨٢ .
 الدينار الفاطمى ٣١٧ .
 الدينار المعزى ٨١ ، ٨٢ .
 ديوان الأحباس ٢٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ .
 ديوان الاستيفاء على الأعمال الشرقية ٢٦٧ .
 ديوان الاستيفاء على الثغور المحروسة ٢٦٧ .
 ديوان الاستيفاء على الصعيدين الأعلى والأدنى ٢٦٧ .
 ديوان أسفل الأرض ١٦٢ ، ٢٦٧ .
 ديوان الإقطاع ٢٦٧ ، ٢٨٦ .
 ديوان الإقطاعات المرتجعة ٢٦٧ .
 ديوان أم الخليفة المستنصر ٢٥٧ .
 ديوان الإنشاء ١٤٤ ، ١٩٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ .
 ديوان الإنشاء والمكاتبات ١٦١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ .
 ديوان الأولياء الكبار ٢٥٧ .
 ديوان البريد ٢٥٧ ، ٢٥٩ .
 ديوان التحقيق ١٦١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ .
 ديوان الترتيب ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .
 ديوان الجهاد ٢٦٧ ، ٢٨٩ .
 ديوان الجوالى ٢٦٥ .
 ديوان الجيش ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ .
 الديوان الخاص ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ .
 ديوان الخراج ٢٥٧ .
 ديوان دمشق ٢٥٧ .
 ديوان الرسائل ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٣٢٦ .
 ديوان الرواتب ٢٦١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ .
 ديوان الزكاة ٢٦٥ .

- ديوان الزمام ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
 ديوان الشام ٢٥٧ .
 ديوان الطهاوية ٢٥٧ .
 ديوان العرائف ٢٥٧ .
 ديوان العرض ٢٨٦ .
 ديوان العمائر ٢٨٩ .
 الديوان الفرحي ٢٥٧ .
 ديوان الكتامين ٢٥٧ .
 ديوان المجلس ١٦٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣٢٠ .
 الديوان المرتجع ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٣٥١ .
 الديوان المفرد ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٣٥٢ .
 ديوان الموارث الحشرية ٣٥٥ .
 ديوان النظر ١٩٩ ، ٢٦١ .
 ديوان النفقات ٢٥٧ .
 الذؤابة ١٤٥ .
 ذو الفقار ، سيف على بن أبي طالب ١١٥ .
 الرباع السلطانية ٣٤٤ ، ٣٤٧ .
 رُبْع جـ . الرباع ٣٢٢ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
 رسم التوفير ٣٤٧ .
 رسم الختمة ٣٤٨ .
 رسم الضيافة ٣٤٨ .
 رسم الطعمة ٣٤٨ .
 رسوم الدولة الفاطمية ١٧٠ .
 روزنام ٣٤٠ ، ٣٧٢ .
 الروك الأفضلى ٣٣٤ .
 رئيس الأسطول ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
 الزكاة ٧٥ ، ١٠٧ ، ٣٢١ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ .
 الزيليون ٥٤ ، ٢٤٩ .
 سجل جـ . سجلات ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ .
 ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ،
 ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٢ .
 السجل المنشور ٢٥٧ ، ٢٥٩ .
 سجلات التحضير ٣٣٤ ، ٣٣٥ .
 السفارة ١٠٠ .
 السكة ٧٧ ، ١٠٨ .
 السكة الحمراء ٧٨ .
 سيماط جـ . أسبِطة ١٦١ ، ٣٦٩ ، ٣٧٧ .
 السواد ، شعار العباسيين ٧٧ .
 سيف جعفر الصادق ١١٥ .
 سيف الحسين بن علي ١١٥ .
 شاهد جـ . شهود ٣٣٥ .
 شاهد الخمس ٣٤٦ .
 شِخْنة الفرغ ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
 الشُدَّة الدانية ٣٣٥ .
 الشُدَّة العُظمى ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٦٥ ، ١٧١ ، ٢٩٤ ، ٣٦٦ .
 شدة الوقار ٢٧٥ .
 شلندى جـ . شلنديات ٢٨٨ .
 شينى جـ . شوانى ٢٨٨ .
 صاحب الباب ٢٢١ .
 صاحب دفتر المجلس ٢٦٠ .
 صاحب صقلية ١٢٢ .
 صاحب الطراز ٤١١ .
 الصفرية ٥٥ .
 صناعة السكر ٢٩٧ .
 صناعة النسيج ٢٩٧ ، ٤١١ .
 صناعة الورق ٢٩٧ .
 الصنج الزجاجية ٤٢١ .
 الصنج المعشقة ٤٠٠ .
 الضرائب ٣٢٠ .
 الضمان ١٩٩ ، ٢٦١ ، ٢٨٦ ، ٣٢٤ ،

- ٣٢٦ ، ٣٢٥ .
 الطائفة المهدية ١٩٠ .
 الطراز ٦٢ ، ٤١٢ .
 الطوائف الإسلامية ٣١٣ .
 الطوائف الحرفية ٣١٣ ، ٣١٤ .
 الطوائف المهنية ٣١٤ .
 الطيبة ١٨٨ .
 الطيلسان المقور ١٤٥ .
 عامل الجوالى ٣٣٨ .
 عامل الخمس ٣٤٦ .
 القبرة ٣٣٩ .
 القرصة ٣٤٨ .
 عرفاء الأسواق ٣١٥ .
 عرفاء الخبازين ٣١٦ .
 عرفاء السقائين ٣١٦ .
 عرفاء العيد ٣١٦ .
 عريف ج . عرفاء ٢٨٢ ، ٣١٥ .
 عشاري ج . عشاريات ٢٨٤ ، ٢٨٨ .
 العشر ٣٤٩ .
 عصر نفوذ الوزراء ١٤٧ .
 العقد المنظوم بالجوهر ١٤٥ .
 العقيدة الإسماعيلية ١٥٤ ، ١٥٥ .
 العمارة الأرمنية ٤٠٠ .
 العمل ٣٤٠ .
 العهد العمرى ١٠٥ .
 عيد الحُلل ٣٧٤ .
 غدير نَحْم ٢٧٤ .
 الغيار ١٠٢ .
 الفِطْرَة ١٠٧ ، ١٦١ ، ٣٤١ ، ٣٦٧ .
 قاضى القضاة ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ .
 القائد (لقب المأمون البطائحي) ١٦١ .
 قائد ج . قواد ٢٨٢ .
 قبالة الأراضى ٨١ ، ٨٢ ، ٢٨٦ ، ٣٢٨ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ .
 قبالات المناجزة ٣٣٠ .
 القراض ٣١٢ .
 القرامطة ٤٧ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ .
 القصب الملون ٤٠٠ .
 القضيض (راتب) ٢٨٤ ، ٢٨٥ .
 قماش البوقلمون ٤١١ .
 القُنْداق ٣٣٥ .
 القوف (رسوم جمركية) ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
 كاتب الخمس ٣٤٨ .
 كاتب الدفتر ٣٧٤ .
 كاتب ديوان الجيش ٢٨٩ .
 الكارم ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ .
 = التجارة الكارمية .
 اللباس الجُمعى ٣٧٤ .
 مَأْتَم عاشوراء ٥٤ .
 ماسح ج . مَسَاح ٣٣٥ .
 المال الخراجى ٣٢١ ، ٣٢٦ .
 المال الهلالى ٣٢١ ، ٣٣٦ .
 المتجر ٣٤٩ .
 المتجر الديوانى السعيد ٣٤٩ ، ٣٥٠ .
 المتقبلون ٣٩٢ .
 متولى الرُّبْع ٣٤٣ .
 مجالس الحكمة ١٠٧ ، ١١٢ ، ٢٧٧ .
 مجالس الدعوة ٢٣٨ .
 مجلس أصحاب الدواوين ٢٦٥ .
 مجلس العطايا بدار الملك ١٦١ .
 المجيدية ١٨٨ .
 المحتسب ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .
 المَحْضَر (العباسى) ١٢٦ ، ١٥٩ .
 مخزومة ج . مخازيم ٣٤٠ ، ٣٤٤ .

- المدارس ١٣٤ ، ٣٨٧ .
 مذبح القلعة ١٤٤ .
 المذهب الإسماعيلي ٨٩ ، ٩٠ ، ١٣٥ .
 المذهب الأشعري ١٣٣ ، ٢٣٩ ، ٣٨٧ .
 المذهب المالكي ١٢٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .
 مذهب المعتزلة ١٣٣ .
 المراعي (مال) ٣٢٢ .
 المرافق والمعاون ٣٢٢ .
 المراكب الخمسية ٣٤٨ .
 مراكب الكارم ١٥١ ، ٢٩٠ .
 المزارعة ٣٢٩ .
 المساحة بالبراق ٣٢٩ .
 المستعلية ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٨٦ .
 المستوى ٢٨٩ .
 مسطح ج . مسطحات ٢٨٨ .
 مشارف الجوالى ٣٣٨ .
 مشارف الخمس ٣٤٦ .
 المشكاوات المومة بالمينا ٤٢٢ .
 المصادرة ج . المصادرات ١٧٥ ، ١٨٠ ، ٣٥١ .
 المصنوعات الزجاجية ٤٢١ .
 مطابخ السكر ٢٩٧ .
 مطابخ الورق ٢٩٧ .
 معركة البابين ٢٢٧ .
 المفادنة ٣٣٥ .
 المقاسمة ٣٢٩ .
 مقدم الأسطول ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
 مقدم خزانة الكسوة الخاص ٣٧٥ .
 المقرنصات ٣٩٢ .
 المكس ج . المكوس ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ .
 ٣١٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٤٥ .
 مكلفة ج . مكلفات ٣٣٥ ، ٣٣٦ .
 ملطف ج . ملطفات .
 الملك الصالح ٢٥٤ .
 مملكة بيت المقدس ٢٢٥ .
 المملكة اللاتينية ٢١٧ ، ٢٢٣ .
 المناجرة ٣٣٥ .
 متدبل الكم ١٦٦ .
 منشور ج . منشور ٢٥٦ ، ٢٢٥ ، ٣٣٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ .
 الموارد الشرعية ٣٢١ .
 الموارد غير الشرعية ٣٢٢ .
 الموارث ٧٦ .
 الموارث الحشرية ٣٥٣ ، ٣٥٧ .
 مودع الحكم ٢٦٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ .
 ناظر الخمس ٣٤٦ .
 ناظر الدواوين ٢٦٥ .
 التجوى ١٠٧ ، ٢٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٦٧ .
 النزارية ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .
 النص ٢٤٩ .
 نظر الدواوين ٢٦٢ .
 وثائق الجنيزة = أوراق الجنيزة .
 وثائق دير سانت كاترين ١٨١ .
 واجب النمة ٣٤٩ .
 والى الشرقية ١٥١ ، ٢٨٥ .
 والى القسطنطينية ١٧٣ .
 والى القاهرة ١٧٣ .
 والى قوص ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٩٠ .
 الورق الطلحي ٢٩٧ .
 وزارة التفويض ٢٥٠ ، ٢٥١ .
 وزارة التنفيذ ٢٥٠ ، ٢٥١ .
 الوزراء أرباب السيوف ١٤٧ .
 الوساطة ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٩ ، ٢٥١ .

- | | |
|---------------------|------------------------|
| الوصية ٢٤٩ . | ولى عهد المسلمين ٢٤٩ . |
| وقعة كوم شريك ١٣٧ . | ولى عهد المؤمنين ١٥٤ . |
| وكلاء التجار ٣٠٤ . | يوم عاشوراء ٦٤ . |
| وكيل التجار ٣٠٥ . | يوم كسر الخليج ١٦٢ . |

رقم الإيداع ٧٠١٦ لسنة ١٩٩٢

الترقيم الدولي

I.S.B.N

977 — 270 — 006 — 9

مطبعة المكني
المطبعة الممرونية بمصر
١٨ شارع البلدية - القاهرة - ١١٥٨١٩١

LES FATIMIDES EN EGYPTÉ

NOUVELLE INTERPRÉTATION

par

AYMAN FÜ'ÂD SAYYID

Docteur-es-lettres

AL-DĀR AL-MIŞRIYYA AL-LUBNĀNIYYA

LES FATIMIDES EN EGYPTÉ

NOUVELLE INTERPRÉTATION

par
AYMAN EDDAD SAYYID
Docteur-es-lettres



AL-DĀR AL-MISRIYYA AL-LUBNĀNIYYA